حضارة

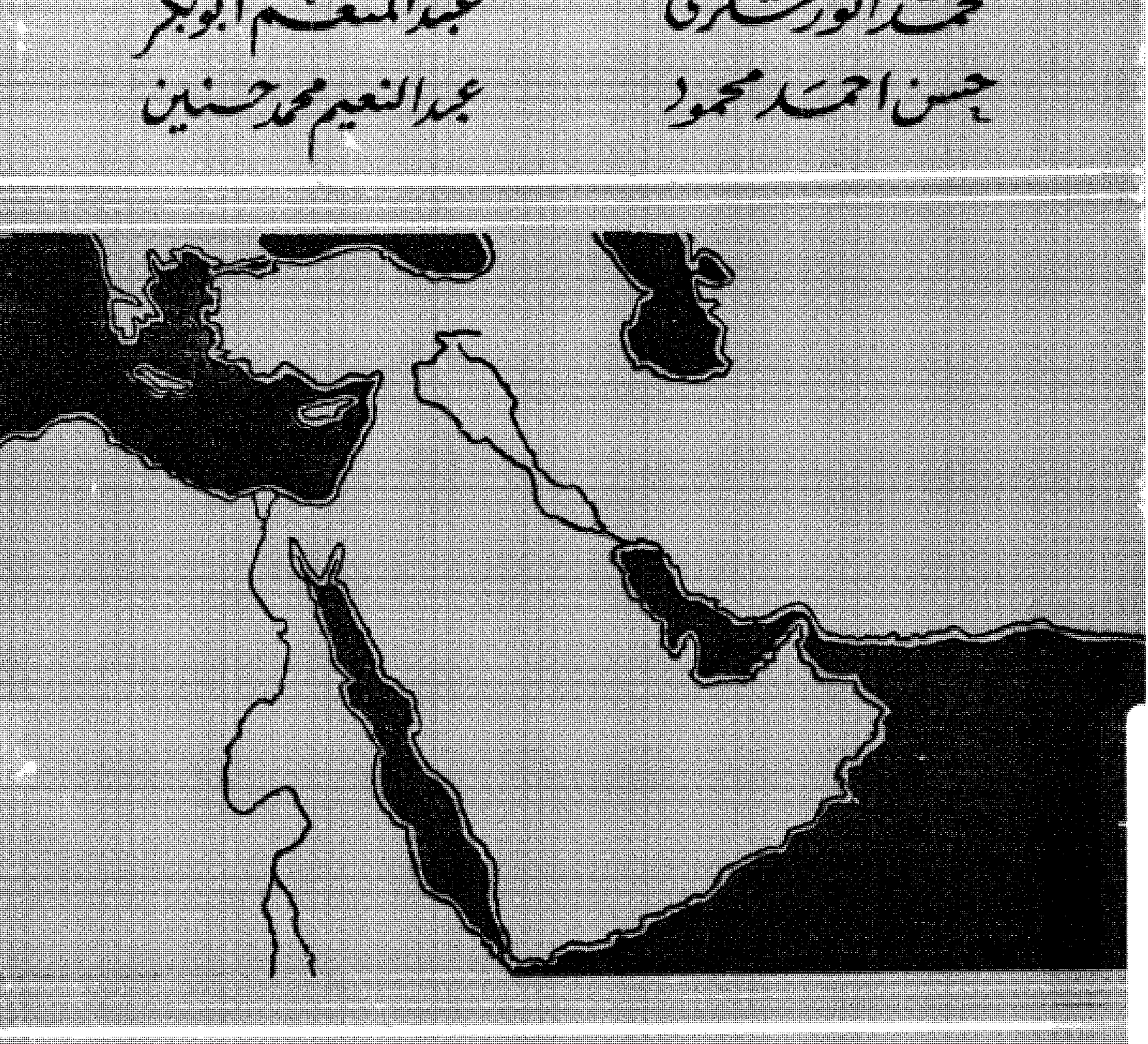
مصر والشرق القديم

تأليف الدكاترة

ابراهيم رزقانه

محمد أنور شكرى | عبد المنعم أبو بكر

حسن احمد محمود | عبد النعيم محمد حسنين



يطلب من مكتبة مصر ـ ٣ شارع كامل صدقى

حضارة مصر والشرق القديم

تأليف

الدكتور ابراهيم احمد رزقانه — الدكتور محمد أنور شكرى
الدكتور عبد المنعم أبو بكر — الدكتور حسن محمود
الدكتور عبد النعيم حسنين

يطلب من :
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقى " الفجالة "

دار مصر للطباعة
٣٢ (أ) شارع كامل صدقى " الفجالة "

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

يشتمل تعبير الشرق القديم على ما يسمى الآن بالشرقين الأدنى والأوسط وهو جزء المعمورة الممتد من بلاد اليونان غربا إلى بلاد إيران شرقا ، فيضم مصر وتركيا وأرمينيا وشبه الجزيرة العربية وميزوبوتيميا (العراق) وإيران (فارس) . ولهذا الجزء منزلة خاصة فى تاريخ البشرية فمن المرجح أن فيه نشأ أول إنسان ، ومن المقطوع به أن فى تربته نبتت أولى بذور الحضارة ، ثم امتاز هذا الإقليم بعد ذلك على سائر الأقاليم بأن فيه نزل الوحى ، ومنه خرجت الأديان السماوية الثلاثة اليهودية والمسيحية والإسلام ، وبذلك لم يعد منبعا للحضارة المادية فحسب . بل أصبح مركزاً للإشعاع الروحى كذلك . وكل متحضر فى العالم يرنو ببصره إلى المعلمين الأوائل — أهل الشرق القديم — الذين لولاهم لتأخرت البشرية آلاف السنين ، وكل متدين فى العالم يهفو بقلبه إلى مهبط الوحى ومركز النبوة ومدارج الهداية .

وقد حاول مؤلفو هذا الكتاب أن يعطوا فى صفحات قليلة عرضا سريعا لقصة الحضارة وسيرة الهداية فى الشرق القديم ، وهو واجب صعب من ناحية الحاجة إلى التبسيط ومن ناحية الحاجة إلى الإيجاز فقد كان التبسيط والإيجاز هدفنا ونحن نعرض هذه القصة التى استمرت آلاف السنين وشملت آلاف الأميال طولا وعرضا ومثلها ملايين البشر من أمم بعضها يسكن السهل الخصيب وبعضها يسكن الجبل الوعر وبعضها يسكن الصحراء المجدبة .

ومحور الحديث فى هذا الكتاب هو الحضارة Culture . على أن هذه الحضارة وصلت فى العصر الذى درسناه إلى مرتبة المدنية Civilization

فى ثلاثة أقاليم على الأقل من أقاليم الشرق القديم ، هى مصر والعراق واليونان .
وهنا لابد من التفرقة بين الحضارة والمدنية ، فالحضارة كما سنراها فى فصول
هذا الكتاب كل انتاج للإنسان مصدره العقل سواء أكان هذا الإنتاج ماديا
أو أدبيا . والحضارة عبارة عن تفاعل جماعة بشرية معينة مع بيئة طبيعية معينة
فيكون إنتاج هذه الجماعة صدى لإمكانيات البيئة الطبيعية ومقياسا لمدى جهد
الناس فى الإفادة من هذه الإمكانيات . ويدخل فى الحضارة أنواع الحرف
التى يحترفها الناس وأنواع المساكن التى يقيمونها ونظم الحكم التى يخضعون
لها ، والقوانين التى يحتكمون بها ، ونظام الأسرة الذى يرتبطون به . كما يدخل
فى الحضارة كذلك الإنتاج الأدبى من شعر ونثر وقصص وملاحم وغير ذلك ،
والإنتاج الفنى من نقش ونحت وتصوير ، هذا كله هو الحضارة .

وأما المدنية فهى طريقة حياة ، وهى بلغتنا العامية « الموضة » mode وهى
أعلى مستوى عالمى تصله الحضارة فى إقليم معين بحيث يكون علو هذا المستوى
باعثا للأقاليم الأخرى على نقل بعض مظاهرها إليها . وبينما لكل إقليم حضارة
ولكل شعب حضارة ، فليس لكل شعب مدنية ، لأن الحضارة لم تصل إلى
مرتبة المدنية إلا فى أقاليم قليلة وعند شعوب قليلة .

فمصر بين الألف الثالثة وبين الألف الثانية قبل الميلاد لم تكن ذات
حضارة فحسب بل كانت ذات مدنية أيضا . وكانت شعوب العالم المعروف
حينذاك تقلد بعض مظاهر المدنية المصرية التى كانت « موضة » ذلك العصر .
وإلا اعتبرت هذه الشعوب متخلفة عن ركب الحضارة . والشعب الذى ينقل
بعض مظاهر المدنية من شعب آخر يحتفظ فى نفس الوقت بحضارته الخاصة ،
وهذا برهان على أن الحضارة شىء والمدنية شىء آخر ، وأن انتقال المدنية من
مكان إلى آخر ليس معناه تخلى المكان الأخير عن حضارته الخاصة التى هى
خلاصة التفاعل بين عقله الخاص وبين بيئته الطبيعية الخاصة : فظاهر الحضارة
نتاج وطنى دائما ، وأما مظاهر المدنية فإنها قد تكون أجنبية بل هى أجنبية فى
أغلب الأحوال . إذ بينما الحضارة مظهر حتمى لكل الشعوب بدون تفرقة

وفى كل العصور بلا استثناء ، لايتميز بالمدنية إلا شعب واحد أو اثنين على الأكثر فى كل عصر وأمم الشرق فى الوقت الحاضر لها حضارتها الخاصة التى اصطلحنا على تسميتها « حضارة شرقية » فلها سبلها فى العمل ، ولها عقائدها الدينية وتقاليدها ولغاتها وأدبها وفنها ولكنها نقلت بعض مظاهر « المدنية الغربية » لأن الغرب فى الوقت الحاضر يشغل منزلة الشرق القديم بمعنى أن الحضارة عند بعض أممه وصلت إلى مستوى عال يغرى أمم الشرق بالأخذ عنها . فحضارة الغرب فى الوقت الحاضر « موضة العصر » يحاول الكثيرون أن يقلدوها وإلا اعتبروا متخلفين . ولكن هذا التقليد لبعض مظاهر المدنية الغربية لن ينفى أن حضارتنا شرقية ولا يمكن أن تكون غير ذلك لأن الحضارة كالنبات يتطلب تربة ملائمة وجوا ملائما وتعهدا خاصا . ومن هنا كانت الصلة بين الكلمة الأجنبية culture بمعنى حضارة وبين كلمة agriculture بمعنى زراعة . فالنبات الاستوائى إذا نقل للإقليم القطبى فمصيره الفناء ، وكذلك ظاهرة الحضارة إذا نقلت إلى بيئة لا تلائمها فمصيرها الفناء كذلك .

وهدفنا فى هذا الكتاب عرض سيرتنا الحضارية — نحن أهل الشرق — على الناس فى كتاب واحد على اختلاف العصور والموضوعات التى لابد أن يتناولها مثل هذا الكتاب . فإن كنا قد وفقنا فهو فضل من الله وحسبنا ذلك ، وإن كنا قد أخفقنا فليكن إخفاقنا حافزا لغيرنا على عرض هذه السيرة بطريقة أفضل ، وليكن نقد هذا الكتاب من المختصين عمليا عن طريق إخراج أفضل منه ، حتى يعرف شباب الشرق ما هو الشرق ومن هم أهل الشرق وما مدى دينهم على البشرية كافة .

والله ولى التوفيق ؟

مقرر الكتاب

ابراهيم احمد رزقانه

فهرس الموضوعات

صفحة

مقدمـــة :

حضـــارات ما قبل التاريخ

للدكتور إبراهيم رزقانة

الفصل الأول

توطن الحضارة بالشرق القديم

نشأة الحضارة :

الحضارة هى الإنتاج العقلى للإنسان سواء كان هذا الإنتاج مادياً أو أدبيا فجميع ما يمارسه الإنسان من نشاط سواء كان نشاطا ماديا أو أدبيا هو حضارة . فالحضارة صفة لازمة للإنسان وهى نتيجة حتمية لوصول مخه لقدر معين من القوة ، وهى صفة حتمية من صفات الإنسان على مثال العقل والنطق ، فبمجرد أن وجد للإنسان عقل ونطق وجدت له حضارة . ومن أجل هذا نستطيع أن نعرف الإنسان بأنه حيوان ذو حضارة على مثال قولنا حيوان عاقل وحيوان ناطق . فكل إنتاج العقل حضارة سواء كان إنتاجا بدائيا أو إنتاجاً راقيا . وليس هناك مجموعة بشرية من غير حضارة على الإطلاق .

وكان أول ما اتجه إليه الإنسان سد مطالبه الرئيسية الثلاثة : المأكل أولا ، والملبس ثانيا ، والمسكن ثالثاً . وهذه الأشياء الثلاثة مرتبة حسب أهميتها للإنسان .

ولو نظرنا إلى النشاط البشرى فى الوقت الحاضر نجده موجهاً أو ما زال موجهاً إلى إنتاج هذه المطالب الثلاثة . ثم ما تبقى من مجهود بعد هذه المطالب الثلاثة يصرف إلى المطالب الثانوية كالفن . أى أن المظهر الخارجى للعقل وهو ما نسميه الحضارة لم يتغير فى الحاضر عنه فى الماضى تغيرا كبيراً .

فأول مجهود لإقامة ما نسميه بالحضارة كان لسد المطالب الرئيسية للإنسان ، ثم بعد أن يفرغ من هذه المطالب الرئيسية يوجهها إلى ما نسميه المطالب الثانوية . والإنسان فى سبيل محافظته على نفسه عنى أولا بالحصول على المطالب الرئيسية ثم بعد ذلك نجد الإنسان موجها بحكم فطرته إلى المحافظة على النوع . وهذه غريزة موجودة فى كل حيوان ، فكون الأسرة . ثم نتيجة لتكوين الأسرة وجدت القرابة .. فكأن النظم الاجتماعية بدأت منذ القدم وهى عنصر أيضا من عناصر الحضارة ، ثم نتيجة لوجود عدة أسر فى مكان واحد وجد من الضرورى تنظيم العلاقات بين هذه الأسر وبين بعضها .

ففضلا عن أن الإنسان اجتماعى بطبعه فهو يحتاج إلى هذا الاجتماع للفوائد المادية ، منها

التعاون على استغلال البيئة الطبيعية والتعاون ضد الأعداء وغير ذلك . ثم أخيراً وجد الإنسان بنفسه ميلا إلى التدين ، فقد وجد كثيرا من الأسرار ولاحظ كثيرا من الظاهرات ، منها: أنه يمرض في بعض الأحيان ثم تعييه الحيلة فى إزالة ما به ، ثم يجد نفسه بعد ذلك قد شفى فيفكر فى هذه الأحوال التى تطرأ عليه بين حين وأخر ، فوصل إلى أن القوة العليا التى لايعرف سرها هى التى تسبب له هذه الأعراض سواء أعراض المرض أو أعراض الشفاء . ثم نظر حوله فإذا قوى الطبيعة عديدة فيها الحرارة والبرودة وفيها المطر والجفاف وفيها الزوابع والبرق والرعد ، انتهى به تفكيره فيما حوله من البيئة إلى وجود قوة أعلى منه تسبب هذه الظواهر ، فخشى بأسها ، ثم فى النهاية وجد الناس تموت وتذهب إلى عالم آخر فاعتقد أن هذا العالم الذى عاش فيه ليس هو العالم الوحيد ، وقد تكونت من مجموعة هذه الأفكار والعقائد الديانات القديمة .

ومن هذه العناصر كلها يتكون ما نسميه بالحضارة ، فالحضارة إذن أساسها قوة عقلية مفيدة تستغل البيئة الطبيعية فى سد المطالب الرئيسية ثم تلتفت بعد ذلك إلى المطالب الثانوية ثم تنظم القرابة وعلاقات المجتمع خارج الأسرة ، ثم أخيراً تؤمن بمجموعة من الأفكار والعقائد .

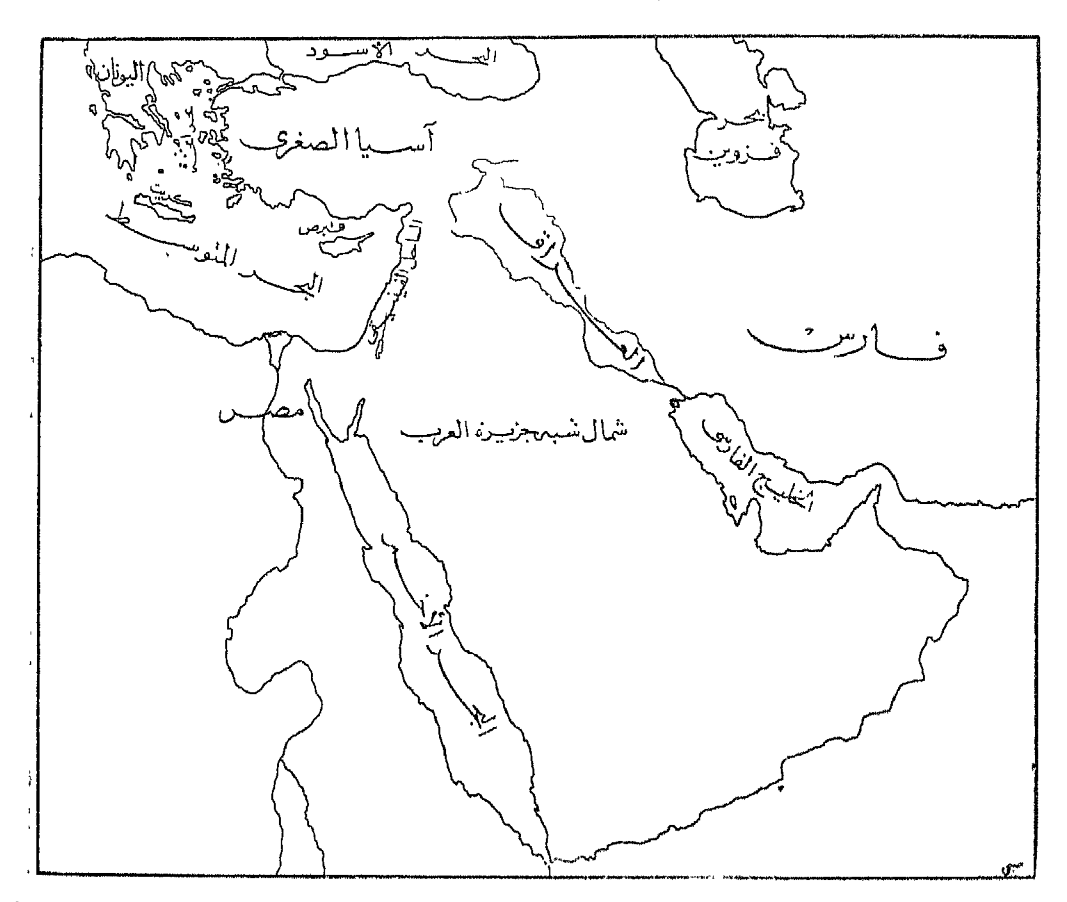
« والشرق القديم » كتعبير جغرافى يشمل الحوض الشرقى للبحر المتوسط ومصر والعراق وسوريا وشبه جزيرة العرب وبلاد فارس أو إيران (شكل ١) .

وقد ازدهرت الحضارة فى هذا الإقليم فى وقت مبكر وبذلك تفوق على غيره من الأقاليم تفوقاً زمنيا من حيث السبق الحضارى وتفوقاً موضوعيا من حيث مستوى الحضارة ذاتها . على أن مصر والعراق (بلاد النهرين) كانتا أسبق بلاد الشرق القديم حضارة وأرقاها مدنية ، وعنهما أخذت أقاليم الشرق الأخرى .

والحضارة هى الإنتاج العقلى للإنسان بصفة عامة ، ولكنها تنسب عادة إلى الجماعة التى تتفوق على غيرها فى هذا الإنتاج العقلى من حيث التنظيم الاجتماعى والسياسى والاقتصادى ، ويظهر هذا التنظيم فى مدى نشاط الناس فى استغلال البيئة الطبيعية ومدى تفوقهم فى الفن وسموهم فى المعتقدات الدينية .

وهناك ثلاثة مقاييس نقيس بها الحضارة فى أى إقليم . هذه المقاييس هى السبق والتفوق والإبداع ، والإقليم الذى تجتمع فيه هذه الصفات يكون أرقى حضارة من غيره . فأما السبق فمعناه وصول الإقليم إلى إحدى مقومات الحضارة قبل غيره من

الأقاليم كاختراع الزراعة أو الكتابة . وأما التفوق فمعناه نشأة إحدى مقومات الحضارة في إقليمين مختلفين دون أن ينقل أحدهما عن الآخر ولكن أحد الأقليمين متفوق على الآخر في هذه الظاهره الحضارية . وأما الإبداع فمعناه الوصول بمقومات الحضارة فوق المستوى المألوف أو المستوى المعتاد ، فقد ينقل إقليم ما إحدى مقومات الحضارة من إقليم آخر ولكنه يرتفع بها في وطنها الجديد عن مستواها في وطنها الأصلي ويصل بها إلى حد من الجدة أو الإبداع لم تكن لها من قبل .



(شكل ١) خريطة لمناطق الحضارة بالشرق القديم .

ويرجع ازدهار الحضارة في إقليم الشرق الأدنى إلى عوامل البيئة الطبيعية ، فإذا كان السبق والتفوق والإبداع قد اجتمعت في هذا الإقليم فما ذلك إلا نتيجة للتفاعل بين عناصر البيئة الطبيعية وبين جهود الإنسان ، ذلك التفاعل الذى أنتج ثماره منذ أقدم عصور ماقبل التاريخ أى منذ العصر الحجرى القديم حينما كان الإنسان يحيا حياة التجوال.

لايعرف من الحرف إلا حرفتى الجمع والصيد . ثم تطورت الحضارة بعد ذلك فى الشرق الأدنى إلى العصر الحجرى الحديث فقامت فيه لأول مرة فى تاريخ البشرية دعائم هذا العصر وأخصها الاستقرار فى قرى ومدن تم احتراف حرف تتناسب مع الاستقرار كالزراعة والصناعة . ثم تحول هذا الإقليم بعد ذلك إلى مانسميه بالعصر التاريخى حوالى سنة ٣٠٠٠ ق . م .

ولعل مما ساعد على ازدهار الحضارة فى هذا الإقليم كثرة إنتاج الغذاء وكثرة عدد السكان ؛ ففى هذا الإقليم المعتدل المناخ الوفير الإنتاج الآهل بالسكان نشأت حرفة الزراعة معتمدة على خصب التربة وتوفر الموارد المائية وقامت حرفة التجارة معتمدة على المركز المتوسط بين حوض البحر المتوسط من ناحية وبين قلب آسيا والإقليم الموسمى من ناحية أخرى . وقامت حرفة الرعى معتمدة على وفرة الحشائش فى الشتاء والربيع بسبب أمطار الرياح الغربية ، وظهرت الصناعة الراقية معتمدة على وفرة المادة الخام . ولم يكن فى الاستطاعة الوصول إلى هذا المستوى الحضارى بدون تنظيم سياسى وبدون قيام حكومات تكفل الأمن للفرد والجماعة وترعى الفنون والعلوم حتى ينصرف كل إلى إجادة عمله . وكان لابد من وجود وسيلة للتعليم والتخاطب غير المباشر فاخترعت الكتابة . ومن أهم مايميز إقليم الشرق الأدنى أيضا نشأة الديانات السماوية الكبرى به ، اليهودية والمسيحية والإسلام . فإذا كان الشرق الأدنى مركز الإشعاع الحضارى فى الماضى فما زال تأثيره فى عقائد الناس منتشراً حتى الوقت الحاضر فى كل أرجاء العالم .

ظروف الشرق القديم الجغرافية :

يشترك إقليم الشرق الأدنى فى عدة ظاهرات جغرافية :

فمن حيث الموقع هو واسطة العقد بين قارات العالم القديم آسيا وأوروبا وأفريقيا . وهو الإقليم الذى تتلاقى عنده هذه القارات الثلاثة فلا عجب إذا أصبح المركز الذى تنبعث منه الحضارة إلى سائر أجزاء هذه القارات الثلاث (شكل ٢) .

ومن حيث السطح تغلب عليه فى الوقت الحاضر الطبيعة الجبلية (شكل ٣) وليس به إلا قليل من الوديان هى التى تركز فيه العمران فيما بعد . فإذا نظرنا إلى الخريطة الموضحة فى (شكل ٣) لوجدنا هضبة آسيا الصغرى تحيط بها جبال بنطس من الشمال وجبال طوروس من الجنوب وهذه الجبال تتلاقى فى منطقة يطلق عليها اسم عقدة أرمينيا ثم بعد هضبة آسيا الصغرى نجد هضبة إيران تحيط بها السلاسل الجبلية التى تفرعت من هضبة أرمينيا نحو الشرق فنجد جبال البرز فى الشمال وزاجروس فى الغرب . ولكن إلى الجنوب من

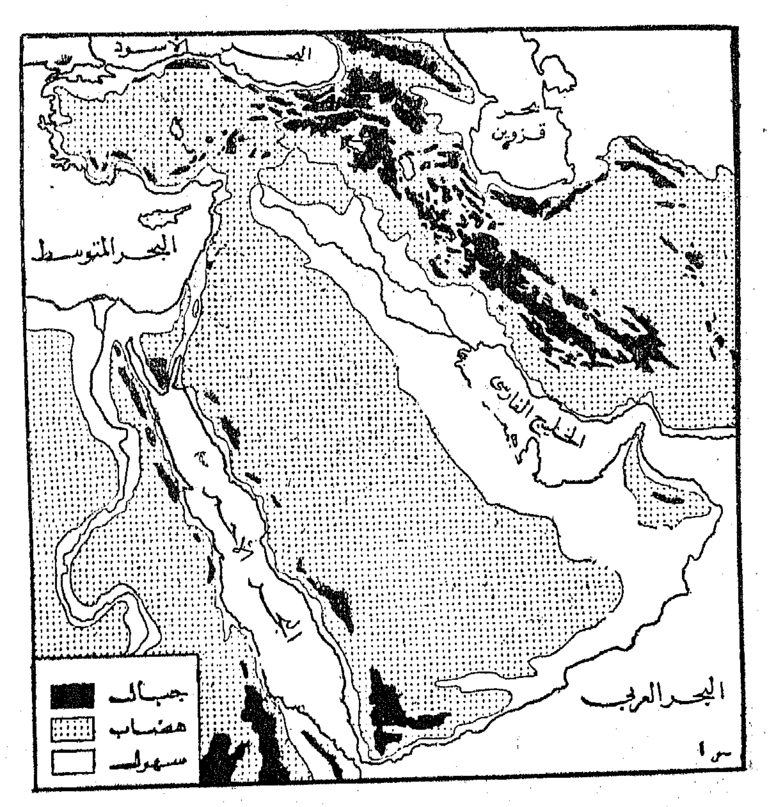
منطقة أرمينيا توجد سلسلة من الجبال أقل ارتفاعاً هى جبال أمانوس . وتقع فى جبال أمانوس عدة ممرات يخترق نهر العاصى إحداها . وفى جنوب العاصى توجد جبال لبنان. ثم نجد نهر الفرات ينبع من عقدة أرمينيا وينحدر جنوباً بشرق إلى أن يلتقى بنهر دجلة فيصب النهران فى مصب مشترك فى الخليج الفارسى . ثم فى جنوب غرب هذه المنطقة تمتد شبه جزيرة العرب امتدادها الكبير وهى عبارة عن هضبة مرتفعة تطل من الغرب على البحر الأحمر بحافة مرتفعة تتألف من جبال الحجاز وعسير واليمن ولكن الهضبة تأخذ فى الانخفاض والانحدار التدريجيين كلما اتجهنا شرقاً إلى أن تنتهى فى الشرق بسهول منخفضة مطلة على بلاد النهرين والخليج الفارسى والبحر العربى إذا استثنينا جبال عمان المطلة على خليج عمان .

وعلى الجانب الآخر من البحر الأحمر توجد مصر حيث تبدأ من هذه الناحية بجبال البحر الأحمر أيضاً وهى جبال تحد صحراء مصر الشرقية من ناحية الشرق . وصحراء مصر



(شكل ٢) الشرق القديم بالنسبة للعالم القديم

الشرقية عبارة عن هضبة مرتفعة تطل على البحر الأحمر بحافة حادة تقابل حافة شبه جزيرة العرب ثم تنحدر هضبة الصحراء الشرقية تدريجياً نحو الغرب إلى أن تطل على وادى النيل بحافة منخفضة . وتمتاز الصحراء الشرقية — إلى جانب ارتفاع جبالها — بكثرة ودیانها التى كانت فى العصر المطير تجرى بالمياه الغزيرة وتنصرف نحو وادى النيل ولكنها تحولت فى الوقت الحاضر إلى وديان جافة لا تجرى بالمياه إلا فى هيئة سيول وفى ظروف استثنائية لا تحدث إلا كل عدة أعوام . وعلى الجانب الآخر من وادى النيل نجد صحراء مصر الغربية وهى أيضاً هضبة ولكنها تخلو من الجبال المرتفعة إلا فى ركنها الجنوبى الغربى حيث جبل العوينات . وصحراء مصر الغربية لا تخلو من الجبال المرتفعة فحسب بل تمتاز بظاهرة المنخفضات التى هى عبارة عن أحواض تنخفض عن المستوى العام للهضبة فيتجمع فيها من أجل ذلك الماء الباطنى الذى يقوم عليه ما يسمى بالواحات . وبين الصحراوين السابقين — الصحراء الشرقية والصحراء الغربية — يوجد وادى النيل الذى يبدأ ضيقاً فى الجزء المحصور بين وادى حلفا وبين إسنا حتى يكاد يصبح الوادى عبارة عن مجرى



(شكل ٣) خريطة توضح تضاريس الشرق الأدنى والأوسط

النهر فقط ثم يتسع الوادى بعد ذلك تدريجياً حتى إذا بلغ قنا انحنى انحناءه الكبير المعروف باسم ثنية قنا وهى مساحة منبسطة من سهول الغرين ، ثم بعد قنا نجد مساحة السهل الفيض تتراوح بين ١٥ ، ٢٠ كم إلى أن نصل إلى رأس الدلتا حيث ينفتح الوادى فجأة فى شكل دال عظيمة الاتساع تنتهى إلى شاطىء البحر المتوسط بقاعدة يبلغ طولها حوالى ٢٠٠ كيلومتر بين الإسكندرية وبورسعيد .

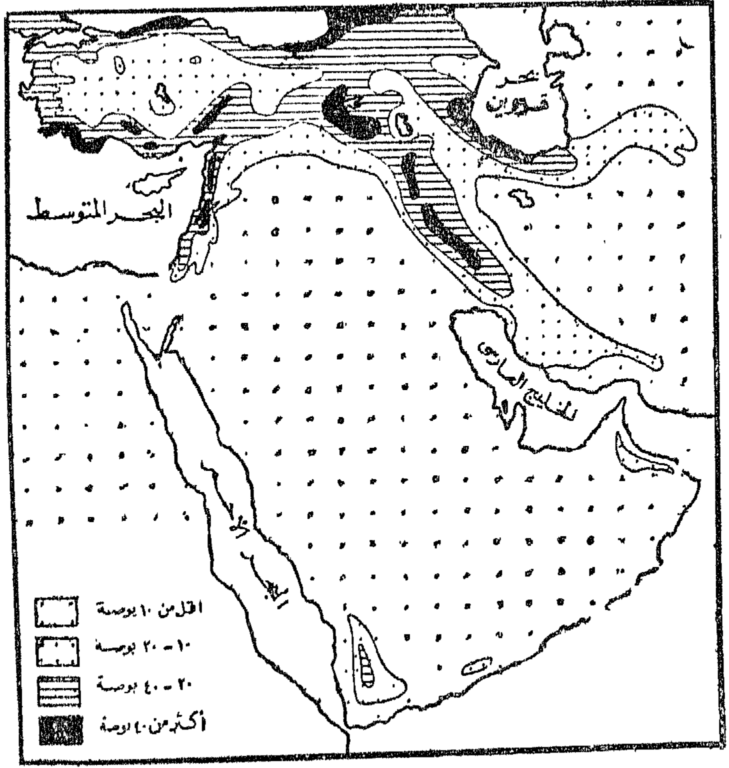
وأما سطح الحوض الشرقى من البحر المتوسط فإن الجانب السورى من هذا البحر يكون منطقة انتقال بين كتلة الجبال الالتوائية الحديثة فى الشمال ممثلة فى الأناضول وأرمينيا وإيران وبين كتلة الهضاب القديمة فى الجنوب ممثلة فى شبه جزيرة العرب ومصر ، ولذلك تجمع سوريا بين صفات الكتلتين فأدى هذا السطح المتنوع إلى تنوع مصادر الثروة الاقتصادية .

وأوضح ظاهرة فى سطح الجانب السورى من البحر المتوسط هى وجود خطوط من المرتفعات والمنخفضات متتابعة فى اتجاه شمالى جنوبى ، فنجد سهلا ساحليا يشرف على البحر المتوسط يتلوه شرقا خط من المرتفعات ثم خط من المنخفضات ثم خط من المرتفعات ينتهى بحافة الهضبة الصحراوية .

ويبقى بعد ذلك من الحوض الشرقى للبحر المتوسط جزيرة قبرص وكريت وجزر بحر إيجه ومضايقه وشبه جزيرة اليونان (أى جنوب اليونان) والساحل الغربى للأناضول . ويمتاز هذا الجزء بموقع فريد بين قوتين حضاريتين مختلفتين ، قوة الحضارة القارية المنبعثة من مصر والعراق وقوة الحضارة البحرية المنبعثة من فينيقيا ، وأما من حيث السطح فتغلب عليه أيضا الطبيعة الجبلية حتى تصبح مراكز جذب السكان مقصورة على السهول الساحلية الضيقة والوديان الجبلية .

إذا تركنا ظروف السطح وانتقلنا إلى حالة المناخ ينبغى أن نفرق بين المناخ الحالى والمناخ القديم . فأما المناخ الحالى فيغلب على كل هذا الإقليم الحرارة والجفاف فى الصيف ثم الدفء والرطوبة شتاء نتيجة لهبوب الرياح الغربية التى تسقط قليلا من المطر على الحوض الشرقى للبحر المتوسط وعلى شمال مصر وعلى جبال سوريا وتتوغل شرقا حتى العراق ، فتسقط بعض مطرها على المثلث المحصور بين جبال لبنان وأمانوس غربا وجبال زاجروس شرقا وصحراء بلاد العرب جنوبا ، ولكن تأثير هذه الرياح الممطرة يقل كلما اتجهنا شرقا وجنوبا فى أرجاء هذا الإقليم . وفيما عدا الجهات التى تصيبها هذه الرياح ببعض مطرها نجد سائر الإقليم تسوده الظروف الصحراوية بحيث تصبح مراكز جذب

السكان به مقصورة على الجهات ذات الموارد المائية الدائمة أى ذات الأنهار والعيون فالعراق وسوريا ومصر كادت تكون صحراء لولا أنهارها . ويمكن أن نتخذ من شبه جزيرة العرب مثالا لما تصبح عليه العراق ومصر وسوريا لولا النيل والدجلة والفرات وبردى . فمعظم شبه جزيرة العرب أماكن قاحلة ليس فيها من مناطق الاستقرار إلا بقع ضئيلة فى اليمن فى الجنوب الغربى حيث يسقط المطر الموسمى على مرتفعاتها ، ثم فى عمان فى جنوبها الشرقى حيث يسقط المطر الموسمى على مرتفعات الجبل الأخضر ، ثم فى جهات قليلة من عسير والحجاز ونجد ، حيث بعض العيون والآبار . ولا تؤلف هذه الجهات إلا نسبة ضئيلة من مساحة شبه الجزيرة ، أما الجزء الأكبر فصحراء قاحلة خالية من مظاهر الحياة (شكل ٤) .



(شكل ٤) توزيع الأمطار فى الشرق الأدنى والشرق الأوسط فى الوقت الحاضر

على أن هذه الظروف المناخية الحالية لم تكن هى السائدة فى الماضى بل وجدت فى الزمن الجيولوجى الرابع أو عصر البليستوسين أحوال مناخية تختلف عما يسود العالم فى الوقت الحاضر . فكان معظم أوروبا مكسوا بالجليد على حين كانت الأقاليم الصحراوية

فى شمال إفريقية وجنوب غرب آسيا ذات مناخ يشبه مناخ البحر المتوسط الحالى بل كان شبيها بمناخ غرب أوروبا فى بعض الأحيان . ويعرف هذا العصر بالعصر الجليدى فى أوروبا والعصر المطير فى المناطق الصحراوية الجافة . وكانت هذه الأقاليم الصحراوية فى العصر المطير ذات ثروة نباتية من الحشائش والأشجار ، وكانت تعيش فى هذه البيئة قطعان من الحيوانات المناسبة للبيئة كالوعول والغزلان والأغنام والأبقار الوحشية وما إلى ذلك . وكان الإنسان فى ذلك الوقت يعتمد على صيد هذه الحيوانات فى غذائه بآلات بدائية مصنوعة من الأحجار . ولكن بانتهاء عصر البليستوسين ينتهى العصر المطير ويأخذ الجفاف التدريجى فى الانتشار فى النطاق الصحراوى وبذلك شح الصيد ، واضطر الإنسان والحيوان إلى الهجرة إلى الشمال والجنوب حيث الموارد المائية الدائمة بينما هاجر بعضهم غربا إلى وادى النيل . وبذلك اعتمد الناس على جمع الطعام من مناطق الآبار والأنهار ، ثم سرعان ما تحولوا إلى حرفة جديدة هى حرفة الزراعة . وقد كانت هجرة البدو من الصحراء إلى الحافة الشمالية لصحراء بلاد العرب من أهم هذه الهجرات ، حيث يوجد نطاق من الأراضى الخصبة الأكثر أمطارا يمتد من رأس خليج العقبة نحو الشمال خلال فلسطين وسوريا إلى جنوب جبال آسيا الصغرى ثم ينحنى نحو الجنوب الشرقى بحذاء جبال زاجروس من ناحية الغرب ، فتشمل سهول الدجلة والفرات (العراق أو بلاد النهرين) .

وهذه المنطقة هى التى أطلق عليها اسم الهلال الخصيب ، والتى تحف بصحراء شمال بلاد العرب كهلال يحيط بها من الغرب والشمال والشرق .

أما وادى النيل ودلتاه فيحيط به من الشرق والغرب صحارى جافة ومن الشمال البحر المتوسط ، وأما فى الجنوب فتوجد الجنادل فى مجرى النيل جنوب أسوان مما يجعل الملاحة شاقة والانتقال عن طريق النهر صعبا للغاية . ويختلف وادى النيل فى مصر عن العراق فى أن الأخيرة كانت دائما مهددة بالغزو من هضبتى أرمينيا وإيران ، بينما تمتعت مصر بالاستقرار والهدوء إذ كانت أقل تعرضا لمثل هذه الغزوات لحمايتها بالصحارى والبحار والجنادل .

وتشترك الأنهار الثلاثة الكبرى — النيل ودجلة والفرات — فى ظاهرة هامة هى أنها تنبع من الهضبات المرتفعة الغزيرة الأمطار الجافة بأحواضها ثم تجرى فى مناطق صحراوية كما أنها تفيض فى مواسم معينة فيساعد فيضانها على الرى والزراعة .

فنهر النيل مثلا ينبع من البحيرات الاستوائية ويأتى بفيضانه من هضبة الحبشة وتصل مياه الفيضان مصر فى أوائل الخريف فتغمر واديه ، ويعقب موسم الفيضان الفصل القليل.

الحرارة وبذلك تحتفظ الأرض بقدر من رطوبتها فى هذا الفصل الذى ما زالت فيه الحرارة مناسبة للنمو ، ثم يأتى الصيف فيساعد على النضج . أما فى العراق فيأتى الفيضان كنتيجة لأمطار الشتاء من جهة وذوبان الثلوج فى جبال أرمينيا فى فصل الربيع وأوائل الصيف من جهة أخرى ويعقب الفيضان فصل شديد الحرارة وبذلك تجف الأرض بسرعة وعلى هذا يتحتم رى الأرض بالوسائل الصناعية .

ووادى الفرات قليل القيمة بالنسبة « للزراعة والملاحة » فى مجراه الأعلى والأوسط إذ يجرى فى منطقة نصف صحراوية ، ولذلك لم يوجد بها أثر للحضارات القديمة . أما نهر الدجلة فيصلح للملاحة بعد خروجه من الجبال . وبالرغم من أن الحضارات نشأت فى مجراه الأسفل إلا أنها امتدت على طول مجراه الأوسط والأعلى . ونهر الدجلة يكون جزءاً من الطريق الذى يتبع الهلال الخصيب بينما لايشترك الفرات فى ذلك . وبالإضافة إلى ذلك يتصل بنهر الدجلة مجموعة من الروافد من جبال زاجروس تضيف إلى مياهه قدراً مناسباً فتزيد بذلك من مساحة الأراضى القابلة للزراعة .

وعند خط عرض بغداد يقترب النهران من بعضهما إذ لا تزيد المسافة بينهما عن ٢٠ ميلا وتصل بينهما قنوات بعضها طبيعى وبعضها صناعى . ومن هذه النقطة حتى الخليج الفارسى تتكون الأراضى من منطقة سهلية مغطاة بالرواسب . فبها نشأت مدن بابل . وكان كل من النهرين يصب فى البحر فى مصب مستقل ولكنهما الآن اتحدا على بعد ٧٠ ميلا من البحر حتى أصبح الميناء القديم أرواد يبعد عن البحر فى الوقت الحالى بمسافة مائة ميل .

أثر الظروف الجغرافية فى قيام حياة الاستقرار بالشرق الأدنى :

يتضح من هذا العرض الجغرافى لظروف السطح والمناخ أن جهات الشرق الأدنى فى مصر والعراق وسوريا وفلسطين وشبه جزيرة العرب والحوض الشرقى للبحر المتوسط يغلب عليها الطبيعة الجبلية والصحراوية ، وأن هذه الجهات الجبلية والصحراوية كانت فى الماضى صالحة للاستيطان بفعل المناخ الرطب الذى كان سائدا فى البليستوسين وما بعده بقليل ، ولكن كانت طبيعة هذا الاستيطان تدعو إلى الانتشار والفرقة لأن انتشار الرطوبة فى مساحات واسعة جعل الرزق مضمونا فى هذه المساحات فانتشر الناس فيها ممارسين حرفة الصيد والجمع ، والانتشار والفرقة لا يتيحان حضارة راقية . فلما جاء عصر الجفاف وأصبحت الحياة مستحيلة فى الجهات الجبلية والصحراوية الحالية انحدر الناس منها إلى الجهات ذات الموارد المائية الدائمة وهى الهلال الخصيب ومصر والوديان الساحلية باليونان وجزر بحر

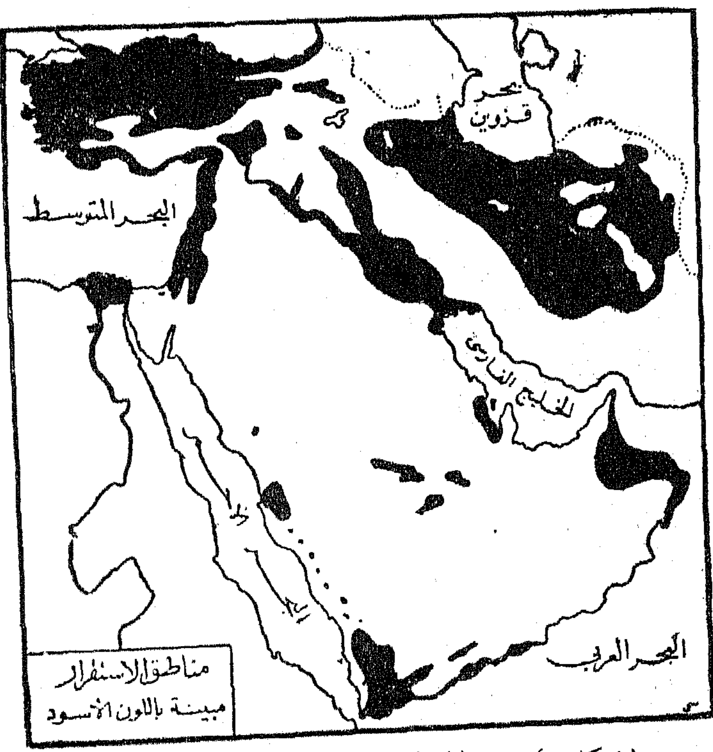
إيجة . وهذه الجهات ذات الموارد المائية الدائمة محدودة المساحة بالنسبة للمساحات الهائلة التى كان ينتشر فيها هؤلاء المهاجرون ، ولعل هذا هو الأساس الأول والسبب المباشر لقيام الحضارة بالشرق الأدنى ، إذ تجمع فى هذه الجهات المحدودة المساحة عدد كبير من السكان وفدوا من الجبال والصحارى ، وكان عليهم أن ينظموا استغلال الأرض ، ولا يتم هذا إلا بتنظيم أنفسهم والتفاهم فيما بينهم والتعاون على استغلال الإمكانيات المختلفة للبيئة الطبيعية وقيام التخصص المهنى وسائر المميزات التى نسميها مقومات الحضارة . وقد دلت دراسة السلالات الجنسية على صحة هذا الرأى فأصحاب حضارات الاستقرار الأولى فى الهلال الخصيب ومصر وبحر إيجة وافدون إما من الجبال وإما من الصحارى ، فكان لتجمع الناس إلى بعضهم فى هذه المساحات الخصيبة المحدودة نتيجة حتمية هو التنظيم السياسى والاقتصادى والروحى وهذا هو أساس الحضارة . ولم يكن هذا التنظيم ضرورة من ضرورات العصر الحجرى القديم لأن الناس كانوا يحيون إما حياة عزلة فى كهوف الجبال أو حياة تفرق فى أرجاء الصحراء فلما تغيرت الظروف المناخية ووجد الدفء والجفاف تغيرت البيئة التى يسكنها الإنسان فأصبحت السهول ذات الموارد المائية الدائمة هى مواطن السكن ، ونتيجة لهذا التغير المناخى والتغير فى مناطق السكن انتهى العصر الحجرى القديم بمقوماته الحضارية وظهر عصر جديد بمقومات حضارية جديدة هو العصر الحجرى الحديث (شكل ٥) .

بداية الاستقرار : العصر الكبير التالى للعصر الحجرى القديم هو العصر الحجرى الحديث الذى يبدأ بالشرق الأدنى والأوسط حوالى سنة ٦٠٠٠ ق . م ، فهو مرحلة حديثة جدا وشديدة القرب من العصر الذى نعيش فيه . وأما العصر الحجرى القديم الأعلى فقد وجد فى المرحلة الواقعة بين سنة ٢٠٠٠٠ ق . م وسنة ٦٠٠٠ ق م ، وبذلك بلغ طول العصر الحجرى القديم الأعلى حوالى ١٤ أو ١٥ ألف سنة . وهذه المرحلة التى شغلها العصر الحجرى القديم الأعلى كانت مرحلة تحول مناخى لأن الجليد أخذ ينحسر فى بداية هذا العصر ، أى أننا منذ بداية العصر الحجرى القديم الأعلى ونحن فى مرحلة تحول مناخى ، هذا التحول المناخى ينتهى إلى تغير كبير فى بعض الجهات حوالى سنة ٦٠٠٠ ق . م ولو أنه فى بلاد أخرى تأخر عن هذا التاريخ . أى أن ظروف البرودة والمطر ظلت قائمة فى بعض البلاد إلى وقت متأخر ، وأن بلادا أخرى زالت فيها هذه الظروف التى كانت تميز البليستوسين وتحولت إلى الدفء والجفاف ، فكأن الذى ساعد على وجود العصر الحجرى الحديث هو العامل المناخى ، وأن هذا العامل المناخى يتمثل فى أمرين

رئيسيين هما الدفء والجفاف . ويمكن القول بصفة عامة إن الحالة المناخية التى يعيش فيها العالم فى الوقت الحاضر هى الحالة التى بدأت مع العصر الحجرى الحديث .

إذا نظرنا إلى النتائج المترتبة على هذا التغير المناخى نجد أن هذه النتائج كانت العلامات التى تميز العصر الحجرى الحديث . وقد سبق القول إن هذا التغير المناخى شمل الدفء وشمل الجفاف . فأما الدفء فمن شأنه أن يبعث على انتشار الناس ، أى أن الجهات المسكونة من العالم لم تصبح مقصورة على الأجزاء الدفيئة بحكم عروضها الجنوبية وإنما سينتشر العمران فى العالم حتى يصل إلى العروض الشمالية ، فنجد لأول مرة مناطق مثل ولايات البلطيق ، مسكونة بجماعات ذات حضارة تتميز بطابع البيئة المحلية .

والنتيجة الأولى إذن المترتبة على الدفء ازدياد معرفة الجماعات لبعضها واختلاط الجماعات ببعضها ، وسينتج عن هذا وجود سلالات جنسية خليطة . وبصفة عامة يمكن القول إن السلالات الجنسية التى نجدها فى العالم فى الوقت الحاضر بدأت تتكون منذ العصر الحجرى الحديث ، لأننا نعلم أن الجنس عبارة عن مميزات جسمانية تنتقل إلى النسل بالوراثة . ولم يقتصر هذا الاختلاط على تكوين السلالات الجنسية بل انتقل هذا الاختلاط



(شكل ٥) يبين مناطق الاستقرار بالشرق الأدنى والأوسط

من النواحى الجنسية إلى النوحى الاجتماعية ، فوجدت العلاقات بين الناس وبعضهم سواء كانت علاقات سلمية أو علاقات حربية . ويمكن القول أيضا إن العلاقات كما نجدها فى العالم فى الوقت الحاضر كالعلاقات الثقافية والعلاقات الاقتصادية كالتجارة وغيرها ثم العلاقات غير السلمية كالاستعمار — كل هذه العلاقات — بدأت مع العصر الحجرى الحديث ، وكان الدافع إليها انتشار الدفء الذى شجع على انتشار الناس .

العلامة المناخية الثانية وهى الجفاف أدت إلى نتائج بعيدة المدى أيضا فى حياة الناس ، فمع انتشار الرطوبة كانت تنتشر الأنواع النباتية سواء كانت غابات أو حشائش ، وكانت هذه الأنواع النباتية تمد الإنسان بمطالبه الرئيسية نباتية كانت أو حيوانية .

ولما وجد الجفاف كان لابد من أن تنحصر السكنى فى كل قطر من الأقطار على شواطىء المجارى المائية الدائمة وهى الأنهار ؛ لأن المطلب الأول للإنسان وهو الغذاء لابد أن يكون مضمونا فى كل يوم ، والماء جزء من الغذاء بل هو أشد نواحى الغذاء أهمية ، فقد يصبر الإنسان على الطعام ولكنه لا يمكن أن يصبر على الماء يوما واحدا . وإذن فبحسب توزيع المياه فى العصر الحجرى الحديث يكون توزيع الإنسان ، وهذا نتيجة للجفاف الذى أخذ يستقر فى كثير من جهات العالم . وقد ترتب على هذا نتائج كبيرة فى حياة الإنسان ، فإذا كان المطلب الرئيسى وهو الغذاء أصبح يتوفر فى مناطق معينة فلابد أن يلزم الإنسان سكنى هذه المناطق المعينة ؛ فقد كان قديما يتجول لأن الرطوبة منتشرة فى كل مكان ويتبع الرطوبة انتشار النبات والحيوان . أما وقد ساد الجفاف وانحصرت مصادر الرطوبة — وهى فى نفس الوقت المصدر النباتى والحيوانى — فلم تعد للإنسان حاجة إلى أن يتجول فاستقر حول مجارى الأنهار ، وبنى له مسكنا بالقرب من هذا المجرى وتجمعت المساكن إلى بعضها إلى أن كونت قرية ، وتعتبر نشأة القرى العلامة الأولى من علامات العصر الحجرى الحديث . ونحن نعلم أن العلامتين المناخيتين ، الدفء والجفاف ، وجدا أولا فى العروض الوسطى ، ولذلك نتوقع أن تكون نشأة العصر الحجرى الحديث لأول مرة فى بقع معينة من هذه العروض ، وأن هذه البقع المعينة كانت المدرسة الأولى التى علمت الإنسان حضارة العصر الحجرى الحديث . ومن أمثلة هذه البقع المعينة منطقة تركستان فى غرب آسيا ، ثم الهلال الخصيب وهو الهلال الذى يمتد من بلاد النهرين (العراق) إلى سوريا وفلسطين ومصر . ففى تركستان ومصر وغرب آسيا كانت المنطقة التى نشأت فيها أولى حضارات العصر الحجرى الحديث .

وإذا كان المطلب الأول للإنسان وهو الغذاء أدى به إلى الاستقرار فى مسكن بالقرب من مجرى النهر ، فإن مطلبا آخر هو الذى أدى به إلى إنشاء القرية ، وذلك أن الإنسان

بعد أن ينتهى من ترتيب طعامه وشرابه يحتاج إلى ترتيب أمنه ، وهذا الأمن لا يتوفر إلا بالاجتماع . فبعد أن ينشأ المسكن الأول فإن أهل المسكن الثانى بحكم الطبيعة البشرية يميلون إلى إنشاء مسكنهم بالقرب من المسكن الأول . ففضلا عن أن الإنسان حيوان اجتماعى بطبعه هناك فائدة مادية من اجتماع المساكن إلى بعضها هى التعاون المشترك فى استغلال البيئة وفى الدفاع ضد المعتدى حيواناً كان أو إنساناً . فالمهم أن الاستقرار ونشأة القرى كان النتيجة الأولى لهذا التغيير المناخى ، وهذا الاستقرار هو العلامة الأولى التى تميز العصر الحجرى الحديث . ثم نتيجة لهذه العلامة الأولى كان لابد أن تحدث تغيرات هامة فى حياة الإنسان . وأول ماننتظره هو أن يغير أسلوبه فى استغلال البيئة الطبيعية ، فالجماعات لم تعد تتحول طول الوقت بل أخذت تستقر لفترات طويلة . وإذا كان الإنسان فى العصر الحجرى الحديث مازال يستخدم سلاحه فى صيد الحيوان أى أنه مازال يحترف حرفة الصيد فإن طبيعة هذه الحرفة فى العصر الحجرى الحديث أصبحت مختلفة عن طبيعتها فى العصر الحجرى القديم ، فقد كان الإنسان فى العصر الحجرى القديم الأعلى يتجول بحثاً عن الحيوان . أما فى العصر الحجرى الحديث فإن الحيوان هو الذى يأتى إليه لأنه يريد أن يرتوى من نفس المجرى المائى الذى استقر الإنسان على شواطئه .

هذا التحول فى طبيعة حرفة الصيد أدى إلى نشأة حرفة جديدة تتعلق بالحيوان هى حرفة استئناس الحيوان . واستئناس الحيوان معناه أن يعيش الحيوان ويتكاثر تحت سلطان الإنسان ، أى فى مكان خاص يعده له الإنسان فيرعى تحت سلطانه ويبيت فى الليل تحت سلطانه كذلك . وينبغى أن نفرق هنا بين أن يألف الإنسان الحيوان وبين أن يستأنسه ، فالألفة مرحلة أولى وهى أن الحيوان تعود على شكل الإنسان فأصبح يألفه ولا ينفر منه ، ثم بمرور الزمن وجد نوع من المودة بين الفريقين بفضل المعاملة اللطيفة التى أصبح الإنسان يعامل بها هذا الحيوان .

ويدخل فى هذه المجموعة الكلب ، ويقال إن الكلب هو أول حيوان ألف الإنسان . وأما الاستئناس الكامل فشمل عدة حيوانات أخرى هى الحيوانات التى تمده بالغذاء . فوجد الإنسان بعد التحول إلى حياة الاستقرار أن من صالحه أن يربى هذا الحيوان وأن يكون هذا الحيوان فى حوزته ، ولم يصل إلى هذه المرحلة إلا بعد تفكير طويل وبعد دراسة طويلة لطبائع الحيوان ، ومن أجل هذا لا ينبغى أن نقلل من قيمة هذا الكشف الجديد الذى وصل إليه الإنسان ، فإدراكه أنه من الممكن أن يعيش هذا الحيوان معه فى مسكن واحد ، ثم الجهود التى بذلها فى هذا السبيل ، كل هذا يعتبر مرحلة متقدمة جداً من

مراحل حياة الإنسان . ويقال إن استئناس الحيوان كان المرحلة التالية للاستقرار مباشرة ، أى أنها مرحلة سبقت الزراعة ، وبمعنى آخر أن حرفة الرعى كانت حرفة سابقة لحرفة الزراعة ، وأن الإنسان وصل إلى اختراع الرعى قبل أن يصل إلى اختراع الزراعة .

ثم بعد استئناس الحيوان وصل الإنسان إلى اختراع الزراعة . ويمكن أن نتصور أن اختراع الزراعة جاء نتيجة الاستقرار ، فإن النباتات فيها أنواع كثيرة حولية بمعنى أنها تموت إلى أن يأتى الفصل الملائم لإنباتها من الحول الثانى أو السنة الثانية فتنبت مرة أخرى وتمر فى سائر الأدوار . هذه العملية نظمتها الطبيعة بحيث تتكرر كل حول نتيجة لتقلبات الفصول ، والنباتات البرية توجد بهذه الطريقة . وتتصف النباتات البرية بأنها شأن كل أنواع الحياة البرية لا توجد فى جماعات ، أى أنه يندر أن يتكرر نوع النبات الواحد فى مكان واحد . وهذه حالة متعبة فى الاستغلال ، فإذا كان الإنسان يريد أن يحصل على قدر من الحبوب فإنه سيجد عيدانها متفرقة فى مساحات كبيرة ، وهو لا يريد أن يمارس نشاطه فى مكان بعيد عن مسكنه حيث أسرته . ومما لا شك فيه أن الإنسان كان يستغل هذه النباتات سنين طويلة قبل أن يعرف الزراعة ، وكان يأكل الحبوب البرية ؛ كحبوب الذرة أو القمح قبل أن يعرف الزراعة ، فهو إذاً كان على دراية بأنواع النباتات كما كان على دراية بأنواع الحيوان .

هذه الظروف الجديدة — وهى ظروف الاستقرار — التى مكنته من تتبع أدوار حياة النبات عاما بعد عام ثم صعوبة استغلال هذا النبات بعد الاستقرار دفعته إلى أن يخترع الزراعة وأن يجمع الحبوب البرية ويبذرها بالقرب من مسكنه لكى ينتج مجموعة من النبات متحدة فى نوعها ، وهذه هى الزراعة .

ثم أخيرا بعد أن استقر الإنسان فى مسكن وعرف استئناس الحيوان وعرف استئناس النبات كان طبيعيا أن تنمو مساحة القرى وأن توجد بعض المساكن ليست بقرب مجرى النهر مباشرة . ثم فى وديان الأنهار ذات السهول الفيضية أى فى الأنهار التى تفيض على جوانبها كل عام لابد أن تبنى المساكن عند حد السهل الفيضى أى فى أبعد مكان يصل إليه ماء النهر وقت الفيضان ، أو بتعبير آخر يجب أن تكون القرى بعيدة عن منال الفيضان . وحاجة الناس إلى الماء مستمرة هى حاجة تشمل كل الأوقات وتشمل كل الأفراد ، وليس من المعقول أنه كلما احتاج الإنسان إلى الماء ينقل نفسه وأهله وحيوانه للنهر لكى يرتووا ثم يعودوا ، فلا بد إذن من التفكير فى وسيلة لخزن الماء ووجد أنه لا بد من عمل نوع من الآنية يحمل فيها الماء من النهر . ونستطيع أن نتصور أن الأوانى الأولى كانت من جلود الحيوان (القربة) ولكنه وجد أن هذه القرب مع أنها صالحة لحمل الماء إلا أنها

ليست صالحة لخزنه ، فوصل إلى طريقة أخرى أكثر ضمانا لحمل الماء هى صناعة الأوانى الفخارية ، وصناعة الفخار وصل اليها أيضا بعد التفكير ؛ فقد عرف الإنسان النار منذ العصر الحجرى القديم الأسفل أى منذ الحضارة الأشولية ، وزاد استعمال هذه النار فى الحضارات التالية بسبب البرودة . وقد استرعى انتباهه أن الطين أو الطفل فى مناطق المواقد يتصلب ويتحول إلى ما يشبه المادة الحجرية أى أنها تصبح مادة متماسكة ذراتها بحكم الاحتراق فلم تعد هشة كمادتها الطينية الأولى .

والتفكير فى هذا التحول الذى يحول إليه الطين أدى بالإنسان فى النهاية إلى أن يشكل هو من الطين أشكالا يضعها فى النار فتحترق وتتحول إلى مادة صلبة مع المحافظة على الشكل الذى شكله بيده ، وبذلك وجد فى النهاية ما نسميه بالآنية الفخارية ، وأصبح يحمل الماء من النهر إلى مسكنه . وقد صنع من هذه الأوانى الفخارية أحجاما مختلفة وأشكالا مختلفة . وبهذا وجدت المظاهر الأربعة الرئيسية للعصر الحجرى الحديث وهى نشأة القرى (الاستقرار) واستئناس الحيوان ، واستئناس النبات (الزراعة) ، وصناعة الآنية الفخارية .

وهـذه المظاهر الرئيسية للعصر الحجرى الحديث نجدها منتشرة فى كل جهات العالم التى وجدت فيها بقايا قرى تمثل هذا العصر . ولقد تدرج الإنسان فى الرقى خلال العصر الحجرى الحديث وأصبحت هذه المظاهر الأربعة التى ذكرناها أشياء مألوفة له ، فأخذ فى الوصول إلى مظاهر حياة أخرى أهمها التخصص المهنى ، ثم التجارة ، وبعد التخصص المهنى والتجارة كان لابد أن تقوم العلاقات غير السلمية فتكثر الحروب وينشأ الاستعمار .

ولقد تغيرت طريقة إنتاج الغذاء وهو المطلب الأول للانسان ، فلم يعد الإنسان سلبيا فى هذه الناحية ، أى أنه لم يعد يعتمد على ما تجود عليه به الطبيعة ، فلم يعد ملتقطا وجماعا وصيادا ، بل بدأ يتحكم فى قوى الطبيعة ويرسم اقتصادياته على أساس مقدرته فى توجيه الظاهرات الطبيعية لصالحه ، فاحترف حرفا جديدة أهمها حرفة الرعى وحرفة الزراعة . ونستطيع أن نلحظ ما طرأ على اقتصاديات الإنسان وهو يمارس هاتين الحرفتين من أشكال الآلات الحجرية ؛ إذ تغيرت المادة الخام ، ولم يعد استخدام الآلات مقصورا على الصوان والحجر الرملى بل أصبحت الأحجار النارية كالجرانيت والنايس تستخدم فى صنع الآلات . وذلك لأن التخصص الإقليمى قد وجد ، ولابد أن تعمد كل جماعة إلى استخدام ما فى بيئتها من احجارة ، فإن لم يوجد فى بيئتها صوان أو أحجار رملية فلابد أن تستعمل أى نوع من الحجارة ، وإذا كانت الطريقة القديمة التى تتناسب مع صناعة الصوان وهى تشكيل الآلات بواسطة الضرب واستخدام مطرقة فى فصل الشظايا عن كتل الصخر . . إذا كانت هذه الطريقة — لاتلائم المادة الخام الجديدة وهى الأحجار النارية فلابد من اتباع طريقة جديدة فى صناعة الآلات هى طريقة الطحن والصقل وذلك لاختلاف تكوين كل

نوع من أنواع هذه الصخور ؛ فالصوان حجر وحيد التركيب يسهل تفصيصه إلى شظايا بضربة واحدة أو بطرقة واحدة . وأما الأحجار النارية كالجرانيت مثلا فليست وحيدة التكوين بل تتكون من عدة معادن لكل معدن منها صلابة خاصة ، والآلة الحجرية هى نتيجة عمليتين: نتيجة قوة الضربة الموجهة من المطرقة ، والنتيجة الثانية هى مقاومة كتلة الصخر لهذه الضربة . ففى الصوان تكون الضربة موحدة لأنها من مصدر واحد ، وكذلك قوة المقاومة موحدة لأن الصخر وحيد التركيب .

وأما فى الأحجار النارية فإن الضربة موحدة ولكن هذه الضربة تصادف قوى مقاومة مختلفة فلا يمكن فى هذه الحالة أن تنتج آلة على الإطلاق بواسطة الضرب .

وأشكال الآلات المصنوعة بطريقة الطحن والصقل كثيرة . ولم تتنوع أشكال الآلة نتيجة لاختلاف المادة الخام فحسب بل نتيجة أيضا للأغراض الجديدة التى أصبحت تؤديها . فنحن نعلم أنه حدث فى العصر الحجرى الحديث ثلاث حرف كبيرة هى الزراعة واستئناس الحيوان وصناعة الفخار ، ومعنى هـــذا أنه لابد أن يتوفر فيه آلة لحرث الأرض وإعدادها للزراعة ، وآلة لحصد الزرع ، ثم هون أو رحى لطحن الحبوب .

بعد هذا التغير فى صناعة الآلات نتيجة للتخصص الإقليمى وتوزيع المادة الخام فى كل إقليم نجد أن هذا التخصص الإقليمى أوجد حرفة رابعة فى هذا العصر هى التجارة . والتجارة نتيجة حتمية لتوزيع المادة الخام وما يتبع توزيعها من تخصص مهنى . وفى الغالب لم يكن التخصص المهنى موجودا فى العصر الحجرى القديم ، فكان كل فرد يصنع آلاته بنفسه وهو الذى يحضر المادة الخام من الجبال ويصنع الآلات وهو الذى يصطاد .

أما فى العصر الحجرى الحديث فنتيجة للاستقرار كان لابد من أن يقوم التخصص المهنى فتتخصص جماعة فى استغلال المحاجر أى قطع الحجارة وإعداد المادة الخام للصناعة ، ثم يوجد فريق ثانى يحول هذه المادة الخام إلى آلات ، ولابد أن تتم عملية التحويل إلى آلات فى منطقة المناجم نفسها ، لأن نقل الآلات أسهل من نقل المادة الخام ، ثم هؤلاء الناس الذين يقيمون فى منطقة المحاجر محتاجون إلى الطعام والماء فلابد أن يعد لهم ذلك فى القرية نفسها ولابد أن يمونوا القرية بالآلات والمعدات فى مقابل أن يحصلوا من القرية على المواد الغذائية . أى أنه وجد فى هذا العصر طبقة صناع وطبقة زراع ، ولابد من أن توجد طبقة ثالثة بينهم هى طبقة التجار أو الوسطاء التجاريين .

وليست كل الأقاليم محظوظة فى توزيع المادة الخام ، بل بعض الأقاليم عندها فائض عن حاجتها ، وأقاليم أخرى فقيرة ، وبحكم مافطر عليه الإنسان من حرص وطمع حاولت كل جماعة أن تعتبر كل منطقة من المناطق التى تعيش فيها أو توجد بقربها ميدان نشاطها.

هذا الميدان الذى سيكون مايعرف بالدولة ذات الحدود السياسية فيما بعد موجود منذ القدم ، ولازال موجودا عند الجماعات البدائية حتى الوقت الحاضر ؛ ففى الجماعات التى تحترف الصيد فى الوقت الحالى فى سيبريا توجد مناطق مخصصة للصيد لكل جماعة بحيث لايجوز للصياد أن يصيد حيوانا فى منطقة غير منطقته ، بل لهذا التخصص الإقليمى تقاليد عند هؤلاء الناس ، فإذا أصاب الصياد بسهمه حيوانا داخل المنطقة المخصصة لجماعته ثم فر منه الحيوان إلى المنطقة المخصصة لجماعة أخرى فيستطيع أن يحصل على هذا الحيوان . وللجماعات التى تحترف الرعى توجد فى الوقت الحاضر مراع مخصصة لكل جماعة بحيث لايجوز للحيوان أن يرعى فى منطقة غير منطقته .

هذه الصورة الموجودة عند الجماعات البدائية فى الوقت الحاضر هى التى بدأت توجد على نطاق واسع منذ العصر الحجرى الحديث . ولكن هذه التقاليد تتلاشى دائما إذا ماشعرت جماعة من الجماعات بقوتها . ومن هنا وجد ما نسميه بالاستعمار منذ اللحظات الأولى التى استقر فيها الإنسان منذ القدم ، وسببه عدم عدالة الطبيعة فى توزيع المادة الخام . وأصبحت الجماعات القديمة تحاول أن تحصل على المادة الخام عن طريق القوة إذا ما كانت منطقتها محرومة من هذه المادة .

وفى مصر كان لوقاية الصحراء لوادى النيل أثرها فى ازدهار الزراعةوقيام حياة الاستقرار فى العصر الحجرى الحديث وعصر ماقبل الأسرات أى منذ ٦٠٠٠ سنة ق . م . وكان سكان مصر قبل ذلك يعتمدون على حرفة الصيد من الصحراوين الشرقية والغربية ، ولكن بعد حلول الجفاف وانعدام الأمطار زاد اعتماد السكان على مياه النهر ، وانتقل مسرح النشاط البشرى من الصحراء إلى الوادى . وتحول الإنسان تدريجياً نحو استنبات النبات ، بدلا من الاعتماد على جمعه ، فاهتدى إلى الزراعة . واستقر الناس فى أوطان صغيرة ، حلت الوحدة الإقليمية الثابتة ، محل وحدة القبيلة المتنقلة . وأصبح المجتمع فى مصر مؤلفاً من جماعات ، ترتبط حياتها برقعة معينة من الأرض ، تتعلق بها ، وتدافع عنها ، وتحاول زيادة مساحتها . وقد امتد أفق السكان وبعد نظرهم ، فتعلموا ادخار المحصول من فصل الحصاد إلى بقية السنة ، كما تنوعت أسباب الحياة والعمران ، فظهرت القرى ، وتنوعت الحرف التى تتصل بالزراعة ، وفلاحة الأرض ، وتنظيم الرى ، وحصاد الزرع ، وحفظ المحصول ، وغير ذلك من شئون الحياة الزراعية المستقرة . وكل ذلك حدث فى العصر الحجرى الحديث الذى ترجع بدايته إلى نحو ٦٠٠٠ — ق . م كما سبق ذكره . وقد ساعد فيضان النهر

على رقى الزراعة ، إذ تعاون نظام الفيضان والمناخ ونوع التربة على ذلك . فهذه الظروف الجغرافية، هيأت البلاد لأن تكون مسرحاً صالحاً لحياة الاستقرار والاستيطان. وكان الوادى والدلتا فى العصر الحجرى الحديث ، ما زال كثير المستنقعات ، ولذا اقتصر نشاط الإنسان فى هذا العصر على حافات الوادى الخارجية ، ولكن النهر أخذ يردم تلك المستنقعات ، بما يجلبه من طمى ، فاستطاع الإنسان أن ينزل إلى قاع الوادى ، وبذلك بدأ عصر ماقبل الأسرات .

وقد كان لهذه الحركة أثرها فى ظهور اتحاد سكان الوادى ، وذلك رغبة فى درء الأخطار المشتركة التى تهددهم ، وخاصة فى زمن الفيضان ، والرغبة فى تبادل المنافع مثل الاشتراك فى بناء القرى على المناطق المرتفعة عن مياه الفيضان ، وتقوية الجسور وغيرها ، يضاف إلى ذلك أن الزراعة فى مصر المعتمدة على الرى الحوضى ، لا تقوم بالمجهود الفردى ، بل تتطلب تضافر الجميع ، وهكذا أخذت الأوطان الصغيرة فى الاتحاد حتى تكونت الولايات ثم ظهرت مصر المتحدة بقيام الأسرة الأولى حوالى ٣٠٠٠ ق . م .

وقد أفادت مصر من موقعها الجغرافى بين الشرق والغرب فى كثير من أدوار تاريخها، فلقد تحكمت فى طرق التجارة فى العصور القديمة والوسطى ، وأضافت بذلك إلى موارد ثروتها الزراعية ثروة أخرى تجارية . ولكن كما أن مصر أفادت من موقعها فى فترات قوتها وتوسعها ، كان غيرها من الدول يطمع فى التسلط عليها ، واستغلالها فى فترات ضعفها وانكماشها ، فمكن هذا الموقع الجغرافى المتوسط كثيراً من الغزوات وموجات الهجرة من الوصول إلى مصر، فأتت إليها غزوات من الشرق ، وأخرى من الغرب . ذلك أن الصحارى رغم ضمانها لحماية مصر، إلا أنها لم تعزلها عن العالم الخارجى عزلا تاماً ، فقد كانت شبه جزيرة سينا سهلة فى اختراقها ، وخاصة فى الشمال ، كما كانت الصحراء الشرقية أيضاً سهلة الاختراق ، وقامت علاقات تجارية مع مناطق البحر الأحمر . مثل ذلك يقال عن المناطق الشمالية فى الصحراء الغربية ، التى وصل عن طريقها بعض الهجرات الليبية .

وإذا نظرنا إلى مناطق الهلال الخصيب ، لوجدنا أن الحافة الغربية منه ، التى تشمل ما يسمى حالياً بسوريا ولبنان وفلسطين كانت تكون منطقة حضارية خاصة بها ، وكان ساحلها مركزاً للحضارة الفينيقية . وهذه المنطقة لاتعتمد فى اقتصادياتها على مجموعة نهرية أو نهر واحد كبير ، بل تعتمد فى زراعتها على الأمطار التى تكفى لوجود حياة رعوية وزراعية ، وخاصة زراعة الحبوب والحدائق . وقد سببت زراعة حدائق الكروم

والفواكه منذ القدم ، ربط السكان بالأرض ، ولكن الأرض المزرعة لم تكن متصلة ، بل كانت مبعثرة هنا وهناك في المناطق التي تصلح للزراعة ، لذلك كانت تفصل بينها مساحات واسعة من الصحارى أو الجبال .

وقد كونت كل منطقة زراعية صغيرة وحدة مستقلة في اقتصادياتها ، تطورت في طريقها الخاص بدون أن تعتمد على غيرها من المناطق ، أو يصبح من الضرورى قيام رابطة سياسية بينها ، بعكس الحال في مصر ، كما أن هذه الوحدات الصغيرة التي لا يجمع بينها رابطة طبيعية ، أو سياسية ، أو اقتصادية ، كانت قريبة من الجبال التي يتوفر بها الخامات والأخشاب ، فكان في إمكانهم الحصول عليها بدون الحاجة إلى إرسال بعثات طويلة المدى ، كالبعثات التي كانت ترسلها مصر إلى سيناء للحصول على المعادن ، أو كالبعثات المصرية إلى سواحل فينقيا للحصول على الأخشاب . وبذلك كان في إمكان كل وحدة صغيرة ، أن تعتمد على نفسها ، بدون أن تحتاج إلى رابطة مركزية قوية ، تجمع بينها وبين غيرها ، وبدون الحاجة إلى القيام بالأعمال التجارية ، أو الصناعية ، أو التركز في المدن . ولذا كان نمو المدن في هذه المنطقة ، فيما عدا منطقة الساحل ، بطيئا للغاية إلا في العراق . كما تأخر دخول هذه المناطق في العصور التاريخية إلى ما بعد الألف الثالث قبل الميلاد ، أي بعد مصر بما يقرب من ١٠٠٠ سنة .

وقد كان لمجاورة هذه البلاد لشمال الصحراء العربية ، حيث البدو الذين لا تجمعهم وحدة مركزية قوية ، سببا في تعرض هذه المناطق للغزوات والهجرات ، أضف إلى ذلك أن وجود المادة الخام من معادن وأخشاب ، جعلها مطمعا للجماعات الأقوى ، فتعمد إلى احتلالها واستغلال مواردها .

وقد كانت ثغرة حلب في الشمال المدخل الشمالى لسوريا ، فمن طريقها دخل بعض البدو إلى سوريا كما دخل منها : البابليون ، والأشوريون ، والحيثيون ، والأرمن ، ثم الأتراك أخيرا ، ونزلوا جميعا من مناطق الهضاب المجاورة . كما كانت هذه الفتحة هى استمرار للطريق التجارى القديم الذى يصل بين العراق وساحل البحر المتوسط . أما من الجنوب ، فكان الإقليم سهل الاتصال بالصحراء العربية ، وقد كان للمرتفعات التى قلنا إنها تسير في خطوط من الجنوب إلى الشمال ، ممثلة في مرتفعات المواب (moab) ولبنان أثرها في انتشار البدو الذين انتشروا شمالا على طول الجانب الشرقى من هذه المرتفعات .

وقد لعبت منطقة حلب دورا كبيرا في التجارة المارة بين بحر ايجيه وبين الخليج الفارسى . كما قامت مدن تجارية عديدة على ساحل فنيقيا ، وبيبلوس ، وصور ، وصيدا .

أما الجزء الشرقي من الهلال الخصيب ، وهو بلاد النهرين ، فقد كانت ظروفها تختلف بعض الاختلاف عما شاهدناه فى مصر وسوريا ، فالزراعة الحوضية كان بها شيء من الصعوبة ، نظراً لنظام فيضان الأنهار التى تعزر مياهها فى الربيع وأوائل الصيف ويعقب ذلك الفصل الحار . ولكن كان لوجود شبكة نهرية فى الجزيرة ، بما تكفله من مساحات خصبة صالحة للإنتاج أن قامت الزراعة وإن كانت بطريقة غير طريقة الرى الحوضى . وقد ظهر اختلاف طبيعة البلاد المصرية عن أرض الجزيرة فى طريقة إنشاء القرى والمدن ؛ فمصر مثلا التى يغمرها الفيضان ، والتى هى عبارة عن شريط ضيق من الأراضى الخصبة نجد انتشار المدن فيها به شيء من الصعوبة ، ولذلك تجمعت المساكن ، فى قرى صغيرة لا فى مدن . وكان من الأيسر بسط السلطان على القرى ، وجعل المظهر المدنى مقصورا على حاضرة واحدة للمملكة ، فالتفت البلاد فى مصر السفلى حول منف ، وفى مصر العليا حول طيبة ، وبذلك كانت وحدة البلاد من أهم خصائص مصر فى العصور التاريخية . أما فى بلاد النهرين ، فوجود المساحات الخصبة الصالحة للزراعة مع توفر أسباب الأتصال قد ساعد على قيام عدد عظيم من المدن . كما أن مجاورة أرض العراق للصحراء ، واتصال البدو بالسكان المستقرين لتبادل المتاجر والمنافع سبب وجود أسواق تجارية على حافة الصحراء تحولت إلى مدن . ولقد كانت المنازعات بين المدن أهم ظاهرات التاريخ العراقى مدى قرون عدة . وكان مظهر عدم الوحدة بينها أهم خصائص أرض العراق فى ذلك الوقت .

وقد عمرت بلاد الرافدين بسكانها عند نهاية العصر الحجرى الحديث ، بواسطة غزاة من مناطق الاستبس فى غربها ومن مناطق الجبال والهضاب فى شمالها وشرقها ، فقد وصل إليها السومريون الذين أتوا من الجبال والهضاب وهم قبائل غير سامية ، كما وصل إليها الساميون حوالى سنة ٣٠٠٠ ق . م من الصحراء الغربية وكونوا لهم مملكة فى منطقة أكاد ، فسموا بالأكاديين ، ثم أتى العموريون . وبينما كان الساميون يدخلون العراق من الجنوب والغرب ، كان سكان الجبال يدخلونها من الشمال والشرق ، وهؤلاء لم يكونوا من الساميين ، بل كانوا مجموعة من الألبيين وطلائع النرديين . وقد تصارع هؤلاء مع الساميين على احتلال الهلال الخصيب .

وقد قامت أقدم حضارة فى غرب آسيا على الحافة الشرقية من الهلال الخصيب على طول المجرى الأدنى من نهرى الدجلة والفرات ، وإذا بدأنا من الجنوب وجدنا منطقة شط العرب ، وهى منطقة مشهورة بالتجارة والملاحة منذ القدم وكانت معبراً

بين بلاد العرب وإيران . وفى هذه المنطقة وجدت بعض المدن القديمة التى زالت معالمها بسبب الرواسب التى غطتها . وإلى الشمال من شط العرب كانت توجد مجموعة من القرى مهددة بالفيضان يسكنها بعض العشائر التى تشتغل برعى الأبقار فى المستنقعات. وكان هذا الإقليم غير جذاب للهجرات ، سواء أكانت من الصحراء أم الهضاب المجاورة ، وكانت طوال تاريخها تابعة للمدن القوية الموجودة فى المناطق الجافة ، ولا زال سكانها الحاليون من نسل الكلدانيين والبابليين . أما فى أرض الجزيرة ، بين نهرى الدجلة والفرات ، فتوجد مجموعة من المدن القديمة تقع أغلبها فى الجزء الغربى من السهل ، وقد جذبت هذه المنطقة الهجرات ، وقامت بها مدن مثل أور وأريدو وإرك وسنكه ، وقد حل محلها حاليا بلدة سوق الشيوخ والناصرية وغيرها .

وإلى الشمال من ذلك ، توجد منطقة ضعيفة فى تصريفها المائى ، وتوجد بها بعض المستنقعات على طول الضفاف الغربية لكل من الدجلة والفرات . وفى هذه المنطقة قامت مملكة بابل ، وقد وجدت فى هذه المنطقة مدن قديمة ، لعبت دوراً كبيراً فى التاريخ التجارى للإقليم ، وهى مجموعة مدن بابل التى ورثتها الأنبار ، والحيرة ، وكربلاء ، فى العصور الوسطى . وكانت هذه المجموعة من المدن هى أهم ما يميز العراق ، إذ دخل إليها الساميون وكونوا مملكة بابل ، وانتشروا فيها شمالا إلى منطقة أشور . أما السهول الشمالية لأرض الجزيرة فهى منطقة رعوية ، هاجر إليها اليهود ، والأراميون ، والعرب ، وظهرت فى هذه السهول مدن مثل أشور وحران . كما وجدت فى هذه المنطقة مجموعة من المدن التجارية أو الأسواق على طول الحافة الشمالية لمنطقة الجزيرة العليا . وقد ظهر فى هذه المنطقة ، علاوة على الرعى، حرفة نقل المتاجر ، والقيام بالأعمال التجارية ... واستمر الحال كذلك حتى العصور الوسطى .

لم تكن بلاد الرافدين أقل اعتمادا على التجارة من مصر ، فقد كانت تستورد المواد الخام اللازمة للصناعة : كالنحاس ، والرخام ، والأخشاب ، والأحجار الكريمة ، وبعض المواد الغذائية من تلال أرمينيا ، وسوريا ، وفلسطين ، وآسيا الصغرى . وكان طريق التجارة يسير على طول وادى نهر الدجلة حتى مدينة الموصل الحالية ، ثم يسير الطريق غربا على طول النطاق الجنوبى ، من الجبال إلى ثغرة حلب ، وهنا نمت مدينة أشور عند النقطة التى يترك فيها طريق التجارة نهر دجلة ، كما قامت مدن تجارية على طول هذا الطريق التجارى ، مثل نصيبين وحران وغيرها من المدن التى لعبت دورا هاما فى تجارة هذا الجزء من العالم ، وساهمت بنصيب وافر فى انتشار حضارة الشرق الأدنى إلى غيرها من مناطق العالم .

عصر المعدن : عرف استخدام المعدن فى بلاد الشرق الأدنى فى وقت مبكر ، فعرف استخدام النحاس فى مصر حوالى ٤٠٠٠ سنة ق.م . ولما جاءت الألف الثالثة قبل الميلاد ، كان استخدام هذا المعدن منتشرا فى أحواض الأنهار الكبرى فى مصر والعراق ، وفى الساحل الفينيقى فى بيلوس وأوجاريت ، ثم حوالى ٢٠٠٠ سنة ق.م انتشر استخدام البرنز فى كل جهات هذا الشرق ، وبذلك لم يعد استخدام المعدن مقصورا على النحاس والذهب والفضة ، بل أصبح يشمل المعادن التى يحولها الإنسان إلى سبائك من خلط معدنين أو أكثر ، مثل البرنز الذى هو خليط من النحاس والقصدير ويتم بواسطة صهرهما فى الأفران . وقد كان استخدام البرنز سببا فى ظهور الجهات الغنية بالمعادن على مسرح التاريخ ، مثل : القوقاز ، وأرمينيا ، وآسيا الصغرى ، وقبرص ، وفارس . وقد كان اختراع السيف البرنزى سببا فى حدوث هجرات بشرية فى داخل هذا الإقليم ، ثم هجرات منه إلى الأقاليم الأخرى .

وكانت آسيا الصغرى بالذات ، تمتاز بحضارة معدن أرقى من جيرانها بكثير ، ولكنها منذ بداية الألف الثانية ، قبل الميلاد ، أخذت جهات أخرى تنافسها فى هذا الميدان ، بفضل سكان آسيا الصغرى أنفسهم ، الذين هاجروا منها بحثا عن المعدن ، وأقاموا صناعات معدنية فى القوقاز ، وفارس ، وسوريا ، وفلسطين .

ولم تكن آسيا الصغرى أسبق من غيرها فى صنع السيف البرنزى فحسب ، بل سبقت غيرها فى صنع السيف الحديدى ، وهو أشد فتكا من السيف البرنزى . وكان التفوق فى صناعة الأسلحة الحديدية مما أكسب سكان هذا الإقليم من الحيثيين قوة ، كان لها أثرها فى حدوث موجات من الهجرات البشرية الأخرى ، كالهجرات التى حدثت فى عصر البرنز . وهكذا نجد الوصول إلى معرفة معدن جديد سببا فى حدوث هجرات وغزوات جديدة . ويرتبط التاريخ السياسى القديم فى إقليم الشرق الأدنى باختراع هذه الأسلحة الجديدة .

ومما يدل على ارتباط هذا الإقليم ببعضه حضارياً ، أن الأدوار الحضارية فى كل جزء من أجزائه تعاصر الأدوات الحضارية فى الجزء الآخر ، ومثال ذلك : نجد أن انقسام التاريخ المصرى القديم إلى دولة قديمة ووسطى وحديثة ، كان يعاصره فى كريت الحضارة المينوية القديمة والوسطى والحديثة ، كما كان يعاصره فى الساحل الفينيقى حضارة أوجاريت القديمة والوسطى الحديثة . ويفسر هذا بتفسيرين : تفسير طبيعى ، وتفسير بشرى . فأما التفسير الطبيعى ، فهو حدوث دورات من الجفاف والمطر فى الجزء الصحراوى من هذا الإقليم كانت تدفع بالسكان فى فترات الجفاف إلى مناطق الاستقرار ، فتحدث

الاضطراب فيه وتسبب ما نسميه بفترة التدهور الحضارى . وأما التفسير البشرى ، فهو أن يأنس شعب من شعوب هذا الإقليم فى نفسه القوة بسبب معرفة آلة جديدة من آلات القتال ، فيغير على جيرانه . وتتدافع القبائل من أجل هذا ، ويحدث الاضطراب الذى ينتشر كأمواج البحر ، حتى تعم كل جهات هذا الإقليم . ويضرب مثل لذلك بالحيثيين والهكسوس . على أن التفسيرين الطبيعى والبشرى مرتبطان ببعضها ، ومن الجائز أنهما تعاونا على إحداث التدهور الحضارى فى أغلب أدوار التاريخ فى بلاد الشرق القديم .

الصور الحضارية فى الشرق القديم :

على أنه مع وجود عوامل البيئة الطبيعية المشتركة فى كل هذه الأجزاء ، وهى العوامل التى أدت إلى قيام الحضارة بها ، إلا أنه توجد اختلافات محلية بين هذه الأجزاء وبين بعضها . ومن أجل ذلك اختلفت صور الحضارة فى كل منها ، ويمكن أن نحصر هذه الصور الحضارية فيما يأتى :

١ — مصر : حيث السهل الفيض المتصل من أقصى شمالها إلى أقصى جنوبها ، وقد أدى هذا إلى قيام مملكة متحدة كانت بداية للعصور التاريخية فى العالم كله ، وكان اتصال السهل وطبيعة فيضان النهر من عوامل اتحاد مصر كما سنعرف تفصيله فيما بعد .

٢ — العراق (بلاد النهرين أو ميزوبوتاميا) : حيث شكل السهل مختلف وطبيعة الفيضان مختلفة ، فلم يكن هناك مايبعث على قيام اتحاد بين أجزاء الأقاليم المختلفة ، فوجدنا السومريين فى الجنوب ، والبابليين فى الوسط ، والأشوريين فى الشمال . ولم تكن الصورة الحضارية زراعة صرفة كما هو الحال فى مصر ، بل كانت خليطا بين حضارة الزراع وحضارة المدن كما سنعرف تفصيله فيما بعد .

٣ — شمال شبه جزيرة العرب : حيث الصحراء والسهوب الفقيرة ، جنوب خط يمتد من مرعش إلى نصيبين ، وحيث مستودع الساميين الذين لم تمكنهم بيئتهم من إقامة حضارة استقرار واسعة المدى طويلة الأمد ، فأخذوا يمونون الجهات المجاورة فى الهلال الخصيب ومصر بجماعات سامية كلما أصاب الصحراء جدب يجعلها تضيق بسكانها ، فانطبع الهلال الخصيب بالطابع السامى منذ بداية العصور التاريخية ، ولكن مصر قاومت هذا الضغط السامى بسبب تنظيمها السياسى المبكر واتحاد البلاد وقيام حكومة مركزية تحصن الحدود ، وتقيم فيها الحراس الذين لايسمحون بدخول الساميين وقطعانهم إلى شرق دلتا النيل ، إلا بإذن من فرعون .

٤ — آسيا الصغرى : حيث الهضبة التى لفظت سكانها بمجرد أن زاد عددهم ، وأنسوا فى أنفسهم القوة فى عهد الحيثيين ، إذ انتشر هؤلاء من مركزهم الأصلى حول نهر هاليس ، فوصلوا إلى قرقميش فى منطقة الفرات الأعلى وحلب فى شمال سوريا والإسكندرونة واللاذقية على شاطئ البحر المتوسط .

٥ — ساحل البحر المتوسط الشرقى (الساحل الفينيقى) : حيث نشأت أمة سامية بحرية انتشرت فى حوض البحر المتوسط ، تمارس الوساطة التجارية ، وتقيم المستعمرات التجارية فى عدة بقع من ساحله . ودفعها إلى ركوب البحر البيئة الساحلية ووفرة الأخشاب وفقر الإقليم فى الموارد الغذائية ، فاتخذوا من التجارة البحرية حرفة لهم .

٦ — حوض بحر إيجه : ويشمل كريت ، وجزر السيكليد ، وبلاد اليونان حتى جنوب تساليا ، والساحل الغربى لآسيا الصغرى ، بما فى ذلك منطقة المضايق (البوسفور والدردنيل) ، وجزيرة قبرص ، حيث قامت حضارة بحرية قوامها مدن مستقلة ، لاتجمع بينها حكومة مشتركة ، ولا تتضامن مع بعضها إلا فى بعض الأحيان ، بقصد دفع خطر مشترك . ولم تنشأ الحضارة فى وقت واحد فى أجزاء بحر إيجه ، كما أن الحضارة — عموما — فى هذه الأجزاء قامت فى وقت متأخر نسبيا عن الوقت الذى نشأت فيه فى مصر والعراق .

٧ — فارس حيث هضبة إيران :

وقد هاجرت إليها طوائف آرية قدمت من أواسط آسيا واستقرت فيها منذ أكثر من ألف عام قبل الميلاد ، فنزل الميديون فى الأجزاء الغربية لتلك الهضبة ، وفى كردستان والعراق ، ونزل الفرس فى الولايات الجنوبية الغربية التى سميت باسمهم، ثم أطلق اسمها على الهضبة الإيرانية كلها منذ عصر الأكمينيين ، حيث قامت حضارة راقية من قديم الزمان ، كان طابعها الخاص الانقسام إلى ولايات شبه مستقلة بحكم الطابع الجبلى للإقليم ، وترتبط هذه الولايات بالحكومة المركزية فى إقليم فارس ، بقصد تنظيم أمورها المشتركة .

وسندرس فى هذا الكتاب هذه الصور الحضارية كلها . وستكون دراستنا لها بحسب الترتيب الآتى : مصر — بلاد النهرين — هضبة آسيا الصغرى — شمال شبه جزيرة العرب — الساحل الفينيقى — فارس — حوض بحر إيجه .

الفصل الثاني

حضارة مصر فى عصر ما قبل التاريخ

مدلول تعبير ما قبل التاريخ : اصطلح مؤرخو الحضارة على تقسيمها إلى مرحلتين كبيرتين ، المرحلة السابقة لمعرفة الكتابة ويطلقون عليها اسم « ماقبل التاريخ » ثم المرحلة اللاحقة لظهور الكتابة ويطلقون عليها اسم « التاريخ » وهم يقصدون بذلك أن المعلومات عن عصر ما قبل التاريخ مستمدة من آثار الإنسان وحدها ، وأما المعلومات عن عصر التاريخ فمستمدة من آثار الإنسان بالإضافة إلى مادونه الإنسان نفسه من معلومات عن تاريخه وحضارته على الأوراق واللوحات وجدران المعابد والمقابر وغير ذلك .

وقد دلت هياكل الإنسان القديم ومخلفاته الأثرية على أنه وجد منذ منتصف عصر البليستوسين الجيولوجى أى منذ حوالى نصف مليون سنة . [ولم يكن وجوده فى هذا العصر مقصوراً على قارة معينة بل كان ينتشر فى كل قارات العالم القديم : آسيا ، وأوروبا ، وأفريقيا . وقد كانت أدوات الإنسان الأولى من العظم والخشب والحجارة ، فأما أدوات العظم والخشب فقد بلى معظمها بمرور الزمن ولم تبق إلا الأدوات الحجرية ، ولذلك أطلق على هذه المرحلة من مراحل حضارة الإنسان اسم العصور الحجرية .

ثم عرف الإنسان النحاس حوالى سنة ٤٠٠٠ ق . م . وعرف البرنز حوالى سنة ٢٠٠٠ ق . م وعرف الحديد حوالى سنة ١٠٠٠ ق . م . وفى نفس الوقت وصل الإنسان إلى كشف هام هو التعبير عما يدور بذهنه بواسطة رموز يخطها بيده وهو ما نسميه الكتابة . وقد عرفت الكتابة فى بعض بلاد الشرق الأدنى مثل مصر والعراق حوالى سنة ٣٠٠٠ ق . م ولكنها لم تعرف فى أوروبا إلا فى وقت متأخر ؛ فعرفت فى إيطاليا مثلا حوالى سنة ٦٠٠ ق . م ولم تعرف فى فرنسا وبريطانيا إلا مع الفتح الرومانى لتلك البلاد .

وواضح من هذا أمور ثلاثة :

١ — أن نهاية عصر ما قبل التاريخ وبداية عصر التاريخ ليست واحدة فى كل جهات العالم .

٢ — أن الانتقال من عصر ماقبل التاريخ إلى عصر التاريخ لا يرتبط بتغيير معين فى معالم حضارة الإنسان فيما عدا معرفة الكتابة ... فمصر مثلا حينما صنعت البرنز حوالى سنة ٢٠٠٠ ق.م والحديد حوالى سنة ١٠٠٠ ق . م كانت فى ذلك الوقت فى العصر التاريخى الذى بدأ

فيها حوالى سنة ٣٠٠٠ ق . م ، وأما أوروبا فقد صنعت البرنز والحديد فى نفس الوقت أى سنة ٢٠٠٠ ق . م ، ١٠٠٠ ق . م على الترتيب ، ولكنها كانت فى ذلك الوقت ما زالت فى عصر ما قبل التاريخ .

٣ — مرحلة ما قبل التاريخ طولها خمسمائه ألف سنة على أقل تقدير ، وأما مرحلة التاريخ فطولها خمسة آلاف سنة على أكثر تقدير .

مراحل حضارة مصر فى عصر ما قبل التاريخ :

مرت مصر فى عدة مراحل حضارية فى عصر ما قبل التاريخ هى ما يأتى :

١ — مرحلة العصر الحجرى القديم Palaeolithic

٢ — « « « الحديث Neolithic

٣ — « عصر ما قبل الأسرات أو العصر الحجرى النحاسى Chalcolithic

ويبين الجدول الآتى تتابع هذه المراحل وتواريخها التقريبية وصلتها بعصر البليستوسين الجيولوجى ثم بالعصر الجيولوجى الحديث .

العصر الجيولوجى	العصر البشرى	تواريخ تقريبية
العصر الحديث	العصر التاريخى	من ٣٢٠٠ إلى الوقت الحاضر
	عصر ما قبل الأسرات	من ٤٥٠٠ إلى ٣٢٠٠ ق . م
	الحجرى الحديث	من ٦٠٠٠ إلى ٤٥٠٠ ق . م
	« القديم الأعلا (السبيلى)	من ٢٠٠٠٠ إلى ٦٠٠٠ ق . م
البليستوسين	الحجرى القديم الأوسط (الموستيرى)	من ٥٠٠٠٠ إلى ٢٠٠٠ ق . م
	الحجرى القديم الأسفل (الشيلى والأشولى)	انتهى سنة ٥٠٠٠٠ ق . م
	عصر ما قبل الإنسان فى مصر .	

جدول يبين تتابع مراحل الحضارة فى عصر ما قبل التاريخ فى مصر

ويتضح من هذا الجدول أن الحضارة فى مصر فى مرحلة العصر الحجرى القديم بدأت بما يسمى بالعصر الحجرى القديم الأسفل حيث الحضارتان الشيلية والأشولية نسبة إلى مكانين بهذا الاسم فى فرنسا [١] ثم مرت فيما يسمى بالعصر الحجرى القديم الأوسط حيث الحضارة الموستيرية نسبة إلى مكان بهذا الاسم فى فرنسا أيضا ثم انتهى هذا العصر بما يسمى العصر الحجرى القديم الأعلى حيث الحضارة السبيلية نسبة إلى قرية السبيل بالقرب من كوم أمبو .

على أنه ينبغى أن يحدد مدلول اسم «مصر» فى العصر الحجرى القديم بأقسامه الثلاثة الأسفل والأوسط والأعلى ، فلم تكن مصر فى ذلك الوقت هى وادى النهر ودلتاه كما هو فى الوقت الحاضر بل كانت مصر هى الصحارى الحالية فى شرق النيل وفى غربه حيث كانت هذه الصحارى صالحة للاستيطان البشرى بسبب وفرة المطر والعشب بينما لم يكن وادى النهر ودلتاه قد تكونا بعد بصورتهما الحالية بل كانت المستنقعات تغمرهما إلى درجة تجعلهما غير صالحين للاستيطان البشرى . ولم يكن هنالك ما يدعو الإنسان إلى سكنى الوادى فى ذلك الوقت إذ أن ما يسمى الصحراء فى الوقت الحاضر كانت فى العصر المطير رطبة وموارد الماء منتشرة فى كل أرجاء الصحراء وما كذلك يتبع موارد الماء من عشب وحيوان يصلحان غذاء للإنسان .

ثم دخلت مصر فى مرحلة العصر الحجرى الحديث ، وتغير مدلول اسم « مصر » نتيجة لتغير مناخى عم العالم وأنهى العصر الحجرى القديم فى كثير من أجزائه . وذلك أن العصر المطير قد آذن بالزوال بعد الألف العاشرة قبل الميلاد فلما جاءت الألف السادسة قبل الميلاد كانت مصر تخضع لظروف مناخية يسودها الجفاف فأدى هذا الجفاف إلى عدم صلاحية الصحارى للاستيطان البشرى ، ولكنه أدى فى نفس الوقت إلى صلاحية وادى النيل لمثل هذا الاستيطان ، فقد قلنا إنه كان فى العصر المطير كثير المستنقعات ، فلما حل عصر الجفاف جفت مستنقعات الوادى وتحول سهله الفيضى إلى بيئة صالحة لاستقبال السكان الذين طردتهم الصحراء . أى أن الجفاف أدى إلى نتيجتين مختلفتين فى الصحراء وفى الوادى فبينما حول الصحراء إلى بيئة غير صالحة للسكنى نجده قد حول الوادى إلى بيئة صالحة للحياة البشرية .

---

(١) تطلق على حضارات العصر الحجرى القديم فى أغلب الأحوال وفى أغلب جهات العالم أسماء فرنسية لأن علم ما قبل التاريخ نشأ فى فرنسا . فلما أخذت بلاد العالم الأخرى تدرس حضارات عصر ما قبل التاريخ فى بلادها استخدمت الأسماء الفرنسية لكى تسهل المقارنة بين هذه الحضارات وبين مثيلاتها فى فرنسا وفى جهات العالم الأخرى .

وقد قلنا فى الفصل السابق إن حضارة العصر الحجرى الحديث حضارة استقرار فى قرى ثابتة ، فإذا أراد الباحث أن يبحث عن آثار هذه القرى فلا بد أن ينقب عنها عند الحط الفاصل بين السهل الفيضى وبين الصحراء أى عند الخط الذى يحدد آخر مدى يصل إليه الفيضان وذلك لأن الناس تحاشوا عند إقامة قراهم شريط الأرض الذى يغمره الفيضان حتى لايغرق النهر قراهم فى كل عام .

ويبين الجدول الآتى محلات الاستيطان التى كشفت فى مصر حتى الوقت الحاضر والتى ترجع للعصر الحجرى الحديث ولعصر ما قبل الأسرات (انظر الخريطة شكل ٦) فأما محلات العصر الحجرى الحديث فهى كما يدل عليها الجدول دير تاسا بالصعيد بمديرية أسيوط ثم بعض مدرجات بحيرة قارون بالفيوم ثم حلوان بالقرب من فم وادى حوف ثم مرمدة بنى سلامة بالقرب من الخطاطبة ومن وادى النطرون . وقد قامت هذه المحلات بين الألف السادسة وبين الألف الخامسة قبل الميلاد .

ثم بعد ذلك تدخل مصر مرحلة العصر الذى تسميه «عصر ماقبل الأسرات» . وما يميز عصر ما قبل الأسرات عن العصرى الحجر الحديث أمران . الأمر الأول : زيادة

التاريخ	الوجه البحرى والفيوم	الوجه القبلى
٣٢٠٠ قبل الميلاد	الأسرة الفرعونية الأولى	الأسرة الفرعونية الأولى حضارة سمانية (ماقبل طينه) حضارة جرزة
٤٠٠٠ قبل الميلاد	حضارة المعادى	
	« مصر الجديدة	
	« حلوان الثانية	
	(حلوان ب)	حضارة العمرة
٥٠٠٠ قبل الميلاد	حضارة الفيوم الثانية (فيوم ب)	حضارة البدارى
	« مرمدة بنى سلامة	
	« الفيوم الأولى (فيوم ا)	
٦٠٠٠ قبل الميلاد	« حلوان الأولى	حضارة ديرتاسا
	(العمرى أو حلوان ا)	

جدول يبين تتابع حضارات العصر الحجرى الحديث وعصر ما قبل الأسرات فى مصر

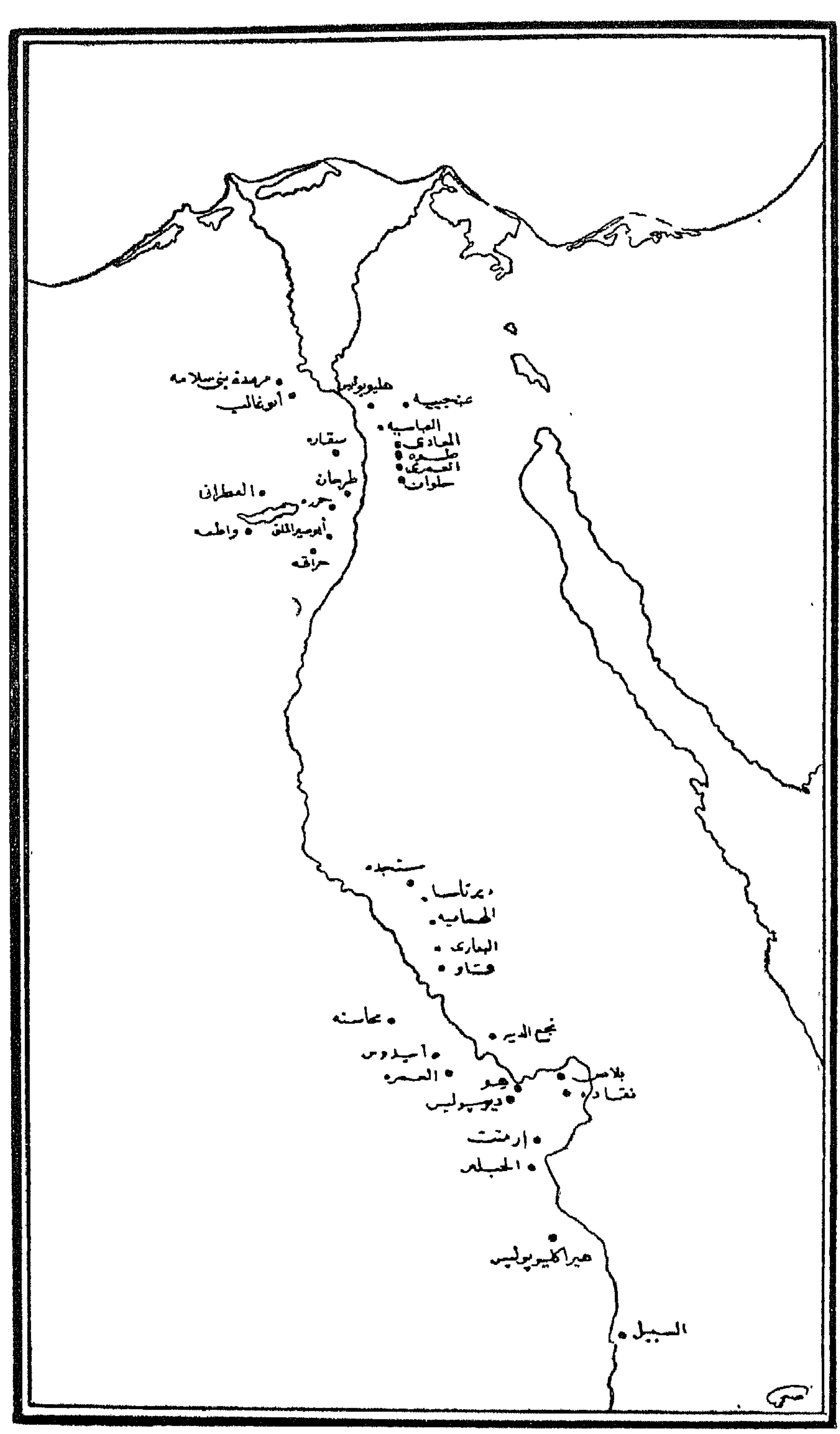
الاستقرار، والأمر الثانى : استخدام المعدن وأول معدن استخدم فى مصر هو النحاس . ومن أجل هـذا يمـكن أن نسمى عصر ما قبل الأسرات فى مصر بالعصر الحجرى النحاسى Chalcolithic

فأما عن الأمر الأول : فقد كان الناس فى العصر الحجرى الحديث نصف مستقرين فـكانت لهم مساكنهم الثابتة وقراهم وصناعاتهم التى تتطلب الاستقرار كصناعة الآنية الفخارية غير أنهم لم يكونوا قد قطعوا صلتهم بالصحراء قطعا تاما بل كانوا مازالوا يمارسون بعض الحرف الصحراوية كالرعى والصيد إلى جانب حرف الاستقرار كالزراعة والصناعة . ولـكن فى عصر ماقبل الأسرات كان المصريون قد التزموا الوادى بصفة نهائية وازدادت عنايتهم بحرف الاستقرار ووجدت ملـكية العقار الثابت ووجد التخصص الإقليمى ونشأت المديريات ذات الحدود الواضحة وذات الديانة الخاصة . وليس أدل على زيادة الاستقرار فى عصر ماقبل الأسرات عنه فى العصر الحجرى الحديث من أنه لم تكتشف من العصر الحجرى الحديث الصرف فى مصر الا أربع محلات بينما كشف من محلات عصر ما قبل الأسرات مالا يقل عن عشرين هى الـكوم الأحمر وأرمنت ونقادة وبلاص وهو والأبعدية وسماينة والعمرة وأبيدوس والحاسنة ونجع الدير والبدارى وقاو الكبير وهمامية ومستجده وحراقة وأبو صير وجرزة وواطفة والمعادى ودجلة وحلوان وهليوبوليس. وتبين الخريطة (شكل ٦) مواضع هذه المحلات وهى إما قرى أوجبانات أوهما معا .

وأما عن الأمر الثانى وهو استخدام المعدن ، فإنه معدن النحاس هو أول معدن استخدم فى مصر ، وحتى بعد أن عرف غيره من المعادن ظل هو المعدن الرئيسى طوال عصر ماقبل الأسرات وفى عصر الأسرات حتى الأسرة الثانية عشرة حينما بدأ المصريون استعمال البرنز .

وإذا أمعنا النظر فى الخريطة التى تبين محلات عصر ماقبل التاريخ فى مصر لوجدنا أن هذه المحلات تتركز فى مجموعتين: مجموعة شمالية تمتد من الفيوم إلى القاهرة ، ومجموعة جنوبية تمتد من الشلال الأول حتى أسيوط . وأما الجزء الفاصل بين المجموعتين فيكاد يخلو من مراكز الاستيطان سواء فى العصر الحجرى الحديث أو فى عصر ماقبل الأسرات.

وهذا التجمع أملته ظروف الموقع الجغرافى لـكل من قمة الدلتا مركز الإقليم الشمالى . وثنية قنا مركز الإقليم الجنوبى . فحينما حل الجفاف الشديد بالصحراء وهاجر الناس إلى الوادى كان طبيعيا أن يسلـكوا أفضل الطرق الطبيعية فى هجراتهم ، بل إن الطبيعة هى التى تحكمت فى طرق هذه الهجرات فكانت قمة الدلتا فى الشمال وثنية قنا فى الجنوب هما



(شكل ٦) خريطة تبين محلات عصر ما قبل التاريخ فى مصر

مركزا تجمع السكان فى العصر الحجرى الحديث وعصر ما قبل الأسرات لأنهما ملتقى طرق المواصلات من الشرق والغرب والشمال بالنسبة للإقليم الأول ، ومن الشرق والغرب والجنوب بالنسبة للإقليم الثانى .

ثم قام النزاع السياسى بين أهل الإقليم الأول وبين أهل الإقليم الثانى وهو النزاع الذى انتهى بتوحيـد مصر وقيام الأسرة الأولى وهى بداية المرحلة الأخيرة فى حضارة مصر القديمة .

ولقد كان المصريون يعبرون عن بلادهم بعد الاتحاد بتعبير الأرضين وكان فرعون يلقب نفسه بملك القطرين ويقصد بذلك ملك مصر الشمالية وملك مصر الجنوبية . وهذا وذاك مرجعه إلى الحالة القديمة التى كان عليها تجمع السكان فى العصر الحجرى الحديث وعصر ما قبل الأسرات .

ظروف مصر الجغرافية فى تطورها الحضارى :

الموقع : تقع مصر فى الركن الشمالى الشرقى من القارة الإفريقية ، فهى إذن جزء من القارة الإفريقية تتأثر بظروف هذه القارة . ولـكن مصر تطل بجبهة طويلة على البحر المتوسط من الشمال ، كما تطل من الشرق بجبهة طويلة كذلك على القارة الأسيوية فلا بد أن تـكون المؤثرات التى تتلقاها مصر مؤثرات إفريقية ، ومؤثرات بحر أبيض ومؤثرات أسيوية . وقبل أن نتعرض لطبيعة هذه المؤثرات لا بد أن نذكر أن مدلول كلمة مصر قد تغير فى العصور البشرية ، فنحن إذا قلنا مصر فى الوقت الحاضر فإنما نقصد الجزء المعمور من القطر المصرى وهو وادى النيل ودلتاه . ولـكن الأمر لم يكن كذلك إلى وقت قريب ، فقد كان الجزء المعمور بالسكان حتى قيام العصر الحجرى الحديث هو الجزء الصحراوى الحالى : الصحراء الشرقية والغربية وشبه جزيرة سينا ، وذلك لأن الظروف المناخية كانت تسمح بسكنى هذة الجهات بينما الظروف الأخرى لم تـكن تسمح بسكنى وادى النيل ودلتاه ، كما سنعرف عند الـكلام عن السطح .

المهم هنا أن موقع مصر كان له أثر كبير فى نشأة الحضارة بها وفى تطور هذه الحضارة بعد فترة النشأة . ولعل أهم ظاهرة فى هذا الموقع أنها إذ تطل بالجبهة الطويلة على البحر المتوسط تتوغل فى نفس الوقت بمسافة طويلة فى القارة الإفريقية . ومن هنا انقسمت مصر منذ أقدم العصور إلى قسمين بشريين من الناحية الحضارية : قسم إفريقى يمكن أن نسميه مصر الإفريقية ، وقسم بحر أبيض يمكن أن نسميه مصر البحرية (مصر البحر الأبيض أو الشمالية) وقد ظل هذا التقسيم حاداً حتى قيام الحـكم الملـكى الفرعونى حتى أن ملوك مصر الأولى وجدوا صعوبة فى توحيد هذين الإقليمين المتنافرين من الناحية البشرية .

وقد كان من الألقاب الرئيسية التى يلقب بها ملك مصر فى العصر الفرعونى أنه ملك القطرين ؛ ويقصد بالقطرين : مصر الشمالية ومصر الجنوبية . بل من الجائز أن هذا التقسيم ما زال ملموسا حتى الوقت الحاضر . وما زلنا نقول حتى الآن صعايدة وبحاروة ، ونتصور من هذه التسمية صفات جسمانية وحضارية خاصة .

السطح : أما السطح فنجد أن معالم السطح الرئيسية فى مصر هى أولا الصحراوات الشرقية والغربية ، ثم وادى النهر ودلتاه فى قلب هذه الصحراوات . وما دام الجزء الذى كان عامراً بالسكان فى مصر حتى قيام العصر الحجرى الحديث هو هذه الصحراوات فمعنى هذا أن وادى النهر ودلتاه لم يسكن إلا منذ حوالى سنة ٦٠٠٠ ق . م . أى أن تاريخ العمران فى وادى النهر لا يزيد عن ثمانية آلاف سنة فى حين أن تاريخ العمران فى الصحراوات المصرية يرجع إلى حوالى ½ مليون سنة . ومن أجل هذا ينبغى لمن يدرس الحضارة المصرية أن يلم بظروف السطح فى الصحراوات المصرية أولا ، ففى هذه الصحراوات نشأ الاستقرار البشرى وقام استغلال البيئة الطبيعية منذ أقدم العصور . وحتى فى الفترة التى سكن فيها وادى النهر كانت هذه الصحراوات ذات أهمية كبيرة لسكان الوادى لأنها كانت تمدهم بالمادة الخام من صخور ومعادن ، وما زالت ثروة مصر فى هذه الناحية تأتى من الصحراوات المصرية . ولذلك ينبغى أن يلم الباحث فى الحضارة المصرية بالتكوين الجيولوجى للصحراوات المصرية .

وينبغى أن نلاحظ أيضاً فيما عدا التكوين الجيولوجى فى هذه الصحراوات مظاهر السطح فقد كان الاختلاف فى مظاهر السطح بين الصحراء الشرقية والغربية سببا فى الاختلاف فى نوع الحياة البشرية الذى يقوم فى كل من هذين الصحراوين . فقد قلنا إن الصحراء الشرقية عبارة عن هضبة مرتفعة وهى أكثر ارتفاعاً من الغربية . ثم هى تنتهى من ناحية أخرى بمجموعة من الجبال المرتفعة تطل على البحر الأحمر وتنحدر انحداراً تدريجياً نحو وادى النهر . وقد كان لهذه الظاهرة من ظاهرات السطح أثرها فى الناحية المناخية ، فنحن نعلم أن مصدر الرطوبة فى القسم الشمالى من إفريقيا هو المحيط الأطلسى والرياح الغربية القادمة من هذا المحيط ، ومعنى هذا أن هذه الرياح تجتاز الصحراء فى هذا الجزء بدون عقبات تذكر إلى أن تصطدم بجبال البحر الأحمر فتسقط أمطاراً غزيرة فى هذا الجهات . هذه الأمطار الغزيرة ما زالت تسقط فى الوقت الحاضر إنما فى فترات متقطعة متباعدة . ولكن فى العصر المطير كانت هذه الأمطار الغزيرة مستمرة ومنتظمة مما نتج عنه جريان الوديان الكثيرة نحو الغرب . وكان الكثير من هذه

الوديان من القوة بحيث يصب فى وادى النيل . وما زالت معالم هذه الوديان واضحة فى الصحراء الشرقية ولـكنها جفت فى الوقت الحاضر ولم تعد بمستطيعة أن تصل إلى النيل مهما بلغت غزارة الأمطار حالياً فى جبال البحر الأحمر .

ونستطيع أن نتصور أن الحياة فى الصحراء الشرقية كانت مركزة على شطوط هذه الوديان وهى من الـكثرة بحيث يمكن القول إن الحياة فى العصر المطير كانت منتشرة فى الصحراء الشرقية . إنما هذه الظاهرة التى يمتاز بها سطح الصحراء الشرقية جعلت الحياة غير ممكنة بها بمجرد انتهاء العصر المطير وهى حالة لم نجدها منطبقة تماما فى الصحراء الغربية كما سنعرف فيما بعد . ونوع الحياة الذى قام فى الصحراء الشرقية بعد العصر المطير هو ما تطلبته أعمال استغلال الثروة المعدنية وفيما عدا ذلك تصبح الحياة عسيرة فى هذه الصحراء .

وإذا انتقلنا إلى الصحراء الغربية نجد أن الأمر فيها مختلف فهى هضبة مرتفعة إلا أنها مستوية أى لا تقوم فيها الجبال التى رأيناها فى الصحراء الشرقية ، وأعلى جزء فى هذه الهضبة هو الركن الجنـوبى الغربى الذى ينتهى بجبل العوينات . إلا أن سطح الصحراء الغربية يمتاز بظاهرتين هامتين كان لهما أثر فى الظروف البشرية : الظاهرة الأولى ، ظاهرة الـكثبان الرملية ؛ فالـكثبان الرملية عبارة عن تلال قليلة الارتفاع تحجز الرياح المطيرة حجزاً نسبياً وتعتبر كأنها خزانات لمياه هذه الأمطار تتسرب منها إلى القيعان المختلفة التى سنجدها فى هذه الصحراء . الظاهرة الثانية ، هى هذه المنخفضات المنتشرة فى الصحراء الغربية فإذا كان الناس قد هجروا الصحراء الشرقية هجراً كلياً لأن المصدر المائى أصبح غير دائم فإن هذه القيعان أو المنخفضات تقع تحت مستوى الوادى وتقع فى نفس الوقت فى منطقة أحجار رملية مسامية وبذلك أمكن لمياه نهر النيل أن تنصرف انصرافاً باطنياً نحو هذه المنخفضات كما أمكن المياه أن تنصرف من الجهات الجنوبية ذات المطر الصيفى الغزير من خلال طبقات الخراسان النوبى بحكم انحدار الهضبة الإفريقية التدريجى نحو الشمال . ومعنى هذا أن وجود هذه المنخفضات فى الصحراء الغربية جعل هناك مصدر مائى دائم ومضمون . وكان لهذا أثره الـكبير على الحياة البشرية بعد العصر المطير . فإذا كان الجفاف الذى حل بالصحراء قد دفع الناس إلى المجرى المائى الدائم ، وهو مجرى النيل ، فإن جماعات من هؤلاء الناس لم تجد هناك دافعا للهجرة ، هى الجماعات التى تسكن هذه المنخفضات . ومن ثم وجدنا جماعات بشرية ذات حضارات قديمة تمثل الحياة فى العصر المطير ما زالت تعيش فى الوقت الحاضر أشبه بجزر بشرية فى وسط الصحراء .

وظلت هذه الجماعات مقطوعة الصلة بالجهات العامرة فى الوادى وشمال إفريقية حتى وقت قريب . هذه العوامل التى دفعت بالسكان إلى الهجرة إلى وادى النهر . لم يكن من الطبيعى أن تتجه فى هجراتها إلى الوادى لولا أن وادى النهر فى نفس الوقت كان قد تحول بعد العصر المطير من جهات غير صالحة للسكن إلى جهات صالحة لقيام استيطان بشرى من نوع آخر .

هذه الظروف التى أخذت فى التطور فى الصحراوين الشرقية والغربية قابلتها ظروف مختلفة فى الجزء الذى تحتله فى الوقت الحاضر وادى النهر ودلتاه . ففى الصحراوات عرفنا مظاهر السطح المختلفة وكيف أن هذه المظاهر تنتج حياة بشرية تتلاءم فيها وعرفنا الفرق بين أثر السطح فى الصحراء الشرقية وبين أثره فى الصحراء الغربية .

المناخ : أما المناخ بصفة عامة فقد كان يتذبذب بين المطر وبين الجفاف إلا أن العالم كان يسير بصفة عامة نحو الجفاف التدريجى ، وبينما كان عصر البليستوسين يوصف فى أوربا بأنه العصر الجليدى فإنه يوصف فى العروض الوسطى وخصوصا فى النطاق الصحراوى بأنه العصر المطير .

وإذا نظرنا إلى الجزء الذى يحتله فى الوقت الحالى وادى النهر ودلتاه وحاولنا تتبع التطورات التى طرأت عليه حتى أصبح مكانا صالحا للاستيطان البشرى فإنه يمكن أن نقول إن وادى النهر لم يتخذ شكله الحالى إلا فى وقت قريب وإن الدلتا على الخصوص لم تتخذ شكلها الحالى إلا فى وقت أحدث نسبيا . فقد كان وادى النهر بما فيه الدلتا بطبيعة الحال عبارة عن خليج بحرى يمتد أشبه بذراع للبحر المتوسط . ولم تكن الرواسب التى يجلبها النهر من منابعه الجنوبية تكفى لردم هذا الخليج لأن النهر إلى وقت قريب أيضا ربما إلى سنة ١٤ ألف ق .م . لم يكن يتلقى مياهه إلا من المنابع الاستوائية وحدها وهى منابع كما نعلم لا تمد النهر بكميات كبيرة من الرواسب. وكانت المياه التى تأتى من المنابع الاستوائية تصل إلى الجهات الواقعة جنوب القطر المصرى. ثم إما أن تضيع فى الصحراء وإما أن تصل ضعيفة إلى حدود هذا الخليج البحرى. وينبغى أن نلاحظ المسافة الطويلة التى يقطعها النهر من هذه المنابع الاستوائية إلى الحدود المصرية دون أن يلتقى بروافد فيما عدا الروافد الحبشية. فإذا كانت هذه الروافد الحبشية غير موجودة فإن معنى هذا ضعف المياه وضعف انحدارها وقلة ما تحمله من رواسب، ثم حدث بعد ذلك أن تكونت الروافد الحبشية ، ولم تتكون هذه الروافد كما قلنا إلا فى وقت قريب جدا . وسبب هذا أنها تعتمد على أمطار موسمية ناجمة عن جذب مركز الضغط المنخفض فى قلب القارة الأسيوية لهذه المجموعة من الرياح . ونستطيع أن نتصور أن مركز الضغط المنخفض هذا القائم على الظروف الحرارية لا يمكن أن يتكون إلا بعد انتهاء العصر الجليدى وتحول الظروف المناخية إلى ظروف قريبة مما نجده الآن . ويعطى لذلك تاريخ كما ذكرنا حوالى ١٤ ألف ق.م .

وكان وصول المياه الحبشية بما فيها من رواسب نقطة تحول فى الظروف الطبيعية فى وادى النهر ودلتاه فاستطاع النهر أن يشق طريقه نحو الشمال إلى أن أصبح يصب فى البحر الأبيض المتوسط فى مصبات قريبة من المصبات الحالية . وبذلك تحول هذا الجزء الذى يشغله الوادى والدلتا إلى منطقة صالحة للسكنى وبطبيعة الحال تحولت هذه الجهات إلى مناطق مستنقعية أولا ثم أخذت هذه المستنقعات تردم بالرواسب الحبشية إلى أن وصلنا إلى منطقة القاهرة . وبعد ظهور الإنسان بفترة طويلة وبعد قيام العصر الحجرى القديم الأسفل كان النهر مازال ينتهى إلى البحر فى منطقة القاهرة ولم تكن الدلتا قد تكونت بعد . ثم تابع النهر مجهوده فى ردم هذه الجهات وفى شق طريقه خلال الجهات التى يردمها إلى أن تكون النهر ودلتاه فى صورتهما الحالية . بل إنه فى العصر الحجرى القديم الأعلى كان خط الساحل فى شمال الدلتا إلى الشمال من الخط الحالى بحوالى ١١ كم . ثم أخذ خط الساحل فى التراجع نحو الجنوب إلى أن التزم الحد الحالى . ويمكن القول بصفة محققة إنه منذ بداية العصر التاريخى فى مصر أى منذ حوالى ٥ آلاف سنة كان خط الساحل المصرى على البحر الأبيض المتوسط فى موضعه الحالى ، ومن هذا التذبذب فى خط الساحل من العصر الحجرى القديم الأعلى حتى الوقت الحاضر نستطيع أن نتصور أن المسألة لم تكن مسألة مياه ورواسب فحسب وإنما كانت مسألة تذبذب فى سطح البحر نفسه فى ذلك الوقت ، ونستطيع أن نتصور أن العلاقة بين مستوى البحر والأرض كان لها دخل كبير فى هذه الصورة النهائية التى وصل إليها وادى النهر ودلتاه .

اتفق هذا التغيير فى وادى النهر ودلتاه مع تحول الحالة نحو الجفاف فى الصحراوات فكان لابد من حدوث هجرات نحو المصادر المائية الدائمة فتحول الناس من سكنى الصحراء إلى سكنى الوادى وكان ذلك دافعا إلى قيام العصر الحجرى الحديث بمظاهره المختلفة .

ويمكن أن نحصر التطور الحضارى لمصر فى المراحل الآتية :

(أولا) العصر الحجرى القديم .

(ثانيا) العصر الحجرى الحديث .

(ثالثا) عصر ماقبل الأسرات .

(رابعا) اتحاد البلاد وقيام الأسرة الأولى .

وسنعرض فيما يلى لمظاهر الحضارة فى كل مرحلة من هذه المراحل على حدة :

(أولا) العصر الحجرى القديم :

مضى على الإنسان فى مصر — كما هو الحال فى سائر أنحاء العالم — حين طويل من الدهر قبل أن يعرف استعمال المعدن . وكان فى هذه الفترة يعيش على الصيد وعلى الجمع . وصنع من أجل ذلك آلات من العظم والخشب والحجارة . وقد أدرك الإنسان صلاحية حجر الصوان لصنع الآلات إذ رغم أنه حجر صلب إلا أنه يسهل تفصيصه إلى رقائق تشبه الأسلحة المعدنية . وكان الإنسان يحصل على الصوان من عروقه الموجودة داخل كتل الحجر الجيرى أو من الحصى المتجمع فى وديان الأنهار . ثم يشكل الإنسان من هذا الحجر آلات مختلفة بواسطة مطرقة من الحجر نفسه هى عبارة عن حصاة كبيرة مستديرة الشكل التى نسيمها (زلط) . ولم يكن الإنسان فى مرحلة العصر الحجرى القديم قد عرف الاستقرار أو عرف الزراعة ولا استئناس الحيوان . ولذلك كانت حياته حياة تجوال فيما نسميه فى الوقت الحاضر الصحارى المصرية التى كانت تمتاز بالمناخ الدفىء الرطب والنبات الكثيف ، ولذلك لا ننتظر أن نجد مخلفات العصر الحجرى القديم فى وادى النهر وإنما نجدها فى الوديان الصحراوية الحالية .

ويقسم العصر الحجرى القديم فى مصر إلى ثلاثة أقسام هى ما يأتى :

(ا) عصر حجرى قديم أسفل : كانت الآلات السائدة فيه هى التى تسمى بالفئوس الحجرية وهى آلات مصنوعة من قلب كتلة الصخر ، بمعنى أن كتلة الصخر تحول كلها إلى آلة واحدة . انظر (شكل ٧) .

(ب) عصر حجرى قديم أوسط : وفيه كانت تصنع الآلات من شظايا الصوان أى أن كتلة الصخر كانت تفصص إلى عدة آلات ويبين ذلك (شكل ٨) .

(حـ) عصر حجرى قديم أعلى : ويعرف فى مصر باسم الحضارة السبيلية نسبة إلى بلدة السبيل بالقرب من كوم امبو ، وفيه صغر حجم الآلات حتى تحولت إلى آلات قزمية ويبينها (شكل ٩) .

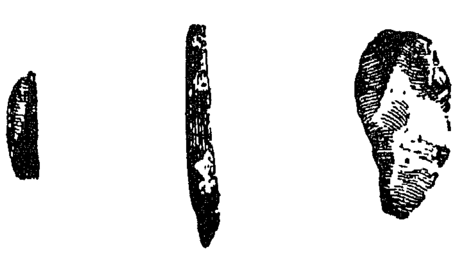
وقد أمكن التعرف على الحضارات المصرية فى العصر الحجرى القديم فى مدرجات النيل (أى شطوط النهر القديمة حينما كان أعلى مستوى منه فى الوقت الحاضر) وفى شطوط البحيرات مثل بحيرة الفيوم وبحيرة كوم امبو القديمة وفى تكوينات الواحات ورواسب خليج النيل القديم فى العباسية ، كما أمكن جمع كثير من الآلات الحجرية من سطح الصحراوين الشرقية والغربية . وهذا يدلنا على مدلول تعبير مصر فى هذا العصر كما سبق أن ذكرنا .



(شكل ٧) فأس حجرية من العصر الحجرى القديم الأسفل من الصحراء المصرية



(شكل ٨) شظايا من العصر الحجرى القديم الأوسط



(شكل ٩) آلات قزمية من العصر الحجرى القديم الأعلى (الحضارة السبيلية)

وهناك شبه بين مظاهر الحضارة المصرية فى العصر الحجرى القديم الأسفل وبين نفس المظاهر فى جهات العالم الأخرى ولكن ابتداء من العصر الحجرى القديم الأوسط يصبح لمصر طابعها الحضارى الخاص . ولا نعرف شكل الإنسان الذى صنع هذه الحضارة لأنه لم تكتشف فى مصر هيا كل بشرية ترجع لهذا العصر .

(ثانيا) العصر الحجرى الحديث :

نجد فى مصر فى العصر الحجرى الحديث أنواع الحياة الثلاثة التى يمتاز بها هذا العصر: حياة الرعى فى الصحارى المحيطة بوادى النيل ، وحياة الزراعة فى الوادى نفسه ، ثم أخيرا حياة المدن فى النقط الهامة على طول مجرى النهر .

وهذه المظاهر كما قلنا نشأت على حافة الوادى فى بداية الأمر ثم فى الوادى نفسه وفى دلتاه بعد ذلك نتيجة للتغيرات المناخية التى أثرت فى كل من الوادى والصحراء . وهنا لابد من التفرقة بين الوجهين البحرى والقبلى بسبب موقع كل منهما وحالة السطح والمناخ فيهما ؛ فالوجه البحرى منطقة مكشوفة كانت كثيرة المستنقعات فى الماضى وكان الاتصال سهلا بينها وبين جيرانها فى الغرب (ليبيا) وبين جيرانها فى الشرق (سوريا) وبين جيرانها فى الشمال (جزر البحر المتوسط عامة والعالم الايجى بصفة عامة) وأما الوجه القبلى فعبارة عن شريط طويل ضيق تحيط به من الجانبين هضبة صخرية تخترقها وديان كانت تجرى بالمياه فى العصر المطير ولا سيما من الجانب الشرقى . وبعد العصر المطير اتخذت هذه الوديان طرقا للقوافل تصل بين وادى النيل وبين ساحل البحر الأحمر فى الشرق أو بينه وبين سلسلة الواحات فى الغرب . وإذا كانت هذه الوديان الصحراوية جافة حاليا فقد كانت قديما عامرة بالمياه وكانت شواطئها من أجل ذلك مزدحمة بالحشائش والحبوب البرية وكان يعيش عليها أعداد كبيرة من الحيوانات البرية كالحمير والغزلان والزراف وبعض الحيوانات المتوحشة كالأسود والفهود وغير ذلك . بل كانت توجد فى المناطق المستنقعية فى الوادى نفسه الفيلة والخنازير والخرتيت ، وكانت مياه النهر كثيرة التماسيح .

هذه الصورة للبيئة المصرية تمثل الحالة فى بداية العصر الحجرى الحديث . ويمكن القول بصفة عامة ان هذه البيئة تشبه بيئة السافانا الحالية بوسط أفريقيا أو بيئة منطقة السدود فى أعالى النيل .

ولقد كان الصيادون منذ العصر الحجرى القديم الأسفل ينحدرون من الهضبة العالية على الجانبين إلى الوادى حيث يصطادون الحيوانات البرية التى ذكرناها . وتدل على هذه الحقيقة آلاتهم التى كشفت فى المدرجات على جانبى النهر والتى أشرنا إلى بعضها

فى (شكل ٧) ثم بعد انتهاء رحلة الصيد يعود هؤلاء الصيادون أدراجهم إلى مناطق سكناهم فوق الهضبة حيث يكونون بمأمن من هذه الحيوانات . ثم لما ازداد جفاف الصحراء بحيث أصبحت غير صالحة للسكنى وازداد جفاف الوادى بحيث أصبح صالحا للسكنى هاجر الناس من الهضبة إلى الوادى وتجمعوا فيه واستقروا به وانتقلت مصر من حياة البداوة إلى حياة الاستقرار .

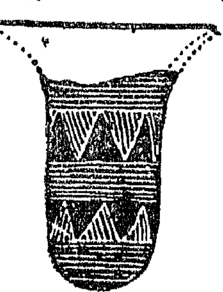
وما دامت الحبوب البرية كالقمح والشعير وجدت فى مصر فى العصر الحجرى القديم فمن الجائز ان اختراع الزراعة قد تم فى مصر لأن الفيضان السنوى للنيل يسبب نمو هذه النباتات البرية بعد فصل الخريف من كل عام دون حاجة إلى تدخل الإنسان فى هذه العملية ، ثم يأتى قيظ الصيف وجفافه فيميتان النبات إلى أن يحييه النيل مرة أخرى بعد فصل الخريف من العام التالى . فمن الجائز أن هذه العملية المتكررة استرعت انتباه أحد أذكياء المصريين فى ذلك العهد البعيد فاخترع الزراعة؛ ومعنى الزراعة بذر البذور بمعرفة الإنسان وتعهد النبات إلى أن تنضج ثمرته .

وقد أسفر البحث عن كشف عدة محلات من العصر الحجرى الحديث هى : ديرتاسا بالصعيد بمديرية أسيوط بالقرب من البدارى ، ثم مرمدة بنى سلامة فى غرب الدلتا، ثم العمرى فى شرقها ، وفى الفيوم على شواطئ بحيرة قارون .

وفى كل هذه المحلات الأربع نجد الاستقرار واضحا ويستدل على هذا الاستقرار إما من القرية أى من مساكن الأحياء، أو من الجبانة أى من مساكن الموتى، إذ لايقيم القرى والجبانات إلا القوم المستقرون . فقد كشفت الجبانة فقط فى ديرتاسا وكشفت القرية فقط فى الفيوم . أما فى العمرى ومرمدة بنى سلامة فقد كشفت القرية والجبانة معا . وتمتاز مرمدة بنى سلامة بظاهرة خاصة هى أن الناس كانوا يدفنون موتاهم داخل مساكن الأحياء .

وإذا نظرنا إلى مظاهر الحضارة فى هذه المحلات الأربع نجد أنها متشابهة فى جوهرها ففيها الصناعات الفخارية ويبين (شكل ١٠ و ١١) بعض الأوانى الفخارية من منطقتى ديرتاسا ومرمدة بنى سلامة وفيها الأسلحة الصوانية . ويبين (شكل ١٢) بعض الأسلحة الصوانية من الفيوم .

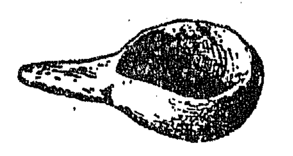
وفيما عدا صناعة الفخار وصناعة الصوان كان سكان مصر فى العصر الحجرى الحديث يصنعون بعض أدواتهم كالحراب والسنانير والإبر والمثاقب من العظم ويبين شكل ١٣



(شكل ١٠)
يبين آنية فخارية من ديرتاسا

مثقابا من العظم من مرمدة بنى سـلامة . كما كانوا يصنعون مخازن الغلال من عيدان النباتات المختلفة وأليافها، وهى الصناعة التى ما زالت قائمة فى مصر حتى الوقت الحاضر ويبين (شكل ١٤) سلة من الفيوم من العصر الحجرى الحديث أى منذ أكثر من سبعة آلاف عام .

كما عرفوا الغزل والنسيج ووجدت بقايا منسوجاتهم القديمة وعرفوا صناعة أدوات الزينة من المواد المعدنية المختلفة .





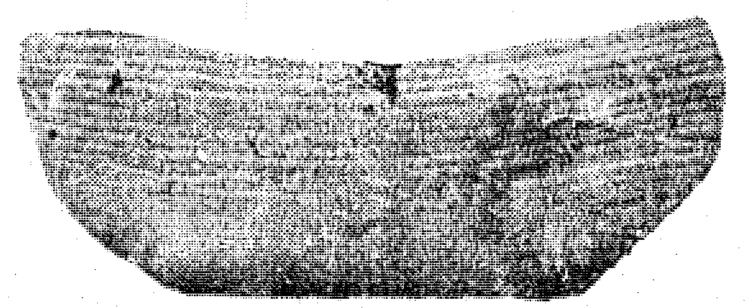
(شكل ١١) يبين أوانى فخارية من مرمدة بنى سلامة
على اليمين ملعقة ، وفى الوسط جفنة ، وعلى اليسار آنية توأمية تشبه الملاحة الحالية



(شكل ١٢)
يبين أسلحة صوانية من الفيوم

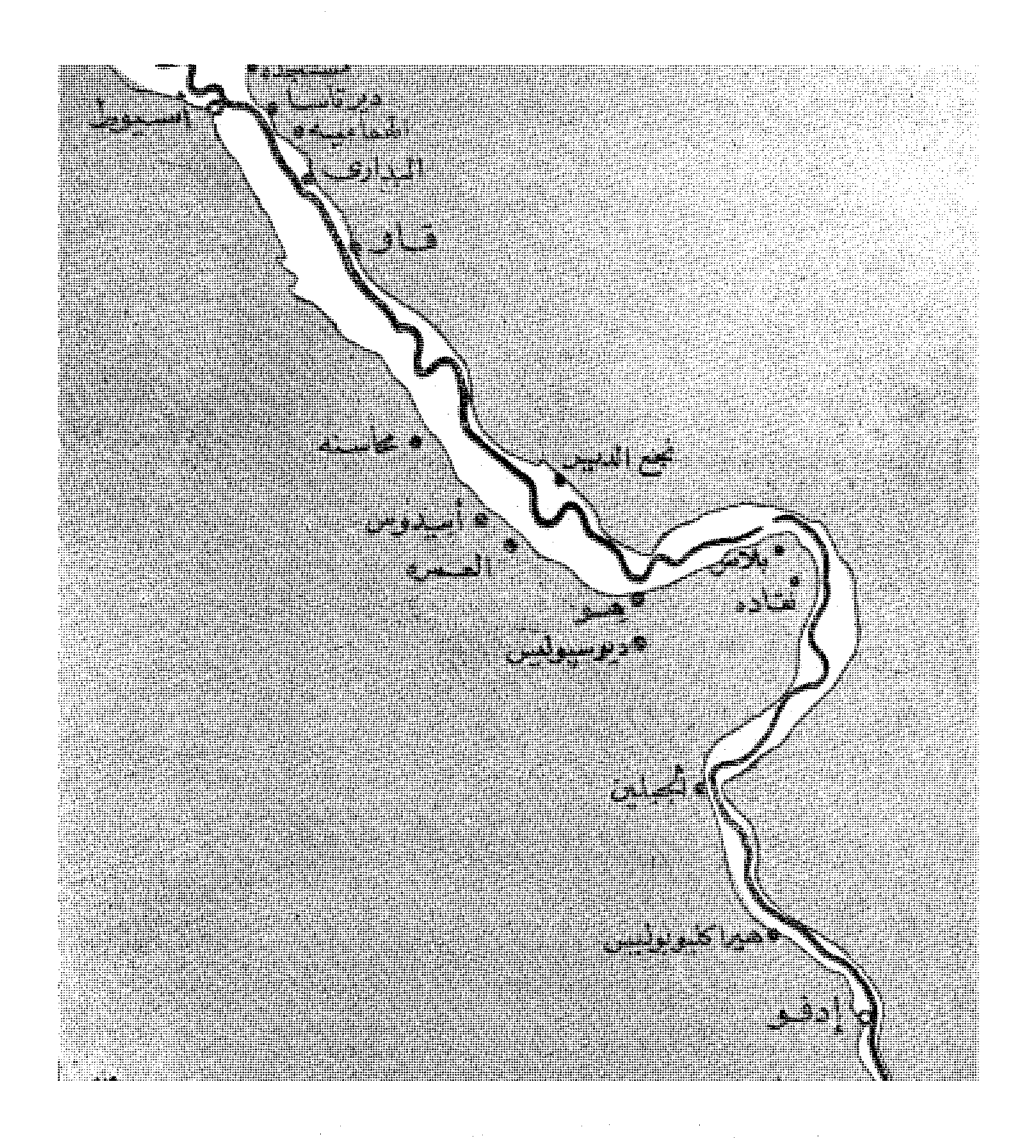


(شكل ١٣)
يبين مثقاب من العظم
من مرمدة بنى سلامة



(شكل ١٤) يبين سلة من الفيوم من العصر الحجرى الحديث

ومن الأمور الجديرة بالملاحظة أن الفن فى العصر الحجرى الحديث، ولو أنه كان موجودا ، إلا أنه كان فقيرا مما يدل على أن حياة الاستقرار لم تكن قد تمكنت من الناس بحيث أوجدت عندهم فراغا يستغل فى الفن . ولذلك نجد الأشياء الفنية نادرة فى العصر الحجرى الحديث وهذه ظاهرة من الظاهرات التى ينبغى أن نلتفت إليها فى العصر التالى لذلك وهو عصر ماقبل الأسرات لكى نعرف أثر زيادة الاستقرار فى الحضارة .



(شكل ١٥) يبين مناطق الاستقرار فى مصر الجنوبية

وتدل الآثار في المحلات الأربع التي ذكرناها على أن سكان مصر في العصر الحجري الحديث كانوا على صلات ثقافية مع العالم المجاور لهم فكان التاسيون على صلات بأهل الجنوب كالنوبيين وكان أهل مرمدة والفيوم على صلات بأهل الغرب كالليبيين . وكان أهل العمري على صلات بأهل الشرق (سكان غرب آسيا) .

(ثالثا) عصر ما قبل الأسرات :

في العصر الذي نطلق عليه اسم عصر ما قبل الأسرات كان الاستقرار فيه قد ازداد بمعنى أن الناس كانوا في العصر الحجري الحديث نصف مستقرين . فلهم مساكنهم ولهم قراهم ولهم صناعاتهم التي تتطلب الاستقرار كصناعة الآنية الفخارية وغيرها . إلا أنهم لم يكونوا قد قطعوا صلتهم بالصحراء قطعا تاما بل كانوا يمارسون بعض الحرف الصحراوية ؛ كالرعي والصيد .

أما في عصر ما قبل الأسرات فكان المصريون قد التزموا الوادي بصفة نهائية وازدادت عنايتهم بحرف الاستقرار وعلى الأخص حرفة الزراعة. وما دام الأمر كذلك فقد ازدادت عنايتهم بملكية الأرض . ووجد لأول مرة ما نسميه بالمديريات أي أن كل جماعة من هذه الجماعات أصبحت تعرف لها إقليما معينا تقيم فيه ، يحده الصحراء من جانب ، والنهر من الجانب الآخر . ثم لهذا الإقليم حدود شمالية وجنوبية تفصل بينه وبين الأقاليم الأخرى . ولابد لهؤلاء الناس من أن ينصبوا عليهم حاكما ينظم أمورهم المشتركة وينظم حماية حدود الإقليم من إغارة الغير عليه . ثم أخيرا اتخذ كل إقليم له الإله الخاص الشارة الطوطمية الخاصة التي يعرف بها ، بمعنى أن مقومات الاستقلال الإداري والاقتصادي والديني بدأت توجد في أقاليم متعددة من مصر منذ ذلك الوقت ، وهي مقومات كما نلحظ لا تتمشى إلا مع مرحلة الاستقرار التام .

ثم أخيرا يميز عصر ما قبل الأسرات استخدام المعدن ؛ فاستخدام المعدن يعتبر بداية لهذا العصر . ومعدن النحاس هو الذي استخدم أولا ، وظل هذا المعدن هو المعدن الرئيسي طوال عصر ما قبل الأسرات . فننتظر أن نجد محلات عصر ما قبل الأسرات مركزة في أحسن أجزاء السهل الفيضي من ناحية وعند نهايات الطرق التي تصل الصحراء بهذا السهل من ناحية أخرى . وقد وجدنا بالفعل محلات عصر ما قبل الأسرات في منطقتين رئيسيتين : منطقة ثنية قنا ثم في قمة الدلتا .

ففي منطقة ثنية قنا ينحني النهر انحناءه الكبير . وفي هذا الانحناء تتسع مساحة السهل الفيضي على الجانبين . يضاف إلى هذا أن منطقة الثنية على اتصال جيد بالصحراء الشرقية حتى سواحل البحر الأحمر عن طريق الوديان العديدة التي تصل السهل بالبحر مثل

وادى قنا . ثم هى سهلة الاتصال بالواحات وعلى الأخص الواحة الخارجة . ومعنى هذا أن منطقة الثنية من حيث الموقع تتلقى تأثيرات حضارية من اتجاهات ثلاثة : الاتجاه الجنوبى أى من بلاد النوبة ، والاتجاه الشرقى من الصحراء الشرقية حيث جماعات الحاميين الشرقيين ، ثم الاتجاه الغربى حيث الليبيين . وفى هذه المنطقة كشفت حضارة نقادة المشهورة وهى حضارة غنية عاش الناس فيها فترة طويلة . ومراحل التطور فى هذه الفترة الطويلة واضحة مما جعل الباحثين يقسمونها إلى مرحلتين رئيسيتين هما : مرحلة نقادة الأولى أو حضارة العمرة ، ونقادة الثانية أو حضارة جرزة . ويطلقون أيضا على نقادة الأولى اسم المرحلة الأولى من عصر ما قبل الأسرات ، وعلى الثانية اسم المرحلة الثانية من عصر ما قبل الأسرات .

وفى حضارة نقادة سنجد الغنى المادى والتفوق الفنى فى الصناعات الحجرية وفى صناعة الأوانى والتماثيل . ويتدرج هذا الغنى المادى وهذا التفوق الغنى شيئاً فشيئاً . إلى أن يصل بالحضارة المصرية إلى مرحلة الأسرة الأولى . ويعطى لبداية عصر ما قبل الأسرات تاريخ حوالى سنة ٤٠٠٠ ق . م فإذا كانت الأسرة الأولى قد بدأت حوالى سنة ٣٢٠٠ ق . م فمعنى هذا أن عصر ما قبل الأسرات قد شغل هذه الفترة الزمنية . وينبغى لمن يدرس تطور هذه الحضارة ، أن يلاحظ أن هذا التطور شغل فترة حوالى ١٠٠٠ سنة .

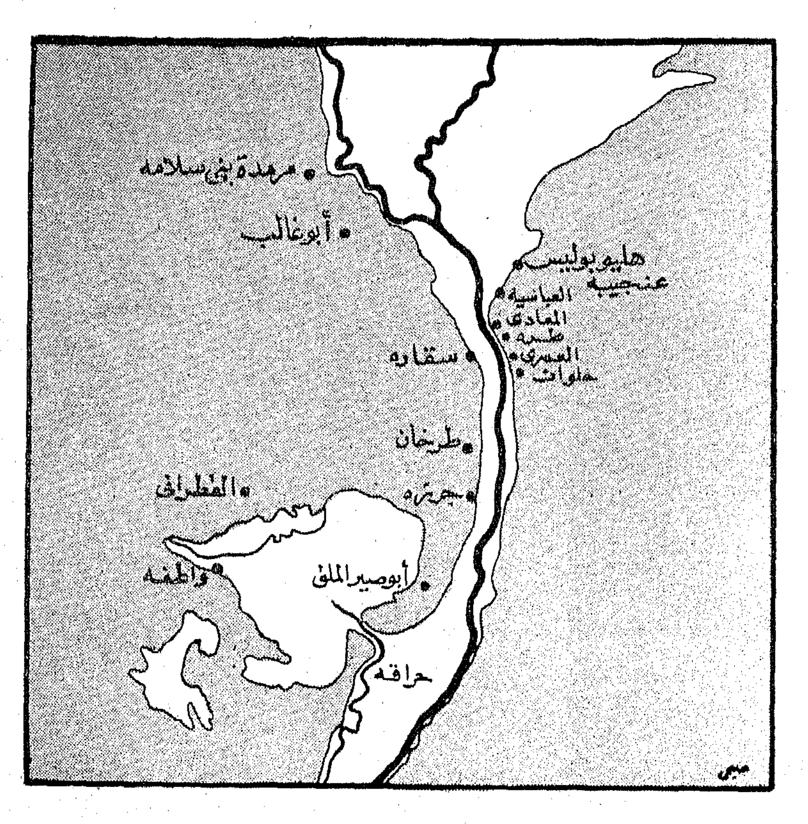
وإذا انتقلنا إلى قمة الدلتا وتركنا نقادة نجد أن الحضارة الكبرى التى تقابل نقادة فى الجنوب هى حضارة المعادى ونستطيع أن نلحظ الموقع الجغرافى للمعادى فهى تقع بالقرب من قمة الدلتا على حدود الساحل الفيضى وعلى اتصال جيد بالجنوب وبالشمال وبالشرق . وفى المعادى يدل اتساع القرية التى كان يعيش فيها الناس على الاستقرار التام . وفى نفس المنطقة وهى قمة الدلتا نحو ثلاث محلات أخرى لعصر ما قبل الأسرات هى حضارة وادى دجلة فى المعادى أيضا وحضارة حلوان ب : والعمرى ب ثم حضارة هليوبوليس . ويلاحظ أن حضارة دجلة تقع فى المعادى نفسها أما حضارة حلوان فتقع فى جنوب المعادى بينما تقع هليوبوليس فى شمالها . وفى هذه المناطق وجدت آثار عصر ما قبل الأسرات . وهناك أشياء كثيرة متشابهة بين المحلات الثلاث وعلى الأخص بين المعادى وهليوبوليس مما يمكننا من القول بأنها كانت منطقة حضارية كبرى شبيهة بمنطقة نقادة .

وقد أمكن القول ، بناء على هذه الأبحاث ، إن حضارة ما قبل الأسرات ازدهرت فى هذه المنطقة وتطورت على مثال ازدهارها وتطورها فى الجنوب . وأن نوعا من المنافسة الحضارية تطور إلى عداء سياسى فيما بعد بين الشمال وبين الجنوب أو بين أهل الدلتا

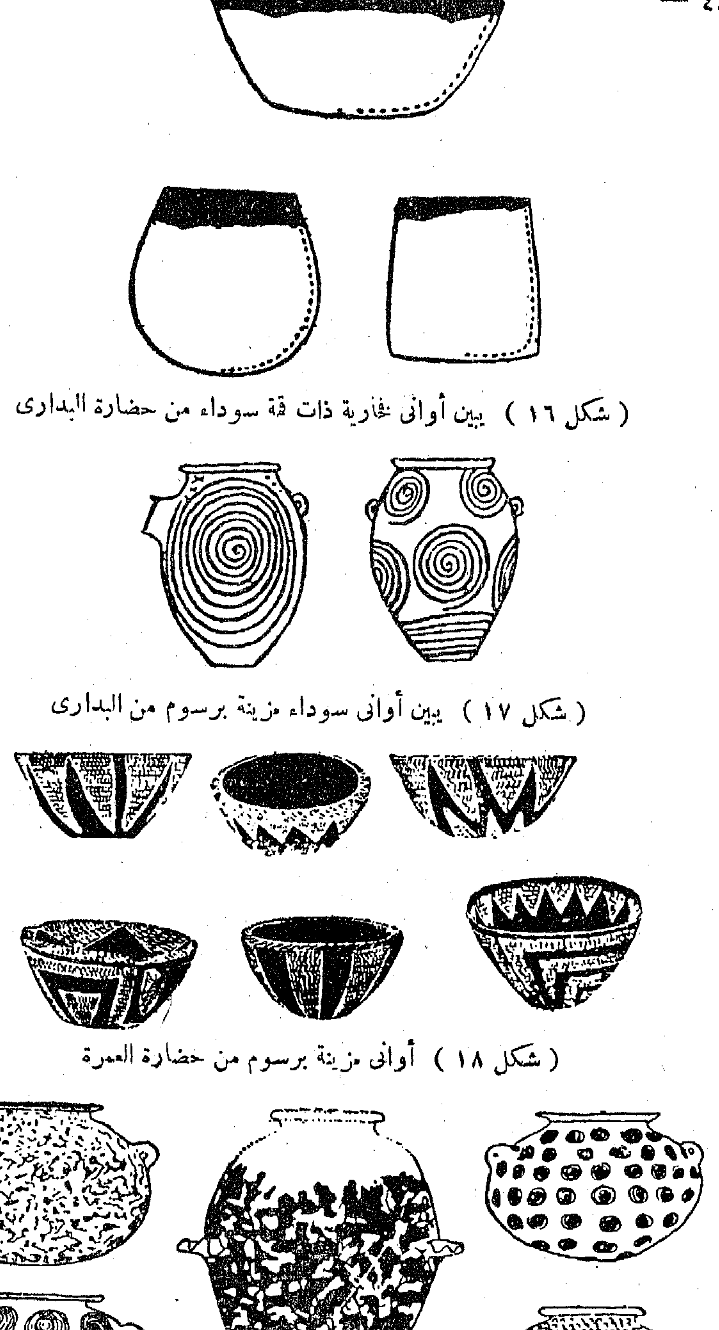
وبين الصعيد . وأن كلا الفريقين حاول أن يضم الآخر إلى سلطانه ويظهر أن الدلتا فى هذه المرحلة كانت أكثر تفوقاً إن لم يكن فى الناحية الحضارية فعلى الأقل فى الناحية السياسية وأن هذا التفوق انتهى بأن استطاعت الدلتا أن تضم الصعيد لسلطانها ،وأن تنشئ اتحاداً سياسياً يعرف فى التاريخ باسم الاتحاد الأول . ويظن أن عاصمة هذا الاتحاد كانت فى المعادى نفسها على أن هذا الاتحاد لم يستمر طويلا وانفصل الصعيد عن الدلتا ثم قامت موجة أخرى بقصد توحيد شطرى مصر . هذه الموجة قامت من الجنوب فى هذه المرة إذ تقدم الجنوبيون من منطقة طيبة بالقرب من أبيدوس واستطاع الأمراء الطينيون أن يصلوا إلى الشمال وأن يستقروا فى ممفيس (ميت رهينة — صقارة) بعض الوقت .

ثم انتهى الأمر بتوحيد شطرى الوادى نهائيا إلا أن ملك مصر ظل يحتفظ بعد توحيد القطرين بلقب ملك القطرين أو ملك الوجهين ؛ دلالة على أن كلا من القسمين كان يشعر بطابعه الحضارى الخاص ، وأن مصر كانت تنقسم حضارياً فى ذلك الوقت إلى ما نستطيع أن نسميه مصر البحرية أى مصر المطلة على البحر المتوسط ، ومصر الإفريقية أى مصر الشديدة الاتصال بالقارة الإفريقية .

وفيما يلى عرض بالصور لمظاهر الحضارة المصرية فى عصر ما قبل الأسرات :



(شكل ١٠)



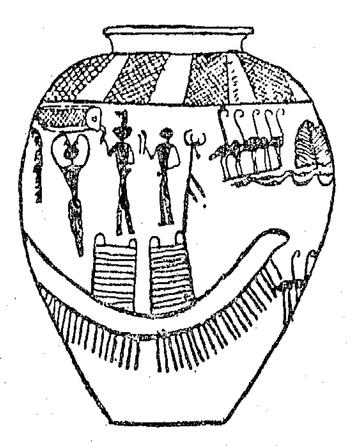
(شكل ١٦) يبين أوانى فخارية ذات قمة سوداء من حضارة البدارى

(شكل ١٧) يبين أوانى سوداء مزينة برسوم من البدارى

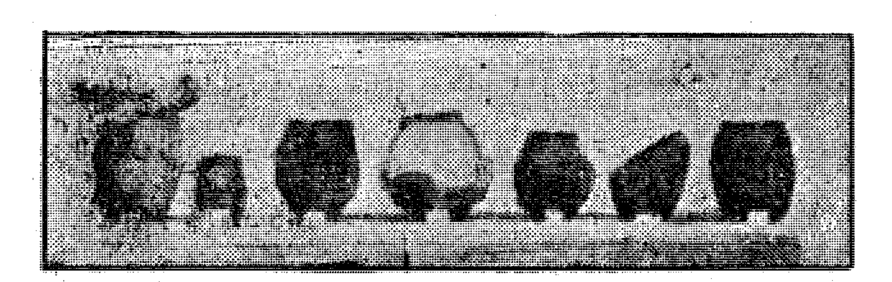
(شكل ١٨) أوانى مزينة برسوم من حضارة العمرة

(شكل ١٩) يبين أوانى مزينة برسوم من حضارة جرزة

أوانى فخارية :

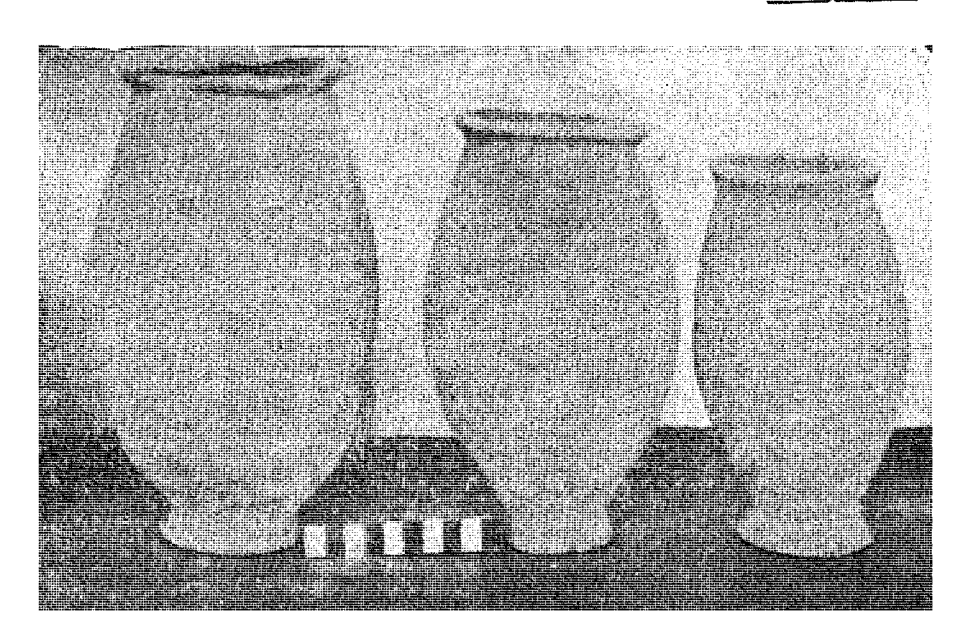


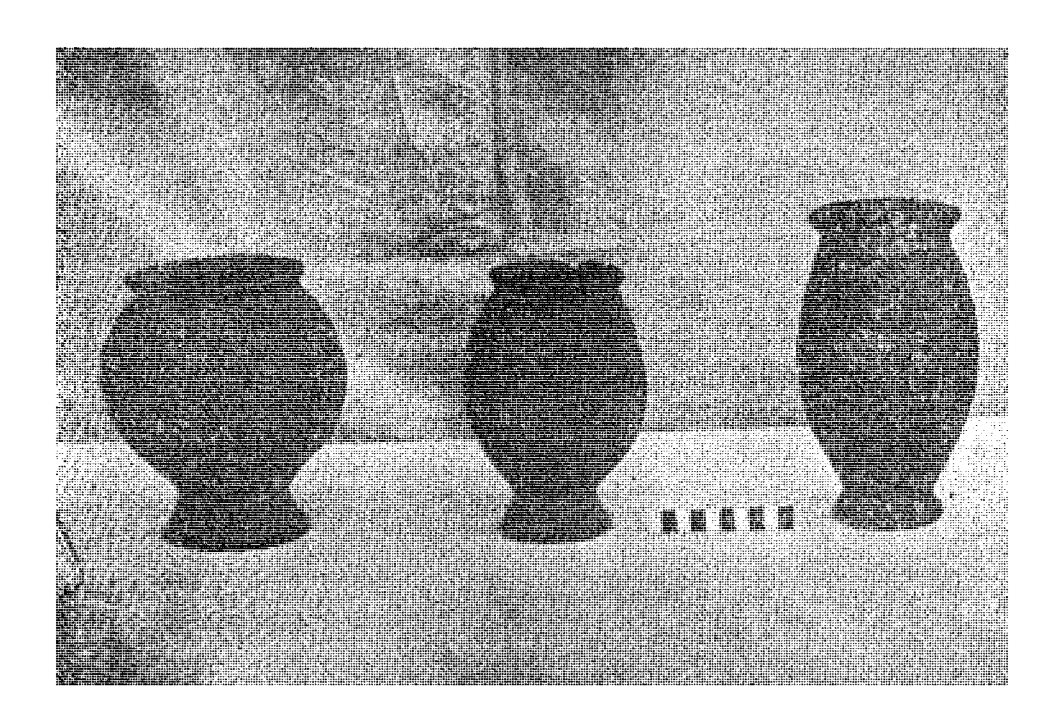
(شكل ٢٠) يبين آنية فخارية عليها رسم قارب من حضارة جرزة



(شكل ٢١) يبين أوانى فخارية من حضارة العمرى (ب)

أوانى فخارية :





(شكل ٢٢)
يبين أوانى فخارية حمراء ذات قاعدة حلقيه من المعادى (فى أعلا) ومن هليوبوليس (فى أسفل)

أوانى فخارية :

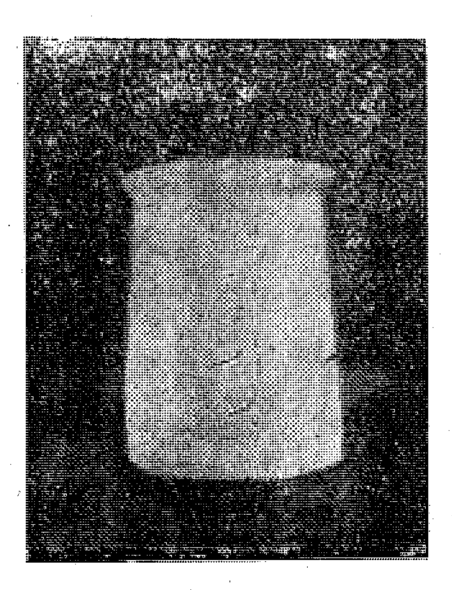


(شكل ٢٣) يبين أوانى فخارية سوداء من حضارة دجلة

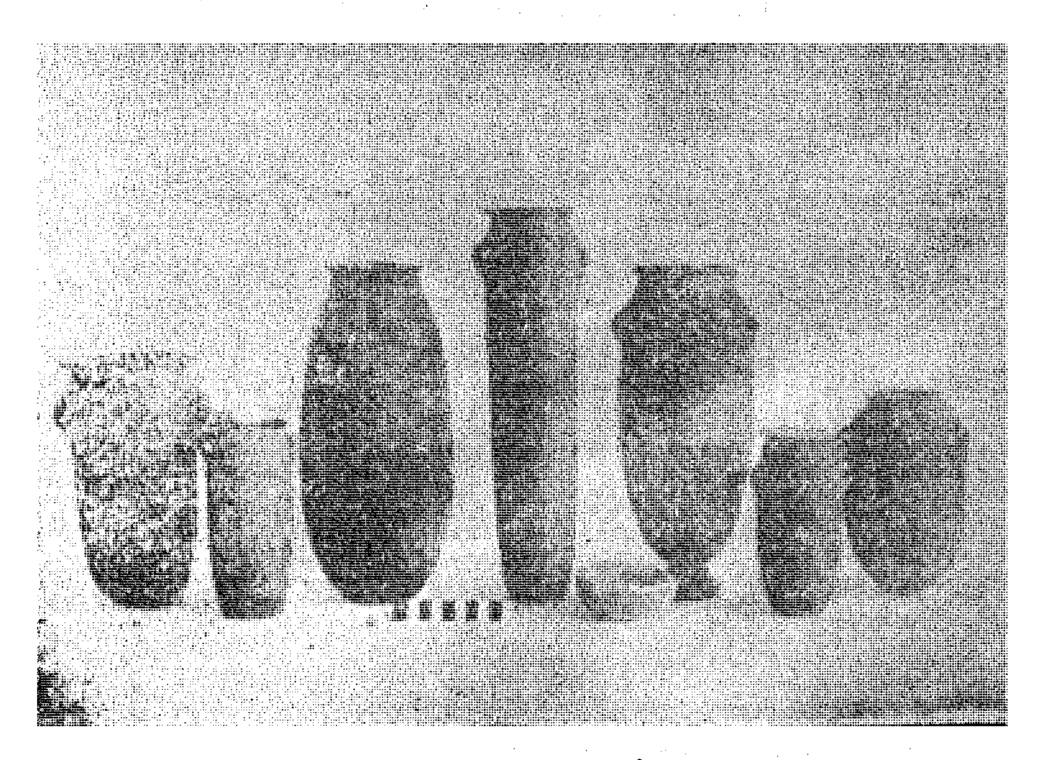


(شكل ٢٤) يبين أوانى فخارية سوداء من حضارة هليوبوليس

أوانى حجرية :

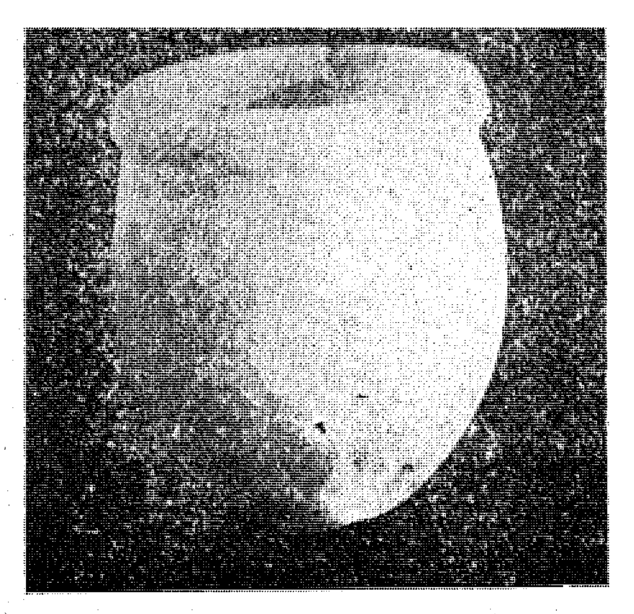


(شكل ٢٥) يبين آنية من المرمر المصرى من حضارة العمرة

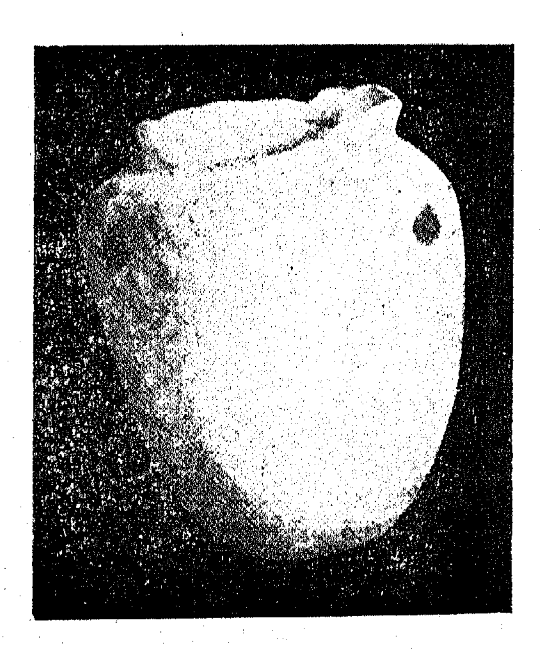


(شكل ٢٦) يبين أوانى من البازلت والمرمر من حضارة المعادى

أوانى حجرية :

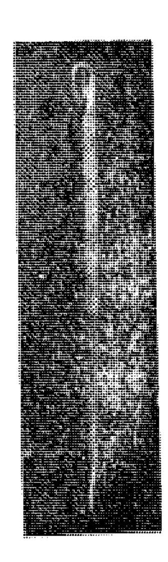


(شــكل ٢٧) يبين آنية من المرمر من حضارة وادى دجلة (بالقرب من المعادى)



(شــكل ٢٨) يبين آنية من المرمر من حضارة هليوبوليس

أدوات نحاسية :



(شكل ٢٩) يبين دبوس من النحاس
من حضارة العمرة



(شكل ٣٠) يبين حربة من النحاس
من أواخر عصر ما قبل الأسرات

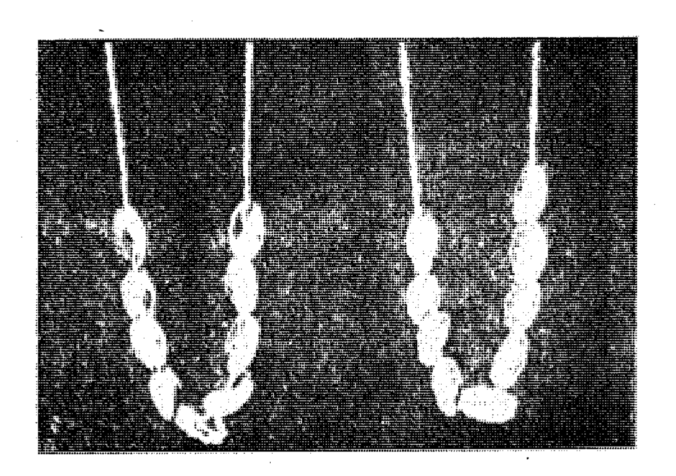


(شكل ٣١) يبين رأس فأس من النحاس من حضارة المعادى

أدوات الزينـــة :

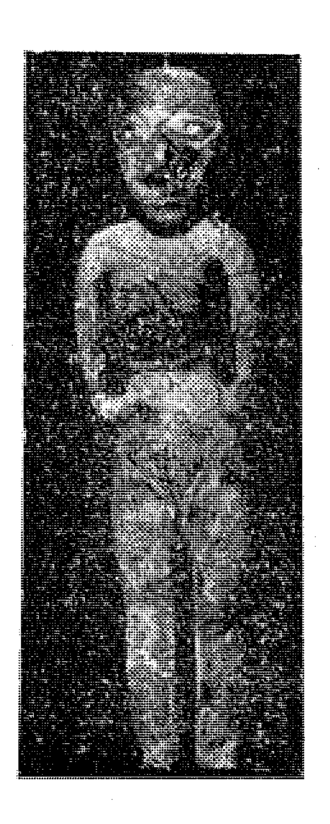


(شكل ٣٢) يبين مشط مصنوع من العظم من حضارة المعادى

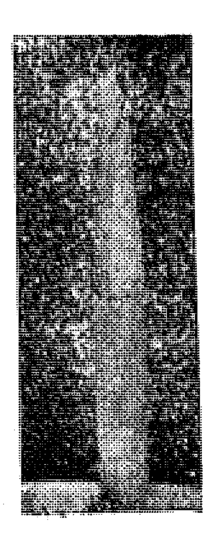


(شكل ٣٣) يبين عقدين من الصدف من حضارة دجلة

التمـــاثيل :



(شكل ٣٤) يبين تمثال من الفخار من حضارة البدارى

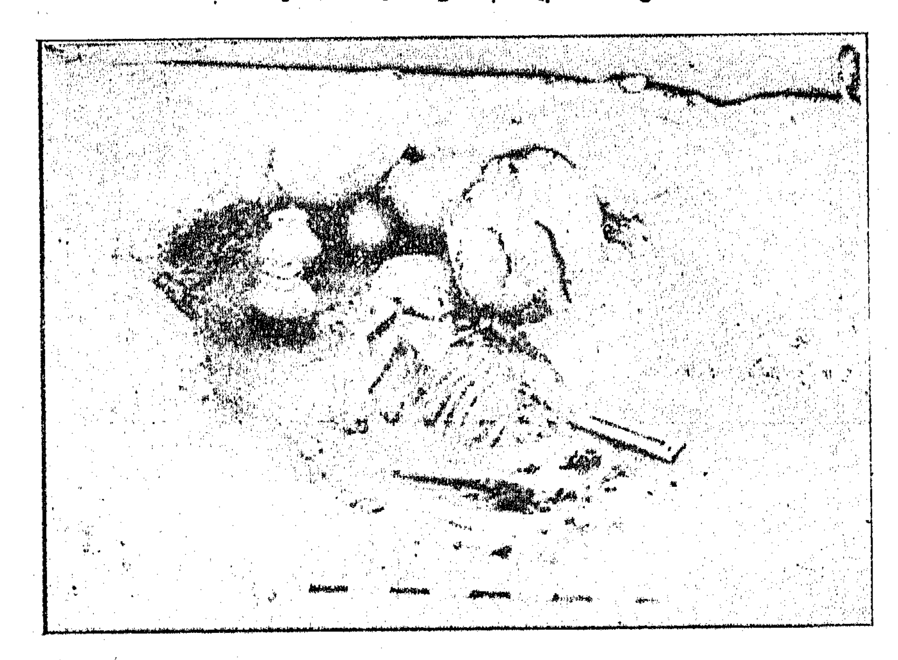


(شكل ٣٥) يبين تمثال من العاج من حضارة العمرة

طريقة دفن الموتى :



(شكل ٣٦) يبين مقبرة من مقابر حضارة وادى دجلة



(شكل ٣٧) يبين مقبرة من مقابر حضارة هليوبوليس

(رابعا) اتحاد شطرى البلاد وقيام الأسرة الأولى :

قسمت الطبيعة القطر المصرى إلى وادى ودلتا ، فأما الوادى فهو شريط طويل وسط هضبتين صخريتين تحفانه من الشرق والغرب ، طوله حوالى ٩٠٠ كم وعرضه يتراوح بين عشرة كيلو مترات و ٢٠ كم ، ولكنه فى بعض الأحيان يضيق حتى يصبح فى عرض المجرى المائى فقط . هـذه هى الأرض الجنوبية (تا شمع) كما سماها قدماء المصريين . ثم شمال منفيس يتغير منظر الإقليم إذ يتحول مجرى النهر إلى دلتا كبيرة طولها أكثر من مائة كيلو متر وعرضها حوالى ٧٠٠ كم ، وكان النهر يتفرع خلال هذه الدلتا إلى فروع عديدة . وتأخذ التلال القائمة على جوانب الوادى فى الصحراء الشرقية والصحراء الليبية فى الانخفاض شيئا فشيئا حتى تتلاشى ولا يصبح لها وجود على جوانب الدلتا . وأصبحنا لا نرى هنا واديا ضيقا تحفه التلال كما هو الحال فى مصر العليا وإنما نرى بساطا من الخضرة لا تدرك العين أطرافه تخترقه القنوات وتتخلله البحيرات والمستنقعات . هذه هى الأرض الشمالية (تامح) كما سماها قدماء المصريين . والفرق واضح بين الأرضين فالأرض الشمالية بعيدة عن حرارة الصحراء الإفريقية وعزلتها ؛ وقريبة من البحر الأبيض المتوسط تهب عليها الرياح الشمالية من البحر فتجعلها ألطف مناخا من الجنوبية . ثم من الناحية البشرية نجد الأرض الشمالية قريبة الاتصال بآسيا عن طريق برزخ السويس وبأوروبا عن طريق البحر الأبيض المتوسط .

فالطبيعة إذن قد أوجدت مصرين : مصر الإفريقية فى الجنوب ، ومصر البحر الأبيض فى الشمال . وقد أدرك قدماء المصريين هذا الفرق منذ القدم ؛ فأطلقوا على البلاد اسم (تاوى) أى الأرضين ، ولكنهم أدركوا فى الوقت نفسه استحالة استقلال أحدهما عن الآخر فالوادى الضيق الطويل يرتبط بالدلتا الواسعة العريضة بواسطة الشريان الذى نسميه نهر النيل ، ولذلك تشابهت الحياة البشرية والاقتصادية فى كل من الأرضين منذ أقدم العصور .

ولفهم الخطوات التى تمت لتوحيد البلاد لابد من معرفة النواحى الطبيعية والجنسية والدينية التى كانت عليها البلاد قبيل قيام الأسرات .

الناحية الطبيعية : تحمى الطبيعة مصر من كل الجوانب ، فمن الشمال يحدها ويحميها البحر الأبيض المتوسط ومن الجنوب جنادل النيل والصحراء . ومن الشرق والغرب الصحراوات . فهى بلاد مقفولة من كل الجوانب ماعدا بعض فتحات . وهذا يساعدها على مقاومة الغزوات الخارجية ، وعلى إيجاد نوع من الهدوء والطمأنينة فى نفوس السكان والحكام . فإذا ما استطاعت غزوة أن تدخل مصر فإنها لا تلبث أن تندمج فى أهلها داخل هذا الإقليم المقفول .

ولقد شق النيل طريقه خلال هذه الصحراء التى تشغل كل شمال إفريقية ماعدا الشريط الساحلى ، وكون له فيها سهلا رسوبيا غنيا يضيق تارة ويتسع تارة أخرى ، وهذا السهل الرسوبى الذى كونه النيل هو حياة مصر . وقد عبر المؤرخ هيرودوت عن هذه الحقيقة أصدق تعبير بقوله (إن مصر هبة النيل) . فوجودها مستمد من النيل لأن التربة المصرية الخصبة مكونة من الطمى الذى جلبه النيل من الحبشة بواسطة رافديه العطبرة والنيل الأزرق وأرسبه فوق الصخور الأصلية ، كما أن ماءها الذى يحى الأرض وينبت الزرع مستمد من النيل وحده لأن مصر بلد عديم الأمطار ، ثم إنها تعتمد فى جميع مواردها الاقتصادية على التفاعل الذى يحدث بين ماء النيل وطميه . ولقد أدرك المصريون منذ القدم أهمية هذا النهر وعظمته فألهوه وعبدوه فى شكل إنسان وأطلقوا عليه اسم (حابى) كما سموه (أترعا) أى المجرى العظيم . وكذلك كان للطمى الأسود أبلغ الأثر فى نفوس المصريين فسموا بلادهم (تا كمت) أى الأرض السوداء .

ولم يقتصر فضل النيل على مصر على رى شريط الأرض المحيط بمجراه وإنما أحيي بعض الأراضى النائية مثل تلك المنخفضات المنتشرة فى الصحراء الغربية حيث تسرب جزء من ماء النيل إلى الباطن فوصل إلى عمق حوالى ٢٠٠ م ثم ظهر فى القيعان المنخفضة ، مثل بحر يوسف الذى كان يجرى من إقليم طيبة إلى الفيوم ، كما ظهر فى سائر المنخفضات الأخرى التى نسميها الواحات مثل الخارجة والداخلة وسيوة والفرافرة والبحرية . وكلها تقع فى صف واحد تقريبا على بعد يتراوح بين ١٠٠ و ٢٠٠ كم من وادى النيل . ولقد ظهر الماء فى هذه المنخفضات على شكل ينابيع وآبار فمكن من زراعة آلاف الأفدنة وساعد على سكنى هذه الجهات بعدد كبير من السكان .

ومن فضائل نهر النيل أيضا أنه واسطة اتصال بين أجزاء القطر المصرى ، فالملاحة فيه داخل الحدود المصرية سهلة مريحة سواء أكان السفر نحو الشمال أونحو الجنوب . فالمصريون حينما يسافرون نحو الشمال يساعدهم تيار النهر ثم هم حين يسافرون نحو الجنوب — أى ضد التيار — تساعدهم الرياح الشماليةالسائدة فى مصر معظم العام .

وفى أوائل يونية من كل عام يبدأ نهر النيل فى الارتفاع حتى إذا جاء شهر أغسطس فاض على جوانبه . فالنيل الأبيض يرسل كمية كبيرة من الماء تسير بهدوء فى هذا المجرى العظيم البالغ طوله ٧٠٠٠ كم وتمر بالخرطوم حوالى أوائل أبريل وتصل الحدود المصرية عند الشلال الأول فى أوائل يونيه ، وهذا ما يسمى بالموجة الخضراء لأنها تأتى من منطقة المستنقعات الاستوائية . ثم فى أوائل يوليه أى بعد وصول الموجة الخضراء بشهر واحد ، تصل الموجة الحمراء لأنها تحمل الطمى المفتت من تربة الحبشة البركانية ، حتى إذا جاء شهر أغسطس فاض النهر على جوانبه وغطى الأرض المشققة — التى جففتها شمس الصيف

الحامية — بالماء الذى سماه قدماء المصريين ماء الحياة . ويستمر هذا الفيضان حوالى مائة يوم يغطى فيها كل الإقليم حتى يصبح كالبحيرة وتصبح المدن فى وسطه كأنها جزر . ثم فى أواخر شهر أكتوبر يأخذ النهر فى الانخفاض حتى يصل فى أواخر شهر نوفبر إلى مجراه الطبيعى . ومعنى هذا أن النيل يغطى الأرض أربعة شهور فى العام . ثم يتركها غنية خصبة ثمانية شهور أخرى ويبدأ الفلاحون فى بذر البذور فيجنون أول محصول حوالى منتصف فبراير ، ثم يبذر المحصول الثانى ويجنى قبل مجىء الفيضان مباشرة ، وفى بعض أجزاء الدلتا التى لا يغمرها الفيضان كان يزرع محصول ثالث . فنحن إذن أمام بلاد غنية لا تعرف الجوع ، تزرع محصولين فى الصعيد وثلاثة محاصيل فى الوجه البحرى .

ولقد كان لهذا الفيضان أبلغ الأثر فى تاريخ قدماء المصريين ودياناتهم كما تشهد بذلك النصوص المدونة على معابدهم وأهراماتهم .

فعلى إحدى أهرامات الأسرة السادسة نجد النص الآتى : « يرتعد أولئك الذين يرون حابى يضرب الأرض بأمواجه . ولكن المراعى تبتسم والشواطئ تزدهر » . ونص آخر يقول : « مرحى يا حابى ، أنت يامن ظهرت على الأرض لكى تعطى الحياة إلى مصر . أنت يامن تأتى مستخفيا فى الظلام لكى تعطى الحياة لكل ظمآن . . إذا ما أتيت يكون جب (إله الأرض) فى شوق إلى الخبز فيقدم نپرى (إله القمح) عطاياه ، ويأمر بتاح (إله منف) المصانع بالنشاط » . ثم يضيف هذا النص: « إن النيل لو قبض يده لأصبحت الملايين فى بؤس وشقاء ولمات الناس والآلهة ولجنت الحيوانات ولأصبح كل من على الأرض فى حزن شديد ، ولكنه إذا أتى لهم فى صورة خنم (إله الخلق) لصاحت الأرض فرحا ولامتلأت البطون سرورا ولاهتزت الظهور ضحكا ولنشطت الأسنان حركة . . . » .

غير أن فيضان النيل لم يكن مريحا فى كل الأحيان ؛ فحينا يكون شديد الارتفاع ، وحينا آخر يكون شديد الانخفاض . فإذا جاء مرتفعا جرف كل مايلقاه فى سبيله من حيوانات ومساكن ، وفى ذلك يقول أحد الفراعنة : « أصبح الوادى كله كأنه بحر وغطت الأمواج المعابد وأصبح الناس كأنهم الدجاج المائى » : وأما إذا جاء الفيضان منخفضا فإنه يكون كارثة على البلاد ، وفى ذلك يقول الملك جوسر صاحب الهرم المدرج فى صقارة « إنى حزين جدا لأن النهر لم يفض على جوانبه فى عهدى مدة سبع سنين فندر القمح وجفت الحقول وانعدمت موارد الغذاء » .

هذه الظروف كلها — رخاء كانت أو شدة — كان لها أثر عظيم فى التاريخ المصرى يتلخص فى النقط الآتية :

(أولا) لاحظ المصرى أن النيل يبدأ فى الارتفاع فى تاريخ ثابت فكان هذا من العوامل التى ساعدته على اختراع التقويم ومعرفة بدء السنة ونهايتها وتقسيمها إلى فصول ثلاثة هى : الفيضان والإنبات والحصاد .

(ثانياً) هذا الفيضان السنوى هو عبارة عن رى طبيعى نظمته الطبيعة لرى الأرض ، وبعد انحسار الماء تنمو النباتات البرية من تلقاء نفسها . وبالطبع لفتت هذه العملية نظر إنسان العصر الحجرى فى مصر ؛ فهذا الإنسان رأى الأرض قبل الفيضان ميتة لا نبات فيها ، فإذا مارواها الفيضان انتعشت وأخرجت النبات ، فربما هداه التفكير فى هذه الحالة إلى اختراع الزراعة .

(ثالثا) هذا الفيضان السنوى كان يتطلب جهودا مشتركة لضبطه ودفع غوائله . وقد حتم هذا على السكان الموجودين على جوانبه التشاور والتعاون لدفع أخطار الفيضانات المرتفعة والمنخفضة على حد سواء . وبالطبع أدى هذا إلى تنظيم الجماعات المصرية ، وقد هداهم التفكير فى شئون الفيضان إلى إقامة مقاييس للنيل فى جهات معينة مثل الفنتين ومنفيس ، وكلف بمراقبتها أشخاص يقرءون المقاييس ويرسلون الرسل إلى المدن المختلفة يبلغونها مقدار ارتفاع النيل أو مقدار انخفاضه مقدرا بالأذرع والقراريط . وتعددت المقاييس فى جهات القطر المختلفة لأن كل جهة تتطلب ارتفاعا معينا من الماء . ففى الفنتين يكون الفيضان مناسبا إذا بلغ ارتفاع الماء ٢٨ ذراعا (الذراع حوالى ½ م) . وفى إدفو يكون الفيضان المناسب ٢٤ ذراعا ، وفى ممفيس ١٦ ذراعا وفى منديس وخويس ٦ أذرع فقط أى أن مقدار الزيادة المطلوبة يكون أقل كلما انحدر ناشمالا نحو البحر .

(رابعاً) كان على المصريين أن يحتموا من الفيضان ببناء مدنهم وقراهم فى الأماكن المرتفعة وبإقامة السدود حول المدن والحقول لكى تحميها من التيارات السريعة ولكى تستعمل فى نفس الوقت كممرات بين المدن المختلفة . أى أن البلاد انقسمت مضطرة إلى أحواض تفصلها سدود وتوصل بينها قنوات تسير موازية للنهر من الجنوب للشمال لكى تحمل المياه من حوض إلى آخر . وهذا التقسيم إلى أحواض هو أساس التقسيم إلى أقسام إدارية بدليل أن رمز القسم الإدارى عند المصريين عبارة عن مجموعة من الأحواض وأما رمز المدينة فكان يرسم دائرة مقسمة هو عبارة عن مكان يحيط به أسوار .

(خامساً) كان الفيضان يغمر الوادى كله تقريباً من الهضبة الشرقية إلى الهضبة الغربية مدة ٤ شهور أى حوالى ⅓ السنة يصبح الناس فى هذا الوقت لا عمل لهم بالمرة . وهذا يفسر تسخير الملوك لهم فى بناء الأهرامات والمعابد المختلفة فى هذه الفترة بدون الإضرار بالصالح الاقتصادى للبلاد .

ومن هذا نرى أن نهر النيل علم المصريين دروساً كثيرة ، فعلمهم اختراع التقويم والزراعة ، وإذا كان قد أرغمهم على تقسيم الوادى إلى أحواض تفصلها سدود فقد أرغمهم على تعاون سكان كل حوض مع الحوض الواقع فى جنوبه والواقع فى شماله لأن مياه النيل تتصرف من الجنوب للشمال من حوض إلى آخر بواسطة قنوات تخترق السدود ، وأخيرا أدرك المصريون أنه يستحيل عليهم تنظيم النيل الذى هو أساس حياتهم إلا إذا أعطوا قيادتهم إلى ملك يشرف على هذه الأقسام المختلفة ويكون واسطة الاتصال بينها ويمنع اعتداء الأقسام على بعضها وبذلك وجد النظام الملكى فى وقت مبكر .

الناحية الجنسية : وفيما يختص بالناحية الجنسية فى فترة تكون الأسرات الملكية الفرعونية نجد أن سكان مصر فى هذه الفترة كانت قامتهم متوسطة (طول القامة ٥ أقدام و ٥ بوصات) وشعرهم مستقيم أو مجعد ولونه أسمر أو بنى غامق . وشكل الرأس مستطيل ضيق بارز القذال ، والوجه مستطيل متناسب مع الرأس ، والجبهة ضيقة ، والأنف عريضة ولكنها أقل عرضا من أنف الزنجى ، والذقن مدببة ، وعظام الحاجبين ليست بارزة ، والفك غير بارز . وحجم الأسنان متوسط ويظهر أن هذا هو عنصر الحاميين الذى يكون الأساس الجنسى للمصريين ، ويسميه اليوت سميث بالجنس الأسمر . ولقد وجد مع مجموعات الجماجم التى ترجع إلى هذه الفترة جماجم ليست صغيرة الأنف ولا عريضته وإنما هى ذات أنف طويل ضيق بارز مما يدل على وجود عنصر الساميين أيضا منذ هذه الفترة . ثم بعد بدء الأسرات الملكية الفرعونية وبعد الأسرة الثالثة ظهر عنصر غريب يختلف فى مميزاته الجنسية عن الجنس الأسمر الذى وصفناه . فهذا العنصر الجديد عريض الرأس ليس عنده بروز فى القذال ، عريض الوجه والجبهة ، أنفه أطول من أنف الجنس الأسمر وأضيق منها ، والفك الأسفل أضخم ، والذقن عريضة ، وحجم الجسم أكبر ، والعضلات قوية ، ولكن قامته لا تختلف عن قامة الجنس الأسمر . ويسمى إليوت سميث هذا الجنس بجنس الجيزة إشارة إلى الجهة التى وجد فيها وهى منطقة الجيزة ومنفيس . ويسميه البعض الجنس الأرمنى ، إشارة إلى الجهة المفروض أنه أتى منها وهى غرب آسيا بالقرب من بحر قزوين .

وظهر فى غرب الدلتا عنصر ليبى أشقر أزرق العينين وجدت آثاره فى بعض مقابر العصر الفرعونى . وإذن فسكان مصر القدماء لا يرجعون إلى جنس واحد فمنذ أقدم العصور يمكن التمييز بين ثلاثة عناصر على الأقل ، ولكن هذه العناصر اتحدت منذ أقدم العصور أيضا وكونت أمة واحدة قبل بدء الأسرات الملكية الفرعونية . وقد عرفنا أنه فى العصر

الحجرى القديم كان سكان مصر يعيشون بعيدا عن وادى النيل على حافةالصحراء ، وتدل مخلفاتهم على أنهم كانوا صيادين ، ثم فى العصر الحجرى الحديث نراهم يقتربون من الوادى شيئا فشيئا حيث يصبحون زراعا مستقرين يستأنسون الحيوان ويرتبطون بالتربة المصرية فى غذائهم ولباسهم ومصنوعاتهم ، ثم فى العصر التاريخى يسكنون الوادى نفسه .

وليس لدينا آثار مكتوبة عن هذا العصر ، ولكن آثارهم الأخرى ناطقة بأنهم كانوا منذ هذه الفترة قوما منظمين عرفوا سكنى المدن ، وكان لكل مدينة شعارها الخاص ؛ كالصقر والتمساح والفيل وقرص الشمس . ولقد بقيت هذه الأسماء فى عهد الأسرات وربما منشأ هذه الأسماء انقسام الجماعة المصرية إلى عشائر لكل عشيرة طوطمها الخاص ثم أصبحت هذه الطواطم آلهة ثم استقرت كل عشيرة فى بقعة معينة من الأرض وارتبطت بها، ومن هنا نشأت المدن المختلفة التى أصبحت حواضر الأقسام الإدارية فيما بعد وأصبح معبود العاصمة شعارا للمديرية كلها .

وأما الناحية الدينية : فقبيل قيام الأسرات الفرعونية فكر قدماء المصريين فى الكون وما يحيط بهم من ظواهر طبيعية وخرجوا من هذا التفكير بنوع من العبادات تطورت على مر العصور حتى أصبحت من عوامل تأسيس الحكم الملكى فى مصر المتحدة . وقد ظهر الاختلاف هنا أيضا بين الدلتا والصعيد ، أما فى الدلتا فقد نظر سكانها إلى السماء فرأوا طائرا شجاعا يطوف المملكة السماوية ويتصل بالأرض فى بعض الأحيان فأعجبوا به وعبدوه ، هذا الطائر هو الصقر . وعبادة الصقر ترجع إلى عصر ماقبل الأسرات حيث كان مقدسا عند كثير من العشائر ، ولما اخترعت الكتابة أصبح رسم الصقر مخصصا لكلمة إله . وسموا الصقر المعبود بعدة أسماء تدل عليه فى حالاته المختلفة ، فقيل (حوريس الصباح) و (حوريس الأفق) واشتقوا من اسمه عدة كلمات منها (حر) بمعنى فوق (وحرت) بمعنى سماء (وحر) بمعنى وجه إنسان . ثم قالوا إن الشمس والقمر ماهما إلا عينى حوريس ينظر بهما إلى هذه الأرض ويضيئها للناس ، ففى ليتوبوليس عاصمة القسم الثانى من أقسام الوجه البحرى كان يحكمها إله يسمى (حرخنتى إرتى) أى حوريس المسيطر على العينين ثم سموه حوريس الأكبر ، وميدان قوته النهار والنور ، وهذا غير حوريس الأصغر أو حوريس الطفل ابن إيزيس .

أما فى الصعيد حيث تحيط بهم التلال والصحراوات من الجانبين فقد عبدوا إلها يتناسب مع بيئتهم ، عبدوا حيوانا شبيها بكلاب الصيد وسموه « ست » وعبادة ست ترجع أيضا إلى عصر ماقبل الأسرات حيث اتخذته بعض أقسام مصر حاميا لها مثل القسم رقم ١١ (شاشتت) والقسم ٥ (نوبت) . على أن أهم مراكز

عبادة هذا الإله كانت نوبت وهى امبوس بالقرب من نقادة على الشاطئ الغربى للنيل تجاه مدينة قفط ، وأطلق عليه أهل نوبت اسم (ست نوبتى) أى ست الذهبى . ويظهر أنهم استطاعوا أن يفرضوا إلاههم على جميع الأقسام الجنوبية وأن يجعلوا ست ملكا على مصر العليا كلها وميدان قوته الليل المخيف والظلمة المرعبة . ولذلك عمت هيبته كل سكان الوادى فعبدوا فيه البطش والقوة لعلهم يتقون شره . إذن عندنا إلهان : حوريس إله النهار والنور فى الدلتا ، ثم ست إله الليل والظلمة فى مصر العليا . ولقد استمد المصريون هذه العبادة من طبيعة بلادهم وصوروا التقلبات الطبيعية على أنها نزاع بين هذين الإلهين . فالخماسين — الرياح القوية العنيفة التى تهب من الصحراء فتملأ البلاد رمالا وتؤذى العيون وتضايق الناس — هى من عمل الإله ست ، ثم ينتصر الإله حوريس أخيرا فتزول الخماسين وتهدأ الرياح . وكذلك الليل الذى تغيب فيه الشمس انتصار للإله ست ثم يعود حوريس فينتصر ويظهر النهار . والخسوف والكسوف أعمال شر للإله ست ضد عين حوريس اليمنى وهى الشمس وعينه اليسرى وهى القمر . وكل هذه الأعمال سماها المصريون معارك فى السماء (خنمون بت) وهى المعارك الدائرة بين الإلهين باستمرار أى بين السماء والأرض وبين الدلتا والصعيد . وقد انتهى هذا النزاع بتقسيم مصر بين الإلهين فأصبح الوجه البحرى مجال نفوذ الإله حوريس ، وأصبح الوجه القبلى مجال نفوذ الإله ست . ونلاحظ أن هذا التقسيم الدينى مطابق للتقسيم الجغرافى بالضبط مما يدل على أن أثر البيئة الطبيعية كان مطبوعا فى أذهان المصريين فقالوا إن حوريس يحكم مصر السفلى وأن ست يحكم مصر العليا . ولقد كانت الدلتا تسبق الصعيد فى الرقى والحضارة فكل خطوة جديدة فى سلم الحضارة نراها تبدأ فى الدلتا أولا ثم تنتقل إلى الصعيد بعد ذلك . هذا رغم أن الدلتا لا تعطينا فى الوقت الحاضر معلومات قيمة كالتى نجدها فى الصعيد وذلك لأن الدلتا منخفضة رطبة كانت كثيرة المستنقعات فى الماضى ، فهى بيئة غير صالحة لحفظ الآثار ، أما الصعيد فهو مرتفع جاف . أضف إلى هذا أننا فى الصعيد نجد المدن القديمة أو المعابد والمقابر بعيدة عن الجزء المنزرع فهى واقعة فى الصحراء عند سفوح التلال أما المدن الحديثة فتوجد فى الجزء المنزرع بجوار وادى النهر ، وهذا أدى إلى بقاء آثار الصعيد محفوظة طول هذه المدة بعكس الدلتا التى بنيت مدنها الحديثة فوق خرائب مدنها القديمة واتسعت الحقول والمزارع فوق هذه الخرائب مما أخفى الكثير من معالم تاريخ الدلتا القديم . وهذه خسارة كبيرة دون شك ولكن عوض لنا هذا النقص بعض النصوص التى تركها لنا قسيس مدينة هليو بوليس والتى يرجع تاريخها إلى سنة ٢٥٤٠ ق . م أى فى أواخر الأسرة الخامسة الفرعونية . ومن هذه النصوص عرفنا أن أهل الدلتا هم أول أول من فكروا فى جمع السلطة الدينية والسلطة الزمنية فى يد واحدة .

حضـــارة مصر القديمة

للدكتور محمد أنور شكرى

الفصل الثالث

أصول الحضارة المصرية وبداياتها الأولى

نشأة المدن :

كان من نتائج استقرار السكان الأولين فى مصر وارتباطهم بالأرض يفلحونها ويعيشون على غلاتها أن قامت القرى والمدن . وقد نشأت المدن أول الأمر مستقلة ، لكل منها معبودها الخاص وسوق يتبادل فيها السكان حاصلاتهم الزراعية ومصنوعاتهم . وعملت المصالح المشتركة كالدفاع عن المساكن والحقول وحفر القنوات وإقامة الطرق والجسور على إقامة الروابط بين سكان القرية أو المدينة ، كذلك أدى اشتراكهم فى عبادة معبود واحد إلى توثيق تلك الروابط . وهكذا نشأت بين الأفراد علاقات اجتماعية جديدة تعتمد على صلة الجوار والمنافع المشتركة أكثر من اعتمادها على صلات القرابة .

وكان سكان الوجه القبلى يختارون لقراهم ومدنهم أماكن مرتفعة بعيدة عن مياه الفيضان وقريبة مما يشرف على الوادى من هضاب حيث يتوفر حجر الصوان (الظران) الذى صنعوا منه أكثر أسلحتهم وبعض أدواتهم . أما فى الدلتا ، حيث الأرض المنبسطة ، وحيث تكثر المستنقعات والأحراش ، فقد كانت المدن فى حاجة إلى مايقيها شر الفيضان ، كما كان على السكان أن يستوردوا من المناطق البعيدة عن مواطن سكناهم ماتفتقر إليه بيئتهم من موارد . لذلك كانت الحياة فى الدلتا تدعو إلى الاتصال والتعاون والتآزر مما يساعد على الظن بأن الحضارة قامت فيها قبل قيامها فى الصعيد .

ملكية الأرض :

كانت الأسرة هى أساس الحياة الاجتماعية فى مصر منذ تلك الأزمنة السحيقة ، وكان الرجل هو المسيطر على الأسرة والشخص الرئيسى فيها ، على أنه كان يعتمد كثيرا على زوجته وأولاده فى زراعة الأرض واستنبات غلاتها نظرا لما تحتاج إليه فلاحة الأرض من الأيدى العاملة . وكان رب كل أسرة يملك أرض أسرته وحاصلاتها وما عمل على تربيته من حيوان . وباختلاف مساحة الأرض التى كانت كل أسرة تقوم بزراعتها ، واختلاف عدد الأيدى العاملة التى كان يتسنى لها استخدامها ، ومقدار المحصول الناتج ، كانت الأسر تتفاوت فيما بينها فى الثراء ، وفيما يترتب عليه من جاه ونفوذ وسلطان . وهكذا نشأت الملكية العقارية للأسرة ، ونشأت معها الفوارق الاجتماعية بين الأسر ، وكانت الأرض وما تنتجه من حاصلات هى أهم العوامل التى أدت إلى ذلك التفاوت .

نشأة الأقاليم :

واقتضت الظروف الجغرافية والاقتصادية فى مصر أن ترتبط القرى والمدن فيما بينها ، وأن تؤلف كل مجموعة منها إقليما متسعا يتميز بحدوده التى رسمتها له الطبيعة ، ويكون أقدر على استغلال موارد الطبيعة والنهوض بها . وقد تم تكوين الأقاليم فى أزمنة مبكرة ، وبقيامها غدت أهم مدينة فى كل إقليم عاصمة له ، وغدا معبودها هو معبوده الرئيسى ، وأصبح حاكم الإقليم هو الكاهن الأعلى لمعبود إقليمه . واتخذ كل إقليم علما له أو رمزا خاصا به [1] ؛ وكانت هذه الأعلام أو الرموز تمثل فى الغالب حيوانا [2] أو شجرة أو منطقة صحراوية مما كان يتفق فى كثير من الأحيان مع ما تتميز به طبيعة كل إقليم . ويبدو أن الأقاليم إنما تكونت أول الأمر فى الوجه البحرى حيث الأرض أكثر اتساعا مما هى عليه فى الوادى الضيق بالصعيد ، وقد سمح اتساعها بقيام القرى والمدن بعضها من حول بعض ، وساعد على توثيق اتصال كل منها بغيرها ، فى حين فرضت الطبيعة على أغلب مدن الوجه القبلى أن تقع على أحد جانبى النهر كأنها فى صف واحد .

ولا سبيل إلى معرفة عدد أقاليم مصر فى عصور ما قبل التاريخ ، ومع ذلك فلا شك أن عددها ، وحدودها ، وعواصمها كانت تختلف من حين إلى آخر لأسباب مختلفة ، منها ما كان يتصل بالحالة الداخلية فى الإقليم نفسه ، ومنها ما كان يتصل بعلاقاته الخارجية مع ما جاوره من الأقاليم . ومهما يكن من شىء ، فقد ظلت هذه الأقاليم هى الخلايا الأولى فى نظام البلاد الإدارى فى كل عصر ، حتى إنه كان كلما ضعفت الحكومة المركزية وضاعت وحدة البلاد ، كانت حكومات الأقاليم تبرز من جديد فتنقسم مصر إلى عدة حكومات محلية تعتمد كل منها على نفسها فى إدارة إقليمها . وقد بلغت أقاليم مصر فى عصر الأسرات اثنين وأربعين إقليما ، كان منها اثنان وعشرون فى الوجه القبلى وعشرون فى الوجه البحرى ، ومع ذلك فلم يكن عددها أو حدودها أو عواصمها ثابتا خلال عصور الأسرات على حال واحدة وإنما اعتراها بعض التعديل والتغيير .

مملكتا الشمال والجنوب :

وواصلت العوامل الطبيعية والاقتصادية عملها فى توحيد الأقاليم معا فى حكومات كبيرة قوية ، وكان ذلك يحدث عن طريق السلم أحيانا ، وعن طريق الحرب أحيانا أخرى .

---

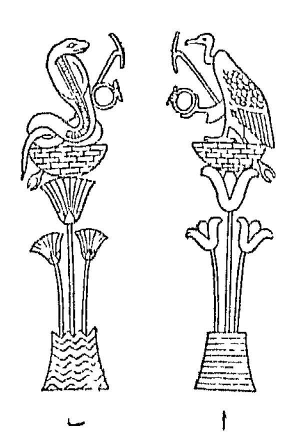
(١) يبدو أن هذه الأعلام كانت فى نفس الوقت ألوية معبودات المدن .

(٢) من ذلك الفيل والتمساح والصقر .

وقد انتهى الأمر فيما قبل عصر الأسرات إلى أن سادت فى الوجه البحرى مملكة واحدة ، تقابلها مملكة أخرى فى الوجه القبلى[1] . وكانت عاصمة مملكة الشمال « بى » [2] ، فى حين كانت عاصمة مملكة الجنوب فى « نخن »[3] . وكان « حورس » الصقر هو المعبود الرئيسى فى كل من المملكتين . واتخذت مملكة الشمال نبات البردى رمزا والناشر[4] حامية ، على حين اتخذ الوجه القبلى نوعا من نبات الأسل[5] رمزا له والرخمة حامية (شكل ١) . وميز ملوك الشمال أنفسهم بتاج أحمر بينما تميز ملوك الجنوب بتاج أبيض . وكانت تؤدى لهم جميعا بعد وفاتهم طقوس خاصة ؛ وقد سماهم المصريون فيما بعد « أتباع حورس » وأضفوا عليهم الشىء الكثير من القداسة .

نوحيد البلاد :

وتدل نقوش أواخر عصر ما قبل الأسرات على أنه قد نشأ بين المملكتين من المنازعات والحروب ما أدى إلى استيلاء مملكة الجنوب على أراضى الشمال وتوحيد القطرين معا فى مملكة واحدة[6]. وقد كان ذلك فاتحة عصر جديد يطلق عليه «عصر الأسرات» ، وهو عصر يتميز بأسانيده ونصوصه المكتوبة التى ساعدت كثيرا على وضوح معالمه التاريخية ، كما يتميز أيضا بما استقام للمصريين فيه من حضارة متميزة ذات طابع خاص .



(شكل ١)
(ا) حامية الجنوب فوق نبات الصعيد
(ب) « الشمال فوق البردى ، نبات الوجه البحرى .

(١) يرى بعض علماء الآثار المصرية أنه بعد أن تكونت من أقاليم الدلتا مملكة واحدة ومن أقاليم الصعيد مملكة أخرى ، ضمت مملكة الوجه البحرى إليها مملكة الوجه القبلى مرتين فى عصور ما قبل الأسرات ، مرة تحت راية الإله « أوزيريس » ومرة أخرى تحت راية الإله « حورس » . وفى أواخر عصر ما قبل الأسرات انقسمت البلاد ثانية إلى مملكتين ، مملكة الشمال ومملكة الجنوب .

(٢) « بوتو » هو الاسم الشائع لهذه العاصمة ، غير أنه فى حقيقته اسم إغريقى أطلق عليها فى العصور المتأخرة . ومكانها الآن « تل الفراعين » فى شمال شرق دسوق .

(٣) وقد أطلق عليها الإغريق اسم « هيراكونبوليس » ، ومكانها الآن « الكوم الأحمر » ، شمال أدفو .

(٤) وهى حية سامة سميت كذلك لانتفاخ عنقها إذا أثيرت .

(٥) الأسل نبات دقيق الأغصان كالعاب .

(٦) تشير آثار ذلك العصر على أن الملك « نعرمر » ، الذى كان فى الأصل ملكا على الوجه القبلى ، قد حارب أهل الدلتا وانتصر عليهم وتوج نفسه بتاج الشمال ، على أن وثائق المصريين منذ عصر الدولة الحديثة قد ذكرت الملك « مينا » على رأس ملوك الأسرة الأولى ، ولكن لم تثبت حتى الآن أية علاقة بينه وبين أى ملك ممن خلدت أسماءهم آثار الأسرة الأولى .

وتؤلف الأسرتان الأولى والثانية بداية هذا العصر ، ويسمى عهدهما عادة « بالعهد الطينى »[١] أو « بداية عصر الأسرات » . وقد كشف عن آثار هذا العصر فى كثير من أنحاء مصر وفى « نخن » ، و « أبيدوس »[٢] و « صقارة » بنوع خاص . وتجمع بين هذه الآثار صفات مشتركة ، تدل على أن حضارة مصر فى ذلك الحين إنما كانت حضارة عامة شملت جميع أنحاء البلاد ، بل إن وجود آثار منها فى شمال بلاد النوبة ليدل على أنها امتدت فى الجنوب حتى « كورسكو » تقريبا .

منف :

بدأ نجم « منف » يزدهر منذ الأسرة الأولى ، وكانت تسمى حينذاك « الجدار الأبيض » أو « الجدران البيضاء »[٣] . ويبدو أنها أنشئت فى بداية الأمر لتكون حصنا لحماية حدود مملكة الجنوب وإرهاب أهل الشمال إذا ما فكروا فى الخروج عليها . وهى تقع بين الصعيد والوجه البحرى ، أى فى أنسب مكان يمكن أن تقوم فيه عاصمة للقطرين ، ولذلك وصفها المصريون بأنها « ميزان الأرضين » لأنه إذا اختل الأمر فيها اختلت أحوال البلاد جميعا .

تضافر الجهود :

ساعد توحيد القطرين على تركيز السلطة فى حكومة قوية ؛ أحسنت إدارة البلاد ، وعملت على استتباب الأمن فيها ، ولم تدخر وسعا فى ترقية شئونها والنهوض بها . على أنه لم يكن ليتحقق لها هذا كله ، لو لم يكن لدى الشعب استعداد قوى للأخذ بأسباب التقدم ؛ فقد برع منه فنانون وصناع مهرة ، عملوا على تقدم الفنون والصناعات ، كما برز منه موظفون أكفاء ، نهضوا بإدارة البلاد وتنظيم شئونها . وهذه الذخيرة الصالحة من

---

(١) نسبة إلى مدينة « طينة » (أو ثنى) ، وقد ذكر المؤرخ المصرى « مانيتون » أن مؤسس الأسرة الأولى كان ينتسب إليها ، وكانت تقع على مقربة من البلينا فى جنوب غربى جرجا .

(٢) تقع أبيدوس بجوار مدينة « طينة » وكانت تعتبر بمثابة جبانة لها ، وتجاور منطقتها الآن قرية تسمى « العرابة المدفونة » .

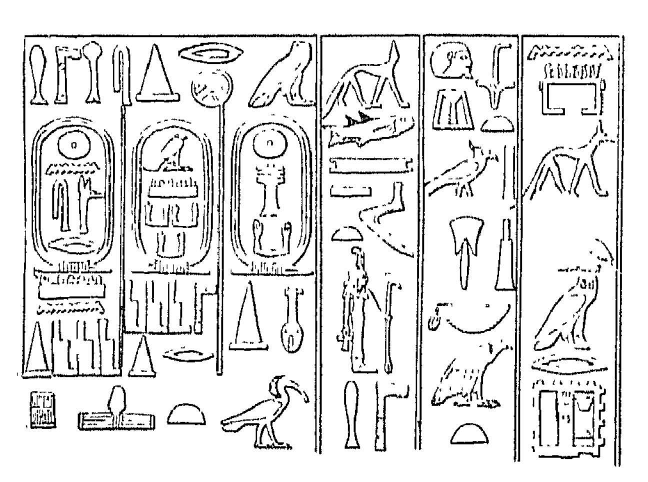
(٣) يرجع اسم « منف » إلى اسم مصرى قديم كان قد أطلق فى بداية الأمر على المنطقة التى شيد فيها « بيبى الأول » ، أحد ملوك الأسرة السادسة ، قصره وهرمه الذى كان يحمل نفس الاسم ، ومن ثم غلب اسم الهرم على المدينة بأكملها من قبيل المجاز . وقد ورد فى الروايات المتأخرة أن « مينا » هو الذى شيدها فيما جففه من مجرى النيل بعد تحويله إلى مجرى جديد ، ولكن يغلب على الظن أن الأمر قد اقتصر إذ ذاك على تجفيف موقعها ووقايتها من مياه الفيضان بإقامة جسر فى جنوبها .

الرجال كانت بغير شك عدة الحكومة وعمادها الأول فيما قامت به من أعمال . وكان فى تهيؤ الظروف وتكاتف الجهود بين الحكومة والشعب ما أشاع الرخاء ، وساعد على ازدهار الفنون والصناعات ، وتقدم العلوم والمعارف ، فتوطدت دعائم الحضارة وقامت قواعدها على أسس ثابتة مكينة .

الكتابة وأهميتها :

الكتابة هى أولى مظاهر الحضارة بالتقديم ، فهى الصفة المميزة لها ، وهى الدليل الذى يميز المجتمع المتحضر عن غيره . وهى بالنسبة إلى العصور القديمة تفصل بين عهدين مختلفين : عهد اقتصرت معلوماتنا عنه على الآثار المادية وحدها مما لا يفى بمعرفة ما حفل به من أحداث وعقائد وأفكار ، وبين عهد يتميز بنصوصه وكتاباته ، مما يعول عليه كثيرا فى دراسة مختلف نواحى النشاط فيه . ولهذا يعتبر أول ظهور الكتابة بداية التاريخ الصحيح للأمم والشعوب على اختلافها .

وقد كان المصريون ينظرون إلى الكتابة الهيروغليفية (شكل ٢) نظرة تقديس ، ويزعمون أنها من ابتداع الإله « تحوت » ، رب الكتابة والحساب والحكمة ، وأنهم



(شكل ٢)
كتابة هيروغليفية من مقبرة أحد وزراء الدولة القديمة

تعلموها عنه . على أنها كانت فى الأصل كغيرها من الكتابات القديمة كتابة تصويرية تمثل تصويرا لا لفظا ما كان يراد تسجيله من الأخبار والأحداث ، وبذلك لم تكن تختلف كثيرا عن الرسم الإخبارى أو القصصى . ومما يدل على ذلك أنه بقيت فيها طوال

عصر الأسرات أمثلة واضحة من الكتابة التصويرية (١) ، وأنها كثيرا ما تقترن بالصور والمناظر فى نسيج واحد متناسق بحيث يتمم كل منهما الآخر ويزيد فى إيضاحه . ومن أمثلة ذلك اقتران المناظر المصورة والمنقوشة على جدران المعابد والمقابر بنصوص هيروغليفية رغبة فى أن يشرح كل منهما الآخر ويزيد فى فهم مراميه(٢) .

وتمثل علامات الكتابة الهيرغليفية حيوانات وادى النيل ونباتاته ، وأدوات المصريين وآلاتهم ، وما أنشأوه من منشئات ؛ وكل هذا لا يدع مجالا للشك فى أن الكتابة الهيروغليفية المصرية إنما كانت من ابتداع المصريين أنفسهم . ويدل ما حفظ منها من عهد الأسرة الأولى على أنه قد اكتملت لها إذ ذاك خصائصها الأساسية التى لازمتها طوال تاريخها ، وأن قواعدها قد استقرت إلى حد كبير . ومنذ الأسرة الثانية بدأ الخط الهيروغليفى يتخذ مظهره النهائى وأصبح فى شكله ونظام علاماته وعلاقة بعضها ببعض ذا طابع فنى جديد يمتاز بالوضوح والجلاء والتناسب . وتتألف العلامات الهيروغليفية من : علامات تصويرية ، تعنى الشىء المرسوم نفسه أو ما يتصل به ، وقد كانت لها أهميتها فى تقييد الأفكار دون الألفاظ(٣) ؛ ثم علامات صوتية ، وهذه لم يكن الغرض منها الدلالة على ما تمثله وإنما مجرد لفظه أو نطقه(٤) ؛ وأخيرا علامات مفسرة ، وكانت تلحق بنهاية العلامات الصوتية لتعيين المعنى وتخصيصه على وجه التحديد أو للدلالة عليه بصفة عامة(٥) .

---

(١) ومن ذلك رمز توحيد القطرين ، ويتألف من نباتى الجنوب والشمال معقودين معا حول علامة التوحيد ، وكذلك صورة الملك وهو يهوى بدبوس القتال على رأس عدو واحد أو أكثر .

(٢) كان من أقوى أسباب التزاوج بين الكتابة والصورة أن الصورة وحدها تقصر عن أداء أسماء الأعلام وعن التعبير عن الأفكار المعنوية ، كما أن الكتابة وحدها لم تكن لتفى بتحقيق ما كان المصريون يرجون تحقيقه من الصورة ، فهم قد كانوا يعتبرونها نسخة لما تمثله ، فى تسجيلها وحفظها ما يفيد ، وفى محوها وتلفها ما يضر ويؤذى .

(٣) وهى لهذا يصح تسميتها بالصور الأصيلة ، ومن أمثلتها علامة الشمس للشمس (أو للنهار) وعلامة الأوزة والبيت والعين والوجه كل منها للدلالة على ذات ما تمثله .

(٤) ويصح تسميتها بالصور الكاذبة ، ومن أمثلتها استخدام علامة الأوزة فى كتابة كلمة «ابن» وذلك للتجانس اللفظى بين كلمتى أوزة وابن فى اللغة المصرية (وكان كلاهما ينطق «سا») ، أو استخدامها فى كتابة جزء من كلمة (كما فى كلمة «ساوتى» وهى الاسم القديم لمدينة أسيوط) . ومن هذا القبيل أيضا استخدام علامة العين فى كتابة الفعل « يصنع » أو « يفعل » ، وعلامة البيت فى كتابة الفعل يخرج . ولهذا الانتقال من معنى العلامة إلى لفظها أهمية جوهرية فى تطور الكتابة ، فهو يدل على أن المصريين اهتدوا إلى أن الكلام يتألف من أصوات معينة ، وبذلك أمكنهم كتابة المعانى التى يصعب تصويرها .

(٥) كعلامة الشمس بعد كتابة لفظ « رع » بعلامتين هجائيتين وذلك لتحديد المعنى المقصود .

ومن العلامات الصوتية ماهو ذو صوت ساكن واحد ، ومنها ماهو ذو صوتين ساكنين ، ومنها ماله ثلاثة أصوات ، أى يتألف نطقه من ثلاثة حروف ساكنة .

وهكذا تقتصر الكتابة الهيروغليفية المصرية على نحو الخط الفينيق والعبرى والعربى على الأصوات (أى الحروف) الساكنة دون الأصوات المتحركة [1] على عكس الخط المسمارى وخطوط أخرى سواه .

وتمثل العلامات ذات الصوت الواحد أحرف الهجاء فى اللغة المصرية ، وقد وفق المصريون إلى معرفتها والاهتداء إلى طريقة كتابتها منذ بداية عصر الأسرات على الأقل. وتعتبر الكتابة الأبجدية من الأحداث الجليلة فى تاريخ الإنسانية ومن مآثر الحضارة المصرية على غيرها من الحضارات[2] ، فقد أخذها الساميون عن المصريين ، ثم أخذها عنهم الإغريق وأضافوا إليها الحروف المتحركة ، ومن ثم وجدت سبيلها إلى شعوب القارة الأوربية .

ولم يستغن المصريون بالعلامات الأبجدية عن غيرها من العلامات ، وإنما ظلوا يستخدمونها جميعا على اختلافها فيما يسجلون من كتابات ونقوش ، استمساكا منهم بتقاليدهم ، ولأن العلامات التصويرية والمفسرة تساعد كثيرا على فهم المعنى المقصود .

وقد احتفظ الخط الهيروغليفى المصرى بطابعه وشكله حتى نهاية تاريخه على خلاف سائر الخطوط الأخرى ومنها الخط السومرى ، الذى كانت علاماته فى الأصل صورا واضحة لما تمثله ، ثم لم تلبث أن انحرفت عن أشكالها الأصيلة ، فغدت فيما يسمى بالخط المسمارى رموزا لايكاد يجمعها بأصلها شبه ما . وعلى هذا يعتبر الخط الهيروغليفى فى مصر أصدق الخطوط جميعا لأصوله . ويبدو أنه كان من أقوى أسباب احتفاظه بطابعه أن المصريين قد وجدوا فى صوره الحية الجميلة ماكان يرضى مشاعرهم الفنية .

ومنذ الأسرة الأولى كان يستعمل لأغراض الحياة اليومية خط هيروغليفى سريع كان يكتب به على بعض الأوانى وربما على البردى والرق أيضا . وهو بالنسبة إلى الخط

---

(١) ذلك لأن الحروف الساكنة فى اللغة المصرية هى وحدها التى تؤلف المبنى الذى يعتمد عليه معنى الكلمة ، أما الحركات فهى لتمييز الصيغ المختلفة للكلمة ، على نحو ماهى عليه فى اللغات السامية .

(٢) لم يهتد السومريون والصينيون وأهل المكسيك إلى الكتابة الأبجدية ، وذلك لأنه لم يكن للأصوات المفردة (أى الحروف) شأن فى بنيان الكلمة عندهم ، وإنما كانت أصول الكلمات تتكون فى الغالب من مقاطع يتألف كل منها من متحرك وساكن أومن أكثر من حرف متحرك ، ولذلك كان من الطبيعى أن تقتصر علامات الكتابة عندهم على علامات مقطعية دون أن يكون للحرف الساكن كيان مستقل .

الهيروغليفى أشبه بخط اليد إلى خط الطباعة ، ويعتبر أصلا للخط الهيراطيقى (شكل ٣) ، الذى يتميز بصلاحيته للكتابة السريعة نظرا لاستدارة علاماته واختصارها ، بما يستقيم والقلم الذى كان يستخدم فى كتابته بدلا من المنحت الذى كان ينحت به الخط الهيروغليفى حين الكتابة به على جدران المعابد والمقابر .

(شكل ٣)
كتابة هيراطيقية من بداية الدولة الحديثة

وحوالى الأسرة الخامسة والعشرين (أى حوالى القرن السابع قبل الميلاد) نشأ من الخط الهيراطيقى خط آخر أكثر بساطة وأسرع كتابة ، سماه الإغريق فيما بعد بالخط الديموطيقى .

ولم يقض أحد هذه الخطوط الثلاثة على غيره وإنما كان ما يستجد منها يستعمل إلى جانب الآخر . وكان الخط الهيروغليفى يستخدم فى بداية الأمر لكافة الأغراض ، على أنه مع الزمن أخذ يقتصر استخدامه عادة على الحجر أو الخشب . وكان الخط الهيراطيقى يستخدم فى أول الأمر فى كتابة كل ما كان يستخدم فيه الخط الهيروغليفى ؛ وفى الدولة الوسطى والأسرة الثامنة عشرة كان يدون به على البردى كل شىء إلا النصوص الدينية ، غير أنه منذ الأسرة الحادية والعشرين أصبحت تكتب به كذلك النصوص الدينية على البردى . أما الخط الديموطيقى فقد شاع استخدامه فى العصر اليونانى الرومانى فى كتابة كافة ما يتعلق بالحياة اليومية .

ومنذ القرن الثانى بعد الميلاد بدأ المصريون يكتبون بعض النصوص بحروف يونانية ، أضافوا إليها سبعة حروف من الخط الديموطيقى ؛ ومنذ القرن الثالث أصبحت تكتب بهذه الحروف اللغة المصرية فى آخر أطوارها ، وهى ما تسمى باللغة القبطية .

الرسوم والنقوش :

بدأ المصريون فى عصور ما قبل الأسرات رسم بعض الأشكال على الفخار فى رسوم مختصرة مبسطة ، فيها ما يدل على استعداد فنى كبير وقدرة بارعة فى تمثيل خصائص بعض الحيوانات . وقد نقشوا كذلك بعض الصور والمناظر على الأمشاط ومقابض بعض



(شكل ٤)
شاهد الملك « زت » فى متحف اللوفر .

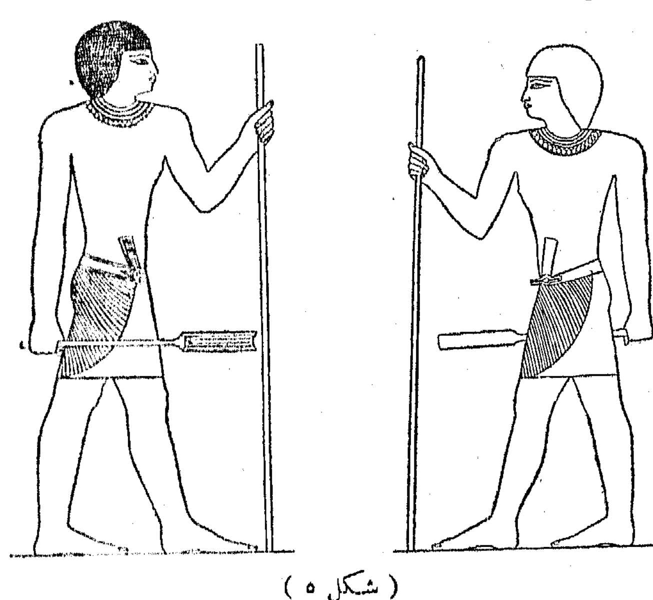
السكاكين العاجية وعلى صلايات[١] من الشست[٢] . وأهم هذه النقوش إنما يمثل ما ساد أواخر عصر ماقبل الأسرات من حروب داخلية ، وينم عما كانت تتسم به تلك العصور من عنف وضراوة . وتبدو هذه النقوش حرة غير مقيدة بترتيب أو نظام ، ومع ذلك فهى تدل فى مجموعها على اطراد تنظيم أشكالها ووضوحها . وقد ورثت ذلك عنها نقوش بداية عصر الأسرات ، ومن أجملها شاهد الملك « زت » المحفوظ فى متحف اللوفر (شكل ٤) . وتقتصر نقوشه على الصقر « حورس »واسم الملك الذى كتب بعلامة

(١) الصلاية حجر يصحن عليه الطيب أو الكحل .
(٢) وهو حجر أشهب مخضر أحيانا يشبه الإردواز .

هيروغليفية واحدة ، هي الثعبان ، فوق ما يعرف بواجهة القصر ؛ وقد برع الفنان في تمثيل الصقر شامخا برأسه في عزة وأنفة ، وفي عينيه حدة وقوة ، كما برع في تمثيل الثعبان رافعا رأسه كأنه يوشك أن يقفز من محيطه ، بينما ينثني جسده في خفة ورشاقة .

قواعد الرسم في الفن المصري :

في هذه النقوش وغيرها ، على قلة المحفوظ منها ، ما يدل على أن قواعد الرسم التي التزمها الفن المصري طوال الحضارة المصرية كانت قد استقرت إذ ذاك إلى حد بعيد . وتتمثل هذه القواعد في :



(شكل ٥)

صورتان لشخص يتجه مرة إلى يمين الناظر ، وأخرى إلى اليسار

١ — حرص الفنان على إبراز صورة الشخص الرئيسي ، وتمثيله في أوضاع جليلة شريفة تنم عن مكانته[١] .

٢ — تقديم الذراع والساق البعيدتين عن الرائي إذا كان لابد من تقديم ذراع أو ساق ، حتى لا تتقاطع أعضاء الجسم في شكل غير مناسب[٢] (شكل ٥) .

---

(١) وذلك بتمثيله في حجم كبير وفي يديه أو في إحديهما إحدى أمارات الشرف كالعصا والصولجان والمذبة .

(٢) فإذا كان الشخص يتجه إلى اليمين (يمين الناظر) تقدمت الذراع أو الساق اليسرى ، وإذا كان يتجه إلى اليسار تقدمت الذراع أو الساق اليمنى . ومما يتفق مع هذا أن الشاعر الألماني «جوته» فرض ذلك على الممثلين عند ظهورهم على المسرح .

٣ — رسم الأشكال من أخص مظهر لها ، أو من أخص مظاهرها المميزة[١] ، وبذلك كان الشكل الواحد فى الصورة يتألف من جهات نظر مختلفة على خلاف ما تقتضيه قواعد الرسم المنظور .

وكان رائد الفنان المصرى فى هذا كله وضوح صوره وجلاءها مما أدى به كذلك إلى الاقتصار على تمثيل أقل ما يمكن من عناصر الطبيعة إذا كان لابد من تمثيل شىء منها ، وإلى العناية بتنظيم أجزاء المنظر ومفرداته وتمثيلها جنبا إلى جنب بحيث يستقل كل شكل منها عن غيره بقدر الإمكان ، ولا يخفى شكل منها شكلا آخر أو جزءا كبيراً منه ؛ وقد روعى هذا بصفة خاصة فى صور الأشخاص . وبلغت العناية بترتيب الصور والمناظر أن أصبحت تنظم فى صفوف متتالية ، تفصلها خطوط مستقيمة سميكة ، تمثل فى نفس الوقت مستوى الأرض . وبلغ تصفيف الصور والمناظر غايته فى الدولة القديمة ، إذ تزدان جدران المقابر بالمناظر المختلفة فى صفوف متعاقبة منتظمة تجمعها معا صورة صاحب المقبرة ذات الحجم الكبير .

والمصريون وإن لم يتقيدوا فى صورهم ونقوشهم بقواعد المنظور[٢] ، إلا أنهم بلغوا بطريقتهم الخاصة ذروة الكمال الفنى ؛ فالرسم المنظور لايعدو مجرد طريقة أو أسلوب له منطقه ووجاهته ، دون أن تكون له صلة بالقيمة الفنية للصورة ، فقد تراعى فى الصورة قواعد المنظور كاملة ولكن ذلك لايكسبها أية قيمة فنية على الإطلاق . والمدار فى قواعد الرسم المنظور إنما هو العلم والمعرفة[٣] ، ولم يكن المصريون على التأكيد يجهلون أهمها ، إذ لابد أن رأوا بعيونهم أن الأشياء يخفى بعضها بعضا إذا وقع أحدها أمام الآخر ، وأنها على البعد تبدو أصغر حجما . ولكنهم لم يشاءوا أن يعيروا هذه المظاهر الزائلة ، والظواهر المتغيرة أى اعتبار فى صورهم ونقوشهم وآثروا تمثيل

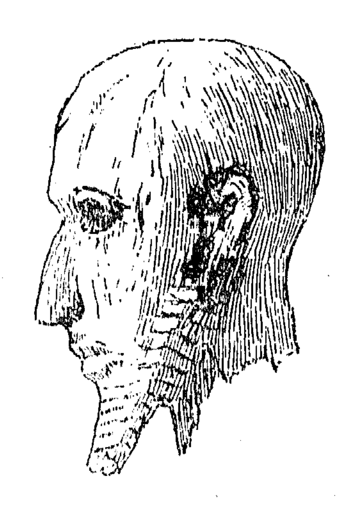
---

(١) ومن ذلك تمثيل الإنسان من الجانب ولكن بعين وكتفين من الأمام وبقدمين من جانبهما الإنسى ، وتمثيل الثور من الجانب وقرنيه من أمام . ولا شك أن المصريين كانوا يرون فى تمثيل الكتفين من الأمام ما يجسم صورة صاحبها بما يجب له من وفار ويساعد فى نفس الوقت على تمثيل الذراعين وما تقوم به اليدان أو ما تقبضان عليه من أمارات الشرف فى وضوح .

(٢) كان الإغريق أول من أخذ تدريجيا بقواعد المنظور منذ القرن الخامس قبل الميلاد ، ثم أخذها عنهم غيرهم من الأمم .

(٣) ومن أهم هذه القواعد أن الأشياء البعيدة تبدو للناظر أقل حجما من حقيقتها ، وأن الأشياء إذا وقعت على خط النظر أخفى بعضها بعضا ، وأن كل شىء يبتعد عن الناظر يبدو فى مستوى أعلى من مستوى الأشياء القريبة .

الأشياء على حقيقتها ، ومن أخص مظاهرها ، وعلى أوضح ما تكون ، دون اعتبار لما يظهر أو يختفى منها لعين الرائى . وكان أهم دافع لهم على ذلك هو ما كانوا يعقدونه على صور الأشياء من أهمية بالغة فى عالم مابعد الموت . وهكذا لم يكن الفنان المصرى يعنيه أن يسجل لحظة معينة من جهة نظر محددة قدر ما يعنيه أن تكون صوره أقرب إلى الأصل الحقيقى بما تتضمنه من مظاهر وخواص .



(شكل ٦)
رأس تمثال من العاج ، وفى ملامح الوجه سمات الليبيين بلحاهم الطويلة

التمـــاثيل :

عمد المصريون منـذ العصر الحجرى الحديث إلى صنع تماثيل الإنسان والحيوان من الصلصال والفخار والعاج ، وما حفظ منها يدل على استعداد فنى كبير . وقد بقيت من بداية عصر الأسرات تماثيل صغيرة من العاج ، تدل برغم ما تعرضت له سطوحها الخارجية من تلف ، عن كفاءة ممتازة فى تمثيل ملامح الرجال (شكل ٦) وقدرة بارعة فى تمثيل النساء بملامح دقيقة وشعور متموجة وقامات رشيقة وأجسام نابضة بالحياة ، حتى ليعتبر ذلك العهد من العصور الذهبية لنحت العاج (شكل٧). ومن العاج صنع المثال كذلك تماثيل صغيرة للأسد والكلب وغيرها تشهد بمهارة فائقة فى تمثيل الحيوان منذ مطلع عصر الأسرات .



(شكل ٧)
تمثال امرأة من العاج

ولم يقتصر المثال على نحت التماثيـل من العاج ، وإنما وجد فى الحجر كذلك مادة تتفق وما كان يصبو إليه المصريون من تخليد ما يمثلونه . ومازال المثال يدير الحجر بين يديه

وينحته فى حرص وحذر حتى اكتسب خبرة كبيرة فى نحت الأحجار سواء منها الرخو أو الصلد . وفى تمثال الملك « خع سخم » من الشست فى متحف القاهرة (شكل ٨) ما ينطق بما بلغه المثال من براعة منذ بداية الأسرات ، وبما أصبح له من قدرة فنية جليلة ؛ فقد أجاد تمثيل الملك ملتحفا برداء طويل ينم فى خطوط عامة رشيقة عما يستر من جسمه ، وبرع فى تمثيل ملامح الوجه وبعض تفاصيله الدقيقة مثل مؤق العين وصفحة الخد ، التى تكاد تشف عما تحتها من عظام . ويكسو الوجه نضرة الشباب مع الجد والحزم كما يتمثل فى هيئة الملك الجالس هدوء ووقار يتفقان وما كان الملكية فى نظر المصريين القدماء من سلطان وقداسة .

وفى متحف برلين تمثال لقرد من المرمر المصرى[1] (شكل ٩) من عهد الملك « نعرمر » وقد أجاد المثال تمثيل رأسه فى مهارة كبيرة تشهد بقوة ملاحظته وما كان له من قدرة فائقة على تمثيل الخصائص الجوهرية للحيوان فى اتساق وانسجام دون إسراف فى العناية بتمثيل التفاصيل الثانوية .

ومن السمات الواضحة فى هذه التماثيل على اختلافها تجنب المثال تمثيل الحركة والمشاعر واكتفاؤه بتمثيل الإنسان والحيوان وهو هادىء مطمئن فى أوضاع قليلة محدودة[2] . وهذه صفات كانت من أخص ما احتفظ به فن النحت طوال عصور الحضارة المصرية ،

(شكل ٨)
« خع سخم » فى المتحف المصرى

---

(١) وهو حجر شفاف إذا رق يميل لونه إلى الاصفرار ويتميز بتموجاته الجميلة .
(٢) كتمثيل الرجل مثلا واقفا أو جالسا أو راكعا .

إذ كان المثال يحرص على تمثيل ملوكه وعظمائه لا ينحرفون أو يلتفتون إلى شمال أو إلى يمين ، ولا تفصح ملامح وجوههم عن شيء مما بنفوسهم ، أو يكشف عن مشاعرهم . مما قد لا يتفق وما ينبغي لهم من وقار وجلال . وكان يضفي على وجوههم وأجسادهم شبابا خالدا ، وصحة وعافية ، مستبعدا منها ما قد يكون بها من سمات القبح أو الضعف



(شكل ٩)
تمثال قرد من المرمر المصرى فى متحف برلين

أو عوارض الشيخوخة وأحداث الزمان ، بحيث تبدو تماثيلهم على أحسن صورة يرجى أن يكونوا عليها فى الآخرة . ومع ذلك فما ينبغى أن يظن أن هذه القيود والأوضاع غير الحرة مما يقلل من القيمة الفنية للتماثيل المصرية ، فقد كانت هذه التماثيل على أشد صلة بالعقائد الدينية والجنازية ، ولذلك ما كان على المثال المصرى أن يمثل أصحابها فى أوضاع

حرة طليقة تتفق وذوقنا الفنى فى الوقت الحاضر ، إذ لم يكن الغرض من الفنون المصرية متعة العين والشعور ، وإنما كانت لتحقيق أهداف دينية وجنازية خاصة . ويكفى الفنان المصرى أنه بلغ بأعماله من الناحية الفنية الصرفة ذروة ما يستطيع فنان أن يبلغه فى حدود المعتقدات المصرية والأغراض التى كان المصريون يتوخونها .

وهكذا يبدو من الأعمال الفنية فى بداية الأسرات أن الفنون المصرية اكتسبت من الصفات والخصائص ما التزمته فى مختلف عهودها التالية ، وأن ذلك العهد إنما كان عهد خلق وتكوين ، وضعت فيه قواعد الفنون فى مصر القديمة . وإذا كانت الأصول الأولى لهذه القواعد تمتد إلى ثقافات ما قبل الأسرات ، إلا أنه لم يستقم للفنون المصرية طابعها الخاص وخصائصها المميزة فى شكل واضح إلا فى بداية الأسرات . لذلك تعتبر عهود ما قبل الأسرات تمهيدا طويلا بطيئا ، حتى إذا ما أهلت طلائع الأسرة الأولى تهيأت الظروف بتوحيد البلاد وقيام حكومة قوية لنهضة مباركة ، ساهم فيها الشعب على اختلاف طبقاته وخاصة الفنانون والصناع والموظفون ، فكان من أثر جودهم الحثيثة أن انتشر الرخاء ، وتدعمت أسباب الحضارة ، واستقرت قواعدها على أسس سليمة من طبيعة الشعب ومن البيئة التى يعيش فيها ، فكانت حضارة أصيلة ذات طابع خاص تتميز به عن الحضارات الأخرى .

الفصل الرابع

الدولة القديمة

تمتاز الدولة القديمة بأن وحدة البلاد لم تتعرض خلالها لما يضعفها ، كما تمتاز بما شيد فيها من الأهرام العديدة على حافة الصحراء الغربية ، فى ميدوم ، ودهشور ، وصقارة ، وأبو صير ، والجيزة ، وأبو رواش ، حتى ليسمى عصرها بعصر بناة الأهرام . وكانت العاصمة فى منف جنوب القاهرة الحالية . وقد نعمت البلاد فى ذلك العصر بسلام دائم وهدوء شامل ، ازدهرت فى ظلهما الصناعات والفنون المختلفة ، وبلغت فى كنفهما الحضارة المصرية آفاقها المديدة . وأخص ماتتميز به حضارة الدولة القديمة أنها حضارة مصرية صميمة اعتمدت فيها مصر على مواردها الخاصة ، وعلى الأيدى العاملة من أبنائها ، فلم يكن للغنائم والأسلاب ولا للأيدى العاملة من الأسرى أى شأن فيها ، كما أنها تتميز بروحها الخالقة المبدعة التى تفيض قوة وعظمة .

الديانة والعقائد الجنازية

كانت للديانة فى مصر أهمية كبرى ، فقد اعتقد المصريون أن بلادهم حكمها الآلهة فى عصورها الأولى ، وأن ملوكهم قد ورثوا عنهم عروشهم وواجباتهم ، فكانوا من ثم آلهة وأبناء آلهة ، ولذلك كانت الحكومة ذات طابع دينى قوى ، وكان للدين فى حياة المصريين عامة أثر كبير حتى لقد عرف عنهم فى عصورهم المتأخرة أنهم أكثر الأمم تدينا. على أن الديانة المصرية إنما ترجع فى أصولها إلى الأزمنة الأولى وإلى الظروف الطبيعية التى كانت تسود مصر؛ فقد كانت مصر تزخر بالمناقع والأحراش تعيش فيها أفراس النهر والتماسيح ، وتهوى إليها الطيور المختلفة ، كما كان يعيش فى وديان الصحارى المحيطة بوادى النيل الغزلان والأيائل ، والظباء والثيران ، والسباع والذئاب وغيرها من صنوف الحيوان . وكان المصريون فى حياتهم على أوثق اتصال بطبيعة بلادهم ، لذلك فلا غرابة أن آنسوا فى بعض الحيوان والطير من الصفات والخصائص ما أثار شعورهم فقدسوه رهبة وخشية كاللبؤة والتمساح والناشر، أو ابتغاء خيره ونفعه كالبقرة والثور ، أو لغرابة فى طبعه ومظهره كأبى منجل والقرد ، أو لصفة ممتازة فيه كالصقر (1) .

---

(1) لعلو طيرانه فى السماء وحدة ناظريه ، وكان اسمه فى اللغة المصرية يعنى « العالى » .

الآلهة المحلية :

كانت آلهة المدن أقدم المعبودات فى مصر ، وكانت تتميز فيما بينها بأماكنها وأسمائها وأعيادها . وقد نشأت فى مصر نفسها وتشهد بذلك أسماؤها المصرية وصفاتها . وكان « إله المدينة » يعتبر عند سكانها أعظم من آلهة المدن الأخرى ، فهو الذى خلق كل شيء ، وهو واهب الخيرات والنعم . وقد ظل « إله المدينة » حتى أواخر الحضارة المصرية على صلة وثيقة بمدينته ، فكان لواؤه هو نفسه علم المدينة التى نشأت عبادته فيها ، وكان فى كثير من الأحيان يسمى باسمها[١] ، أو يلقب بأنه سيدها[٢] ، كما كانت المدينة نفسها تسمى بيته[٣] . وقد بقيت العبادات المحلية فى مصر حتى نهاية الحضارة المصرية على ما تعرضت له من تغيير وتبديل . وظل المصريون يتقدمون لها بالدعاء والرجاء ، ويتقربون إليها بالقرابين حتى فى العصور التى كانت تعبد فيها الآلهة الكونية العظيمة .

المعبودات من الحيوان :

وكانت أغلب المعبودات المحلية من الحيوان ، وبعضها من النبات أو الجماد . وليس من الغريب أن كان يخصها العوام من المصريين بالعبادة لذاتها ، بيد أن المفكرين منهم إنما كانوا يعتبرونها مظهرا لقوة إلهية ، أو مقرا لها تحل فيها . ولم يكن جميع أفراد كل نوع يعبد من الحيوان أهلا للتقديس ، وإنما كان يختار فرد واحد منه ، يمتاز بصفات خاصة ، يتميز بها عن غيره من أفراد نوعه[٤]. فإذا نفق الحيوان المعبود كفن بالكتان والحصير على نحو ما كان يكفن الموتى من المصريين ، ثم يدفن فى أماكن مختارة بين مقابر الموتى . ولكن لم يلبث أن أصبح لبعض هذه الحيوانات المعبودة تماثيل من الصلصال أو الخشب أو الحجر أو المعدن تقوم مكان الحيوان المقدس . وكانت صناعة تماثيل الآلهة فى بداية الأسرات من الأحداث الهامة التى تسمى بها سنوات حكم الملوك .

---

(١) ومن أمثلة ذلك الإلهة « نخبيت » (الرخمة) (شكل ١) نسبة إلى « نخب » شمال إدفو ، والإلهة «باستت» (شكل ١٠) (القطة) التى تنسب إلى «باست». وهى «بوبسطة» (الزقازيق) .

(٢) كان الإله « تحوت » (شكل ١٠) يلقب بأنه « سيد الأشمونين » ، وهى مدينة قرب ملوى بمديرية المنيا .

(٣) كانت الأشمونين تسمى أيضا « بيت تحوت ، سيد الأشمونين » وقد وجد هذا صداه فيما سمى به الإغريق بعض المدن المصرية ، ومن ذلك : «هليو بوليس» (مدينة الشمس) ، «وهرموبوليس» (مدينة هرمس = تحوت) و « هيرا كو نبوليس » (مدينة الصقر) .

(٤) وهذا على عكس ما أصبح عليه الأمر فى العصور المتأخرة من الحضارة المصرية ، التى انتشرت فيها عبادة الحيوان بين طبقات الشعب وشملت جميع أفراد ما كان يعبد منه .

معبودات الأقاليم :

وكان لما تعرضت له المدن من أحداث سياسية آثار واضحة فى المعبودات المحلية ؛ فبنشأة الأقاليم علا شأن معبود عاصمة كل إقليم وأصبح هو المعبود الرسمى للإقليم كله ، وله السيادة على معبودات المدن الأخرى التى يشتملها الإقليم .

ولا شك أن بعض معبودات هذه المدن كان يغلب على أمره ويفقد أهميته ، فى حين أن بعضها الآخر كان يحاول سدنته التقريب بينه وبين إله العاصمة ، مدعين أنه صورة له لا يختلف عنه فى شىء ، يبتغون له بذلك البقاء والجاه ؛ وقد يخرج بهذه المماثلة عن طبيعته الأولى وصفاته الأصلية ، أو تضاف إليه صفات المعبود الذى يتخذ شخصيته وإن كانت تتعارض مع خصائصه الأصيلة . وكما ألفت الأحداث السياسية بين بعض المدن ، فقد كانت تؤلف كذلك بين بعض المعبودات المتجاورة وتكون منها أسرا إلهية ، منها ما كان يؤلف فى عهد الأسرات ثالوثا من الأب والأم والأبن [١] ، أو من زوج وزوجتين[٢] ، أو من أم وابنين[٣] .

« حورس » الصقر:

وبضم بعض الأقاليم بعضها إلى بعض وتكوين حكومات كبيرة كانت آلهة العواصم الجديدة تحظى بمركز السيادة على آلهة المقاطعات الأخرى . وبتوحيد البلاد فى بداية الأسرات وجمع السلطة فى يد ملك واحد أصبح الإله « حورس » الصقر المعبود الرئيسى فى القطرين ؛ وذلك لأنه كان إله الملك وهو الذى أمده بالنصر . وإذا كان الملك من جهة أخرى يعتبر الصورة الحية للإله « حورس » على الأرض ، فقد كان من الطبيعى أن يزداد شأن « حورس » أيضا بما يكسبه الملك من نفوذ وسلطان ، وأن يعنى الملك بمعبده فيزيد فيه أو يجدد بعض أجزائه ويغدق عليه الهبات التى تعين على أداء الطقوس له بما يناسب ما أصبح له من شأن . وتدل النصوص على أنه كان يحتفل بعيد « حورس »

---

(١) كثالوث منف من « بتاح » و« سخمت » و « نفرتم » ، وكثالوث طيبة من : «أمون» و « موت » و « خنسو » .

(٢) كثالوث إلفنتين من « خنوم » و « عنقت » و « ساتت » .

(٣) كثالوث المقاطعة السابعة فى الصعيد وهو مؤلف من « حتحور » و « سماتاوى » و « إيحى » .

فى بداية الأسرات احتفالا عظيما كل سنتين ، تعد فيه المراكب لينزل فيها تمثال الإله مع الملك لزيارة المعابد الهامة . وقد أفاد توحيد البلاد كذلك المعبودات التى ناصرت الملك وساهمت فى انتصاره فغدت هى الأخرى من الآلهة العظيمة .

الأساطير :

وكانت الأحداث السياسية من وقائع وحروب تسند إلى المعبودات التى كان أتباعها يحاربون تحت ألويتها ، وبذلك كانت هذه الأحداث والوقائع هى المادة التى حيكت منها أساطير الآلهة .

ولم تكن الأحداث السياسية هى وحدها مما أثر فى المعبودات ، وإنما كان للظروف الاقتصادية عامة ، وما نتج منها عن الأحداث السياسية بصفة خاصة ، آثارها كذلك . فمن المعبودات مازاد ثراؤه فازداد قوة وشأنا ، ومنها ماقل دخله فضعف أمره .

وكان لتطور الثقافة وتقدم التفكير الدينى كذلك آثارها على المعبودات وما تصوره المصريون عنها . ويدل على ذلك أنه ليس بين المعبودات المصرية آلهة جبارة منتقمة تسرف فى الشر والأذى على نحو ما فى بعض الديانات القديمة الأخرى ، كما أنه ليس فيما كان يؤدى لهم من طقوس ما يفزع ويرهب ، وإنما تتميز العبادات المصرية بطابع هادئ متزن يتفق وطبيعة المصريين وما كسبوه من تقدم ثقافى فى عهد الأسرات . ويشهد بذلك أن من الآلهات التى كانت تعبد على شكل لبؤة ما أصبحت تتخذ شخصية الإلهة « حتحور » البقرة .

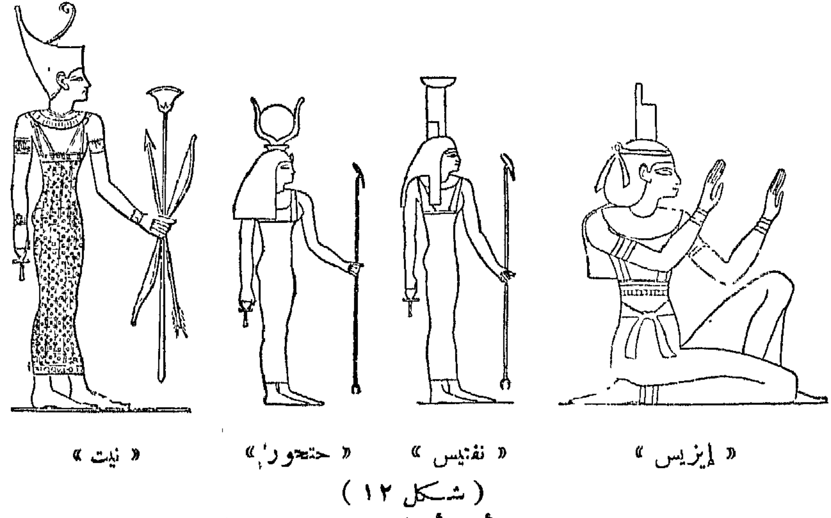
تمثيل الآلهة على هيئة انسان :

وقد مثل المصريون فى عصر الأسرات أكثر آلهتهم بجسم إنسان ورأس الحيوان المعبود (شكل ١٠) وفى بعض الأحيان على هيئة إنسان كامل (شكل ١١) ، وقد يحمل على رأسه أو فى يده ما يدل على أصله (شكل ١٢) . ولابد أن ذلك الاتجاه إنما بدأ فى عصور ما قبل التاريخ نفسها ثم بلغ غايته فى بداية الأسرات . ومن أسبابه أن المصريين كانوا يضفون على المعبودات الحيوانية من صفات الإنسان وأعماله ما يتنافى وطبيعتها الحيوانية الخالصة ، وأنه بتقدم الحضارة لم تعد الصفات الطبيعية المحضة فى الحيوان تستأثر بالمشاعر الدينية ، وإنما أصبح للصفات العقلية الشأن الأول . ولهذا سما الفنانون بآلهتهم عن تمثيلها فى أشكالها الحيوانية الأولى ؛ على أن ما أضفاه الزمن على أشكالها من قداسة ،



(شكل ١٠) معبودات مصرية بجسم إنسان ورأس حيوان

(شكل ١١) إلهان مصريان فى هيئة أنسان كامل



(شكل ١٢)
إلهات مصرية على رأسها أو فى إحدى يديها مايدل عليها

وما جبل عليه المصريون من استمساك بالتقاليد الموروثة ، وضرورة تمييز المعبودات فيما بينها فى صورها وتماثيلها ، كل أولئك دعا إلى الاحتفاظ للمعبودات بما يمكن أن يدل على أصلها الأول . ومع هذا فقد ظلت بعض الحيوانات المقدسة تمثل فى عصور الأسرات بهيئتها الحيوانية الكاملة ، مثل عجل « أبيس »[1] (شكل ١٣) ؛ ويرجع ذلك إلى أن تقديس هذه الحيوانات نشأ بعد أن استقرت أشكال المعبودات الأولى وبلغت فكرة تمثيلها على شكل إنسان غايتها .



(شكل ١٣)
« أبيس »

الآلهة الكونية :

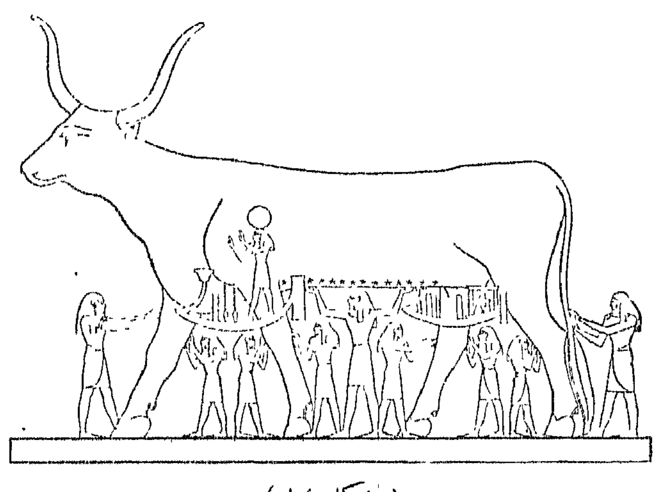
للعناصر الكونية فى مصر من القوة والشخصية والوضوح ما لا يزال يؤثر فيمن يعيش فيها أو يرتاد أرجاءها ؛ فسماؤها صافية لا تكاد تغيم ، وشمسها ساطعة تمخر أجواز الفضاء وكأنها ملك عظيم ، ونجومها زاهية يمكن ترسم خطاها ومسالكها ، ونيلها يفيض فى ميعاد ثابت كل عام ، يرتقب مجيئه ، ويرهب إذا تعدى حده ؛ وهو يروى الأرض فينمو النبت ويأكل السكان ويكتسون ، ويتقربون للآلهة شكرا على ماوهبت ، وتطعم كل هائمة وسائمة . وتحف بوادى النيل صحارى قاحلة تمتد إلى مالا يحده الطرف ، وتروع

---

(١) وهو العجل المقدس فى منف .

من يجوب فيافيها ومتاهاتها . لهذا لا عجب أن كانت العناصر الكونية ومظاهر الطبيعة في مصر مما علقت به قلوب المصريين وأخيلتهم ، فرأوا في الشمس والقمر والأرض والسماء ، والماء والهواء ، آلهة يرهبون جانبها ويقدسونها حيثما تكون ، دون الحاجة في بداية الأمر لرمز يكنى عنها ، أو معبد يشيد لعبادتها ، على غير ما كانوا يصنعون مع المعبودات المحلية .

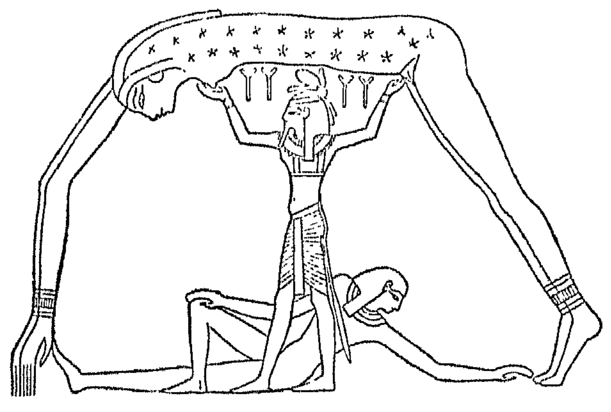
وقد تصوروا السماء بقرة تقف بأرجلها على الأرض (شكل ١٤) ، أو امرأة حانية



(شكل ١٤)

السماء في هيئة بقرة

على الأرض يرفعها في الفضاء إله الهواء « شو » (شكل ١٥) ، رأسها في الغرب وقدماها في الشرق ، تلد الشمس كل صباح وتبتلعها ثانية كل مساء . وتصوروها كذلك بحراً تمخر



(شكل ١٥)

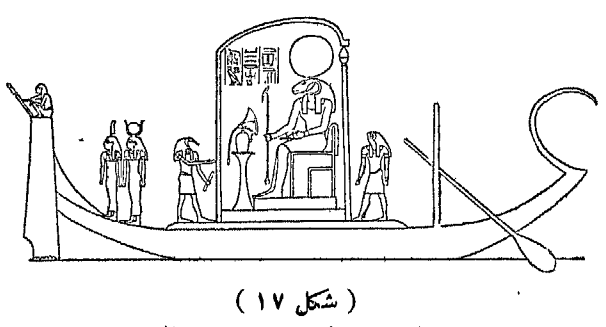
السماء في هيئة امرأة حانية على الأرض (جب) وبينهما إله الفضاء (شو)

الشمس عبابه فى زورق النهار (شكل ١٦) . أما الشمس وهى أبرز العناصر الكونية وأقواها أثرا فى حياة الإنسان فقد تمثلها المصريون فى صور شتى . فتصوروها تارة ملكا



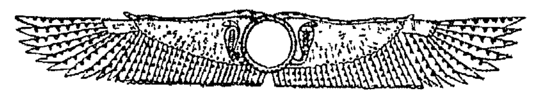
(شكل ١٦)
إله الشمس فى زورقه

تحيط به حاشيته وهو يجوز سماء النهار فى سفينة عظيمة (شكل ١٧) ، يدلف منها عند



(شكل ١٧)
إله الشمس فى زورقه يحكم العالم

الغروب إلى سفينة الليل ؛ وتخيلوها تارة أخرى قرصا (شكل ١٨) أو جعلا ذا جناحين (شكل ١٩) ، أو طفلا تلده إلهة السماء كل صباح . وفى بعض الأحيان تمثلوا شمس الصباح

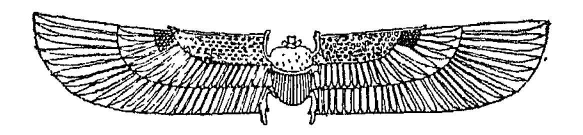


(شكل ١٨)
الشمس فى هيئة قرص ذى جناحين

جعلا كبيرا يدحرج أمامه الشمس كما يدحرج الجعل كرته [1] ؛ وتمثلوا شمس المغيب رجلا هرما قارب نهايته .

(١) ما يدحرجه الجعل من أمامه هو كرة مدورة يصنعها لطعامه ، أما أنثى الجعل فتضع بيضها فى كرة أخرى بيضية الشكل تقريبا .

ومع التقدم السياسى وما صاحبه من تقدم فى التفكير الدينى لم تعد أسر الآلهة المحلية الأولى تتفق وقيام حكومة فى البلاد ذات سلطان شامل ، كما لم تعد تكفى لتفسير نظام



(شكل ١٩)
الشمس فى هيئة جعل ذى جناحين

الكون وخلق العالم على صورة منطقية مقبولة . لذلك ابتدع المفكرون من رجال الدين نظريات دينية جديدة اختاروا عناصرها من الآلهة الكونية ، كما أضفوا فى بعض الأحيان من الصفات الكونية على الإله المحلى ما كان يرتفع به إلى مصاف الآلهة الكونية العظيمة .

تعاليم عين شمس :

وكان لكهنة عين شمس[١] السبق فى هذا المضمار . فقد كان يعبد فيها فى بداية الأمر الإله « أتوم » [٢] ، ولكن كهنته عرفوا كيف يعقدون الصلة بينه وبين « رع » (الشمس) ويوفقون بينهما ، وبذلك أضفوا عليه صفة كونية عامة ينطق عنها اسمه الجديد « رع أتوم » . [٣] وتتلخص نظريتهم عن خلق العالم فى أنه لم يكن فى البدء غير محيط أزلى مظلم ، برز منه إله الشمس بقدرة فيه ، فوق رابية فى « عين شمس » ، ومن ثم اعتلى حجرا مدببا من أعلاه[٤] . وخلق إله الشمس من نفسه وبطريقة مادية[٥] أول زوج من الآلهة ، وهما « شو » ، إله الهواء ، و « تفنوت » ، إلهة الندى أو الرطوبة ؛ وهذان ولدا « جب » إله الأرض و « نوت » إلهة السماء ؛ وكانت الأرض والسماء رتقا ففتقهما « شو » (شكل ١٥) . ومن « جب » و « نوت » نشأ « أوزيريس » (شكل ١١) و « إيزيس » (شكل ١٢) و « ست » (شكل ١٠) « ونفتيس » (شكل ١٢) . وتؤلف هذه الآلهة التسعة ما يسمى « تاسوع عين شمس » ؛ وهو يتألف من خمسة آلهة كونية وأربعة آلهة من أسطورة « أوزيريس » . ولا بد أن كهنة

---

(١) وكانت تسمى بالمصرية القديمة « أون » .
(٢) وكانوا يمثلونه على شكل ملك على رأسه التاج المزدوج .
(٣) من العلماء من ينطق هذا الاسم « أتوم رع » .
(٤) وكان يسمى « بنبن » .
(٥) من ذلك أنه بصق فكان « شو » ، وتفل فكانت « نوت » .

عين شمس رأوا ما يفيدهم فى مصانعة عبادة « أوزيريس » التى قدر لها الانتشار بين طبقات الشعب . وعلى أية حال فقد زعموا أن آلهة هذا التاسوع قد حكموا مصر فى الأزمنة الأولى ، وتوارثوا عرشها ابنا عن أب .

ولما كان « حورس » قد حظى بمركز السيادة بين الآلهة ، فقد رأى كهنة عين شمس أنه مما يعلى من شأن « رع » أن يسموه كذلك « حورس المشرقى » (حر اختى) ، ثم لم يلبثوا أن عقدوا الصلة بين الاسمين على نحو واضح ، فجعلوها « رع حر اختى » ، وبذلك أصبح الإله الصقر من الآلهة الكونية بعد أن كان فى الأصل من المعبودات الحيوانية .

انتشار عبادة « رع » :

يدل اتخاذ « رع » إلها لعين شمس ، وضم بعض الآلهة الأوزيرية إليه ، ثم عقد الصلة بينه وبين « حورس » على ما كان لكهنة « عين شمس » من نشاط خاص وعلى حرصهم على أن يكون لإلههم السيادة فى البلاد . وقد قدر لنشاطهم النجاح ؛ ومن القرائن الدالة على ذلك أن اسمه يكون جزءا من اسم أحد ملوك الأسرة الثانية[1]، وأن « زوسر » أعظم ملوك الأسرة الثالثة ، لقب نفسه بلقب « رع الذهبى » كما خص رئيس كهنة عين شمس فى عهده ، وهو « إمحوتب » ، بمركز ممتاز فى بلاطه واعتمد عليه اعتمادا كبيرا . وفى الأسرة الرابعة دخل اسم « رع » فى أسماء أكثر ملوكها[2] ، وأسماء كثير من الأمراء ، واتخذ « خفرع » و « منكاورع » لقب « ابن الشمس » الذى لم يلبث أن غدا من الألقاب الملكية ، إلى جانب اللقب الحورى الذى كان يدل على أن الملك هو « حورس » على الأرض . وهكذا أصبح لعبادة الشمس من الأهمية والانتشار ما مهد لقيام الأسرة الخامسة التى جعلت من ديانة « رع » الديانة الرسمية للبلاد ، وشيدت لها المعابد ، وحبست عليها الأراضى الواسعة ، كما أصبح يراعى منذ ذلك العهد أن يتألف الاسم ، الذى يتخذه الملك عند توليه العرش ، من اسم « رع » ، إن لم يكن اسمه الأصلى الذى عرف به منذ ولادته يشتمل عليه[3] .

وقد قدر لعبادة الشمس أن يكون لها أثر عميق فى ذات المعبودات المحلية ، إذ لما

---

(١) وهو الملك « رع نب » . (٢) وهم « ددف رع » و « خفرع » ، و « ومنكاورع » .

(٣) فى بداية الأسرات كان للملك ثلاثة ألقاب وثلاثة أسماء ، ومنذ الأسرة الخامسة أصبح للملك خمسة ألقاب وخمسة أسماء ، وكان منها اسمان يكتب كل منهما داخل إهليلج ، يعرف أحدهما باسم التتويج ، أما الاسم الثانى فهو اسمه الأصلى .

أن أصبحت هى العبادة الرسمية ، لم يشأ كهنة العبادات الأخرى أن تتخلف معبوداتهم عن إله الشمس فشبهوها به وادعوا إنما هى صور له ، ليكون لها نصيب من جاهه وسلطانه . وهكذا اتحذ كثير من الآلهة شخصية إله الشمس واتحد به ، ومن أمثلة ذلك « مين رع » و « سبك رع » و « خنوم رع » و « منتو رع » و « أمون رع » . وقد تبع ذلك أن وجدت طقوس عبادة الشمس سبيلها إلى طقوس غيرها من الآلهة حتى أصبحت الطقوس الدينية فى جميع المعابد واحدة فى نهاية الدولة القديمة .

تعاليم منف :

وبتشييد منف وقيام العاصمة فيها ازداد شأن إلهها « بتاح » (شكل ١١) ، وكان يعتبر إله الفنون والصناعات التى بلغت غاية ازدهارها فى منف فى عصر الدولة القديمة . وقد علا كهنة منف بإلههم كثيرا ، فجعلوه أعظم الآلهة وأقدمها وأضفوا عليه لقب « ملك القطرين » ، وادعوا أنه الخالق الأول الذى خلق كل شىء بفكرة فكر فيها القلب[١] ونطق بها اللسان ، وقد خلق جميع الآلهة على هذا النحو . وهكذا تدل تعاليم منف على تقدم كبير فى التفكير الدينى ، إذ بينما اعتمدت تعاليم عين شمس فى تفسير خلق العالم على طريقة مادية ، رأى كهنة منف أن الكون وما فيه جميعا إنما نشأ أول الأمر صورة فى عقل « بتاح » ، ثم نطق لسانه بما فكر به عقله فخلق الكون بالكلمة .

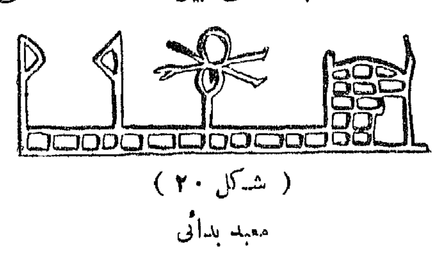
من ذلك يبدو أن الديانة المصرية لم تكن تتألف من عقيدة واحدة متسقة فى تفاصيلها وأجزائها ، يدين لها المصريون فى كل عصر ، وإنما كانت تتألف من عقائد وعبادات مختلفة لها صلتها بالعبادات المحلية وما حيك حولها من أساطير . ويبدو أيضا أن فيها تتراءى طبيعة البلاد ، وتتردد أصداء الأحداث السياسية والظروف الاقتصادية وأفكار رجال الدين . لذلك لا عجب إذا كانت الديانة المصرية تحتوى على أفكار وعقائد لا تخلو من تناقض فى بعض الأحيان ؛ ولا يرجع ذلك التناقض إلى طبيعة المصريين ، وإنما إلى أنها تراث أجيال طويلة وعبادات مختلفة . وعلى أية حال فقد تصور المصريون آلهتهم على شاكلتهم ، عاشوا على الأرض وتعرضوا فيها لما تتعرض له الحياة الإنسانية من أفراح وآلام ، واعتورهم ما يعترى الإنسان من ضعف وموت ، وكان لهم ما له من غرائز وشهوات . بيد أنهم إلى جانب ذلك تمثلوا الإله بصفات جليلة ، فهو « العظيم » ، « القوى » ، « الطيب » ، « العدل » ، « الرحيم » .

---

(١) كان القلب عند المصريين مقر العقل والإرادة والشعور .

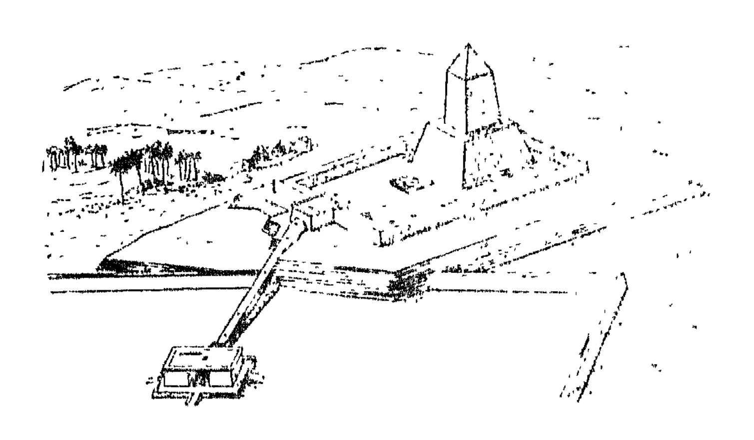
المعابد :

كان المصريون يعتقدون أن لابد للآلهة من بيوت تسكنها ، وتؤدى لها فيها حاجاتها من طعام وشراب وكساء وعطر ؛ ولذلك كانت المعابد تسمى بيوت الآلهة وتحظى بأكبر عناية فى تشييدها . بيد أن المعبد كان فى بداية الأمر كوخا بسيطا من أعواد النبات ذى سقف مقبى ، يتقدمه فناء يقوم على مدخله صاريان تعلوهما شارتان (شكل ٢٠) . ثم لم تلبث المعابد أن شيدت بالحجر على خلاف قصور الملوك والأمراء وبيوت الأفراد التى ظلت تبنى من اللبن ، وذلك لما ينبغى أن يكون لبيوت الآلهة من ثبات واستقرار .



(شكل ٢٠)
معبد بدائى

ولم يبق من معابد الآلهة فى الدولة القديمة غير أطلال أحد معابد الشمس فى عهد الأسرة الخامسة (شكل ٢١) [1] ؛ ويعتقد أنه فى تخطيطه إنما كان يشبه معبد الشمس



(شكل ٢١)
معبد الشمس

الأصيل فى عين شمس . وكان يتألف من طريق صاعدة تؤدى إلى فناء واسع مكشوف ، تقوم فى مؤخرته مسلة فوق قاعدة مرتفعة ، ومن أمامها مائدة كبيرة للقربان ، ومن خارج المعبد سفينة كبيرة من الخشب فوق قاعدة من اللبن ترمز إلى إحدى سفينتى الشمس . وهكذا كان معبد الشمس مكشوفا تغمره أشعة الشمس ، ولم يكن يحتوى على

(١) أقامه الملك « نيوسررع » فى أبو صير شمال سقارة .

تمثال ، وإنما كانت القرابين تقدم للشمس فى وضح النهار أمام رمزها المقدس وهو المسلة[1] . وكانت تحلى جدران الدهليز المؤدى إلى قاعدة المسلة صور ومناظر تمثل الطبيعة وأعمال الإنسان فى الفصول المختلفة بما يكنى عن أن الشمس هى أصل الحياة على الأرض ومصدر ما تنتجه من خيرات .

الكهنة :

ورث الملك كهانة المعبودات المختلفة فى البلاد عن حكام المدن والأقاليم ، وبذلك صار له وحده من الناحية النظرية حق القيام بأداء الطقوس الدينية للآلهة جميعا . على أن ذلك لم يكن مستطاعا من الناحيــة العملية بطبيعة الحال لكثرة المعبودات وانتشار معابدها فى أنحاء البلاد ، ولكثرة المهام الأخرى التى يتولاها الملك ؛ لذلك كان الملك فى الدولة القديمة يعين رؤساء الكهنة من أبنائه ومن أفراد الطبقات العليا ليقوموا نيابة عنه وباسمه بكهانة الآلهة فى معابدهم . وكان من الكهنة من يقتصر عمله على الأعمال المادية فى المعبد ، ومنهم من كان يقوم بأداء الطقوس الدينية المقدسة وخاصة طقوس إطعام الإله بتقديم القربان أمامه وحرق البخور له ، ومنهم من كان يقوم بترتيل النصوص الدينية . وكان يشترط فيهم جميعا النظافة والطهارة .

البعث :

بالغ المصريون منذ عصورهم الأولى فى العناية بدفن موتاهم وتزويدهم بالطعام والأثاث بما ينطق بأنهم كانوا يعتقدون فى حياة ثانية بعد الموت ، يحتاج فيها الميت إلى ما يحتاج إليه الأحياء على سطح الأرض . وقد يبدو أنه مما يمكن أن يحدو بالإنسان إلى الاعتقاد بحياة ثانية مجرد رغبته فى الخلود ، غير أنه ليس من شك فى أنه قد زكى هذه الرغبة لدى المصريين قوة ما أوحت لهم به طبيعة بلادهم من أن الحياة فى تجدد دائم . فنيل مصر كلما بلغ حده من النقصان لا يلبث حتى تفيض مياهه من جديد ؛ والنبت يذوى ويجف ولكنه يعود فيخضر بعد موات ؛ والشمس تغرب وتختفى لتشرق من جديد ؛ والقمر والنجوم لا تكاد تغيب عن نظر الإنسان حتى تعود فتتلألأ فى السماء ، إلى غير ذلك من الظواهر التى لا يكاد يكون لها مثيل فى قوتها ووضوحها فى غير مصر من الأقطار . ويزيد على هذا أن المصريين فى عصورهم الأولى اعتادوا أن يدفنوا موتاهم فى رمال

(١) على عكس معابد الآلهة الأخرى التى كانت تؤدى فيها الطقوس فى أماكن مسقوفة يكتنفها الغموض والظلام .

الصحراء التيكان من شأن جفافها أن تعمل على حفظ الجثث أمدا طويلا ؛ ولا يبعد أن تـكون هذه الظاهرة قد زادت من إيمانهم بأن الموت ليس معناه الفناء الأبدى وليس نهاية الحياة .

الجسد والروح والقرين :

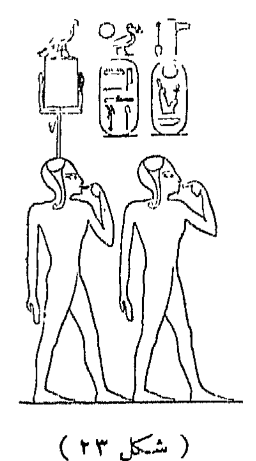
وكان المصريون يعتقدون أن الإنسان يتألف من جسد ، وروح (با) ، وقرين (كا) ، وأن كلا يعتمد على غيره ، وإن كان لـكل وجود مستقل ؛ كما ذهبوا إلى أنه لا يمكن للمتوفى أن يتمتع بحياة ثانية دون الاحتفاظ بجسده سليما . أما الروح فقد مثلوها على هيئة طائر (شكل ٢٢) ؛ ومن أهم خصائصها أنها تستطيع أن تتخذ ما تشاء من أشكال مختلفة . ورأوا أن القرين (كا) صورة لصاحبه يولد معه ، ولا يختلف عنه إلا بعلامته فوق رأسه[١] ويلازمه بعد الموت (شكل ٢٣) . ويحتمل أنه كان فى اعتقادهم يمثل مجموع الصفات الروحية للحياة فى الآخرة[٢] . وكانت الروح والقرين فى بداية الأمر مما تختص بهما الآلهة والملوك[٣] ، ولـكن لم يلبث أن ادعاها الأفراد كذلك .



(شكل ٢٢)
الروح فى هيئة طائر

عالم الموتى :

لما كان الميت يدفن فى الأرض فقد تصور المصريون منذ أقدم أزمنتهم أن الميت إنما يعيش فى قبره ؛ وتصوروا كذلك أن المقابر عبارة عن مداخل لعالم يسكنه الموتى فى أسفل



(شكل ٢٣)
الطفل « امنحوتب الثالث » ومن ورائه قرينه

(١) وهى ذراعان ممتدتان إلى أعلى .
(٢) كالقدرة على الخلق ، أو الإرادة الخالقة والقوة وغيرها .
(٣) كان يعتقد أن لـكل ملك ولـكل إله سبع أرواح وأربعة عشر قرينا .

الأرض تضيئه الشمس بالليل . ولكن لما كانت الشمس تختفي في الغرب ، فقد تصوروا كذلك أن مدخل ذلك العالم السفلي هو الغرب . على أنه مهما كان من شأن هذا العالم السفلي ، فما كان الموتى الأبرار ليرضوا به مسكنا أبديا لهم ؛ لذلك تخيل المصريون نجوم السماء العديدة أرواحا لملوكهم والموتى الأبرار ، اختارتها ألهة السماء لتأخذ مكانها فيها ولتشاركها الخلود .

ولما كانت الشمس هي أعظم أجرام السماء تألقا وبهاء فقد تصوروا أنه مما يتفق ومماثلة ملك مصر للشمس أو بنوته لها أن يتخذ بعد موته شخصية إله الشمس نفسه ، فيجلس على عرشه ويرأس الآلهة ، أو يتلماه إله الشمس لقاء حسنا ويهيئ له مكانا في سفينته ، أو يتخذه كاتبا له يجلس من أمامه أو إلى جانبه ، ومن ثم يجوب وإياه السماء في النهار كما يجوبها في الليل مع إله القمر « تحوت » .

وفي السماء تصور المصريون كذلك أن الملك يدخل حقل الأسل (يارو) ، حيث يزدهر الزرع وينمو القمح والشعير إلى ارتفاع سبعة أذرع ، فيجلس على عرش كبير ، تكرمه رعيته ، ويقضي بينها على نحو ما كان يفعل على الأرض . وبهذا لم يكن دخول جنة الأسل قاصرا على الملك وحده ، وإنما كان يدخلها كذلك أتباعه وحاشيته والأبرار من شعبه .

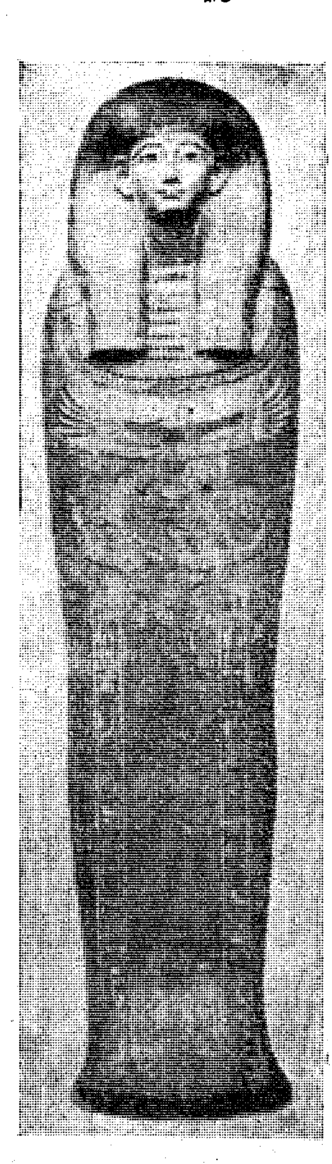
ولم يقدر لأحد هذه التصورات أو غيرها أن يسود على غيره ويحل مكانه ، وإنما ظلت جميعها باقية جنبا إلى جنب ، بل إن منها ما كان يختلط بغيره على الرغم مما يكون بينهما من بعد وتناقض .

حفظ الجثة وتحنيطها :

كان المصريون يعتقدون أنه لا بد من حفظ الجثة ليحيا الميت ثانية ويتمتع بما يودع إلى جانبه من طعام وشراب وكساء ، وما يقدم له من قربان . على أنه منذ أن بدأوا يدفنون موتاهم في توابيت وفي غرف من اللبن أو غرف محفورة في الصخر ، تعرضت الجثث للتلف ، إذ لم تعد الرمال الحارة الجافة تمتص ما فيها من رطوبة تعمل على فسادها . لذلك عملوا على الاحتفاظ بالمظهر الخارجي للجثة ، وكانت لهم في ذلك وسائل شتى ، منها إحكام لف الجثة بلفائف من الكتان تحتفظ بالشكل الخارجي للجسم ، أو تغشيتها بغلاف من الجص وخاصة الوجه الذي ترسم عليه ملامحه ، أو تغطية الرأس بقناع من الكتان والجص معا تشكل فيه ملامح الوجه . وقد بلغوا بهذه الوسائل غايتها في بداية الأسرة الثانية عشرة حيث صنعوا توابيت مخلقة على هيئة الميت (شكل ٢٤) يضعون

فيها جثته ثم يضعونهما فى داخل تابوت آخر من الخشب . ولم يدخر المصريون فى نفس الوقت وسعا فى العمل على حفظ الجثـة نفسها ، فعالجوها بالنطرون وغيره من المواد ، ووجدوا أنه لابد من استخراج الأحشاء منها حتى لا تكون سببا فى فسادها ، وكانوا يلفونها ويضعونها فى أربعة أوعية ، تعرف بالأوانى الـكانوبية أو أوانى الأحشاء .

وما زال المصريون يعالجون الجثة حتى بلغوا فى تحنيطها غاية الـكمال فى عصر الدولة الحديثة بفضل ما قاموا به من تجارب عديدة وما كان لهم من مهارة وبراعة ، وإن كانوا قد أسندوا فن التحنيط إلى براعة الإله « أنوبيس » (شكل ١٠) فى تحنيط جثة « أوزيريس » .



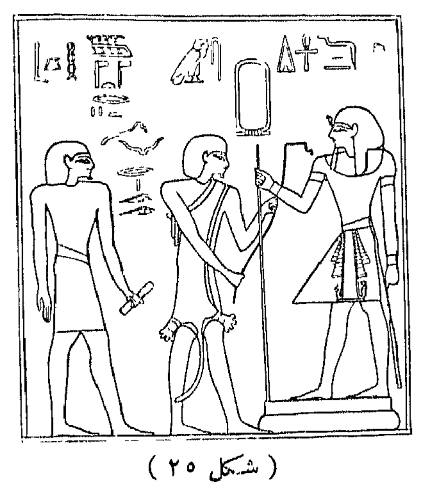
(شكل ٢٤)
تابوت مخلق على هيئة إنسان

الأثاث الجنازى :

عنى المصريون منذ أقدم الأزمنة بتزويد الميت بما يلزمه من أثاث ، على أن ذلك لم يكن يتعدى فى بداية الأمر أسلحته وحليه ومواد زينته وبعض أوان فيها طعامه وشرابه . وبازدياد الرخاء وتقدم الحياة المادية ازداد ما كان يودع مع الميت ، فـكان مما يودع معه الأرائك والصناديق والمقاعد ، وتماثيل النساء والخدم (شكل ٣٢ و ٣٣) ، ونماذج القوارب والأوانى من الحجر والنحاس . وأهم ما كشف عنه من أثاث جنازى من عصر الدولة القديمة هو ما بقى من أثاث الملـكة « حتب حرس » ، أم الملك « خوفو » ، وهو محفوظ فى متحف القاهرة ، وأهمه تابوت وصندوق الأحشاء وكلاهما من المرمر ، وسرير وعريش ومحفة ، وأوان من الذهب والنحاس والمرمر ، وحلى من الفضة . وفى الدولة الحديثة ازداد الأثاث الجنازى زيادة كبيرة ، وفيما عثر عليه فى مقبرة الملك « توت عنخ آمون » ما ينبىء عن ذلك .

الطقوس الجنازية :

ولم تكن رعاية الميت تقتصر على إعداد جثته ودفنها مع ما يلزمها من ضرورات الحياة المادية ، وإنما كان يجب أن تؤدى له أيضا طقوس جنازية معينة عند وفاته ثم فى أوقات معينة بعد ذلك . ومن هذه الطقوس طقوس الدفن ، وطقس فتح الفم ، وكان يؤدى بإشارات وأدوات خاصة على جثة الميت أو تمثاله (شكل ٢٥) ؛ وكان الغرض منه استعادة الميت لحواسه حتى يستطيع الكلام وتناول الطعام . ومن الطقوس الهامة أيضا طقس تقديم القربان . وكان القربان فى بداية الأمر بسيطا لا يعدو رغيفا يوضع فى صحفة على حصير ، ثم كان يسكب عليه الماء . ولم يلبث أن كثر ما كان يقدم من قربان وتعددت أصنافه .



(شكل ٢٥)
إحدى شعائر طقس فتح الفم

وكان الملوك بطبيعة الحال أول من عملوا على أن يقدم لهم القربان الطيب الوافر . وكان لمن يدفن حولهم من أفراد الأسرة المالكة ورجال الحاشية ، وأقزام البلاط وكلاب الملك نصيب منه . وفى الدولة القديمة زاد كثيرا ما كان يقدم للموتى من قرابين . وكان يصاحب تقديم القربان شعائر وتلاوات خاصة ؛ ولم تكن هذه الشعائر تختلف فى معابد الآلهة عنها فى المعابد الجنازية للملوك أو فى مقابر عظماء الأفراد . وكان كل قربان يقدم يسمى « عين حورس » كناية عن عين « حورس » التى انتزعها « ست » ثم استعادها « حورس » وقدمها إلى أبيه « أوزيريس » عنوانا للتضحية والحب البنوى ، وقد أفادت « أوزيريس » الحياة والقوة .

وكان المصريون يعتبرون أن أداء الطقوس الجنازية من أقدس واجبات الابن الأكبر ، ويرون ضرورة أدائها باستمرار وخاصة فى الأعياد . على أن تكاليف الحياة ومقتضيات الزمن كانت تؤدى بالأبناء والأحفاد إلى اهمالها ، مما كان يعد خطرا كبيرا على الميت . لذلك دعا الأمر إلى تعيين كهنة جنازيين يؤجرون على أداء هذه الطقوس على وجهها الصحيح نيابة عن الأبناء . ويبدو أن الملوك كانوا أول من عينوا مثل هؤلاء الكهنة ومنحوهم الأراضى يعتمدون على منتجاتها فى القيام بما عهد إليهم من واجبات . وعلى هذا النحو سار أيضا الأمراء وعظماء الأفراد ، وكانوا يعقدون مع

من يختارونهم من الكهنة العقود التى تحدد أعمالهم وتبين ما يخصص لهم من الأراضى . ومع ذلك فكثيرا ما كانت منتجات الأراضى المخصصة للمقابر لا تلبث أن تصرف فى غير ما خصصت له ، مما أدى إلى إهمال المقابر وتعرضها للتلف والاعتداء .

متون الأهرام :

عمد ملوك الدولة القديمة منذ نهاية الأسرة الخامسة إلى نقش متون دينية طويلة على جدران غرف الدفن وبعض الغرف المتصلة بها داخل أهرامهم[1] . وتعتبر هذه المتون أقدم ما حفظ من نصوص دينية على الإطلاق ، وهى نصوص مستفيضة تكشف عن الكثير من عقائد المصريين وأفكارهم . وتتألف من أوراد مختلفة لا يجمعها رابط أو نظام ، وكانت تهدف إلى تحقيق حياة سعيدة الملك المتوفى فى العالم الثانى ؛ فمنها ما كان يعتقد أنه يقى الملك المتوفى الجوع والعطش والمرض ويعيد إليه حواسه ، أو يضمن له الصعود إلى السماء وحسن استقبال الآلهة له ؛ ومنها تعاويذ ضد العقارب والثعابين ، كما أن منها مالايعدو أن يكون قوائم طويلة بالقرابين . وقد روعى فى نقش هذه المتون على جدران غرفة الدفن أن تكون بحيث يمكن الملك وهو فى تابوته أن يقرأها . وليس من شك فى أن الكهنة كانوا يرتلونها قبل ذلك فى معابد الملوك السابقين ، ولكنهم ما لبثوا أن أهملوا ترتيلها ، فرئى أن فى تسجيلها كتابة ما يعوض عن إهمال تلاوتها فى المستقبل .

ومن متون الأهرام ما يدل فى لغته وموضوعه على أنه تراث عهود سحيقة ، غير أن لكثير منها علاقة بعقيدة الشمس مما يدعو إلى الظن بأن كهنة الشمس هم الذين ألفوها وأضافوا إليها ترتيلات وتعاويذ قديمة . ثم إن منها أيضا ما يتصل بعقيدة « أوزيريس » ، كما أن من الترتيلات الشمسية نفسها ما عدل بما يتفق وعقيدة «أوزيريس» ، التى قدر لها السيادة فى متون أهرام الأسرة السادسة . وفى عهد « بيبى الثانى » أحد ملوك هذه الأسرة وجدت متون الأهرام سبيلها إلى أهرام الملكات .

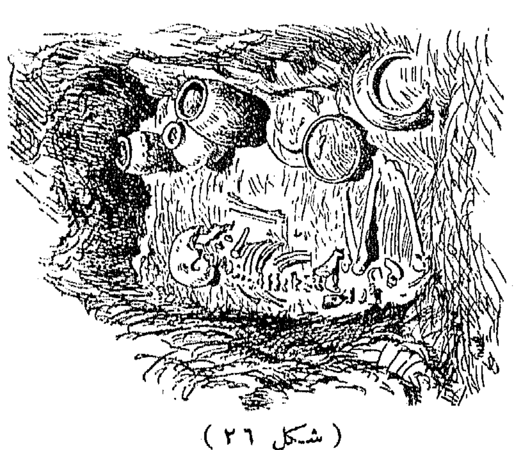
المقابر :

لم يعن شعب ببناء مقابر الموتى مثلما عنى بها المصريون ؛ فليس فى أى قطر آخر من المقابر مايقرب فى عدده أو ضخامته أو روعته ما خلفته منها مصر القديمة . ومع ذلك ، فقد كانت المقابر فيما قبل الأسرات بسيطة ، إذ كانت حفرا صغيرة توضع فوقها كومة

---

(١) إن أقدم ماعرف منها حتى الآن هو مانقش فى هرم الملك « أوناس » بسقارة .

من أحجار لتحمى القبر من أن تذرو الرياح ما يعلوه من رمال فتتعرض الجثة للتلف ، ولتدل كذلك على مكان القبر فيستطيع أهل الميت تقديم القربان له فى الأعياد . وكان الميت يدفن على هيئة القرفصاء فتكون فخذاه مضمومتين إلى بطنه ، وذراعاه على صدره بحيث تقع يداه من أمام وجهه (شكل ٢٦) . وفى أواخر ما قبل الأسرات كان من القبور ما تغشى جوانبه بالطين ، أو تؤزر باللبن أو الخشب ؛ وكان يخصص للجثة وبعض الأثاث الجنازى الهام قسم من القبر بينما توضع الأوانى من الفخار فى قسمه الآخر . وفى بعض الحالات كان يقوم بين قسمى القبر فاصل من الخشب أو جدار من اللبن ، وبذلك بدأ تقسيم القبر إلى قسمين : أحدهما للجثة ، والآخر للقرابين . وكان للقبر فوق سطح الأرض مايدل عليه ولكنه ضاع على مر الزمن ولم يبق الآن منه شىء .



(شكل ٢٦)
قبر من عصور ما قبل الأسرات

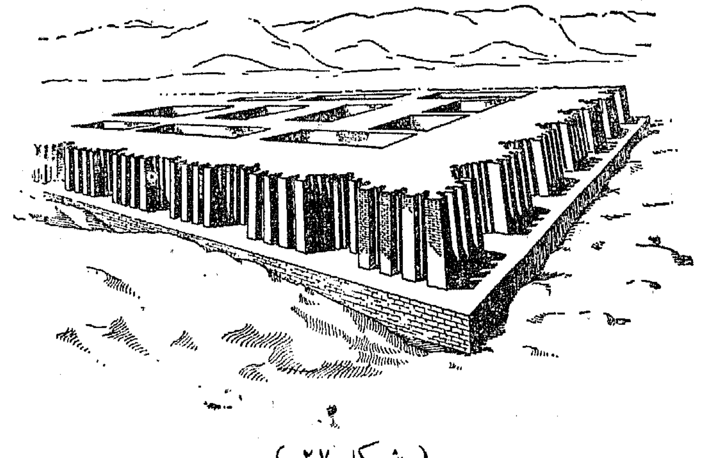
مقابر بداية الأسرات :

وكانت مقابر ملوك وعظماء الأفراد فى بداية الأسرات تتألف كذلك من جزأين : جزء تحت سطح الأرض ، ويشتمل على غرفة الدفن ومن حولها أو على جانبيها غرف صغيرة يودع فيها كثير من الأثاث الجنازى ؛ وجزء فوق سطح الأرض مبنى من اللبن يشغل مساحة كبيرة فوق القبر ، ويسمى الآن « مسطبة[1] » ؛ وتكون سميطة عادة غير أنها فى بعض الأحيان قد تحتوى على عدد من المخازن توضع فيها قدور النبيذ والطعام وغيرها (شكل ٢٧) . وتميل جدران المسطبة قليلا إلى الداخل ، وتحلى سطوحها الخارجية مشكاوات عميقة ، أو يكتفى بمشكاتين فحسب فى طرفى واجهتها . وكل مشكاة إنما كانت تمثل بابا للروح أو القرين ، وكان القربان يقدم أمام إحدى مشكاوات واجهة المسطبة[2] .

وتدل هذه المقابر على ازدهار فن البناء باللبن ؛ فقد استخدم فى بنائها اللبن

(١) هو لفظ أطلقه عمال « ماريت » على الجزء العلوى من المقبرة لأنهم وجدوا فيه مشابهة مع مساطب الفلاحين ، وإن كان يفوقها كثيرا فى الحجم .

(٢) وفى حالة الاقتصار على مشكاتين كان القربان يقدم أمام المشكاة الجنوبية منهما .



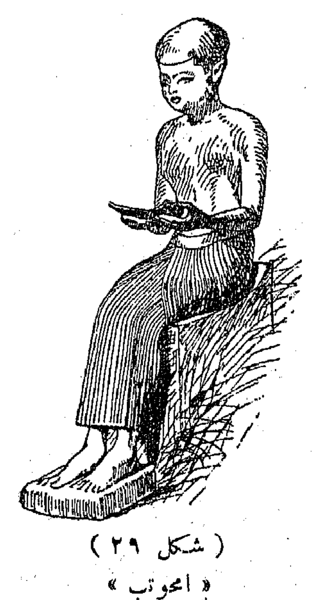
(شـكل ٢٧)
قطاع لمقبرة نقادة

استخداما واسعا لا مثيل له من قبل ، وأبدى البناء مهارة فائقة فى بناء المشكاوات ذات الجدران المتكسرة التى تتفق والبناء باللبن .

وقد استخدم الحجر فى بعض المقابر فى حدود ضيقة ، ومن ذلك رصف مقبرة أحد ملوك الأسرة الأولى بالجرانيت[١] ، وتأزير غرفة الدفن فى مقبرة آخر ملوك الأسرة الثانية بالحجر الجيرى[٢] ، وتسقيف بعض القبور الصغيرة بالحجر .

إمحوتب :

كان « زوسر » أول من استخدم الحجر استخداما واسعا فى بناءهرمه المدرج بصقارة وما ألحق به من مبانى كثيرة (شكل ٢٨) . وكان المهندس « إمحوتب » (شكل ٢٩) أكبر عون له فى ذلك ، ولقد وجد اسمه على قاعدة تمثال للملك ، مما لا يدع مجالا للشك فى شخصيته التاريخية ومكانته العظيمة ، ومن ألقابه يتضح أنه كان كبير كهنة عين شمس . وقد ألهه المصريون فى العصور المتأخرة وذكروا عنه أنه أول من استخدم الحجر فى البناء وأنه برع فى الأدب والطب . وتشهد له مبانيه فى صقارة بكفاءة ممتازة فى



(شكل ٢٩)
« إمحوتب »

(١) وهى مقبرة الملك « أوديمو » فى أبيدوس .
(٢) وهى مقبرة الملك « خع سخموى » فى أبيدوس .

فن البناء ، فضلا عن أنها كانت فاتحة عهد جديد فى تاريخ العمارة ، فقد أقبل المصريون بعدها على ما فى هضاب بلادهم من أحجار وصخور صلبة تتفق وما كانوا يصبون إليه من دوام وخلود ، فشيدوا منها المعابد والمقابر الضخمة بما يميز مصر على غيرها من بلاد العالم القديم .

الهرم المدرج :

ويبلغ ارتفاع الهرم المدرج نحوا من ٦٠ مترا ، وهو من ست درجات ، لم تبن إحداها فوق الأخرى ، وإنما كان فى بداية الأمر على هيئة مسطبة ، ثم رؤى زيادة حجمها فأضيفت إليها إضافات جانبية على مراحل مختلفة ؛ وقد روعى فى الإضافات الثلاث الأخيرة أن تعلو كثيرا عما كانت عليه ، وأن تكون كل إضافة منها متدرجة ، وكانت الإضافة الأخيرة بست درجات . وتبدو بعض هذه الإضافات الجانبية للعين الآن فى بعض أجزاء الهرم المتهدمة .

وأغلب أحجار الهرم وما يتصل به من مبانى اتخذ من الهضبة نفسها ، أما الكساء الخارجى فكان من حجر جيرى جيد من طره والمعصرة على الجانب الشرقى من وادى النيل . وتقع غرفة الدفن فى الهرم تحت سطح الأرض ، وقد بنيت من الجرانيت ، وتتصل بها عدة دهاليز وغرف كسيت جدران بعضها بقراميد صغيرة من القاشانى تبدو كأنها ستائر من الحصير .

ويمتاز الهرم المدرج بما ألحق به من مبان ، وأهمها بهو المدخل (شكل ٤٦) . ومعبد اليوبيل الملكى[١] ، والمعبد الجنازى ، وغرفة التمثال[٢] ، ومن حولها جميعا سور عظيم يزيد طوله على نصف كيلو متر وعرضه على ربع كيلو متر ، ويحلى سطوحه الخارجية مشكاوات عميقة وأبراج عالية .

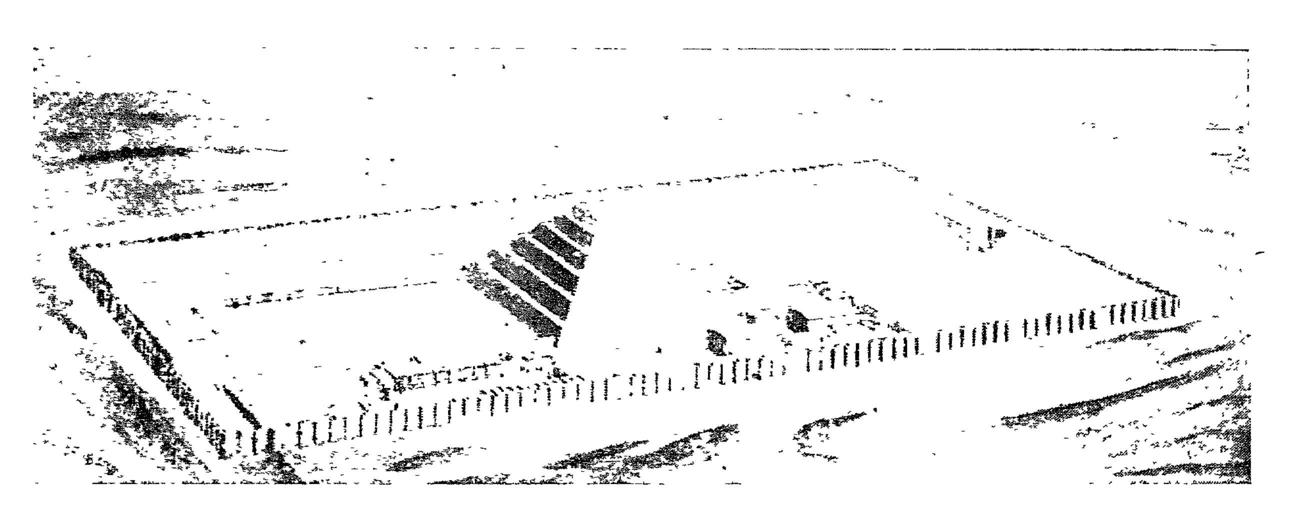
الشكل الهرمى للمقبرة الملكية :

اتخذت المقبرة الملكية فى بداية الأسرة الرابعة شكل الهرم الكامل ، ذى القاعدة المربعة والجوانب المثلثة التى تميل إلى الداخل كلما سمت إلى أعلى حتى تتلاقى معا فى نقطة واحدة فى الفضاء . ويتضح من هرم « سنفرو » ، مؤسس الأسرة الرابعة ، فى ميدوم ، أنه يتكون من عدة إضافات جانبية ، وأنه كان فى الإضافة السابقة

---

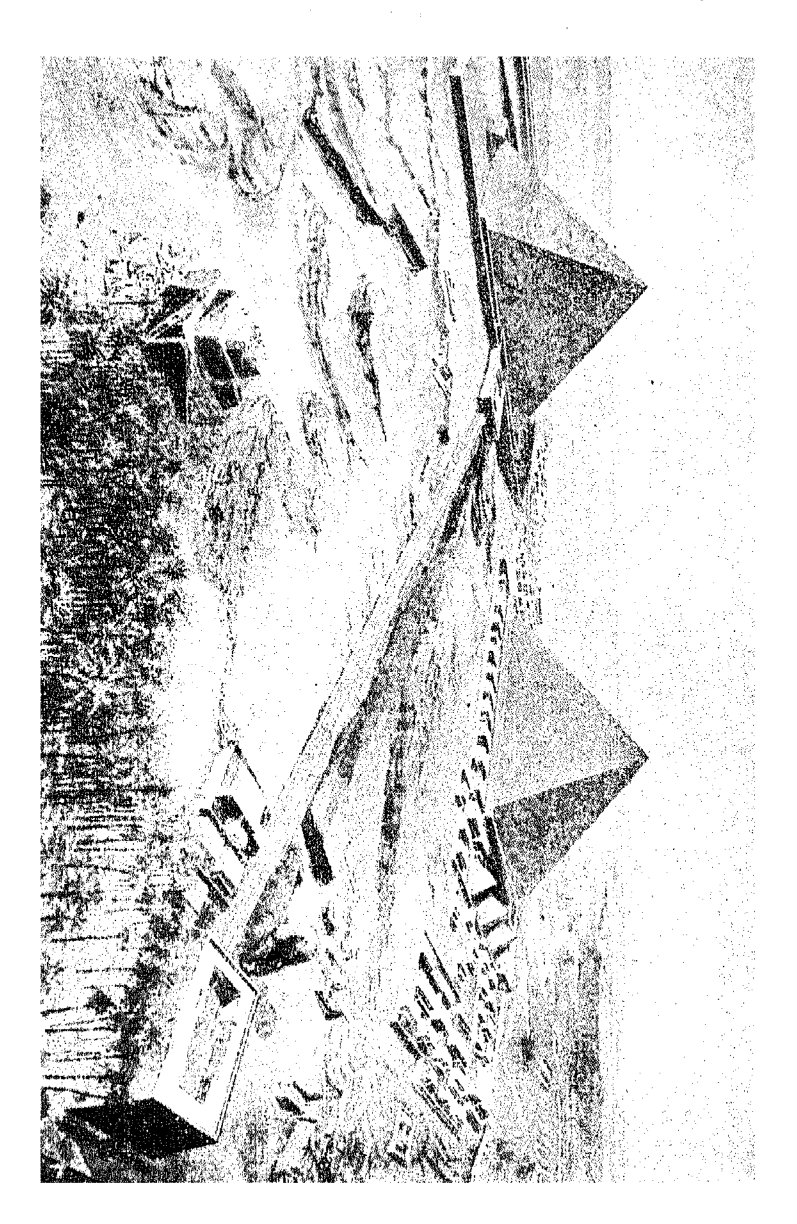
(١) ويسمى « معبد السد » .

(٢) وتسمى « السرداب » ، وهو غرفة مغلقة كان يودع فيها تمثال صاحب المقبرة .



(شكل ٢٨) الهرم المدرج والمبانى الملحقة به

للأخيرة هرما مدرجا ذا ثمان درجات ؛ وفى الإضافة الأخيرة ملئت الدرجات بالحجر وأضيف إليها كساء خارجى من الحجر الجيد مما أعطى المقبرة الشكل الهرمى الكامل . ومنذ ذلك الوقت على الأقل أصبحت المقبرة الملكية تتألف من معبد على حافة الهضبة يسمى بمعبد الوادى ، يخرج منه طريق صاعد يؤدى إلى المعبد الجنازى ، ومن ورائه الهرم (شكل ٣٠) . وكان الغرض من معبد الوادى أن تعالج فيه جثة الملك المتوفى



(شكل ٣٠) منطقة أهرام الجيزة

وتؤدى لها فيه طقوس الدفن . أما المعبد الجنازى فكانت تؤدى فيه الطقوس الجنازية للملك وخاصة فى الأعياد

هرم « خوفو » :

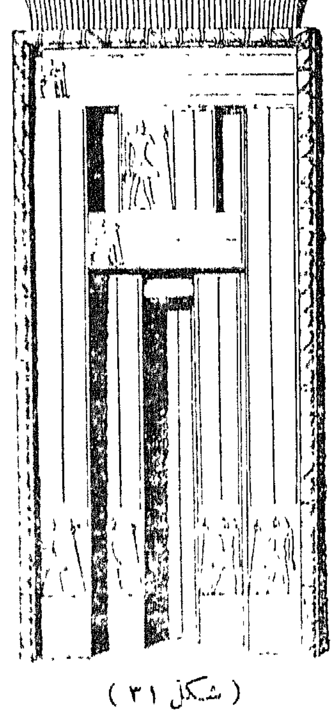
وفى عهد الملك « خوفو » بلغت المقبرة الملكية غايتها من الضخامة والروعة وقد اختار الملك هضبة مرتفعة تشرف على الوادى شمال منف وشيد على حافتها أضخم بناء أقيم على وجه الأرض ، وهو الهرم الأكبر بالجيزة ، ويقوم فوق مساحة من الأرض تزيد على ١٢ فدانا ، وكان ارتفاعه ١٤٦ مترا أى أكثر من ضعف ارتفاع هرم «زوسر». وقد بنى بأحجار محلية ، أى من ذات الهضبة التى يقوم عليها ، يزن كل حجر منها نحواً من طنين ونصف ، ثم كسى بأحجار كبيرة من الحجر الجيرى الجيد الذى قطع من محاجر طرة ، ويزن بعضها حوالى ١٥ طنا . وكسيت جدران غرفة الدفن وسقفت بأحجار ضخمة من الجرانيت كان يؤتى بها من محاجر أسوان ، التى تبعد حوالى الألف كيلو متر من الجيزة . وقد قدر أن الهرم يشتمل على ٢٫٣٠٠٫٠٠٠ حجرا أو ٢٫٦٤٠٫٠٠٠ مترا مكعبا من الحجر تزن نحو ٦¼ مليون طن . وليس من شك فى أنه قصد بهذه الضخامة التى تفوق حد التصور أن تقاوم المقبرة الملكية عوادى الزمن ؛ وتتحدى الفناء وتضمن للملك حياة خالدة .

وكان الهرم يؤلف مركز الجبانة الملكية ، ففى شرقه وجنوبه وغربه شيدت أهرامات الملكات ومساطب الأمراء وعظماء رجال الدولة ، ليكونوا فى صحبة الملك فى الآخرة وفى خدمته كما كانوا فى حياتهم الدنيا .

ولا تتمثل روعة هذا الهرم فى ضخامته وتساميه فحسب ، وإنما تتمثل كذلك فى دقة بنائه ، فقد سويت الأرض التى شيد عليها بدقة كبيرة ، ونحتت أحجار الكساء بعناية فائقة ، ووضعت فى مواضعها تماما . وأقيمت جوانب الهرم وزواياه بدقة بالغة ، حتى لا نظن أنه فى استطاعة البناء فى الوقت الحاضر أن يبلغ بأدواته الحديثة من الدقة أكثر مما بلغ البناء المصرى فى بناء هذا الهرم . وقد قيل إن مافيه من أخطاء على ضخامة خطوطه لاتكاد تزيد على ما ينشأ من أخطاء فى أدق ما يصنع من عدسات أدق المجاهر فى الوقت الحاضر . فإذا قدرنا أنه لم يكن قد انقضى إذ ذاك على ابتداء استخدام الحجر فى البناء أكثر من قرن أو قرن وربع ، وأنه لم ينقض على مبانى « زوسر » أكثر من ٧٥ عاما ، راعنا سرعة تطور فن البناء بالحجر فى مصر القديمة ، وقدرة المهندسين والبنائين

والعمال المصريين على قطع ملايين الأحجار الضخمة ونقلها وإجادة نحتها بدقة بالغة ، ثم رفعها إلى مستويات شاهقة ووضعها فى مكانها رغم بساطة أدواتهم وآلاتهم(١) .

وقد ساعد بغير شك على القيام ببناء جبانة « خوفو » الضخمة دقة تنظيم العمل إذ ذاك ؛ فقد كانت آلاف العمال تقسم إلى فرق ، لكل فرقة اسم خاص ، وكان يشرف على العمل عدد كبير من الرؤساء والكتبة يقيدون ما تم من عمل ويسجلون على الأحجار تاريخ قطعها من محاجرها واسم الفرقة التى باشرت قطعها ، وفى كثير من الأحيان اسم البناء الذى ستستخدم فيه .



(شكل ٣١)

ولا يقل هرم « خفرع »(٢) فى ضخامته وروعته كثيرا عن هرم « خوفو » . بيد أنه منذ أواخر الأسرة الرابعة لم يعد فى استطاعة الملوك تشييد الأهرام الضخمة ؛ ولم تكن تبذل فى أهرامهم الدقة والعناية التى بذلت فى تشييد أهرام الجيزة ، فكانت تبنى بأحجار صغيرة لايحتاج قطعها ونقلها ووضعها فى مكانها من البناء من الجهد والمهارة ما كانت تحتاج إليه الأحجار الضخمة .

مقابر الأفراد :

بلغت مقابر عظماء الأفراد فى الأسرتين الخامسة والسادسة غايتها من الاتساع والفخامة فكثرت فيها على سطح الأرض الغرف والأبهاء ، تحلى جدرانها الصور والمناظر والأبواب الوهمية(٣) (شكل ٣١) ، وتشتمل على سرداب أو عدة سراديب تودع فيها تماثيل صاحب المقبرة وأفراد أسرته ، ومعها تماثيل للخدم تمثلهم وهم يعدون الطعام والشراب للميت (شكل ٣٢ ، ٣٣) . ومن أشهر هذه المقابر فى الجيزة

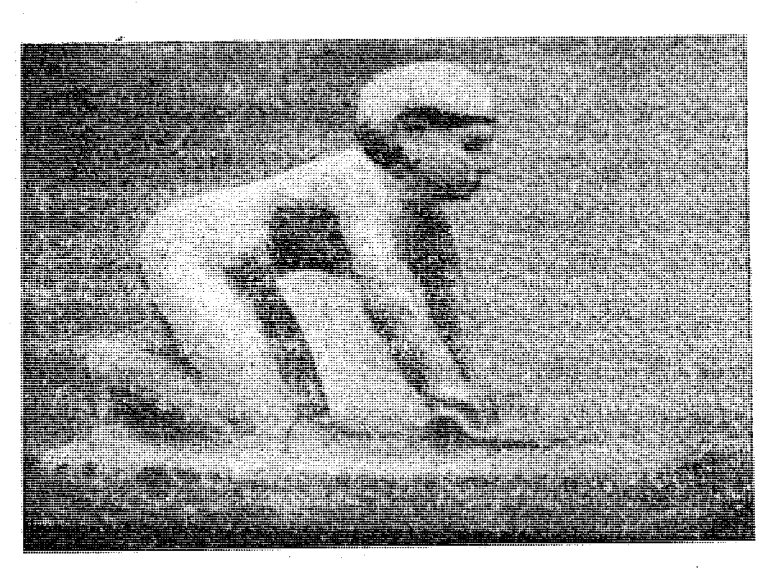
باب وهمى استبعدت منه النصوص المنقوشة عادة

(١) لم يكن يستخدم المصريون غير الزحافات فى نقل الأحجار على الأرض .

(٢) استخدم « خفرع » الجرانيت الأحمر من أسوان فى مبانيه وخاصة فى معبد الوادى ، ومن الكتل ما يبلغ طوله ٥ر٤ مترا ووزنه ٤٢ طنا .

(٣) هى صورة فى الحجر أو الخشب لأبواب تدل الروح على الطريق إلى غرفة الدفن ، وتقدم أمامها القرابين وتتلى الدعوات للميت .

مقبرة « رع ور » من عهد الأسرة الخامسة[١] ، وفي صقارة مقبرة كل من « تي » و « رع حتب » من عهد الأسرة الخامسة ، « ومرروكا » من عهد الأسرة السادسة .



(شكل ٣٢) خادم تطحن الحب

وتحتوى المقبرة الأخيرة على إحدى وثلاثين غرفة منها إحدى وعشرون غرفة المتوفى وست غرف لزوجته وأربع لابنه . أما غرفة الدفن فكانت تحفر فى الصخر ويؤدى إليها عادة بئر أو أحدور .

ومنذ الأسرة الخامسة بدأ حكام الأقاليم يحفرون مقابرهم فى أقاليمهم ، حفروها فى سفح الهضبة لعدم وجود مسطحات كبيرة على حافة الصحراء يقيمونها عليها ، ولأن المقابر الصخرية أبقى على الزمن من المقابر المشيدة . وكانوا يختارون لها مواقع ممتازة تشرف على جزء كبير من الوادى ، وأشهر هذه المقابر المحفورة مقابر حكام إلفنتين[٢] .



(شكل ٣٣) خادم يعد الجعة

---

(١) وهى تحتوى على مالا يقل عن مائة سرداب للتماثيل .

(٢) هى جزيرة فى النيل جنوب أسوان بقليل كانت مقرا لحكام أقوياء فى أواخر الدولة القديمة .

النظام الحكومى

الحكومة المركزية :

بتوحيد الوجهين تركزت السلطة فى يد حكومة قوية ، عملت على تنظيم العلاقات بينهما ، وساعدت على تقدم البلاد ؛ ومع ذلك ظلت تجمع بين مظاهر الحكومتين القديمتين وتقاليدهما ؛ فلم يكن الملك يلقب بملك مصر ، بل « ملك الجنوب والشمال » ، وفى الاحتفال بتتويجه كان يلبس التاج الأبيض تارة ، والتاج الأحمر تارة أخرى ، وقد يجمع بينهما فى تاج واحد مشترك أحيانا ؛ وكان يطلق على بيت المال اسم « بيت المال المزدوج الأبيض » ، وفى هذا الازدواج ما يشير إلى الرغبة فى معاملة الشمال على قدم المساواة مع الجنوب ؛ على أن فى تقديم الجنوب على الشمال أو إيثار اللون الأبيض الذى يكنى عن الجنوب ، ما ينم عن الاحتفاظ للجنوب بمركز الصدارة .

سلطة الملك :

كان الملك على رأس الحكومة المركزية ، وقد بلغ نفوذه على شعبه غايته فى النصف الأول من الدولة القديمة وخاصة فى أوائل عهد الأسرة الرابعة . وهو وإن كان قد ورث الكثير من صفاته وألقابه عن العصور السابقة ، إلا أن كفاية النظام الإدارى وازدياد الرخاء أفاءا عليه من القداسة والألوهة فى ذلك العهد ، ما لم يحظ به أحد ممن سبقه من الملوك ، وما لم يحتفظ به أحد ممن خلفوه من بعده . ومما لا شك فيه أن فراعنة ذلك العهد كانوا ذوى شخصيات قوية مما ساعد كثيراً فيما حظوا به من مركز ممتاز ، حتى كان يدعى كل منهم بلقب « الإله العظيم » ، وكان اسمه يعتبر مقدسا لا يجوز ابتذاله بذكره ، وإنما كان يكنى عنه ببعض الألفاظ والعبارات تقديسا له واحتراما ، فكان يقال عنه « جلالته » أو « حورس الذى فى القصر » أو « البيت العظيم »[1] ، كما كان يتخذ فى كثير من الأحيان لباس الآلهة وشاراتهم . وكانت للملك أعياده التى يحتفل بها احتفالا عظيما ، ومن أهمها عيد التتويج وكان يؤدى فيه من المراسم والطقوس ما كان يعتقد أنه يضفى على الملك الألوهة والقداسة . وكان على الملك أن يعمل على عبادة أسلافه الآلهة ، فيقيم لهم المعابد ، ويؤدى لهم فيها الطقوس ، ويحتفل بأعيادهم . وكان

(١) على نحو ما كان يكنى عن سلاطين الأتراك العثمانيين « بالباب العالى » ، والتعبير المصرى القديم هو « برعا » وهو أصل كلمة فرعون .

يعتقد أنه الوسيط بين الشعب والآلهة ، وأن له الأمر فى الدنيا والآخرة على السواء ، فكما كان يتولى أمور الشعب على الأرض إبان حياته ، فسوف يتولاها كذلك فى العالم الآخر بعد انتقاله إليه .

وعلى نحو ما كانت تتجمع فى الملك ذرى المعتقدات الدينية والجنازية ، كانت تتمثل فى شخصه كذلك ذروة النظام السياسى ؛ فهو الدولة ، يتولى شئونها ، وإليه تنتهى أمورها ؛ وهو المسئول الأول عن حماية حدودها من غارات الشعوب الطامعة فيها ؛ وهو الذى يعمل على تدعيم أركان العدل فى الدولة ، ونشر لواء الحق بين أرجائها ؛ وعليه ألا يدخر وسعا فى تأمين وسائل الحياة لشعبه ، بحفر الترع ، وإقامة الجسور ، لتيسير فلاحة الأرض ، وحماية المدن من شر الفيضان ، كما عليه تشجيع الصناع والفنانين .

وهكذا يبدو أن الملكية وإن أفاءت على الملك القداسة والألوهيـة ، فإنها فى الوقت نفسه حدت من سلطانه بما فرضت عليه من واجبات ، وما ألقت على كاهله من مسئوليات ؛ فلم يكن الفراعنة يصدرون فى أعمالهم عن الهوى ، أو مايوحى به إلهم أفكارهم الشخصية وحدها ، وإنما كانوا يخضعون فى تصرفاتهم لما كانت تفرضه عليهم القواعد المرعية ، والتقاليد الموروثة ، وما كان يتفق مع مركزهم الجليل . ولم تكن سياسة أمور الدولة هينة يسيرة ، بل كان ينبغى أن يسوسوا القوى المختلفة فى الدولة فى مهارة وبراعة بما يرهب الأطماع ، وتستقيم معه شئون الحكم ، خاصة وأن الأمر لم يكن يخلو فى كثير من الأحيان من وجود الطامعين فى العرش من أفراد الأسرة المالكة أو ممن عداهم .

وكان الملك يكتسب خبرة فائقة بشئون الدولة فى حياة أبيه ، بما كان يوكل إليه منها ؛ فإذا قدرنا أن الملكية لم تكن تعتمد فى ذلك الوقت على جيش قائم ، أدهشتنا قدرة هؤلاء الملوك على سياسة أمور الدولة والارتقاء بالبلاد إلى ذروة التقدم فى جميع مظاهرها ، وإفاضة الخيرات على أهلها حتى كانوا يرجون أن تكون الحياة فى العالم الآخر على شاكلة الحياة الدنيا وأن يكونوا من الملك فى العالم الثانى على نحو ما كانوا منه فى الدنيا .

قصة أبناء الشمس :

على أنه منذ قيام الأسرة الخامسة بدأت الملكية تفقد الشىء الكثير من قداستها وألوهتها ، ولم يعد يفصلها عن الشعب فاصل كبير ، وبدل الملك من لقب « الإله العظيم » لقب « الإله الطيب » . وقد شاعت عن الملوك الثلاثة الأول من الأسرة الخامسة قصة تتلخص فى أن ساحراً عرض على الملك « خوفو » بعض سحره ،

ثم قص عليه من نبوءاته أن زوجة أحد كهنة الشمس ستلد ثلاثة أبناء ، أبوهم هو إله الشمس « رع » نفسه ، وأنهم سيتولون الملك ؛ فحزن « خوفو » ، فقال له الساحر « لماذا هذا الحزن ياسيدى الملك ؟ أمن أجل هؤلاء الأطفال الثلاثة ؟ هأنذا أقول لك : ابنك ثم ابنه ثم واحد منهم » . وتمضى القصة فتروى أنه لما أوشكت الأم على الوضع أرسل « رع » بعض الإلهات ليساعدنها على ولادة أبنائها الثلاثة ، وقد قال عنهم إنهم سيتولون العرش ، ويزودون موائد الآلهة بالأطعمة ، ويجعلون موائد شرابهم مزدهرة ، ويضاعفون قرابينهم .

ويبدو أن ملوك الأسرة الخامسة أو أعوانهم قد أشاعوا هذه القصة لتدعيم سلطتهم على العرش بادعاء نسبتهم إلى الإله « رع » ، الذى أصبحت ديانته هى الديانة الرسمية للبلاد منذ قيام هذه الأسرة ، وأصبح لقب « ابن رع » من ألقاب ملوك مصر حتى نهاية الحضارة المصرية . وقد أكثر فراعنة الدولة القديمة من إقامة المعابد للآلهة ، وحبس الأراضى الواسعة عليها ، ومنحها الهبات الكثيرة . كما أنهم منحوا أهلهم ومن نال الحظوة عندهم منحاً عديدة ، وأعفوهم مما كان يخضع له غيرهم من التزامات وضرائب ؛ وشمل الإعفاء كهنتهم الجنازيين وكهنة بعض الآلهة . فكان لهذا كله أثر كبير على ماليتهم . ويدل على ذلك ضآلة أهرام ملوك الأسرتين الخامسة والسادسة بالنسبة إلى أهرام الأسرة الرابعة ؛ بل لقد عجز الملكان الأخيران من ملوك الأسرة الخامسة عن تشييد معبد للشمس .

الأمراء :

كان الأمراء يساهمون بنشاطهم فى أعمال الدولة ، وفيما كان يوكل إليهم من وظائف دينية مساهمة كبيرة ، حتى إنهم وأبناءهم كانوا يشغلون أكثر المناصب الإدارية والدينية الهامة فى النصف الأول من الدولة القديمة . وكانت لهم إدارة محفوظات خاصة بهم . ومنهم من كان يتولى منصب الوزارة أو يرأس بيت المال . أو يقوم بجلب الجرانيت من محاجره فى الصحراء ، ومنهم من كان يحمل لقب كبير القضاة أو مدير القصر . وكانوا بطبيعة الحال يدفنون حول مقبرة الملك .

الوزارة :

نشأت الوزارة فى عهد « سنفرو » ، أول فراعنة الأسرة الرابعة ، لتكون واسطة دائمة بين الملك والإدارات المختلفة ، بسبب ازدياد أعمال الدولة وكثرة مهامها . وإلى أواسط الأسرة الخامسة كانت الوزارة تسند إلى أفراد من الأسرة المالكة . وقد كان

لذلك أثره فى قوة البيت المالك وازدياد نفوذه ، إذا كان على رأسه ملك حازم . وكان الوزير أعظم رجل فى الدولة بعد الملك إذ تعرض عليه جميع الأمور الهامة ، وله الإشراف على إدارة المحفوظات الملكية ، حيث كانت تحفظ المراسيم ، وتسجل العقود والوصايا وغيرها من المستندات الهامة . وكان الوزير كذلك هو الرئيس الأعلى للقضاء ، كما كان يشرف على بيت المال ومخزنى الغلال وجميع المنشآت الملكية وغيرها .

القضـــاء :

كان للقضاء عند المصريين شأن مرموق ، فقد وصفوا الإله « رع » بأنه « سيد العدالة » ، ووصفوا الإله « تحوت » بلقب « القاضى الأول ، الذى يحكم دون أن يحابى » ، واعتبروه « رب القوانين » ، كما اتخذوا من الإلهة « ماعت » إلهة للحق والعدالة . وإذ كان الملك إلها على الأرض ، فهو بذلك القاضى العادل ، وكلمته هى القانون ، ومن واجباته فى حياته أن يقضى بين شعبه بالحق ؛ على أنه من الناحية العملية لم يكن يمارس القضاء بنفسه ، بل كان يوكل عنه من موظفيه من يتولى أعمال القضاء نيابة عنه . وقد بلغ من إيثار « بيبى الأول » للعدالة ، أنه لم يشأ أن يقضى بنفسه فى مؤامرة قامت فى حريمه ، أو أن يوقع العقاب على المتآمرين بدون محاكمة قضائية .

وكانت وظيفة القاضى من أعظم وظائف الدولة ، وكان كبار القضاة كهنة للآلهة « ماعت » فى نفس الوقت ؛ وكان الوزير يرأس « الدور الست العظيمة » ، التى يظن أنها كانت بمثابة محكمة استئناف .

وكانت الدعاوى تدعم بالمستندات كما كان الشهود يحلفون اليمين باسم الملك ؛ وكانت الأحكام عادة غير قاسية .

وكان شراء العقار يعتمد على عقود قانونية . وفيما حفظ من صور بعض العقود ما يتضمن قواعد دقيقة عن توريث الأملاك المخصصة للأغراض الجنازية ، وعن تسوية ما ينشأ من نزاع بين المستحقين ، وإلغاء استحقاق الكهنة غير المخلصين فى أعمالهم ، أو حرمانهم من بعض استحقاقهم .

بيت المال :

وكان « بيت المـال المزدوج الأبيض » أشبه بوزارة المالية ، ترد إليه الضرائب المستحقة على البلاد ، وله فى جميع أنحاء البلاد مخازن عديدة تورد إليها الضرائب ، وتخضع للمخازن الرئيسية فى العاصمة . وكان مدير بيت المال يحمل لقب « حامل خاتم الإله » ،

وكان يعهد إليه إعداد البعثات وقيادتها لاستثمار المناجم والمحاجر — وكانت حكرا الملك — أو لجلب بعض المتاجر من الخارج كالعطور والأخشاب ، ولذلك كان تحت تصرفه أسطول من المراكب وفرقة من الجند إذا دعى الأمر . وكانت الضرائب تفرض على الأملاك والمنتجات الزراعية كضريبة الغلال ، وتدفع عينا ، وعلى الأخص ماشية وحبوبا ، على أنها قد تدفع فى بعض الأحيان بالذهب أو النحاس أو الحلى أو ورق البردى أو الدهون أو الجلود أو الحبال .

وكانت الأراضى المزروعة والأموال والمواشى تحصى أول الأمر مرة كل عامين ثم لم تلبث أن أصبحت تحصى مرة كل عام ؛ وسواء أكان ذلك متعلقا بتعداد أملاك الأهالى لجباية الضرائب عليها أم لحصر ما للدولة من أملاك وثروات ، فإنه يدل على حسن إدارة مرافق البلاد وكفاية النظام الحكومى .

قياس الفيضان :

وكان يعنى بقياس ارتفاع النيل بدقة وقت الفيضان ، ويبدو أن الغرض من ذلك إنما كان لتقدير المحصول ، وحتى إذا لم تكن مياه الفيضان وافية بحاجة الزراعة أمكن الاحتياط لذلك قبل أن تفشو المجاعة فى البلاد .

الموظفون :

كان الموظفون يقومون بمختلف أعمال الدولة ؛ وكانوا فى النصف الأول من الدولة القديمة بصفة خاصة بمثابة عمال للملك يعملون لحسابه الخاص ، ويتصرفون فيما يوكل إليهم من أعمال حسب ما تقتضيه إرادته ، وتوحى به أوامره . وكانت الوظائف الكبيرة ميسرة لكل موظف متعلم ، له من الذكاء والنشاط ما يؤهله لها . وكان الملك يمنح الابن وظيفة أبيه فى بعض الأحيان ، مكافأة له على جليل خدمته ، على أن الأبناء كانوا عادة يبدأون حياتهم فى وظائف أقل درجة بكثير من وظائف آبائهم ؛ بل كان بعض المنتمين للأسرة المالكة نفسها يبدأ حياته فى وظيفة صغيرة ، وبذلك لم يكن من حق الابن أن يرث أباه . فإذا أبدى الموظف كفاية خاصة كان يعهد إليه بالأعمال الهامة ، كما كان يكافأ أحيانا بالجوائز القيمة كالحلى ، مما كان يشجعه على التفانى فى عمله بثقة وإخلاص .

وكان للحكومة إدارات مختلفة تسمى « بيوت الملك » ، وبكل إدارة عدد كبير من الكتبة . ولم يكن الموظفون يختصون بعمل معين أو أعمال من نوع واحد ، بل كان منهم من يجمع بين الوظائف المدنية والحربية والقضائية والدينية . أما أعطياتهم فكانت

تدفع لهم عيناً من منتجات الأملاك الملكية أو من الضرائب . وكان من بين عمال الملك عدد كبير من الخبازين والصناع كصانعى الجعة والنبيذ والنساجين ؛ وكان الملك يعطى مما يصنعون للأمراء وكبار الموظفين ، ولذلك كان هؤلاء يوصفون بأنهم يعيشون من مائدة الملك ؛ على أن ذلك لم يكن يكفى حاجتهم ، فكانوا يمنحون الأراضى ومن عليها من الفلاحين . وكان من أعز أمانى كل موظف كبير ومفاخره أن يمنح قبراً بالقرب من القبر الملكى ، وأن يعد له تابوت وباب وهمى (شكل ٣١) ومائدة قربان ، يتم صنعها فى المصانع الملكية ؛ وأن يمنح الأرض التى تقوم منتجاتها بتكاليف الطقوس التى تؤدى فى مقبرته .

وفى النصف الثانى من الدولة القديمة بدأ كبار الموظفين يطمعون فى توريث مراكزهم لأبنائهم ، وأصبح منصب الوزارة نفسه وراثياً فى بعض الأسر ، وقد ازدادت الوظائف زيادة كبيرة ، وتبع ذلك ازدياد الألقاب ؛ وبلغ من ولع كبار الموظفين بها أن أصبح لكل عمل صغير يقومون به لقب خاص ؛ بل شاع انتحال بعض الألقاب مما دعا أصحاب الوظائف الحقيقية أن يضيفوا إلى ألقابهم لفظ « حقيقى » ينفون به ما قد يتبادر إلى الأذهان من أنها مجرد ألقاب جوفاء منتحلة .

وقد زاد ثراء كثير من الموظفين وأصبحت لهم الضياع الواسعة ، وغدا فى ميسورهم إقامة مقابر كبيرة لهم يؤثثونها على نفقاتهم الخاصة .

وكان يقوم بالوظائف الدينية موظفون مدنيون بحكم مناصبهم ؛ فمن ذلك قيام القضاة بكهانة « ماعت » إلهة الحق والعدالة ، كما أن من الوظائف الدينية ما كان يترتب عليه حمل بعض الألقاب المدنية ، فقد كان كهنة الإله « بتاح » يشرفون فى نفس الوقت على الفنانين والصناع . ولم يكن الموظف يقتصر فى بعض الأحيان على القيام بكهانة إله واحد ، بل ربما كان كاهناً فى أكثر من معبد ؛ ولم تكن الكهانة قاصرة على الرجال ، بل قامت النساء بكهانة بعض الإلهات وخاصة حتحور .

النظام الإدارى فى الأقاليم :

كان الملك يعين على أقاليم مصر حكاما من لدنه ، وكان من أهم واجباتهم العناية بالرى فى أقاليمهم وما يقتضيه من حفر الترع ، وإقامة الجسور لتنمية الثروة العامة وزيادة دخل بيت المال . وكان من عمل حكام الأقاليم أيضا الإشراف على جمع الضرائب ، وعلى القضاء ، ولذلك كان يحمل لقب « قاضى وكاهن ماعت » ؛ وكان تحت إمرته عدد كبير من الموظفين . وكانت تقوم فى الأقاليم محاكم محلية ، من أعمالها محاسبة الزراع ، ومحاكمة الموظفين ، ولو كان حاكم الإقليم نفسه ، وذلك إذا قاضاهم أحد من أفراد الشعب أصابه ضرر من تصرفاتهم الإدارية .

وفى النصف الأول من الدولة القديمة كان حكام الأقاليم ينقلون من إقليم إلى آخر دون أى اعتبار لغير المصلحة العامة ورغبة الملك ، وبذلك لم تكن الفرصة تتاح لهم لتكوين نفوذ شخصى قوى فى أقاليمهم أو إنشاء روابط شخصية فيها . وكانوا يدفنون حول مقبرة الملك ، مما يشير إلى ما كان يجمعهم به من رباط قوى . على أن فراعنة النصف الثانى من الدولة القديمة لم يستخدموا حقهم فى نقل حكام الأقاليم أو عزلهم ، بل كانوا يقرون إقامة أبنائهم فى مراكزهم ؛ ولم يلبث أن أصبح ذلك عادة ثم حقا لكل حاكم من حكام الأقاليم ، فتمتع الكثير منهم بسلطة واسعة فى أقاليمهم وخاصة إذا كانت بعيدة عن العاصمة . وقد عمدوا منذ أواسط الأسرة الخامسة إلى حفر مقابرهم فى أقاليمهم . وهكذا نشأت أسرات أمراء الأقاليم وأصبح للإقليم شأن كبير بجانب العاصمة ، وبدأت تقوم فيها الصناعات والفنون المحلية .

حاكم الصعيد :

وبضعف سلطة الحكومة المركزية فى الأقاليم اتخذ الملك خطوة جديدة حاول بها استرداد بعض سلطانه المفقود ، فعين على الوجه القبلى حاكما من قبله للإشراف على الأعمال التى كان على حكام الأقاليم القيام بها للحكومة المركزية وخاصة ما كان منها يتعلق بالضرائب والخدمات الإجبارية المستحقة للملك على الشعب . ويبدو أن الملكية بعد أن فقدت الثقة فى إخلاص حكام الأقاليم لواجباتهم نحوها ، عمدت إلى تعيين هذا الموظف .

على أن بعض حكام الأقاليم اتخذ لنفسه لقب حاكم الصعيد ، كما اتخذ لنفسه لقب الوزير ، دون أن يقوم بما كان يفرضه اللقبان من واجبات ، وما انتحلهما إلا لكيلا يتميز عليه أحد من موظفى الحكومة المركزية . ويبدو أن حكام الأقاليم استطاعوا أثناء صغرسن «بيبى الأول» أو بعد ذلك فى أثناء شيخوخته الطويلة ، إلغاء وظيفة حاكم الصعيد من بين وظائف الحكومة المركزية ، فقد كانت تحد من نفوذهم وطمعهم فى الاستقلال .

وهكذا لم يعد للملكية وسيلة لفرض سلطانها عليهم ، فضعفت الإدارة المركزية إلى حد بعيد ، وأخذت الدولة القديمة تقترب بخطى سريعة من نهايتها المحتومة ، واضطرب الأمن فى البلاد ، وبدأت الاعتداءات على المقابر تكثر ، حتى اضطر أصحابها إلى نقش عبارات التهديد لكل من يلوثها أو يصيبها بسوء ، أو يغتصبها لنفسه ، بأنهم سيقاضونه أمام الإله العظيم .

لهذا يعتبر النصف الثانى من الدولة القديمة الفترة التى تهيأت فيها الأسباب للانتقال من حكومة مركزية موحدة أو حكومة موظفين خاضعين لإرادة ملك قوى فى عهد الأسرتين الثالثة والرابعة إلى حكومات إقطاعية يكاد يستقل فيها كل حاكم بإقليمه .

الحياة الاجتماعية

كان المصريون ــ على نحو ماهم عليه الآن ــ شعبا متفائلا سمحا يحب المرح ولا يحمل ضغنا لأحد ؛ يؤثر التسامح والقناعة ؛ وهو وإن كان سريع الغضب إلا أن غضبه لا يلبث أن يزول وشيكا . وكانوا فى مجموعهم نحاف الأجسام ، ممشوقى القوام ، لهم جلد عظيم على الأعمال الشاقة . وكان فى ملامح وجوههم فى الدولة القديمة شدة وصرامة بالنسبة لما أصبحت تمتاز به ملامحهم فى الدولة الحديثة من رقة أضفتها عليهم الحياة الناعمة المترفة . وكانوا يكتفون عادة بلباس من كتان ، يتفق وطبيعة المناخ ؛ وبالرغم من أنهم عرفوا النعال منذ عهد ما قبل الأسرات ، فإن صورهم تمثلهم حفاة الأقدام إلا فى القليل النادر . ومن الرجال والنساء من كان يتخذ شعرا مستعارا ويحلى صدره بالعقود .

الأسرة :

كانت الأسرة أساس الحياة الاجتماعية فى مصر . وكان الرجل يقتصر على زوجة واحدة عادة ، يحسن معاملتها ويحبها ، وتشاركه مسراته ، وترافقه فى نزهاته ، وتقوم إلى جانبه عند استقبال العطايا والقرابين . وفضلا عن إشرافها على شئون البيت كانت تقوم ببعض مايتصل بالعبادة من أعمال ، وخاصة الغناء والموسيقى فى المواكب وعند أداء الطقوس ؛ وكانت نساء الطبقة العاملة يساعدن الرجل فى بعض أعمال الحقول . وهكذا لم تكن المرأة المصرية قعيدة فى دارها ، أو حبيسة فى خدرها ، بل كانت سافرة عاملة .

ولا تتيح الصور والمناظر ، التى سجلها المصريون القدماء ، التعرف على الكثير من الحياة الخاصة للأسرة المصرية ، على أنها مع ذلك تنطق بما كان المجتمع يفرضه على أفراد الأسرة من آداب السلوك فى الحياة الرسمية والدينية . وهى آداب يسودها الوقار والحشمة ، فلم يكن للرجل أن يبدى شيئا من عواطفه نحو أحد أفراد أسرته ، وإنما يقف أو يجلس فى سمت جليل ، فى حين تحيطه زوجته بإحدى ذراعيها كناية عن حبها له واعتمادها فى حياتها عليه ؛ وقد يقف إلى جانب الرجل أحد أبنائه الصغار وقد أحاط بذراعه إحدى ساقى أبيه بما يكنى عن تعلقه به ، أو يقدم له زهرة من أزهار اللوتس حبا وإعزازا .

تربية الأطفال :

كانت الحياة المنزلية هى الأساس الأول فى تربية الأطفال . وكان للأطفال ألعابهم ومنها الدمى ، أما الصبية فكانوا يؤثرون لعب الكرة والقفز والمصارعة (شكل ٣٤) .

وكان المصريون عامة يعلون من شأن التعليم ويرونه الحد الفاصل بين الطبقة الحاكمة والطبقة المحكومة . وكان أبناء الأمراء يتعلمون فى القصر ومعهم فى بعض الأحيان أبناء الأسر الراقية . أما غيرهم من الأطفال فكان يعهد بتعليمهم إلى كتبة ممتازين فى بعض إدارات الحكومة . ولا شك فى أن تطور الحضارة المصرية ، وازدياد وظائف الدولة ، وتقدم المتعلمين فى المناصب الحكومية قد شجع الآباء على تعليم أبنائهم ، كما لا يبعد كذلك أن تكون الحكومة قد شجعت الإقبال على التعليم لتجد من تحتاج إليهم من موظفين .



(شكل ٣٤)
أطفال يتصارعون

وكان أهم ما يتلقنه الأطفال هو القراءة والكتابة والحساب ؛ وكان أبناء الطبقة الراقية على الأقل يتلقون آداب السلوك واللياقة . وفيما خلفه الحكماء من نصائح ما ينبئ عما كان المصريون يرون أن ينشئوا عليه أبناءهم من أخلاق وصفات ، فى مقدمتها التواضع ، وطاعة الرؤساء ، والصدق والأمانة فى أداء الرسالة ، والقصد فى الكلام ، والتحدث عن خبرة ودراية ، والاستماع إلى صاحب الحاجة ، وتحاشى الحدة فى الكلام ، أو الميل مع الهوى أو السكوت على الشر . وكان يضاف إلى هذا بالنسبة لأبناء الطبقة الراقية على الأقل تعليم شىء من رياضة الجسم ، كتعليم السباحة ورمى النبال . وبهذا كله كان التعليم يهدف إلى خلق الرجل المتعلم اللبق الصالح للحياة .

ومن نصوص الدولة الوسطى والحديثة ما يدل على أن من الأبناء من كان يتعلم فى مدارس نظامية تضم عددا كبيرا منهم ، وأنهم كانوا يرسلون إليها فى سن مبكرة . وكان الطالب يؤخذ بالشدة والحزم ، ولم يكن وقت الدراسة يستغرق غير نصف اليوم . وكان الطالب بعد أن يتعلم قواعد الكتابة يكلف نسخ نصوص أدبية فى أغلب الأحيان ليجود خطه ويتعلم الهجاء الصحيح والأسلوب الجيد .

وكان من المعتاد أن يرث ابن الفلاح وابن الصانع حرفة أبويهما ؛ على أن المصريين لم يتبعوا نظام الطبقات المغلقة التى تقضى بألا يتخطى أحد طبقته إلى طبقة أخرى ؛ بل كان لكل فرد من أبناء الشعب الحق فى أن يتعلم وأن يجد سبيله إلى وظائف الحكومة وأن يصل فيها إلى أعلى مراتبها . ومع ذلك كانوا فى مجموعهم يؤلفون طبقتين

كبيرتين متميزتين : الطبقة الحاكمة والطبقة المحكومة . وكانت الطبقة الحاكمة تتألف من الموظفين والأمراء وعلى رأسهم الملك ، وكان هؤلاء بطبيعة الحال أقل عدداً بكثير من طبقة المحكومين وهى عامة الشعب من صناع وتجار وفلاحين أحرار أو مرتبطين بالأرض .

الملك :

كان الملك يقيم فى قصر عظيم ، يقوم على خدمته فيه عدد كبير من الموظفين ورجال الحاشية . ومع تقدم الحضارة وازدياد أسباب الرخاء أصبح للقصر الملكى مكانة كبيرة ، وتعددت الوظائف الخاصة به(١) ، ومنها : مدير القصر ، ورئيس العرشين ، وطبيب العيون ، ورئيس أطباء القصر ، وحارس التاج ، وصانع شعر فرعون ، ورئيس صناع الشعر ، والمشرف على زينة الملك ، والمشرف على أسرار غرفة الصباح(٢) ، والمشرف على غرفة استحمام القصر ، ورئيس صيادى الملك .

وكان للقصر تقاليد ومراسم خاصة ، منها تقبيل الأرض بين يدى الملك ؛ وقد ينعم الملك على بعض المقربين إليه بأن يأذن بتقبيل قدمه بدلا من تقبيل الأرض ، كما فعل الملك « شبسسكاف » من الأسرة الرابعة ، إذ سمح لصهره « شبسس بتاح » ، الكاهن الأعلى لمنف ، بتقبيل قدمه . وكان هناك كذلك نظام لتعيين أماكن الأمراء وكبار رجال الدولة فى المآدب والاحتفالات الملكية ، ثم لمن يتقدم الملك من أصحاب المراتب فى المواكب ومن يتبعونه .

ولم يكن القصر الملكى مسكناً للملك فحسب ، بل كان كذلك مقراً للإدارة العليا للبلاد ، وبذلك كان القصر أو « البيت العظيم » كما سماه المصريون يزخر دائماً بالحركة والنشاط .

وكان للملك أملاكه الخاصة الواسعة ، وإن كانت البلاد بأسرها — من الناحية النظرية — ملكا له . وكانت تقوم من حول قصر الملك قصور أخرى للملكات والأمراء ، لكل منها مديره الخاص .

وكان الملك يتميز بلباسه وتيجانه وشاراته ، ومن أهم هذه الشارات الناشر ، وكانت تطل من فوق جبينه لتحميه ولتلقى الرهبة فى قلوب من يدنون منه .

وأغلب ماحفظ من نصوص الدولة القديمة نصوص رسمية لاتكشف إلا عن الحياة والعقائد الرسمية ؛ على أن من النصوص النادرة التى لا مثيل لها فى التاريخ القديم ما يكشف

(١) وكانت تسند إلى أفراد الأسرة المالكة وعظماء الدولة .
(٢) وهى الغرفة التى كان يرتدى فيها الملك ملابسه .

فى ومضات قصيرة عما كانت تنطوى عليه نفس الملك من مشاعر إنسانية ، تبدو فى بعض المناسبات فتومض كالبرق الخاطف وسط تكاليف الحياة الرسمية الصارمة . فمن هذه النصوص ما يكشف عن الملك وهو يتفقد كل يوم كبار فنانيه وهم يصنعون بابا وهمياً لرئيس أطبائه الذى يتمنى له الملك حياة طويلة ؛ ومنها ما يحكى أن الملك كتب بخط يده عبارات يشكر بها أحد المخلصين فى خدمته ؛ ومنها ما ينبض بحزن الملك على ما ألم بوزيره من فجيعة ؛ كما أن منها مالا يترفع فيه الملك عن أن يعتذر إلى أحد موظفيه . فبينما كان الملك « نفر إير كارع » أحد ملوك الأسرة الخامسة ، يتفقد بإعجاب حالة العمل فى أحد مبانيه ، إذ لاحظ أن وزيره وكبير مهندسيه « واشبتاح » لا يصغى إليه ، ثم لم يلبث أن فقد وعيه ، فأمر الملك بسرعة نقله إلى القصر ، واستدعى الكهنة وكبار الأطباء على عجل ، وأمر بإحضار صندوق به برديات طبية ؛ ولكن الأطباء أعلنوا وفاة الوزير ، فحزن الملك ودخل غرفته يدعو الإله « رع » من أجله ، ثم أمر باتخاذ ماينبغى للاحتفال بدفنه ، وأوصى له بتابوت من الأبنوس ، وأن يعطر جثمانه فى حضرته ، وأن يزود قبره بما يلزم من أثاث ، وخصه بمنحة جنازية .

وقد حدث فى أحد الاحتفالات أن عصا هذا الملك مست عن غير قصد منه ساق « رع أور » ، أحد كبار موظفيه ، فاعتذر له الملك ، وعبر له عن حبه وتقديره ، وأمر أن يسجل اعتذاره على لوح من الحجر ، ينصبه فى قبره .

الملكة :

كانت الملكة أو الزوجة الشرعية للملك من دم ملكى عادة ، ولما كان من الثابت أن الملك فى الدولة الحديثة يتزوج من أخته للمحافظة على الدم الملكى ، لذلك لا يبعد أن الأمر كان كذلك فى الدولة القديمة . ومع ذلك فلم يكن للملكة فى حياة زوجها فى الدولة القديمة أى شأن فى الحياة الرسمية ، كما أنه ليس فى نصوص الدولة القديمة أو نقوشها وصورها مايتصل من قريب أو بعيد بحياة الملك الخاصة مع زوجته . أما إذا دعا الأمر إلى ذكر بعض مايتعلق بالملكة ففى إشارة عابرة وباقتضاب شديد مما يدل على أنه ما كان ينبغى التعرض لذلك إلا بحذر وحرص . ومع ذلك فقد كانت للملكة مكانة مرموقة تدل عليها ألقابها ، وأنها وحدها دون سائر أفراد الأسرة المالكة وعظماء رجال الدولة كانت تدفن فى هرم صغير بجانب هرم زوجها .

وقد أتيحت لبعض الملكات سلطات واسعة ، ومنهن الملكة « خنت كاوس » فى بداية الأسرة الخامسة ، ويظن أنها تولت بنفسها مقاليد الحكم مدة وصايتها على ابنها

« ساحورع » ، كما قامت أم « ببى الثانى » من الأسرة السادسة بالوصاية عليه إذ تولى العرش وهو طفل ، وقد ورد اسمها فى النقوش كثيراً . بل لقد وجدت متون الأهرام سبيلها إلى أهرام ملكات « ببى الثانى » الثلاث دون مقابر بقية أفراد الأسرة المالكة ؛ وفى هذا دلالة على ما كان لهن من المكانة إذ كانت نقوش تلك المتون وقفا على أهرام الملوك من قبل .

الحياة فى القصور:

كان الأمراء وكبار الموظفين يعيشون فى قصور كبيرة من اللبن ، لأن اللبن يقى كثيرا من شدة حرارة الشمس فى الصيف ، كما يقى من برد الشتاء . وقد اندثرت تلك القصور ولم يبق منها فى بعض الأحيان غير أطلال تدل عليها ، وكانت تزينها حدائق الزهور والفاكهة وبرك الماء ، كما كان يعلق على الجدران حصير ملون لتزيينه .

وكانت القصور الملكية وبيوت الأثرياء تحفل بالأثاث الفاخر من الأسرة والكراسى والموائد والصناديق والمحفات ؛ وكان منها مايصفح بالذهب أو يطعم بالعاج والأبنوس ، على أنها جميعا تمتاز ببساطتها وملاءمة أشكالها للأغراض التى كانت تستعمل من أجلها . ومن الأوانى ماصنع من الرمر أو غيره من الأحجار أو من النحاس أو الذهب أو الفضة .

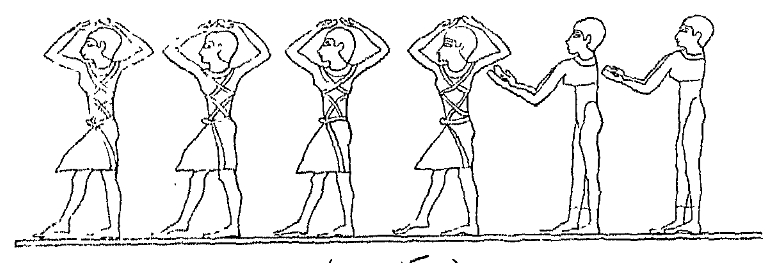
ومن صور موائد الطعام وقوائم القربان يتضح أن موائد المصريين كانت تحفل بأنواع مختلفة من لحوم الحيوان والطيور والخبز والكعك والفاكهة والحلوى والنبيذ والجعة . وكانت وجبات الطعام فيما يبدو ثلاثا كل يوم . وكان من عادتهم غسل الأيدى قبل الأكل وبعده ، وكانوا يستخدمون لذلك الطست والأبريق . وكثيرا ماكانت الموسيقى تشنف أذنى الشريف وهو يتناول الطعام وينشق عبير البخور .

وكانوا يزجون أوقات فراغهم بألعاب مختلفة منها لعبة الثعبان وأخرى من نوع النرد أو الشطرنج ، وكانت قطع اللعب ذات أشكال مختلفة كشكل الكلب أو الأسد ، غير أنه لا نعرف حتى الآن طريقة لعب كل من هاتين اللعبتين .

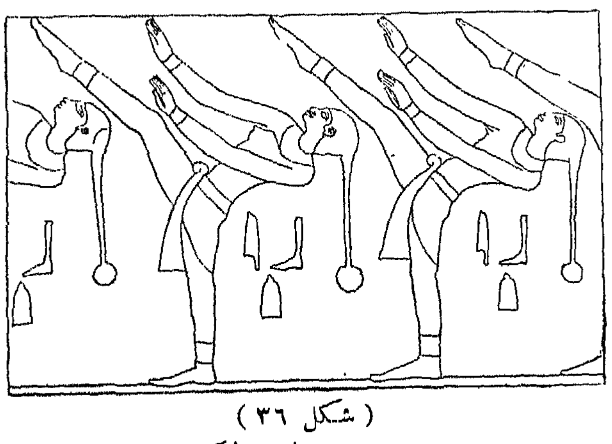
الرقص :

وكان للرقص والغناء أهمية كبيرة ، فقلما كان يتم احتفال دون رقص وغناء . ومع ذلك لم تبلغ حفلات الرقص والغناء فى الدولة القديمة ما بلغته فى الانتشار والرواء فى الدولة الحديثة (شكل ٩١ و ٩٢) .

وكان الرقص فى بداية الدولة القديمة رزينا متحفظا هادئا ، ولم يكن يزيد على خطوات منتظمة وبضع حركات للذراعين إلى الأمام أو إلى أعلى ، ولم تكن الراقصة ترفع إحدى قدميها عن الأرض إلا قليلا (شكل ٣٥) ؛ وفى أواخر الدولة القديمة أصبح الرقص حرا طليقا غامرا بالحيوية ، فقد كانت الراقصات ينثنين إلى الخلف كثيرا ، ويدفعن بإحدى أرجلهن إلى أعلى (شكل ٣٦) . وكن يتخففن عادة من الثياب ، ويتزين بالقلائد والأساور والدمالج ؛ ويحلين رؤوسهن بأكاليل من اللوتس . وكان يصاحب الرقص عادة الموسيقى والغناء ، على أنه قد يكتفى فى بعض الأحيان ببعض نساء يصفقن بأيديهن لضبط النغم .



(شكل ٣٥)
راقصات يلتزمن حركات رزينة هادئة



(شكل ٣٦)
رقص حر غامر بالحركة

الموسيقى :

وكانت أدوات الموسيقى فى الدولة القديمة قليلة العدد ، وكانت تتألف فى الغالب من الجنك[1] والمزمار[2] ؛ على أنه كان منها كذلك المصفقات على شكل الأيدى أو الأرجل

(١) الجنك هو أهم الآلات الوترية وله صندوق خشبى تنتهى إليه أطراف الأوتار .

(٢) المزمار طويل أو قصير ، ومنه ما كان من قصبة واحدة ومنه المزدوج ذو القصبتين ، وكان المزمار بأنواعه المختلفة يصنع من القصب .

أو الرؤوس . وكان الرجال هم الذين يعزفون على الجنك ، ونادرا ما كانت تعزف عليه الزوجة (شكل ٣٧) ؛ أما المزمار فلم يكن يستعمله غير الرجال . وفى الدولة الحديثة زادت أدوات الموسيقى وأصبح منها الطنبور[١] (شكل ٩٩) والدفوف والطبول .



(شكل ٣٧)
« مرروكا » وزوجته تضرب على الجنك

الغناء :

وكان للغناء أهميته كذلك ، فكان له فى القصر الملكى « مشرفة على الغناء » ، و « مشرفون على الغناء الملكى » ، ومغنون « يطربون قلب الملك فى القصر كل يوم بالأغانى الجميلة » . وكان من المغنين من يمت للأسرة المالكة بصلة القرابة ، مما يدل على ما كان لهم من منزلة . وكان يستعان على ضبط النغم بتصفيق اليدين فقط أو مع الموسيقى فى كثير من الأحيان .

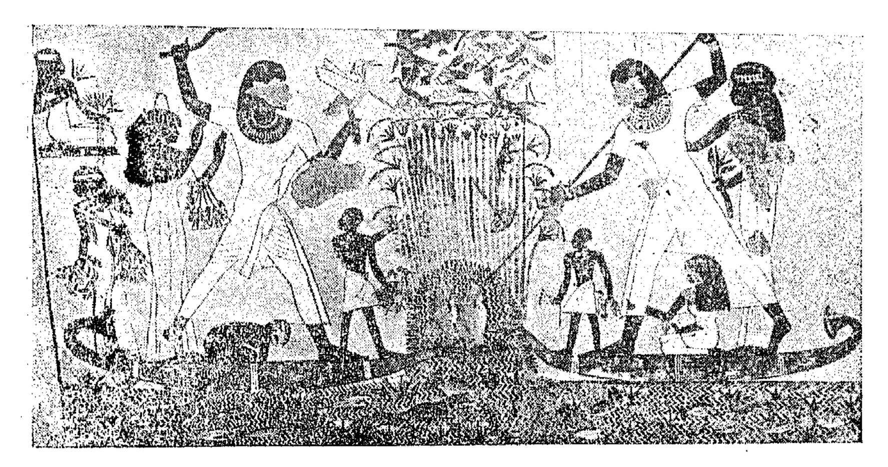
الصيد :

كان من أحب أنواع الرياضة عند الأمراء والعظماء صيد الطيور والأسماك ، فقد كانت الغدران لا تزال تكثر على ضفاف النيل وفروعه حيث تنمو أحراش البردى

---

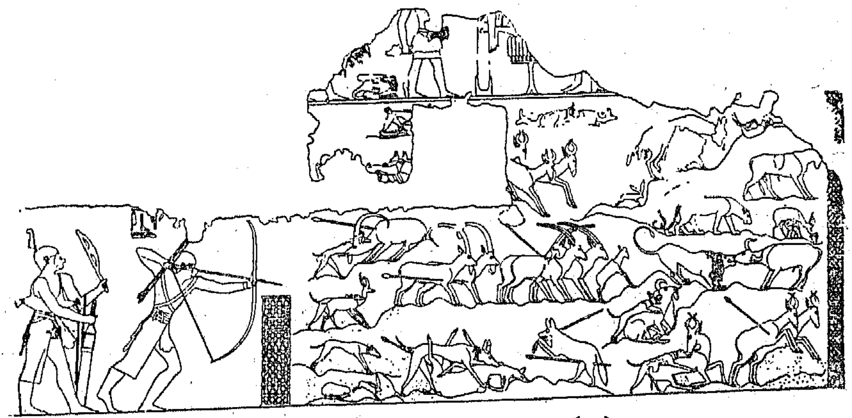
(١) الطنبور آلة وترية على هيئة الكمان وكان يعزف عليه بريشة العزف .

ونبات اللوتس ، تزخر بالأسماك المختلفة ، وتسبح فيها أفراس النهر والتماسيح ، وتهوى إليها أنواع شتى من الطير . وقد أتاحت هذه البيئة لعلية المصريين فرصا سانحة لصيد الطيور والأسماك ؛ وكانوا يخرجون للصيد وحدهم أو مع زوجاتهم وأبنائهم . وقد مثلوا ذلك بعناية كبيرة على جدران مقابرهم بما يدل على ما كان لهم من ولع شديد باتخاذ الزوارق الخفيفة من البردى تنساب بهم على صفحة الماء وهم يصيدون الطيور بعصا الرماية، والأسماك بالحربة (شكل ٣٨) ، أو يشاهدون رجالهم وهم يصطادون أفراس النهر .

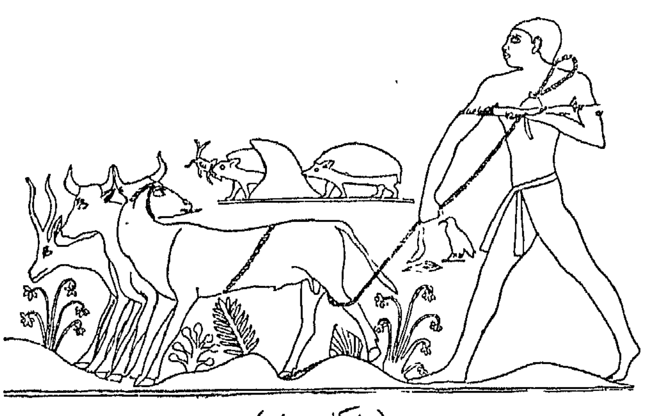


(شكل ٣٨)
صيد الأسماك بالحربة ، والطيور بعصا الرماية (من الدولة الحديثة)

وكانت وديان الصحراء تعج بالكثير من الحيوانات كالوعول والظباء والغزلان والنعام والثيران البرية والسباع والضباع . وكان الأمراء والأشراف يخرجون لصيدها ، بعصا الرماية أو بالنبال (شكل ٣٩) أو بالوهق (شكل ٤٠) ومعهم كلابهم .



(شكل ٣٩) صيد حيوانات الصحراء



(شكل ٤٠)
الصيد بالوهق فى الصحراء

ومن الصور ما يمثل الملك « ساحورع » وهو يصطاد حيوانات الصحراء ، دفعها له صيادوه فى صعيد واحد ، ليصيد منها أكبر عدد وهو واقف يرميها بسهامه سهما إثر سهم .

أرباب الفنـون والصنائع :

وضع المصريون الفنانين والصناع معاً فى سلك واحد ، ولم يكونوا يفرقون كثيرا بينهم ، وليس فى ذلك ما يضير الفنان ، فقد كانت أغلب الصناعات المصرية تمتاز بطابعها الفنى الدقيق ، الذى يرقى بها إلى مستوى القطع الفنية الممتازة . وقد كانوا جميعا فى بداية الأمر قليلى العدد ؛ غير أنه بتقدم الحضارة وانتشار الرخاء وازدياد مطالب الحياة الراقية ، ازدهرت الصناعات والفنون المختلفة وزاد عدد المشتغلين بها ازديادا كبيرا . وكان للمصانع الملكية أثر كبير فى تخريج عدد كبير من رجال الفن والصناعة ، دربوا فيها على أيدى فنانين ممتازين وصناع مهرة . وقد وجد كثير منهم سبيله إلى مصانع عظماء الدولة وكبار موظفى العاصمة وبذلك لم يعد الممتازون من رجال الفن والصناعة يعملون فى خدمة الأسرة المالكة وحدها . وفى أواخر الدولة القديمة اتخذ بعض الصناع والفنانين سبيلهم إلى خدمة حكام الأقاليم فى أقاليمهم .

وتنطق صور الفنانين والصناع التى تمثلهم وهم يقومون بأعمالهم المختلفة بما كان لهم من نشاط وإقبال على العمل ، يؤيده ما تدل عليه تماثيلهم ومصنوعاتهم من دقة وبراعة . ومع ذلك فلا شك فى أن الكثرة الغالبة منهم لم يكونوا من أهل اليسار . على أن ذلك لا يعنى أنهم لم يكونوا موضع تقدير المصريين ؛ فالحضارة المصرية فى أخص صفاتها حضارة فنية راقية ؛ وفنونها وصناعاتها هى أجل ما امتازت به حتى لا يعادلها شىء من عقائدها وآدابها أو علومها ؛ ولو لم يكن الفنان والصانع موضع تقدير المجتمع وتشجيعه لـكان

من المستحيل أن يبلغا ذروة الإبداع مع كثرة الإنتاج كثرة لا يدانيها إنتاج أية أمة أخرى . ومن أصحاب المقابر من فخر بأنه أرضى كل عامل اشتغل فى مقبرته ، ومنهم من أشاد بأنه كافأ المثال بما أرضاه على ما صنعه له من تماثيل . ويكفى للدلالة على ما كان للصناعة والفن فى مصر من مركز رفيع أن الإله « بتاح » ، إله العاصمة ، منف ، وخالق الكون والآلهة جميعاً ، كان معتبراً إله الفن والصناعة ، وكان كاهنه رئيساً للفنانين والصناع .

الفلاحون :

كان الفلاحون يؤلفون أكثرية الشعب ، ويظن أن بعضهم كانوا من الأحرار ، يملكون ما يزرعونه من الأراضى ، وإن كانوا قليلين . أما أغلب الفلاحين فكانوا مرتبطين بالأرض لا ينفكون عنها ، بحيث إذا انتقلت ملكية الأرض انتقلت معها تبعيتهم من المالك القديم إلى المالك الجديد . وليس من شك فى أن أعمالهم لم تكن يسيرة ، فقد كان عليهم إلى جانب فلاحة الأرض ورعايتها حتى يتم حصادها ، أن يعملوا فى حفر الترع والقنوات لرى الأراضى البعيدة عن فيضان النيل ، وإقامة السدود لاتقاء شر الفيضانات العالية . وقد كان لاستقرار الحياة واستتباب الأمن ما ساعد كثيرا على العناية بوسائل الرى ، فازدهرت الزراعة فى الأملاك الملكية وضياع عظماء الدولة ، وازدادت محاصيل القمح والشعير والكتان زيادة كبيرة . وقد صاحب ذلك زيادة الاهتمام بتربية الماشية من البقر والأغنام والمعز . وبذلك كان الملايين من المصريين يشتغلون فى الحقول ؛ وكانوا يسكنون أكواخاً من أعواد مضفورة من النبات أو مبنية من الطين أو اللبن ، قانعين بما يتاح لهم من ضرورات الحياة . على أنه مع هذا لا سبيل إلى القول بأن الطبقة الحاكمة كانت تستأثر وحدها بمتع الحياة ، وأنها استعبدت طبقة المحكومين أو استغلتها لمصلحتها استغلالا سيئاً . فمن نصوص المقابر ما يشيد فيها أصحابها بحسن معاملته لأتباعه ، وأن أحداً لم يمض الليل حاقداً عليه ؛ وفى هذا ما يدل على أن أولى الأمر أدركوا أهمية معاملة أتباعهم بالحسنى ، وأنهم — وقد كانوا يميلون إلى المرح والسرور — كان يرضيهم أن يروا بيئتهم سارة بهيجة وأن يعم الفرح عمالهم وأتباعهم .

وقد كان للعمال والفلاحين مباهجهم وأفراحهم ، إذ تدل بعض المناظر على أن الأعمال الزراعية كانت تؤدى على أنغام الزمار مع الرقص والغناء ؛ ومن المناظر ما يمثل الملاحين وهم يغنون فى سفنهم ؛ والرعاة وهم يحدون الماشية بأغانيهم ؛ والخدم وهم يزجون وقتهم بالغناء ؛ كما كان العمال والصناع يتبادلون معا من النكات ما يدل على نفوس فرحة راضية بعملها وحظها من الحياة .

وقد عزى إلى « خوفو » و « خفرع » أن المصريين لاقوا فى حكمهما كثيراً من الشقاء ، وأنهما دفعا البلاد إلى أحضان البؤس ؛ على أن مبانى هذين الملكين بالذات ، وما حفظ من عهدهما من نقوش وتماثيل تبلغ جميعها حدا من الكمال لا يتسنى لو أن من قاموا بعملها كانوا موضع قسوة واضطهاد ، بل إن هذه الأعمال لتنطق بروح التفانى فى إبداع أقصى ما يمكن أن تصل إليه القدرة البشرية من روعة فى البناء والنحت والنقش . وما من شعب مقهور على أمره كاره لحكامه ، يمكن أن يبلغ فى أعماله لهم مابلغه المصريون فيما قاموا به لهذين الملكين من كمال وجلال ، إن دلا على شئ فإنما يدلان على رغبة الشعب الصادقة فى تمجيد « خوفو » و « خفرع » وتفانيهما فى تأليههما والتسامى بآثارهما فوق حد كل تصور ، بما كان ينفق وقوة عقيدة الشعب فيهما كإلهين عظيمين. وفى الحق ليست آثارهما إلا صورة مجسمة لعقيدة الشعب فيهما ، تتمثل فيها روح العصر ، واستقرار الحكم ، وقوة شخصية الملك ، وما اجتمع للحكومة من سلطان واسع ، وما بلغه الفنانون والصناع من قدرة وبراعة . وقد ساعد على إنجاز هذه الأعمال الجليلة أن المياه فى مدة فيضان النيل كانت تغطى أكثر الأراضى الصالحة للزراعة فترة طويلة ، فلا يتسنى القيام بأى عمل فى الحقول ، فأمكن لذلك تشغيل الأيدى العاطلة طوال هذه الفترة ، خاصة وأنها كانت كذلك أنسب الأوقات لنقل الأحجار من محاجر طرة فى الشرق إلى حافة الهضبة الغربية . وقد كان من شأن النظام الدقيق الذى اتبع فى جلب آلاف العمال وتقسيم العمل بينهم ومراقبة أدائه بدقة أن يعنى كذلك بشئون العمال لفائدة العمل الضخم الذى يقومون به حتى لاتفتر همتهم ، وتقعد بهم عقيدتهم عن أن يبلغوا فيه مابلغوه من كمال وإبداع . وقد كان العمال يفيدون من عملهم الطعام والكساء فى وقت لايستطيعون فيه العمل فى فلاحة الأرض.

الصناعات

لم يحفظ لنا من مصنوعات المصريين فى الدولة القديمة شيء كثير ، فما سلم من عبث اللصوص لم يسلم أكثره من عوادى الزمن . ومع ذلك ففيما تبقى منها وفيما حفظت صوره على جدران المقابر ما يدل على ازدهار الصناعات المختلفة إذ ذاك ، وعلى كثرة ما أنتجه الصناع المصريون ، وما بلغوه من ذروة الكمال والإتقان ، وما كان لمصنوعاتهم من أشكال جميلة تنم عن شعور فنى جليل . ولا يرجع الفضل فى هذا كله إلى أدوات الصانع فقد كانت كلها بسيطة ، وإنما يرجع بغير شك إلى ما كان للصانع من مهارة ممتازة وقدرة بارعة ، وحسن ذوق .

صناعة الأثاث :

كانت مصر وما زالت فقيرة فى الأشجار ذات الأخشاب الجيدة ، والأطوال الفارعة التى تصلح للصناعة . وأهم الأشجار المصرية التى كان يعتمد عليها السنط وشجر الجميز والأثل ، ثم أشجار أخرى أقل جودة واستعمالا ومنها النخيل والنبق والصفصاف . وقد استطاع النجار المصرى أن يصنع من أخشاب الأشجار المصرية ألواحا صغيرة يصلها معا جنبا إلى جنب بأوتاد صغيرة من الخشب ليؤلف منها ألواحا كبيرة . ومع ذلك فقد اضطر منذ وقت مبكر إلى استيراد الأخشاب الجيدة من غرب آسيا وأهمها الأرز والسرو ، كما استورد الأبنوس من الأقطار الجنوبية فى أفريقية .

ومما بقى من أجزاء بعض قطع الأثاث من أواخر ما قبل الأسرات وبداية عهد الأسرات ما يشير إلى ما بلغته صناعة الأثاث إذ ذاك من تقدم ، وإلى ما كانت تتمتع به الطبقات الراقية على الأقل من وسائل الراحة والرفاهية ؛ فقد كثر استخدام الأسرة حتى غدت من أهم قطع الأثاث ؛ ومنها ما أجيد سحج أخشابه وأحسن تركيبها معاً ، وكانت تشد على بعضها سيور من جلد طولا وعرضا ، أو توضع عليها عوارض من خشب يستقر عليها النائم . ومن الأسرة ما صنعت أرجله على شكل أرجل الثور الوحشى فى مهارة كبيرة ؛ ومن الأرجل ما صنع من العاج أو الأبنوس ببراعة فائقة .

وقد اصطنع المصريون لحفظ حليهم وعطورهم وملابسهم الصناديق الصغيرة من الخشب أو العاج أو الأبنوس وأحيانا من المرمر المصرى ، وكان بعضها يرصع بالعاج أو العظم أو القاشانى فى أشكال هندسية مختلفة . واصطنعوا كذلك المناضد الصغيرة من الخشب أو الحجر بأرجل قصيرة يأكلون عليها أو يضعون عليها قدورهم وأوانيهم أو يؤدون عليها بعض الأعمال .

وفى عهـد « زوسر » على الأكثر ، أى فى بداية الدولة القديمة ، وفق النجار المصرى إلى عمل ألواح من الخشب يتألف كل منها من ست طبقات متعارضة ، يتراوح سمك كل طبقة بين أربعة وستة ملليمترات ؛ وهكذا عرف الأساس الذى تعتمد عليه صناعة الخشب المعروف «بالأبلكاش» ، الذى يلعب دورا بالغ الأهمية فى أعمال النجارة فى الوقت الحاضر .

ومن قطع الأثاث الفاخر فى الدولة القديمة ، المقاعد والمحفات والأسرّة ذات القوائم على هيئة أرجل الثور أو السبع ، ومساند الرأس والصناديق ذات الأحجام والأشكال

المختلفة ، ونواويس التماثيل ، والتوابيت . ويدل ماحفظ من أثاث الملكة «حتب حرس» ، أم الملك خوفو ، على مهارة فائقة فى صنع الأثاث الفاخر المصفح بالذهب والمحلى بزخارف جميلة هادئة .

الصناعات المعدنية :

ترجع الصناعات المعدنية فى مصر إلى عصور ما قبل الأسرات . وفى بداية الأسرات بلغت من الانتشار والازدهار حدا كبيرا ، فقد ازداد استخدام النحاس فى صناعة الكثير من الأدوات والأوانى والأباريق والطسوت ، وكان بعضها من حجم كبير ، وتوجد منها أمثلة جميلة فى متحف القاهرة . وكانت تصنع من النحاس كذلك بعض التماثيل الصغيرة ، كما كانت بعض المصنوعات الخشبية تغشى بصفائح رقيقة منه .

وفى الدولة القديمة ازداد استغلال النحاس من «وادى مغارة» فى شبه جزيرة سيناء زيادة كبيرة وكانت تصنع منه الأوانى والمرايا والأدوات المختلفة ، كما أصبحت تصنع منه التماثيل الكبيرة .

ومن الذهب صنع المصريون الحلى ، وتدل صناعتها فى بداية الأسرات على مهارة كبيرة ، كما صنعوا منه أسلاكا رفيعة وصفائح رقيقة كانوا يحلون بها بعض العصى ونماذج الموائد ، وهى مجرد نماذج صغيرة كانت تودع فى المقابر اعتقاداً بأن الميت سيفيد من استخدامها . ومما حفظ من صور منقوشة يتضح أنه كانت تصنع للملوك منذ الأسرة الأولى على الأقل تماثيل من الذهب ، ومنها مايمثل الملك وهو يصطاد فرس النهر أو يصارعه .

وفى الدولة القديمة ازدهرت صناعة الحلى وتقدمت كثيرا ، وهو ما تشهد به دمالج وخلاخل الملكة « حتب حرس » المصنوعة من الفضة[1] والمرصعة بأحجار ملونة تمثل فراشات باسطة أجنحتها فى جمال ودقة .

وصنع المصريون كذلك الأكاليل والقلائد والخرز من الأحجار الثمينة ، وكانوا يثقبونه ويصقلونه بدقة وعناية .

وكانوا يحصلون على الذهب من الصحراء الشرقية من نواحى قفط ومن بلاد النوبة .

الأوانى الحجرية :

بدأ الصانع المصرى يصنع بعض الأوانى من الحجر منذ العصر الحجرى الحديث ، وقد تقدمت صناعتها كثيراً فى أواخر ما قبل الأسرات ، على أنه بلغ بها حد الروعة فى

---

(١) كانت الفضة لقلتها فى الدولة القديمة أغلى قيمة من الذهب .

عصر بداية الأسرات ، حتى ليعتبر ذلك العصر بمثابة العصر الذهبى لصناعة الأوانى الحجرية على وجه الإطلاق ، إذ لم تبلغ صناعتها فى أى عصر آخر فى مصر أو فى غيرها من الأقطار ما بلغته إذ ذاك من دقة صنع وحسن شكل . وكان الصانع المصرى يعنى كثيراً بانتقاء الأحجار الجميلة كالمرمر المصرى والشست والسربنتين والبريش والديوريت والسينايت والسماق . وقد تفانى فى صقل سطوحها وإبراز جمال ألوانها وترقيق جدرانها ، حتى ليكاد بعض الأوانى يشف عما بداخله . وعلى كثرة أشكال هذه الأوانى واختلاف أحجامها فإن نسبها جميعاً جميلة متسقة ، وخطوطها بسيطة رشيقة ليس فيها تكلف أو تصنع . وهى بهذا كله تشهد بحسن ذوق الصانع وحسن تقديره لما للأحجار من جمال طبيعى ؛ وليس أدل على ذلك من أنه أخرجها عاطلة من أى زخرف اكتفاء بجمال ألوانها وأشكالها ؛ كما أنها تخلو من النقوش إلا فيما ندر ، بما يحفظ لها جمالها الطبيعى الهادىء ؛ وهى بذلك تنم عن شعور فنى يختلف عما ينم عليه ما حفظ من أوانى السومريين ذات الخطوط الجافة الغليظة والتى تغشى سطوحها نقوش فجة كثيفة .

وعلى ما بلغته الأوانى الحجرية من كمال ، فقد كانت تصنع بوفرة ، مما يشير إلى أن عدد الصناع المهرة لم يكن قليلا ، وأنهم لم يكونوا يجدون صعوبة كبيرة فى إجادة ما صنعوا على بساطة أدواتهم ، وقد كان الملوك يزودون مقابرهم بالعدد الوافر من الأوانى ، وكذلك الأشراف وكبار الموظفين ، بل إن أفقر المقابر لم تكن تخلو من إناء حجرى على الأقل . ولم يقتصر هذا على العاصمة ، وإنما وجدت الأوانى الحجرية سبيلها كذلك إلى الأقاليم ، مما يدل على انتشار الرخاء ومظاهر الحضارة بين المصريين .

وفى دهاليز هرم سقارة المدرج كشف عن أكداس من الأوانى من الأحجار المختلفة . وقد وجد بعضها سليما ، كما أمكن إصلاح عدد كبير منها ، ويتميز أكثرها بدقة صناعته وجدة أنماطه ، على أن بعضها لا يجارى أوانى الأسرة الأولى فى جمالها وحسن صناعتها ، ولعل الصانع كان حريا ببلوغ ما بلغه أسلافه من ذروة الإتقان لولا انصرافه إلى كثرة الإنتاج ؛ على أن العهد الذهبى لصناعة الأوانى الحجرية بدأ يوالى الإدبار .

الأوانى من الفخار :

ازدهرت صناعة أوانى الفخار فى مصر منذ عهود ما قبل الأسرات ، وكانت وقتئذ تشكل باليد ، وقد بلغ بعضها من رقة الجدران أن حوافيها كادت أن تكون حادة فى بعض الأحيان . ومن فخار تلك العصور ما حلى برسوم هندسية أو صور مختلفة للإنسان وبعض أنواع الحيوان والطير والنبات وغيرها .

وفى بداية الأسرات كان لازدهار صناعة الأوانى النحاسية والحجرية آثار سيئة على صناعة أوانى الفخار ، فأصبحت أقل دقة وجمال شكل مما كانت عليه ، وإن كان استخدامها قد زاد كثيرا من ناحية أخرى لتلبية المطالب الرخيصة والحاجات الضرورية .

وفخار بداية الأسرات عاطل عادة من الرسوم والزينة ، وقد ورث أغلب أنواعه وأشكاله من فخار ما قبل الأسرات ؛ وكان أغلبه يشكل باليد أيضا ، فى حين أن القليل منه يدل على تطور هام إذ استخدمت فى صناعته عجلة الفخارى ، وكان الصانع يديرها باليد اليسرى ، بينما يشكل الإناء بيده اليمنى[1].

وفى الدولة القديمة أصبح أكثر الفخار يصنع بعجلة الفخارى ، وكان يتميز بأشكاله البسيطة ، وبأنه عاطل من الزخارف ، وليست له مقابض عادة . ومنذ الأسرة الرابعة صنع الفخارى من الصحاف ما يمتاز بجودة صلصاله وجمال شكله ودقة صنعه .

القاشانى :

وفق المصريون إلى صناعة القاشانى فى وقت مبكر فى عصور ماقبل الأسرات ، وهو عجينة من مسحوق المرو (الكوارتز) أو الرمل ذات طلاء زجاجى [2] ؛ وهو بذلك يختلف عن الفخار أو الخزف الذى يصنع من الصلصال .

وكان القاشانى من الصناعات التى تميزت بها مصر عن غيرها من الأقطار ، وقد بلغت بها غاية كمالها ، ولذلك لم يكن لصناعة الخزف أى شأن قبل دخول العرب مصر . وكان من أهم ماصنع المصريون من القاشانى فى عصور ماقبل الأسرات الخرز ، وكانوا يعتبرونه بديلا رخيصا سهل الصنع للخرز الثمين من الفيروزج واللازورد .

وفى أواخر ما قبل الأسرات ، وبداية عهد الأسرات ، كثر ما كان يصنع منه وانتشرت مصنوعاته بين سائر الطبقات ، فكانت تصنع منه خواتم وأساور وتمائم وأوان وتماثيل صغيرة للإنسان والحيوان ، وزخرفت به قطع الأثاث وصنعت منه قراميد صغيرة كانت تكسى بها الجدران تقليداً للستائر من الحصير .

وفى الدولة القديمة كانت تصنع لوحات من القاشانى تنقش عليها أسماء بعض الملوك ، كما صنعت الأساور والجعلان والقراميد ، وأجل القراميد ما كشف عنه فى بعض مبانى « زوسر » فى صقارة ، وهو ذو لون أزرق ناصر أو داكن أو ضارب إلى الخضرة .

---

(١) وهى فى الوقت الحاضر تدار بالرجل وتستخدم اليدان فى تشكيل الإناء .

(٢) كان الطلاء الزجاجى يصنع من الرمل والنطرون ونسبة صغيرة من أحد مركبات النحاس لتلوينه ، وبذلك كان يتألف مما يتألف منه الزجاج القديم .

وقد بلغت صناعة القاشانى غايتها فى عهد الدولة الحديثة ، إذ أصبحت تصنع منه أشياء مختلفة لا عداد لها ، منها الخرز والتماثيل والزخارف وغيرها .

صناعة الكتان :

زرع المصريون الكتان منذ العصر الحجرى الحديث ، ونسجوا منه ملابسهم منذ ذلك العهد ، وقد بقى منها بالفعل خرق صغيرة تدل على نسيج متين منتظم الخيوط . ومن بداية الأسرات حفظت بقايا من نسيج كتانى رقيق للغاية يثير الإعجاب بما بلغته صناعته من تقدم فى ذلك العهد المبكر .

ومن أكفان بعض ملوك الدولة القديمة ما يدل على أن الكتان بلغ إذ ذاك من الدقة والطراوة حد الكمال . وفيما يسمى بقوائم القربان ما يشير إلى أن المصريين فى عهد الدولة القديمة عرفوا أربعة أنواع مختلفة أو خمسة من نسيج الكتان ، يحتمل أنها كانت تختلف فيما بينها فى عدد خيوطها . وقد ازدهرت فى مصر طوال عصور الأسرات زراعة الكتان ونسيجه ، حتى إن ما كان يصدر منه فى العصر اليونانى الرومانى ، كان يقوم بسداد أثمان جميع ما تحتاج إليه مصر من متاجر بلاد العرب والهند .

صناعة الورق :

كان نبات البردى ينمو بكثرة فى مصر وخاصة فى مناقع الوجه البحرى على نحو ما ينمو الآن بوفرة فى أعالى النيل ، وقد استخدم المصريون سيقانه استخداما واسعا ، فصنعوا منها النعال والحبال والحصير والصناديق والأسفاط والقوارب ؛ على أن أهم ما صنعوه من هذا النبات هو ورق الكتابة . وترجع صناعة الورق من البردى إلى الأسرة الأولى على الأقل . وقد نهضت مصر دون غيرها من أمم الشرق القديم بصناعته ، حتى كان من أهم السلع التى تصدرها فى العصر اليونانى الرومانى إلى كافة أنحاء العالم القديم من العراق شرقا إلى الجزر البريطانية غربا . وقد ساعد هذا الورق بصلاحيته للكتابة ، ولخفة وزنه ، وسهولة حمله مساعدة جدية فى انتشار العلوم والآداب فى العصور القديمة ، حتى إنه كان لانقطاع تصديره بعد فتح العرب لمصر أثر كبير فى انتشار ظلمات الجهل فى أوروبا خلال العصور الوسطى . وعاون جفاف مناخ مصر على حفظ أوراق البردى القديمة ، حتى إنها تعتبر من أهم الأسانيد فى معرفة عقائد المصريين وعاداتهم وعلومهم وآدابهم ، كما أن من بعضها ما حفظ كثيرا من الأدب الإغريقى ، وما كشف عن كثير من المسائل القضائية والإدارية للرومان . وهكذا تدين

حضارة العالم عامة المصريين باهتدائهم إلى صناعة الورق على نحو ما ندين لهم بتوفيقهم إلى معرفة حروف الهجاء وكتابتها .

ويبدو أن صناعة ورق البردى كانت تتم بقطع سيقان نبات البردى إلى قطع صغيرة ، ينزع عنها لحاؤها ، ثم تقطع شرائح توضع جنبا إلى جنب فى طبقتين متعارضتين بين قطعتين من قماش ماص ؛ وكانت تطرق ساعة أو ساعتين بمطرقة من خشب أو بقطعة مستديرة من الحجر ، ثم يضغط عليها بثقل عدة ساعات حتى تجف وتلتئم الطبقتان معاً . وفى كثير من الأحيان كان يلصق عدد من الصفحات معا جنبا إلى جنب ليتكون من ذلك قرطاس طويل قد يبلغ أربعين مترا طولا . وكان الكتاب يكتبون على قراطيس البردى من يمين إلى يسار فى خطوط رأسية أو أفقية وذلك لأنهم كانوا يمسكون بها مطوية فى يسراهم باسطين أطرافها اليمنى تجرى عليها أقلامهم بالكتابة من اليمين إلى اليسار ، فى حين كان الفنانون ينقشون النصوص الهيروغليفية فى الحجر أو الخشب فى خطوط رأسية أو أفقية ، تقرأ من يمين إلى يسار أو من يسار إلى يمين وفق ما كانت تقتضيه الظروف والأغراض الزخرفية .

صناعة الجلود :

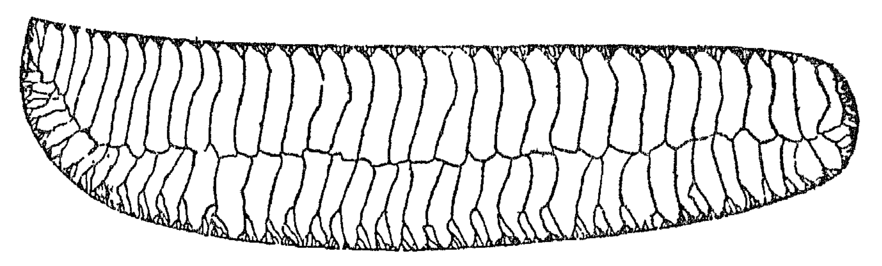
اعتنى المصريون منذ العصر الحجرى الحديث بتربية البقر والغنم والمعز ، وقد ساعدت وفرتها ووفرة ما كان يصاد من حيوانات الصحراء على كثرة الجلود والفراء . وقد عرفوا فى عصور ما قبل الأسرات كيف يعدونها ويدبغونها ويتخذون منها لباسهم ، ثم صنعوا منها النعال والتروس والجعاب وغيرها . وكان لجلود النمور أهمية خاصة ، إذ كان يتخذها فريق من الكهنة شارة لهم ، وكانت تستورد من بلاد النوبة .

الأسلحة والأدوات :

اتخذ المصريون فى عصور ماقبل الأسرات أدواتهم من الأحجار التى وجدوها فيما يكتنف وادى النيل من هضاب ، وخاصة الصوان (الطران) ، وهو صخر محارى المكسر ، يمكن بسهولة اتخاذ شظايا أو شرائح رقيقة منه . وأهم ماصنعوه من الحجر من أدوات ، دبابيس القتال[1] ، والسهام ، والحراب ، والمدى ، والخناجر . والمطارد ، والفؤوس لقطع الأشجار ، والمناجل يحصدون بها القمح والشعير . وبلغت صناعة بعض الأدوات من الظران فى أواخر ماقبل الأسرات غاية من الكمال لاشبيه لها فى أى عهد آخر فى مصر أو فى غيرها من البلدان . ومن أهم أمثلة هذه الأدوات رؤوس حراب

(١) دوس القتال هو هرواة من خشب ذات رأس كالكرة من الحجر عادة .

على هيئة ذيل السمكة ، ومدى طويلة رفيقة كانت تتخذ من أحسن قطع الظران وأفضلها تجانسا ، ثم تشظى من إحدى صفحتها أو من كلتيهما بدقة ومهارة ، فتكون لها تموجات منتظمة غاية فى الجمال (شكل ٤١) .



(شكل ٤١)
سكين من الظران

وبازدياد استخدام النحاس فى صناعة الأسلحة والأدوات ، انحطت كثيرا صناعتها من الحجر ، وإن كان المصريون قد ظلوا طوال عصورهم التاريخية يصنعون بعض أدواتهم من الظران ، وخاصة ما كان يستخدم منها فى الطقوس والأغراض الدينية والجنازية . وقد استخدم المصريون النحاس فى صناعة أسلحتهم وأدواتهم فصنعوا منه فى بداية الأمر أدوات صغيرة ضئيلة الحجم ، أهمها المثاقب والدبابيس ، ثم لم يلبثوا أن صنعوا منه كذلك المدى والأزاميل ورؤوس الفؤوس ، ورؤوس الحراب والخناجر والمناحت والمناشير والخطاطيف ونصال المساحل[١] والمثاقب الأنبوبية[٢] . وقد ساعد ازدياد صناعة الأدوات النحاسية زيادة كبيرة فى بداية الأسرات والدولة القديمة على تطور كثير من الصناعات والفنون .

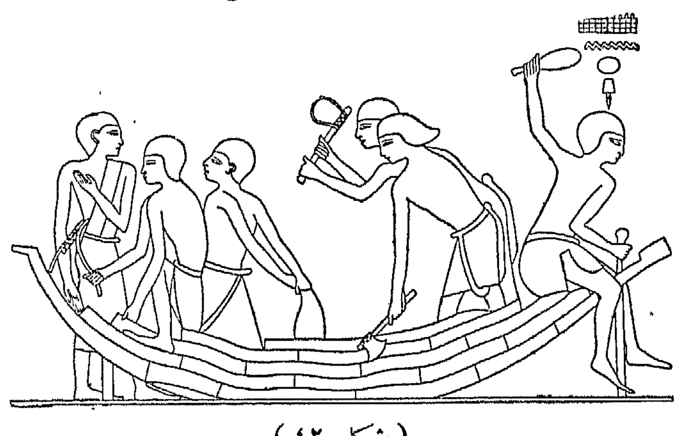
صناعة السفن :

صنع المصريون الزوارق الخفيفة من حزم البردى ، وكانوا يشدون بعضها إلى بعض بإحكام تام (شكل ٣٨) ، وكان من هذه الزوارق الصغير الذى لايسع أكثر من شخصين ، ومنها الزوارق الكبيرة التى تقتضى وصل أطراف عدة حزم من البردى بعناية كبيرة . وكانت الزوارق تدفع على سطح الماء بالمرادى المصنوعة من الخشب ، أو بمجاديف قصيرة يدفع بها الماء بخفة . وقد ظل المصريون يستخدمون زوارق

(١) المسحل : أداة ذات جانبين من الخشب على زاوية حادة ، أحدهما طويل وهو المقبض والثانى قصير يركب فيه نصل من النحاس ، ويستخدم لسحل الخشب أى تقشيره .
(٢) المثقاب : أداة تستخدم فى تجويف الأوانى من الحجر .

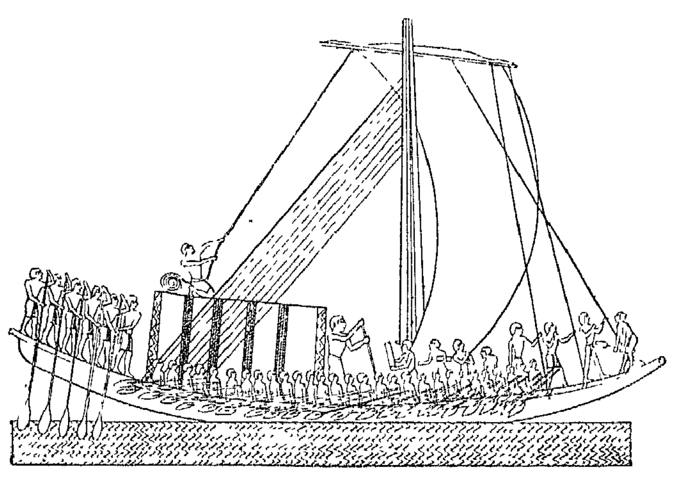
البردى لخفتها وصلاحيتها للانتقال فى المياه ، التى تنمو فيها أحراش البردى ، وخاصة لصيد الأسماك وطيور الماء ، ولا تزال أمثال هذه الزوارق تستعمل حتى الآن فى أعالى بلاد النوبة وفى بحيرة تانا فى الحبشة وفى أعالى النيل .

على أن هذه الزوارق لم تكن تصلح للأسفار الطويلة أو لنقل المنتجات الزراعية والحيوانات والمصنوعات بين الأماكن البعيدة ، ولذلك كان لابد من بناء سفن كبيرة أقوى وأكثر احتمالا ، تصنع مما كانت تتيحه الأشجار المحلية وخاصة السنط من ألواح قصيرة ، توصل معا بأوتاد صغيرة من الخشب (شكل ٤٢) على نحو ما تصنع أمثالها الآن فى بلاد السودان . ولم تكن لهذه السفن ضلوع تضم ألواحها كما لم يكن لها سكان (دفة) خاص فى ذنبها ، وإنما كان يستعاض عنه بمجدافين كبيرين أو أكثر من مجدافين بحسب حجم السفينة . وكان لكل سفينة شراع واحد طويل من الكتان .



(شكل ٤٢)
قارب يصنع من ألواح قصيرة من الخشب

وقد عرفت الدولة القديمة أشكالا مختلفة من السفن ، فمنها ما كان للأشراف يستخدمونه فى رحلاتهم ، وهى سفن شراعية طويلة من خشب الأرز ، على سطحها « قمرة » ، جدرانها من الحصير أو الكتان ، يأوى إليها الشريف فى رحلته (شكل ٤٣) ، وتتبعها عادة قوارب صغيرة من الخشب ينقل فيها الزاد ونحوه . ومنها كذلك سفن نقل كبيرة تدفع بالمجاديف ، وجوانبها عالية لتحمل أقصى ما يمكن أن يحمله سطحها على الماء . ومنها أيضا ما كان يعد لنقل الأثقال العظيمة ، وخاصة الأحجار من محاجر الشاطئ الشرقى إلى حافة الهضبة الغربية . ولم يكن لهذه السفن شراع أو مجاديف ، وإنما كانت تجرها الرجال أو سفن أخرى . ومن سفن النقل ما كان يبلغ طوله ثلاثين مترا ، وعرضه خمسة عشر مترا ، ومنها ما تجاوز طوله خمسين مترا .



(شكل ٤٣)
سفينة كبيرة للسفر (من الدولة القديمة)

المواصلات والتجارة

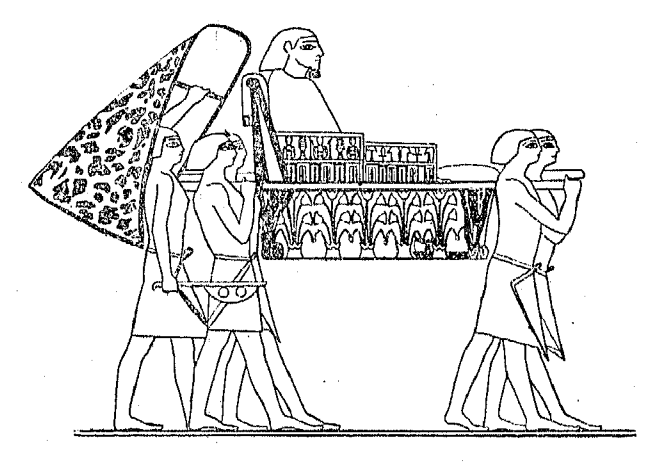
وسائل الانتقال والنقل :

كانت وسائل الانتقال البرية جد محدودة ، ولم يكن استخدامها يتعدى مسافات قصيرة للغاية . فكان الشريف ينتقل محمولا على كرسى فى محفة من الخشب على أكتاف خدمه ، وتقوم من فوقه ظلة يستظل بها ، أو يحتبى فى محفة يحملها خدمه على أكتافهم (شكل ٤٤) ، أو تشد على ظهر حمارين . وقد استخدم الحمار كثيراً لنقل الحصيد من الحقل إلى الجرن وفى القوافل .

على أنه لما كانت مدن مصر تقع فى صف طويل على جانبى النهر فى وادى النيل الضيق ، فقد كان النيل وقنواته هى الطرق الطبيعية للمواصلات ، وبذلك كان الاعتماد الأكبر فى الانتقال من مكان إلى آخر وفى نقل المنتجات والمصنوعات على الزوارق والسفن . وقد بلغ ذلك من يقين الشعب إلى حد أنه لم يكن يتصور أن أجرام السماء نفسها يمكن أن تدور فى أفلاكها بغير سفن تنتقل فيها (شكل ١٦ ، ١٧) ، كما اعتقد أن السفن هى وسيلة النقل فى العالم الثانى .

وقد استخدم المصريون السفن الكبيرة ذات المجاديف العديدة منذ عصور ما قبل الأسرات ، ولا بد أنهم كانوا يستخدمونها إذ ذاك فى نقل ما كان يلزمهم من المواد الأولية من مواطنها البعيدة وعلى رأسها الأحجار الصلدة التى صنعوا منها أوانيهم وأدواتهم . وكانت السفن الكبيرة فى بداية الأسرات وفى الدولة القديمة (شكل ٤٣) تذرع النيل

شمالا وجنوبا ، تنقل الحاصلات والمصنوعات إلى مخازن الدولة وضياع الأمراء وكبار الموظفين ، وتحمل الرسل إلى أنحاء البلاد ، وتنتقل بالأمراء والأشراف على ضفاف النيل يتريضون أو يتفقدون ضياعهم ، كما كانت تنقل آلاف العمال من بلدانهم إلى العاصمة لإقامة منشآتها ، أو تحمل الأحجار الضخمة من محاجرها على الشاطئ الشرقى إلى الشاطئ الغربى ، أو من أسوان إلى مكان بناء الأهرام ، أو تجلب الطعام والكساء والأدوات للعمال ، أو تقل الموظفين والرؤساء لتفقد الأعمال . وفى تصور ما كان يدعو إليه هذا كله من نشاط وجهد ما يثير الإعجاب بالمصريين القدماء ويقتضى الإجلال والتقدير .

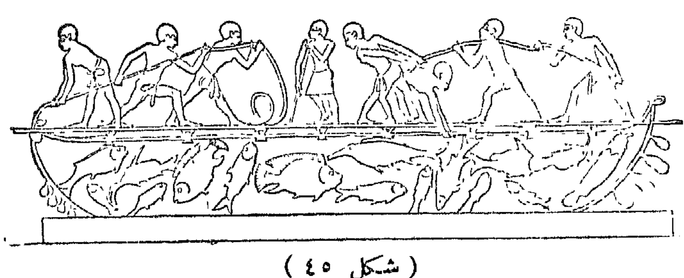


(شكل ٤٤)

شريف فى محفة (من الدولة الوسطى)

التجارة الداخلية :

وإذ كانت معظم الأراضى فى الدولة القديمة ملكا لفرعون والأمراء وعظماء رجال الدولة والمعابد ، وكان لكل من هؤلاء مصانعه المختلفة التى تنتج له أغلب حاجاته ، لذلك لم تنشط التجارة الداخلية ، بل كانت لا تعدو المعاملات المحدودة التى تجرى فى الأسواق المحلية . ولا يدل عدم نشاط التجارة الداخلية على أن الحالة الاقتصادية كانت سيئة ، فقد كانت غالبية الشعب إما من الموظفين الذين تدفع لهم الدولة أو من يستخدمونهم من الأمراء والأشراف أعطياتهم ، وإما من الفلاحين المرتبطين بالأرض ، وهم من ذوى المطالب المحدودة التى يكفلها لهم أصحاب الأرض . وفضلا عن ذلك فلا شك فى أن وفرة صيد الطيور والحيوانات والأسماك (شكل ٤٥) ساعدت كثيراً على وفرة موارد البلاد الاقتصادية



(شكل ٤٥)
صيد الأسماك بالشبكة

الأسواق المحلية :

قد صورت على جدران بعض المقابر مناظر الأسواق وما كان يجرى فيها من بيع وشراء ، ويتبادله المتبايعون من أحاديث عن السلع كالعطور والزيوت والحلى والكعك والنعال والمراوح والعصى والكتان والأسماك والشصوص والأختام . وكان المتبايعان يتساومان على ثمن السلع ؛ ولم يكن الثمن يدفع نقداً وإنما مقايضة ، أى سلعة بسلعة . على أن تقدير أثمان السلع كان يعتمد فى أساسه على وحدة قيمية تسمى عندهم «شعت» ، ومن أمثلة ذلك أن منزلا عرض للبيع فقوم بعشر وحدات ودفع مشترى المنزل إلى بائعه فى مقابله سلعاً بهذه القيمة ، وهى سرير قوم بأربع وحدات وقطعتان من قماش الكتان قومت كل منهما بثلاث وحدات .

التجارة الخارجية :

كان نصيب التجارة الخارجية من الأهمية والازدهار ما يفوق كثيراً ما كان للتجارة الداخلية ، فقد كان لمصر مع الأقطار المجاورة تجارة واسعة رائجة ، كثيرا ما كان لها تأثير بالغ فى أحوالها الاقتصادية ، وفى أحوال ما جاورها من القبائل والشعوب . وقد اهتمت مصر منذ عصور ما قبل الأسرات باستيراد الزجاج الطبيعى والأحجار الكريمة ؛ وكانت لها حينذاك علاقات مع كريت وغيرها من جزر البحر المتوسط .

وفى بداية الأسرة الرابعة أرسل « سنفرو » إلى لبنان أربعين سفينة كبيرة عادت إلى مصر محملة بالأخشاب لبناء السفن وصنع الأثاث الجيد والأبواب للقصور الملكية ، مما يشير إلى مدى اتساع العلاقات التجارية إذ ذاك .

وفى عهد الأسرة الخامسة عاد أسطول الملك « ساحورع » من شواطئ سوريا محملا بجرار الزيوت الثمينة وبعض الدببة ؛ وفى ذلك ما يدل على اهتمام المصريين منذ عصورهم القديمة بعجائب البلاد الأجنبية .

وبامتداد الإمبراطورية المصرية فى عهد الدولة الحديثة حتى نهر الفرات ، ازدهرت التجارة بين مصر وآسيا أكثر من ذى قبل ، ونشطت المواصلات بينهما ، وتأثر كل منهما بالآخر ، ووجدت المنتجات الأسيوية سبيلها إلى مصر فى وفرة كبيرة .

ولم تكن صلات مصر التجارية فى الدولة القديمة تقتصر على الساحل الشرقى للبحر المتوسط ، وإنما امتدت كذلك عبر البحر الأحمر إلى بلاد « بنت » على الساحل الشرقى لأفريقية . ولما كان البحر الأحمر تكثر فيه الشعب المرجانية ذات الخطر الكبير على الملاحة ، كما أن شاطئيه يتميزان بقحولتهما وندرة موارد الماء والطعام فيهما ، لذلك فإن نجاح المصريين فى اجتيازه بالرغم من هذه الظروف السائدة إذ ذاك لخليق بالإعجاب الشديد والتقدير البالغ ، خاصة وأنه لم يكن لهم عليه ميناء صالح للملاحة ، وأنه لم تكن تصله إذ ذاك بالنيل قناة[١] مما كان يقتضى منهم بناء السفن على ساحله مباشرة ونقل الماء والطعام إليه عبر الصحراء الشرقية بالرغم مما كانوا يتعرضون له من غارات البدو الساميين . وتذكر المتون المصرية أن هؤلاء البدو فتكوا ذات مرة بموظف كبير وبمن معه من الجنود بينما كانوا يقومون ببناء سفينة كان مزمعاً إبحارها إلى « بنت » على شاطىء البحر الأحمر ، فأرسل الملك « بيبى الثانى » من الأسرة السادسة حاكم « الفنتين » ليعود بجثته .

وقد اتصل المصريون ببلاد « بنت » مباشرة دون وسيط منذ الأسرة الخامسة على الأقل ، فقد جاء فى حجر « بلرمو » أن الملك « ساحورع » تلقى كثيرا من العطايا المختلفة من « بنت » ؛ ومع هذا فلابد أن يكون قد سبق ذلك اتصال غير مباشر عن طريق القوافل التى كانت تنقل المتاجر المختلفة[٢] ؛ وكثر ذلك الاتصال فى الأسرة السادسة بالرغم من مشاق السفر إليها ، ويذكر أحد الموظفين أنه سافر إلى « جبيل » (بيلوس) عبر البحر المتوسط وإلى بلاد « بنت » عبر البحر الأحمر إحدى عشرة مرة ، مما يعتبر دليلا قويا على ما كان من جرأة الملاحين المصريين وكثرة اتصالاتهم بهذه الأنحاء . وكان المصريون يجلبون من « بنت » العطور والأبنوس والعاج وريش النعام والأحجار الثمينة وغيرها من منتجاتها ومنتجات ماوراءها من بلاد أفريقية . وهكذا كانت السفن المصرية تجوب البحار المعروفة فى ذلك الوقت قبل أن

---

(١) كان يقدر للرحلة من السويس إلى باب المندب فى العهد الرمانى $37\frac{1}{2}$ يوماً .

(٢) كان من خدم أحد أبناء « خوفو » رجل من أهل « بنت » .

بجوبها الفينيقيون بقرون عديدة ، وقد بلغ نشاطهم البحرى فى عهد الدولة الحديثة أقصاه حتى أنهم ليعتبرون المعلمين الأول للفينيقيين فى ركوب البحار .

وإلى الجنوب من مصر تقع بلاد النوبة ثم بلاد السودان المؤدية إلى أواسط أفريقية الزاخرة بالمواد الأولية التى كانت تحتاجها الصناعة المصرية ، وكانت تجمع بين المصريين وسكان بلاد النوبة منذ أقدم العصور أقوى الصلات الجنسية والثقافية ، وكان كل تقدم تحرزه مصر فى عصور ماقبل التاريخ يجد سبيله إلى بلاد النوبة . ويبدو أن مصر فى عهد « زوسر » كان لها السيادة على الجزء الشمالى من النوبة ، وقد جاء فى نقوش « لوحة المجاعة » (لوحة سهيل) أن فيضان النيل تخلف سبعة أعوام متتالية ، فانتشر القحط فى البلاد وعمتها المجاعة ، فنصح « إمحوتب » للملك « زوسر » بتقديم القرابين للإله « خنوم » إله « إلفنتين » الذى كان المصريون يعتقدون أنه المشرف على فيضان النيل ، فأخذ النيل يرتفع بانتظام ، ولذلك وقف الملك على معبد « خنوم » جميع الأراضى الواقعة على ضفتى النيل بين جزيرة سهيل وجزيرة ضرار كما منح كهنة « خنوم » حق فرض ضريبة على صيد الأسماك والطيور وعلى العمل فى المحاجر وعلى سائر المنتجات الواردة من بلاد النوبة عن طريق « إلفنتين » . وعلى أية حال كانت قبائل النوبة السفلى تقر بسيادة مصر عليها وتبعث برجالها إلى مصر ليجندوا فى فرق الجيش المساعدة أو ليقوموا بأعمال العسس . وكانت تقوم فى « إلفنتين » سوق كبيرة يتبادل فيها النوبيون منتجات بلادهم وما وراءها من الأقطار مع المنتجات المصرية . وكان أهم مايعنى مصر من منتجات الجنوب العاج والأبنوس وجلود الحيوانات وخاصة النمور . وكانت لاتزال تنمو فى بلاد النوبة الأشجار الكبيرة ، ولذا كان النوبيون يوردون إلى مصر الأخشاب وخاصة خشب السنط لتبنى منها السفن .

ويدل على اهتمام ملوك مصر بهذه الأصقاع الجنوبية أن الملك « بيبى الأول » أقام على « إدفو » حاكما نشيطا ليراقب حدود النوبة ويبلغه أخبارها وأن ابنه الملك « مرن رع » كذلك ذهب بنفسه مرتين إلى « إلفنتين » حيث قدم إليه رؤساء قبائل النوبة ولاءهم ، كما أنه أرسل حاكم « إلفنتين » ومعه ابنه « حرخوف » إلى النوبة للكشف عن طريق صالح للقوافل . وقد قام « حرخوف » بعد ذلك بثلاث رحلات فى بلاد النوبة ، واتخذ فى كل رحلة منها طريقا مغايراً ، وكان يعود كل مرة بالمنتجات المختلفة ؛ وقد ذكر أنه عاد من الرحلة الأخيرة ومعه ثلثمائة حمار محملة بذخائر ثمينة . وفى « كرما » جنوب الشلال الثالث كشف عما يدل على أنها كانت مركزا مصريا هاما لتبادل المواد

الأفريقية الخام بالمصنوعات المصرية ، ولابد أنها كانت قاعدة اعتمد عليها حكام « إلفنتين » في رحلاتهم . ولا شك في أن المصريين كانوا يبادلون غيرهم بمصنوعاتهم المختلفة من الحلى وأدوات الزينة كالمرايا والعقود وغيرها من الأشياء التي كانت تعتبر نادرة وثمينة لدى سكان تلك الأقطار ، وبذلك كان المصريون أول من جاب أواسط أفريقية ورادوا مجاهلها ، وقد بلغ نفوذ مصر وسلطانها في هذه الأصقاع غايته في عهد الدولة الحديثة مما كان سببا في تحضير بلاد النوبة ونشر الحضارة المصرية في ربوعها .

وفي الغرب من مصر بضع واحات خصبة في صحراء ليبيا ، كان لمصر السيادة عليها منذ بداية الأسرات ، ولم يكن ذلك لخصوبة أرضها أو ازدهار زراعة الكروم فيها فحسب ، وإنما لأنها كانت قواعد ومحطات هامة لتجارة القوافل المتوغلة في قلب أفريقية . على أنه لم يكن لهذه التجارة ما كان لغيرها مع الأقطار الأخرى من شأن ؛ ومع ذلك فمن البلاد الهامة في مصر الوسطى والصعيد ما يدين لها بأهميته ومنها « البهنسا » و « أسيوط » و « طينة » و « إدفو » . وهكذا كان اهتمام المصريين منذ أقدم عصورهم بالحصول على المواد الأولية اللازمة لصناعاتهم السبب الأول في اتساع صلاتهم بغيرهم من الأمم ودعم العلاقات الاقتصادية والتجارية معها ، وقد أدى هذا إلى قيام طبقة الأدلاء والتراجمة ، فكانوا يصاحبون رؤساء البعثات إلى الخارج ، وكان « حرخوف » وغيره من حكام « إلفنتين » يفخرون بإشرافهم على الأدلاء .

الفنون

ازدهرت الفنون على اختلافها ازدهاراً كبيرا في عصر الدولة القديمة ، وبلغ ما أنشأه المصريون من عمائر وصور ونقوش وتماثيل غاية رفيعة سما فيها الفنانون إلى ذرى الفن العالية .

اختلاف الطرز الفنية :

إن الفنانين المصريين وإن كانوا قد التزموا قواعد الفن التي استقرت أصولها منذ بداية الأسرات ، وأخذوا أنفسهم بها حتى نهاية الحضارة الفرعونية ، إلا أنه كان لهم في كل عصر طراز فني متميز ، مستكمل الخصائص والصفات . فالطراز الفني في الدولة القديمة غيره في الدولة الوسطى أو الدولة الحديثة ؛ بل إنه لم يكن يلتزم حالة واحدة في كل من هذه العصور ، وإنما كان يختلف تبعاً لما يطرأ على المشاعر والتصورات من تغيير ، ويتأثر بما تتعرض له البلاد من قوة أو ضعف وما يصيبه بعض طبقات المجتمع من مكانة وثراء ؛ كما كان يختلف باختلاف الفنانين وازدياد أعدادهم ، وبشيوع المعتقدات ، ومدى الإقبال على منتجات الفنون .

التصوير والنقش :

لم يكن المصريون يفرقون كثيرا من ناحية الغرض بين التصوير وبين النقش ، إذ كانوا يعتقدون أنه يمكن للصورة المرسومة على ملاط من طين أو جص أن تحقق نفس ما يرجونه من النقش على الحجر أو الخشب . وكانت طريقة العمل فى التصوير وفى النقش تتماثل إلى حد كبير ، فقد كانو يبدأون فى كل منهما برسم الأشكال بتفاصيلها ، ثم ينتهون بتلوينها بالألوان المختلفة ؛ بيد أن النقش كان يتميز عن التصوير بمرحلة وسطى وهى حفر الأشكال المرسومة قبل تلوينها . ومع ذلك فقد كان المصريون يؤثرون المناظر المنقوشة فى الحجر أو الخشب على المناظر المصورة على اللبن لأن فيها تجسيما يقربها من الحقيقة ، ولأنها وهى فى الحجر أو الخشب أبقى على الزمن من صور ملونة على جدار من اللبن . ولهذا كله فإن ما حفظ من الصور يعد قليلا إزاء الكثرة المطلقة من النقوش المحفورة .

النقوش البارزة والغائرة :

النقوش المصرية نوعان : بارزة ، وغائرة . والبارزة هى ما أزيلت خلفيتها بحيث تبرز أشكالها عن السطح الخلفى بنسب تختلف باختلاف الطراز الشائع لكل عصر ، ولو أنها فى العادة لا تعدو بضعة ملليمترات ، وهذا ما يفرق بينها وبين النقوش الإغريقية التى تبرز بقوة حتى تبدو أشكالها وكأنها أشكال مجسمة تماما . أما النقوش الغائرة فكان يكتفى فيها بحفر المسطحات الداخلية للأشكال ونحت تفاصيلها فيها .

النحت :

لم يكن الغرض من التماثيل المصرية يختلف عن الغرض من الصور والنقوش مما دعا إلى تشابههما معا فى القواعد وفى أغلب الأوضاع . ومع أن التماثيل بشكلها المجسم التام كانت آثر لدى المصريين من الصورة المرسومة أو المنقوشة ، إلا أنهم لم يستغنوا بها عن تمثيل أصحابها على جدران المقابر تصويراً ونقشا ، ويرجع ذلك إلى تمسكهم بتقاليدهم القديمة ولأن التصوير والنقش يتيحان تمثيل الأعمال المختلفة فى إفاضة وفى وضوح وجلاء .

وكان الفنان المصرى القديم يحرص على أن تكون صوره وتماثيله أقرب ماتكون للحياة الحقيقية حتى يمكن أن تحقق ما كان يعقده عليها أصحابها من أغراض . وكان

من وسائله إلى ذلك ترصيع عيون التماثيل والصور المنقوشة[١] ، وقد بدأ هذا فى وقت مبكر ، ثم قطع فيه شوطا بعيدا فى عصر الدولة القديمة حتى إنه بلغ من دقة العيون الصناعية أنها تضفى على التمثال حيوية بالغة . وكان بياض العين يصنع من حجر المرو الأبيض أو من المرمر المصرى ، والقرنية من حجر البللور الشفاف ، وفى وسط مؤخرتها كانت تحفر بؤرة صغيرة تملأ بمادة سوداء لتمثيل إنسان العين . وإلى جانب ترصيع العين كان الفنان يعنى كذلك بتلوين الصدر والتماثيل حسب الألوان الطبيعية ، كما كان يحرص فى بعض الأحيان على أن تكون الملامح صادقة بقدر الإمكان .

وتتميز فنون الدولة القديمة بصفة عامة بفخامتها وبما تفيض به من فتوة وقوة شباب ، وبشدة ترتيبها وتنظيمها ، كما تتميز فى الوقت نفسه بما تنطق عنه من سماحة وبساطة تغنيانها عن كل زخرف وزينة . ومع هذه الصفات العامة كان لكل أسرة تقريبا طرازها الفنى الذى يميزها عن غيرها .

فنون الأسرة الثالثة :

تتميز فنون الأسرة الثالثة برشاقتها وإيثارها الزخرف القليل . ويتجلى ذلك فى مبانى « زوسر » (شكل ٣٨) ذات الخطوط المتكسرة التى تبدو فى الهرم المدرج نفسه وفى السور الخارجى الكبير ، كما تتجلى فيما أقامه البناء من الأساطين القناة[٢] والأساطين التى شكلت بهيئة حزمة الغاب (شكل ٤٦) . وفى تمثال « زوسر » (فى المتحف المصرى) وصوره المنقوشة دقة ورشاقة ، كما أن العلامات الهيروغليفية المنقوشة تتميز بدقتها وأناقتها حتى لا تكاد تبرز عن الخلفية إلا قليلا . وتضارع نقوش « حسى رع » من الخشب من عهد هذه الأسرة (فى المتحف المصرى) فى أناقتها ودقتها نقوش « زوسر » أو تفوقها لطراوة الخشب (شكل ٤٧) . وتمثله صوره معصوب الجسد ، ممشوق القوام ؛ وقد أجاد الفنان فى براعة فائقة تمثيل عضلات الوجه وبعض التفاصيل كالغضون المحيطة بالفم وعظام الترقوتين . وهكذا تنم فنون الأسرة الثالثة من عمارة ونقش ونحت عن روح فنية واحدة ذات طراز فنى موحد بلغ غاية كماله .

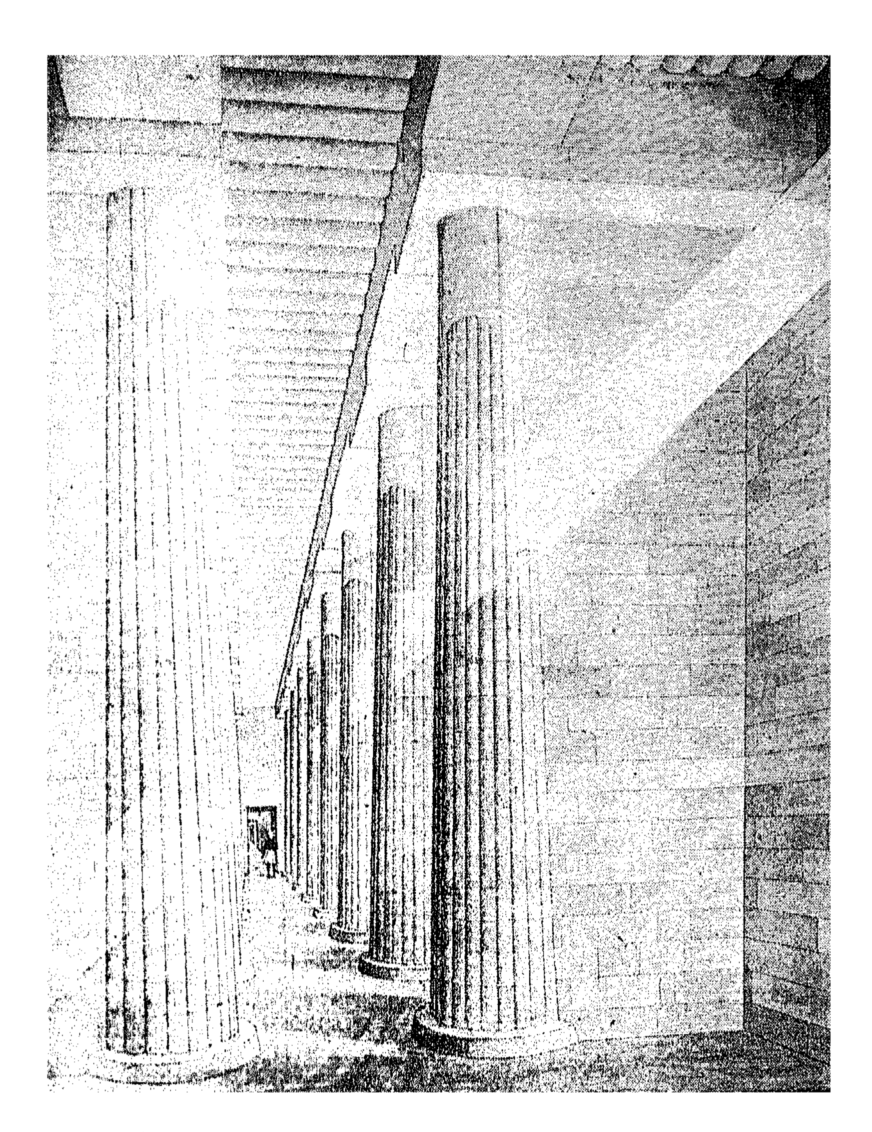
طراز الأسرة الرابعة :

وللأسرة الرابعة طرازها المتميز ، غير أن هذا الطراز يختلف فى عهد « سنفرو » عنه فى عهد « خوفو » و « خفرع » . ومن تماثيل عهد « سنفرو » تمثالا « رع حتب »

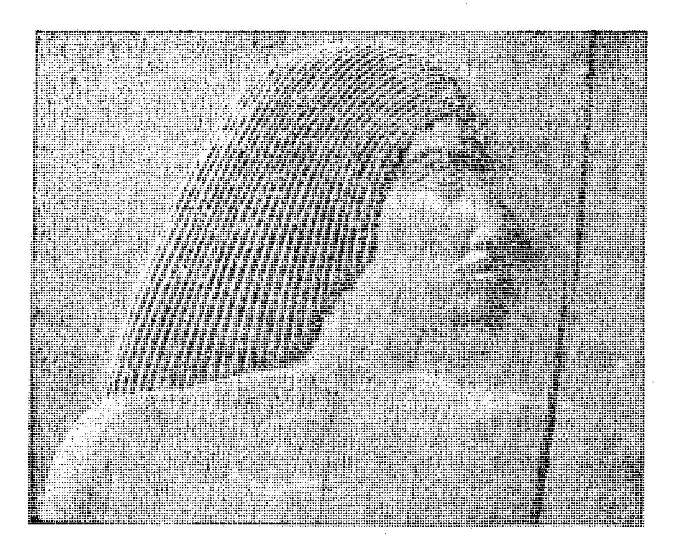
---

(١) كانت العيون فى بعض الصور المنقوشة فى معبد الملك « ساحورع » مرصعة ، ولكنها ضاعت للأسف ، ولا بد أنها كانت لا تقل فى جودة صناعتها عما حفظ من العيون المرصعة للتماثيل .

(٢) الأسطون هو عمود مدور ، والأساطين القناة تحليها من أسفل إلى أعلى قنوات صغيرة .



(شكل ٤٦)
بهو المدخل فى مبانى « زوسر » فى سقارة



(شكل ٤٧)
« حسى رع »

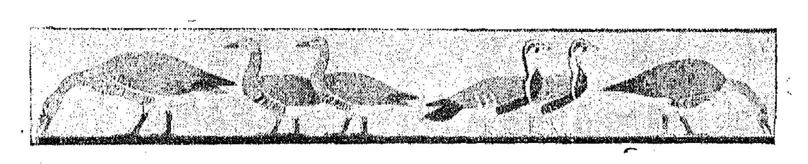
وزوجته « نفرت » (شكل ٤٨) ، وهما يعتبران من أبدع ما خلفته الدولة القديمة فى فن النحت . ويكاد وجه تمثال « رع حتب » يشف عما وراءه من عظام ، وفيه من الحيوية والنشاط ما يشهد بما كان لصانعه من قدرة فنية ممتازة . وفى وجه الزوجة هدوء وصباحة وجمال ؛ وهى ترتدى دثارا طويلا ينم عن تفاصيل جسمها الرشيق ، وتحلى صدرها بقلادة عريضة ذات ألوان مختلفة ؛ وعلى رأسها إكليل جميل . وزاد من حيوية التمثالين ترصيع العيون فيهما وبقاء ألوانهما حتى الآن .

وقد حلى « رع حتب » وغيره من الأمراء جدران مقصوراتهم[1] بالمناظر المختلفة من الحياة اليومية ، منها ما يمثل صيد الطيور والأسماك والحيوانات ، ومنها ما يمثل حرث الأرض ، وصناعة السفن . وهذه المناظر هى أقدم ما حفظ من مناظر الحياة اليومية ، وتدل على ثقة الفنان بقدرته ، ودقته فى تمثيل التفاصيل ، ومهارته فى استخدام الألوان . ومن أجمل الأمثلة المصورة منظر « أوز ميدوم » (شكل ٤٩) ، وهو جزء من منظر صيد طيور مصور على جدار من اللبن ، ويمثل مجموعتين من الأوز أتقن الفنان تصوير أشكالها كما برع فى تمثيل ألوانها فى دقة وصدق .

ومنذ عهد « خوفو » انتقلت الجبانة الملكية إلى الهضبة المطلة على الجيزة ، وبذلك

(١) المقصورة هى غرفة القربان ، التى كانت تقدم فيها القرابين للمتوفى وتتلى له فيها الأدعية .

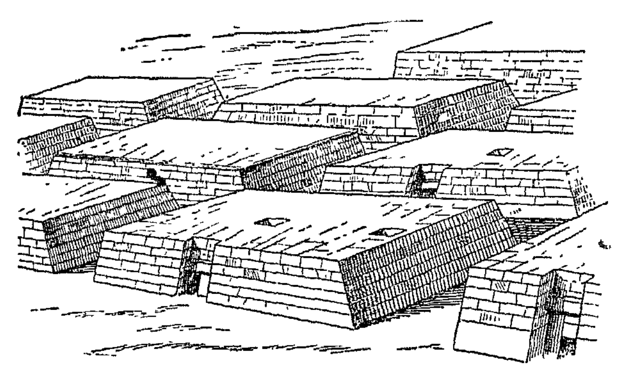
(شكل ٤٨)
« رع حتب » و « نفرت » فى المتحف المصرى



(شكل ٤٩)
« أوز ميدوم » ، فى المتحف المصرى

غدت الجيزة مقر الفن الراقى . ولم تلبث الفنون المصرية فى عهد هـذا الملك أن اتخذت طرازا فنيا يختلف عن طراز الأسرة الثالثة ولا تجمعه به على الأقل صـلة ظاهرة . فتحيط بهرم « خوفو » مساطب الأمراء وعظماء رجال الدولة فى صفوف منتظمة موازية لخطوط قاعدة الهرم (شكل ٥٠) . وهى بذلك تزيد فى إبراز المقبرة الملـكية ، إذ تتحد خطوط الهضبة الأفقيـة مع خطوط المساطب وتتلاقى معا فى مقبرة الملك فى الوسط ، ومنها تتسامى مع خطوط الهرم إلى أجواز الفضاء ، بما يسمو بالمقبرة الملـكية فوق كل تقدير .

وتتميز تماثيل ذلك العهد كذلك باستقامة الخطوط[١] وبساطتها ، وبما يتجلى فيها من قوة الخلق وشدة التـكوين ، وقد اقتصر المثال فيها على الخطوط الجوهرية دون الخطوط الثانوية ، فبرزت الخصائص الأساسية للوجه فى وضوح . ومن أشهر التماثيل

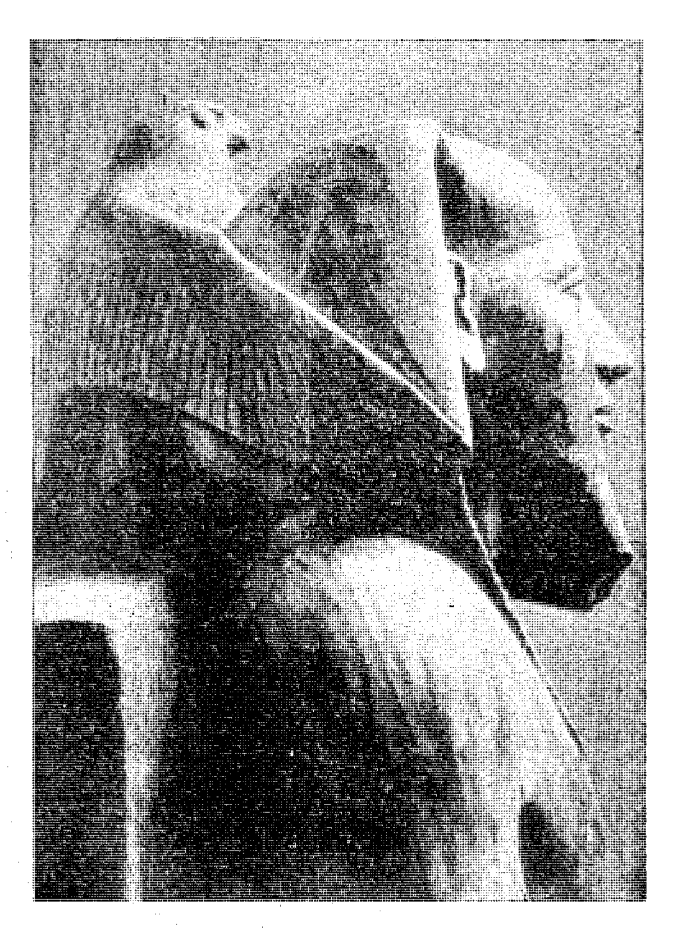


(شـكل ٥٠)
بعض المساطب فى جبانة الجيزة

الملـكية تمثال للملك « خفرع » من الديوريت (شـكل ٥١)[٢] ، وهو يمثله جالسا على عرشه ومن خلف رأسه حورس الصقر باسطا جناحيه يظله بحمايته . وفى ملامح وجه الملك ذكاء وجد وقوة وعظمة طبيعية متسامية ، تعبر من غير شك عما بلغته الملـكية إذ ذاك فى نفوس الشعب من قداسة وألوهية ، وعما كان للملوك الوطنيين من شخصيات قوية

(١) كانت تماثيل الملوك والأفراد حتى عهد « خوفو » تمثلهم وإحدى يديهم على الصدر (شـكل ٨) ، ولـكن منذ عهد « خفرع » استقرت اليدان على الركبتين فى التماثيل الجالسة وإلى الجانبين فى التماثيل الواقفة ، وبذلك استقامت خطوط التمثال .

(٢) كان لخفرع تماثيل كثيرة من الديوريت والشست والمرمر المصرى ولـكن أغلبها هشم فى العهد الإقطاعى .



(شكل ٥١)
« خفرع » من تمثال له فى المتحف المصرى

وهيبة غالبة . وقد استطاع المثال التعبير عن هذا كله فى بساطة ويسر ، وفى صفاء ووضوح مما يدل على أنه كان يملك ناصية عمله برغم شدة قساوة الديوريت وصعوبة نحته[1] ، وقد أجاد صقل سطوحه فى صبر وجلد بما يفوق ما تستطيعه الآلات والأدوات الحديثة .

وفى معبد الوادى للملك « خفرع » وما كان يحتويه من تماثيل (شكل ٥٢) تتجلى الروح الفنية فى عهد « خوفو » و « خفرع » أجلى ماتكون ؛ فهذا المعبد هو أروع مايعرف من طراز العمارة ذات الخطوط المستقيمة على وجه الإطلاق ، إذ استغنى بضخامة خطوطه ، وعظم أحجاره ، وجمال ألوانها ، وكمال صقلها عن أى زخرف أو نقش ،

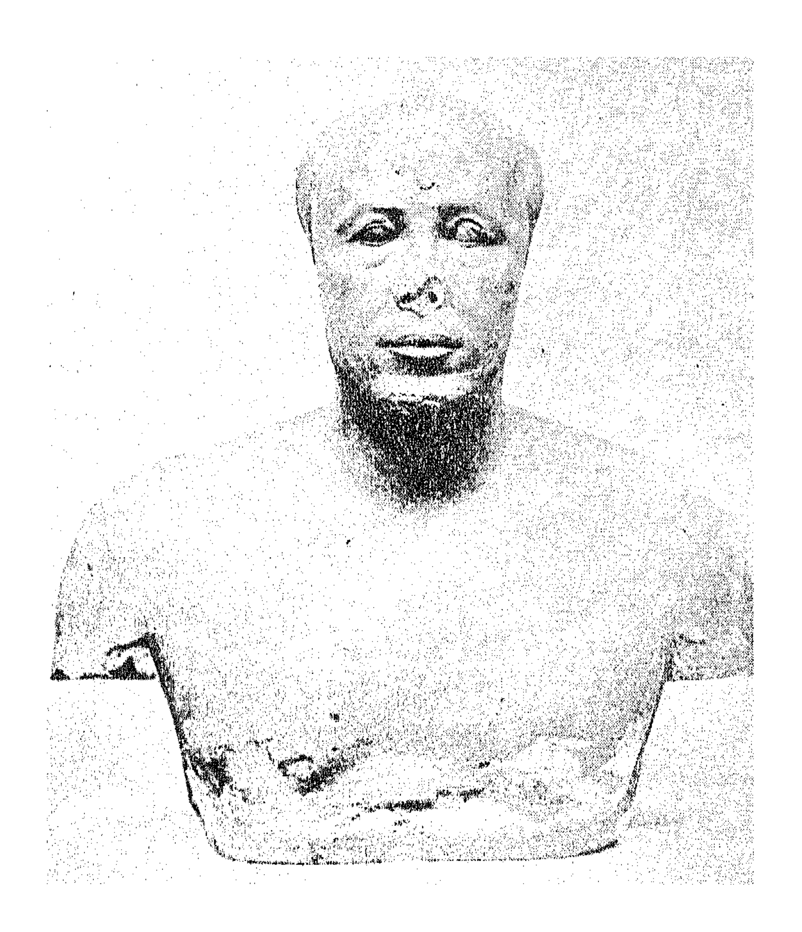
(١) على بساطة أدوات الفنان ، وكانت لا تزيد على منحت من نحاس بمقبض من خشب ثم مطرقة من خشب .

كما أن تماثيل الملك ، وكانت من أحجار مختلفة ، كانت تتميز هى الأخرى بخطوطها القوية البسيطة المستقيمة ، وبذلك كانت تنسجم مع محيطها المعمارى أجمل انسجام ، بحيث لو حلت محلها تماثيل من طراز فنى آخر ، كطراز تمثال الملك « زوسر » مثلا ، لانفرط عقد ذلك الانسجام ، وانبتت الوحدة الفنية التى تجمع بين المعبد وتماثيله . وقد كانت



(شكل ٥٢)

بهو معبد الوادى للملك « خفرع »



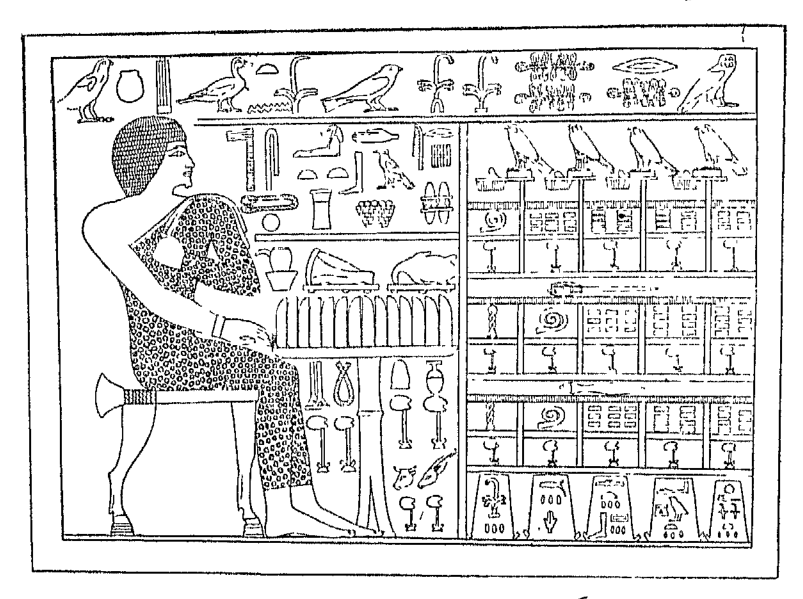
(شكل ٥٣)
« عنخ حا ف »

أشعة الشمس تتسرب إلى المعبد خلال فتحات صغيرة قريبة من السقف ، فتتلألأ على السطوح المصقولة للجدران والأعمدة ، ثم تنعكس أضواؤها على التماثيل ذات الألوان المختلفة ، مما كان له على وجه اليقين أروع الأثر فى النفس .

ومن أحسن تماثيل الأفراد فى ذلك العهد التمثال النصفى للأمير « عنخ حا إف » (شكل ٥٣)[١] ، الذى لا يكاد يضارعه تمثال آخر فى الدولة القديمة من حيث ما توحى به ملامحه من صدق التمثيل ؛ ففيما يشف عنه الوجه من عظام ، وفى شكل الحاجبين ، وكسرة الجفنين ، والجيب من أسفل كل عين ، والغضون حول الفم ، وصلابة الذقن ، ودقة تشكيل الشفتين ، وقوة الصدر والكتفين ما يشهد بقوة ملاحظة المثال وقدرته الفنية الممتازة .

(١) وهو الآن فى متحف « بوستن » فى الولايات المتحدة .

وقد اختفت من مقابر الأمراء والعظماء فى عهد « خوفو » مناظر الحياة اليومية ، وكان يكتفى بلوحة صغيرة تنقش عليها صورة المتوفى جالسا أمام مائدة القربان وإلى جانبها قائمة بسيطة بأنواع الكتان وبعض القرابين الأخرى (شكل ٥٤) . وتمتاز هذه النقوش بخطوطها القوية البسيطة . وقلة تفاصيلها ، وشدة تنظيمها وترتيبها ، حتى يمكن وصف طرازها بأنه طراز هندسى يتفق على أتم وجه مع طراز العمارة والنحت . وهكذا تتسق معا العمارة والتماثيل والنقوش فى عهدى « خوفو » و « خفرع » كما كانت فنون الأسرة الثالثة تتسق فيما بينها .



(شكل ٥٤) لوحة قربان من عهد « خوفو »

على أنه فى عهد « خفرع » بدأت مقابر أفراد الأسرة المالكة تعود إلى نقش بعض مناظر الحياة اليومية على جدرانها ؛ وفى عهد « منكاورع » أخذت هذه المناظر تكثر وتجد سبيلها كذلك إلى مقابر عظماء الأفراد من غير الأسرة المالكة . ومن هذه المناظر ما يصور الصناع يقومون بصناعات مختلفة ، منها صناعة التماثيل والأبواب الوهمية والتوابيت وقطع الأثاث والحلى والأوانى من المعدن ؛ ومنها كذلك ما يصور الراقصات والموسيقيين .

فنون الأسرة الخامسة :

بقيام الأسرة الخامسة عادت الجبانة الملكية مرة أخرى إلى صقارة وتبعتها فى ذلك مقابر كبار الموظفين حتى أواسط الأسرة السادسة . على أنه لم يكن يجمع مقابر العظماء والموظفين مع المقابر الملكية تخطيط معمارى موحد على نحو ما كان عليه الأمر فى

الأسرة الرابعة ، وإنما كانت كل أسرة تشيد مقابرها حيثما شاءت من نواحى سقارة ، فتناثرت بذلك المقابر فى مجموعات مختلفة .

وتختلف عمارة الأسرة الخامسة عن عمارة الأسرة الرابعة ، فمبانيها غير ضخمة ، ولكنها تتميز بما كان يقوم فيها من أساطين جرانيتية تحاكى النخيل (شكل ٨٣) أو البردى ، وبما كان يحلى جدران معابدها ومقابرها من مناظر مختلفة . وكان من نقوش المعابد الجنازية ما يمثل بعض مظاهر الطبيعة وخيراتها كالبحر والنيل والقمح ، وقد مثل إله البحر رجلا بخطوط متموجة على جسمه ، فى حين ملىء جسم إله القمح بالحبوب . ومن النقوش ما يمثل الملك وهو يؤدى بعض الاحتفالات والطقوس ؛ ومنها ما يمثله وهو يصيد الأسماك والطيور وحيوانات الصحراء . ومن المناظر ما يمثل كذلك صناعة الأوانى من الذهب والفضة ، ومراكب النقل تنقل الأساطين الجرانيتية وغيرها من أسوان ، والسفن البحرية وهى تبحر إلى فلسطين وسوريا ثم وهى تعود منهما . وفى معبد الشمس صورت مظاهر الطبيعة المختلفة تمجيدا لإله الشمس وتبيانا لآثاره فى الكون .

ولا تختلف نقوش مقابر الأفراد فى النصف الأول من الأسرة الخامسة ، من حيث موضوعاتها عن نقوش أواخر الأسرة الرابعة ؛ ولكن منذ النصف الثانى من الأسرة الخامسة ازدادت مناظر الأعمال الزراعية والصناعية ، ومناظر نقل الحيوانات والمؤن بالسفن ، ومناظر تفقد الأعمال فى الضياع ؛ كما أنه ظهرت لأول مرة حظائر تربية الطيور ومكاتب إدارة الضياع ، وليس من شك فى أن ذلك كله إنما يرجع إلى ازدياد ثراء كبار الموظفين وامتلاكهم الضياع الواسعة .

وتصور هذه النقوش المصريين فى أكثر نواحى نشاطهم ، وهى على ما تفيده فى دراسة أحوالهم وأحاسيسهم وتطور حياتهم بما لا مثيل له فى أى بلد آخر ، تعد كذلك متعة فنية يقصدها عشاق الفنون من كل قطر . ومن أهم المقابر ذات النقوش الجميلة مقبرتا « تى » و « بتاح حتب » فى صقارة ، إذ تمتاز نقوشهما بتنوع موضوعات الصور ، وحيوية المناظر ، وجمال الخطوط ، ووفرة التفاصيل وما تحتويه من أشكال متداخلة معقدة . وهى فى هذا كله تختلف عن نقوش الأسرة الرابعة التى تمتاز بما يتجلى فيها من هدوء وقوة وصرامة فى آن واحد . على أن أغلب نقوش الأسرة الخامسة لا ترقى إلى المستوى الفنى الرفيع لنقوش الأسرة الرابعة وإن كان ذلك يرجع فى بعض الحالات إلى أنها منقوشة فى حجر ردىء[1] .

وقد كان على الفنان أن يلتزم فى أغلب الأحيان الموضوعات التقليدية التى كانت

---

(1) لا تبلغ نقوش مقبرة « تى » نفسها دقة نقوش الأسرة الرابعة وإن كانت تأسر الناظر بحيويتها وتنوع مناظرها وأناقة خطوطها .

تقضى بها العقائد والعادات ، ولذلك تتشابه المناظر المتماثلة كثيرا ، ولكنها مع ذلك تختلف فى تفاصيلها اختلافا غير يسير حتى إنه يمكن أن يقال إنه بالرغم من تشابه المناظر فى مجموعها فى المقابر المختلفة تشابها كبيرا ، فليس منها منظر واحد يشبه فى تفاصيله ودقائقه مثيله فى مقبرة أخرى . وكان الفنان المصرى يمثل التفاصيل فى حيوية واضحة ناطقة ، تدل على أنه إنما كان يستوحيها من قوة ملاحظته وفيض أحاسيسه بما يسمو بأعماله إلى مرتبة فنية عالية .



(شكل ٥٥)
« شيخ البلد » فى المتحف المصرى

ومما حفظ من تماثيل ملوك الأسرة الخامسة رأس ضخم من الجرانيت للملك « أوسركاف » ، أول ملوك هذه الأسرة ، وهى بما تنم عنه قسمات الوجه من عظمة هادئة فى خطوط بسيطة ، إنما تنتمى إلى فن الأسرة الرابعة . على أن ما حفظ من تماثيل بقية ملوك الأسرة الخامسة قليل ، وأغلبه صغير الحجم ومن صناعة رديئة .

وبينما قلت تماثيل الملوك إزداد عدد تماثيل الأفراد ، حتى إن من الأفراد من كان له فى مقبرته أكثر من مائة سرداب خصصها لتماثيله ، ينطق ذلك بما كان من ارتفاع شأن هؤلاء الأفراد ومنافستهم للملكية فى بعض ما كان لها من امتيازات وخصائص . وقد ساعد على تلبية حاجاتهم من التماثيل كثرة من تعلم من الفنانين فى مصانع النحت الملكية ومن تتلمذ عليهم . وتمتاز تماثيل الأفراد فى النصف الأول من الأسرة الخامسة ببراعة صناعتها وما توحى به ملامحها من صدق وقوة ملاحظة الفنان . ومن أجل الأمثلة المشهورة تمثال « شيخ البلد » فى متحف القاهرة (شكل ٥٥)[١] ، وهو

(١) سماه العمال المصريون الذين كشفوا عنه بهذا الإسم لحيويته ومشابهته لشيخ بلدهم إذ ذاك .

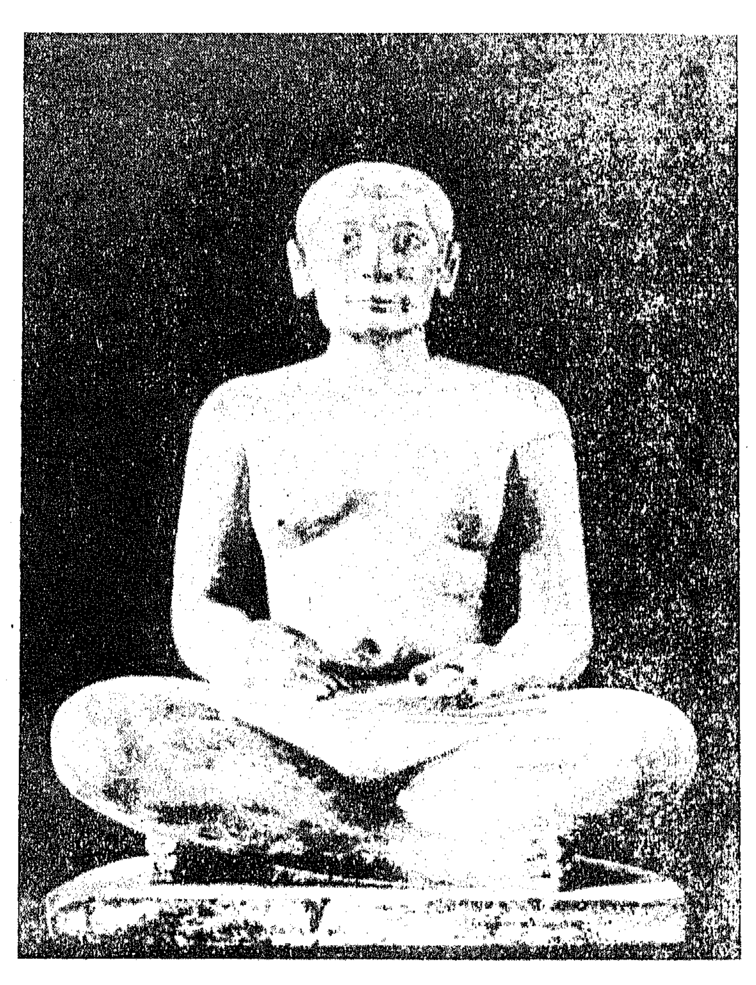




(شكل ٥٦) رأسا تمثالى « رع نفر » فى المتحف المصرى

بوجهه الفخم ، وخديه الممتلئين ، وعنقه القوى ، وجسمه البدين ، يوحى بصدق تمثيله لصاحبه إلى حد كبير ، كما يوحى بذلك أيضا رأسا تمثالى « رع نفر » فى متحف القاهرة (شكل ٥٦) . ويشهد كذلك تمثال الكاتب المحفوظ فى متحف اللوفر (شكل ٥٧) بوجهه المسنون ، وما تنطق عنه عيناه من ذكاء بقوة ملاحظة المثال وبراعته .

ومنذ النصف الثانى من الأسرة الخامسة كثر إقبال الأفراد على إقامة التماثيل فى مقابرهم ، وصاحب ذلك ظهور عدد كبير من المثالين ذوى القدرة الفنية المحدودة ،



(شكل ٥٧)

تمثال الكاتب ، فى متحف اللوفر

وكان ذلك على حساب الممتازين منهم ، فكثرت التماثيل الرديئة أو المتوسطة [١] . ومع ذلك فقد بقى من تماثيل ذلك العهد عدد قليل يدل على أن من المثالين من كانوا لا يزالون على قدرة فنية كبيرة ؛ ومن ذلك تمثال القزم « خنوم حتب » (شكل ٥٨) ، إذ فيه من الصفات والخصائص ما يدل على صدق المثال وكفاءته ويرقى بالتمثال لأن يكون من القطع الفريدة فى فن النحت .



(شكل ٥٨)
القزم « خنوم حتب » ، فى المتحف المصرى

تماثيل ونقوش الأسرة السادسة :

من أشهر تماثيل ملوك الأسرة السادسة تمثالا « ببى الأول » وابنه « مرنرع » المحفوظين فى المتحف المصرى ، وهما من النحاس المطروق على قالب من الخشب فيما يرجح [٢] . وتمثال « ببى » يمثله فى حجم أكبر قليلا من الحجم الطبيعى ، ويدل على مهارة صناعية كبيرة . على أن أهم ما ينسب للأسرة السادسة من قطع فنية ممتازة هو رأس صقر (شكل ٥٩) ، صنعت من قطعة واحدة من الذهب ، والعينان من قضيب من الزجاج الطبيعى (الأبسديان) ذى طرفان مصقولان . وقد وفق الصانع فى تمثيل عظمة ذلك الطائر

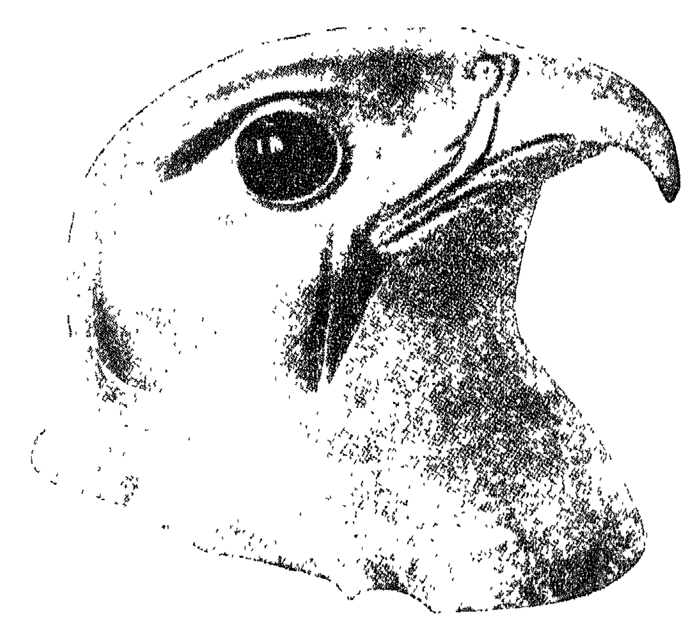
---

(١) فى تمثال « تى » فى المتحف المصرى ما يدل بوضوح على انحطاط القدرة الفنية عما كانت عليه فى النصف الأول للأسرة الخامسة .

(٢) صنع المصريون التماثيل من النحاس منذ بداية الأسرات على الأقل .

الجارح فى خطوط بسيطة وتفاصيل قليلة كشفت فى براعة فائقة عما للذهب من جمال ورونق .

وآخر ما بقى من نقوش جميلة من عهد الدولة القديمة هى نقوش « بيبى الثانى » فى معبده الجنازى بجنوب صقارة ، وهى تكاد توحى بأنه استطاع أن يجمع لخدمته أحسن الفنانين ، وأنه كان له من الشخصية والقدرة ما ألهب مشاعرهم وشجعهم على الإجادة .



(شكل ٥٩)
رأس صقر ، فى المتحف المصرى .

أما نقوش مقابر الأفراد فقد انحطت من الناحية الفنية عما كانت عليه من قبل ، ومع ذلك ظهرت فيها موضوعات جديدة ، منها ما يمثل حصار مدينة للأعداء ، ومنها ما يمثل عمليات جراحية بسيطة كعملية الختان . ومن أمتع المناظر مناظر الرقص التى غدت أكثر تحررا وحيوية عما كانت عليه ، والتى تمثل الراقصات يثنين رءوسهن كثيرا إلى الخلف ويدفعن أقدامهن فى الفضاء (شكل ٣٦) .

الفصل الخامس

العصر الاقطاعى

قدر للملك « بيبى الثانى » أن يتبوأ عرش مصر أطول مدة حكمها ملك في التاريخ ، فقد حكم نحو ٩٤ عاما . وكان لطول شيخوخته أثر حاسم فى ضعف الحكومة المركزية وانحسار نفوذها ، حتى إن خلفاءه من الملوك لم يكن سلطانهم فيما يبدو يتجاوز العاصمة وما جاورها مباشرة . وقد زاد ذلك من نفوذ حكام الأقاليم فأخذوا يجندون الجند للاعتماد عليهم فى الدفاع عن أقاليمهم ، وراحوا يسندون لأنفسهم رئاسة كهنة معبوداتهم المحلية ، ويشيدون لها المعابد بأسمائهم ، ويدعون بنوتهم لها ، وغدوا يؤرخون الحوادث وفقا لسنى حكمهم ويضيفون إلى أسمائهم الدعوات التى كانت تضاف دائما إلى أسماء الملوك ، كما أصبحت الأيمان تعقد بأسمائهم ، وقد كان ذلك كله من حق الملك وحده لا يشاركه فيه أحد . ولم يقتصر الأمر عند ذلك الحد ، بل لقد أباحوا لأنفسهم اتخاذ ما كان قاصرا على الملوك من العقائد الجنازية ، وبذلك أصبح لهم من السلطان ما لم يقل كثيراً عما كان للملوك . ولم تلبث هذه العقائد أن شاعت ووجدت سبيلها كذلك إلى أفراد الشعب ، فأصبح الميت منهم يرجو أن يصاحب إله الشمس فى رحلته فى السماء وأن يكون كاتبا له أو أن يتخذ شكل بعض الآلهة ومنها « رع أتوم » نفسه .

وقد فقدت مصر فى ذلك العهد وحدتها ، فاستقل بحكم الأقاليم السبعة الجنوبية ملوك من قفط ثم حكام طيبة ، على حين قام حكام أهناسيا بالقضاء على الأسرة الثامنة فى منف وتأسيس الأسرتين التاسعة والعاشرة ، وقد بسطوا نفوذهم على مصر الوسطى وعلى الدلتا بعد أن طردوا الأسيويين منها .

وكان من حكام الأقاليم من أدى من غير شك خدمات جليلة لإقليمه بتعمير أماكنه الخربة ورعاية سكانه ، إلا أن فيما يشيد به أحد حكام أسيوط من أن « كل موظف كان فى عمله وأن أحدا لم يقتتل . ولم يرم عن قوسه ، وأن الأطفال لم يقتلوا بجانب أمهاتهم ولا الفلاحين بجانب زوجاتهم » ما يشير إلى أن ما يذكره بالذات إما أن يكون قد حدث فى إقليمه قبل عهده ، أو فى غيره من الأقاليم بسبب ضعف الحكومة المركزية والخلافات الداخلية . ولو لم يكن ذلك قد شاع فعلا لما اضطر أحد ملوك قفط إلى

إصدار مرسوم يهدد فيه كل من يجرؤ على تحطيم التماثيل وموائد القربان ومقاصير المقابر وإتلاف النقوش أو أى أثر آخر من أى نوع كان بحرمانه من إرث آبائه وعدم دفنه بين الأبرار . وفوق ذلك تدل آثار ذلك العصر على أن حرمة معابد الآلهة قد انتهكت ، وأن مقابر عظماء الملوك قد نهبت ، وأن تماثيلهم هشمت ، كما اعتدى على مقابر عظماء الأفراد ، ودمرت توابيتهم وأبوابهم الوهمية ، واستخدمت أحجارها فى بناء المقابر المعاصرة .

الأدب

وقد ترك ذلك الاضطراب آثارا قوية فى أفكار المصريين وعقائدهم ، ينطق بها ما ينسب لذلك العصر من آثار أدبية ودينية ، ترسم فى صورة حزينة ما ساد البلاد من فوضى ، وتصف فى عبارات قوية ما أصاب المجتمع من نكبات ، حتى إنها لتعد أروع ما خلفته مصر من أدب . وهى تتميز بأنها لا تمت للأساطير والأناشيد الدينية بصلة ما ، وإنما هى وليدة العصر الذى ظهرت فيه ، تنبض بأحداثه ، وتنطق عن أحاسيسه وتصوراته ، وتحمل طابعه فى وضوح .

نصائح إيبوور :

وعلى رأس هذه الآثار الأدبية الممتازة « نصائح إيبوور » ، يصف فيها أحوال البلاد لملك عجوز يعيش فى قصره ، مطمئنا إلى ما يسمعه من رجال حاشيته من أكاذيب ، ويغلب على الظن أنه الملك « بيبى الثانى » . وقد صور « إيبوور » البلاد يسودها الاضطراب لعدة سنوات فضاعت هيبة ملك الجنوب والشمال ، وخوت خزينة البلاد من مواردها ، ونهبت مخازن الغلال ، وقتل حراسها ، ودمرت العاصمة فى ساعة من زمن ، وخربت المدن ، وانتشر المجرمون فى أنحاء البلاد . وتدافع حراس البيوت إلى السرقة ، وتربص اللصوص بليل لمن يسير فى الطرقات ، يغتصبون ما يحمل بعد أن يوسعوه ضربا حتى يموت بغير ذنب . وقد أصبح الفلاح يذهب إلى حقله شاكى السلاح ، وانتشر الأجانب فى البلاد ، وضاعت حرمة المحاكم ، وانتزعت وثائقها ، ومزقت القوانين ثم ديس عليها بالأقدام فى الشوارع والأزقة ، وانتهكت المبانى الحكومية ، وأتلفت وثائقها ، وطورد الموظفون فى البلاد ، وأصبحوا كالقطيع المروع بغير راع ، ولم يعد الموظف يشغل الوظيفة التى تناسبه . وتعطلت التجارة ، وأصبح

الأب يرى فى ابنه عدوا ، والأخ يقتل أخاه ، ونهبت مقابر الملوك ، وأصبحت توابيتها خاوية ، وأخرج الموتى من قبورهم ، وألقى بجثثهم فى الصحراء . ثم يهيب « إيبوور » بالملك : « لك الأمر وعندك الإدراك والعدل ، ولكنك تترك الفوضى وضوضاء العراك يسودان البلاد ، إن كل إنسان يطعن الآخر .. إنه اذا سار ثلاثة رجال فى طريق لم يبق منهم سوى اثنين ، إن الأكثرين يقتلون الأقلين ، فهل هناك راع يحب الفناء ؟ ! » .

شكاوى الفلاح الفصيح :

ومن القطع الفنية كذلك « شكاوى الفلاح الفصيح » ، وهو رجل من وادى النطرون حمل حميره بشتى السلع لبيعها فى العاصمة ، ولكن أحد الأتباع اغتصب أحد حميره وما يحمل بدعوى أنه أكل من الحقل أعوادا من القمح . فشكاه إلى سيده فوجد السيد فى حديث هذا الفلاح من بلاغة اللفظ وفصاحة التعبير ما دعاه إلى أن يبلغ أمره إلى الملك ؛ فطلب إليه الملك ألا يبت فى شكواه استزادة من فصاحته ، على أن تسجل شكاواه وترفع إليه . وظل الرجل يشكو مرة بعد مرة حتى بلغت شكاواه تسعاً . ومع أن المقصود من تلك القطعة الأدبية إنما هو أسلوبها بما يتضمنه من تعبيرات بليغة وتشبيهات طريفة تتخللها الأمثلة والاستشهادات ، إلا أن أسلوبها يجب ألا يلهى عما تصوره من مساوىء اجتماعية ، فهى تشير إلى ضعف الملك ، وإهمال الموظفين واجباتهم ، واضطراب الأمن فى الطرق ، وانتشار السرقات ، وتفشى الغش والخداع ، وانحراف القضاء عن واجبه المقدس . وهى تبين أنه لا علاج للمساوىء الشائعة ، إلا إذا حلت كلمة القانون محل الفوضى ، واستقر العدل فى نصابه ، بحيث تمتنع رشوة القضاء ، ويؤدى الموظفون أعمالهم بالأمانة .

تعاليم لمرى كارع :

وتدل « التعاليم الموجهة إلى مرى كارع » أكثر من غيرها على ما طرأ على الملكية من تغير ، فلم يعد الملك إلها تفصله عن الشعب هوة سحيقة ، وإنما غدا إنسانا يعترف بخطئه ، ويقر بمسئوليته أمام الآلهة ، ويرى أن الغرض من حياته هو سعادة شعبه[١] . وهو ينصح ولى عهده بأن يكون لبقا فى الحديث لأن قوة الرجل فى لسانه ، ثم يحذره

(١) سواء أكانت هذه التعاليم الأدبية قد وضعت على لسان ملك (خيتى الثالث) أم كانت وصية ملك لابنه وفق ما يمكن أن يدل عليه طابعها الشخصى ، فليس من شك فى أنها تصوير جديد لواجبات الملكية أيا كان مصدرها .

من الغضب ، ويوصيه بأن يخلد ذكراه بحب الناس له ، وألا يعاقب أحدا بظلم لأن قضاة محكمة الحساب لا يرحمون فى ذلك اليوم الذى يحاكمون فيه الظالمين ؛ وما ينبغى أن يغتر ظالم باستطالة عمره ، فإنهم ينظرون فيما اقترف فى حياته مهما طالت وكأنها ساعة من زمان . ويذكره بأن الإنسان يبقى بعد الموت وأن أعماله تتبعه ، وأن من يصل إلى الأبدية بغير ذنب يغدو كأنه إله ويخطو بحرية كآلهة الأبدية . ويوصيه بألا يحابى ابن شريف على حساب رجل عادى ، ولكن عليه أن ينظر إلى الرجل من حيث أعماله وحدها ؛ ثم يذكر أن جنده قد خربوا آثار طينة ، المدينة المقدسة ، وأنه لقى جزاءه على ذلك . وأخيرا يذكره بأن « البشر إنما هم قطيع الإله ، الذى أنشأ السماء والأرض كما يشتهون . . . وأنهم صور منه ، نشأوا من أعضائه . . . وأنه خلق النبات والحيوان والطير والأسماك ليطعمهم .. وخلق النور وفق ما يشتهون ... وأقام لهم الحاكم الشرعى سندا يعتمد عليه ظهر الضعيف » .

حديث الملول مع روحه :

ويصور كذلك مفاسد المجتمع حديث رجل ملّ الحياة ، يحاول إغراء روحه بالبقاء إلى جانبه إذا انتحر باحراق نفسه تخلصا مما وجد فى حياته من نكبات ؛ ولكن روحه تأبى ذلك وتذكره بأن الموت هم ، يثير الدمع ، ويورث الحزن ؛ ثم تظل تشككه فى العقائد القديمة ، فهو لن يخرج من قبره لرؤية الشمس ، وهاهم أولئك الذين شيدوا مقابرهم من الجرانيت ، موائد قرابينهم كالحة ؛ ثم تدعوه أن ينعم باليوم البهيج ، وينسى همومه . ولكنه لايزال يستعرض المساوىء الفاشية ، ومنها فساد الاخوان ، وشراهة الناس ، وانتشار الآثام ، على حين تظل تبغضه فى الموت وتكرهه فيه . وهكذا يدور الحديث بين الرجل وروحه فى حوار فلسفى لا يخلو من تفكير ومعرفة بأحوال النفس الإنسانية حتى تقتنع وترضى بصاحبته .

أغنية العازف على الجنك :

ومن الأغانى التى كانت تغنى فى الحفلات الجنازية أغنية تدعو إلى التشكك فى العقائد الدينية القديمة وتحث على الاستمتاع بلذائذ الحياة ، وقد جاء فيها :

« تفنى الأجساد ويبقى ما عداها منذ أزمنة الأجداد . . . لقد سمعت كلمات إمحوتب وحوردداف ، اللذين يتحدث الناس بأقوالهما فى كل مكان — أين هما الآن؟ لقد تهدمت جدرانهما ، ولا أثر لمكانهما بعد ، كأنهما لم يوجدا أبدا ؛ ابتهج واتبع رغائبك ما دمت حيا . . . ولا تعذب قلبك . . . احتفل باليوم السعيد فى غير كلل . . . إن أحدا لا يأخذ معه متاعه ، ولا أحد يعود بعد رحيله » .

وتنطق هذه الآثار باضطراب المجتمع وشيوع الفوضى فيه ، وانهيار القيم التى كانت تعتمد عليها الحياة فى الدولة القديمة ؛ ويجمع بينها جميعا الحزن والأسى على ما تردت فيه البلاد ، ولكنها تختلف فيما يصف كل منها من علاج ؛ فمنها ما يبلغ التشاؤم بصاحبه أن يبتغى الخلاص من مآسى الحياة ، ومنها ما يتشكك صاحبه فى القيم الخلقية وفى الحياة الثانية فيؤثر العاجلة على الآخرة . وكلا الرجلين لا تستقيم لهما الحياة الفاضلة الرشيدة ؛ فأحدهما جازع آبق ، والآخر جاحد نهاز .

على أن من القطع الأدبية ما يكشف عمن محصت النكبات من نفوسهم فزادتهم إيمانا بالآخرة والفضائل والأعمال الصالحة فى الدنيا ، فرأوا فيها أساسا جديدا للحياة بدلا من الأساس الذى اعتمدت عليه الحياة فى الدولة القديمة . لقد كان ملوك الدولة القديمة يعتمدون فى حياتهم على الأرض على ما كان لهم من قداسة وألوهية ، وعلى ما امتازت به عهودهم من استقرار ونظام ، ويرتكنون فى الحياة الثانية على حقهم كآلهة ، وعلى أهراماتهم التى تحدوا بها الزمن والفناء معا . وكان عظماء الدولة القديمة يعتمدون فى حياتهم على ما أدوه من خدمات الملكية ، وما كان يجمعهم بها من صلات ، وكانوا يبتغون الخلود فى الآخرة بمقابرهم الفخمة وما وقف عليها من أملاك ، وعلى ما أصابوا من توفيق فى خدمة مليكهم ، وما أحرزوا من رضاه عنهم . ولكن الملكية قد هبطت من عليائها ، ولم تستطع الأهرامات الشاهقة أن تحقق شيئا من خلود أو تقى جثث أصحابها ، وبذلك انهارت أسس الحياة فى الدنيا والآخرة ، ولم يكن بد من أساس آخر يمكن أن تنشأ عليه حياة جديدة صالحة . وقد نادى بهذا الأساس الجديد ذوو البصيرة الذين تطهرت نفوسهم من المساوىء الفاشية ، واستعلوا بها على ما غلب على المجتمع من فساد ، فنادوا بالعدالة والنظام ، وبشروا بأن الخلود فى الآخرة لا يعتمد على وجاهة أو ثراء ، وإنما سبيله العمل الصالح ، وتحاشى الذنوب والآثام ، « ففضيلة من يؤثر الحق أحب إلى الله من الثور الذى يقدمه المذنب قربانا » . وفى اعتراف أحد ملوك ذلك العصر بخطئه ، وادراكه إدراكا واضحا أنه مسئول عن شعبه ، وأنه الراعى الذى ينبغى أن يعنى بجميع أفراد رعيته ، وإقراره بالمساواة بين الأفراد فى الحقوق ، إذ ما ينبغى أن يميز الرجال بأحسابهم وإنما يميزون بأعمالهم ، فى هذا كله ما يدل على أن الدعوة الجديدة التى نادى بها المصلحون والحكماء ، قد وجدت صداها فى قلوب بعض الملوك . ولم يقف الأمر عند ذلك الحد وإنما وجدت تلك الدعوة صداها كذلك فى النصوص الدينية ، فقد جاء على لسان الإله الخالق . « صنعت أربعة أعمال جليلة على سطح الأرض ، فقد خلقت الرياح الأربع ليتنفس منها

كل شخص أسوة برفيقه ، وهذا هو الصنيع الأول ؛ وخلقت الفيضان العظيم ليكون للفقير من الحقوق ما للغنى ، وهذا هو الصنيع الثانى ؛ وجعلت كل شخص على شاكلة رفيقه ، ولم آمر الناس أن يعملوا السوء ، ولكن قلوبهم تجاوزت ما قلت ، وهذا هو الصنيع الثالث ؛ وجعلت قلوبهم تنسى الغرب [١] حتى يقدموا القرابين المقدسة لآلهة الأقاليم ، وهذا هو الصنيع الرابع » .

وهكذا دعا المصلحون للفضيلة والعمل الصالح لتكون أساس الحياة الجديدة ، واعترفت الملكية بمسئوليتها عن رعاية الشعب وبما عليها من واجبات نحو أفراده ، وأقر الإله حقوق الإنسان ، وسوى بين الافراد جميعا ، ولم تبرز فى هذا كله حقوق الحاكم ، وإنما برزت حقوق الشعب المحكوم [٢]

---

(١) كان الغرب مقر الموتى عند المصريين ، أنظر صفحة ٩٥ — ٩٦ .

(٢) ما ينبغى أن يتخذ هذا حجة على أن الشعب كان مضطهدا فى الدولة القديمة ، فلقد كان يعمل فى عقيدة ، ويتفانى عن يقين ، فلما افتقد الثقة فى أولى الأمر ، وأعوزه الإيمان بهم ، لم تعد لهم فى نفسه قداسة ، وبذلك انهار الأساس الذى كان يسند سلطانهم ونفوذهم .

الفصل السادس

الدولة الوسطى

استطاع حكام طيبة بعد الذى قام بينهم وبين ملوك أهناسيا من حروب متقطعة ، دامت نحو قرن ، أن يستولوا على عرش مصر ، ويعيدوا للبلاد وحدتها ويؤسسوا الأسرة الحادية عشرة ، وقد اتخذوا من موطنهم طيبة عاصمة لهم . على أن أواخر أيامهم كانت حافلة بالمنازعات الداخلية ، فتولى « أمنمحات الأول » العرش وأسس الأسرة الثانية عشرة ، واتخذ عاصمته فى « اللشت » ، على بعد ١٢ كيلومترا جنوبى منف ، وبذلك عادت عاصمة البلاد مرة أخرى فى مكان وسط بين الشمال والجنوب . وقد أبدى المصريون من النشاط والجهد ما نهض بالبلاد ، فاستقامت شئونها وازدهرت الحضارة ، وكان لمصر عصر مجيد آخر .

وكانت الحضارة المصرية هذه المرة أيضا من عمل المصريين ، اعتمدوا فيها على جهودهم وموارد بلادهم ، مما احتفظ لها بالطابع المصرى الصميم . وقد ترسموا فى بداية الأمر حضارة الدولة القديمة ، فاتخذ الملوك ألقاب ملوك الدولة القديمة ، واتخذوا الشكل الهرمى طرازا للمقبرة الملكية ، وكانت تتألف كما كانت من قبل من الهرم وملحقاته (معبد الوادى والطريق الصاعد والمعبد الجنازى) . ومن الفنانين من استوحى فى نحت التماثيل الملكية الاتجاهات الفنية التى كانت سائدة فى منف من أواخر الدولة القديمة ، فمثل الملك على شكل إنسان وديع ، حلو الملامح ، فياض الشباب . ومع ذلك فقد تأثر المصريون أبلغ الأثر بالظروف التى سادت ذلك العصر وبما سبقها من أحداث فى العصر الإقطاعى ، ولذلك كان للحضارة فى الدولة الوسطى من الخصائص والصفات ما تختلف به تماما عن حضارة الدولة القديمة .

الملكية :

تركزت السلطة من جديد فى يدى الملك ، وقد ظل يلقب بالإله وابن الشمس ، وإن كان ضعف الملكية فى العهد الإقطاعى وضياع قداستها قد هبطا بها كثيرا من عليائها ، فلم تعد لها فى واقع الأمر صفة الألوهة التى كانت لها فى الدول القديمة ، كما أنه بارتفاع شأن الشعب قلت الفروق بين الملك والرعية كثيرا .

ولم يكن العرش فى مصر وفى غيرها من بلدان الشرق ليحلو من منازعات عليه أو مؤامرات تدبر فى الخفاء ، على أن ما كان له من قداسة فى الدولة القديمة كان يحول دون ذكر هذه المؤامرات أو وصفها ، ولكن فى تسجيل المؤامرة التى دبرت لاغتيال « امنمحات الأول » فى مخدعه بالقصر ما يدل على أن الملكية فى الدولة الوسطى لم يعد لها فى النفوس من الجلال والتقديس ما كان ينبغى معه إخفاء ما يلم بها من أذى وما يدبر لها من اعتداء . وكان ملوك الأسرة الثانية عشرة على خلاف من سبقهم من الملوك يشركون أبناءهم معهم فى الحكم فترة طويلة ليتمرسوا بأعمال الدولة ، على أن الدافع الأول إلى ذلك إنما كان التمكين لأولادهم من بعدهم فى العرش وتوطيد حقهم فيه ، وما كان ذلك إلا لشعورهم بضعف شأن الملكية فى النفوس . وقد بدأوا فى نفس الوقت يعنون بالقوة الحربية حتى أصبح لهم جيش قائم يعزز سلطانهم ، وهو ما لم تكن الملكية فى الدولة القديمة بحاجة إليه .

وكان ملوك الدولة الوسطى على نشاط وافر ، فقد جاهدوا وكافحوا حتى استقامت فى أيديهم أمور الدولة . ولم يكن تولى شئون الحكم أمرا هينا ، وإنما كان لا بد لتقوية سلطة الحكومة فى تلك الظروف الغامرة ، واستعادة بعض مكانتها الضائعة من شخصيات قوية حازمة ، تعمل على تأمين الشعب من غارات القبائل والشعوب الطامعة فيها . وتدعيم النظام ، وإقرار العدالة ، ونشر لواء الحق ، وتنمية موارد البلاد ، وترقية مرافقها بعد ما اجتاحها من اضطراب وفوضى فى العهد الإقطاعى . وقد أثبت أكثر ملوك الدولة الوسطى أنهم كانوا أكفاء لما فرضته عليهم الظروف من واجبات ، فأدبوا الليبيين والأسيويين ، وأقاموا الأسوار على حدود مصر الشمالية الشرقية ، وشددوا الحراسة عليها ، ومدوا حدود مصر إلى ما وراء الشلال الثانى ، وشيدوا عليها سلسلة من القلاع والحصون ، كما أقاموا حصونا أخرى إلى الشمال منها لتثبيت سلطان مصر ، ولتقيها شر الغزوات المباغتة[١] . وقد أشاد « سنوسرت الثالث » فى نقوشه على أحد نصبه التى أقامها على الحدود فى بلاد النوبة بأنه « مد حدوده إلى ما وراء حدود آبائه وزاد فيها ورثه » ، ثم أهاب بخلفائه من بعده :

---

(١) قامت فى مديرية دنقلة دولة كوش ، وكانت تشجع القبائل فى بلاد النوبة السفلى على التقدم إلى الشمال مما اضطر مصر إلى تأديب هذه القبائل ورد عدوانها . وإذا كانت فتوحات مصر لم تمتد حتى قلب كوش فإنها قد استطاعت بفضل ماشيد من حصون فى عهد « سنوسرت الثالث » حماية الحدود الجنوبية .

« إن من يحفظ من أبنائى هذه الحدود التى أقمتها فإنه ابنى ، وولدى ، وإنه لأشبه بالإبن الذى حمى أباه والذى حفظ حدود من أعقبه[1] ، أما الذى يهملها ولا يحارب من أجلها ، فليس بابنى ولم يولد منى » .

ويمكن ترسم ما بذله ملوك ذلك العهد من جهد فيما تنطق به تماثيلهم ، فهى على ما فيها من ضخامة تمثلهم وفى أسارير وجوههم عزم وحزم ، ومسحة من جهد وألم ، وكأنها بذلك تمثل الكفاح فى سبيل تدعيم الحكم والقانون والنظام (شكل ٦٠) ، على خلاف تماثيل ملوك الأسرة الرابعة ، التى على اعتدال أحجامها تمثلهم فى سمت الآلهة ، وتضفى عليهم مهابة وقداسة تفوق حد التصور ، وتنم عن استقرار وطيد وعقيدة راسخة فى ألوهة الملك . وتنطق بهذا الفرق العظيم أهرام الأسرة الثانية عشرة إذا قورنت بأهرام الأسرة الرابعة ، فقد صغر حجمها وبنيت من اللبن ، ولم تستخدم فيها الحجارة الا لتأزيرها بكساء ضئيل ضاع أغلبه فى الوقت الحاضر . ومع ذلك فقد عنى ملوك الدولة الوسطى كثيرا بتشييد المعابد الصغيرة للآلهة المختلفة فى الأقاليم ، كما أن معبد أمنمحات « الثالث » الجنازى فى « هوارة » قد عده الإغريق من عجائب الدنيا السبع لكثرة دهاليزه وأبهائه ولذلك سموه قصر التيه (اللابرنت) .

(شكل ٦٠)

« سنوسرت الثالث » ، من تمثال له فى المتحف المصرى

(١) يقصد بذلك أنه يشبه « حورس » الذى قاتل من أجل أبيه وتولى عرشه من بعده .

الوزير :

وكان يعاون الملك وزير يشرف على المسائل الداخلية والخارجية على السواء ، ولم تكن واجباته وأعماله تختلف كثيرا عما كانت عليه فى الدولة القديمة ؛ وكان يرأس «الدور الست العظيمة» ، حيث كانت تستأنف القضايا ، وكانت تتألف من « عظماء الجنوب الثلاثين » . وكان يتولى كذلك شئون العاصمة ، ويشرف على رجال الحفظ والأمن فيها ، كما كان مكتبه يقوم بإحصاء السكان على وجه دقيق ، حتى يمكن فرض الضرائب وتجنيد الجند والعمال على أساس صحيح . وكانت تعد لذلك بطاقات خاصة يسجل فيها أرباب الأسر عدد أفراد الأسرة ومن ينتمون إليها من خدم وأتباع . وكان الوزير يشرف كذلك على مكتب خاص بتسجيل الأراضى ، كان يعتمد عليه فى الفصل فيما ينشأ من منازعات كثيرة بشأن حدود الأراضى .

وقد ساعد الوزير على القيام بهذه الأعباء جميعها أن الأعمال لم تكن مركزة كلها فى مكتبه ، وإنما كانت للادارات الأخرى سلطات كبيرة تمكنها من القيام بالأعمال التمهيدية . وكان مدير الخزانة يلى فى المرتبة الوزير مباشرة ، وكان عليه تنظيم إيرادات الحكومة ومصروفاتها ومراقبتها ، وجمع الضرائب العينية ، وتشغيل المناجم ، وتجهيز البعثات التجارية ، والإشراف على الأعمال العامة العديدة ، وكانت تشمل مبانى العاصمة ، والجبانة الملكية ، والمعابد فى الأقاليم ، والحصون ، والترع ، والعمل فى المحاجر ، وبعضها متوغل فى الصحراء .

حكام الأقاليم :

اختفت مقابر حكام الأقاليم فى الأسرة الحادية عشرة[١] ، ويرجح أن ملوك هذه الأسرة ، وقد نعم آباؤهم وأجدادهم بالسلطة التامة فى الأقاليم السبعة الجنوبية ، لم يشأوا أن تضعف من نفوذهم سلطات أخرى فى البلاد ، عاون أغلبها على الأقل الأسرة البائدة . على أنه بقيام الأسرة الثانية عشرة ظهر حكام الأقاليم من جديد ، ومن النصوص ما ينطق عن اهتمام « امنمحات الأول » بتعيين طائفة منهم على بعض الأقاليم ، وقيامه بنفسه بتعيين حدود أقاليمهم وتحديد مياه كل منها ، لعلاج ما نشأ بينها من خلاف ، مما يشير إلى أنه استفاد من كراهية أسر حكام الأقاليم للأسرة الذاهبة وسخطهم عليها ، وأنه

---

(١) ماعدا مقابر حكام بنى حسن ، ولعل ذلك إنما كان لتأييدهم ملوك الأسرة الحادية عشرة فى نزاعهم مع ملوك أهناسيا ، ومع ذلك يبدو أنه لم يكن لهم إذ ذاك سلطان كبير .

تولى العرش بمساعدتهم . على أنه وإن كان قد أرضى مطالبهم فقد كانت له من قوة الشخصية والحنكة السياسية ما أشعرهم بسلطانه عليهم ، ولم يكن أبناؤهم ليخلفوهم فى مناصبهم إلا بأمر منه ، ولم يدعهم — فضلا عن ذلك — ينفردون بالسلطة فى أقاليمهم ، ولكنه عين إلى جانبهم موظفين من الحكومة المركزية ، كما أصبحت المعابد المحلية تشيد على نفقة الملك ، فدانوا له بالخضوع ، وأشادوا بمآثره عليهم ، وعادوا إلى تأريخ الوثائق وفقا لسنى حكمه .

وكان من واجباتهم فى أقاليمهم جباية الضرائب المستحقة للملك ، والعناية بالترع ، واستغلال الأراضى الصالحة للزراعة ، وتجنيد الشبان للقيام بالأعمال العامة ، ومساعدة الملك فى حروبه . وكانو يقدرون الضرائب تبعا لحالة الفلاحين ، كما كان من سلطتهم التنازل عنها فى السنين القاحلة . وقد أحسنوا إدارة أقاليمهم ، فازدهرت فيها الفنون والصناعات ، وظهرت الطبقة الوسطى فى الشعب ، وازداد ثراؤها وبذلك لم تعد العاصمة هى المركز الوحيد للفن والصناعة .

ومقابر هؤلاء الحكام من عهد الأسرة الثانية عشرة هى أجمل وأفخم مقابر الأقاليم على وجه الاطلاق ، وبخاصة فى « بنى حسن » و « البرشة » و « مير » و « قاو الكبير » و « أسوان » ، ولكن ذلك لا يرجع إلى ازدياد نفوذهم ، وإنما يرجع إلى ازدهار الحضارة وتقدمها فى ذلك العهد .

ويبدو مع ذلك أن نفوذهم عاد فازداد تارة أخرى مما إضطر « سنوسرت الثالث » إلى التخلص منهم ، فأسدل الستار نهائيا على الحكام الإقطاعيين ، واختفت فى الأقاليم المقابر الفخمة ، وعادت إلى الملك سلطته كاملة . ولم يكن « سنوسرت الثالث » ليجرؤ على هذه الخطوة الحاسمة لو لم يكن يعتمد على جيش قائم يأتمر بأمره ، ويسنده بقوته ، أو يرهب به من يخرج على طاعته .

الزراعة والرى :

وكانت الزراعة على رأس ما اهتمت به حكومة الدولة الوسطى فى سبيل تحسين موارد البلاد . وقد لقى إقليم الفيوم عناية خاصة لقربه من العاصمة ؛ وكانت تشغله بحيرة كبيرة يغذيها فرع يخرج من النيل[1] . ولما كانت مياه فيضان النيل تضيع سدى فى منخفض الفيوم الواسع ، اتجه الرأى إلى الاستفادة منها بخزن ما يمكن خزنه منها فيه ثم تصريفه

(١) وهو بحر يوسف الآن .

فى وقت الحاجة إليه ، كما اتجه الرأى كذلك إلى استخلاص مساحة كبيرة من الأرض لزراعتها .

وقد أقيمت لذلك قنطرة كبيرة عند مدخل الفيوم بالقرب من «اللاهون» ، كما أنشئ نظام من الترع لرى الأراضى الواقعة شمال الفيوم وقت الجفاف ، وشيدت سلسلة من السدود يبلغ طولها نحو ستين كيلومترا ، أمكن بها استخلاص مساحة كبيرة من الأرض تزيد على عشرة آلاف كيلومتر مربع . وقد غدا بذلك إقليم الفيوم أخصب بقاع مصر ، وكان له فى العهد البطلمى والعهد الرومانى شأن هام من الناحيتين الاقتصادية والفكرية ، يدل على ذلك ما عثر عليه فيه من أوراق بردية هامة .

مقياس النيل :

كان ارتفاع فيضان النيل يهم الفلاح والحكومة جميعا مما كان يدعو إلى معرفة ارتفاع مياهه من وقت لآخر ، ولذلك أنشئ مقياس على الشاطئ الصخرى لمجرى النهر الضيق فى جنوب الشلال الثانى عند قلعتى « سمنة » و « كمنة » .

التجـــارة :

نشطت التجارة كثيرا بين مصر وما جاورها من البلدان . وتدل « قصة سنوهى »(١) على أن الرسل كانت تروح وتغدو باستمرار بين مصر وسوريا ؛ وفى مقبرة لأحد حكام بنى حسن صورة بعثة أسيوية من رجال ونساء وأطفال بملابسهم الموشاة وأسلحتهم المختلفة ومعهم بعض الهدايا والسلع بقصد المتاجرة أو الإقامة فى مصر . وكان أمراء « جبيل » (بيلوس) فى فينيقية يدفنون فى توابيت من الحجر الأسود على طراز التوابيت المصرية، بل إن ما وجد على بعض آثار هذه المدينة من نصوص هيروغليفية إنما يدعو إلى الظن بأن فينيقية كان يحكمها أمير مصرى فى بعض الأحيان .

وكانت لمصر كذلك صلات مع بلاد النهرين ، فقد كشف فى أساس أحد المعابد فى « طود » جنوبى الأقصر على أربعة صناديق من البرنز فيها من السبائك والمصوغات من الذهب والفضة والأختام الأسطوانية البابلية والتمائم ما يدل بعضه على أنه من صناعة تلك البلاد .

وفى جزيرة كريت عثر على بعض الآثار المصرية ؛ كما كشف فى بعض المناطق الأثرية المصرية وخاصة فى « اللاهون » و « أبيدوس » عن أوان من طراز إيجى؛ وقد افتخر

(١) أنظر صفحة

أحد المواطنين المصريين بأنه يتكلم ويكتب اللغة الكريتية ، ولعل وظيفته كانت ذات علاقة بالتجارة مع هذه الجزيرة ، وفى ذلك ما يشير إلى ما كان بين مصر وكريت من صلات .

واستأنفت حكومة مصر الصلات التجارية مع بلاد « بنت » مما دعا إلى الاهتمام بتمهيد طريق وادى حمامات بين قفط والبحر الأحمر ، فحفرت فيه الآبار لتتزود من مياهها البعوث ، وأنشئ ميناء على البحر الأحمر عند مصب وادى جاسوس بالقرب من القصير ، لتبنى فيها السفن وتبحر منها إلى بلاد « بنت » . وكان لهذه البلاد التى اعتبرها المصريون بلادا مقدسة أثر كبير فى خيالهم وتصوراتهم ، تنبئ عنه قصة « الملاح الغريق »[١] .

وازداد كذلك الاتصال التجارى مع بلاد النوبة والسودان ؛ وساعد استكمال القناة ، التى كان قد بدئ بحفرها فى الأسرة السادسة خلال الشلال الأول ، على سهولة الاتصال بين مصر وبلاد النوبة . وقد استعادت « كرما » فى منطقة الشلال الثالث أهميتها كمحطة مصرية تجارية .

استثمار المناجم والمحاجر :

لم تتوان الحكومة عن استثمار المناجم والمحاجر استثمارا واسعا ، فعملت على استخراج النحاس من شبه جزيرة سيناء ، وافتتحت لذلك منجما جديدا فى « سرابيت الخادم » ، وكان العمل فيه منتظما إذ شيدت للعمال والموظفين مدينة هناك . وقد استغلت كذلك محاجر الجرانيت الأسود فى وادى حمامات . وكانت مناجم الذهب فى وادى العلاقى ، فى الجنوب الشرقى من بلاد النوبة السفلى ، أهم ما شغل اهتمام المصريين فحصنوا الطريق المؤدى إليه لتأمين استغلاله على نطاق واسع .

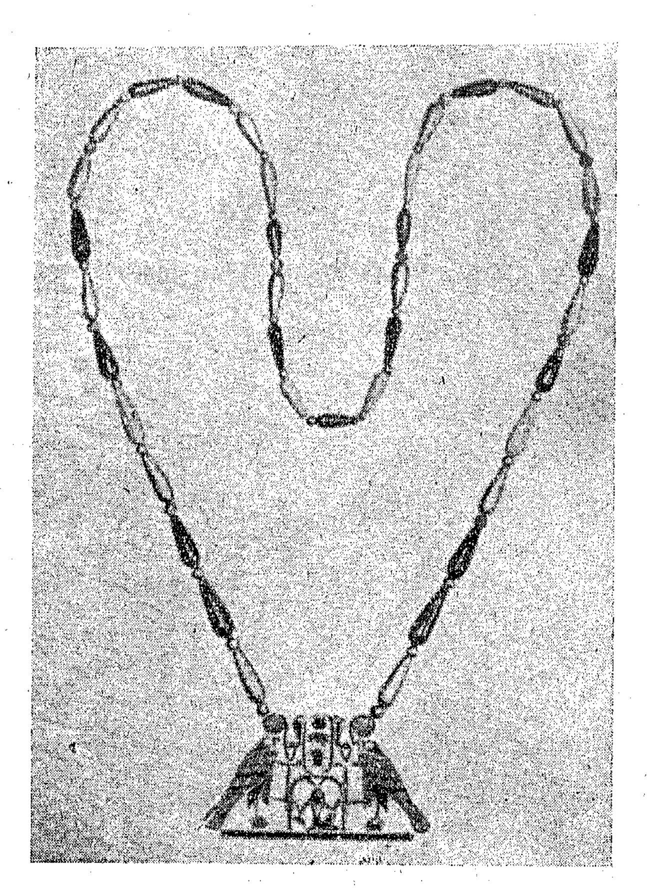
الصناعات :

ظل المصريون فى الدولة الوسطى يصنعون الأوانى من الأحجار وخاصة المرمر المصرى ، والتماثيل الصغيرة من القاشانى والعاج ، والمرايا من النحاس ، والأثاث وغير ذلك من مصنوعات مختلفة وإن كان ما حفظ منها قليل . على أن أهم ما حفظ من مصنوعاتهم هو ما كشف عنه من حلى فى « اللاهون » و« دهشور » ، وهى فى جمالها ودقة صناعتها ، وحسن أشكالها ، وما يتجلى فيها من ذوق ، وقدرة على الابتكار ، لتفوق كثيرا حلى

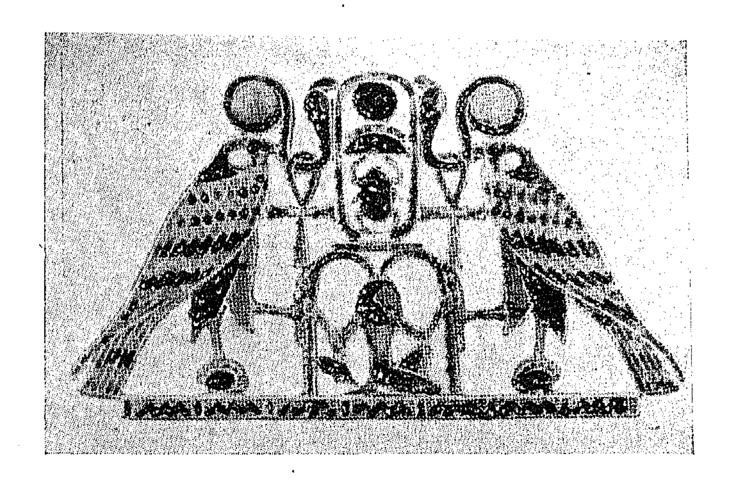
---

(١) أنظر صفحة ١٧٨ .

« توت عنخ أمون » ، وتعد أجمل ماصنع الصانع المصرى على وجه الإطلاق من حلى، ولاتزال تستحوذ على إعجابنا وتقديرنا بما يتمثل فيها من بساطة وجمال . وأغلب هذه الحلى تيجان ، وصدريات (شكل ٦١ ، ٦٢) ، وعقود ، وخواتم ، وتمائم، رصع أكثرها بأحجار ثمينة ذات ألوان مختلفة ، قدت بمهارة كبيرة ، ونسقت معا ببراعة وحسن ذوق . وتتميز حبات العقود فيها بتنوع أشكالها ، فمنها ما هو على أشكال هندسية مختلفة ، ومنها ماهو على هيئة المحار أو الطير أو النجوم ، ومنها مايتميز بحبيباته المؤلفة من كريات صغيرة لحمت جنبا إلى جنب . وتمتاز كذلك بأن كل تاج منها يكاد يكون من طراز خاص ، بما يدل على ما كان للصائغ من قدرة فائقة فى ابتكار الأشكال والزخارف . وما حفظ من هذه التيجان وغيرها لايمكن أن يمثل كل ماصنع من حلى

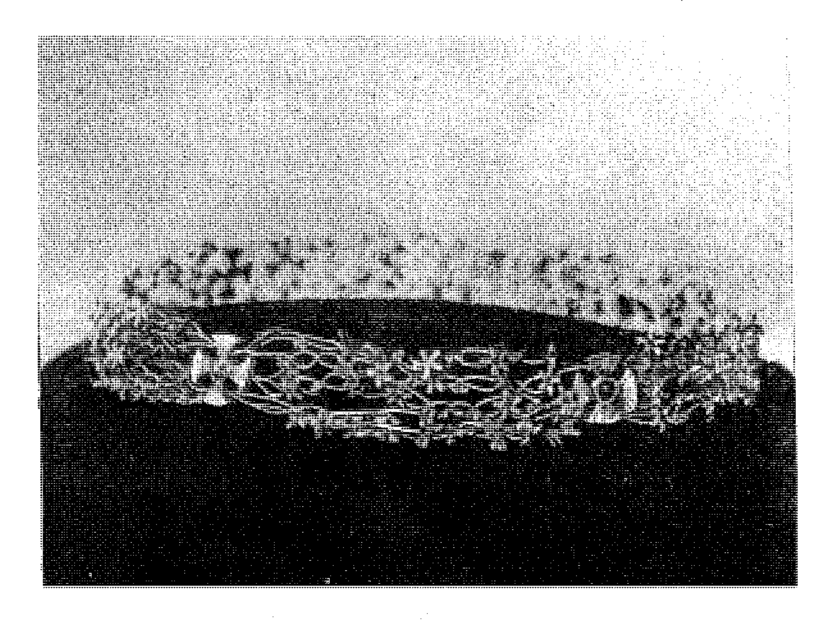


(شكل ٦١)
عقد بصدرة للملك « سنوسرت الثانى »



(شكل ٦٢) صدرة الملك « سنوسرت الثانى »

فى عهد الدولة الوسطى ، إذ لاشك أن قد ضاع منها ذخيرة وافرة لاتقدر . ومن أجمل ماحفظ من تيجان تاج للأميرة « خنمت » (شكل ٦٣) ابنة « امنمحات الثانى » ، وهو إكليل من أسلاك رقيقة متشابكة معا على هيئة شبكة تحليها زهيرات صغيرة دقيقة ؛ وهو بذلك بسيط لاتكلف فيه ، ولكن فيه خفة ودقة وجمالا لاسبيل إلى إيفائه حقه من الوصف والتقدير .



(شكل ٦٣) تاج الأميرة « خنمت » فى المتحف المصرى

« أوزيريس » وأسطورته :

قدر لعبادة « أوزيريس » فى مصر أن يكون لها أبلغ الأثر فى عقائد المصريين وأفكارهم ، وقد عاشت حتى نهاية الحضارة المصرية ومن ثم وجدت سبيلها مع عبادة « إيزيس » إلى كثير من انحاء الإمبراطورية الرومانية . وكانت عبادته فى الاصل فى « أبو صير » ، ومنها انتشرت انتشارا واسعا . وقد اضطر كهنة « عين شمس » فى بداية الأمر إلى مقاومتها ولكنهم اضطروا آخر الأمر إلى التوفيق بينها وبين عقائدهم وضم « أوزيريس » ومن تبعه من الآلهة إلى آلهتهم ، وبذلك تألف التاسوع العظيم فكان ذلك انتصارا جديدا لأوزيريس وأسطورته .

وتتلخص هذه الأسطورة فى أن « أوزيريس » كان ملكا عادلا محبا للسلام [١] ، ولكن أخاه « ست » قتله [٢] حسدا منه وحقدا عليه ، فحزنت الآلهة عليه ، وطفقت أخته الزوجة « ايزيس » ومعها أختهما « نفتيس » تجوبان البلاد تبحثان عن جثمانه حتى عثرتا عليه [٣] ، فضمت أمه « نوت » عظامه معا وأعادت اليه شكله ، ووهبت له الآلهة حياة جديدة وأصبح ملكا على الموتى . وولدت « ايزيس » ابنها « حورس » بعد موت أبيه ، وعكفت على تربيته فى أحراش الدلتا ، ووقته برعايتها ومهارتها وسحرها من مخاطر كثيرة . فلما شب وترعرع قاتل « عمه » فانتصر عليه عمه أولا وانتزع منه إحدى عينيه ، ولكن « حورس » عاد فانتصر واسترد عينه وقدمها إلى أبيه « أوزيريس » . واعترفت الآلهة به وريثا لأبيه ؛ غير أن ذلك لم يرض « ست » ، فطعن فى صحة بنوته لأبيه . واجتمعت الآلهة العظيمة فى « عين شمس » ونظرت فى دعواه أمدا طويلا ، ثم رفضها آخر الأمر واعترفت « بحورس » ملكا شرعيا على عرش أبيه على الأرض وأن من يجلس على عرشه من بعده هم خلفاؤه ملوك مصر . كانت هذه الأسطورة أحب

---

(١) ورد فى القصة التى كتبها « بلوتارك » عن « إيزيس وأوزيريس » أنه علم الناس الزراعة واحترام القانون وكيف يعبدون الآلهة وأنه جاب البلاد وكان يستميل الناس إليه بالموسيقى .

(٢) جاء فى رواية « بلوتارك » أن « ست » دعا « أوزيريس » إلى وليمة كبيرة وقد أعد له تابونا جميلا بحجمه تماما وأعلن أنه يهديه إلى من يثبت أنه يطابق جسده ؛ وللتمويه حاول أتباع «ست» الرقود فيه، إلا أن الصندوق كان أكبر منهم جميعا . وما كاد « أوزيريس» يرقد فيه حتى أسرع « ست » والمتآمرون معه فألقوا عليه الغطاء وأحكموا غلقه ثم ألقوا بالصندوق فى النيل ، فقذف به فى البحر ، وحملته الأمواج إلى ميناء جبيل (ببلوس) على الساحل الفينيقى .

(٣) ذكر « بلوتارك » أن « إيزيس » وفقت إلى العثور على الجثمان فأعادته إلى مصر ، ولكن « ست » عثر عليه فمزقه وبعثر أشلاءه فى أنحاء البلاد ، فعادت «إيزيس » تبحث عنه وكانت كلما وجدت جزءا منه تدفنه حيث وجدته ، ولذلك تعددت مقابر « أوزيريس » فى مصر .

أساطير المصريين إليهم ، وكان لها فى تفكيرهم ودياناتهم أبلغ الآثار ، ذلك لأن فيها من الأفكار والمشاعر ما كانت تستجيب له طبيعتهم وميولهم ، ففيها انتصر الخير على الشر ، والحق على الباطل ، فأوزيريس هو مثال الرجل الطيب الصالح ، وهو وإن كان قد مات ظلما فما ينبغى أن يسود الباطل إلا قليلا ؛ وإيزيس هى مثال الزوجة المخلصة والأم الرءوم ؛ وحورس إن هو إلا مثال الابن البار بأبيه ؛ وعينه التى قدمها لأبيه إن هى إلا رمز كل تضحية . وفى القصة كذلك تنتصر الحياة على الموت ، فقد مات « أوزيريس » ليعود إلى الحياة من جديد ، وهو بذلك مثال الميت الصالح الذى يتغلب على الموت بما قدم فى دنياه من عمل صالح طيب .

فى هذه الأسطورة من السمات والملامح ما يوحى بأنها تعتمد على أصل تاريخى ، مما كان بين الوجه البحرى والوجه القبلى من حروب وعداء سياسى ، على أن فيها إشارات أخرى تدل على أن « أوزيريس » إنما هو ماء النيل ، الذى يغمر الحقول بفيضه فتحيا وتزدهر ؛ وهو الأرض الخصبة الطيبة ينمو زرعها ويونع ، حتى إذا بلغ تمامه ذوى وجف ليحيا ثانية فى العام الجديد ؛ ثم هو القمر ينمو مع الأيام حتى يستوى بدراً كاملا ثم يتناقص ويتضاءل حتى يمحق ، ولكن ليعود من جديد . ومع هذا كله فليس يبعد أن « أوزيريس » يمثل فى الأصل شخصية تاريخية ، وأنه فى وقت مبكر أصبح يمثل كذلك الحياة والموت والبعث .

وكان منذ أواخر الدولة القديمة أن اعتبر « أوزيريس » إلها للموتى جنبا إلى جنب مع الإله « أنوبيس » ، وغدت « أبيدوس » من أهم مراكز عبادته ، وأصبحت أمنية كل مصرى أن يحج إليها بجثته بعد موته ، وأن يدفن فيها أو يقيم له فيها قبرا تذكاريا ونصبا يشهد على رغبته فى أن يكون من أتباع « أوزيريس » لتشمله حمايته .

وفى « أبيدوس » كان يحتفل بأعياد « أوزيريس » وتمثل فيها أحداث معينة من أسطورته مما يسمى « خفايا أوزيريس » .

ومنذ الدولة الوسطى برز « أوزيريس » على سائر آلهة الموتى حتى حل مكانها ، وأصبح الميت يرجو أن يكون فى مملكته ويدخل جنته .

الحساب فى الآخرة :

كان حق الملك فى الخلود كحق أى إله آخر ، على أنه كما اضطر « حورس » إلى إثبات بنوته للإله « أوزيريس » أمام محكمة الآلهة ، فقد كان على الملك المتوفى كذلك أن يثبت أنه ابن الإله « رع » ووزيثه ؛ وكان عليه أن يكون طاهرا حتى يمكن قبوله فى السماء أو فى جنة الأسل . وإذ كان إله الشمس هو رب العدالة ، وطعامه هو الحق ،

فالملك مسئول أمام « رع » عن أن يكون عادلا فى أعماله ، وأن يمكن لعدل إله الشمس على الأرض . ولما كان الأمراء والموظفون هم عمال الملك فقد كانوا مسئولين كذلك عن تحقيق العدالة وإقرارها فما يوكل إليهم من أعمال الدولة ، على أنه مع قوة الدولة القديمة واستقرار الحياة ، واستتباب الأمن ، ورسوخ العقيدة ، لم يكن هناك ما يدعو المصريين إلى رسم طريقة حساب هؤلاء جميعا على أعمالهم .

ومنذ الأسرة الخامسة بدأ كثير من أصحاب المقابر يشيدون فى نقوش مقابرهم بأنهم لم يؤذوا إنسانا ، ولم يغتصبوا أحدا ، أو يعتفوا بأى إنسان ، وأنهم كانوا محبوبين من آبائهم وأمهاتهم وأخواتهم ، وأنهم كانوا يقولون الخير ولم يتقولوا السوء ، وأنهم أعطوا الجائع خبزا ، وكسوا العارى ، ولم يقضوا بين أخوين بما يحرم أحدهما من ميراث أبيه . وربما ابتغى هؤلاء بذلك الفخر والجاه عند زوار مقابرهم فى الأجيال التالية ، ليقدموا لهم القربان ، ويحافظوا على مقابرهم ، ومع ذلك فليس يخفى ما تنطوى عليه هذه النصوص من إقرار بما للقيم الخلقية والإجتماعية من أهمية فى الدنيا والآخرة ، بما يتفق وما شاع من حكم ونصائح فى ذلك الوقت . لم يعد الأمر إذن يقتصر على مسئولية الشخص عن أعماله الحكومية فحسب ، وإنما أصبح كذلك مسئولا باعتباره فردا فى مجتمع عن علاقاته بأفراد مجتمعه ، أى عن الأخلاق التى يجب على كل إنسان أن يحترمها .

ولما أن كثرت الاعتداءات على المقابر فى أواخر الأسرة السادسة كان من أصحابها من يهدد كل من يغتصب مقبرته أو يعتدى عليها بمقاضاته أمام الإله العظيم ؛ وإذا كان ذلك فى بداية الأمر أشبه ما يكون بدفاع الإنسان عما يملك على سطح الأرض . فإن مثل تلك الاعتداءات لم تلبث أن أصبحت كأنها اعتداء على الإله الذى يستظل الميت بظله ، وبذلك برزت فكرة الخطيئة فى حق الإله وما تقتضيه من حساب وعقاب .

ولما أن ضعفت الملكية وانهار سلطانها إذا بالامتيازات والصفات التى كان الملوك يختصون بها أنفسهم بصفتهم آلهة نجد سبيلها إلى حكام الأقاليم ، وبذلك صاحب اغتصاب الحقوق الزمنية للملك اغتصاب ما كان له من حقوق وامتيازات دينية . وكان أن وجدت هذه الامتيازات سبيلها كذلك عن حكام الأقاليم إلى من يستطيع أن يدعيها لنفسه من غيرهم من الأفراد ؛ وبذلك شاعت العقائد والعادات التى كانت قاصرة أول الأمر على الملك ، ووجدت متون الأهرامات سبيلها إلى توابيت الأفراد باعتبارها صيغا سحرية تحقق سعادة الميت فى الآخرة ، كما اتخذ الموتى من الأفراد الرموز الملكية كالصوالج والتيجان تمائم يعتقدون بفائدتها لهم . على أن متون الأهرامات لم تكتب بجملتها على التوابيت ، وإنما كان يختار بعضها برمته ، كما أن منها ما كانت تضاف إليه نصوص

وصيغ جديده ؛ ويسمى مجموع هذه النصوص الآن بمتون التوابيت ، وقد ظلت تكتب على التوابيت حتى نهاية الدولة الوسطى . ومن هذه المتون ما ينبىء عن رغبة الميت فى مصاحبة الشمس فى رحلها فى السماء ؛ ومنها ما يدل على رغبته فى أن يتخذ أشكالا مختلفة ، منها أشكال بعض الآلهة كالإله « رع أتوم » نفسه ؛ ومنها كذلك ما كان يعتقد فيه أنه يمحو عن الميت ذنوبه ويمكنه من رؤية وجه الآلهة جميعا .

وكان لانهيار الأسس التى تعتمد عليها الدولة القديمة أن انتشرت المفاسد ، وعمت الفوضى البلاد ، فإذا بالمفكرين يزدادون شعورا بأهمية القيم الخلقية فى الحياة الدنيا والآخرة ، ويتنادون بأن الفضائل أساس السعادة الأبدية ، وبأن الثراء المادى لا يغنى من تلك السعادة شيئا ، وأن الإنسان مسئول عن أعماله التى تكوم إلى جانبه بعد الموت ؛ وإذا بهم يقدرون أن قضاة الآخرة ينظرون إلى عمر الإنسان كأنه ساعة ، ويعتقدون أن إله الشمس هو الذى يشرف على حساب المذنبين الخارجين على ما قضى به من نظام وخلق . وهكذا كانت الأخلاق عند هؤلاء المفكرين الأساس فى حساب الميت على أعماله ، ولم يعد الرجل الغنى هو الذى ينتصر على الموت وإنما هو الرجل البرىء من كل ذنب (١) .

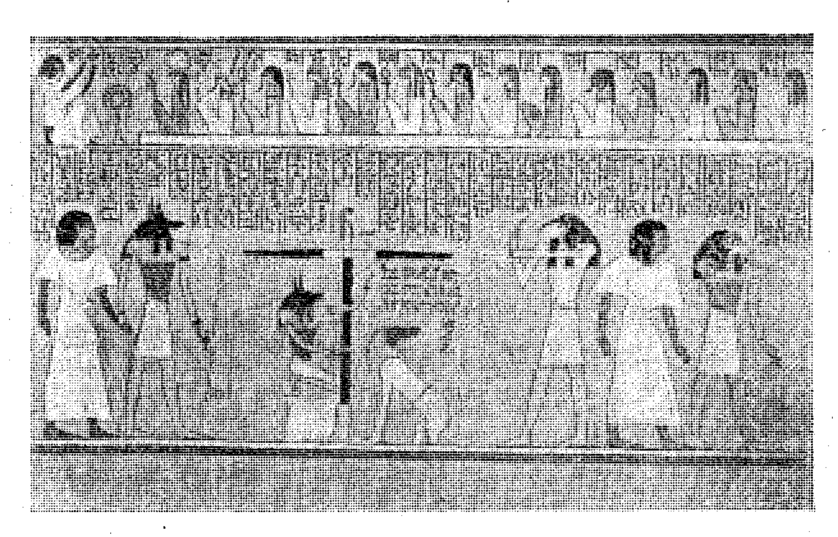
وكانت عقيدة « أوزيريس » تجد سبيلها فى اطراد إلى العادات والعقائد الجنازية ، مما أدى إلى أن انعقدت الصلة فى نهاية الأسرة الحادية عشرة بين محاكمة الميت على أعماله وبين محاكمة « أوزيريس » ، وترتب على ذلك أن أصبح الميت ينعت بأنه « الصادق الصوت » أو « المبرأ » ، على نحو ما قضت محكمة « رع » لأوزيريس ، وكان يعنى بذلك أن الميت قد حوكم وبرىء على نحو ماحوكم « أوزيريس » ، على أن « أوزيريس » غدا سيد مملكة الموتى ، وأصبح يشرف على حساب الميت ، ليقضى بدخوله جنته . ومن صور كتاب الموتى (٢) من عهد الدولة الحديثة (شكل ٦٤) ما يمثل « أوزيريس » جالسا على عرشه فى أحد جانبى بهو العدالة ومن أمامه أبناء حورس الأربعة وملتهم الموتى ، وهو حيوان هجين له رأس تمساح وصدر الأسد وعجز فرس النهر . وفى الجانب الآخر يتقدم الميت تتلقاه إلهة الحق والعدالة . وفى الوسط الميزان ، فى إحدى

---

(١) انظر صفحة ١٦٠ .

(٢) ويشتمل على فصول جنازية مختلفة يرجع أكثرها إلى عصور قديمة ولكنها عدلت بما يتفق وذوق الدولة الحديثة . وكان يكتب على قراطيس البردى ، ويحلى بصور أنيقة ، ويوضع بين أكفان الميت . وكان اسمه القديم كتاب « الخروج بالنهار » إذ كان من أهم أهدافه تمكين الميت من الخروج من قبره بالنهار ليرى أشعة الشمس .

كفتيه قلب الميت ، وفى الأخرى علامة الحق والعدالة ، وهى ريشة نعام . ويتحقق « حورس » و « أنوبيس » من صحة الوزن ويسجل « تحوت » ، كاتب الآلهة ، النتيجة على لوح فى يده ثم يخبر بها «أوزيريس» . ومن حول الإله اثنان وأربعون قاضيا ، بعدد أقاليم مصر ، وقد كان الميت يتقدم إليهم بدفاعين ، يدافع فى الأول منهما عن نفسه دفاعا عاما ، على حين يتجه فى دفاعه الثانى إلى كل من القضاة باسمه وصفاته ويبرىء نفسه أمامهم من اثنين وأربعين خطيئة .



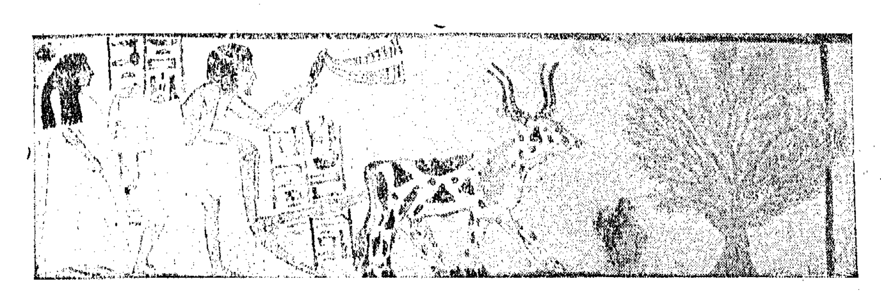
(شكل ٦٤) محاكمة الميت

ومما يقوله فى دفاعه الأول : « إننى لم أقترف إثما ضد البشر . . . ولم أفعل شيئا تمقته الآلهة ، ولم أسع بأحد عند رئيسه ، ولم أجوع أحدا ، ولم أدع أحدا يبكى ، ولم أقتل ، ولم أحرض على القتل ، ولم أسبب لأحد ألما . . . ولم أتحيف من خبز الآلهة ، ولم أستلب طعام الأبرار ، ولم أفسق فى المكان الطاهر لإله مدينتى ، ولم أستعمل مكيالا منقوصا ولا ذراعا ناقص الطول ، ولم أزيف فى أبعاد الحقل ، ولم أزد مثاقيل الميزان ، ولم أزحزح لسان الميزان ، ولم أسلب اللبن من فم الطفل ، ولم أسرق الماشية من مرعاها ، ولم أصد طيور الآلهة ولا الأسماك من بحيراتهم ، ولم أمنع ماء (الفيضان) فى وقته ، ولم أسد على الماء الجارى . . . ولم أؤذ ما للمعابد من قطعان ، ولم أعترض الإله فى شىء من إرادته » .

ومن الذنوب التى ينكرها الميت فى دفاعه الثانى ، أنه لم يسرق طعاما ، ولم يذبح الثيران المقدسة ، ولم يسترق السمع ، ولم يصم أذنيه عن كلمات الحق ، ولم يقترف ما يأكل

قلبه لأجله ندما ، ولم يتكلم كثيرا بلغو ، ولم يجهر بصوته ، ولم يسىء إلى الملك ولا إلى الإله .

فإذا ثبت صدق الميت وبراءته قاده « حورس » إلى « أوزيريس » ليمنحه مكانه فى جنته، حيث يعطى الفطائر والخبز وحقلا ينبت فيه القمح والشعير إلى طول سبعة أذرع (شكل ٦٥) ، أما إذا لم تثبت براءته فإنه لا يدخل مملكة « أوزيريس » ، ويظل فى قبره يضنيه الجوع والعطش ، أو يلتهمه ملتهم الموتى .



(شكل ٦٥)
الميت يحرث حقلا فى العالم الثانى

على أنه منذ الدولة الوسطى ساد الاعتقاد بأن أداء طقوس الدفن الأوزيرية للميت يكفى لأن يضفى عليه شخصية « أوزيريس » نفسه ولذلك كان يلقب بأوزيريس ، ومن ثم غدت محاكمة الميت أمرا صوريا وضاعت القيمة الخلقية المقصودة من حسابه على أعماله فى حياته ، وأصبح للسحر سلطان كبير فى تحقيق سعادة الميت فى الآخرة .

الأدب

إن ما حفظ من آداب الدولة الوسطى قليل ولكنه يتميز بما يسرى فى عباراته من حيوية ومشاعر قوية ، وما يتمثل فيه من صور واضحة فى أسلوب رشيق جميل .

تعاليم الملك أمنمحات :

سواء كانت هذه التعاليم وصية الملك لابنه ضمنها خلاصة تجاربه بعد أن فشلت المؤامرة التى دبرت فى قصره لقتله ، أو أنها حيكت على لسانه بعد وفاته ، فهى تمتاز بحرارة أسلوبها وقوة تعبيراتها وما تفيض به من مشاعر وأحاسيس جياشة . وقد جاء فيها :

أحذر أتباعك . . . لا تقرب منهم ولا تسكن وحدك ؛ لا تثق بأخ ، ولا تصادق أحدا ، ولا تتخذ الأخلاء ، فأن هذا لا يجدى .

إذا نمت فلتحرس بنفسك قلبك ، فليس للرجل وقت الشدة صديق . لقد أعطيت الفقير وحفظت اليتيم ، ومكنت من لم يكن له شأن من هدفه أسوة بذى الشأن . . ولكن من أعنته بيدى استأسد عما صنعته له » .

قصة سنوهى :

فى هذه القصة من بساطة الأسلوب ، وبلاغة التعبير ، ودقة وصف حياة البدو فى فلسطين ، بعاداتهم وطبيعة بلادهم ، ما ضمن لها الانتشار بين المصريين . وهى فوق ذلك تصور فى براعة فائقة « سنوهى » وهو فى ظروف وأحوال مختلفة ، تارة وقد استبد به الخوف والهلع فلاذ بالفرار ، وطوراً وهو ينازل خصمه فى ثقة واطمئنان ، ثم وهو يستعطف الملك فى توسل ورجاء ليسمح له بالعودة إلى وطنه ، وأخيرا وقد فقد وعيه أمام الملك رهبة وخشية .

لقد كان « سنوهى» يصاحب « سنوسرت الأول » فى حملة ضد الليبيين ، فتساقط إلى سمعه أن « امنمحات الأول » مات ، فتراخت أعضاؤه ، وخشى على نفسه ، ثم لاذ بالهرب . فلما بلغ شرق الدلتا خاف أن يراه الحارس القائم على حدود مصر الشرقية ، فربض بين الأحراش . وفى الليل استأنف سيره إلى مطلع الصبح ، وقد يبس حلقه من العطش ، فظن أن الموت مدركه ، غير أنه تماسك وجمع قوته . ورآه شيخ من البدو فعرفه وأعطاه ماء ، وطهى له لبنا ، وأخذه إلى قبيلته ، فأحسنت لقاءه . وتنقل « سنوهى » من بلد إلى بلد حتى بلغ شمال فلسطين ، فأحسن أميرها وفادته ، لأنه سمع عن كفايته ممن كانوا يعيشون معه من المصريين ، وسأله عن أخبار مصر ، فمدح له الملك الجديد ، وأشاد بقدرته ونصحه بأن يبعث إليه رسله تحمل إليه وده . واستبقاه الأمير وجعله على رأس أولاده ، وزوجه من ابنته الكبرى ، وأعطى له أرضا من خير ما يملك .

ظل « سنوهى » عدة سنوات وكان يستضيف الرسل الذاهبة إلى الشمال أو التى تقصد بلاط مصر . وكان مرهوب الجانب ، فقد جعله الأمير صاحب الأمر على جيشه . على أن رجلا من البدو ، اشتهر بالقوة ، تحداه فى مخيمه وطلب منازلته حسدا له ، وطمعا فى الاستيلاء على ماشيته وأملاكه . وفى الليل شد « سنوهى » قوسه وأصلح منه ، وصقل أسلحته . وفى الصباح تجمع البدو وكلهم قلوب تشتعل حماسة له وإشفاقا عليه ، وبدأت المبارزة واستطاع « سنوهى » أن يتحاشى سهام خصمه ، ثم رماه بسهم ، أصاب عنقه ، فصرخ وخر على وجهه ، وتم النصر لسنوهى فغنم ماشية عدوه وما يملك .

على أن « سنوهى » لم يكن ليرضى أن يبقى بقية حياته بعيدا عن مصر ، فلما أدركته الشيخوخة كتب إلى الملك كتابا ، التمس فيه رضاءه ورضاء الملكة ، ورجا أن يسمح له بأن يرى المكان الذى يهفو قلبه إليه ، إذ لاشىء أعظم من أن يدفن فى البلد الذى ولد فيه . ورضى الملك عنه وأمره بالعودة ، فترك لأولاده أملاكه ، وأحل ابنه الأكبر مكانه . وسار إلى مصر حيث قاده رجال البلاط إلى الملك ، غير أنه فقد وعيه خشية ورهبة . فلما أفاق استدعى الملك الملكة والأمراء وأشار إليهم أن يروا « سنوهى » وقد أصبح وكأنه من البدو ، فصرخت الملكة والأمراء دهشا . ثم أدخل « سنوهى » بيت أحد الأمراء ليزال عن جسده أثر السنين ، فقص شعره ومشط ، وألبس رداء جميلا من الكتان ، وضمخ بأحسن أنواع الزيوت ، ونام على سرير ، وترك الرمال لمن يعيشون عليها . وأعد له بيت فخم كان يجلب له فيه الطعام من القصر ، وشيد له هرم يدفن فيه ، وعاش مكرما حتى فارق الحياة .

قصة الملاح الغريق :

ومن قصص الدولة الوسطى كذلك قصة الملاح الذى غرقت سفينته ، وهى قصة بسيطة خيالية ، ومع ذلك فهى تعتمد فى أساسها على الرحلات البحرية وخاصة رحلات البحر الأحمر ، وتمتاز بما فيها من وصف الملاحين ومشاعرهم وآمالهم فى لغة جميلة راقية . وتتلخص فى أن أحد العظماء المصريين كان عائدا من رحلة فى الجنوب ، وما كادت سفينته تبلغ العاصمة ، ويعمل الملاحون على إرسائها ، حتى دخل عليه حرسى من حراسه يحييه تحية الوصول ويشجعه على مقابلة الملك ، ثم أخذ يقص عليه بعض ما حدث له ، فقال : إنه ركب مرة سفينة طولها ١٢٠ ذراعا وعرضها ٤٠ ذراعا ، وفيها من خيرة أبناء مصر ١٢٠ ملاحا ، يتنبأون بالعاصفة قبل مجيئها ، والزوبعة قبل حلولها . ولكن موجة عاتية أغرقت السفينة ، وألقت به أحد أمواج البحر على جزيرة وافرة الثمر .

فلما أفاق أكل وشبع ثم تقدم بالشكر للآلهة ، ولكنه سمع صوتا كالرعد فظنه موجة فى البحر ، ولكن الاشجار تكسرت ، وزلزلت الأرض . ثم رأى من أمامه ثعبانا طوله ٣٠ ذراعا بلحية أطول من ذراعين ، وكان جسمه مغشى بالذهب وحاجباه من اللازورد الخالص . وقد سأله عمن أتى به إلى تلك الجزيرة . ثم حمله فى فمه إلى مسكنه حيث وضعه على الأرض دون أن يمسه بسوء . فعقد الرجل ذراعيه على صدره تحية وإجلالا وقص قصته ، فهدأ الثعبان من روعه ، وأنبأه بأنه يبقى شهرا بعد شهر حتى يكتمل له أربعة شهور ، وعند ذاك تأتى من العاصمة سفينة يعرفه ملاحوها فيعود

معهم . فسجد له الملاح وشكره . ووعده بأن يبعث له بالبخور، ويذبح له الثيران ، ويرسل له السفن محملة بذخائر مصر ؛ فضحك الثعبان وأجابه بأنه حاكم « بنت » ، وأنه يملك البخور ، وأنه إذا غادر الجزيرة فلن يراها ثانية لأنها ستغدو ماء .

وأقبلت السفينة كما تنبأ الثعبان ، فاعتلى الملاح شجرة عالية ، استطاع أن يعرف من فوقها رجال السفينة ، ثم ذهب إلى الثعبان فوجده على علم بها ، وقد تمنى له عودا سالما ليرى أولاده ، وطلب إليه أن يشيد باسمه فى مدينته وزوده بالكثير من ذخائر الجزيرة .

العـــلوم

اهتم المصريون منذ وقت مبكر بالعلوم والمعارف وخاصة ما كان منها ذا فائدة عملية ، ولكن أكثر معلوماتهم ومعارفهم لم تصل إلينا لضياعها ، وذلك لأنهم كانوا يعتمدون فى تعليمها فى أغلب الأحيان على التلقين والرواية ، على خلاف الإغريق الذين كانوا يعتمدون كثيرا فى ذلك على الكتابة والتدوين .

الطب :

وكان للطب شأن مرموق فى مصر فى عصورها المختلفة ؛ وكان الإله « تحوت » هو حامى الكتاب والأطباء معا ، كما كانت الإلهة « سخمت » ، ذات رأس اللبؤة ، معبودة الأطباء ؛ وكان « امحوتب » يعتبر مكتشف فن تحضير الدواء والإله الشافى .

ويعتمد الطب المصرى فى أكثره على الخبرة والتجربة العملية ، وبذلك فان ما تجمع للمصريين من معارف واسعة بالعقاقير والأدوية المختلفة وعلاج الأمراض الظاهرة وإجراء العمليات الجراحية ، إنما يرجع من غير شك إلى العصور القديمة منذ بداية الأسرات على الأقل .

وكان من أطباء الدولة القديمة من كان مختصا بأمراض العيون أو الأمراض الباطنية ، أو أمراض الأسنان[1]. وكان للطب فى العصور المتأخرة على الأقل مدارس خاصة ملحقة بمعبدى « عين شمس » و « صا الحجر » . وقد كان للقصر منذ الدولة القديمة أطباؤه المختصون ، وكانت لهم فيه مكانة بارزة تعتمد فيما يبدو على ما كان لهم من مهارة كبيرة فى الطب . وكان الطبيب يدعى إذا اقتضى الأمر ؛ كما كانت مكتبة القصر لا تخلو من كتب

(١) ذكر « هيرودوت » إن كل طبيب إنما كان يختص بعلاج مرض واحد وإن البلاد كانت غاصة بالأطباء .

الطب ؛ وكان لبعض الأطباء صلة بالدين والكهنة ، فمنهم من كان يشرف على الكهنة الجنازيين ، ومنهم من كان يشرف على ذبح الضحايا من الحيوان للتأكد من نقائها بفحص دمها على الأرجح .

وقد أمكن الكشف عن عدد كبير من البرديات فى الطب والجراحة ، وهى موزعة الآن فى كثير من متاحف العالم وخاصة فى برلين وليبزج وباريس وروما ولندن ونيويورك . وعلى الرغم من أن خطها يدل على أنها من الدولة الوسطى أو الحديثة ، إلا أن منها ما تدل لغته على أنها أقدم من ذلك . ومن هذه البرديات ما يشتمل على أبحاث طبية ، ومنها ما يحتوى على مجموعة من الوصفات المشهورة[١] . وأهمها جميعا « بردية إدون سمث » فى نيويورك ، وتدل لغتها على أنها من الدولة القديمة . وفى متحف الجامعة فى ليبزج فى ألمانيا « بردية إيبرس » ، وهى أكبر بردية من نوعها ، ويدل خطها على أنها من بداية الأسرة الثامنة عشرة ، ولكن لغتها وقرائن أخرى تدل على أنها منسوخة من برديات أخرى أقدم عهدا .

وتدل « بردية إدون سمث » فى أكثر أجزائها على عناية ملحوظة بالناحية العلمية وبالمعرفة فى حد ذاتها دون الاقتصار على الناحية العملية ، وذلك بحرصها على ترتيب أبحاثها ، وبأسلوبها العلمى الدقيق . وهى خاصة بالجروح وكسور العظام فى مختلف أجزاء الجسم . ولقد عنيت بذكر اسم كل حالة ، ووصف أعراضها الظاهرة ، وتشخيصها بدقة ، والرأى الطبى فيها[٢] ، وطريقة علاجها ، وذلك فى لغة مختصرة وتعبيرات دقيقة للتمييز بين الحالات المختلفة . ويقتصر العلاج على الراحة والغذاء والدواء ، وفى الحالات التى كان يشك فى شفائها ، كان يوصى بملاحظة العلة وتدرجها ، دون أن ينسب استعصاؤها على الشفاء إلى أى عامل خارجى من سحر أو قوة خارجية ، مما ينم عن روح علمية صحيحة . وهى بهذا تدل على أن الدولة القديمة لم تنقصها الأبحاث العلمية الصحيحة بما يتفق مع ما كان لها من أعمال جليلة فى الدين والفنون والصناعات المختلفة . وقد دل فحص بعض الموميات فى العصور التالية على أن المصريين كانوا يحسنون حقا علاج الكسر فى العظام .

وكان لتحنيط الموتى وما كان يدعو إليه من استخراج الأحشاء أثر كبير فى تقدم الطب فى مصر ، فقد أتاح ذلك لأول مرة فى تاريخ الإنسان معرفة الأعضاء الباطنية

---

(١) نسبت بعض الوصفات إلى بعض الآلهة أو الملوك الأوائل ، ومنها ما نسب إلى بعض الشخصيات العظيمة مثل « إمحوتب » .

(٢) سواء كان الكسر مما يشفى على وجه أكيد أو يشك فى شفائه أو ميئوس منه .

الجسم الإنسان وصلة بعضها ببعض ومقارنتها بأحشاء الحيوانات التى كان المصريون يذبحونها مما أفادهم علما بالتشريح المقارن . ويتبين من برديتى « إدون سمث وإيبرس » أنهم أدركوا العلاقة بين النبض ودقات القلب ، فقد ذكروا أن للقلب « أوعية »[١] تتصل بكل عضو فى الجسم، وأن الإنسان يستطيع أن يحس عمل القلب فى أجزاء الجسم المختلفة بجس الأوعية المتشعبة من القلب[٢]. وبذلك اهتدوا إلى أن القلب هو أهم عضو فى الجسم وأنه مركز الأوعية فيه ، حتى إنهم لم يكونوا يستخرجونه فى التحنيط ، وإنما كانوا يتركونه فى مكانه من الصدر ومعه الأوعية الكبيرة .

ومن البرديات الطبية ما كان يختص بأمراض النساء ؛ ومنها ما كان لعلاج الحيوان ، بما يدل على ما كان يلقاه من اهتمام ورعاية .

وتدل البرديات المختلفة على أن من الأمراض التى كانت منتشرة بين المصريين : أمراض العيون ، والاضطرابات المعوية ، والقروح ، والديدان المعوية ، والالتهابات الجلدية ، وأمراض الرئتين ، والكبد ، والفم ، واللسان ، والأسنان ، والأنف ، والحلق ، والأذن ؛ وكان لدغ العقرب وعضة الثعبان مما يعالجه الطبيب كذلك . ولم يقتصر عمله على ذلك كله فحسب ، وإنما كان عليه كذلك صنع العطور لتعطير المنزل والملابس، ولمضغها حتى يكون الفم طيب الريح ، وصنع الطيب لتجميل الجسم وصفاء لونه ، كما كان عليه علاج الشيب وسقوط الشعر .

وكانت العقاقير تصنع من مواد عضوية وغير عضوية ، على أن أكثرها إنما كان من المواد النباتية ، وكان يعنى بدقة وصف الأعشاب النادرة تحاشيا لما قد ينشأ من خلط بينها . وكانت العقاقير تتركب عادة من عدة مواد مختلفة ، منها مادة واحدة تفيد والباقى لا جدوى منه . وكان يراعى فى الدواء السن واختلاف الفصل من السنة ، كما كان يعنى بذكر المقادير وطريقة تحضير العقار واستعماله .

ومع هذا كان للسحر شأن فى علاج الأمراض فى مصر وخاصة فى العصور المتأخرة ، إذ كان يعتقد أن الأمراض هى من عمل أرواح شريرة ، وأن تلاوة التعاويذ تخرج شيطان المرض من الجسم . ومن الأدوية ما كانوا يزعمون أنه ترياق اخترعته الآلهة للإله « رع » لشفاء كل مرض حتى الموت .

---

(١) لم يقصر المصريون عمل الأوعية على نقل الدم وإنما ظنوها كذلك سبيل الهواء والماء وسائر الإفرازات .

(٢) لا يظن أن المصريين كانوا يعدون النبض على نحو ما نفعل الآن ، وإنما يغلب على الظن أن الغرض من جس النبض هو تقدير حالة المريض العامة ومعرفة ما إذا كان النبض بطيئا أو سريعا .

وقد نقل الإغريق كثيرا من الوصفات الطبية المصرية بتفاصيلها الدقيقة ، وعنهم انتقلت إلى الأقطار الأخرى ، وهو ماتدل عليه كتب الطب اليونانية واللاتينية والعربية والسريانية والفارسية ، كما انتقلت إلى غربي أوروبا فى القرون الوسطى وما بعدها ، حتى يمكن أن يقال إن الطب الشعبي فى كل قطر تقريبا فى أوروبا والشرق الأدنى إنما يدين بأصله إلى مصر .

ومهما يكن من شىء فقد وضع المصريون أسس الطب منذ أكثر من خمسين قرنا ، وكانوا أول من ألف الكتب والأبحاث الطبية ، وأقدم من قام بمحاولة جزئية لفهم تركيب جسم الإنسان ووظائفه وأعضائه وما يتعرض له من أمراض وآفات ، وأقدم من باشر العمليات الجراحية ، وقام بتحضير الأدوية واستخدم الجبائر والضمادات وغيرها .

الحساب والهندسة[1] :

وفق المصريون منذ بداية الأسرات على الأقل إلى كتابة الأعداد حتى المليون . وكانت الأعداد من ١ إلى ٩ تكتب بخطوط قصيرة ، أما الأعداد ١٠، ١٠٠، ١٠٠٠، ١٠٠٠٠، ١٠٠٠٠٠ ومليون فكان لكل منها علامة خاصة ، وكانت مسائل الحساب والهندسة تحل بطرق يختلف ماعرف منها عما يتبع فى حلها فى الوقت الحاضر . وهى تعتمد على الجمع ؛ ففى عمليات الضرب كان يضعف العدد المضروب عدة مرات حتى يقرب من العدد المضروب فيه . ثم تجمع مضاعفات المرات التى يعادل مجموعها العدد المضروب فيه فيكون حاصل الجمع هو نتيجة الضرب . ومن أمثلة ذلك :

٩ × ١٥

*	١	١٥	*
	٢	٣٠	
	٤	٦٠	
*	٨	١٢٠	*
	٩	١٣٥	

حاصل الضرب ١٣٥

١١ × ١٤

*	١	١٤	*
*	٢	٢٨	*
	٤	٥٦	
*	٨	١١٢	*
	١١	١٥٤	

حاصل الضرب ١٥٤

وفى عمليات القسمة كان يضعف المقسوم عليه عددا من المرات حتى يقرب من المقسوم ، ثم إذا اقتضى الأمر كان ينصف المقسوم عليه مرات متتالية ، وناتج القسمة هو عدد مرات التضعيف الذى يبلغ مجموعه المقسوم وذلك وحده أو معه مجموع عدد التنصيف . ومن أمثلة ذلك :

---

(١) من أهم البرديات فى الهندسة والحساب « بردية رند » من عهد الهكسوس فى المتحف البريطانى فى لندن .

٣٧٨ ÷ ٩	
١	٩
٢ *	* ١٨
٤	٣٦
٨ *	* ٧٢
١٦	١٤٤
٣٢ *	* ٢٨٨
٦٤	٥٧٦
٤٢	٣٧٨

خارج القسمة ٤٢

١٧٠ ÷ ٨	
١ *	* ٨
٢	١٦
٤ *	* ٣٢
٨	٦٤
١٦ *	* ١٢٨
$\frac{1}{2}$	٤
$\frac{1}{4}$ *	* ٢
٢١$\frac{1}{4}$	١٧٠

خارج القسمة ٢١$\frac{1}{4}$

ولم يستخدم المصريون من الكسور المركبة غير $\frac{2}{3}$ و $\frac{3}{4}$ ؛ وفى غير ذلك استخدموا الكسور البسيطة بكثرة فكانوا يكتبون الكسر $\frac{1}{12}$ على هذا النحو $\frac{1}{3}$ $\frac{1}{4}$ ؛ وكانت تعد لذلك جداول يستعين بها الحاسب .

ومنذ وقت مبكر اهتدى المصريون إلى مسح الأراضى وتعيين حدودها ، وذلك لأن النيل كان يغير دائما ما يقع على شاطئيه من أرض ، فينقص منها أو يضيف إليها ، وكان فيضانه يغير من معالم ما يغمره منها ويزيل حدوده ، بينما كان لابد لعمال الحكومة من معرفة مساحة الأراضى المزروعة ليمكن تقدير الضرائب عليها ، كما كان مما يعنى المعابد وأصحاب الأراضى ألا يقتطع شىء مما يملكون . وقد ساعد هذا كله على نشأة علم المساحة والهندسة فى مصر وتقدمه فيها . وليس من شك فى أن حدود الأقاليم كانت فى الدولة القديمة على الأقل ، ثابتة ومسجلة فى سجلات الدولة والمعابد الرئيسية ، كما أنه كانت للأراضى الزراعية سجلات تدون فيها . وقد جاء عن « امنمحات الأول » و « سنوسرت الثانى » أن كلا منهما أعاد لكل مدينة حدودها وفق ما ورد عنها فى الوثائق القديمة . وكانت وحدة قياس الأطوال هى الذراع الملكى وطوله ٥٢٫٣ سم[1] ، ويحتوى على سبع قبضات ، كل قبضة أربعة أصابع . وكان يستخدم للأطوال الكبيرة مقاس طويل مقداره مائة ذراع .

وقد اهتدى المصريون إلى قياس مساحة الدائرة بما يقرب من مساحتها الصحيحة ، وأوفى دقة مما استطاعه أهل بابل . وفيما أقاموه من منشآت ما يدل على أنهم عرفوا كثيرا من المسائل الرياضية ومنها حجم الهرم الكامل والهرم الناقص القمة .

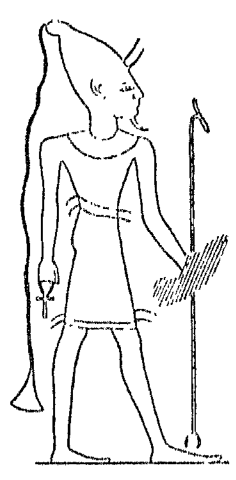
(١) هناك أيضا ذراع قصير يشتمل على ست قبضات فقط أى أن نسبته إلى الذراع الملكى هى ٦ : ٧ .

ومهما يكن من شيء فقد طبقوا معارفهم الرياضية فيما أنشأوا من آثار بما يثير الإعجاب والدهشة ؛ ولذلك فهم الذين وضعوا الأسس الأولى فى علوم الرياضة قبل الاغريق بعشرات القرون ، وقد زار كثير من فلاسفة الإغريق مصر وعلى رأسهم « طاليس »[١] ، ووجدوا فيها من المعارف والعلوم ما أفادهم بغير شك فى أبحاثهم وعلومهم .

الهكسوس

تولى عرش مصر بعد الأسرة الثانية عشرة ملوك ضعاف كان أغلبهم لا يكاد يحلى التاج مفرقه حتى يغتصبه منه آخر ، وبذلك كان عهد الأسرتين الثالثة عشرة والرابعة عشرة عهد ضعف واضمحلال فى جميع مظاهر الحياة فى مصر ، مما أتاح الفرصة للهكسوس دخول مصر .

ولفظ الهكسوس تعبير مصرى من كلمتين يعنى « حكام البلاد الأجنبية »[٢] ، أطلقه المصريون على رؤساء القبائل الأسيوية قبل دخول الهكسوس مصر ، ثم التصق بهؤلاء وسار علما عليهم . ولم يكن الهكسوس شعبا من جنس واحد ، وإنما كانوا أخلاطا مختلفة من شعوب الشرق الأدنى دفعهم عن مواطنهم الحوريون الذين نزلوا فى أعالى الفرات وشمال سوريا وأنشأوا مملكة ميتانى التى كان لها شأن كبير مع المصريين فى عهد الدولة الحديثة . وقد نفذ الهكسوس إلى مصر وتغلبوا على المصريين لضعف حكومة مصر ولاستخدامهم الخيل والمركبات الحربية فى قتال المصريين . وجعلوا عاصمتهم «أواريس» فى شرق الدلتا كما أقاموا حاميات لهم فى بعض مراكز مصر الهامة.



(شكل ٦٦) « سوتخ »

وقد مكثوا فى مصر نحو قرن من الزمان ، وكان عهدهم مظلما تشهد بذلك قلة آثارهم وانحطاطها من الناحيتين الفنية والصناعية ؛ وأغلب ملوكهم شخوص ضعيفة لم يكن لهم أثر يذكر . ويذكر عنهم « مانثو » أنهم « استولوا على مصر بغير قتال ، وقتلوا الزعماء وأحرقوا المدن بوحشية ، وخربوا معابد الآلهة واشتطوا فى معاملة السكان ، وقتلوا كثيرا من الرجال وسبوا النساء والأطفال » . ومع ذلك لم يلبثوا أن تأثروا بالحضارة المصرية ، واتخذوا بعض العادات المصرية ، فكتبوا أسماءهم بالخط الهيروغليفى ، ومنهم من اتخذ أسماء وألقابا مصرية، وكانوا يعبدون إلها يشبه فى طبيعته الإله « ست » ، وكانوا يسمونه « سوتخ » (شكل ٦٦) .

---

(١) وهو أحد حكماء الإغريق السبعة ، وقد قضى فى مصر فترة من الزمن ، اتصل فيها بكهنة منف ويقال إنه تعلم عنهم الرياضة والفلك والفلسفة .

(٢) وليس كما ذهب « مانثو » من أنه يعنى « ملوك الرعاة » .

الفصل السابع

الدولة الحديثة

(الامبراطورية المصرية)

«طيبة» وآثارها:

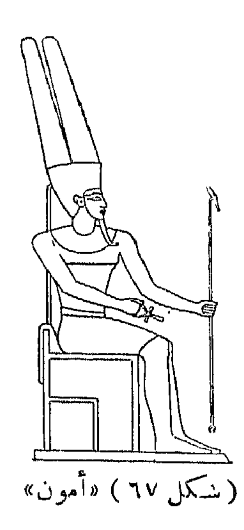
حظيت « طيبة » بتاريخ طويل ، اعتلت فيه ذرى المجد وبلغت منه ما لم تبلغه مدينة أخرى فى الشرق القديم ، حتى إذا جاوزت شهرتها الآفاق ، إذا بها تتعرض لما يفقدها سلطانها السياسى ومركزها العالمى ثم منزلتها الدينية ، ولم يبق لها بعد ذلك إلا ما تنطق به آثارها الضخمة وتتحدث به أخبارها .

كانت « طيبة » عاصمة المقاطعة الرابعة فى الصعيد ، وكان اسمها القديم « واست » ، أى « الصولجان »، ثم أصبح يكتفى بتسميتها « نوت » ، أى « المدينة » ، لعظمتها وشهرتها ؛ وقد عرفت فى « العهد القديم » باسم « نو » أو « نو آمون » . على أن الإغريق سموها « طيبة » لسبب غير معروف على وجه أكيد . وقد سماها العرب « الأقصر » ، لكثرة ما بها من معابد كانوا يسمونها القصور .

ويمتد تاريخ « طيبة » إلى بداية الأسرات على الأقل ، فقد كشف بين أطلال الكرنك عن آثار معبد من ذلك العهد . على أنه لم يكن لها شأن يذكر طوال عهد الدولة القديمة ، وإن كان من حكامها فى الأسرة السادسة من شيد مقبرته فى البر الغربى منها .

وقد بدأ نجمها يبزغ عند ما قوى حكامها وأخذوا ينافسون ملوك أهناسيا ، وكانوا أقل ثقافة ممن ينازعونهم ، ولكنهم كانوا أكثر جرأة وإقداما . ولما تمكن « نب حبت رع منتوحتب » من توحيد البلاد وتأسيس الأسرة الحادية عشرة ، غدت « طيبة » عاصمة البلاد ، وبدأ شأنها يعلو كثيرا ، وطفقت تتقدم فى مدارج الحضارة بفضل تركيز السلطة فى يدى حكومة قوية وما أبداه المصريون من نشاط وعزم للنهوض بالبلاد من جديد . وكان ملوك هذه الأسرة يتخذون « منتو » ، ذا رأس الصقر ، إلهاً لهم ، فلما انتصروا على أعدائهم أصبح « منتو » إله الحرب والقتال .

ولئن كان ملوك الأسرة الثانية عشرة قد عادوا فاتخذوا عاصمتهم مرة أخرى فى الشمال بالقرب من منف فهم مع ذلك لم يهملوا شأن « طيبة » موطنهم الأصلى ، فقد عملوا على تشـييد المعابد فيها وإن لم يبق منها إلا القليل . ومنذ ذلك العهد بدأ « أمون » (شكل ٦٧) إله الأسرة المالـكة يعظم ويعلو صيته . ويعنى اسمه « الخفى » ، وكان قمينا بهذا الاسم أن تنتشر عبادته وخاصة بعد أن اتحد مع « رع » وأصبح اسمه « أمون رع » ؛ وكان يلقب بأنه « سيد عروش القطرين » بما كان يتفق وما أصبح للملك نفسه من سلطان بعد توحيد القطرين .



(شـكل ٦٧) «أمون»

وارتبط الإله « أمون » بطيبة برباط وثيق ، فـكان مايناله أحدهما من شأن للآخر منه نصيب مماثل ، حتى لقد كان تاريخ أحدهما هو تاريخ الآخر إلى حد بعيد . وارتبط « أمون » كذلك بالملـكية ، فما كانت تصيبه من توفيق إنما كان ينسب إليه ؛ وكانت تغدق عليه العطايا والهبات الـكثيرة بما كان يزيد من شأنه ويعلى من قيمته فى البلاد . وكان « أمون » و « موت »[1] و « خنسو »[2] يؤلفون معا ثالوث طيبة المقدس ، الأب والأم والابن .

وفى أواخر عهد الهـكسوس قامت « طيبة » تحت راية الإله « أمون » بتحرير البلاد من أعدائها المغتصبين ، فازداد بذلك شأنها وشأن الإله « أمون رع » ، وقد غدا الإله القومى للبلاد ومحررها . ولم تلبث أن امتدت فتوحات مصر فى آسيا وبلاد النوبة ، وغدت « طيبة » عاصمة امبراطورية واسعة ترد إليها الغنائم والجزى ، وتتدفق عليها الذخائر والخيرات ، ويساعد على العمل فيها أعداد غفيرة من الأسرى من أجناس مختلفة . وكان لأمون رع من ذلك نصيب وافر ، فأقيمت له المعابد الفخمة فى « طيبة » وأملاك مصر فى الخارج ، وزيد كثيرا فى مبانى معبد الـكرنك ، وشيدت فيه البوابات الضخمة والمسلات السامقة .

---

(١) كانت إلهة محلية فى موضع فى جنوب الـكرنك ، وكانت تمثل على هيئة سيدة على رأسها التاج المزدوج أو على هيئة الرخمة .

(٢) إله محلى للقمر ، وكان يمثل على هيئة صبى على رأسه هلال من فوقه قرص القمر .

وبلغت « طيبة » غاية ازدهارها فى عهد « امنحتب الثالث » ، فشيد فيها الكثير من المعابد وزينها بالحدائق . وعم الرخاء أهل « طيبة » وخاصة الأمراء وكبار الموظفين ، فبنوا القصور ذات الحدائق وأثثوها بالرياش الفاخر ، وارتدوا الملابس الجميلة ، واقتنوا الجياد المطهمة والمركبات السريعة ، وأدبوا المآدب الفخمة ، واستمتعوا بالرقص والغناء ، ورقت مشاعرهم ، ورهفت أحاسيسهم . وساهمت طبقات الشعب بجهودها فى نواحى النشاط المختلفة فازدهرت الفنون والصناعات على اختلافها من عمارة ونحت ونقش وتصوير ، وحلى وأدوات زينة وأثاث وزجاج وغيرها ، وكانت كلها تتميز بجمالها ودقة صنعها وأناقة أشكالها . ولم تكن نواحى النشاط فى « طيبة » قاصرة على سكانها وحدهم ولكن مما لاشك فيه أن ميناء « طيبة » كان يموج بالحركة والنشاط ، فتدخل إليه السفن ناقلة إليها منتجات مصر وحاصلاتها ، أوجزى أملاكها فى الخارج وخراجها ، أو وفود الملوك الذين يخطبون ود مصر ومعهم هداياهم ، أو التجار الأجانب يجلبون سلعهم ؛ ولاشك أن أفواجا منهم كانوا يجوبون شوارعها ويشاهدون معابدها بملابسهم المتنوعة وقسمات وجوههم المختلفة فيثيرون اهتمام أهل « طيبة » ودهشتهم ؛ وهكذا كانت « طيبة » عاصمة العالم المتحضر وأعظم مدينة فيه .

وفى البر الغربى من « طيبة » كان الملوك منذ الأسرة الحادية عشرة يحفرون مقابرهم ، ويشيدون معابدهم الجنازية الفخمة ، حيث تؤدى لهم الطقوس ، ويلحقون ببعضها فى بعض الأحيان قصورا ينزلون فيها مع نسائهم بعض الوقت : وكان الأشراف وكبار الموظفين يحفرون مقابرهم كذلك فى سفح الهضبة حيث كانت تؤدى لهم فى مقصوراتها الشعائر الجنازية . وكان الصناع والفنانون ممن يعملون فى مقابر الملوك والأشراف يقيمون غير بعيد . وهكذا كانت مدينة الموتى فى البر الغربى من « طيبة » على نحو « طيبه » نفسها تعج بالحركة والعمل والحياة النشيطة .

ولكن لما تولى « أخناتون » العرش ، لم يلبث أن هجر « طيبة » وشيد لنفسه عاصمة جديدة فى « تل العمارنة » وسماها « آخت أتون » ، ولابد أنه وجد فى قوة « أمون » وكهنته ما اضطره إلى ذلك ؛ وقد نقل معه إلى عاصمته الجديدة الفنانين والصناع ، وطفق يضطهد « أمون » وكهنته ويغلق معابده ويستولى على أملاكها ، ويرسل عماله لمحو اسمه من على الآثار ، وبذلك أهملت « طيبة » نحوا من إثنى عشر عاما. ولكن العاصمة الجديدة لم تستطع بعد موت « أخناتون » البقاء ، فهجرها سكانها واستأنفت « طيبة » سيرتها الأولى وطفقت تنشد أناشيد النصر وتحتفل بأعياد « أمون » احتفالات رائعة يشترك فيها الكهنة ورجال الدولة والجند وطبقات الشعب

المختلفة ، وكان من الأعياد مايستغرق عدة أيام [١] . ثم كان أن عمد « حور محب » وغيره من الملوك [٢] إلى اثبات اسم « أمون » حيث محاه عمال « أخناتون » ، وعملوا على إقامة المعابد والهياكل له وإغداق العطايا والهبات عليه .

وأدى ضعف من تولى العرش من الرعامسة بعد « رمسيس الثالث » إلى سوء إدارة البلاد وتدهور الحالة الاقتصادية فكثرت الاعتداءات على المقابر الملكية ، وزاد فى نفس الوقت نفوذ الكهنة ، ولم يلبث أن اغتصب « حريحور » ، رئيس كهنة « أمون » ، العرش . ولكن ذلك أدى إلى انقسام مصر ، ففقدت « طيبة » بذلك أهميتها السياسية ، وغدت مركزا دينيا ليس غير ، ولم يعد إليها مقر الحكم مرة أخرى إلا فى عهد الملوك الأثيوبيين ، أصحاب الأسرة الخامسة والعشرين ، ولكنهم سرعان ما أثاروا حقد « أشور » بتدخلهم فى فلسطين وسوريا دون أن يكونوا أندادا لهم ، فدخل الأشوريون مصر ونهبوا « طيبة » وكان لذلك وقع بالغ أدهش الشرق ودهاه .

ثم نالت « طيبة » فى عهد البطالمة شيئا من اهتمامهم ، ولكن « بطليموس الأول » أنشأ مدينة بالقرب من « أخميم » سماها « بطلمية » فغدت أكبر مدن الصعيد وكانت منافسا خطيرا لطيبة .

وقامت « طيبة » فى عهد البطالمة والرومان بعدة ثورات للتحرر من ربقة الغاصبين ولكن لم يقدر لمحاولاتها شىء من النجاح وقد استهدفت للحصار الطويل والتدمير مما كان له أسوأ الآثار على معابدها وهياكلها . ومع ذلك كانت شهرتها وآثارها لا تزال تطن فى الأسماع وقد جاء عنها فى الإلياذة :

طيبة ذات المنازل وافرة الثراء ،
طيبة ذات الأبواب المائة حيث
ينطلق من كل باب مائتا فارس بجيادهم
ومركباتهم شاكى السلاح .

ووصفها : « ديودور » « بأنه ليس كمثلها تحت الشمس مدينة حليت بالآثار الفخمة الكثيرة من الذهب والفضة والعاج ، والعديد من التماثيل الضخمة ، والمسلات التى قدت من قطعة واحدة من الحجر » . وكانت فى العصر الرومانى مقصد الزوار ؛ ولا تزال تهوى إليها أفئدة منهم من كل صوب لتشاهد ما تحويه من آثار تاريخها الطويل .

---

(١) استغرق أحد أعياد « أمون » ٢٧ يوما فى عهد « رمسيس الثالث » .

(٢) وخاصة « رمسيس الأول » و « سيتى الأول » و « رمسيس الثانى » .

نشأة الإمبراطورية

أثار حكم الهكسوس فى نفوس المصريين البغض والكراهية لهم ، خاصة وأن المصريين كانوا أرقى منهم حضارة ، كما أن أيامهم المجيدة فى الدولة الوسطى كانت لا تزال عالقة بأذهانهم ، فسرت فى البلاد دعوة التحرير وطرد الغاصب الأجنبى ، وتزعم هذه الدعوة أواخر ملوك الأسرة السابعة عشرة فى «طيبة» ، وذلك حوالى أوائل القرن السادس عشر قبل الميلاد . وهبت البلاد تؤيدهم بما تستطيع من قوة وعتاد ، وساهمت بعض نساء البيت المالك فى معاونة الملوك وشد أزرهم ، وتنظيم الجهود والاهتمام بالجيش . واستشهد الملك « سقننرع » فى حومة القتال[1] ، وحمل لواء الجهاد عنه ابنه الملك «كامس » ، واستطاع المصريون أن يستخلصوا من أعداء البلاد مصر الوسطى ، وفرت من أمامهم مركبات الهكسوس الحربية فى غير نظام لشدة ما لاقته من نبال المصريين وصدق بلائهم .

ولم يعش « كامس » طويلا ، فتولى العرش مكانه الملك « أحمس » ، وواصل المصريون الجهاد تحت راية الإله « أمون رع » ، وأخذوا يطاردون الهكسوس حتى حاصروهم فى عاصمتهم « أواريس » . ولما تم لهم طردهم منها تعقبوهم فى آسيا وحاصروهم فى « شاروحين » فى جنوب فلسطين ثلاثة أعوام حتى استولوا عليها ، وكانت تلك هى الخطوة الأولى فى قيام الإمبراطورية المصرية . ولم يلبث المصريون حتى قاموا بحملة أخرى استولوا فيها على ثغور فينيقية ، وفرضوا عليها حمايتهم لتكون قاعدة لهم فى أعمالهم الحربية . وفى نفس الوقت اهتم الملك « أحمس » ببلاد النوبة السفلى فأعادها إلى مصر وبسط نفوذه فيها حتى الشلال الثانى فيما يرجح .

وقد أبدى الضباط والجنود المصريون فى هذه الحروب شجاعة وإقداما ، ومنهم « أحمس بن إبانا » ، وكان أبوه ملاحا ؛ وقد وصف فى نقوش مقبرته فى الكاب[2] المرحلة الأخيرة لطرد الهكسوس من مصر وحصار « أواريس » ، وساهم فى الاستيلاء عليها وعلى حصن « شاروحين » مساهمة فعالة ، كما ساهم « أحمس باان نخبت » فى الحملة الفينيقية . وكان لانتصار الجيوش المصرية فى طرد أعداء البلاد ومد نفوذ مصر خارج حدودها أثر بالغ فى إشاعة روح الحماس فى الشعب وثقته بنفسه .

ويبدو أن حدود مصر امتدت فى عهد الملك « أمنحوتب الأول » إلى نهر الفرات فى آسيا وإلى جنوب الشلال الثالث فى بلاد النوبة العليا ؛ ومهما يكن من شىء فقد أقام

---

(١) بفحص مومياه أتضح أنه مات وهو فى عنفوان الشباب بسبب جراح عميقة فى رأسه .

(٢) بازاء « هيرا كونبوليس » شمال ادفو .

« تحوتمس الأول » نصبا له على شاطئ الفرات ، ومد أملاك مصر فى بلاد النوبة حتى « نباتا » عند سفح جبل « بركال » بالقرب من الشلال الرابع (١) . وكان المصريون يكتفون من ولاة آسيا بدفع الجزية ، إلا أنهم كانوا يضطرون من وقت إلى آخر إلى القيام بالحملات التأديبية ليشعروهم بقوتهم ويلزموهم احترام تعهداتهم .

أما فى بلاد النوبة فقد خطوا فى تمصيرها خطوات واسعة ، فأخذت تنتشر فيها الحضارة المصرية مكان الثقافة البدائية ، ونصب عليها حاكم مصرى يحمل لقب « الابن الملكى فى كوش » ، (٢) وكانت سلطته تمتد من « الكاب » حتى « نباتا » .

وفى عهد « حاتشبسوت » عنيت مصر بتنظيم أحوالها الداخلية واستثمار المحاجر والمناجم ، فنشطت الفنون والصناعات وازدهرت التجارة وكثرت البعثات التجارية وعلى رأسها بعثة كبيرة إلى بلاد « بنت » ، عادت منها محملة بالكثير من منتجاتها وسلعها ، ومنها الذهب والبخور وأشجار اللبان (٣) .

على أن ضعف « تحوتمس الثانى » وقيام « حاتشبسوت » بالملك ، أضعف من نفوذ مصر فى آسيا ، مما ساعد على قيام تحالف قوى بين دويلاتها تحت زعامة أمير «قادش» (٤) ومن ورائه ملك « ميتانى » .(٥) وقد جابهت مصر فى عهد « تحوتمس الثالث » ذلك الحلف وانتصرت على الحلفاء فى « مجدو(٦) » انتصارا عظيما ، غير أن أمير « قادش » استطاع أن يلوذ بالفرار . وتوالت حملات المصريين بقيادة « تحوتمس الثالث » سنة بعد سنة فى فلسطين وسوريا نحو عشرين سنة (٧) ، أبدى فيها جيش مصر و « تحوتمس الثالث » من المهارة والحنكة الحربية والسياسية ما أقام سلطان مصر فى آسيا على أساس ثابت مكين . فقد تم فى الحملة الأولى الاستيلاء على فلسطين وتحصين حدودها الشمالية ؛

---

(١) ظلت حدود مصر الجنوبية عند « نباتا » حوالى ٥٠٠ عام .

(٢) غلب فى الدولة الحديثة اسم « كوش » على بلاد النوبة وقد ورد هذا الاسم لها كذلك فى « العهد القديم » . ولا يعرف على وجه أكيد السبب فى تسمية حاكم بلاد النوبة بذلك اللقب ، ولعل أول من نصب عليها كان ابن ملك ثم بقى لقبه لمن تولى بعده وان لم يكن من أولاد الملك ؛ على أية حال كان صاحب هذا اللقب بمثابة نائب الملك فى كوش .

(٣) مثلت تفاصيل هذه البعثة بدقة بالغة على جدران معبد «حاتشبسوت» الجنازى فى الدير البحرى .

(٤) كانت « قادش » من أقوى مدن سوريا وأحصنها ، وهى تقع على نهر العاص حيث تشرف على وادى النهر الكبير ، وهو الطريق من الساحل إلى قلب سوريا ، كما تشرف كذلك على وادى نهر العاص ، وهو الطريق إلى بلدان شمال سوريا .

(٥) مملكة نشأت فى أعالى الفرات وكانت تحرص على أن يمتد نفوذها إلى سوريا .

(٦) قلعة حصينة فى الجزء الجنوبي من سهل ازدريل .

(٧) بلغ عدد الحملات فى عهد « تحوتمس الثالث » ست عشرة حملة على الأقل .

وتم فى الحملة الخامسة الاستيلاء على الثغور الفينيقية لتكون قاعدة للحملة على «قادش» ، ولتيسير المواصلات بين آسيا ومصر لأن الاتصال البحرى أسرع وأصلح من الاتصال البرى . وفى الحملة السادسة تم الاستيلاء على « قادش » العدو العتيد ؛ وفى الحملة السابعة أنشئت بضع قواعد بحرية على شاطئ فينيقية لتكون مستودعاً للجزى المفروضة على أملاك مصر فى آسيا ؛ وفى الحملة الثامنة وصلت الجيوش المصرية إلى نهر الفرات وعبرته إلى شاطئه الشرقى .

وهكذا لم يطوح « تحوتمس الثالث » بجيوش مصر فى مناطق غير مأمونة دون أن يتخذ لذلك من الخطوات ما يضمن الانتصار وحماية الجيش . وكان يقضى فى أكثر الأحيان فترة من كل عام فى آسيا لتنظيم ما استولى عليه من أقاليم ولإرهاب من تحدثه نفسه من الولاة بالخروج على طاعة مصر . وقد تم ذلك كله فى تدبير وإحكام بما يثير الدهشة بفضل كفاية الجنود المصريين وجلدهم وما كان عليه قائدهم من نشاط ومهارة لا تبذها مهارة قائد آخر وخاصة فى التاريخ القديم . وكان يؤتى بأولاد الولاة السوريين إلى مصر ليشبوا على عادات أهلها ، ويتطبعوا بطباعهم ، وتشرب قلوبهم حب مصر ، وتكون صلتهم بها أقوى وأشد إذا صارت إليهم مراكز آبائهم ، على نحو ما كان يصنع الرومان وغيرهم من الأمم الحديثة . وقد أخلدت ولايات فلسطين وسوريا إلى الهدوء ، وبلغ من قوة الإمبراطورية المصرية إذ ذاك أن هابها الأشوريون والبابليون والحيثيون وأهل « قبرص » و « بنت » ، فأرسلوا لمصر الجـــزى والهدايا . وهكذا كانت الإمبراطورية المصرية تمتد من الشلال الرابع جنوبا حتى نهر الفرات فى الشمال الشرقى ، وكانت سائر الممالك القريبة أو البعيدة تحرص على أن تكسب ودها فتتقدم لها بالهدايا والعطايا الثمينة .

الجيش :

كانت أقاليم مصر فى كثير من الأحيان تتعرض لاعتداءات البدو النازلين فى شرقها أو غربها طمعا فى خيراتها وما أفاءته الحضارة عليها من نعم . فكان لا بد إذن لكل إقليم من أن يعتمد على قوة أبنائه ، يستنفرهم فيلبون لإرهاب المعتدين وتأديبهم . ولم يكن البدو فى أغلب الأحيان يصمدون لقتال جدى ، وإنما كانوا يلوذون بالفرار فى فيافى الصحراء . وكانت الأقاليم تلجأ كذلك حين القيام بالمشروعات العامة ، مثل حفر الترع وإقامة الجسور ، إلى تجميع الشبان لها فيقومون بها ثم يعودون إلى أعمالهم بعد أن يتموها .

ولم يكن للحكومة المركزية فى الدولة القديمة جيش ثابت يتخصص لأعمال الدفاع والحرب(١)، وإنما كانت تستعين برجال الأقاليم حين الحاجة ثم تسرحهم إذا انتهى الغرض الذى جندوا من أجله . ومن أهم ما كانوا يجندون له حراسة البعثات ، التى كانت ترسل لاستثمار المناجم والمحاجر ، وحماية البعثات التجارية . على أنهم كانوا يستخدمون إلى جانب ذلك فى الأعمال العامة كنقل الأحجار وغيرها .

وفى عهد « بيبى الأول » تعرضت حدود مصر الشمالية الشرقية لاعتداء البدو الساميين ، فجمع « أونى » الجند من جميع أقاليم الصعيد والدلتا ، وضم إليهم عددا من النوبيين والليبيين ، وبذلك تكون له جيش عظيم استطاع أن يقضى به على العدو إثر عدة حملات .

وفى العصر الإقطاعى أدت الاضطرابات الداخلية واعتداءات الأقاليم بعضها على بعض إلى اعتماد أمراء الأقاليم على فرق محلية ثابتة من الجند لدعم النظام والأمن فى الأقاليم والدفاع عنها إذا تعرضت لاعتداءات خارجية . وكانت هذه الفرق تتألف من شبان الأقاليم ومن الجنود المرتزقة من النوبيين والبدو الساميين والليبيين . وفى متحف القاهرة نموذجان لسريتين من الجند (شكل ٦٨) ، تتألف كل منهما من عشرة صفوف منتظمة ، بكل صف أربعة جنود ، وسلاح إحدى السريتين الحراب الطويلة والتروس الخشبية



(شكل ٦٨)
سريتان من الجند ، فى المتحف المصرى

(١) ظهر لقب « قائد الجيش » فى الأسرة الأولى على الأقل ، ولكن ظهور هذا اللقب لا يدل حتما على قيام جيش ثابت .

المغشاة بالفراء ، وسلاح الأخرى القسى والنبال . وقد أشاد أحد حكام أسيوط فخورا بشكر من كان يدركه الليل فى الطريق وثنائه عليه ، لأنه كان كمن فى بيته ، إذ كانت سطوة جنده تحميه . وكان العصر الإقطاعى عصر تفاخر بالقوة والشجاعة[١]، بما ينبىء أن المصريين استجابوا إذ ذاك إلى مطالب الوقت وما كانت تقتضيه الظروف السائدة .

وفى الأسرة الثانية عشرة كان أمير الإقليم أو ابنه يرأس فرقة محلية لمصاحبة الملك فى حروبه فى بلاد النوبة ، أو لجلب الذهب من مناجم وادى العلاقى . على أنه إلى جانب ذلك كان للملكية فرقة خاصة ثابتة تسمى « أتباع الحاكم » ، قوامها نخبة مختارة من الضباط ، وقد اعتمد عليها ملوك ذلك العهد فى تدعيم سلطانهم وفى حروبهم . وكان الجند جميعا من المشاة ، وعدتهم للقتال البعيد القسى والسهام وأحيانا المقلاع ، وللقتال القريب الحراب وفؤوس القتال والخناجر القصيرة والتروس[٢].

وفى الدولة الحديثة حرر الجيش المصرى البلاد من الهكسوس ، وتعقبهم فى آسيا ، ومد حدود مصر حتى نهر الفرات ، وكانت له بذلك جولات صادقة مع الأعداء ، فقضى على ما دبروا من تحالف ، وأقام سلطان مصر فيما فتحه من بلدان على أساس وطيد ، كما مد حدود مصر الجنوبية حتى الشلال الرابع ، وبذلك كله ضمن لها مركز السيادة بين سائر شعوب العالم القديم ، فتسابقت الأمم لكسب صداقتها وتدفقت عليها الجزى والهدايا . ودعا ذلك إلى قيام جيش ثابت ، اشتد إقبال المصريين على الانخراط فيه ، وقد تذوقوا طعم النصر ، وسرت فيهم روح حربية مجيدة ، وغدا الضباط يتحدثون عن الحروب على أنها من متع الحياة . وهكذا لبى المصريون داعى الكفاح فى حينه ، وحرروا بلادهم من ربقة الأعداء ، وساروا بالقتال إلى أبعد غاياته . ولا يمكن أن يكون ذلك وليد الفجاءة ، وإنما المصريون يؤثرون السلام ، فإذا أذن مؤذن القتال أدوا فريضة الحرب كأحسن ما تؤديها أمة أخرى .

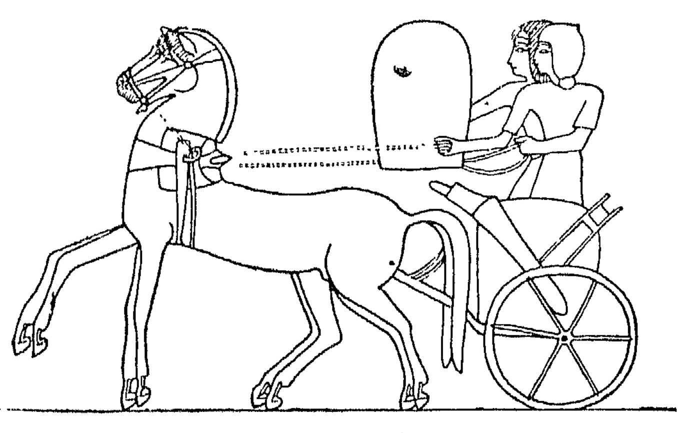
ومنذ بداية الأسرة الثامنة عشرة نشأت إلى جانب فرق المشاة فرقة المركبات الحربية ، وكان يعتمد عليها فى مفاجأة الأعداء وإلقاء الرعب والاضطراب فى صفوفهم ،

---

(١) وصف أحد أمراء الأقاليم نفسه بأنه كان قويا بالقوس وذا بأس بالسيف ؛ ونعت قائد نفسه بأنه ذو بأس يوم القتال .

(٢) من الصور ما يمثل الملك يهوى بدبوس القتال على رأس عدوه ، وهى صورة رمزية لا تمثل حدثا واقعيا فى عصر الأسرات عند ما كان عصر القتال بالهراوات قد انتهى منذ أواخر عصر ما قبل الأسرات على الأقل .

وقد ساعدت كثيراً فى كسب الحروب(١). وكان أفرادها من الضباط المتعلمين من أبناء الأشراف وكبار الموظفين(٢). وكان لكل مركبة رجلان ، أحدهما يقود المركبة والآخر يحارب بالقوس والمزراق (شكل ٦٩) . وكانت توضع على الخيل فى بعض الأحيان دروع محشوة . ويبدو أن الدولة كانت تزود ضباط هذه الفرقة بالخيل ، بينما كانوا



(شكل ٦٩)
مركبة حربية

يشترون المركبة من مالهم الخاص . وقد تهيأت لهم مكانة عظيمة فى الدولة حتى عدوا يحلون فى كثير من شئون الدولة مكان طبقة الموظفين وحكام الأقاليم . وكانوا يكافأون على بسالتهم بالهدايا من الأسلحة والحلى ، والأراضى المعفاة من الضرائب ، وبالعبيد ، أو بشارات الشرف وخاصة شارة الذبابة (شكل ٧٠) ، كناية عن إلحاح المحارب فى متابعة عدوه ، أو يمنحون الوظائف المدنية . وكانت للاصطبلات الملكية إدارات كبيرة عليها الرؤساء والكتبة للعناية بالخيل وتموين الجند . ثم كان أن فقدت فرقة المركبات أهميتها بعد عهد الرعامسة .

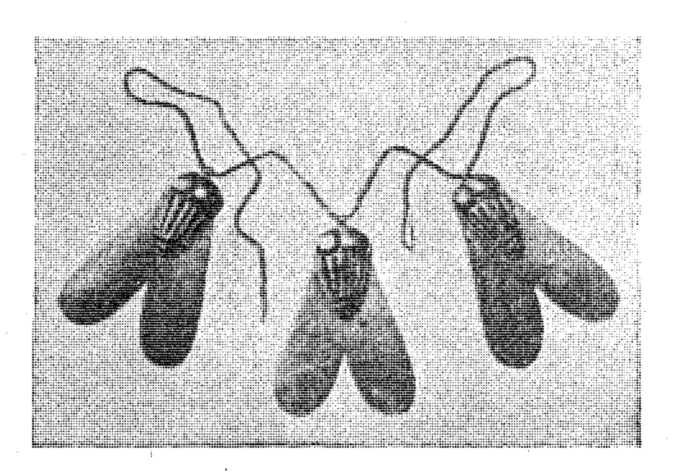
على أن أغلب الجيش إنما كان من الرماة ، وقد ظلت أسلحتهم كما كانت من قبل . وكان لهم دور كبير فى الانتصار فى الموقعة البحرية فى عهد رمسيس الثالث ، فقد أصلوا شعوب البحر المغيرين على مصاب النيل وابلا من النبال قبل أن تلتحم بهم السفن المصرية .

---

(١) أصبحت للمركبة أهمية كبيرة فى السلم والحرب على حد سواء ، ولقيمتها وأهميتها إذ ذاك كان الملوك فى رسائلهم بعد أن يتبادلوا السؤال عن أسرة كل يسألون عن خيله ومركباته .

(٢) ومنهم من كان فى عهد الرعامسة من الأمراء ، فمن أبناء رمسيس الثانى والثالث من كان يحمل لقب « السائق الأول لجلالته » و « المشرف على الخيل » .

وكان الملك هو الرئيس الأعلى للجيش ، وكان فى أكثر الأحيان يقود بنفسه الجيش لقهر الأعداء كلما بدرت منهم بادرة تمرد أو عصيان[١] . وقد وصف « تحوتمس الأول » نفسه بأنه « الباحث عن القتال » ؛ وخاطر « تحوتمس الثالث » بنفسه عندما اخترق فى طليعة جيشه طريقاً ضيقاً فى جبل الكرمل رغما عن مشورة قادة جيشه ، لكى لا يظن الأعداء أن به خوفا من لقائهم ؛ وكان « رمسيس الثانى » وحرسه الخاص فى الطليعة لقتال ملك الحيثيين وحلفائه ، فأحاط به أعداؤه بالقرب من « قادش » ، ولم ينقذه من هزيمة محققة سوى جرأته وشجاعته .



(شكل ٧٠)
شارة الذبابة

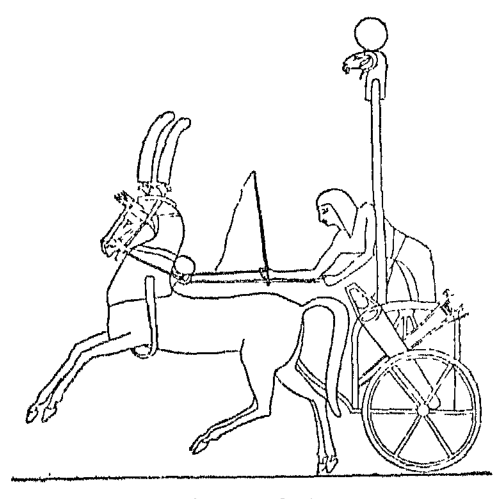
وكان يلى الملك على الجيش ولى عهده[٢] ، وكان يلقب بقائد الجند العظيم وحامل المروحة على يمين الملك .

وكان الجيش يقسم إلى فيالق ، وكان عددها فى عهد « رمسيس الثانى » أربعة سميت بأسماء الآلهة الأربعة العظيمة : « أمون » و « رع » ، و « بتاح » ، و « ست » . وكان كل فيلق يشتمل على عدد من السرايا لكل منها اسم خاص . وكان لكل قسم من الجيش

(١) كان الملك فى الدولة الحديثة يمثل فى حجم كبير وحده فى مركبته الحربية وهو يرشق الأعداء بوابل من سهامه ، على أن هذه الصورة هى صورة رمزية أكثر منها واقعية .

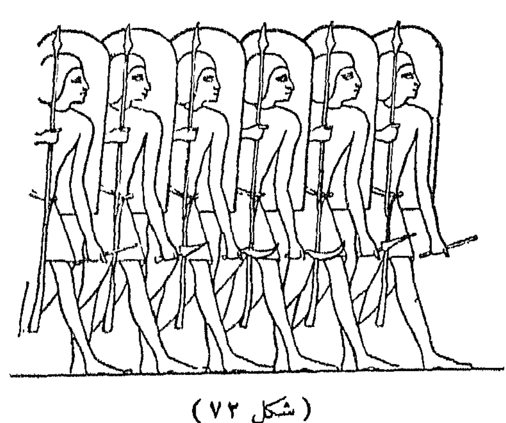
(٢) فى عهد العمارنة كان يقوم على الجيش نيابة عن الملك القائد « حورمحب » ، وكان من غير أفراد الأسرة المالكة وقد انتهى إليه بعد ذلك العرش ؛ وحدث ما يماثل ذلك مع « رمسيس الأول » (مؤسس الأسرة ١٩) ومع « حريحور » (فى الأسرة الحادية والعشرين) .

علم يعرف به ، وهو عبارة عن شكل من معدن ثمين ، يثبت فى قائم طويل ، ويمثل أسدا ، أو متصارعين ، أو سفينة ، أو رأس صقر ؛ وكان حملة الأعلام من الضباط الممتازين . وكان علم « فيلق أمون » يحمل فى عربة خاصة ، ويمثل رأس كبش يعلوه قرص الشمس (شكل ٧١) .



(شكل ٧١)
علم « فيلق أمون »

وكانت ملابس الجند عادة بسيطة تتألف من نقبة قصيرة تساعد على الحركة السريعة (شكل ٧٢) . وحين الحرب كان الجندى يتخذ أحياناً درعا من جلد أو برنز . وكانت دار السلاح تتبع بيت المال ، وقد اتسعت فى الدولة الحديثة كثيرا وكثر صناعها ، وكانت تزود الجيش بالسلاح واللباس والنعال .



(شكل ٧٢)
مشاة من عهد « رمسيس الثانى » وعدتهم الحراب والخناجر والتروس

وظل أغلب الجيش حتى بداية الدولة الحديثة من المصريين ، ولكن الجنود المرتزقة من الأجانب طفقوا يكثرون بين المشاة منذ عهد «أخناتون» ؛ ومنذ الأسرة التاسعة عشرة ازدادت أعدادهم كثيرا ، وكان بعضهم من أسرى الحرب . وكانو يرسلون إلى الحصون فى فلسطين وسوريا وبلاد النوبة ؛ وكان منهم النوبيون والليبيون والشردانيون [١] ، ذوو السيوف الطويلة المدببة ، والتروس المستديرة والخوذات ذات القرنين . ولما هزم « رمسيس الثالث » الليبيين هزيمة منكرة ، وآثروا الاندماج فى

(١) الشردانيون هم سكان جزيرة سردينيا فى البحر الأبيض المتوسط .

الشعب بالطرق السلمية ، زادت الفرق المساعدة منهم ، وأصبح حرس الملك الخاص يتكون منهم[١] ، مما أضر بالروح الوطنية فى البلاد وألقى بمستقبلها فى أيديهم . وقد استطاع « شاشانق الأول » ، رئيس الفرق المساعدة من الليبيين ، تأسيس الأسرة الثانية والعشرين ؛ ومنذ ذلك الوقت أصبح الجند يؤلفون طبقة وراثية ، وكان أغلبهم أجانب ، وليبيين خاصة ، وبذلك سلب من الشعب حق الدفاع عن نفسه .

وكان يعنى منذ الدولة القديمة على الأقل بقيد الجند وتموينهم ومنع العراك بينهم ، وألا ينهب أحدهم شيئا من المارة أو المدن . وقد برع المصريون فى إعداد الجيوش الكبيرة وتنظيمها ، ورسم خطط القتال وكفالة النجاح لها ، وليس أدل على ذلك من الاستيلاء فى عهد « تحوتمس الثالث » على الموانى الفينيقية لتكون قاعدة الأعمال الحربية ومكان تجهيز فرق الجيش وتموينها على الدوام . ومما هو جدير بالتسجيل إلى جانب ذلك كله حسن معاملة المصريين لأعدائهم وأسراهم ، على نقيض ما عرف عن الأشوريين وغيرهم من وحشية وقسوة .

الحصون :

كانت الظروف السياسية فيما قبل الأسرات تدعو المصريين إلى تحصين مدنهم بأسوار قوية من اللبن ذات أبراج أو شرفات . ولكن لما توحدت البلاد وتركزت السلطة فى يد حكومة قوية ، لم تعد المدن بحاجة إلى تحصين ، وإن ظلت القصور الملكية والمعابد تسور بجدران سميكة[٢].

وكانت مصر تعنى على الدوام بتحصين منافذها ومظان الخطر عند حدودها ، وخاصة الحدود الشمالية الشرقية ، التى كانت تسمى « الباب الشرقى »، والحدود الشمالية الغربية ، وكانت تسمى « الباب الغربى » ، والحدود الجنوبية ، وكانت تسمى « الباب الجنوبى » . وكان يقوم على شرق الدلتا فى الدولة القديمة حصن كان يسمى « بوابة امحوتب » ، ويظن أن « امحوتب » قد شيده فى عهد « زوسر ». وفى أعقاب الدولة القديمة تعرضت الدلتا لتوغل البدو الأسيويين فيها ، ولكن « ختى الثانى » ، مؤسس الأسرة العاشرة ، طردهم منها وحصن الحدود الشرقية وأسكن طوائف من الرجال فى شرق الدلتا يقومون بفلاحة الأرض وحماية الحدود معا .

---

(١) سبق أن اتخذ « أخناتون » حرسه الخاص من الأجانب الأسيويين والنوبيين والليبيين كما اتخذ « رمسيس الثانى » حرسه من شعوب البحر .

(٢) فى عهود الضعف والاضطرابات الداخلية فى الأسرات ٢١ — ٢٥ غدت المدن تحصن من جديد .

وقد عنى « أمنمحات الأول » بتحصين البحيرات المرة ، وهى مدخل « وادى طوميلات » المؤدى إلى قلب الدلتا ، وأنشأ حصنا كان يسمى « جدار الحاكم المشيد لرد الأسيويين» . وفى الدولة الحديثة كانت تصل هذه البحيرات فيما يبدو قناة عليها قنطرة ، يقوم على جانبيها حصنان[1] ؛ وكانت الآبار فى الطريق المؤدى إلى فلسطين محصنة بحصون صغيرة . وكان الحراس من الجند والضباط لا يسمحون لأحد بالمرور إلا إذا ذكر اسمه والغرض من رحلته ، وأبرز ما يحمله من رسائل ، وكانوا يعرضون ذلك كله على العاصمة أولا بأول .

وكان المصريون منذ الدولة القديمة على الأقل يجيدون اقتحام المدن المحصنة ؛ ففى إحدى المقابر فى « دشاشة[2] » صورة تمثل المصريين وهم يحاربون الأسيويين رجلا لرجل فى الخلاء ؛ ولا يكاد الأسيويون يوقنون بانتصار المصريين حتى يولوا الأدبار ويعتصموا داخل قلعتهم ؛ فيسرع المصريون إلى حصارها ، فمنهم من ينقب جدرانها بالمناسف ، ومنهم من يعتلى أسوارها بمرقاة[3] . وينصت الأسيويون مذعورين إلى أصوات نقب الأسوار ، ويهرع بعضهم إلى زعيمهم بتلك الأخبار ، فيشد شعره يأسا وقنوطا ، على حين تنقل النساء الجرحى وتعمل فى إسعافهم . ولا يكاد المصريون يحرزون النصر حتى يسوقوا عددا كبيرا من الأسرى بين رجال ونساء وأطفال . ومن عصر الدولة الوسطى صورة تمثل حصنا يرسل عليه المهاجمون وابلا من السهام ، بينما ينقب بعضهم جداره بمنسفة طويلة تحت ظلة واقية .

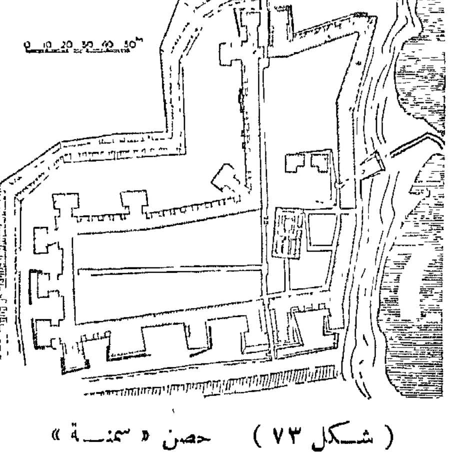
وفى الدولة الحديثة كان المصريون يقتحمون الحصون القوية فى فلسطين وسوريا فى شجاعة ومهارة ، ولم يقو حصن على الصمود أمامهم طويلا . وكان الأمراء يساهمون بشجاعة فى مهاجمة الحصون واعتلاء جدرانها . ولما تم لمصر امتلاك فلسطين وسوريا ، اتخذت فيها الحصون القوية ، وأقامت فيها الحاميات ، وكانوا من المصريين فى بداية الأمر ، ولكن أخذ يحل مكانهم الجنود المرتزقة من النوبيين والشردانيين والأسيويين أنفسهم تحت قيادة ضباط مصريين ، وكان يقوم بتموينهم أمراء المدن .

ولم يغفل المصريون فى الدولة الحديثة على الأقل حماية مصاب النيل ، فكانوا يغلقونها إلا عن السفن الملكية . وكانت الحدود الغربية موضع رقابة شديدة كذلك .

---

(١) عند حصن « شارو » (سلى) بالقرب من القنطرة الحالية .
(٢) وتقع غربى بحر يوسف بإزاء « بيا » تقريبا .
(٣) فى منظر مماثل فى إحدى مقابر صقارة استخدم المهاجون مرقاة تتحرك على عجلتين .

وفى بلاد النوبة اهتم المصريون وخاصة فى عهد الأسرة الثانية عشرة بإقامة سلسلة من الحصون القوية تمتد من « إلفنتين » حتى الشلال الثانى ؛ وقد روعى فى الحصون الجنوبية أن تكون بحيث يستطيع حماتها التعاون معا إذا تعرضوا للخطر[1]. ومن أهم هذه الحصون : حصن « سمنة » (شكل ٧٣) على الجانب الغربى من الشلال الثانى ، وقد شيد فى بقعة من الجرانيت لم يترك من حولها موضع غير محصن يمكن أن تستقر فيه قدم العدو ، فقد أحيط من جوانبه الثلاثة البعيدة عن النهر بخندق . وكان ذا جدران سميكة من اللبن ، يتفاوت سمكها بين الخمسة والثمانية أمتار ، ويبلغ ارتفاعها نحواً من العشرة أمتار؛ وكان فى داخله معبد صغير . وكانت الحصون تزود بأبراج عالية وشرفات يمكن للمدافعين أن يحتموا من ورائها وهم يصبون على المهاجمين وابل سهامهم .



(شكل ٧٣) حصن « سمنة »

الأسطول :

من النقوش ما يدل على أن السفن استخدمت للقتال منذ أواخر عصر ما قبل الأسرات على الأقل . وفى أواخر الدولة القديمة نقل « أونى » قوة كبيرة من الجنود فى البحر إلى إحدى موانى جنوب فلسطين ، وبذلك تمكن من مباغتة العدو وقطع سبيل الهرب عليه . وفى العهد الإقطاعى نشأت موقعة نهرية بين حاكم « طيبة » وحاكم « أسيوط » ، الذى كان يناصر ملك « أهناسيا » ، مما يدل على أنه كان لكل منهما أسطول نهرى .

وفى بداية الأسرة الثامنة عشرة حارب المصريون الهكسوس فى البر وفى النيل ، حيث أبدى بعض الضباط البحريين مهارة فائقة فى القتال وعلى رأسهم « أحمس بن إبانا[2] » . وفى عهد « حاتشبسوت » قام أسطول مؤلف من خمس سفن كبيرة إلى ساحل بلاد « بنت » يحمل بعض منتجات مصر وقد عاد محملا بعجائب تلك البلاد . وفى عهد

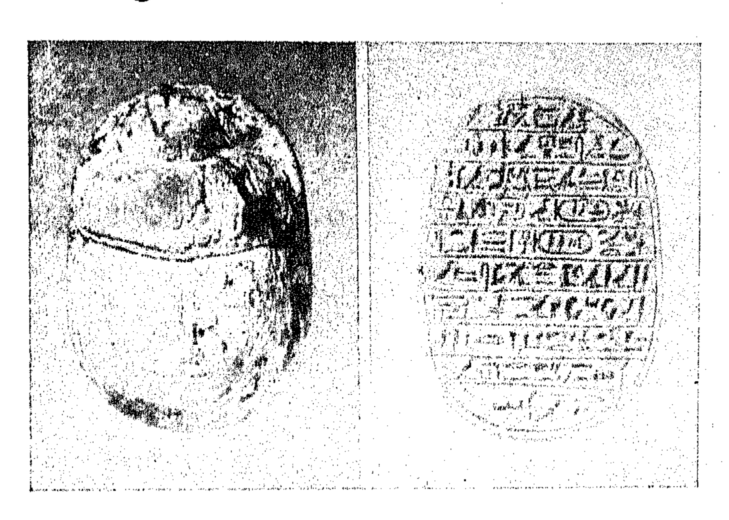
---

(١) شيدت فى منطقة « سمنه » و « كمنه » سبعة حصون .
(٢) انظر صفحة ١٨٩ .

« تحوتمس الثالث » استولى المصريون على الموانى الفينيقية وعلى كثير من السفن واستعانوا بأسطول كبير فى التغلب على مصاعب النقل بين مصر وسوريا . وكان « تحوتمس الثالث » فى بعض الحملات يطوف بأسطوله على موانى سوريا مدلا بقوة مصر الحربية ، أو ينزل بجيشه فى إحدى هذه الموانى لمتابعة غزواته . وفى عهد « رمسيس الثالث » أحرزت السفن الحربية المصرية عند مصاب النيل انتصارا باهرا على سفن شعوب البحر ، الذين أرادوا دخول مصر من الشمال ، وبذلك نجت مصر من شر مستطير .

أمنحوتب الثالث

كان عهده عهد سلام طويل ، فقد حكم نحو ستة وثلاثين عاما ، نعم فيها بما أكسبته لمصر غزوات أسلافه ، وخاصة « تحوتمس الثالث » ، من مركز وشأن فى العالم القديم . وقد تزوج فى أوائل حكمه من « تى » ، وأصدر لذلك جعالين كبيرة ، (شكل ٧٤)(١) نقش عليها اسمه واسمها ثم اسمى أبويها « يويا » و « ثويا » ، وكانا من عامة الشعب ، وقد كشف عن مقبرتهما فى طيبة ، ووجدت حافلة بالرياش والأثاث الفاخر . وكانت للملكة « تى » شخصيتها القوية وشأنها الكبير فى الحياة الرسمية ، وكثيرا ما كانت تظهر إلى جانب زوجها الملك فى المناسبات المختلفة ، وكان اسمها يقرن إلى اسمه على المستندات والمكاتبات الرسمية ، وكان ذلك بداية ظهور الملكات بشكل واضح قوى(٢) .



(شكل ٧٤)
أحد جعلان زواج « امنحوتب الثالث »

(١) هذه الجعالين هى جعالين تذكارية أشبه بالنقود أو الطوابع التذكارية فى الوقت الحاضر .
(٢) كان ظهور « حاتشبسوت » سابقة قوية ، على أنها ظهرت كملك .

وفى السنة الخامسة من حكمه أخمد « أمنحوتب الثالث » ثورة فى بلاد النوبة ، وكانت آخر الحملات الهامة فى هذه البلاد ، اذ اصطبغ الجزء الشمالى منها حتى الشلال الثانى بصبغة مصرية قوية ، ومنه انتشرت الحضارة المصرية حتى الشلال الرابع . وقد أقيمت فى معظم البلدان المعابد المصرية حيث تعبد الآلهة المصرية ، وتعلم الصناع النوبيون الصناعات والفنون المصرية .

وفى آسيا وشرق البحر الأبيض المتوسط كان لأمنحوتب الثالث مركز السيادة بين ملوك الشرق القديم ، وكان كل منهم يحرص على أن ينال صداقته، وهو ماتكشف عنه رسائل «تل العمارنة» ، التى كشف عنها فى دار محفوظات ابنه الملك « أمنحوتب الرابع » (أخناتون) ، مكتوبة على الصلصال باللغة البابلية ، وقد تبادلها « أمنحوتب الثالث » و « أمنحوتب الرابع » (أخناتون) مع ملوك بابل وأشور وميتانى وخيتا ، ومع أمراء فلسطين وسوريا وقبرص . ولهذه الرسائل أهمية بالغة ، إذ تكشف عن العلاقات الدبلوماسية بين أمم الشرق فى ذلك الوقت .

وتدعمت صلات الصداقة بين مصر وجيرانها بزواج « أمنحوتب الثالث » من ابنة « كاداشمان انليل » ، ملك بابل ، ثم من « جيلوغيبا » ابنة «شوتارنا» ملك ميتانى ، وقد أرسلها أبوها إلى مصر ومعها ٣١٧ جارية ؛ وسجل « أمنحوتب » أخبار ذلك الزواج كذلك على مجموعة من الجعالين ؛ على أن الملكة « تى » ظلت مع ذلك صاحبة المكانة الأولى بين زوجات الملك . ثم تزوج بعد ذلك من « تادوغيبا » ابنة «توشراتا» ، الذى خلف أباه على عرش ميتانى . ومع ذلك لما طمع «كاداشمان انليل » فى الزواج من أميرة مصرية رفض طلبه « لأنه لم يسبق أن أعطيت أميرة مصرية لأى شخص » ؛ وقد أجاب بأن « امنحوتب » هو الملك وأنه يستطيع أن يفعل ما يشاء ، وأنه مع ذلك يرضى أن تجهز له أية سيدة ، ترسل له على أنها ابنة ملك .

وكان لما تمتلئ به خزائن مصر من معدن الذهب ما لفت إليها أنظار ملوك الشرق لحاجتهم إليه فى تهيئة المعابد وصنع تماثيل الآلهة وتحلية القصور وتكشف بعض رسائل « تل العمارنة » عن كثرة طلب هؤلاء الملوك له ، فقد ذكر « توشراتا » فى أحد رسائله أن « الذهب فى مصر كالتراب فى كثرته » ، وكان يوالى طلب كميات كثيرة منه ، ويرجو أن يصله منها ما لا يمكن حصره على حد قوله .

وكان يتولى حكم بعض ولايات مصر فى فلسطين وسوريا الأمراء الذين تعلموا فى مصر فكانوا لها أتباعاً مخلصين يقومون بالأمر باسمها ، وينفذون سياستها ، ويبلغون الملك أخبار ولاياتهم . وما يدبره بعض العصاة من الخروج على طاعته حتى إنه كان يعهد

إلى بعضهم بمحاربة الثوار . على أن « أمنحوتب الثالث » ترك الأمور تجرى فى أعنتها فى سوريا دون أن يقوم إليها على رأس جيشه مما ساعد على ازدياد قوة الحيثيين حتى أصبحوا أعظم خطر على مصر .

وكان « أمنحوتب » فى السنوات العشر الأولى من حكمه مغرما بالصيد ، وكان يسجل أخبار صيده على جعالين خاصة ؛ وقد سجل على بعضها أنه اصطاد ١٠٢ أسد فى هذه الفترة . وعلم مرة أن قطيعا من الثيران البرية اتخذ سبيله إلى صحراء منف ، فقام لتوه وسافر ليلا حتى بلغ مكانها ، حيث صاد منها عددا كبيرا . وشيد لنفسه وللملكة « تى » قصرا عظيما فى « طيبة » الغربية ، وحفر بالقرب منه بحيرة كبيرة طولها ٣٧٠٠ ذراع وعرضها ٧٠٠ ذراع ، تم حفرها فى خمسة عشر يوما . وقد افتتحها فى حفل مشهود ركب فيه زورقا أطلق عليه « أتون يتألق » (تحن أتون) ، وسجل أخبار ذلك على بعض الجعالين .

وقد أغرم « أمنحوتب الثالث » ببناء المعابد الفخمة ، فشيد معبد الأقصر ، وسجل على بعض جدرانه قصة ولادته من « أمون رع » وتتويج الآلهة له على نحو مافعلت « حاتشبسوت » على بعض جدران معبد الدير البحرى . وزاد فى معبد الكرنك ، وشيد له بوابة ضخمة ، ووصل بينه وبين معبد الأقصر بحديقة كبيرة شيد بها طريقا أقام على جانبيه صفين من تماثيل الكباش . وفى الجنوب الغربى من المعبد بنى معبدا للإلهة « موت » ، زوجة « أمون » ، وحفر بالقرب منه بحيرة مقدسة ، ووصله بالكرنك بطريق على جانبيه تماثيل الكباش . وبذلك أصبحت معابد « طيبة » يتصل أحدها بالآخر . وفى الأعياد والاحتفالات كان تمثال الإلهة يوضع فى زورق فخم تتنقل به فى بحيرتها المقدسة .

وعلى الضفة الغربية للنيل شيد « أمنحوتب » معبده الجنازى وقد ذكر عنه أن جدرانه كانت موشاة بالذهب ، وأرضيته بالفضة ، وأبوابه بخليط الذهب والفضة (الألكتروم) . وقد أقام أمامه تمثالين له هائلين[١] ، كل منهما من قطعة واحدة من الحجر الرملى يبلغ ارتفاعها أكثر من ٢٠ مترا وزنتها أكثر من ٧٠٠ طن .

---

(١) وهما « تمثالا ممنون » ، وكانت تند عن التمثال الشمالى كل صباح أصوات غريبة ، وقد ذهب الظن فى العصر الرومانى إلى أنه تمثال « ممنون » بن « إيوس » إلهة الفجر ، وأنه يحيى أمه كل صباح بأصوات حزينة ، فتتساقط دموعها ندى على جسمه . وكان لذلك يزوره الزوار من الرومان ، ينقشون عليه أسماءهم ويشهدون بأنهم سمعوا صوته الباكى .

وفى كثير من مدن مصر وبلاد النوبة والسودان أقام « أمنحوتب » المعابد ، ومنها معبد صغير جميل شيده للإله « خنوم » فى « إلفنتين » (شكل ٧٧) ، ومعبد فى « صولب[١] » ليعبد فيه مع الإله « أمون » .

وقد ساعد فى بناء هذه المعابد وجود طبقة ممتازة من الفنانين الموهوبين وعلى رأسهم «أمنحوتب بن حابو» (شكل ١٠١) ، الذى استطاع بكفاءته أن يرتقى من وظيفة كاتب بسيط إلى وظيفة رئيس الأعمال العامة . وليس من شك فى أنه أشرف على تشييد كثير من المعابد والآثار ، وإن كان لا سبيل إلى تحديد ما أشرف عليه منها . ومما يدل على ما كان له من شأن أنه سمح له دون غيره بإقامة معبد جنازى له فى « طيبة » الغربية بدلا من المقصورات التى اعتاد الأشراف حفرها فى الصخر فوق مقابرهم . وقد ازدادت شهرته مع الأيام حتى أله فى عهد البطالمة على نحو ما أله « إمحوتب » .

الأزمة الفكرية والدينية

تجمع للمصريين فى الأسرة الثامنة عشرة تراث ضخم مضطرب من العقائد والعادات الدينية والجنازية ، لا تبين خطوطه ، ولا يخلو من تناقض كثير . فقد اتحدت حقاً مع الإله « رع » معظم المعبودات الرئيسية ، كما تدل على ذلك أسماؤها ، غير أنها ظلت مع ذلك تتميز فيما بينها بذات أسمائها وبأعيادها وكهنتها . وكانت طقوس العبادة تؤدى فى مؤخرة المعابد، حيث يحيط تمثال الإله غموض ، وتكتنفه أستار من وراء أستار . ومن الآلهة العظيمة ما احتفظ بخصائصه كالإله « بتاح » ، إله منف ، إذ ظل كهنته يعتبرونه الإله القديم ، الذى بسط السماء ، ودحى الأرض ، وصور الإنسان ، وخلق الآلهة . ومن العقائد الدينية ما كان ينطوى على تفكير وحسن رأى ، كما يبدو فى بعض ترانيم « رع » أو « بتاح » أو « أمون رع » ، على أن منها ما كان يؤول تأويلات شاذة فيها خرق وتناقض كثير .

وكانت العقائد الجنازية خليطاً من الأفكار والخيالات ، فكان يعتقد أن الميت فى قبره يأكل ويشرب ، وأنه يحيا حياة خالدة فى مملكة الغرب ، وأنه بين حاشية الشمس فى نفس الوقت . وكان يغالى فى تحنيط الجثة وما يؤدى لها من طقوس ، وفيما يودع معها من مختلف الأثاث . وكثر ما كان يزود به الميت من تعاويذ وفصول تكتب على أوراق

---

(١) فى بلاد النوبة بين الشلالين الثانى والثالث .

البردى مما يسمى الآن بكتاب الموتى [1] ؛ وكثرت التمائم ، واختلفت أصنافها ، وزاد عدد التماثيل الجنازية ، حتى إنه كان يودع منها مع الميت المئات فى بعض الأحيان . وبذلك كله قامت صناعة كبيرة كان همها ينحصر فى تزويد الموتى بما يحتاجون إليه ، عدا العدد الغفير من المحنطين ، والبنائين ، والفنانين الذين كانوا يعملون فى بناء المقابر ونقش جدرانها .

وازداد فى نفس الوقت شأن الآلهة المختلفة بما كانت تلقاه من كل ملك يتولى العرش من هبات وعطايا . على أن نصيب « أمون » من ذلك كان أوفى نصيب ، فقد كان الإله الرئيسى فى « طيبة » ، التى تزعمت طرد الهكسوس من مصر . وكان يعتقد أنه هو الذى يقود الجيوش المصرية إلى ميادين النصر ، وأنه صاحب الفضل فى كل ما تحرزه البلاد من انتصارات . وإذ أصبح ينظر إليه كأنه منقذ البلاد ، وواهب النصر ، وحامى البيت المالك ، وملك الآلهة ، فقد أخذت الهبات تترى عليه من الغنائم والأسرى والجزى ، وتوقف عليه الأراضى الواسعة ، وغدت خزائنه ملأى بالذخائر ، وله عدد كبير من الموظفين يشرفون على إدارة أملاكه ومصانعه ، وكان يعمل فيها أعداد غفيرة من الأسرى .

وأدى ذلك كله إلى أن أصبح لكهنة « أمون » قوة كبيرة لها أثرها فى سياسة الدولة . وكان من رؤساء كهنة « أمون » من شغل منصب الوزارة فجمع فى يديه السلطان الدينى والسلطان الزمنى معا ، وبذلك كان الشخص الثانى بعد الملك [2] . وكان الملك هو الذى يعين الكاهن الأعلى لأمون ، ولكن ذلك الحق كان مقيدا من الناحية الشكلية على الأقل ، ففى حفلة التنصيب كان الملك يذكر أمام تمثال الإله « أمون » اسم من يرشحه لذلك المنصب . وكان تمثال الإله يقره بحركة تصدر منه ، يقوم بها بطبيعة الحال الكهنة الذين يحملون تمثاله . وكانت تلك الحركة تفسر بأنها وحى الإله ، وأن الإله اختار كاهنه . ولا بد أن كهنة « أمون » عرفوا كيف يستفيدون من ذلك الوحى سلطانا على الملكية ، بل لقد تدخلوا به فى شئون العرش نفسه وفيمن يتولاه . فقد كان الملك « تحوتمس الثالث » فى صباه كاهنا صغيرا فى معبد « أمون » ، وفى أحد الأعياد الدينية كان كهنة « أمون » يحملون تمثال الإله ، ولكن الإله تنكب طريقه

---

(١) انظر صفحة ١٧٤

(٢) كان منهم « حابوسنب » فى عهد « حاتشبسوت » .

المعتاد ، إلى المكان الذى كان يقف فيه « تحوتمس » ، وفسر الكهنة ذلك بأن وحى الإله إنما هو أن يتولى « تحوتمس » العرش .

على أن « أمون » لم يكن فى الأصل من الآلهة الرئيسية فى البلاد ، ولكنه وجد سبيله إلى « طيبة » فى الأسرة الحادية عشرة ، ثم رفع من شأنه ملوك الأسرة الثانية عشرة بما أنشأوه له فيها من منشآت ، وما أغدقوه عليه من عطايا . وهو بذلك ناشىء دخيل بين الآلهة العظيمة . وفوق هذا لم يأت « أمون » بجديد فى العقائد الدينية ، وإنما أسبغ عليه كهنته ما كان يتصل بالإله « رع » من عقائد وتصورات ، إذ تصوره أناشيده كإله الشمس تماما وتنسب إليه ما كان ينسب إلى « رع » من صفات ووقائع وأحداث(١). لذلك كان من الطبيعى ألا ينظر كهنة الآلهة الأخرى ، وخاصة كهنة « رع » و « بتاح » ، إلى الإله « أمون » نظرة الرضاء ، أو يغضون عما ناله كهنته من مركز وثراء ، وما أصبح لهم فى الدولة من مركز وشأن .

وفى نفس الوقت اشتد اتصال المصريين بغيرهم من الشعوب ، وأصبحت مصر مركز العالم المتمدن ، وازداد الأجانب فيها ، وكثر تزاوج المصريين منهم ، واتسعت آفاق تفكيرهم ، وانتشر الرخاء فيما بينهم ، ورقت كثيرا أحاسيسهم ومشاعرهم ، وتغيرت عاداتهم وتقاليدهم عما كانت عليه فى العصور السابقة . ومع ذلك فقد كان رجال الدين وعامة الشعب لا يزالون يتمسكون بذلك الخليط من العقائد والعادات ، التى إن ارتضاها عامة المصريين ، فلم يكن خاصة المفكرين يرضون بها ، أو يطيقونها . ولا بد أنهم أحسوا الحاجة إلى دين واضح صريح ، يعلى من شأن الحقيقة والواقع ، ويتحرر من ربقة التقاليد البالية ، ويشمل سلطانه الكون الفسيح ، وترضى به الشعوب على اختلافها .

أما إله الشمس فقد كان فى عقيدة المصريين معبودا قديما منذ الأزل ؛ وكانت عبادته الدين الرسمى فى فترة مجيدة من تاريخ مصر ؛ وكان تشبه أغلب الآلهة به ، واتخاذها اسمه . وادعاؤها بأنها من صوره مما زاد من شأنه . فإذا كان مركزه قد اغتصب وصفاته قد انتحلت لغيره ، فإن من الواجب أن يعاد إليه حقه . وهو فوق هذا كله إله واضح ، لا تقوم عبادته على الغموض والأسرار ، ويأبى الظلام والخداع ، وترضى بعبادته سائر

(١) جاء فى أنشودة للإله «أمون رع» : « إنك وأنت تعبر السماء تتطلع إليك الوجوه جميعها ، ولكنك عندما ترحل تختفى عن وجوههم ... إنك إذا غربت فى الجبل الغربى فإنهم ينامون كالأموات ... خالق ما تنتجه الأرض ... السيد الأوحد الذى يبلغ أطراف البلاد كل يوم ... الذى تهمهم البلاد بشكره عندما يشرق كل صباح » .

الشعوب ، لأنها ترى مظهره وقوته ، وتلمس أثره وسلطانه . لذلك فهو أحرى الآلهة جميعا بالعبادة ، وهو أحق المعبودات ليكون إلها عاما للامبراطورية فى كافة أنحائها .

على أن إله الشمس اتخذ اسما جديدا وهو « أتون » ، ولم يكن هذا الاسم مجهولا من قبل ، ولكن لم تكن له قداسة أوصفة دينية ، إذ كان المصريون يقصدون به قرص الشمس ، التى لم يكونوا يتعبدون لها ، وإن كانوا يرون أنها مقر الإله . ولكن « تحوتمس الرابع » قال عن نفسه إنه « حارب ومن أمامه أتون » ، وإنه قاتل « ليكون الأجانب كالمصريين يعبدون أتون على الدوام » . وبهذا أصبح لأتون بذاته شخصية إلهية فى عهد « تحوتمس الرابع » . ومن النقوش مايدل على أنه كان لهذا الإله الجديد فى عهد «أمنحوتب الثالث» على الأقل معبد خاص فى « طيبة » بالذات ، وربما كان ذلك المعبد من داخل أسوار معبد الكرنك أو بالقرب منها . ويلوح أن كهنة «أمون» لم يجدوا فى ذلك فى بداية الأمر مايضير عقائدهم ، فأمون رع نفسه هو صورة لإله الشمس ، واسمه عنوان قائم على مابينهما من صلات . لذلك لاغرابة أن كان منهم من جمع بين وظيفته ووظيفة أخرى فى معبد «أتون» . ويبدو أن« أمنحوتب الثالث » قد شايع كذلك عبادة « أتون» وأيدها ، فقد سمى كما رأينا الزورق الذى كان ينزه فيه فى البركة التى أنشأها لزوجته « أتون يتألق » . ولا يبعد أن الغرض من ذلك التأييد إنما كان لإضعاف سلطان « أمون رع » ، والتحرر بعض الشىء من نيره . ومهما يكن من شىء فقد نشأت عبادة « أتون » قبل تولى « أمنحوتب الرابع » العرش وذلك فى « طيبة » نفسها معقل عبادة الإله « أمون رع » .

ثورة « أخناتون » الدينية

تولى « أمنحوتب الرابع » العرش وكان لا يزال صغير السن ، وتمثله صوره (شكل ٧٥) وتماثيله (شكل ١١٤) فى شكل غير جميل ، وذلك لأول مرة بين ملوك مصر ، فرأسه كبير ، تثقل على عنق نحيل ، وله ذقن كبير ، وصدر هزيل على بطن رحيب ، وأفخاذ غلاظ ؛ وتنم ملامح وجهه على رجل حالم يستغرقه التفكير الدينى والتأمل العميق . وقد أسرع كل من ملك الحيثيين (شوباوليوما) وملك ميثانى (توشراتا) بالكتابة إليه يؤكدان صداقتهما ، ويتمنيان أن تستمر الصداقة بين مصر وبلادهما كما كانت فى عهد أبيه . وقد جاء فى كتاب ملك ميثانى :

« لما أخبرت بأن « نموريا »[1] لبى قضاءه بكيت ذلك اليوم ، وبقيت صامتا حتى منتصف الليل ، ولم أجد لذة فى طعام أو شراب ، لأنى كنت حزينا . . . وتمنيت لو أن أخى ، الذى كنت أحبه وكان يحبنى ، كان حيا . . ولكن لما كتب إلى « نابخوريريا »[2] الابن العظيم لنموريا من « تى » زوجته العظيمة : « لقد توليت الملك » ، قلت لم يمت « نموريا » . لقد جلس فى مكانه « نابخوريريا » ، ابنه العظيم . إنه لن يغير من شىء كان » .

وقد كرس « أمنحوتب الرابع » حياته لعقيدته الدينية والدعوة لها دون سائر مهام الملك ، ولم يشأ أن تلهيه الأحداث التى أخذت تنتاب أملاك مصر فى سوريا عن تأدية الرسالة التى أخذ بها نفسه ، فانصرف إلى تحقيق أفكاره الدينية ، وشغل بأعلان معتقداته ، والترويج لها ، وهداية شعبه إلى الحقيقة والدين الصحيح . ومع أن جذور عبادة « أتون » ترجع إلى ما قبل عهد « أمنحوتب الرابع » ، إلا أن هذا الملك حمل لواءها ، وقرر مبادئها ، وصاغ أناشيدها ، وفرضها على البلاد بما يبرر إسنادها إليه . وفى نقوش عظماء رجال الدولة من عهده ما ينطق عن أنهم تلقوا تعاليم الدين الجديد منه مباشرة وقد كان يرغبهم فيه بالهدايا المختلفة ، مما يدل على تحمسه فى نشره .

وقد بدأ « أمنحوتب الرابع » بإقامة معبد لإله الشمس « أتون » بالقرب من معبد « أمون » فى « طيبة » ، واتخذ لإلهه صورة الإله « حراختى » الذى كان يمثل بجسم إنسان ورأس صقر يعلوها قرص الشمس . على أنه لم يلبث أن اهتدى إلى رمز جديد لإلهه ، فغدا يمثله على هيئته الحقيقية أى على شكل قرص يرسل بأشعته إلى الأرض ، وتنتهى الأشعة بأيدى تقبض على رمز الحياة (شكل ٧٥) ، وهذه الصورة الجديدة تمثل الإله فى صورة طبيعية بسيطة ، حتى إنه ليسهل على الأجناس المختلفة فى الإمبراطورية المصرية فهمها على حقيقتها دون عناء .

ويبدو أن الملك قد قرر فى بداية الأمر أن عبادة « أتون » لا تخرج عن كونها التفسير الصحيح للعقائد الدينية المتوارثة ، وأن دعوته لن تجد معارضة ، ولذلك تسامح فى بقاء الآلهة المختلفة إلى جانب الإله الجديد . غير أن تحمسه للعبادة الجديدة وما صاحبها من اتجاه جديد فى الفن على غير ما كانت تقضى به التقاليد المتوارثة لا بد أن أفزع كهنة الآلهة المختلفة . ولم يكن كهنة الإله « أمون » بصفة خاصة ليرضوا عن أن يشغل ذلك الإله الطارىء الملك عن إلههم ، وأن يضيع ما كسبوه من مركز وسلطان .

---

(١) « نموريا » هو الصيغة البابلية لاسم التتويج للملك « أمنحتب الثالث » .

(٢) « نابخوريريا » هو اسم التتويج للملك « أمنحوتب الرابع » فى البابلية .



(شكل ٧٥)
« أتون » يقدم له «أخناتون» القربان

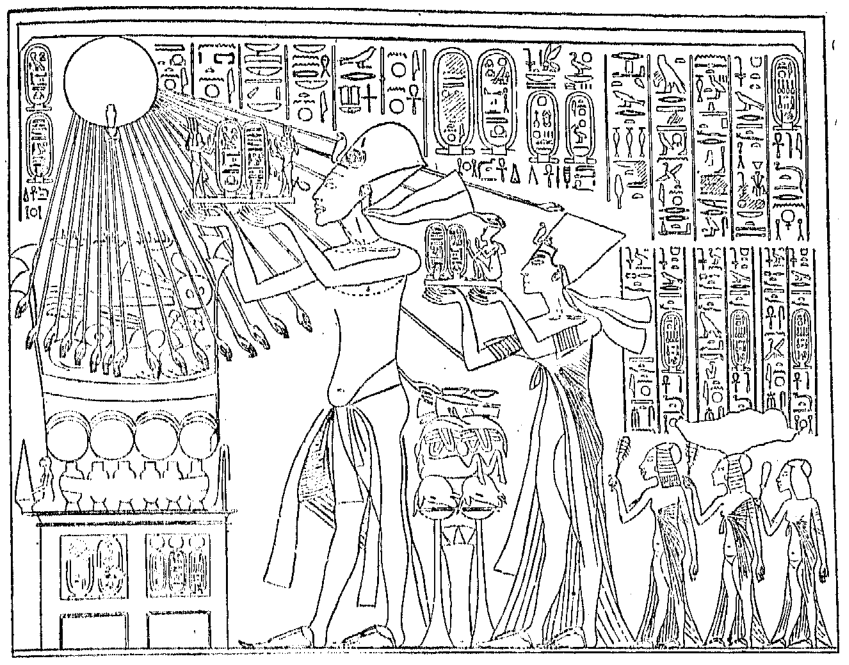
وكان لا بد لأمنحوتب الرابع أن يقضى على هذه المعارضة وأن يمحو العبادات المختلفة إذا أراد لإلهه القوة والسلطان ، وأن تتحقق الوحدانية التى كان يدعو إليها . لذلك لم يلبث أن أعلن على المعبودات القديمة وخاصة الإله « أمون » حربا عوانا ، فأرسل جنوده وأتباعه فى كافة القطر وفى بلاد النوبة يمحون أسماءها وصورها من على الآثار القائمة ، ويهشمون تماثيلها فى المعابد ، ولم تنج مقابر « طيبة » من آثار ذلك المحو ، فمحيت من

على جدران مقصوراتها أسماء الآلهة المختلفة ، كما محيت كذلك كلمة الآلهة في صيغة الجمع ، لتناقضها مع عقيدة الوحدانية ، وغير الملك اسمه من « أمنحوتب » إلى « أخناتون » ، ومحى لفظ « أمون » من اسم أبيه .

وقد رأى فى نفس الوقت أن يقطع الصلة بينه وبين « طيبة » لما تثيره من ذكريات الإله « أمون » ، فاختار مقرا جديدا لعبادة « أتون » فى مكان لم تدنسه عبادة أى إله من قبل ، وذلك فى مصر الوسطى شرقى النيل فى «تل العمارنة» ، سماه « آخت أتون » (أفق قرص الشمس) ، وأمر ببناء مدينة فيه على وجه السرعة ، ووهبها للإله « أتون » . وانتقل إليها فى بداية السنة السادسة من حكمه ، وقد أضاف إليها الأراضى الزراعية الواقعة غربى النيل ، ونحتت فى الصخر على حدودها عدة نصب كبيرة ، نقشت عليها صورة الملك والملكة وبعض بناتهما يتعبدون للإله « أتون » وهو يغمرهم بأشعته . ويلى ذلك نص طويل أهدى به الملك « آخت أتون » إلى الإله « أتون » وتعهد فيه بأنه لن يغادر حدودها ، وأنه سيتخذها قاعدة يتولى فيها حكم البلاد . وقد أقام فيها معبدا كبيرا للإله « أتون » كما أقام له المعابد فى كثير من البلاد الأخرى وخاصة فى « منف » و « عين شمس » و « أسيوط » و « أرمنت » وفى بلاد النوبة وفى سوريا . ويمتاز معبد « أتون » بأن الطقوس الدينية إنما كانت تؤدى للإله فى مكان مكشوف فى وضح النهار (شكل ٧٦) ، على نقيض الأمر فى المعابد القديمة التى كان قدس الأقداس يقع فيها فى مكان مظلم فى نهاية المعبد بعيداً عن الأنظار .

فى تلك المدينة التى استحدثها « أخناتون » لعبادة الإله « أتون » أتيحت الفرصة للديانة الجديدة أن تستكمل خصائصها دون أن تعوقها التقاليد والآثار القديمة وما تثيره من ذكريات ، وطفق « أخناتون » يصوغ من الأناشيد ما يشيد فيه فى تحمس شديد بنعم الإله الجديد على الكائنات المختلفة من إنسان وحيوان ونبات ، وبما يفيضه عليها جميعا من حياة وقوة .

فأتون إنما هو إله رحمة ، تفيض آلاؤه على العالم بأسره ؛ وهو الذى يضفى على العالم بهاءه وجماله ، فيغمر الأرض الضياء ، ويفر الظلام ، ويبتهج القطران ، ويهب الناس من رقادهم مبتهلين شاكرين فضله عليهم ؛ وإليه يرجع ازدهار الشجر والنبات ، وله تبسط الطير أجنحتها ابتهالا وشكرا ، وتثب حيوانات الصحراء فرحا وجزلا ، وتطفر الأسماك تحية لأشعته التى تصل إلى جوف الماء . ولمثل هذه الصور نظائر فى مزامير داود وعند شعراء الطبيعة فى العصر الحديث ، وبهذا يبدو أن قوام الدين الجديد إنما كان الإشادة



(شكل ٧٦)
« أخناتون » وأسرته يتعبدون لأتون

بمباهج الطبيعة ، وطرح العبادة المحجوبة التى تكتنفها الأسرار ، واستجلاء قدرة الإله فى مظاهر الكون على اختلافها . وفوق هـذا فقد كان « أتون » إله العالم جميعا ، ولم يكن إله مصر فحسب ؛ وهو منفرد بألوهيته لا يشاركه إله آخر .

ومع أن عبادة « أتون » تعتمد فى أصولها على العبادة القديمة للشمس إلا أنها تخلو من ذكر المعارك العديدة التى كان على إله الشمس أن يخوضها فى مسراه ، كما تخلو من القوة الماحقة التى كانت الديانة القديمة تنسبها إليه . وإلى هذا تخلو مقابر « تل العمارنة » من صور الشياطين المخيفة والمردة التى كانت تصور على جدران مقابر الملوك السابقين .

على أنه لم يقدر لهذا الدين الجديد البقاء فقد كانت العبادات القديمة أشد رسوخا فى البلاد من أن تعصف بها دعوة جديدة لم تتأصل جذورها ، تقوم بها أقلية من المفكرين وإن تزعمها ملك . وكان رجال الدين وخاصة كهنة «أمون» قوة ، تعتمد على مشاعر العامة وتمسكهم بتقاليدهم ، ولذلك لم يكن من السهل التغلب عليها . وكان فى انشغال « أخناتون » بدعوته ما أدى إلى ضياع أملاك مصر فى آسيا . وأفقدها ما كان لها من مركز سياسى ممتاز ، مما أغضب رجال الجيش وأثار نقمة المصريين على ذلك الإله الجديد ، الذى أضاع إمبراطورية شيدتها أجيال .

المعابد والمسلات والمقابر

معابد الآلهة :

كان لكثرة الأسرى وتدفق الجزى والهدايا على مصر فى الدولة الحديثة ما ساعد على تشييد المعابد الكبيرة للآلهة وخاصة الإله « أمون رع » . وكان كل ملك يعمل على أن يبذ أسلافه فيما يشيد تقربا للآلهة ، وطلبا لرضائهم ، وليمنحوه النصر على أعدائه ، والحياة الطويلة على الأرض ، ثم ليخلد أعماله فيما ينقش على جدرانها من نصوص ومناظر. فكثرت بذلك المعابد الضخمة فى أنحاء مصر وامتدت إلى أملاكها فى بلاد النوبة وفى فلسطين وسوريا .

وكانت أكثر المعابد تشيد على سطح الأرض ، على أن بعضها إنما كان يحفر فى الصخر وخاصة فى بلاد النوبة السفلى حيث يضيق الوادى إلى حد كبير[١] .

وقد شاع فى الدولة الوسطى والنصف الأول من الأسرة الثامنة عشرة طراز « المعبد المحاط بالأعمدة » ، وهو معبد صغير يقوم على قاعدة مرتفعة ، يؤدى إليها درجات من ناحيتين متقابلتين ، وتحيط به أعمدة مربعة ، يجمع أجزاءها السفلى معا جدار قصير بحيث يكون المعبد مكشوفا من جوانبه الأربعة إلا قليلا . وتتوسطه عادة قاعدة ، كان يستقر عليها الزورق المقدس . ومن أجل الأمثلة على ذلك معبد أنشأه « أمنحوتب الثالث » فى « إلفنتين » (شكل ٧٧) . وقد ظهر هذا الطراز من المعابد مرة أخرى فى عهد البطالمة فيما يسمى « بيت الولادة » . وكان يخصص لإحدى الإلهات الوالدات ، كالإلهة « إيزيس » .

ومنذ النصف الثانى من الأسرة الثامنة عشرة ساد طراز المعبد الطويل الذى تقع أجزاؤه على محور واحد ؛ وهو يتألف من فناء وبهو ذى أساطين ثم قدس الأقداس شكل (٧٨) ، وقد يتكرر أحد هذه الأجزاء ، فيكون للمعبد أكثر من فناء وبهو ومقصورة . ويقوم فى مقدمة المعبد صرح ضخم مرتفع ذو برجين ، تحلى واجهتيهما

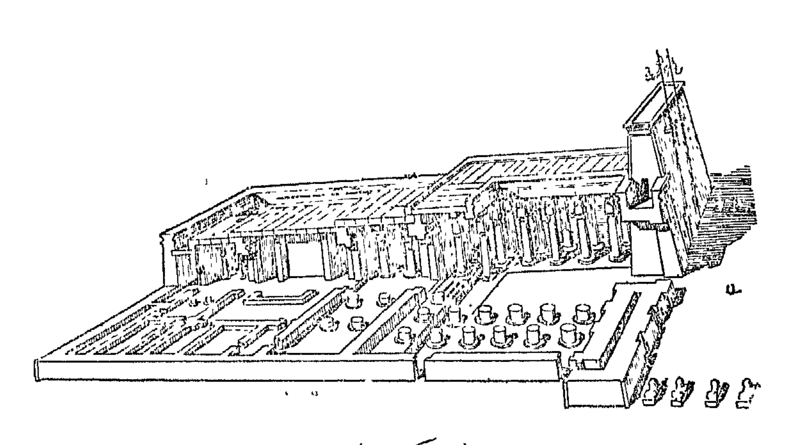
---

(١) من أشهر المعابد الصخرية معبد شيده « رمسيس الثانى » فى أبو سنبل له وللآلهة « حراختى » و « أمون » و « بتاح » .



(شكل ٧٧)

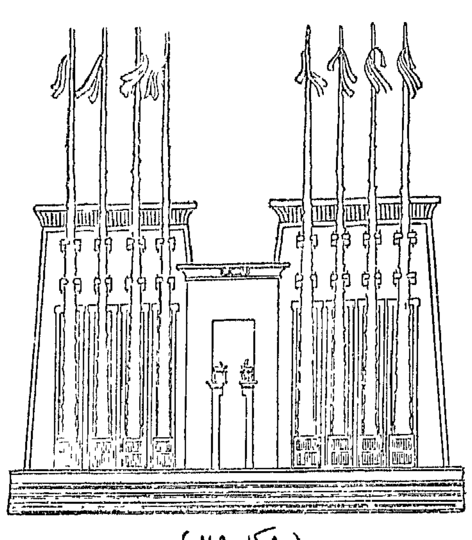
معبد « أمنحوتب الثالث » فى « إلفنتين »



(شكل ٧٨)

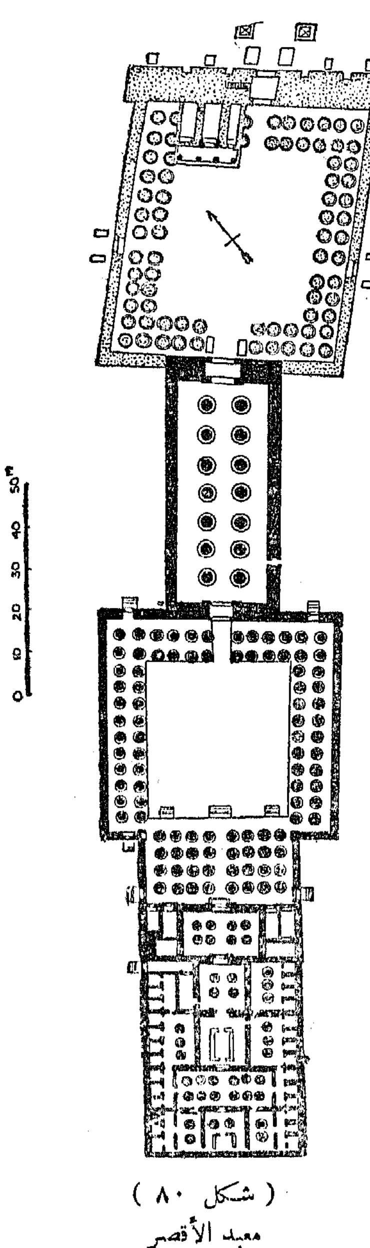
معبد « خنسو » فى الكرنك

صوارى سامقة ، تخفق أعلامها فى الفضاء (شكل ٧٩) ، وبين البرجين مدخل يؤدى إلى الفنـــاء ، وهو مكشوف وعلى جانب واحد منه أو أكثر رواق مســقوف . وفى مؤخرة الفناء طريق صاعد قصير يؤدى إلى بهو الأساطين ، وهو قاعة كبيرة يعتمد سقفها على عدد كبير من الأساطين الضخمة . وفى الأسرة التاسعة عشرة كان يراعى أن يكون الصفان الأوسطان من الأساطين أعلى من صفوف الأساطين الجانبية ، بحيث يسمح الفرق بينهما بإقامة منافذ جانبية ، يدخل منها الضوء على نحو ما فى بهو الأساطين العظيم فى معبد الـكرنك (شكل ٨٨) . ويقع قدس الأقداس فى مؤخرة المعبد ، وهو مقصورة مستطيلة دائما ذات باب واحد عادة ، إلا إذا أقيم فيها الزورق المقدس فكانت تزود بباب آخر فيما يقابل مدخلها الأصلى . وكان يودع فيها تمثال الإله أو رمزه فى ناووس مستقل أو من داخل الزورق المقدس . وإذا كان المعبد لأكثر من إله فقد كان يخصص لـكل إله مقصورة خاصة . وتحيط بقدس الأقداس عدة غرف كان يودع فيها ما كان يحتاجه أداء الطقوس الدينية من كساء وعطر وطعام وأدوات . وكان يراعى فى أرض المعبد أن تأخذ فى الصعود تدريجيا حتى تكون أرض قدس الأقداس أعلى من أرض أى جزء آخر فى المعبد ، فى حين تنخفض سطوح المعبد تدريجيا كلما اقتربت من قدس الأقداس . وكان الضوء الساطع يغمر الفناء ، ولـكنه يقل فى بهو الأساطين ، بينما كان قدس الأقداس يقع فى أظلم مكان فى المعبد ، بما كان يضفى على مكان الإله رهبة وروعة . وليس من شك فى أن تشييد أجزاء المعبد على محور واحد مستقيم إنما كان للتعبير عن الصعود إلى مقر الإله ، كما كان إلى جانب ذلك يساعد فى نقل تمثال الإله فى زورقه فى مواكب الاحتفالات . وكانت تحيط المعبد أسوار ضخمة من اللبن لها بوابة كبيرة من الحجر تواجه ميناء صغيرة على النيل أو على قناة صغيرة تجرى



(شكل ٧٩)
صرح من رسم المصريين القدماء

إليه . وكان يؤدى إلى المعبد طريق تقوم على جانبيه تماثيل أبى الهول أو الكباش . وكان فى داخل الأسوار المخازن ومساكن الكهنة .



(شكل ٨٠)
معبد الأقصر

ومن أشهر معابد الآلهة ذات المحور المستقيم معبد الأقصر (شكل ٨٠) ، وقد بناه مكان معبد قديم الملك « أمنحوتب الثالث » لثالوث « طيبة » المقدس . وكان يتألف فى عهده من صفين من الأساطين الضخمة ، يؤدى الطريق بينهما إلى فناء تحيط به الأساطين من جوانب ثلاثة . ومن وراء الفناء بهو الأساطين (شكل ٨٧) ثم أبهاء أخرى صغيرة من ورائها مقصورة « أمون » ، وعلى الجانبين مقصورتا « موت » و « خنسو » . وقد شيد « رمسيس الثانى » فناء آخر أمام المعبد تحيط به الأروقة المسقوفة ، ومن أمامه صرح عظيم تتقدمه مسلتان وستة تماثيل ضخمة[1] .

المسلات :

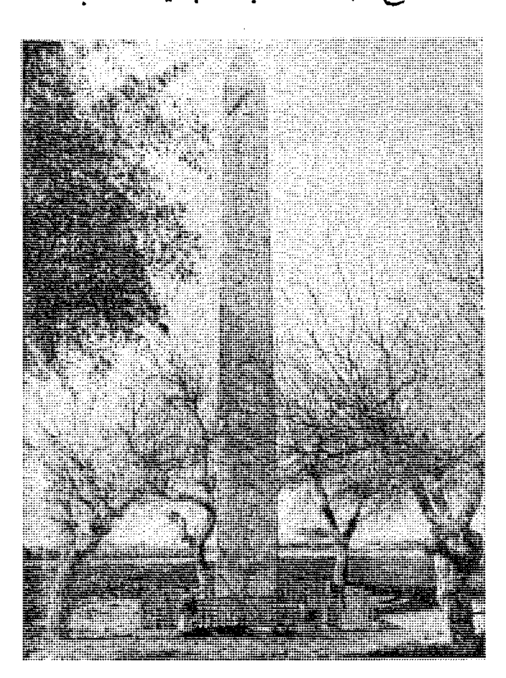
إن أقدم المسلات المعروفة هى التى شيدت فى مؤخرة معابد الشمس فى « أبو صير » من عهد الأسرة الخامسة (شكل ٢١) ، مما يعقد الصلة بينها وبين عبادة الشمس .

على أنه منذ الدولة الوسطى كانت تقام عادة مسلتان على جانبى مدخل المعبد بمناسبة أعياد

---

(١) ينحرف هذا الفناء عن المحور الأصلى للمعبد ، ويغلب على الظن أن ذلك إنما كان لتحاشى هدم المقصورات الثلاثة الجميلة التى كانت تقوم فى الطريق من عهد « تحوتمس الثالث » .

اليوبيل الملكي[1] . وقد شاعت إقامة هذه المسلات فى الأسرات الثانية عشرة والثامنة عشرة والتاسعة عشرة . وكانت كل مسلة تنحت من قطعة واحدة من الجرانيت أو من حجر صلد آخر (شكل ٨١) . والمسلة مربعة من أسفلها غير أن جوانبها تضيق تدريجيا حتى تنتهى بذروة على شكل الهرم ، كانت تصفح بالبرنز المذهب أو بخليط الذهب والفضة لتتلألأ عليه أشعة الشمس ومنه تنعكس فى أجواز الفضاء .



(شكل ٨١)
مسلة عين شمس

وتمتاز المسلات برشاقتها ، وجمال خطوطها ، وحسن نسبها ، وارتفاعها فى الفضاء[2] . وكانت سطوحها تصقل بعناية كبيرة ، وينقش عليها فى خط كبير جميل اسم الملك وألقابه . وتقوم المسلة على قاعدة قوية من الحجر تتناسب معها فى حجمها وخطوطها . وكانت جدران القاعدة تنقش أحيانا ببعض النصوص أو الصور . وتتألف قاعدة كل من مسلتى « رمسيس الثانى » ، اللتين أقامهما أمام معبد الأقصر ، من درجتين ، تحلى واجهتى الدرجة الثانية من شرق وغرب تماثيل أربعة قردة تحيى الشمس عند شروقها وفى غروبها .

وقد كان قطع هذه المسلاة المديدة الطول ونقلها من محاجرها ثم إقامتها فى أماكنها

---

(١) اليوبيل الملكى ، أو « عيد السد » كما كان يسمى فى اللغة المصرية ، هو عيد كان يحتفل به لتجديد نشاط الملك وحيويته حسب ما كان يعتقد المصريون ، ليستطيع أن يحكم فترة طويلة دون أن تضعف قدرته على الحكم .

(٢) يبلغ ارتفاع مسلة المطرية من عهد الملك « سنوسرت الأول » من الأسرة الثانية عشرة ٢٠ مترا ، وارتفاع إحدى مسلتى « حاتشبسوت » فى معبد الكرنك ٢٩٫٥ مترا ، وزنتها ٣٢٠ طنا ، بينما يبلغ ارتفاع إحدى مسلات « تحوتمس الثالث » ٣٧ مترا تقريبا . ومن النصوص ما يدل على أن من مسلات « تحوتمس الثالث » ما كان ارتفاعه ٥٧ مترا .

يقتضى بغير شك مهارة فائقة . وقد أشادت « حاتشبسوت » فى نقوش قاعدة مسلتها القائمة فى الكرناك بأنه تم قطع مسلتها فى سبعة شهور ، ومن ثم نقلتا فى سفينة خاصة من أسوان إلى طيبة حيث أقيمتا فى بهو الأساطين فى معبد الكرناك ؛ وهذه كلها أعمال جليلة إذا قدرنا ما عاناه أباطرة الرومان فى نقل بعض المسلات المصرية إلى «روما» و « القسطنطينية » ، يحلون بها قصورهم وملاعبهم ، وما كابده كذلك العصر الحديث من مشاق فى نقل بعض مسلات أخرى وإقامتها فى باريس ولندن ونيويورك .

مقابر الملوك :

اهتم ملوك الدولة الحديثة كثيرا بحفر مقابرهم ، وقد تخلوا منذ أوائل الأسرة الثامنة عشرة عن بناء أى أثر يعلوها على سطح الأرض ، كما فصلوها عن المعابد الجنازية ، لكى لا يدل عليها شىء فوقها أو قريب منها ، حماية لها من أن تمتد إليها يد العبث . وقد اختار المهندس «إنينى» لمقبرة الملك « تحوتمس الأول » مكانا بعيدا منعزلا . فيما يسمى الآن « وادى الملوك » من وراء مرتفعات « طيبة » الغربية حيث حفرت جميع مقابر ملوك الدولة الحديثة[1] ، وبذلك اجتمع فيه من الذخائر الثمينة ما لم يجتمع فى أية بقعة أخرى على سطح الأرض . على أن هذه المقابر تعرضت أيضا للنهب والسلب ولم يبق من محتوياتها إلا النزر اليسير ، وهو على ضآلته يكفى للدلالة على ما كان يودع فى المقابر الملكية من أثاث ورياش وحلى تفوق الوصف .

وتتألف المقبرة الملكية من جزأين ، يتكون الجزء الأول من درج وأحدور ، وقد يتكرران ؛ ويتكون الجزء الثانى من ردهة وغرفة الدفن ومخزن أو أكثر ملحق بغرفة الدفن ، وكانت سعة المقبرة تزيد كثيرا مع الزمن ، حتى بلغت أكبر حد لها فى عهد الرعامسة ؛ وهى بدهاليزها وغرفها الممتدة مسافات طويلة فى جوف الأرض تدل على جهد بالغ وصبر وجلد .

ويحلى الجدران نصوص وصور مختلفة ؛ ومن النصوص ترنيمة الشمس[2] ، وكتاب ما فى العالم السفلى[3] ، وكتاب بقرة السماء[4] ، وكتاب الأبواب[5] ، وبعض فصول

(١) فيما عدا مقبرة « أخناتون » .

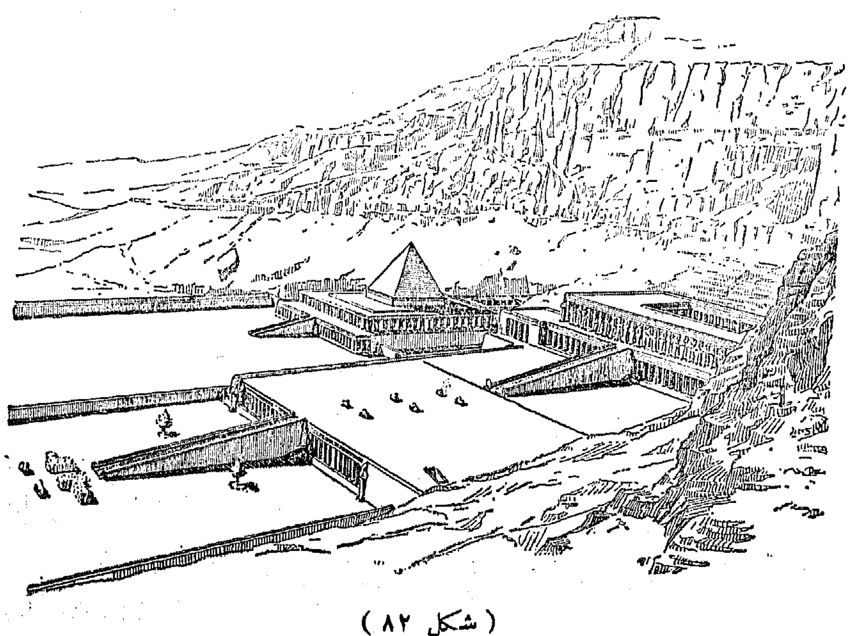
(٢) وهى أنشودة كان يدعى فيها إله الشمس عند دخوله فى العالم السفلى بأسمائه الأربعة والسبعين .

(٣) وهو يقسم العالم السفلى إلى اثنى عشر قسما حسب ساعات الليل ، ويصف رحلة الشمس فيها برأس كبش وهى تمنح كل قسم الضوء والحياة بينما تحييها الآلهة والأرواح .

(٤) هو أسطورة دينية قديمة مفادها أن البشر ثاروا على إله الشمس فبعث الإلهة « حتحور » لمعاقبتهم ، فما كادت تفنيهم حتى عمل على نجاتهم .

(٥) ويتعلق بأبواب العالم السفلى الأثنى عشر التى تحرسها ثعابين ضخمة تنفث النار .

من كتاب الموتى ؛ وتصاحب هذه النصوص صور كثيرة تشرحها . وتحلى جوانب الأعمدة عادة صور كبيرة تمثل الملك تقوده الآلهة إلى قبره أو وهو يقدم للآلهة القرابين المختلفة .



(شكل ٨٢)

معبد الدير البحرى ومقبرة الملك « نب حبت رع منتوحتب »

المعابد الجنازية :

أقام ملوك الدولة الحديثة معابدهم الجنازية على حافة الهضبة فى غربى « طيبة » ؛ وكانت تقع فى صف طويل يمتد من الشمال إلى الجنوب ، وقد تهدم معظمها . وأهمها معبد الدير البحرى (شكل ٨٢) ، وهو يعد من أروع ما أقام المصريون من بناء ، ويقع فى كنف جبل سامق ، وقد بنى على ثلاثة مسطحات عظيمة ، يعلو كل منها الآخر ويليه ، وينتهى كل منها برواقين بينهما طريق صاعد يؤدى إلى المسطح التالى . وهكذا استطاع المهندس « سنموت » ، الذى شيده ، أن يضعف كثيرا من حدة الارتفاع السامق للجبل بما زاد فى نفس الوقت من إبراز المعبد فى ذلك المحيط الطبيعى العظيم ، حتى إنه ليظن أنه ليس هناك طراز معمارى آخر يتسق مع ذلك المحيط الجبلى أجمل من هذا الطراز . ويكفى لتقدير ذلك أن نتصور المعبد مقاما على مسطح واحد ، فأن من شأن الجبل المتسامى خلفه أن يقضى على كل ما يمكن أن يكون له من تأثير مهما كانت ضخامة مبانيه . وليس من شك فى أن « سنموت » قد استفاد من طراز معبد

الملك « نب حبت رع منتوحتب »[1] الواقع فى جنوب معبد الدير البحرى مباشرة ؛ على أن هذا المعبد يتألف من مسطحين اثنين ، ويقوم فى وسط المسطح الثانى هرم على قاعدة مرتفعة ؛ أما معبد « حاتشبسوت » فيخلو من ذلك الهرم بما يزيد من اتساقه مع ما يحيطه من مرتفعات .

أما المعابد الجنازية الأخرى فهى من طراز معابد الآلهة الطويلة ذات المحور الواحد ، ومنها « معبد الرمسيوم » لرمسيس الثانى ، و « معبد مدينة هابو » لرمسيس الثالث ؛ وقد ألحق كل منهما بمعبده قصرا صغيرا من اللبن ، كان يقضى فيه هو ونساؤه فترة من وقت .

مقابر الأشراف :

حفر الأشراف مقابرهم فى سفح الهضبة الغربية من « طيبة » ؛ وهى تتألف عادة من فناء مكشوف ثم مدخل فى الصخر يؤدى إلى ردهة ودهليز ومقصورة القربان ، وكلها محفورة فى الصخر . وتحلى جدرانها الصور والمناظر المختلفة ، منها ما يمثل الطقوس الجنازية كحفلة الدفن وتقديم القربان للميت ، ومنها ما يمثل مناظر من الحياة اليومية كفلاحة الأرض وتربية الماشية وصيد الحيوانات والطيور والأسماك (شكل ٣٨) ، والصناعات المختلفة ، والرقص ؛ ومنها ما يصور بعض الأحداث الهامة فى حياة صاحب المقبرة كمقابلته الملك أو ترقيته إلى وظيفة أعلى . وكان يراعى تمثيل مناظر الحياة اليومية على جدران الردهة قريبا من المدخل ؛ أما المناظر الجنازية فكانت تمثل عادة على جدران الأجزاء الداخلية من المقبرة . وكانت غرفة الدفن يؤدى إليها بئر أو أحدور من الجانب الشمالى للفناء الخارجى أو من مقصورة القربان . وكان يقوم فوق الغرف المحفورة فى الصخر هرم صغير من اللبن ، تهدم ولم يبق منه فى بعض الحالات غير آثار ضعيفة تدل عليه . وهكذا اتخذ الأشراف الشكل الهرمى رمزا لمقابرهم فى الوقت الذى تخلى الملوك عنه .

الأساطين والأعمدة :

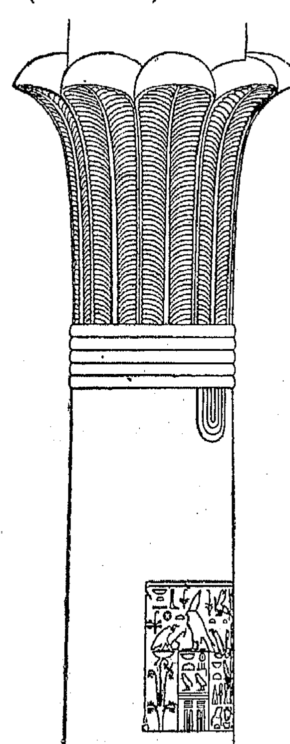
للأساطين والأعمدة أهمية كبيرة فى العمارة ، فهى تساعد على إقامة الأبهاء الفسيحة ، المسقوفة ، كما تخفف من حدة المساحات الواسعة ، وتضفى عليها فخامة وروعة إذا أحسن تشكيلها ، ونسقت أجزاؤها ، وأقيمت على أبعاد متناسبة ؛ وهى بهذا كله تدل على ما لأصحابها من ذوق وأحاسيس فنية .

---

(١) أحد ملوك الأسرة الحادية عشرة .

وقد كان للأساطين والأعمدة فى العمارة المصرية شأن كبير لا مثيل له فى عمارة أية أمة أخرى قبل الإغريق . وهى ترجع فى أصلها إلى القوائم الخشبية والنباتية فى الأكواخ والمبانى البسيطة ، التى كانت تقام من أعواد النبات ، ومنها وجدت سبيلها إلى العمارة من الحجر .

وأقدم ماظهر من الأساطين فى العمارة الحجرية هو ما كشف عنه فى مبانى « زوسر » فى صقارة ، غير أنها لم تكن تستقل بنفسها ، وإنما كانت تعتمد على واجهة الجدار مباشرة ، أو تربطها به دعامة مبنية بينهما ، أو تربط كل أسطوانين دعامة بينهما ، وذلك لقلة ثقة البناء إذ ذاك فى إمكان استقلالها بنفسها ، وقد كان لا يزال حديث عهد بالبناء بالحجر . ومن هذه الأساطين ماهو على شكل غصن البردى ، ذو ساق مثلثة المقطع وتاج على هيئة زهرة بردى متفتحة ؛ ومنها ذو الساق المدورة ، ويظن أن تاجه كان على هيئة زهرة نبات الوجه القبلى ؛ ومنها كذلك ما يمثل حزمة من الغاب (شكل ٤٦) ، أو ذو ساق مقناة .

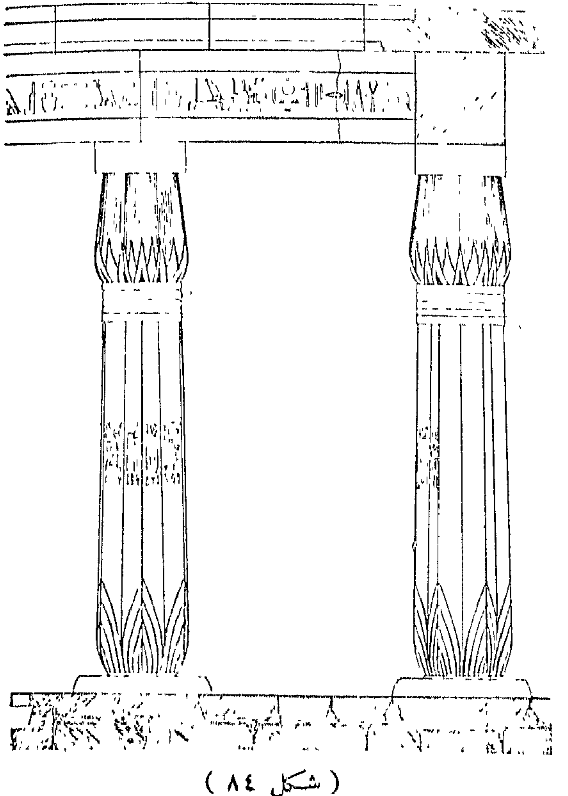


(شكل ٨٣)
أسطون نخيلى

والأساطين المصرية بصفة عامة هى إحدى بدائع العمارة المصرية ، ومن أهمها الأساطين على شكل النخيل أو البردى ، وقد ظهرت مستقلة بنفسها منذ الأسرة الخامسة . وساق الأسطون النخيلى اسطوانى تقريبا ، يصغر قطره قليلا من أسفل إلى أعلى ، وتاجه على هيئة سعف النخل ينثنى أعلاه فى شكل طبيعى جميل (شكل ٨٣) . وقد كثرت الأساطين النخيلية فى الدولة الوسطى ولكنها اختفت فى الدولة الحديثة[1] ، ثم ظهرت من جديد فى العصر البطلمى .

وظهرت فى الأسرة الخامسة الأساطين التى على هيئة مجموعة من أغصان البردى بتاج من بضع أزهار بردية مكممة (شكل ٨٤) . وكثرت هذه الأساطين فى الدولة الوسطى ، وزادت كثيرا فى الدولة الحديثة منذ عهد « أمنحوتب الثالث » (شكل ٨٧) . ومنذ عهد الرعامسة استدار كل من الساق والتاج وغدا

(١) من الأساطين فى معابد بلاد النوبة من الدولة الحديثة ما ظل على هيئة النخيل .



(شكل ٨٤)
أسطوانان يمثل كل منهما مجموعة من أغصان البردى ذات أزهار مكمة

كل منهما أشبه بأسطوانة . وشاع في الدولة الحديثة كذلك الأسطون على هيئة غصن واحد من البردى ؛ وكان عادة في حجم كبير وذا ساق مثلثة المقطع وتاج على هيئـــة زهرة بردى مفتوحة ، ذات خطوط لينة جميلة ؛ ومن الأمثلة الجميلة لذلك صفا الأساطين اللذين أقامهما « أمنحوتب الثالث » أمام معبد الأقصر . وفي عهد الرعامسة كان يراعى أن تكون أساطين الصـفين الأوسطين في بهو الأساطين من هذا الطراز .

ومن الأساطين ما كان على شكل حزمة من اللوتس (شكل ٨٥) ؛ ومنها ما كانت تيجانها تنحت من جوانبها المختلفة على شكل وجه امرأة بأذني بقرة . وهي الأساطين الحتحورية ، وكانت تقام في معابد الإلهة « حتحور » أو الإلهات التي تشبهت بها .

وفي الأسرة الرابعة استخدمت في معبد الوادى للملك « خفرع » أعمدة مربعة مستقيمة الخطوط تعتمد على بلاط المعبد مباشرة ويستقر عليها العتب (شكل ٥٢) . وقد استخدمت الأعمـدة المربعة كذلك في بعض مقابر الأفراد في الدولة القديمة ، وكانت إما من قطعة واحدة من الحجر أو من كتل مكعبة إحداها فوق الأخرى . على أن استخدامها في الدولة الحديثة إنما كان قليلا ، ومن أهم أمثلتها إذ ذاك عمودان متسامقان من الجرانيت في معبد الكرنك من عهد الملك « تحوتمس الثالث » ، تحلى واجهة أحدهما ثلاثة أغصان من البردى ، وتحلى واجهة العمود الثاني ثلاثة أغصان من نبات الوجه القبلي (شكل ٨٦) .

ومن الأعمدة كذلك ما يقوم فى واجهته تمثال ضخم، يمثل ملكا فى شكل «أوزيريس»، لا يبين من جسمه غير وجهه، وفى يديه المذبة والصولجان، وعلى رأسه تاج «أوزيريس»، وقد شاعت هذه الأعمدة الأوزيرية فى عهد الرعامسة .

العمارة وخصائصها

إن أبرز ما تتصف به عمارة الدولة الحديثة بصفة عامة هو ضخامتها وروعتها وسعتها، ومع ذلك فهى فى الأسرة الثامنة عشرة تختلف كثيرا عنها فى الأسرتين التاسعة عشرة والعشرين . فعمارة الأسرة الثامنة عشرة تمتاز بدقتها واتساقها وجمال نسبها والعناية فيها بالتفاصيل . ومن أجمل أمثلتها أساطين « تحوتمس الثالث » التى على شكل حزمة البردى فى معبد الأقصر أو فى بهو الأعياد فى معبد الكرنك، فهى تمتاز برشاقتها، وجمال خطوطها، وحلاوة نسبها، وصدق تمثيلها لأغصان البردى . ومن الأمثلة الجميلة كذلك العمودان السامقان فى معبد الأقصر من عهد « تحوتمس الثالث » (شكل ٨٦) وهما، فضلا عن جمال نقوشهما، من طراز جديد .

(شكل ٨٥)
تاج أسطون على شكل حزمة من اللوتس ذات أزهار مكممة

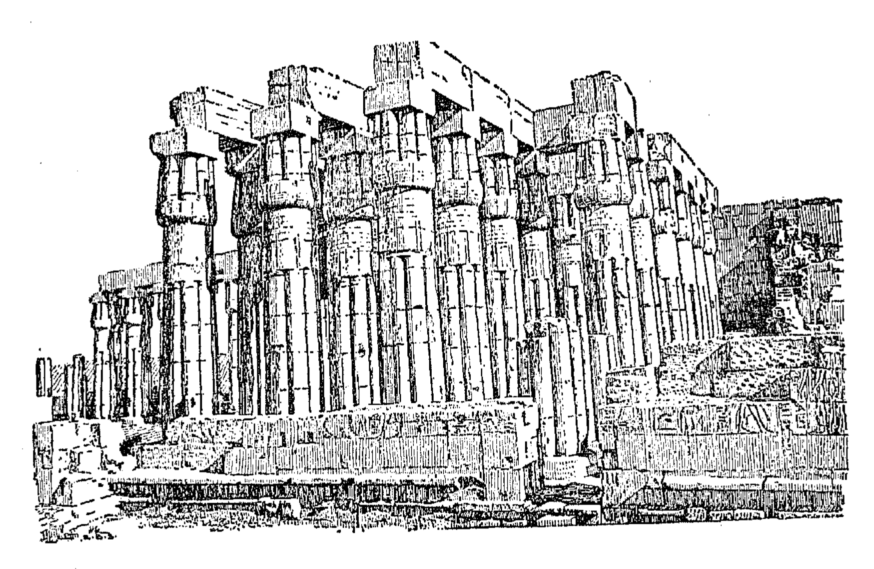
ومعبد الأقصر هو نخر

العمارة المصرية ، وفيه يتمثل المعبد المصرى أكثر ما يكون جمالا واتساقا ، وأساطينه على كبر حجمها رشـيقة جميلة ؛ وبهو الأساطين فيه (شكل ٨٧) يبدو كأنه غابة ضخمة صيغت بدقة من الحجر ، تروع النفس بحلاوة خطوطها ، وحساسيتها ، واتساقها ، وانسجامها فى أحسن صورة وأمثل شكل .



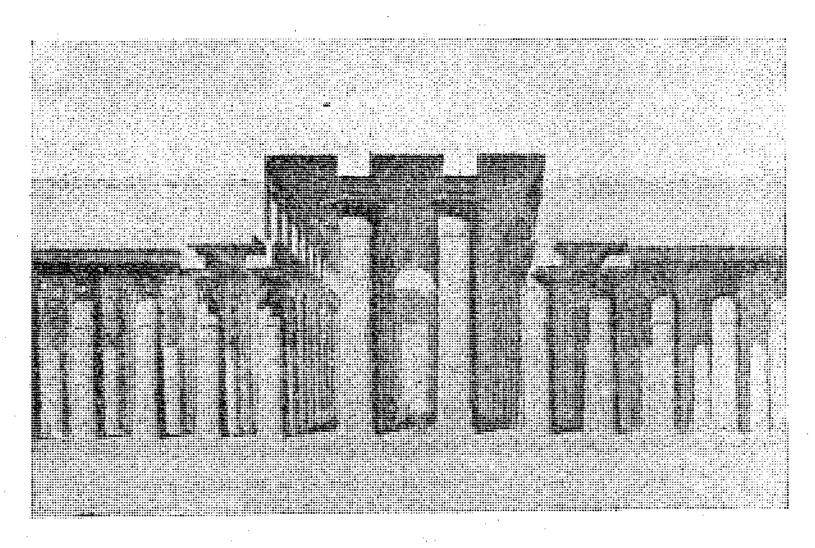
(شكل ٨٦)
عمودان يحليهما نباتا الوجهين القبلى والبحرى

وفى الأسرة التاسعة عشرة اهتم البناء بالضخامة فى حد ذاتها وما توحيه فى النفس من روعة دون احتفال بالتفاصيل . وتتجلى ضخامة البناء أقوى ما تكون فى بهو الأساطين العظيم فى الكرنك (شكل ٨٨) ؛ فمساحته تزيد على ٥٠٠٠ متر مربع ، يقوم فيها ١٣٦ أسطونا فى ١٦ صفا . وتعلو أساطين الصفين الأوسطين غيرهما من الأساطين ، إذ يبلغ ارتفاع كل منها ٢١ مترا ، وقطره ٣½ متر ومحيطه ١٠ أمتار ؛ وقد قدر أن ما يقرب من مائة رجل يستطيعون الوقوف فوق تاجه الذى على شكل زهرة بردى متفتحة . ويعلو السقف عن التاج أكثر من ٣ أمتار ، أى أن ارتفاع السقف عن سطح الأرض يزيد على ٢٤ مترا ؛ أما أساطين الجانبين فيبلغ ارتفاع كل منها ١٣ مترا ، وتيجانها على شكل البردى المكم . وقد فقدت جميع هذه الأساطين أكثر ما كان يجمعها من صلة بالأصل المشتقة منه ، فلم يعد مقطع الساق مثلث الشكل وفق أصله الطبيعى ، ولم تعد سيقان الأساطين الجانبية تمثل حزمة من أغصان البردى ، وإنما أصبحت أسطوانية الشكل ، كما غدا تاج كل منها كأنه يمثل زهرة واحدة وليس مجموعة من الزهرات المكممة . ولارتفاع هذه الأساطين فى الهواء



(شكل ٨٧)
بهو الأساطين فى معبد الأقصر

وضخامتها وشدة ثقل ما تحمل من أعتاب ومن فوقها أحجار السقف فهى تقوم جنبا إلى جنب على مسافات قصيرة . وهكذا استغنى البناء عن كل تفصيل ، وضحى بكل مشابهة بالأصل الطبيعى فى سبيل الأثر الضخم الذى يتركه هذا البهو فى النفس .



(شكل ٨٨)
بهو الأساطين فى معبد الكرنك

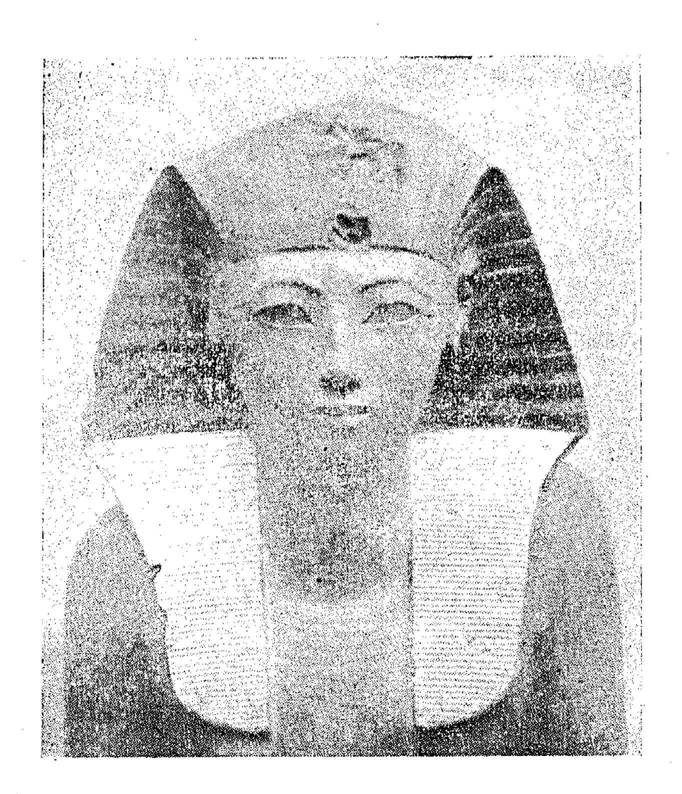
وفناء « رمسيس الثانى » فى معبد الأقصر وإن لم يبلغ من ضخامة بهو الكرنك شيئا يذكر ، إلا أن الفرق جد كبير بين أساطينه ذات الخطوط الجامدة وأساطين « تحوتمس الثالث » التى تقوم فيه ، أو أساطين « أمنحوتب الثالث» من ورائه ، وهى كلها تتميز برشاقتها وحساسيتها .

وتعتبر مبانى « رمسيس الثالث » فى الأسرة العشرين ختام مبانى الدولة الحديثة ؛ وهو وإن كان قد نجح فى استجاع قوة البلاد من جديد ، وبذلك درأ عنها أعظم الأخطار من قبل شعوب البحر التى حاولت غزو مصر من البر والبحر ، كما وقاها شر غارات الليبيين ، إلا أن العمارة فى عهده لم تعد تتميز بغير ضخامتها وخلوها من أية روح فنية . ويتمتع معبده الجنازى فى مدينة حابو فى الوقت الحاضر بشهرة كبيرة لأنه لايزال سليما فى معظم أجزائه ونقوشه ، على أنه لايجوز الاعتماد عليه للحكم على العمارة المصرية فى الدولة الحديثة بصفة عامة ، إذ هو لا يمثل إلا نهاية ذلك العصر . والفرق جد كبير بين أساطينه التى فقدت كل شبه بالأشكال الطبيعية المشتقة منها ، وخلت من كل جمال وذوق، وبين أساطين « تحوتمس الثالث » أو « أمنحوتب الثالث » .

النحت والتصوير

عاشت الدولة الحديثة نحوا من خمسمائة عام ، حفلت بالأحداث المختلفة ، واختلفت فيها كثيرا مشاعر المصريين وتصوراتهم ، فكان لذلك آثار واضحة على فنونهم ، حتى يكاد يكون لكل فترة فيها صفات فنية خاصة ، وإن كان الفنان قد التزم فيها جميعا القواعد التى سار عليها الفن منذ بداية الأسرات .

ويدل ماحفظ من تماثيل ونقوش أواخر الأسرة السابعة عشرة وأوائل الأسرة الثامنة عشرة على أن الفنان المصرى بدأ يستعيد بسرعة قدرته الفنية من جديد بعد الذى انتابها من ضعف فى عهد الهكسوس . ولم يلبث أن بلغ بكفاءته فى عهد « حاتشبسوت » و « تحوتمس الثالث » و « أمنحوتب الثانى » مستوى فنيا رفيعا . وتشهد بذلك تماثيل هؤلاء الملوك ، فهى ، تمثلهم فى صورة جميلة بخطوط فيها قوة وليونة معا ؛ وتشع من ملامح الوجه ابتسامة هادئة تفيض عزة ونبلا ، على حين تبدو العينان وكأنهما تسبران بنظراتهما الآماد البعيدة . ومن أجمل تماثيل الملكة « حاتشبسوت » تمثال من المرمر المصرى فى متحف نيويورك (شكل ٨٩) يمثلها



(شكل ٨٩)

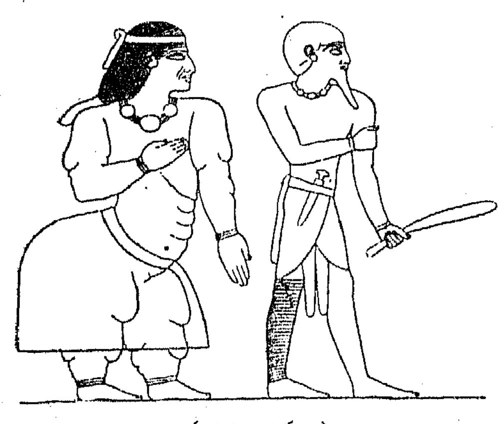
« حاتشبسوت » ، من تمثال لها فى نيويورك

جالسة بملامح دقيقة وخطوط لينة حساسة . وفى متحف القاهرة تمثال صغير يمثلها على هيئة أبى الهول تحيط وجهها معرفة الأسد ، وفى خطوط الوجه طراوة وليونة واستدارة . وفى تمثال « تحوتمس الثالث » الشهير فى متحف القاهرة (شكل ٩٠) والمصنوع من حجر الشست من الصفات الفنية مايجعله قطعة فنية فريدة ، وهو يمثل الملك بجسم نحيف وعضلات مشدودة ، يخطو إلى الأمام فى مرونة ويسر ، وفى ثنايا وجهه ابتسامة خفيفة فيها سحر وجاذبية ، ونبل وعظمة ؛ وقد أضفى المثال عليه شبابا خالدا ، حتى ليبدو وكانه صورة مثالية للرجل الرياضى فى كل زمان .

وتمتاز نقوش « حاتشبسوت » فى معبد الدير البحرى بأشكالها البسيطة الواضحة وماتشيعه فى النفس من غبطة وبهجة . ومن هذه النقوش مايمثل قصة ولادة الملكة من الإله « أمون رع » نقشت فى مهارة كبيرة وحسن ذوق ، كما أن منها مايصور البعثة التجارية إلى بلاد « بنت » بتفاصيل شيقة فريدة . وقد مثل الفنان الآلهة والملوك فى صورة مثالية ،



(شكل ٩٠)
« تحوتمس الثالث » ، من تمثال له فى المتحف المصرى



(شكل ٩١)
أمير « بنت » وزوجته

على أنه دلل فى نفس الوقت على قدرة مدهشة فى تمثيل الصفات الحقيقية والخصائص الذاتية ، فقد مثل « أميرة بنت » يتكتل جسمها لحما وشحما ، ويتثنى من ثقل ما يحمل (شكل ٩١) ، كما أجاد تمثيل سكان بلاد « بنت » ومساكنهم ونباتاتهم وحيواناتهم وأسماكهم فى صدق ودقة حتى لتعتبر صوره وكأنها تسجيل علمى دقيق . وفى عهد « تحوتمس الثالث » أتقن الفنان كذلك تمثيل ما أهداه هذا

الملك لمعبد « أمون » من غنائم وما جلبه من سوريا من حيوانات ونباتات غريبة وذلك على جدران ما يسمى الآن « حديقة النبات » فى معبد الكرنك .



(شكل ٩٢)
نساء فى حفل

وتتميز كذلك نقوش مقابر الأفراد من ذلك العهد وما يليه مباشرة ببساطة خطوطها ووضوح أشكالها ، وبعضها يمثل مناظر من الحياة اليومية كصيد الطيور وصيد فرس النهر وجمع البردى . على أنه كان لانتشار الرخاء فى مصر أثره فى الصور وموضوعاتها ، فقد مثلت الأشخاص ترتدى الملابس النفيسة ، وعلى رءوسها الشعور المستعارة المعتنى بترجيلها ، كما مثلت المآدب الفاخرة (شكل ٩٢) ، يطرب المدعوين فيها الموسيقيون والمغنيات

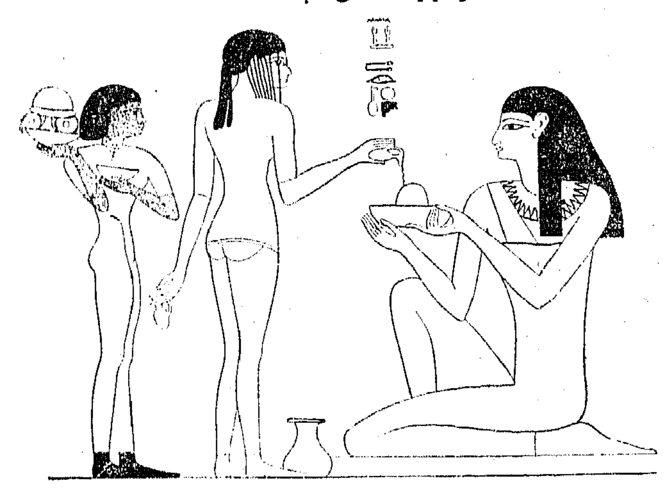


(شكل ٩٣)
مغنيات وراقصات فى المتحف البريطانى

والراقصات (شكلا ٩٣ ، ٩٤) . وقد ظهر من المناظر أيضاً ما يمثل الوفود الأجنبية تحمل الجزى والهدايا ، وما يمثل صيد الحيوانات بالمركبات تجرها الخيول المطهمة ومن أمامها حيوانات الصيد تلوذ بالفرار . وقد حاول الفنان فى بعض صور الأشخاص الثانويين



(شكل ٩٤)
موسيقيات ، من مقبرة « نخت »

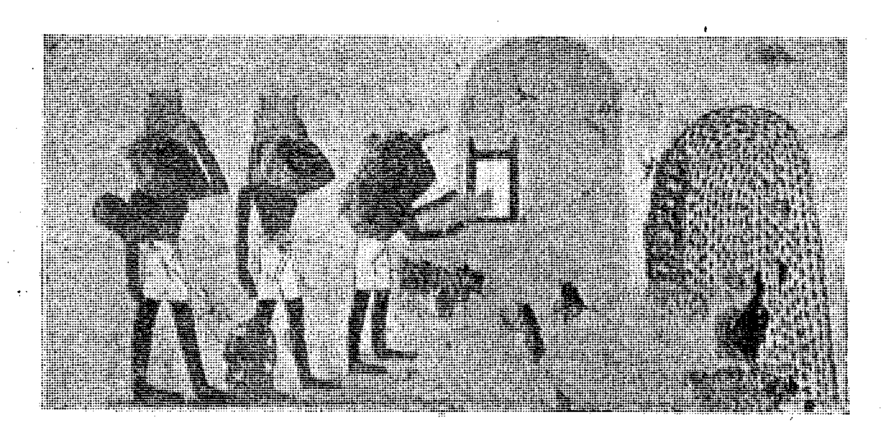


(شكل ٩٥)
فتاة من ثلاثة أرباع ظهرها ، من مقبرة « رخمارع »

التحرر من بعض القواعد التقليدية فى الرسم كتمثيل فتاة من ثلاثة أرباع ظهرها (شكل ٩٥) أو من ثلاثة أرباع جسمها من أمام (شكل ٩٦) ، وكتمثيل القصر

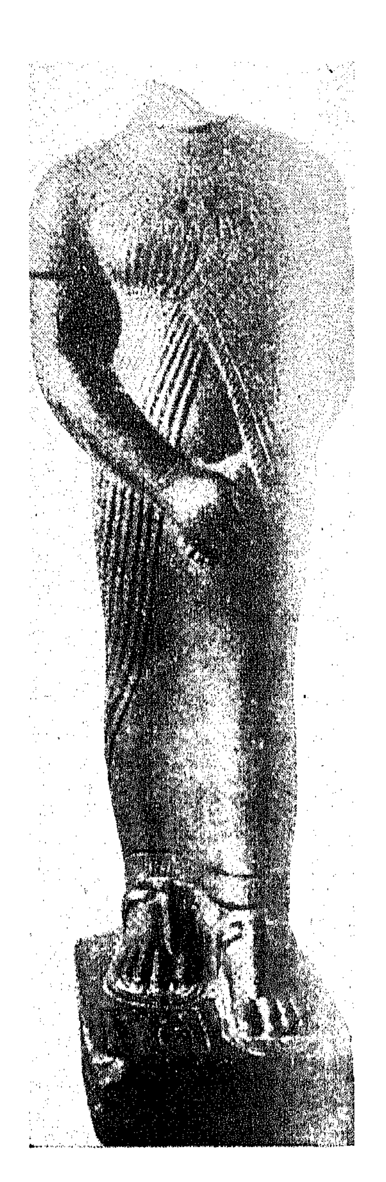


(شكل ٩٦)
فتاة من ثلاثة أرباع جسمها من أمام



(شكل ٩٧)
رجال يحملون الحبوب إلى إحدى الصوامع

النظرى ؛ فقد مثل فى إحدى الصور رجلا يقف على خط الوقف ، ومن أمامه رجل آخر تركت إحدى قدميه خط الوقف ، فى حين يتقدمه رجل ثالث فى مجال الصورة ، ولذلك فصورته تمثله أصغر حجما (شكل ٩٧) .



(شكل ٩٨)
« أمنحوتب الثالث » فى قميص النوم

وتماثيل الأفراد من ذلك العهد قليلة ، على أن ما بقى منها لا يزال ينبض بروح فن النحت فى الدولة الوسطى ، ففى ملامح الوجه تحفظ وجدية ، وفى حليهم ولباسهم وترجيل شعورهم اعتدال وتوسط .

وفى عهد « أمنحوتب الثالث » بلغ الترف غايته وعم أكثر طبقات الشعب ، وقد رقت مشاعر الفنان ورهفت أحاسيسه ، فلانت كثيرا خطوطه وغـدت تنبئ عن فيض إحساسه وحدة شعوره بما تنبض به من مشاعر وخلجات ، وما يتمثل فيها من جمال رقيق هادئ . ويجمع بين الفنون المختلفة من ذلك العهد أناقة فى الخطوط ، وجمال فى النسب ، وحساسية مرهفة ، وصدق وإخلاص للأشكال الطبيعية .

وأغلب تماثيل « أمنحوتب الثالث » إنما تمثله فى هيئة رسمية تقليدية ، على أن منها ما يمثله كوالد جليل تحيط به أفراد أسرته ، أكثر مما يمثله ابنا للآلهة على سطح الأرض . ومن تماثيله كذلك تمثال صغير فى نيويورك تنقصه الرأس ، وهو يمثله بخطوط لينة حساسة تكشف عن أشكال الجسم من وراء ثوب طويل ذى ثنيات دقيقة ، حتى لقد وصف هذا التمثال بأنه يمثل الملك فى قميص النوم (شكل ٩٨) . ومهما يكن من أمر فلقد تنحى المثال فيه عن تمثيل مليكه وفق ما كانت تقضى به التقاليد القديمة ، وآثر تمثيله على سجيته وطبيعته ، وكان ذلك حدثا جديدا فى التماثيل الملكية . وفى متحف برلين رأس تمثال صغير من الأبنوس للملكة « تى » ، وهو بدقة ملامحه وليونة خطوطه وحساسيتها قطعة فنية جليلة ، توحى بما سيكون عليه الفن فى عهد العمارنة (شكل ٩٩) .



(شكل ٩٩)
رأس تمثال الملكة «تى» من الأبنوس ، فى برلين



(شكل ١٠٠)
« ثاى » من تمثال له فى المتحف المصرى

ويدل كذلك ما حفظ من تماثيل الأفراد من ذلك العهد على ما كان ينعم به المجتمع المصرى من رفاهية وترف ، كما ينطق عن الاتجاه الفنى الجديد ، فالأجسام ريانة ، وتقاطيع الوجه دقيقة مفرطة فى الجمال ، وفى ترجيل الشعر ، وتمثيل الحلى ، وثنيات الملابس الرقيقة دقة بالغة وأناقة مفرطة يدلان على عناية فائقة بتمثيل التفاصيل (شكل ١٠٠) على نقيض الفن فى الدولة القديمة ذى الخطوط القوية الصارمة . ومن التماثيل ما تعبر ملامح الوجه فيها عن المشاعر الداخلية والحالة النفسية لأصحابها ، ومن أحسن الأمثلة على ذلك تمثالان لأمنحوتب بن حابو فى متحف القاهرة ، يمثله أحدهما (شكل ١٠١) فى هيئة الموظف الحكيم الذى خبر الحياة وبلاها ، فضجر منها وبرم بها ، وانطبع من ذلك على وجهه ما لا مواربة فيه ؛ بينما يمثله التمثال الثانى وفى ملامح وجهه تفكير عميق .



(شكل ١٠١)

« أمنحوتب بن حابو » ، فى المتحف المصرى

وبرع المثالون كذلك فى تمثيل الحيوان ، ومن ذلك تماثيل الإلهة « سخمت » بجسم امرأة ورأس لبؤة (شكل ١٠٢) ؛ وقد نجحوا فى التوفيق بينهما حتى إن الناظر لينسى أنها كائن خيالى من طبيعتين مختلفتين . وفى المتحف البريطانى تمثالان من معبد صولب فى بلاد النوبة يمثلان أسدا فى وضع طبيعى وقد رفع رأسه فى يقظة وانتباه ، وأدارها قليلا إلى الجانب فى طلاقة ويسر (شكل ١٠٣) .

وفى الصور والنقوش من عهد « أمنحوتب الثالث » ما يتفق وما فى التماثيل

من عهده من صفات ، فقد أصبحت الأشكال المصورة والمنقوشة أكثر ليونة ، وازدادت العناية بتمثيل الشعور المستعارة الفخمة والحلى المتنوعة والملابس ذات الثنيات الدقيقة . ومن أجل الأمثلة على ذلك نقوش مقبرة كل من « رعموزى » (شكل ١٠٤) و « خع إم حات » (شكل ١٠٥) فى « طيبة » الغربية ، ففيها تبدو الأشخاص فى هدوء جليل ، وجمال مثالى ، وأشكال لينة نابضة بالحياة ، تشيع فى الناظر شعور الراحة والهدوء . ومع ذلك ففى مناظر البكاء على الميت حركة وحيوية وخاصة فى الذراعين ترسلهما صاحبتهما فى الفضاء أسى وحزنا (شكل ١٠٦) . وقد تبقت من قصر « أمنحوتب الثالث » فى غربى « طيبة » قطع صغيرة من صور على الجص تمثل أحراش البردى تعلوها طيور مثلث بألوان جميلة هادئة .

وفى صور ونقوش « تل العمارنة » زاد الميل للمناظر الطبيعية وأقبل الفنانون على تصوير



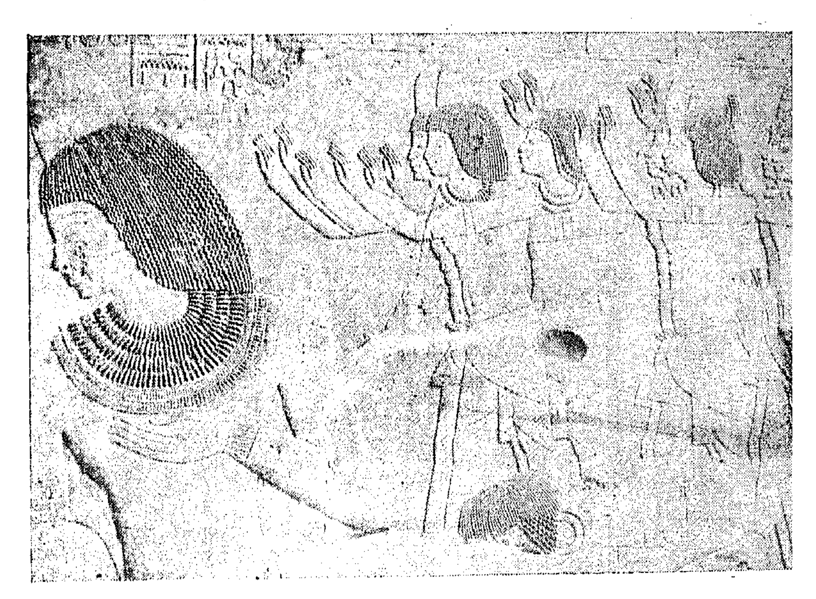
(شكل ١٠٢)
تمثال الآلهة « سخمت » ، فى نيويورك



(شكل ١٠٣) أسد من صولب ، فى المتحف البريطانى



(شكل ١٠٤)
الوزير « رعموزى » ، من مقبرته فى « طيبة »



(شكل ١٠٥)
« خنع إم حات » ومن ورائه موظفوه

الملك وأفراد أسرته فى حياتهم الخاصة والعامة ، وعنوا بتمثيل المشاعر الداخلية والحركة السريعة والأوضاع المعبرة ، كل ذلك فى خطوط بلغت غاية الحد من الطراوة والحساسية . فمن الصور الطبيعية تحلية سقوف بعض الغرف فى القصور الملكية بأكاليل الأزهار ؛ ومنها كذلك تحلية ثلاثة جدران فى إحدى القاعات بمنظر واحد جميل ، يمثل مجرى ماء يجرى كشريط فى أسفل الجدران وينمو منه البردى



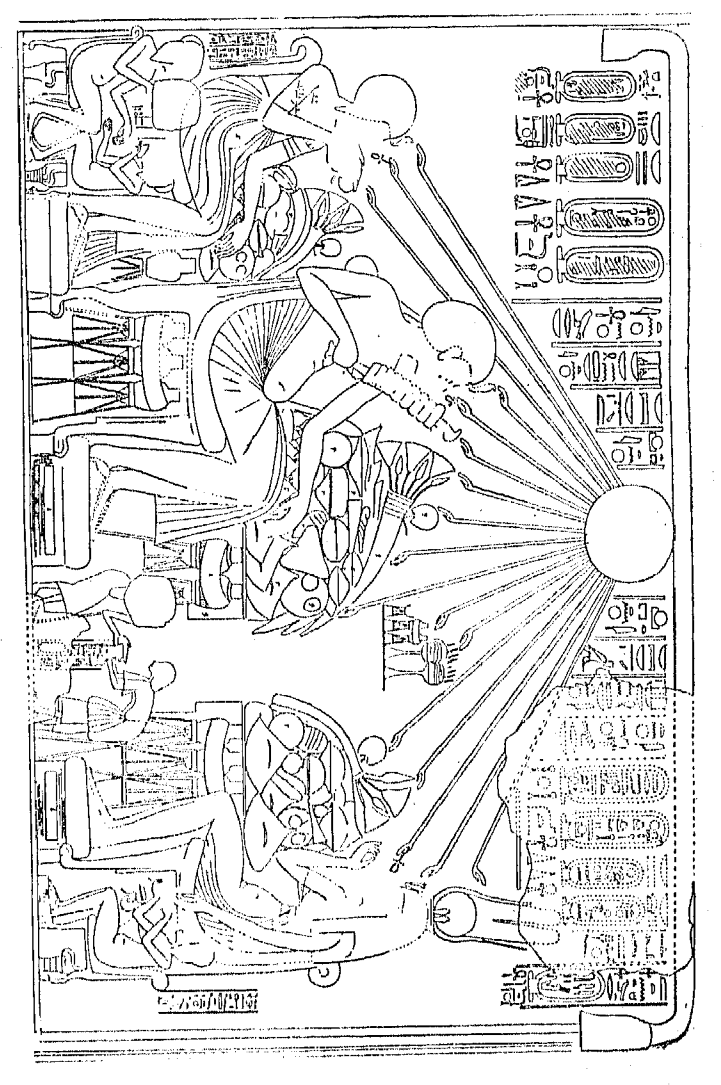
(شكل ١٠٦)
نساء يبكين الميت ، من مقبرة « رعموزى »

واللوتس ، تحوم حوله أنواع مختلفة من الطير فى نشوة وابتهاج . وفى متحف القاهرة بقية من صورة طبيعية كانت تحلى أرضية إحدى القاعات فى « تل العمارنة » ، وهى تمثل بركتين زاخرتين بالنباتات والأسماك ومن حولهما خمائل البردى تحوم حولها الطيور وتقفز فيها العجول الصغيرة (شكل ١٠٧) .

وقد عنى عظماء « تل العمارنة » كثيرا بتمثيل الملك ، وحده أو مع أفراد أسرته فى أغلب الأحيان ، على جدران مقابرهم أو على نصب صغيرة فى بيوتهم . ومن صوره هذه ما يمثله وهو يستقبل الوفود الأجنبية ، أو وهو يمنح الهدايا والعطايا لعظماء الدولة ، أو وهو يقدم القربان لإلهه .

(شكل ١٠٧)
من أرضية قصر « أخناتون »

ومنها ما يمثله مع أفراد أسرته فى جلسات خاصة ، وهم يأكلون (شكل ١٠٨) ،

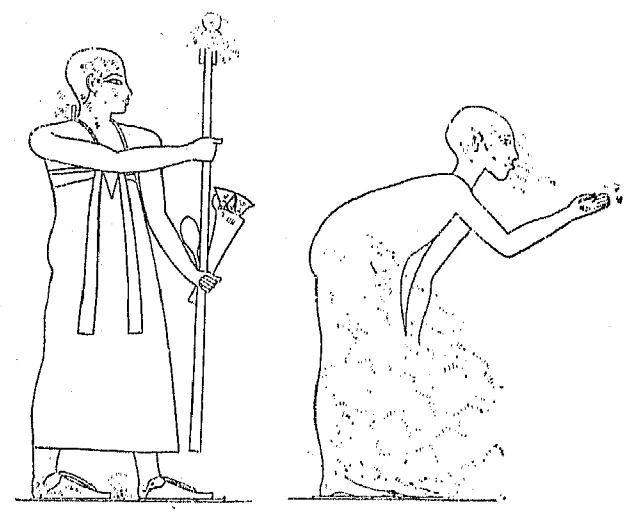


(شكل ١٠٨) «أخناتون» وأفراد أسرته على موائد الطعام

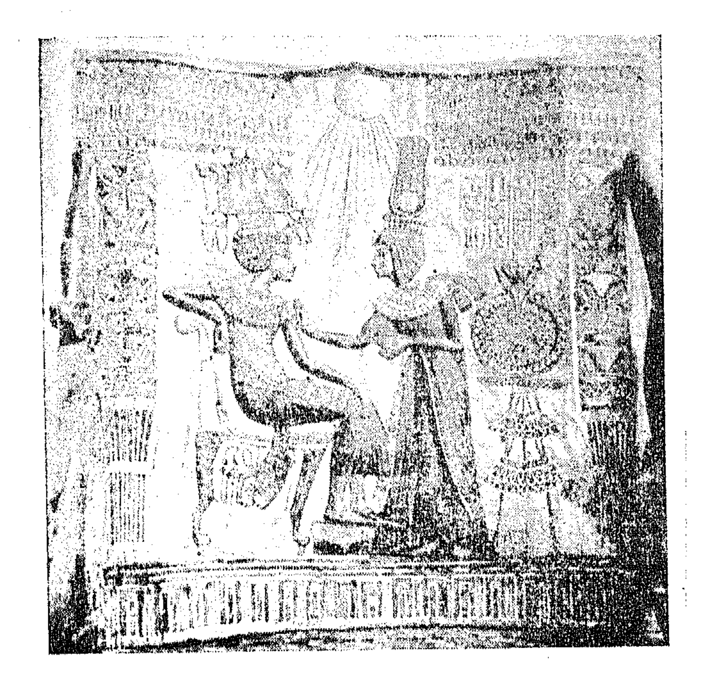


(شكل ١٠٩)
« أخناتون » يقبل إحدى بناته

أو وهو يلاعب بناته أو يقبل إحداهن (شكل ١٠٩) . وهو فى هذه الصور يبدو بجسمه السقيم على نقيض ما كان يراعى فى جميع صور السابقين واللاحقين من ملوك مصر . وقد مثلت أفراد الأسرة المالكة بصفات جثمانية مشابهة لصفات « أخناتون » الجثمانية ، كما أن من عظماء الأفراد من مثل على طرازه بعد أن كانت صورته تمثله ممتلئ الجسم ، قوى البنيان ، متناسق الأعضاء (شكل ١١٠) .



ب (شكل ١١٠) ا
الوزير « رعموزى » حسب الطراز القديم (ا) ، والطراز الفنى الجديد (ب)



(شكل ١١١)   « توت عنخ أمون » ، تعطره زوجته

ومن نقوش « تل العمارنة » كذلك الصورة التى تحلى ظهر عرش « توت عنخ أمون » ، وهى تمثله جالسا على طبيعته ومن أمامه زوجته تعطره (شكل ١١١) .



(شكل ١١٢)   جند من حرس « أخناتون »

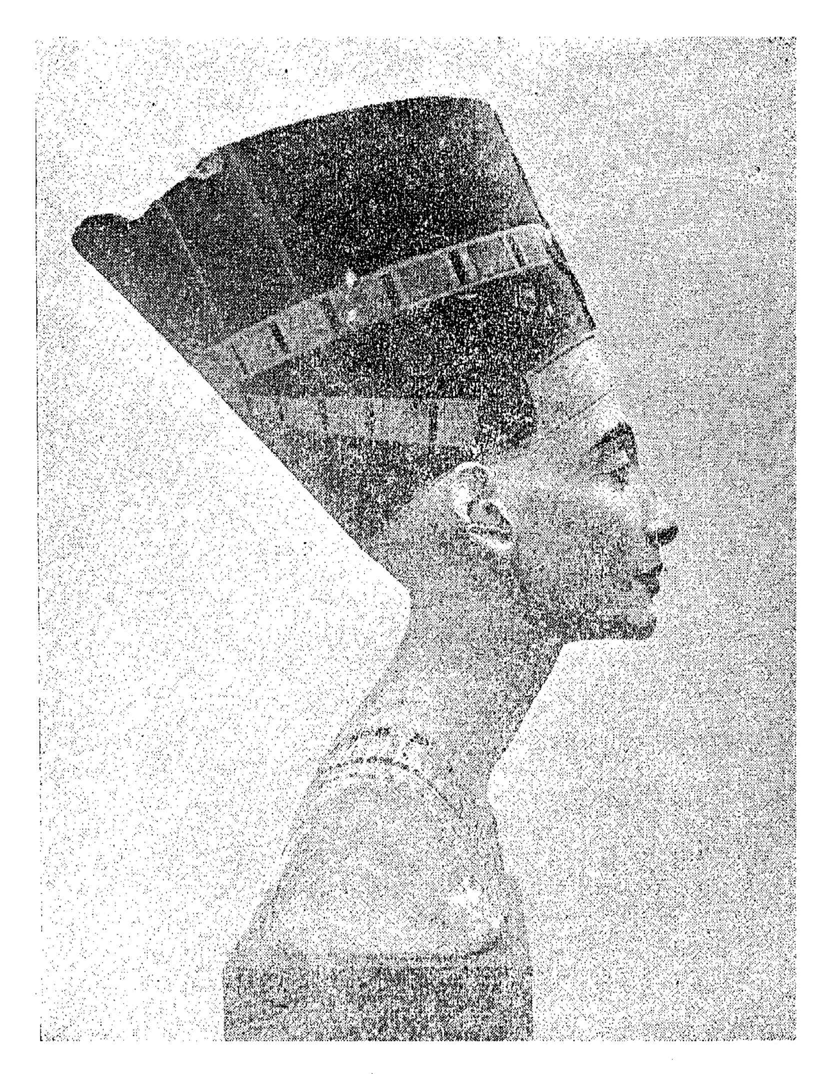
(شكل ١١٣)   جند يهرولون

ومن صور ذلك العهد ما ينم عن مغالاة ، ومن ذلك المغالاة فى تمثيل الحركة السريعة ، فالحرس الخاص يسرع بخطى واسعة فى غير نظام (شكل ١١٢) ، والجند يهرولون (شكل ١١٣) ؛ والمركبة الملكية تنهب الأرض فى سيرها ؛ ومن ذلك أيضا انحناء الرجال كثيرا على الأرض حتى لتتخذ أجسامهم أشكالا غير طبيعية . ويبدو أن المغالاة فى تمثيل الحركات والأوضاع إنما كانت لتوكيد التحرر من الحركة التقيدة المتزمتة فى الفن القديم ، كما كانت كذلك مما اعتمد عليه الفنان فى التعبير عن المشاعر ، فشدة انحناء المنحنين إنما قصد بها التعبير عن شدة خضوعهم للملك .



(شكل ١١٤)
من تمثال كبير الملك « أخناتون » ، فى المتحف المصرى

وكانت تماثيل « أخناتون » فى بداية عهده تمثله كذلك بصفاته الجسمانية السقيمة على أسوأ شكل ، وهو ما تدل عليه تماثيله الكبيرة التى عثر عليها فى الكرنك ، والمحفوظة الآن فى متحف القاهرة (شكل ١١٤) . على أن ما كشف عنه من تماثيل له فى « تل العمارنة » إنما يمثله بصفات جثمانية أكثر اعتدالا وأقرب إلى الجسم السليم ، مما يدل على أن المثال انتهى إلى اتخاذ صورة مثالية لمليكه تمتاز بطراوة خطوطها ، وشدة حساسيتها ، ورخاوة ملامح الوجه فيها ، واعتدال صفاتها الجثمانية .



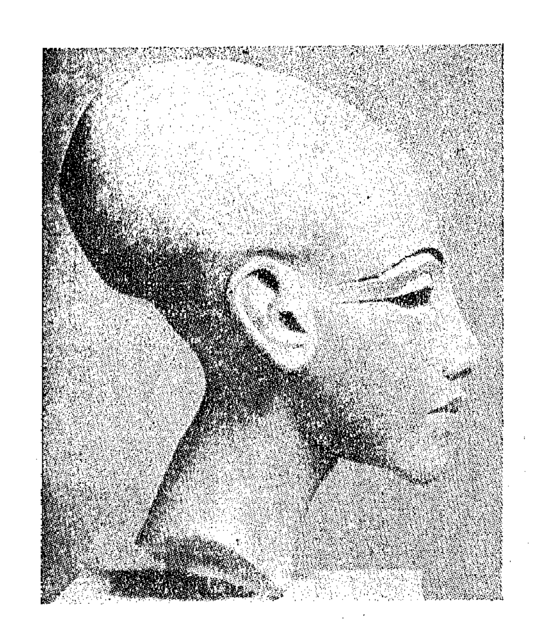
(شكل ١١٥)
« نفرتيتى » ، فى برلين

والتمثال النصفى للملكة « نفرتيتى » ، زوجة « أخناتون » فى متحف برلين (شكل ١١٥) ، هو قطعة نموذجية لفن « تل العمارنة » ، وقد بلغ غاية الكمال من الناحيتين الفنية والصناعية ، وله جاذبية غير عادية ، لا لجدة ألوانه وجمال خطوطه فحسب ، وإنما لما يسرى كذلك فى وجهه من حيوية نسوية ، ورقة مفرطة ، وحساسية دقيقة ، عبر عنها المثال بمهارة ورشاقة .

وتتميز رؤوس تماثيل بنات « أخناتون » بما لها من جماجم أنبوبية ممطوطة ، وهى

بصفة عامة متشابهة الملامح ، لا تختلف فيما بينها كثيرا ، ولكنها جميعا تمتاز بما يتمثل فيها من طفولة حلوة بريئة (شكل ١١٦) . وفى لندن جسم تمثال أميرة يمتاز بطراوة خطوطه وحيويتها وصدق محاكاتها للطبيعة ، حتى إنه كان يظن فى وقت ما أنه جزء من تمثال إغريقى (شكل ١١٧) .

وهكذا كان للفنون فى عهد « أخناتون » من الصفات المميزة ما تختلف به عنها فى العهود السابقة ، وإذا كان لها ما ينم عنها فى عهد « أمنحوتب الثالث » ، فهى لم تبلغ غاياتها إلا فى عهد ابنه « أخناتون » . وليس من شك فى أن « أخناتون » قد دفع فنانيه إلى تمثيله على النحو البادى فى صوره وتماثيله ، بما يتفق وما كان يشيد به من حبه للحقيقة ، وأنه يعيش على الحق . وكما كان الفن القديم ، بتحفظه وتقيده بالأوضاع والموضوعات التقليدية المتوارثة ، فى خدمة العقائد القديمة المتزمتة ، كان لا بد للدعوة الدينية الجديدة من فن جديد يحقق أغراضها ، ويتمشى



(شكل ١١٦)
رأس إحدى بنات « أخناتون » ، فى برلين



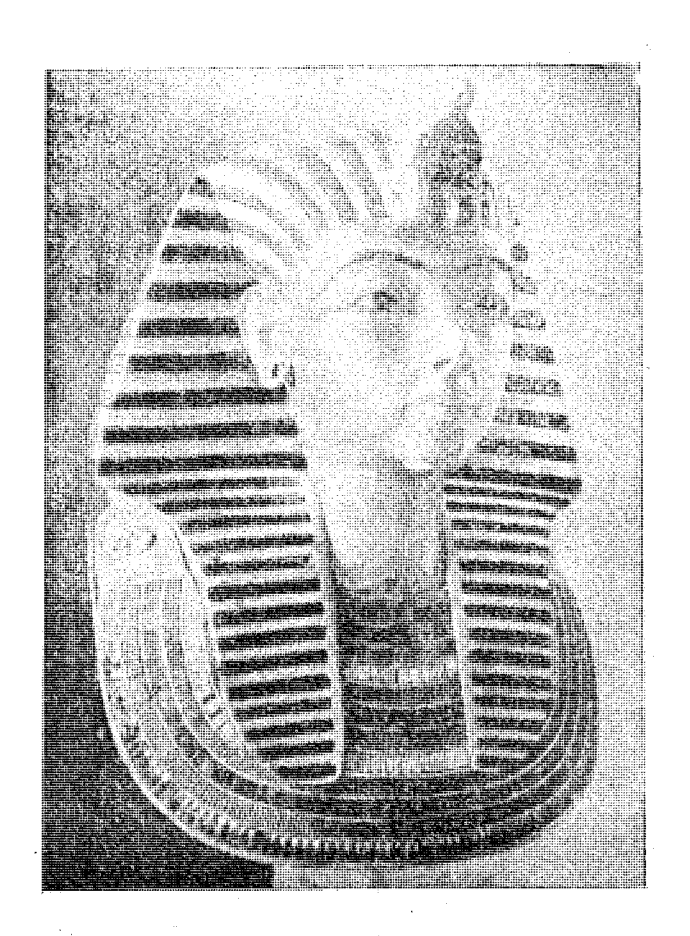
(شكل ١١٧)
تمثال إحدى بنات « أخناتون »



(شكل ١١٨)
من تمثال « توت عنخ أمون » ، فى المتحف المصرى

مع مبادئها ، ويؤثر الصدق والصراحة ، ويشيد بمظاهر الطبيعة . وإذا كانت العقائد الدينية القديمة وما صاحبها من تقاليد فنية قد ضيقت الخناق على المشاعر والوجدان ، فقد غالت كثيرا الدعوة الدينية الجديدة وما لازمها من اتجاه فنى جديد فى التحرر من تلك العقائد والتقاليد . وقد حمل « أخناتون » لواء الفن الجديد كما حمل لواء العبادة الجديدة ، بل لقد كان لشخصيته أثر قوى فيه ، فقد وصف « بك » ، رئيس مثاليه ، نفسه بأن جلالته هو الذى علمه .

وبعودة الملكية إلى « طيبة » استعادت العقائد القديمة سلطانها ، وصاحب ذلك الرجوع إلى تقاليد الفن القديم ، فعاد الفنان يستأنف الطراز الفنى من عهد « أمنحوتب الثالث » ؛ على أنه لم يستطع أن يتخلى تماما عما ساد فى عهد « أخناتون » من اتجاهات فنية جديدة . ويتجلى ذلك فيما حفظ من تماثيل « توت عنخ أمون » (شكل ١١٨) ، وفى القناع الذى كان يغطى رأسه (شكل ١١٩) . ومن تماثيل رمسيس الثانى ما لا يخلو كذلك من أثر فن العمارنة ، كتمثاله الشهير المحفوظ



(شكل ١١٩)
قناع « توت عنخ أمون » ، فى المتحف المصرى

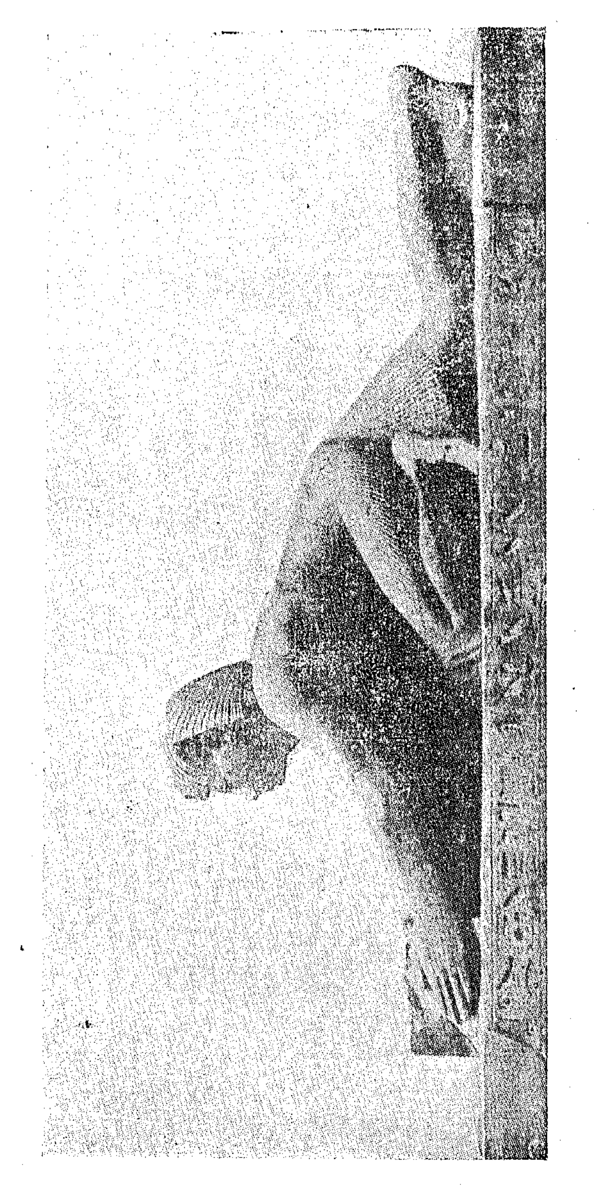


(شكل ١٢٠)
« رمسيس الثانى » فى تورين

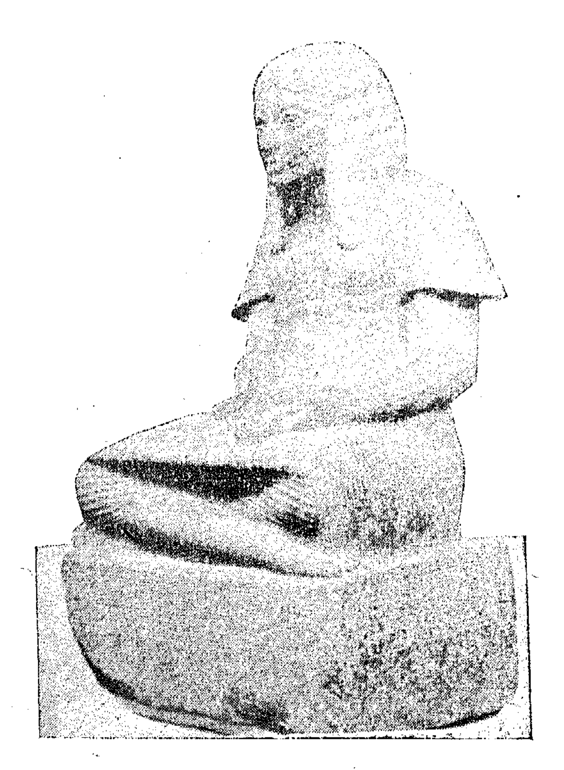
فى متحف تورين (شكل ١٢٠) ؛ وله فى القاهرة تمثال صغير يمثله وهو يقدم القربان وكأنه يزحف على الأرض كناية عن شدة الخشوع (شكل ١٢١) .

ومن التماثيل التى أقامها « رمسيس الثانى » ما يتفق فى ضخامته مع ضخامة العمارة فى عهده ، ومن أهمها التماثيل المنحوتة فى الصخر فى واجهة معبد أبو سنبل ، وتمثاله الشهير فى الرمسيوم ، وهو من الجرانيت ، وكان طوله حوالى ١٧٫٥ مترا ، وكان وزنه يزيد على ١٠٠٠ طن ، وفيما بقى منه ما يدل على جودة صقله . ومع ذلك لا ينبغى الاعتماد على هذه التماثيل للحكم على فن النحت فى عهده ، فقد كان الغرض منها أن تروع بضخامتها ، وأن تتسق مع المحيط المعمارى الذى ترتبط به .

وقد احتفظ بعض تماثيل الأفراد بجمال فن النحت فى عهد « أمنحوتب الثالث »



(شكل ١٢١) « رمسيس الثانى » يقدم قربانا ، فى المتحف المصرى



(شكل ١٢٢)
« حورمحب » قبل توليته العرش ، في نيويورك

مضافاً إليه ما ساد فى عهد العمارنة من دقة تمثيل المشاعر الداخلية . ومن أجمل هذه التماثيل تمثال « حورمحب » قبل توليه العرش ، وهو الآن فى نيويورك (شكل ١٢٢) ؛ ومنها تمثال « رمسيس نخت » من عهد الأسرة العشرين فى متحف القاهرة (شكل ١٢٣) ، ويطل من فوق رأسه قرد ، رمز الإله « تحوت » ، إله الحكمة والكتابة ، يوحى إليه بالأفكار السديدة ؛ وفى ملامح وجه التمثال حلاوة ورقة .

وفى صور ونقوش « توت عنخ أمون » ما يوحى كذلك بروح فن العمارنة ، ومن ذلك الصور التى تحلى أحد الصناديق الصغيرة ، والتى تمثل الملك يحارب الأسيويين والنوبيين ويصيد السباع وحيوانات الصحراء . وقد وفق الفنان إلى حد بعيد فى تمثيل معمعة القتال ووطيس الصيد على ضآلة المساحات التى صورت عليها هذه الصور . وصورة صيد الأسود (شكل ١٢٤) تجيش بصفة خاصة بالحركة والحياة ؛ فمن السباع ما اندفع من شدة ما أصابه من سهام إلى الفضاء ثم أخذ يهوى إلى الأرض ؛ ومنها ما لا يزال يتلقى النبال وهو مذعور ؛ ومنها ما يتسلل هارباً لينجو بنفسه . وتتجلى روح



(شكل ١٢٣)
« رمسيس نخت » فى المتحف المصرى

فن العمارنة كذلك فى صورة من عهد هذا الملك تمثل جنازة أحد رؤساء كهنة منف ، فقد استطاع الفنان فيها أن يمثل شدة الأسى والحزن فى حركات الأذرع وفيما تنطق عنه الوجوه (شكل ١٢٥) .

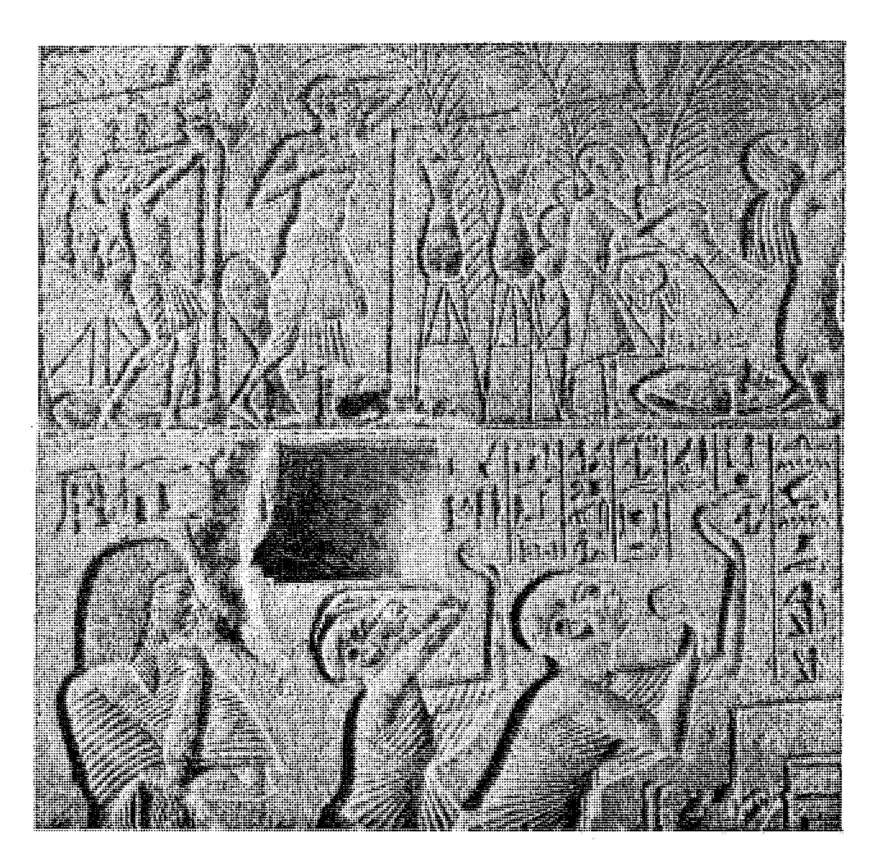
وفى عهد الرعامسة كانت مناظر القتال تشغل مساحات كبيرة على جدران المعابد ؛ ومنها ما عنى الفنان فيه بتمثيل بعض التفاصيل التى تضفى على الصورة كثيرا من الحياة ، وتزيد من قوتها ، كتمثيل راع يلوذ بالفرار فى فزع وهلع ، وكتمثيل منطقة خربة ، مهدمة المنازل ، مجتثة الشجر ، لا أثر فيها لإنسان ، يخيم عليها سكوت ووحشة كناية عن شدة ما عمله الجنود المصريون فيها من تدمير وتخريب .

وفى بعض نقوش معبد مدينة حابو من عهد « رمسيس الثالث » ما يدل على أن من الفنانين المصريين من كان لا يزال يحمل لواء الفن عاليا . ومن ذلك منظر الموقعة البحرية ، وفيها بلغ الفنان حد الإدهاش فى تمثيل اضطراب القتال بين المراكب المتشابكة ،



(شكل ١٢٤) « توت عنخ أمون » يصيد السباع

والرجال المتناحرة ، وفى تصوير الغرقى فى أوضاع مختلفة ، وفيما يبدو على وجوه الصرعى من تعبيرات الألم والأسى . ومن نقوش هذا المعبد كذلك صورة صيد الثيران البرية ، ويرى فيها أحد الثيران يندفع بقوة خلال أجمة ومن ورائه الملك على وشك القفز من مركبته مأخوذا بحماس الطراد .



شكل (١٢٥)
من جنازة أحد رؤساء كهنة منف ، فى برلين

العـــراق القديم

تاريخه وحضاراته

للدكتور عبد المنعم أبو بكر

مقـــدمة

« الشرق القديم » : أسطورة مليئة بالأسرار . أخذ الناس ينسجون حولها أنواعا شتى من الخرافات والتخيلات تراكمت وترسبت على مر السنين حتى أصبحت علما على بلدانه . وظل الشرق القديم غارقا فى ظلام دامس لايعرف الناس عنه إلا ما كتبه عنه ذلك النفر من الإغريق الذين خرجوا من بلادهم يتجولون فى ربوع الشرق القديم يدفعهم إلى ذلك حب الاستطلاع من ناحية ، والبحث عن الأصول الأولى للحضارة الإغريقية من ناحية أخرى . وكان ما كتبه هؤلاء (أمثال هيرودوت وديودور الصقلى وسترابو) من معلومات مملوء بالأخطاء بل والمغالطات التى تسببت تارة عن سوء الفهم وتارة أخرى عن جهل المصادر التى استقى منها هؤلاء معلوماتهم . ولعل هيرودوت (أبو التاريخ) هو أحسن مثل يضرب لهذا النوع من المؤرخين فقد زار بلدان الشرق القديم حوالى عام ٤٣٠ ق.م ودون معلوماته التى حصل عليها ومشاهداته فى موسوعة من تسعة أجزاء حوت كلها من الأخطاء والمغالطات ما يجعلنا اليوم نكاد نرفض أكثر ما ورد فى كتبه ونقبل بحذر البقية الباقية . ونحن نعذر هيرودوت لأنه حاول أن يصف حضارات لا يعرف لغات أصحابها فضلا عن أن كتابة التاريخ فى ذلك الوقت لم تكن تجنح نحو استقصاء الحقائق وإنما كانت فنا أدبيا خالصا هدف المؤرخ فيه أن يضيف إلى رواياته كل ما من شأنه أن يفتن الجمهور ويثير فيه حب الاستطلاع .

ولقد بقيت بلاد العراق القديم مثلها فى ذلك مثل بقية بلاد الشرق غارقة فى هذا الظلام الدامس حتى منتصف القرن التاسع عشر حين أخذ نفر من أدعياء البحث الأثرى يقومون بأعمال الحفر والتنقيب أمثال « بوتا » و « ليارد » و « رسام » كان من نتائج أعمالهم أن تدفقت التحف الأثرية فى المتحف البريطانى واللوفر وأصبحت فى متناول أيدى العلماء الذين انكبوا على دراستها .

وفى الربع الأخير من القرن التاسع عشر تحولت الكشوف الأثرية إلى الجزء الجنوبى من بلاد العراق وكانت هذه خطوة ناجحة أنتجت الكشف عن حضارة السومريين .

وكان القرن العشرون هو قرن الدراسات الخاصة بعصور فجر التاريخ وانتهت الأبحاث المستمرة إلى تقسيم فترات فجر التاريخ العراقى إلى الحضارات الآتية :

١ — حضارة حسونه ٢ — حضارة تل حلف ٣ — حضارة العبيد
٤ — حضارة الوركاء ٥ — حضارة جمدة نصر

وهكذا أصبح فى استطاعة علماء الآثار والتاريخ الآن أن يكتبوا تاريخ العراق القديم وأن يتتبعوا حضارته منذ أول العصور حتى عصرنا الحالى دون أن تنقطع بين أيديهم هذه السلسلة الطويلة من التطور إلا مرات قليلة لا بد وأن يحاول الباحث ربطها فى القريب العاجل .

* * *

امتازت مصر وبلاد العراق القديم بحضارتيهما الغارقة فى القدم إذ حبت الطبيعة كل منهما ببيئة توفرت فيها مقومات سخية دفعت الإنسان إلى التقدم بخطى سريعة نحو الكمال فى مظاهر الحضارة . ومن المعروف أن حضارة الإنسان الأول الذى عاش فى فترات العصر الحجرى القديم قد تشابهت فى جميع المناطق التى سكنها إذ انحصرت مقومات حياته فى اقتناص الحيوان والتقاط الثمار واضطرته ظروف هذه الحياة إلى استعمال الظران لتشكيل بعض الآلات البدائية يدافع بها عن نفسه ويصيد بها الحيوانات الضارية ولقد تطابقت هذه الآلات الظرانية فى شكلها وطريقة صنعها فى جميع المناطق التى سكنها ذلك الإنسان الأول سواء فى أوروبا أو فى غرب آسيا أو شمال إفريقيا .

حدث هذا إبان العصر الجليدى فى العروض الشمالية ، والعصر المطير فى العروض الوسطى إلا أنه حدث أن الأمطار ، التى طالما سقطت بكثرة فى مناطق حوض البحر المتوسط وخاصة على شمال إفريقيا قد توقفت عن الهطول وكان ذلك حوالى عام ١٠٠٠٠ ق. م تقريبا . ومن الواضح أن توقفها كان سببا فى انتشار الجفاف فى مناطق الشرق القديم ولذلك اندفعت قطعان الحيوان إلى السهول والوديان حيث توفرت المياه ومن ثم انتشرت النباتات واندفع فى أعقابها الإنسان وتجمع حول مجارى المياه .

وأخذ الإنسان الأول يحاول الاستفادة من بيئته الجديدة وبعد عدة قرون تعلم الزراعة فاهتدى الإنسان إلى بذر الحب وحراسة الزرع حتى موسم الحصاد وأخذت حياته مظهراً جديداً فأصبحت زراعية إنتاجية بعد أن كانت تعتمد على مجرد القنص والالتقاط . واستقر الناس فى أوطان صغيرة وتألفت جماعات من الناس ارتبطت حياتهم بالأرض ارتباطا وثيقا يدافعون عنها ويحاولون توسيع رقعتها وهكذا حلت الوحدة الإقليمية الثابتة محل الوحدة القبلية المتنقلة وهذا يعتبر فى حياة الإنسان بمثابة عصر جديد تعارف العلماء على تسميته « بالعصر الحجرى الحديث » . الذى يمتاز بالاستقرار وبأن كل جماعة أخذت تتأثر تأثراً واضحاً بالبيئة التى تعيش فيها ومن

ثم بدأت تظهر فروق واضحة المعالم بين الحضارات المختلفة لشعوب الشرق القديم .

ويجدر بنا قبل البدء بالحديث عن تاريخ العراق القديم وحضاراته أن نأتى بوصف مجمل لجغرافية هذه البلاد : —

على الرغم من أن بلاد العراق تعرف باسم بلاد النهرين فإنها فى الوقع تنقسم من حيث الطبيعة الجغرافية إلى قسمين مختلفين : الجنوبى والشمالى . والقسم الجنوبى حديث التكوين نسبيا فقد كان جزءا من الخليج الفارسى إبان العصر الجليدى . ثم أخذت الرواسب التى كانت مياه نهرى الدجـــلة والفرات تحملها معها من جبال أرمينيا تتراكم بمرور السنين وترتفع حتى حسرت المياه عن هذا الجزء الجنوبى الذى كان يمتد شمالا حتى مدينة بابل حيث عثر فى أعماق أرضها على أصداف بحرية مما يثبت أنها كانت فى يوم من الأيام قاعا لبحر خضم . وهكذا تكونت مساحة من الأرض المسطحة الخالية من الأحجار والصالحة للزراعة اتسعت حتى بلغت فى امتدادها شمالا وجنوبا ما يقرب من ٥٠٠ ك م وعرضها حوالى ١٥٠ ك م . تحدها من الشرق السفوح الغربية للهضبة الإيرانية ومن الغرب صحراء العرب ومن الشمال السهل المرتفع الذى ينحدر منه النهران والذى يكون القسم الشمالى من بلاد العراق .

أما القسم الشمالى فيتكون من وديان تحف بنهرى الدجلة والفرات وفروعهما التى يفصلها بعضها عن بعض مرتفعات جبلية . ويحف بهذه المنطقة سلسلة جبال الطورال التى تبدأ فى الشمال الغربى عند بلاد الأناضول ثم تمتد شرقا وتنحنى جنوبا حتى تصل إلى الخليج الفارسى .

لقد كانت جبال الطورال كما لا تزال بمثابة الحد الفاصل بين شعوب الشمال والجنوب ففى شمالها وشرقيها من بلاد الأناضول وأرمينيا ثم القوقاز نجد شعوبا شمالية هم الآن الترك والأرمن والروس . أما جنوبى هذه السلسلة الجبلية فتسكن شعوب سامية تنتشر فى سوريا وبلاد النهرين وصحراء بلاد العرب الشاسعة .

وليس معنى هذا أن سلسلة جبال الطورال هذه كانت بمثابة جدار عال منع اختلاط الجنسين منعا باتا ، بل على العكس فهناك ما يثبت أنه كثيراً ما عبرت شعوب الشمال هذه الجبال متجهة نحو الجنوب فنزل بعضها أرض سوريا وبلاد النهرين واستقرت فيها كما أنه كثيراً ما زحفت قبائل سامية نحو الشمال . بل نستطيع أن نقول بأن تاريخ هذه المنطقة الشاسعة ليس إلا عرضاً شــاملا لمحاولات شتى يسعى فيها تارة أهل الجنوب الساميين للتغلب على أهل الجبال الشماليين وتارة أخرى يحاول أهل الشمال التغلغل

فى المناطق السامية الجنوبية لـكى يتملـكوها ، لقد حدث هذا وتـكرر منذ أول العصور التاريخية حتى آخر العصر الفارسى .

وفيما يتعلق بالشعوب السامية التى انتشرت جنوبى جبال طوروس فقد أجمع العلماء على أن نشأتها ترجع إلى منطقة شبه جزيرة العرب حيث قست الطبيعة فحرمتها من الأنهار. وحيث لاتسقط فيها الأمطار إلا مدة أسابيع قليلة أثناء الشتاء . ولهذا فإن أكثر مساحتها أرض صحراوية لا يمكن سكناها ونخص بالذكر تلك الصحراوات الممتدة فى شمال المنطقة وفى شرقها وجنوبها حتى تكاد تصل إلى المحيط الهندى . ولـكن شبه الجزيرة العربية تحوى بعض المناطق الخصبة التى تسمح بيئتها بتجمعات بشرية مثل بلاد نجد فى الوسط وبلاد الحجاز فى الشمال الغربى وبلاد اليمن فى الجنوب .

ومناخ بلاد العراق يشبه إلى حد كبير المناخ فى مناطق البحر المتوسط أى أن أمطاره لاتسقط إلا فى الشتاء ثم تقل أو تنعدم فيما تبقى من فصول السنة ولهذا تحتاج الحقول إلى الرى لينضج المحصول ...

حضارات فجر التاريخ فى بلاد العراق

لقد قلت مخلفات إنسان العصر الحجرى القديم فى معظم مناطق غرب آسيا وما عثر عليه منها انحصر فى بعض الأماكن الجبلية العالية فى آسيا الصغرى وفلسطين وبلاد إيران ولـكن هذه المخلفات بلغت حـداً من القلة بحيث ضاعت فائدتها التى نجنيها منها إذا ما حاولنا أن نتعرف منها على ناحية من نواحى التطور البشرى فى حضارته التى ظهرت لنا بوضوح فى العصور التالية .

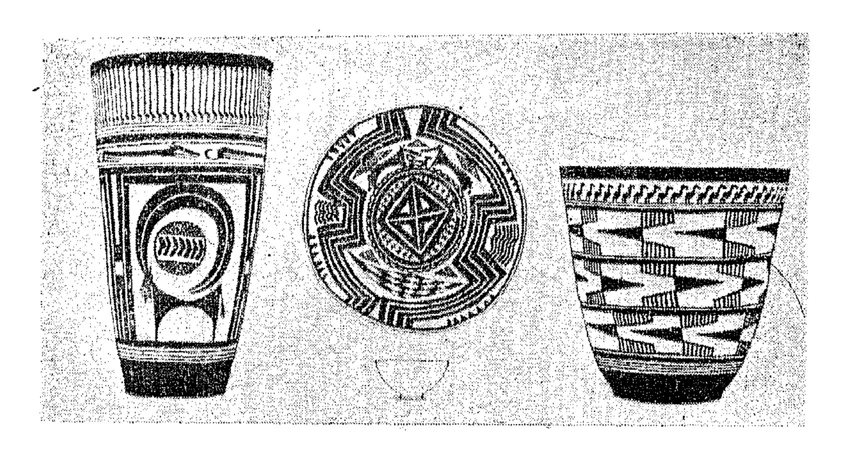
العصر الحجرى الحديث

حضارة تل حسونة :

لقد تغيرت الأحوال فى هذا العصر وكثرت الأدلة على وجود إنسان عاش فى مناطق العراق الشمالية . ولقد وجهت حكومة العراق عنايتها عام ١٩٤٤ إلى تل صغير فى قرية « حسونة » التى تقع على بعد بضعة كيلومترات إلى الجنوب من مدينة الموصل الحالية .

وهناك عثر المنقبون على مخلفات أقدم الجماعات البشرية التى استوطنت بلاد العراق القديم . وكانت هذه المخلفات مدفونة على عمق سبعة أمتار من سطح التل وأسفرت

اللوحة الأولى :



نماذج من فخار صوصه الذى تتميز برسومات هندسية فوق أرضية بيضاء ولقد امتزجت بهذه الرسومات بعض أشكال للحيوانات كما يبدو فى الآنية الفخارية إلى اليسار . ففى جزئها الأوسط نجد حيوانا أشبه بالعنزة الجبلية ذات القرون المرتفعة وفوقه نجد صوراً تمثل كلابا للصيد ، أما حول العنق فنجد صفاً يحوى طيوراً مائية ذات سيقان وأعناق طويلة . ونعتقد أن هذا الفخار بأسلوبه الزخرفى قد امتد نحو الغرب وأثر على الأسلوب الزخرفى الخاص بالأوانى الفخارية التى صنعها السوميريون ، كما أن هناك تشابها بينه وبين الأسلوب الزخرفى الذى تميز به فخار حضارة نقادة الثانية فى مصر .

دراستها على أنها من صنع جماعة من البشر الرحل لابد وأنهم نزلوا من الجبال المجاورة إلى أعلى الدجلة واستقروا هناك حيث تركوا آثاراً لرماد تناثر حوله بعض من آلاتهم الحجرية وأدوات صنعت من العظم وكذلك أنواع من الأوانى الفخارية البدائية التى تعد النماذج الأولى لصناعة الفخار .

ولاحظ المنقبون فى نفس التل وجود مخلفات فى مستوى أعلى من المستوى السالف الذكر ترجع إلى عصر أحدث وتخص جماعات أخرى اعتادوا حياة الاستقرار ، إذ شيدوا لأنفسهم مساكن بدائية من الطمى غير المشكل واستعملوا نوعا من الفخار تزينه زخارف مرسومة ؛ هذا عدا بعض الآلات الظرانية التى ساعدتهم على قطع سنابل حبوبهم .

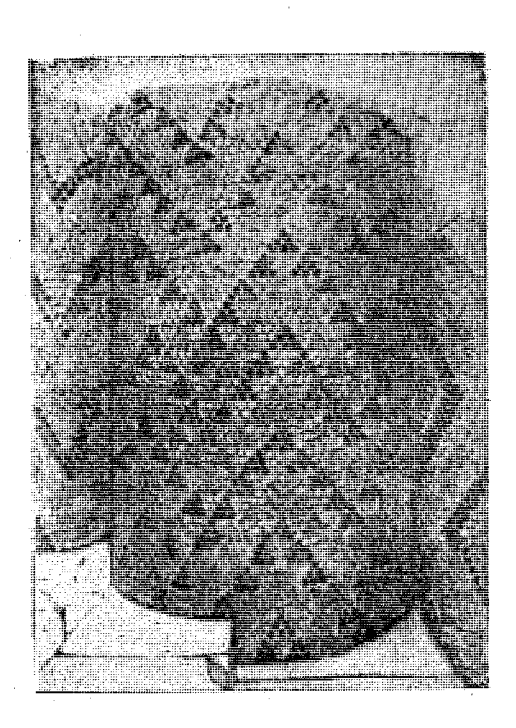
حضارة تل حلف :

عثر على مخلفات هذه الحضارة فى قرية بهذا الاسم تقع بالقرب من منبع نهر الخابور أحد روافد نهر الفرات . وتدل هذه الآثار على أن إنسانها كان قد تقدم فى أساليب حياته التى تقوم على الزراعة كما استطاع أن يصنع أوانى فخارية متقنة ذات ألوان متعددة لامعة . أكثر من هذا عرف إنسان هذه الحضارة أن يصهر النحاس وأن يصنع منه أدوات مختلفة . ومما يجدر ذكره هنا أن إنسان هذه الحضارة قد رسم على فخاره صورا للثور المقدس كما صنع تماثيل صغيرة من الطمى المحروق تمثل سيدات أعضاؤها ممتلئة ولونت هذه التماثيل بنفس الألوان والأسلوب الذى استعمل فى الفخار ، ويدل هذا على أول محاولة بشرية لربط العبادة الخاصة بالثور المقدس مع « الأم الإلهية » وهى العبادة التى ظهرت وتطورت فى الحضارة الكريتية ، ولو أن ظهورها هنا يسبق ظهورها فى كريت بآلاف السنين وهى تعتبر فى نفس الوقت بمثابة القرينة على تأسيس حضارة أخذت تتطور معتمدة على الإمكانيات التى تستمدها من الاستقرار الزراعى والارتباط بالبيئة .

حضارة تل العبيد :

ونحن لا ندرى ماذا كان يحدث فى الجنوب أى فى المنطقة التى يصب فيها نهرا الدجلة والفرات عند الخليج الفارسى وهى التى تكونت فيها فيما بعد الدلتا التى كانت مسرحا لأهم حضارات العراق القديم . وأقدم مراحل هذه الحضارة هى تلك التى يطلق عليها اسم حضارة « تل العبيد » حيث عثر على نوع من الفخار يميل لونه إلى الاخضرار وتزينه رسوم هندسية الطابع لونت باللون الأسود ، ويلاحظ أن إنسان هذا العصر كان يبنى أكواخه من البوص على المساحات من الأرض التى كانت قد انحسرت عنها المياه وأن المنطقة كلها كانت تعج بالمستنقعات ، وعثر من بين المخلفات البشرية هناك على تماثيل صغيرة من الفخار لإنسان طويل القامة ذى رأس تمتد إلى الأمام بحيث تشبه

اللوحة الثانية :



أعمدة نصفية زخرفت بواسطة مخاريط تغور فى العمود المشيد من الطمى بحيث يظهر النهاية المستديرة من كل مخروط ، ويحرص البناؤون على ترتيبها فى صفوف حسب ألوانها السوداء والحمراء والرمادية بحيث يتكون من تجمعات الألوان المختلفة خطوط متعرجة ومثلثات . يرجع هذا الأسلوب فى البناء إلى عصر ما قبل الحضارة السومرية وعثر عليه فى الوركاء .

رأس الضفدع ، كما أن بعض أجزاء الجسم كانت تلون بما يجعلنا نرجح أنها مثلث وشما بارزاً . قامت هذه الحضارة فى المناطق الجنوبية التى لم تكن قد جفت بعد بل كانت لا تزال رواسب النهرين من الغرين الآتى من الشمال تساعد هذا الإنسان الأول فى الفوز بمساحات أكبر من الأرض الصالحة للزراعة وقد حدث ذلك حوالى القرن الستين قبل الميلاد .

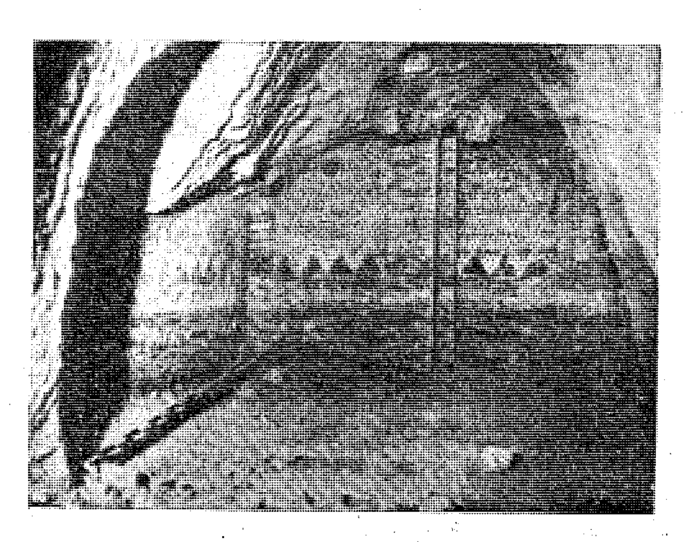
حضارة الوركاء :

تلت الحضارة السابقة مرحلة أخرى أحدث يطلق عليها حضارة الوركاء وهى ولاشك تعتبر دفعة نحو الأمام فى تطور حضارة هذه المنطقة الجنوبية من بلاد العراق القديم . إذ أن أصحابها عرفوا تشييد الأبنية من اللبن المجفف كما كانوا على قدر من المدنية سمح لهم بزخرفة أبنيتهم هذه بنوع من الفسيفساء يتكون من صفوف من مخروطات فخارية اختلفت ألوانها بين الأبيض والأحمر والأسود وكانت هذه المخروطات تثبت داخل الجدران بحيث لا يبدو منها غير نهاياتها التى تكون الصفوف السالفة الذكر بألوانها الثلاثة . ولقد حفظت لنا الأرض هناك بقايا معبد يعرف باسم « المعبد الأحمر » نظرا للطلاء الأحمر الذى كسى به وهو يرجع إلى نهاية عصر هذه الحضارة . ومن أهم ما وصل إليه إنسان هذا العصر هو الكتابة ولعلها كانت المحاولة الأولى عند أهل الأرض فى هذا الصدد ، وكانت كتابة فطرية مصورة ينقش صورها الكاتب بواسطة قلم معدنى مدبب الطرف على سطح لوحة من الطمى لا زالت سطوحها ندية غير جافة ، كما استعمل إنسان هذا العصر أيضا أسطوانات حجرية صغيرة عليها رسوم غائرة ويجرى بها على سطح اللوحات الطميية المبللة فتطبع عليها الصور بشكل بارز ؛ وكانت هذه الصور تمثل حيوانات مصفوفة أو متماثلة حول محور واحد ، ويبدو واضحا أن الفنان وصل إلى درجة كبيرة فى إظهار أجسام هذه الحيوانات بدقة وحيوية على الرغم من استغلاله لذيولها وأعناقها وتحويلها إلى زخارف . ولم تقتصر هذه الرسوم على صور لحيوانات فحسب بل حوت أيضا صورا بشرية . غير هذا تتميز حضارة الوركاء بنوع من الفخار المصقول اللامع الخالى من الرسوم .

حضارة جمدة نصر :

ولعل آخر مراحل تطور حضارة إنسان العصر الحجرى الحديث فى بلاد العراق القديم كانت مانطلق عليه اسم حضارة « جمدة نصر » نسبة إلى القرية المسماة بهذا الاسم بالقرب من « كيش » وتمكن إنسان هذه الحضارة من أن يبلغ حدا من المدنية استطاع

اللوحة الثالثة :



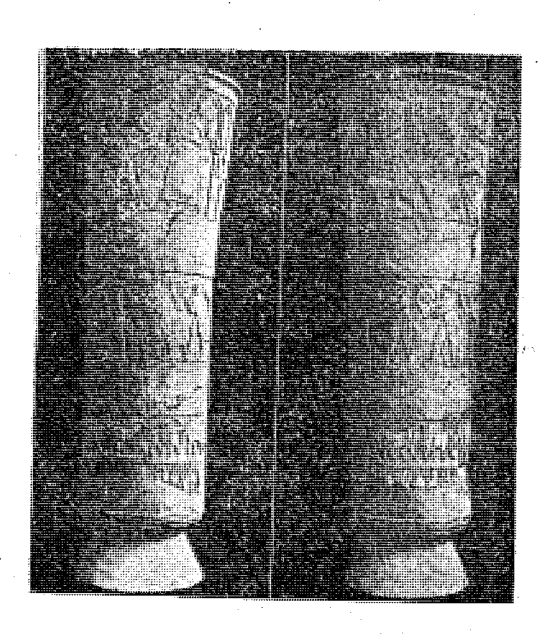
الأسلوب الزخرفي بالمخاريط الملونة مستعملا في الوركاء في زخرفة الجدران المسطحة .

معه أن يخرج لنا أوانى حجرية وصلت إلينا إحداها سليمة تبلغ فى ارتفاعها ما يقرب من المتر وصنعت من حجر الألبستر وقد شكلها صانعها على هيئة اسطوانة مسلوبة سلباً بسيطاً وزين سطوحها الخارجية بمناظر وزعها على أربعة صفوف يعلو الواحد منها الآخر، منها ما يمثل تقديم القرابين من الكباش وسنابل القمح وسعف النخل . كما كشف معول الحفار عن تحفة جميلة هى عبارة عن لوحة نقش فوقها نحت بارز يمثل صيادين يرميان ثلاثة أسود بحربة وسهام . كما ظهرت فى هذه الحضارة أوان فخارية كبيرة متقنة الحرق وزخرفت بعناصر هندسية تتألف من رسوم ذات لونين . أما الكتابة فقد ارتقت وسهلت وأصبح من الميسور التعبير بها عن شتى أنواع النشاط البشرى ، وتقدم فن النحت على الأختام الاسطوانية ، ومما يلاحظ أن رسوم بعض الحيوانات المحفورة عليها حوت ثقوباً غائرة مما يجعلنا نرجح أن الدافع إلى ذلك كان يهدف إلى إيجاد قوة سحرية ذات تأثير فعال .

مما سبق نرى بوضوح أن بلاد مابين النهرين كانت مهد حضارات قديمة وأن إنسانها الأول ، متفرقاً فى مجموعات بشرية انتشرت بين الشمال والجنوب ، قد استطاع أن يحيا حياة قامت على أسس حضرية متقدمة منذ أول عصور فجر التاريخ ، وأن هذه الأسس أخذت تتطور تطورا رتيبا فى سلسلة متعددة الحلقات حصرناها فى الخمس حضارات السالفة الذكر .

ويجب علينا ألا نعتقد بأن هذا التطور كان يحدث على مسرح واحد ، بل تعددت مسارحه واختلفت أسبابه ، ولكن من الصعب علينا أن نحدد ونتتبع التطور الحضرى بشكل تفصيلى بالنسبة إلى مجموعة بعينها من البشر طوال عصور متتابعة من التاريخ سكنت مكاناً واحداً وذلك لسبب بسيط وهو أن المخلفات البشرية التى تركوها لنا فى أمكنة معيشتهم غالباً ما اندثرت واختفت على مر السنين ولأنهم أيضاً لم يكونوا قد وصلوا فى مدنيتهم إلى الحد الذى استطاعوا معه استعمال أدوات فى حياتهم اليومية تغالب الدهر أو أنهم استعملوا الكتابة على نطاق واسع . ومن أجل هذا كله يضطر المؤرخون أن يلجأوا فى تأريخهم لإنسان عصور فجر التاريخ أن يتلمسوا التطورات الحضرية فى كل مكان تظهر فيه ويضعوا تقسيمات معينة لإظهار كنه هذا التطور وذلك على أساس أن الآنية الخالية من الزخرف لابد وأنها سبقت تلك التى تحوى زخارف وأن الزخارف ذات الطابع الهندسى تسبق تلك التى تمثل حيوانات أو أشخاص بشرية وأن الأكواخ المبنية من البوص لا بد وأنها تسبق تلك التى بنيت من الطمى وأن هذه تسبق الأبنية التى استعمل فى تشييدها اللبن وهلم جرا . ومن الواجب علينا أيضا ألا نعتقد أن تطور الحضارة حدث واتخذ نفس الأسلوب فى كل مكان تجمع فيه الإنسان

اللوحة الرابعة :

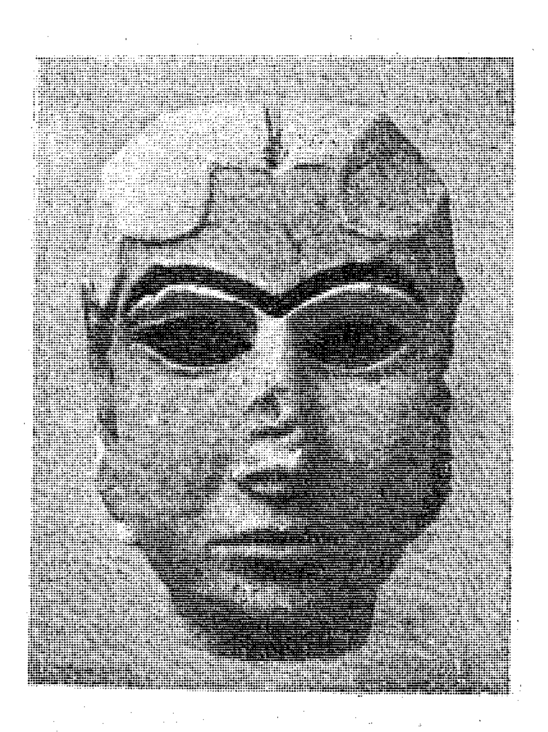


إناء من حجر الألابستر ارتفاعه ٩٠ سم عثر عليه فى الوركاء ويرجع إلى عصر ماقبل السومرية وعليه ثلاثة صفوف من المناظر : الأعلى منها يمثل تقدمة دينية لإلهة والأوسط يمثل حاملى القرابين والأسفل يمثل أغناما وسنابل قمح وأشجار نخيل .

بل الواقع أن البيئة لعبت دورا رئيسياً فى التأثير على الإنسان الذى يعيش بين أحضانها كما أنها طبعت حضارته بطابع خاص يتفق ومقتضيات الحياة فيها . فمثلا مصر — وهى هذه الواحة الممتدة فى شريط ضيق يتمثل فى الوادى الذى لا يزيد عرضه عن ٢٤ كيلومترا من الشرق إلى الغرب وفى كثير من أجزائه يضيق عن ذلك كثيرا — اعتمدت الاعتماد كله على نيلها الفياض الذى يعتبر نعمة وبركة يهب الحياة والنماء لأهلها ونباتها ومن هنا اعترف الناس بأنها « هبة النيل » ولكن النيل فى الوقت ذاته يعتبر النقمة الكبرى لمصر إذا ما فاضت مياهه على شاطئيه فهى عندئذ تهلك الحرث والنسل وتفنى ما على الأرض من إنسان وحيوان ومن هنا ظهرت عوامل البيئة بشكل واضح فى إجبار الناس الذين عاشوا على ضفاف النيل إلى التعاون والاتحاد منذ أول التاريخ فلقد اتحدوا لتنظيم شئون الرى وتكاتفوا ليحموا قراهم من خطر الفيضان ولذا كانت مصر هى الأمة الأولى بين أمم الشرق القديم التى نعمت منذ أول عصورها باتحاد كامل يحكمها ويسيطر على شئونها ويدفعها نحو التقدم والرقى رجل واحد . غير هذا فهناك عامل مهم فى تمتع مصر بوحدة كاملة جمعت بين شمالها وجنوبها وهذا العامل هو أن وادى النيل يمثل لنا وطناً غنياً تعاونت ظروف موقعه الجغرافى على حمايته من جهاته الأربع ؛ فالبحر المتوسط يحميه من الشمال ، والصحراء الليبية من الغرب ، وصحراء العرب من الشرق ، والشلالات التى تعترض مجرى النيل من الجنوب ، هذه العوائق الطبيعية ، جعلت الجماعات البشرية التى تسكن النيل بعيدين طوال أحقاب طويلة فى تاريخهم (وخاصة فى عصورهم الأولى) عن الهزات العنيفة التى تصاحب الهجرات أو الغزوات المتتابعة .

أما بلاد ما بين النهرين فقد اختلفت البيئة وتباينت العوامل الجغرافية فيها إذ أن فى امتداد سهول هذه المنطقة امتدادا واسعا وفى وجود عدة سلاسل من الجبال الشاهقة تمتد من الشمال إلى الجنوب حول وديان هذه البلاد ، ولأنها محاطة بشعوب مختلفة فى الشمال والجنوب قاموا بهجرات واسعة مدمرة ، ولأن البلاد تعيش على ظاهرتين طبيعيتين أولاها تتمثل فى نهرين عظيمين وثانيتهما الأمطار التى تتساقط فى معظم أرجاء المنطقة، فى أكثر من موسم واحد من مواسم السنة . كل هذه العوامل جعلت بلاد ما بين النهرين لا تعرف الاتحاد والتماسك السياسى طوال فترات متعاقبة من تاريخها الأول وجعلتها أيضا تمتاز بنظام يقوم على إنشاء دويلات صغيرة يتكون كل منها من مدينة واحدة تتركز فيها كل عناصر الحكم والدين ومظاهر الحضارة الأخرى وتحيط بهذه المدينة الأراضى المنزرعة . وكانت كل مدينة تسعى جاهدة لأن تحمى سكانها أولا

اللوحة الخامسة :



وجه حجرى يمثل سيدة ويرجع إلى عصر ما قبل الحضارة السومرية وعثر عليه فى الوركاء ولا بد أن هذا الوجه الحجرى (ارتفاعه ٢٠ر٣٠ سم) كان مثبتا فى تمثال خشبى بالحجم الطبيعى . وكان الحاجبان والعينان مطعمة بأحجار (الحاجبان باللازورد والعينان بالصدف وحجر الأوبسيديان) . أما الشعر فلا بد أنه كان ممثلا بتجاعيده فوق صفائح من الذهب مثبتة فوق الرأس وذلك نظرا للتجويف الفاصل وسط الرأس وللحدود البارزة فوق الجبين . ويعتبر هذا الوجه من أجمل القطع الفنية التى وصلت إلينا من حضارة العراق المبكرة ، يدل على ذلك التناسق بين ملامح الوجه ودقة إبرازها فى انسجام عجيب .

وأن نقيم بينهم وبين جيرانهم من سكان المدن الأخرى حدا منيعا هدفه الابقاء على عوامل الاستقرار بين جنبات الأسوار التى تحيط بالمدينة ، ونتج عن ذلك أن جهود ساكنيها كانت تتجمع وتتركز حول المعبد وقصر الحاكم دون إيجاد إمكانيات جديده تدفع بهم إلى آفاق أخرى تصقلهم وتشحذ من هممهم وترقى بحضارتهم . ولكن كثيرا ما كان يطمع حاكم مدينة بعينها فى أراضى مدينة أخرى مجاورة وينتهز ظروف تساعده لكى يهاجم جيرانه ويقتحم أسوار مدينتهم ويضم المدينتين إلى بعضهما البعض بما فى ذلك الحقول والماشية ، وهنا فقط كان يحدث الاختلاط ويتم الامتزاج بين الناس فيتعرفون على حضارات بعضهم البعض ويأخذوا منها ويعطوا . . . .

وإن التاريخ ليذكر عصورا ثلاثة يطلق عليها بالنسبة إلى الشعب العراقى القديم الأسماء الآتية :

١ — عصر السوميريين .
٢ — عصر البابليين .
٣ — عصر الأشوريين .

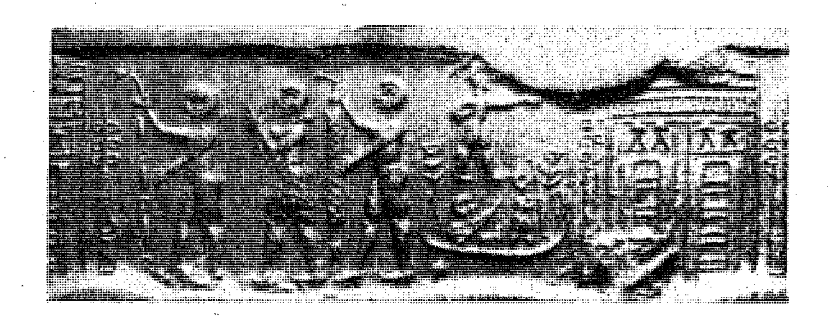
وسوف أعالج فى الفصول الآتية تاريخ وحضارة كل عصر على حدة :

السوميريون

لقد سبق لنا أن أوضحنا تطور الحضارة العراقية القديمة فى عصور فجر التاريخ وقلنا إن دلتا نهرى الدجلة والفرات تكونت فى عصور لاحقة وأن الإنسان الأول عاش فى بعض مناطقها التى كانت قد تم انحسار المياه عنها وأصبحت تكون بيئة صالحة لحياة الإنسان ، وفى أوائل القرن الثلاثين قبل الميلاد ازدهرت حضارة هذا الجزء الجنوبى بعد أن ظهر السوميريون فيها وكونوا عددا من دويلات المدن تمكنت من أن تخلد لنفسها أثرا واضحا فى التاريخ ، وإلى هؤلاء القوم ننسب الكثير من المظاهر الحضرية المتقدمة التى أخذت تظهر وتزدهر منذ ذلك الحين .

ولقد أخذ المؤرخون يحاولون التعرف على جنس السوميريين ويتساءلون : هل هم من أهل البلاد الأصليين أم وفدوا عليها من الخارج ؟ أراد البعض منهم أن ينسبهم إلى الجنس السامى الذى كان ينتشر فى أكثر بقاع بلاد ما بين النهرين وسوريا آتين من موطنهم الأصلى فى شبه جزيرة العرب . إلا أن الأبحاث التى أجراها علماء الإنسان دلتهم على أن هناك فروقا واضحة بين جماجم الساميين وتلك الخاصة بأهل سومير ، وعلى ذلك

اللوحة السادسة :



رسم بارز من الرسوم التى تنتج عن استعمال « الأختام الأسطوانية » ذات الرسوم الغائرة . وهذا الرسم يمثل حفلا دينيا أمام واجهة المعبد . وهو يرجع إلى عصر ماقبل الحضارة السومرية .



رسم بارز يمثل حيوانات خرافية لها جسم الأسد وعنق الثعبان . ويحرص الفنان على أن يجعل عنق حيوانين يتقابلان بشكل زخرفى كما أن ذيليهما يتقابلان بحيث يكونان نصف دائرة يتوسطهما شكل نسر طائر ، وامتازت الحضارة العراقية بهذا الأسلوب الفنى الزخرفى طوال العصور ، كما أن هـذا الأسلوب ظهر فى الحضارة المصرية فى عصر ما قبل الأسرات وفى الأسرة الأولى واختفى من مصر بعد ذلك .

أخذ علماء الآثار يتجهون اتجاها آخر يقوم على المقارنة بين المخلفات التى تركها لنا هؤلاء القوم وبين ما ظهر عند الشعوب الأخرى المجاورة والمعاصرة .

عثر الأثريون فى « صوصة » عاصمة إقليم « عيلام » الواقع إلى الشرق من بلاد العراق القديم على أنواع من الفخار حوت زخارف ملونة (قارن لوحة ١) تشبه إلى حد كبير تلك التى وجدوها مرسومة على أوانى حضارة السومريين . غير هذا فقد قام « مارشال » بعدة تنقيبات فى مناطق شمال غرب بلاد الهند وعثر فى منطقتين إحداها « هاربا » والأخرى هى « مهندجو — دارو » على نفس الأنواع من الفخار والطريقة المستعملة فى زخرفته . ثم وجد « مارشال » أن أهل هاتين الحضارتين استعملوا أيضا طريقة للكتابة التصويرية تشبه من نواح عدة تلك التى استعملها السومريون . ومن أهم الأشياء التى لفتت نظر العلماء هى العثور على قطع كثيرة من العقيق بين أطلال المنازل فى منطقتى « هاربا » و « مهندجو — دارو » كما عثر المنقبون على بعض القطع من الحجر الثمين نفسه فى حفائرهم فى بلاد « سومر » ومنطقتهم لم تكن تحوى سوى أرض منبسطة ومستنقعات ممتدة ، أى أن العقيق كان مستوردا من الخارج . ومن هنا يود العلماء أن يستنتجوا حدوث علاقات وثيقة بين المنطقتين عن طريق بلاد « عيلام » السالفة الذكر وأن السومريين وفدوا إلى المنطقة الجنوبية من بلاد العراق آتين من بلاد الهند خاصة ولأن جماجمهم تشبه إلى حد كبير تلك التى كان أصحابها يسكنون بلاد أفغانستان وبلوخستان فى العصور الأولى من التاريخ مع وجود فروق واضحة بين أهل سومير وبين أهل عيلام .

ومن الغريب حقا أن السومريين قد سجلوا فى كتاباتهم التى خلفوها لنا بعضا من القصص وذكروا من بين ما ذكروا أنهم ينتمون إلى قوم هاجروا من بلادهم ووصلوا إلى وطنهم الجديد عن طريق البحر ، حدث هذا فى رأيهم فى وقت مبكر كان الناس فيه يسيرون على أيديهم وأقدامهم مثلهم فى ذلك مثل الحيوانات .

من هذا يتضح لنا أن السومريين قوم هاجروا إلى دلتا الدجلة والفرات من موطن لايزال العلماء يحاولون التعرف عليه وإن كان معظمهم يرجعونهم إلى اقليم شمالى غرب الهند . وإذا كثرت النظريات حول أصل السومريين فإن الجميع يقرون أن هؤلاء الناس أسسوا حضارة زاهرة متقدمة فى هذا الركن من العالم المتحضر القديم وأن أسس هذه الحضارة بقيت على مر السنين بمثابة النبع الذى استقت منه كل حضارات بلاد العراق فى الأجيال اللاحقة .

ونحن فى حديثنا عن السوميريين لانستطيع مطلقا أن نتحدث عن شعب متماسك الأطراف يكون أمة متحدة استطاعت أن تبرز فى التاريخ بحضارة متسقة نقدمها فى اطار معين كما كان الحال فى مصر القديمة ، ولكن كما سبق أن قلنا سنتحدث عن مراكز حضارية تتمثل فيما سميناه « دويلات المدن » وكان لكل مدينة منها أسرة ملكية تحكمها كما كانت الحروب تقوم بينها ، كل منها تسعى لتسود جاراتها وتتولى حكمها وتقضى على الأسرة الحاكمة فيها ، وهكذا دواليك حتى تمكن فى آخر الأمر بعض المغيرين من الجنس السامى أن يقضوا على هذه الوحدات المتفرقة والممثلة فى دويلات المدن ويكونوا دولة واحدة مترامية الأطراف كما سيأتى ذكره فيما بعد .

كانت فى مقدمة تلك المدن السوميرية « لكش » و « أوروك » و « أور » و « كيش » و « لارسا » و « إريدو » ولكل منها سلالتها الملكية التى حكمتها ولكل منها محاولاتها فى السيطرة على جاراتها كما أن لكل منها نشاطها فى المضمار الحضرى إلا أنها كلها مجتمعة تمت إلى أصل حضرى واحد وسكانها جميعا ينتمون إلى نفس الجنس ويتبعون أسلوبا واحدا فى حياتهم ومعتقداتهم وتخيلاتهم عن العالم الثانى كما أنهم جميعا اتبعوا نفس الطراز فى عمائرهم وكتبوا بنفس الخط وتكلموا نفس اللغة .

ويعتمد المؤرخون فى كتابة تاريخ السوميريين على مصدرين : أوثقهما هو العمل العلمى الذى قام به رجال الآثار من تنقيبات واسعة النطاق فى أطلال المدن القديمة مثل « أور » و « كيش » و « أوروك » وغيرها من المدن التى لعبت دورها المهم السياسى والحضرى أثناء تلك الفترة — وثانيهما (ويجب علينا الاعتماد عليه بحذر) يتكون من بعض النصوص التى كتبها البابليون من أهل العلم والمعرفة حوالى عام ٢٠٠٠ ق.م يثبتون فيه تاريخ أمتهم منذ أول الخليقة ذاكرين جداول الملوك الذين حكموا البلاد فى ذلك الوقت العتيق ، ويضاف إلى ذلك بعض الوثائق الخاصة بتسجيل الأحداث التاريخية التى حدثت كنتيجة لتنبؤات الكهان ، ثم بعض الأساطير المتوارثة وفى آخر الأمر بعض السجلات الرسمية والوثائق الملكية .

ولعل جداول الملوك هى أهم هذه الوثائق إذ أنها تقدم لنا قوائم كاملة بالأسماء مرتبة حسب الأسرات والمدن التى حكموها ولكن للأسف الكبير عملت الأساطير والروايات المتوارثة على خلط أسماء الحكام الأصليين بالآلهة وأبطال الأساطير كما عينت لحكمهم فترات بولغ فى عدد سنيها بشكل لا يتفق مطلقا مع معدل حياة الإنسان عامة . تقول هذه الوثائق : إن شعب السومير سكن هذه المناطق منذ أول الخليقة ولم يكن الناس قد عرفوا بعد إقامة الحكومات وذلك لأن بدائيتهم حتمت هذا ولا غرابة فهم كانوا

كالحيوانات لا يسيرون إلا على أقدامهم وأيديهم . ولقد نزل نظام الحكم من السماء وقام ثمانية آلهة بالحكم فى ثمانى مدن مختلفة وحكم كل منهم عدداً من السنين يزيد على الألف ثم انتهى حكمهم بحدوث الطوفان الذى عم العالم كله وأهلك الحرث والنسل .

وهذه هى المرة الأولى التى تحدثت وثائق قديمة شعبية عن الطوفان بجانب الكتب السماوية وكان فى هذا دافع قوى لبعض العلماء أن يحاولوا استقصاء الأمر بطريقة علمية وتفرغ لهذه الدراسة حاكم اسمه « هيليون » قام بمقارنة كل النصوص البابلية التى ذكرت الطوفان وفحصها فحصاً دقيقاً على ضوء ما ورد عن هذا الحادث فى الكتب السماوية وهو يؤكد أن هذه الوثائق كلها — مع وجود بعض الاختلافات من حيث وصف الطوفان ونتائجه ومسبباته — ترجع إلى أصل واحد تناقلته الأجيال وتحدثت به أفواه الناس إلى أن تعلموا الكتابة فسجلوه فى أكثر من وثيقة وانتهى « هيليون » إلى تحديد تاريخ حدوث الطوفان فى القرن الأربعين قبل الميلاد .

ومن الطريف حقا أن تسجل الأبحاث العلمية التى جرت فى أكثر من مكان فى بلاد العراق ظواهر تكاد تثبت حدوث فيضان كاسح حوالى منتصف القرن الأربعين قبل الميلاد وذلك أن المنقبين عثروا على طبقة طميية سمكها نصف متر اختلطت فيها كميات كبيرة من القواقع والأسماك التى تعيش فى المياه العذبة وذلك على عمق يزيد على الثمانية أمتار أسفل التل الذى حوى أطلال مدينة « كيش » الغارقة فى القدم .

كما أن « وولى » عثر أسفل أطلال مدينة « أور » القديمة على طبقة طميية سمكها متران ونصف ثم عثر أسفلها على طبقة أخرى تحوى مخلفات بشرية يمكن إرجاعها تاريخيا إلى عصر حضارة « العبيد » . غير هذا سجل العلماء أيضا فى مكان آخر يبعد عن مدينة « أور » بحوالى نصف كيلومتر وجود طبقة من نفس الطمى يبلغ سمكها ٣٫٧٠ متر . وهكذا تتعاون الأبحاث الأثرية فى إثبات ما ورد على أفواه الناس وسجلته بعض الوثائق القديمة .

وإذا كانت الوثائق البابلية السالفة الذكر قد تحدثت عن العصور السابقة على الطوفان بتلك المبالغة فإنها أخذت تسرد علينا أخبار الأسرات الحاكمة بعد الطوفان بشكل أكثر اعتدالا فذكرت أسماء ٢٣ ملكا للأسرة الأولى لمدينة « كيش » ثم أتبعتها بأسماء ١٢ ملكا للأسرة الأولى لمدينة « أوروك » ويود العلماء أن يعينوا عام ٣٠٠٠ ق . م لهذه الأسرة الأخيرة ونحن جميعا نترقب نتائج أعمال الحفر والتنقيب فى أطلال هاتين المدينتين لعلها تكشف لنا النقاب عن الأحداث التى كانت تجرى إبان هذه الفترة .

تأتى بعد ذلك الأسرة الأولى لمدينة « أور » وقد كشفت أعمال الحفر والتنقيب التى قامت بها بعثة المتحف البريطانى فى أطلال هذه المدينة القناع عن حضارتها ومدى تقدمها وأن هذه المدينة استطاعت تحت حكم أول ملوكها « مس — أنى — بدا » أن تفوز بسيطرة كاملة على جيرانها ، وأن أربعة من أولاده وأحفاده كونوا معه هذه الأسرة التى حكمت حوالى أوائل القرن الثلاثين قبل الميلاد .

ولعل « لجش » كانت من أكبر منافسى « أور » . ولقد دلت نتائج الحفر فيها على أنها بلغت حداً من التقدم يجعلها تقف على قدم المساواة مع زميلتها « أور » . وتاريخ دويلة « لجش » يبدأ بملكها القوى « أور — نينا » الذى شهر بأعماله السلمية فتذكره الوثائق على أساس أنه اهتم بترميم الأسوار وإعادة بناء المعابد والعمائر العامة الأخرى ويقيم التماثيل للآلهة وأخذ يشق القنوات لتنظيم عمليات الرى ومن الطريف حقا أن نراه باستمرار ممثلا فوق آثاره حاملا سلة بها أدوات مختلفة مما يستعمله أهل هــذا العصر فى التعمير والإنشاء ، ونراه وقد أحاط به أفراد أسرته وحاشيته ، وكان حكمه يمثل أزهى عصور مدينة « لجش » .

وأتى بعده ابنه « إيانتوم » وكان رجل حرب وذاعت شهرته العسكرية وقامت الحروب بينه وبين مدينة « أوما » المجاورة وكان النصر له ، ويبدو أن المعركة كانت عنيفة إذ ذكرت الوثائق الرسمية أن عدد القتلى الذين تركوا فوق ميدان المعركة بلغ ٣٦٠٠ . ولقد تراجع جنود « أوما » وطاردهم « إيانتوم » بجيشه ووصل إلى أسوار المدينة واقتحمها وبدأت المذبحة من جديد وساد الدمار المدينة واضطرت « أوما » أن تستسلم استسلاما تاما ، ويقول النص الرسمى إن جثث جند «أوما» تركت طعاما للطيور الـكاسرة على حين جمعت جثث جند « لجش » واحتفل بدفنها فى عشرين موضعا فى السهل احتفالا جنزيا كبيرا . وفرضت الجزية على « أوما » وعدلت الحــدود لصالح « لجش » . ولعل هذه الحملة هى الأولى التى سجلت رسميا فى تاريخ البشر . ولقد عثر المنقبون على جزء من لوحة من عصر هذا الملك رسم عليها فريق من جيش « لجش » حمل الجند فيها دروعا مربعة الشكل واصطفوا متجاورين بحيث تـكون هذه الدروع حائطا متينا يحتمى وراءه الجند . ولقد دفع هــذا الانتصار الباهر « إيانتوم » إلى استئناف القتال مع عدد من الدويلات السومرية فانتصر على « أور » و « أوروك » و « كيش » و « أوبيس » وهكذا توج ملكا على « سومير » ولـكن هذا الانتصار لم يدم طويلا إذ سرعان ما قامت « أوما » بثورة وخرجت تطلب الثأر وانتهى الأمر

بالقضاء على « إياننوم » الذى لم يخلف ولداً وتولى الحكم بعده أخوه ثم آخرين إلى أن استطاع رجل مصلح اسمه « أور — كاجينا » من أن يسيطر على « لجش » ثم على المدن « السومرية » كلها ، وشرع بعد ذلك فى تنظيم أحوال البلاد ووجه همه إلى الحد من ازدياد سلطة الكهنة الذين كانوا قد سيطروا على كل شىء فى المدن واستباحوا أموال الشعب فخفض من قيمة الأتاوة التى كانوا يتقاضونها فى سبيل أداء طقوسهم الدينية فى المعابد ، كما منعهم من اقتسام دخل المعابد مع كبار الموظفين واستغلال أوقافها ثم سن اللوائح لحماية أفراد الشعب الذين كانت أحوالهم قد ساءت كثيرا كما أعاد بناء معابد « لجش » الهامة .

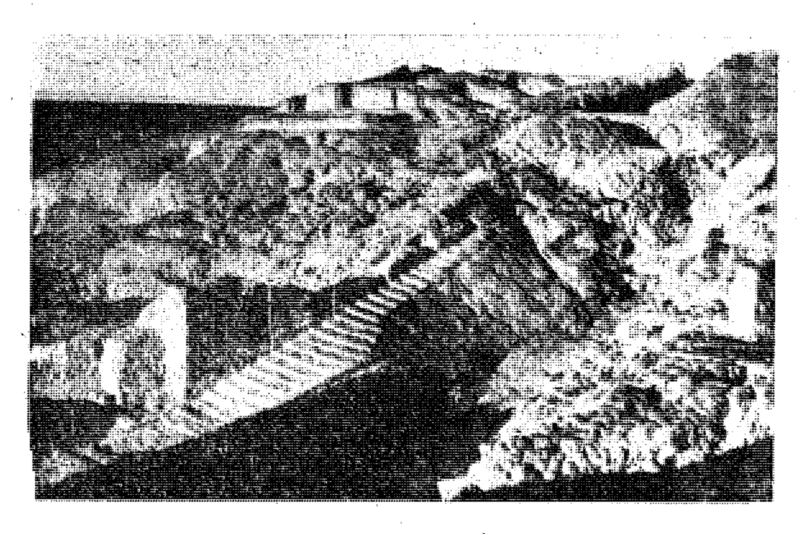
وظن « أور — كاجينا » أن الأمر قد استتب له وأن السلم قد ساد البلاد ولكن مدينة « أوما » كانت له بالمرصاد واستأنفت القتال تحت قيادة رجل اسمه « لوجال — زاجيزى » فاجتاحوا « لجش » سافكين الدماء محطمين كل ما وقع تحت أيديهم فتحطمت « لجش » . ومن الطريف حقا أن يعثر المنقبون فى أطلال هذه المدينة على لوحة كتبها أحد كهنة معبد المدينة صب اللعنة فيها على رجال « أوما » الذين فتكوا بالناس وهاجموا « لجش » وخربوها وعبثوا بمقدساتها كما يصب اللعنات على «لوجال — زاجيزى » ملك « أوما » .

ولم يكن هذا الرجل قنوعا ولم يكتف بإذلال « لجش » بل حارب حتى وصل إلى الخليج الفارسى فى الجنوب واستمر فى إغاراته نحو الشمال حتى وصل إلى سوريا وكان محاربا شديد المراس وآثاره تدل على أنه كان يلتمس من الآلهة « أن تمنحه فى كرم جندا مثل عشب الحقل فى كثرته » وألا تغير حظه السعيد .

حدثت فى هذه الآونة أن تجمعت كثير من القبائل السامية (التى كانت تهاجر من بلاد العرب ساعية وراء الاستقرار فى مناطق أكثر خصوبة) وهاجمت مدينة سومريه فى الشمال اسمها « أوبيس » واستقروا فيها وأخذوا يعدون العدة لمد سلطانهم نحو الجنوب واستولوا فعلا على مدينة « كيش » الواقعة إلى الجنوب من « أوبيس » وعلى مقربة منها ، ثم استمر زحفهم نحو الجنوب ظاهرين فى التاريخ تحت اسم « الأكديين » وذلك نسبة إلى مدينة « اكد » التى أنشأها ملكهم المشهور « سرجون » حوالى القرن الثامن والعشرين قبل الميلاد .

مما سبق نستطيع أن نكون فكرة عما كان يجرى فى بلاد « سومير » من نضال مرير بين دويلاتها ومن حروب مستمرة تهدف إلى توسيع رقعة الدويلة ولكن إذا

اللوحة السابعة :



عثر فى الوركاء على معبد يرجع إلى أواخر العصر الحجرى الحديث هناك يعرف «بالمعبد الأبيض» وقد بنى فوق مرتفع من الأرض أقيم خصيصاً على هيئة تل وذلك ليطل على المساحات الواسعة المحيطة به ويبدو فى الصورة الدرج الذى يرتفع من سطح الأرض إلى أعلى التل .

كنا غير قادرين أن نكتب تاريخا مفصلا متسلسلا لها فنحن على استطاعة من أن نقف على دقائق حضارة أهل « سومير » ونتتبع تقدمهم ونصف مظاهر مدنيتهم .

المدينة :

كانت المدينة تكون فى المجتمع السوميرى — بالإضافة إلى الأراضى المزروعة التى تمتد حولها — خلية كاملة تحوى كل ما تحويه الدولة بالمعنى الذى نتعارف عليه . يتوسط هذه المدينة معبدها الذى تتركز فيه الحياة الدينية الخاصة بعبادة إله المدينة المسيطر على كل ما فيها ولذلك يعتبر المعبد المركز الحيوى لكل مظاهر الحضارة فى المدينة تتجمع فيه ومن حوله كل أوجه النشاط . فغير العبادة بداخله نجد خارج أسواره حوانيت البيع والشراء ودور الكتابة .

كان الإله يعتبر سيد المدينة الحقيقى وعليه أن يختار وكيلا (ايشاكو) أى حاكما تعهد إليه رعاية شئون سكان المدينة وعلى هذا كان الحاكم يقوم بتصريف الأمور المدنية كما كان يؤدى فى نفس الوقت الأعمال الكهنوتية فهو أيضاً الكاهن الأكبر لإله المدينة .

كان المعبد وما يتبعه من إدارات مختلفة يحاط بسور يحجز منازل السكان عنه . وكانت هذه المنازل تبنى من اللبن ويتكون كل منها من فناء خارجى يقع باستمرار إلى الناحية الشمالية ثم هناك المدخل الذى يقع إلى الجنوب من الفناء ويؤدى إلى حجرة كبيرة تتفرع منها بقية حجرات المنزل . وهكذا كانت تتجمع مئات من هذه المنازل حول سور المعبد كما كان للمدينة نفسها سور ضخم يحيط بها مزود ببضع بوابات ضخمة متينة تؤدى إلى الخارج حيث المزارع الممتدة وحيث الماشية ترعى كلأها طوال النهار .

لم تتغير مواقع هذه المدن طوال التاريخ القديم وإذا حدث أن هوجمت إحدى هذه المدن وخربها العدو أو تقادم العهد على منازلها المشيدة من اللبن وتهدمت كان أصحابها يعيدون بنائها فى نفس مكانها بعد أن يفرشوا أنقاضها ليجعلوا منها أساسا لها وهكذا نجد أن مثل هذه المدن ترتفع من جيل إلى آخر حتى تصبح فى آخر المطاف مبنية على تل عال يتكون من طبقات كل منها يمثل حقبة من تاريخ هذه المدينة . وهنا يجد الأثرى كنزا لا يفنى من المخلفات البشرية المختلفة التى يستقرىء منها ليس فقط تاريخ المدينة بل يطلع على مدى ما وصلت إليه حضارة سكانها فى مختلف العصور . وكان كل منزل يحوى عدداً كبيراً من اللوحات الطينية المجففة التى استعملوها للكتابة عليها ولتسجيل محتويات المخزن التابع للمنزل من مهمات مختلفة ومواد عديدة والبعض منها

اللوحة الثامنة :



مجموعة من التماثيل الحجرية ترجع إلى العصر المبكر من تاريخ العراق القديم ، عثر عليها فى هيكل بتل « أسمر » وتمثل الاله « أبو » رب الزراعة (وهو أكبر التماثيل ويتميز بذقن طويلة متدلية) ويحيط به عدد من الـكهان .

استعمل لتسجيل خطاباتهم والوصفات الطبية والنصوص الدينية وغير ذلك . وبقيت هذه اللوحات الطينية مطمورة بين أطلال كل منزل فى كل عصر من عصور المدينة ويعثر عليها المنقبون مع ما يعثرون عليه من أدوات استعملها الإنسان فى حياته اليومية وتصبح المعين الأول للعلماء فى أبحاثهم عن حياة القوم وحضارتهم . أما أطلال المعابد والقصور الملكية فكانت هى الأخرى تحوى وثائق أكثر أهمية تتعلق بالطقوس الدينية وبأخبار الغزوات والأعمال الإنشائية المختلفة التى كان أمراء المدينة على مر السنين يقومون بها .

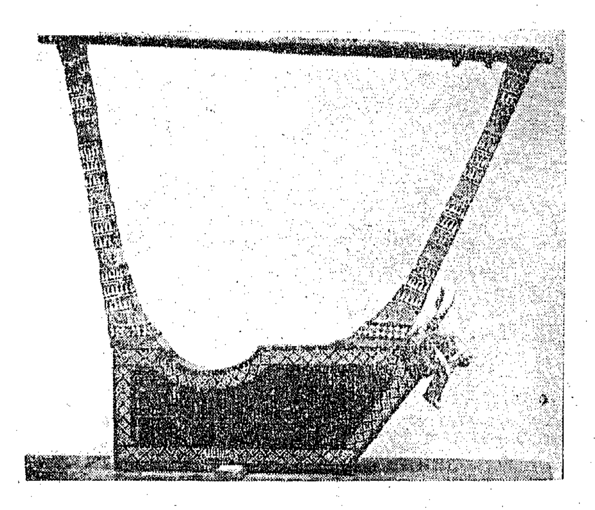
العقائد :

كان الإله هو المسيطر الحقيقى على المدينة كما سبق أن قلنا . ولقد كشفت النصوص التى عثر عليها بين أطلال معبد «العبيد» عن كهنة إلهة المدينة وهى الإلهة «نين — هرساج» وألقابها « أم الآلهة والبشر والتى ترعى أمراء المستقبل » وكانت تمثل على هيئة بقرة لم تلبث أن اختارت لها زوجا هو « نانار » إله « أور » الذى مثل على هيئة الثور القوى والذى يرمز به إلى القمر .

أما إله « لجش » فكان يدعى « نين — جيرسو » ويصور على هيئة نسر كبير له رأس أسد ويقبض على حيوانين . ولقد استمر هذا الأسلوب فى تصوير الآلهة على هيئة حيوان يتكون من أكثر من عنصر منتشرا فى الفن السوميرى وانتقل منه إلى الفن البابلى .

ولقد اعتقد السوميريون فى حياة ما بعد الموت وكان الحاكم يدفن فى تابوت يوضع فى قبو بنى من الحجر أو الآجر ويحاط بعدد كبير من رجالاته وخدمه . أما الأفراد فكانوا يلفون فى حصير ويدفنون فى حفرات مستطيلة تحفر فى الأرض وكانت الجثة إما توضع فوق قاعدة خشبية أو فى تابوت خشبى وظهرت فى « أور » توابيت فخارية ذات شكل بيضاوى وكانت الجثة توضع على جانبها وليس على ظهرها كما كانت ساقاها تنثنى إلى أعلى نحو الرأس أما اليدان فكانتا ترتفعان نحو الفم وبينهما آنية صغيرة . وحرص أهل « سومير » على تزويد الميت بحاجياته الشخصية وهذه إما تلف مع الجثة فى الحصير أو توضع بجانبه داخل التابوت . كما كانوا يضعون خارج التابوت قاربا صغيرا مملوءا بأوانى فخارية مختلفة الأحجام وتحوى أنواعا شتى من القرابين وذلك لأن أهل « سومير » أعتقدوا أن الميت سوف يضطر فى رحلته إلى العالم السفلى إلى استخدام قارب مزود بأنواع المآكل والمشارب .

اللوحة التاسعة :



نموذج طبق الاصل لقيثارة صنع بدقة من البقايا التى عثر عليها فى إحدى مقابر أسرة « اور » الاولى . وهو يدل على مدى تقدم الفنان السوميرى فى الصناعات الدقيقة .



رأس بقرة مثبت فى قاعدة قيثارة عثر عليها أيضا فى إحدى المقابر الملكية من أسرة « أور » الأولى . ولقد استعمل الفنان اللازورد للذقن المتدلية وللشعر الذى يتوسط القرنين ولأطراف القرنين . ويبدو بوضوح مبلغ الدقة والمهارة التى مثل بها الفنان أجزاء الرسم مع الانسجام فى نسب هذه الأجزاء .

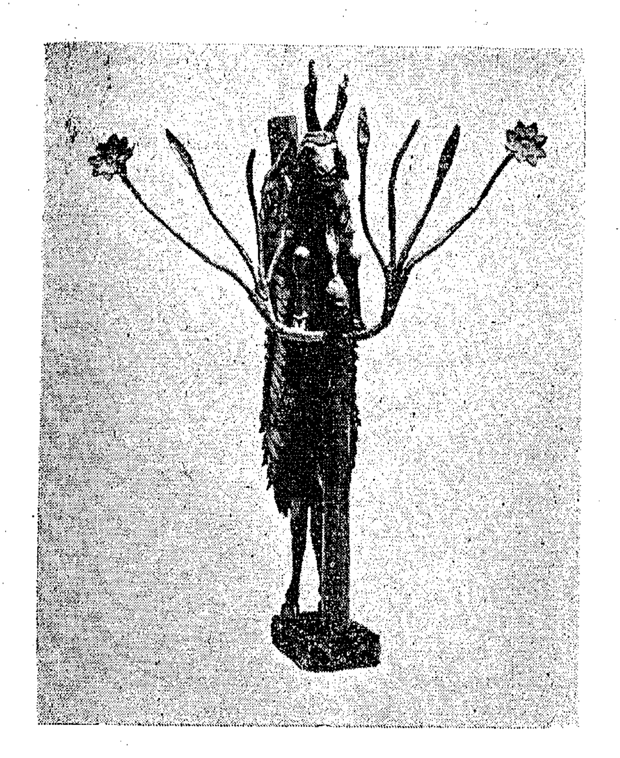
ومن أهم الكشوف التى قام بها المنقبون فى أطلال « أور » كان العثور على مقابر ملوك هذه المدينة وظهر جليا أن الناس فى ذلك الوقت كانوا يدفنون مع ملوكهم عدداً كبيراً من حاشيتهم يقتلون فى نفس اليوم وتوضع جثثهم فى المقبرة للقيام على خدمة حاكمهم ، وتدل محتويات هذه المقابر على مدى تقدم حضارة السومريين حوالى عام ٣٠٠٠ ق . م .

ولعل أهم هذه المقابر مقبرتان فى حالة حفظ جيدة : الأولى للملك ، والثانية لزوجته ، واسم الملك « مش — كلام — دك » والزوجة « شوب — آد » . ولقد امتلأت كل مقبرة بأفخر الحلى وأدق الأدوات المصنوعة من الذهب الخالص مما يدل على رقى هذه الصناعة مع العلم أن بلاد السومير لم تحو ذهبا بل كانت تستورده من الخارج . هذا ولقد تكدست فى كل من المقبرتين جثث أفراد الحاشية الذين لابد وأنهم قتلوا عمداً لينالوا فخر الانضمام إلى عاهلهم وزوجته فى الدنيا الثانية . ومن الغريب أنه اتبع نظام دقيق فى ترتيب وضع كل جثة بحيث يقرب صاحبها أو يبعد عن جثة الملك طبقا للوظيفة التى كان يشغلها فى حياته الأولى . ونجد أنواعا شتى من أصحاب الوظائف المختلفة : فمن حرس ملكى تزين كل منهم بخوذته النحاسية وتسلح بحربته الطويلة ، إلى سيدات البلاط وقد اصطحبت كل منهن حليها الفخمة ، إلى مغنيات احتفظت كل منهن بآلتها الموسيقية بجانبها ، إلى عدد من سائقى العربات استلقوا بجانب عرباتهم التى تجرها الثيران والحمير .

ولكن يبدو أن هذه العادة التى تحتم تزويد المقبرة بأعداد من شخصيات الدولة لمساعدة الحاكم فى نفس الوظائف التى كانوا يقومون بها فى الدنيا الأولى ، هذه العادة قد اختفت بسرعة وذلك لأن العلماء عثروا على مقابر ترجع إلى عهد أحدث من المقبرتين السالفتى الذكر ولكنها لم تحو ضحايا بشرية فكانت المقبرة عبارة عن بئر غير عميق ينتهى بحجرة دفن واسعة تحوى التابوت الخشبى حيث توضع الجثة الملكية ومعها قلنسوة من الذهب ومصباح ذهبى وآنيتان نقش عليهما اسم صاحب المقبرة وخنجر صنع مقبضه من الذهب وحزام من الفضة وغير ذلك من حلى صنع بعضها من الفضة والآخر من الذهب الخالص ثم عثر المنقبون خارج التابوت على آلات حربية مختلفة مثل الحراب والخناجر هذا عدا بضع أوان وأدوات منزلية .

إن اختفاء عادة قتل أفراد الحاشية والخدم ودفنهم مع سيدهم فى المقابر التى ترجع إلى عهد أحدث من تلك التى سبق الحديث عنها يدل على أن المقابر القديمة كانت لقوم اتبعوا بعض النظم والعادات الغريبة عن أهل العراق القديم سواء من السومير أو من

اللوحة العاشرة :



تمثال رائع يمثل كبشا يعتمد بقدميه الأماميتين على فرعى شجرة ويقف على قاعدة من الخشب مربعة ومطعمة باللازورد . ويبدو أن هذا التمثال كان يكون قاعدة لمائدة قرابين كانت ترتكز فوق القائم الخشبى الذى يظهر خلف رأس الكبش . عثر على هذه القطعة الجميلة فى إحدى مقابر أسرة « أور » الأولى .

الساميين ومن أجل ذلك يفترض العلماء أن هذه العادة انتشرت على أيدى بعض الغزاة الذين وفدوا إلى بلاد سومير واستقروا فيها لفترة قصيرة ثم أجلوا عنها ولعل الشعب الوحيد الذى كان يتبع عادة دفن أفراد من الحاشية والخدم مع جثة الملك كان شعب السكيتين فى غرب بلاد الأناضول خاصة ولأن هيرودوت نفسه ذكر هذا عنهم فى منتصف القرن الخامس قبل الميلاد . وعلى هذا نود أن نعتقد بأن غزوة من هناك وصلت إلى بلاد السومير حوالى عام ٤٠٠٠ ق . م واستقر أصحابها وأدخلو عاداتهم فى البلاد ثم لم يلبثوا أن هزموا وطردوا واختفت هذه العادة ولم تظهر فى المقابر التى ترجع إلى أوائل القرن الثلاثين قبل الميلاد .

علاقة « سومير » بالبلاد المتاخمة :

لقد عثر المنقبون فى بلاد « سومير » على أنواع شتى من الأحجار والمعادن لم تكن البلاد نفسها تحويها . فمن المعروف أن أهل هذه الحضارة سكنوا دلتا الدجلة والفرات التى تكونت من ترسيبات الغرين على مر السنين ولم توفر كبيئة لسكانها غير البوص وأشجار النخيل والطمى . فإذا استعمل السومير يون أنواعا شتى من الأحجار مثل الحجر الجيرى والألابستر والمرمر والديوريت والعقيق ، ثم إذا حذقوا صناعة صهر الذهب والفضة والنحاس فمعنى هذا أن كل هذه الأحجار والمعادن كانوا يستوردونها من خارج البلاد ، وطبعا دل هذا أيضا على وجود علاقات تجارية واسعة النطاق امتدت حتى وصلت إلى بلاد الهند شرقا وآسيا الصغرى شمالا وسوريا غربا ثم مصر جنوبا ، ولعل من المهم لنا أن نوضح فى إجمال الأدلة التى تثبت وجود علاقات متينة بين مصر وبلاد « سومير » فى مثل هذه العصور القديمة :

لقد ظهرت فى مصر ابتداء من أواخر العصر الحجرى الحديث حتى نهاية الأسرة الثانية بعض المظاهر الحضرية التى تثبت وجود علاقات واسعة بينها وبين شعب السومير بل هناك من الباحثين من يقرر أن مصر كانت متأثرة إلى درجة كبيرة بعناصر من الفن السومير كما يبدو ذلك من الأمثلة الآتية :

(أولا) امتازت حضارة نقادة الثانية فى مصر (وهى إحدى حضارات العصر الحجرى الحديث المتأخر) بظهور أوان فخارية من نوع جديد ؛ إذ زخرفت سطوحه الخارجية برسوم حمراء من بينها المثلث المتكرر والممتد حول عنق الآنية وكذلك الخطوط المتعرجة والطيور المائية ذات السيقان الطويلة فى وحدات متكررة . هذه العناصر

الزخرفية ظهرت بشكل مماثل فوق الأوانى الفخارية من نفس العصر فى صوصة (عيلام) وفى حضارة السومير .

(ثانيا) استعمل المصريون فى أواخر العصر الحجرى الحديث وكذلك فى عصر ما قبل الأسرات سدادات من الطمى مخروطية الشكل وذلك لتغطية فوهات الأوانى الكبيرة التى اعتادوا تخزين الحبوب والزيوت فيها واعتاد المصريون أن يمهروا هذه السدادات بغلافات بارزة تدل تارة على نوع المخزون فى الآنية وتارة (فى عصر ما قبل الأسرات والأسرتين الأولى والثانية) تدل على اسم صاحب الآنية أو عصر الملك الحاكم . وكانت هذه العلامات يتم ابرازها فوق سطح المخروط الطمي بواسطة خاتم أسطوانى الشكل حفرت عليه هذه العلاملات بشكل غائر . هذه الأختام الاسطوانية عرفها السوميريون قبل المصريين واستعملوها بكثرة حتى أصبحت من أهم مميزات حضارتهم بينما ظهرت فى مصر إبان هذه الفترة ثم اختفت .

(ثالثا) عثر فى مصر على سكين كبير (سكين جبل العركى) حفر على مقبضه العاجى رسوم تستلفت النظر . فيشاهد على أحد وجهى المقبض صورة معركة بين المصريين وشعب آخر أجنبي يمتاز أفراده بأنهم ملتحين ويلبسون ملابس على النمط السوميرى أما الصورة المرسومة على الوجه الآخر فهى تمثل رجلا واقفا بين أسدين يستند كل منهما بقدميه عليه . وهنا نجد أن ملامح الرجل وطريقة تصفيف شعره وزيه كلها أشياء يمتاز بها الفن السوميرى .

(رابعا) عثر فى مصر على تمثال صغير من الجرانيت الأسود لأسد قابع فاغر فاه وهو يرجع إلى عصر ما قبل الأسرات . وظاهرا تماما أن صناعة هذا التمثال والأسلوب المتبع فيه غير مصرية بل وإنه متأثر إلى حد كبير بالفن السوميرى الذى حرص على تمثيل الأسود فاغرة فاها ، عيونها جاحظة وشعر المعرفة مرتفع يحيط بالرأس والرقبة مع تمثيله بدقة تميل إلى المبالغة بينما الأسلوب الفنى المتبع فى مصر يحتم تمثيل الأسد مقفل الفم مع استعمال خطوط لينة لتمثل خصائص الوجه والرأس والجسم دون أى مبالغة .

(خامسا) وأخيرا نستطيع أن نشير إلى ألواح الكحل المصنوعة من حجر الاردواز والتى شاع استعمالها منذ العصر الحجرى الحديث وامتازت نماذجها التى ظهرت فى عصر ما قبل الأسرات والأسرة الأولى برسوم بارزة تمثل حيوانات مختلفة من بينها حيوانات تتكون من عناصر متعددة فنجد بعضها يتكون من رأس ثور وعنق ثعبان وجسم أسد . هذه الظاهرة الفنية التى تهدف إلى تمثيل حيوانات خرافية تعتبر من أهم مميزات الفن السوميرى بينما لم تظهر فى الفن المصرى فى أى عصر آخر غير العصر الذى نحن بصدده .

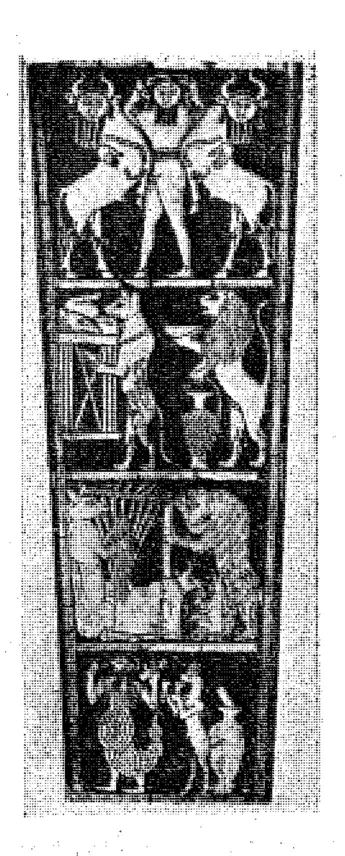
هذه المظاهر التى شرحناها فيما سبق تقطع بوجود علاقات واسعة بين مصر وبلاد سومير فى تلك العصور السحيقة وليس من الممكن أن نعتقد بأن المصادفة وحدها هى التى أملت هذه الألوان المختلفة من المشابهة ولعل هذا ما جعل بعض العلماء يفترضون قيام اتصالات وثيقة بين البلدين عن طريق بلاد العرب أو عن طريق موانى البحر المتوسط وحجتهم فى ذلك أن البلاد الواقعة فى أواسط آسيا الصغرى وفى سوريا اشتركت مع مصر وبلاد « سومير » فى عصور فجر التاريخ فى تقدم حضاراتها إلى درجة أن التعاون والتبادل قد حدث بينها جميعا ولا بد أن « سومير » كانت بمثابة محطة تتلاقى فيها القوافل التى تسير بين بلاد شواطىء البحر المتوسط والبلاد الواقعة شرقى «سومير» .

ومما يقوى هذه النظرية ظاهرة تستلفت النظر وهى أن «سومير» لم تعرف النحاس كمعدن يستخرج من أراضيها ولكن رغم ذلك عثر فيها على قطع كثيرة صنعت من هذا المعدن تدل صناعتها على تفوق كبير وهى تشبه فى نفس الوقت فى طريقة صنعها وفى أسلوبها العام الأدوات النحاسية التى عثر عليها فى مصر وسوريا من نفس العصر . ويفسر العلماء هذه الظاهرة بأنه لا بد وأن كانت هناك منطقة غنية بالنحاس وأتقنت صناعته ثم تبادلت هذه السلعة مع بلاد الشرق القديم . ومن المعروف أن غرب آسيا الصغرى (المنطقة المعروفة باسم كبادوشيا) عرفت صناعة النحاس وبرعت فيه منذ أقدم العصور وقامت بتصدير أدواته إلى جميع بلاد الشرق مثل سوريا ومصر وسومير . إذن كان الاتصال موجوداً والعلاقات كانت قائمة واتصل الناس فى مصر بأولئك الذين عاشوا فى «سومير» وتبادلوا السلع وتأثر كل منهم بالآخر ... !

الكتابة :

ليس من شك فى أن الكتابة هى أهم ما قام العقل « السومیری » باختراعه ولقد اصطلحنا على تسميتها بالكتابة « الأسفينية » وذلك لأن الكاتب كان يرسم علاماته فوق سطح لوحات طينية لا تزال طرية مستعملا فى ذلك قلما يشبه «الأسفين» مثلثاً ومنشورى الشكل يمسك به مائلا وهو يضغط على سطح اللوحة بخفة . وكان الركن يترك خطاً رفيعاً بينما تترك القاعدة علامة أكثر عمقاً واتساعا . وتقرأ الكتابة السومیرية من اليمين إلى اليسار وكانت تتكون فى أول الأمر من صور تعبر كل منها عما ترمز إليه ثم بعد ذلك تطورت نحو السهولة فى الاستعمال باختصار الخطوط التى تتكون منها الصورة . والخطوة التالية لذلك كانت استعمال العلامة ليس للتدليل عما تمثله بل كحروف نطق ومثل ذلك « السهم » استعمل أولا للتدليل على أداة القتال ثم استعمل نطقها « تى » للتدليل

اللوحة الحادية عشرة :



أربعة صفوف تمثل مناظر هزلية مختلفة أبرزها الفنان بواسطة التطعيم على الخشب وهذا يرجع إلى عصر الأسرة الأولى من « أور » . ويلاحظ أن المنظر الأول يمثل رجلا يحتضن ثورين لهما وجهان بشريان . أما المنظر الثانى فعبارة عن ذئب قد حمل مائدة عليها أنواع مختلفة من اللحوم ويلاحظ الخنجر الذى ثبته إلى جسمه بواسطة حزام . ويتبع الذئب أسد يقبض بيسراه على آنية صغيرة وبيمناه آنية ضخمة لابد أنها تحوى خمراً . ثم المنظر الثالث يمثل حمارا يعزف على القيثارة وأمامه دب ضخم يرقص على النغم بينما هناك حيوان صغير يهز آلة موسيقية صغيرة بإحدى يديه ويدق على آلة أخرى موضوعة فوق ركبتيه . ثم المنظر الأخير والرابع يمثل رجلا له جسم وذنب عقرب ومن ورائه غزال يقبض على آنيتين صغيرتين .

على « الحياة » وهى كلمة تنطق فى لغتهم « تى » أيضاً . وللتفرقة بين المعنيين أردفوا علامة السهم « تى » بمخصص هو قطعة من الخشب للتدليل على أن الكاتب يقصد « السهم » المصنوع من الخشب وليس « الحياة » . وتمتاز الكتابة السومرية بأنها عرفت الحروف المتحركة وهذا مما يسهل على القارئ نطق الكلمات .

ولما كانت أداة الكتابة عندهم كما أسلفنا عبارة عن أقلام منشورية الشكل ذات طرف مثلث لذلك لم يستطيعوا رسم الخطوط المستديرة ودفعهم هذا إلى جعل كل خطوط علاماتهم مستقيمة إما رأسية أو أفقية أو منحرفة ويؤكد علماء اللغة أن الكتاب فى ذلك العصر كانوا يبدأون برسم الخطوط الأفقية المكونة للعلامة ثم يكملونها برسم الخطوط الرأسية والمنحرفة فيها وأنهم كانوا لا يبدأون علامة جديدة إلا بعد الانتهاء من العلامة التى تسبقها فى النص وهلم جرا .

وليس من شك فى أن الكتابة السومرية تطورت من قرن إلى قرن بل انها لم تكن متشابهة تماما فى كل المدن فى عصر من العصور إذ أن كل مدرسة احتفظت بنوع من التقاليد فى تصوير العلامات ونجد ذلك واضحا عند مقارنة الخطوط التى يكتبها أحد المتخرجين من مدارس « أوما » بالخطوط التى عثر عليها فى مدينة « لجش » المجاورة . فالاختلاف بينهما واضح .

الجيش :

كان الجيش السومرى يتكون من فرقتين : المشاة وفرقة العربات الحربية وهذه الأخيرة بقيت غير معروفة عند المصريين القدماء المعاصرين لهم حتى القرن السابع عشر قبل الميلاد أى حتى غزا الهكسوس البلاد ودخلوها ومعهم هذا النوع من التشكيلات الحربية.

وكانت العربة الحربية ، كما يبدو ذلك واضحا من الآثار التى عثر عليها فى مقابر ملوك مدينة « أور » ، تجرى على أربع عجلات كل منها عبارة عن اسطوانة مستديرة غير مفرغة . وكان يجرها حيوانان وتطورت هذه العربة فيما بعد فأصبحت تجرى على عجلتين فقط . وكانت كل عربة تتسع لرجلين أحدهما يتولى القيادة ويقوم الثانى بالقتال .

وجنود فرقة المشاة كانوا يحمون رءوسهم بخوذة معدنية ويلبسون نقبة تغطى أجسامهم ابتداء من الوسط ثم يستعملون فوقها رداء طويلا يشبه المعطف يبدو أنه كان من جلود الحيوان . أما آلاتهم الحربية فكانت الحربة والخنجر الطويل والسهام وعصاة الرماية (البوميرانج) . والجندية عند السومريين كانت مهنة يتعيش منها أصحابها وكان

عليهم فى وقت السلم أن يقوموا على حفظ الأمن فى المدينة . وكانت قوة الفرق السومرية وشجاعتهم تفوق كثيراً ما تمتعت به جنود الأمم المتاخمة من قوة وشجاعة ولذلك نجد أن ملوك المدن السومرية استطاعوا منذ الألف الثالث قبل الميلاد أن يقوموا بفتوحات ناجحة وأن ينقلوا معهم أسس حضارتهم المزدهرة وينشروها فى كل المناطق المجاورة .

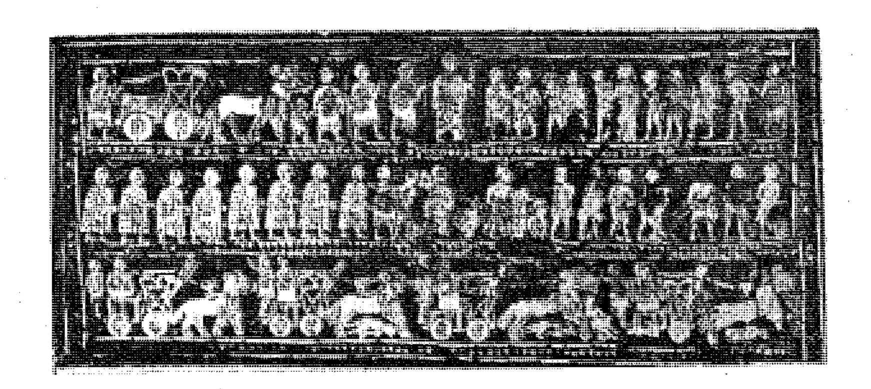
دولة سرجون الأكدى

إذا ألقينا نظرة على خريطة بلاد ما بين النهرين (العراق) وبدأنا عند الخليج الفارسى حيث يصب المجرى المشترك لنهرى الدجلة والفرات ثم تتبعناه نحو الشمال حتى ينفصل المجريان وسرنا مع نهر الفرات وجدنا مناطق المدن السومرية المختلفة التى كشفت أعمال الحفر والتنقيب القناع عن حضارتها المزدهرة وهذه المدن هى « اريدو » و « أور » و « الوركاء » و « لارسا » و « لجش » و « نيبور » . وإذا تتبعنا مجرى الفرات نحو الشمال لوجدنا مدينة « بابل » التى استمتعت فى يوم من الأيام بشهرة واسعة كعاصمة للبلاد . إلى الشرق من بابل القديمة مباشرة نجد مدينة « كش » مقر أقدم ثقافة عرفت فى هذا الإقليم وإلى جوارها نجد مدينة « أكد » التى تنسب إليها دولة « الأكديين » .

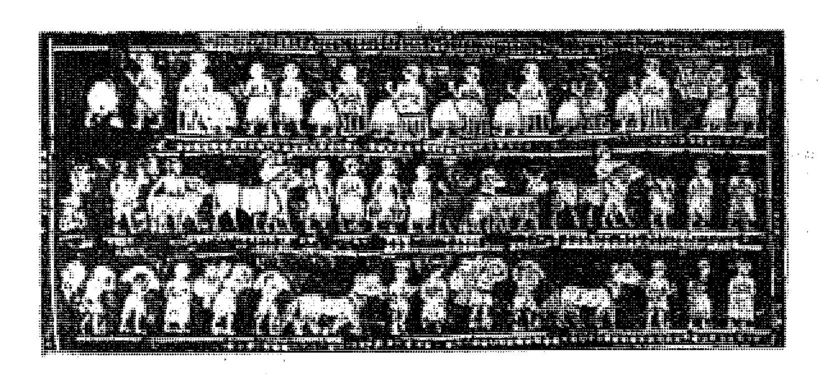
فى أوائل القرن الثامن والعشرين قبل الميلاد كانت مدينة « كش » مسرحا لأحداث كبيرة إذ هاجمها شعب سامى قوى وصل إليها من المناطق التى تحدها شمالا وأخذ يستقر فيها ويعمل على توسيع رقعة سلطانه ونجح فى ذلك نجاحا مستفيضا على يد أحد رجاله المدعو « سرجون » .

لم يكن « سرجون » هذا من أبناء الملوك فلم يعرف التاريخ له أبا ولم تكن أمه إلا من أحط طبقات الشعب . أما هو فكان فى طفولته من بين الخدم فى قصر ملك المدينة ولعله تميز من بينهم بأن أصبح ساقيا لملك « كش » المدعو « أور — البابا » (وهو الحاكم الثالث من أسرتها الرابعة) إلا أن « سرجون » كان ذكيا طموحا شديد المراس عرف كيف يرتقى حتى وصل إلى المركز الذى جعله يستحوذ على السلطة وأن يصبح صاحب النفوذ الأول فى المدينة وما لبث بعد ذلك أن قضى على سيده وأن يعلن نفسه ملكا على « كش » ثم أسس لنفسه مدينة تجاورها أسماها « أكد » أصبحت فيما بعد المركز الذى وثبت منه جيوشه نحو كل مكان لتشيد له أكبر امبراطورية عرفتها بلاد ما بين النهرين فى ذلك العصر كما أنها جعلت منه بطل أسطورة عاشت وتناقلتها

اللوحة الثانية :



لوحة عثر عليها فى « أور » مثلت عليها فى صفوف ثلاثة مناظر معركة استعملت فيها العربات الحربية ولقد تمكن الفنان من أن يبرز هذه المناظر باستعمال قطع من الصدف مغروزة فى اللوحة من القار .



الوجه الآخر من اللوحة السالفة الذكر وعليها ثلاثة صفوف تمثل مناظر لا بد أنها تتعلق بالاحتفالات التى أقيمت بعد النصر فى المعركة السالفة التى ظهرت على الوجه الأول . ويظهر بوضوح إلى أقصى اليسار من الصف الأول الملك جالسا وأمامه كبار رجال الدولة جالسين أيضا على كراسى ثم إلى أقصى اليمين نرى رجلا يعزف على قيثارة ومن ورائه تقف امرأة لابد أنها تنشد ألحانا . أما الصفان الآخران فتظهر فيهما الغنائم المختلفة .

الأجيال لمئات السنين بعد موته ومن الطريف حقا أن نسمع « سرجون » نفسه يتحدث عن نفسه فى احدى التسجيلات التى خلفها فيقول :

« حملت بى أمى الوضيعة الشأن وأخرجتنى إلى العالم سراً ثم وضعتنى فى قارب من الغاب وأغلقت على بابه بالقار ثم أنجانى عامل تمكنت بواسطته أن أصبح ساقيا للملك « كش » الذى أعجب بى وقربنى إليه وما لبثت أن أصبحت السيد فى القصر وزاد نفوذى وقوى سلطانى ، ورأيت من واجبى أن أتسلم مقاليد الأمور فتخلصت من ملك « كش » وجلست على العرش وأصبحت الملك صاحب السلطان العالمى » .

وليس من شك أن « الأكديين الساميين » كانوا قد أتوا إلى بلاد ما بين النهرين من الشمال والشمال الغربى كما سبق أن قلنا ، وكانت علاقتهم فى بادئ الأمر مع بلاد السومير علاقة التابع بسيده ولكنهم ما لبثوا أن أصبحوا الآن منافسين خطرين لهم ، خاصة بعد أن تولى زعامتهم «سرجون الأكدى» فى وقت كانت الحرب قائمة فيه فى الجنوب بين مدينة « أوما » تحت قيادة ملكها القوى « لوجال زاجيزى» وبين مدينة «لجش» وانتهت كما سبق أن ذكرنا بانتصار ملك « أوما » وتكوينه دولة مترامية الأطراف .

وهكذا وقف «لوجال زاجيزى» يترقب الخطر الذى يحيق به ، ولكن «سرجون» لم يوجه اهتمامه إلى الجنوب وإنما اتجه بنشاطه الحربى نحو الشمال حيث يكمن الخطر الأول على كيانه وهو خطر القبائل المحبة للقتال الشديدة المراس التى تسكن الجبال الشمالية الشرقية (جبال زاجروس) أى قبائل « الجوتيين » . وتقدم «سرجون» نحو الشمال مارا فى مملكة « مارى » وغزا مدينة « أشور » واستولى على سهل « سوبارتو » العظيم حيث « أربل » « وكركوك » ثم اتجه نحو قبائل « الجوتيين » فى مناطقهم الجبلية وهزمهم وأمن جانبهم .

بعد أن انهى « سرجون » من اخضاع الشمال وجه جهوده نحو الجنوب وسار نحوه متتبعا شاطئ نهر الدجلة وهاجم « لوجال زاجيزى » وما كاد ينتصر عليه حتى أخذت مجموعة المدن السومرية تخنع له وتسارع الواحدة منها بعد الأخرى وتقدم له فروض الطاعة لاسيما وأنه عاملهم معاملة طيبة إذ احترم آلهتهم وأعاد بناء معابدها التى دمرتها الحروب كما قدم القرابين للمعبودات المختلفة .

ولقد عثر فى « تل العمارنة » بمصر على وثيقة كتبت من عهد لاحق لعهد « سرجون » تذكر أن جيوشه عبرت جبال « الطوروس» إلى بلاد الأناضول وسيطرت

على جزء كبير منها ويؤكد هذا ماورد على بعض الوثائق التى عثر عليها فى أطلال « بوغازكوى » العاصمة العتيقة لدولة الحيثيين . بل هناك بعض القرائن التى تدل على أنه وصل إلى جزيرة قبرص .

وهكذا أخذ هذا الرجل يخضع البلاد شرقا وغربا وشمالا وجنوبا وأسس أول امبراطورية واسعة الأطراف فى بلاد العراق القديم وظل يحكمها قرابة ٥٥ عاما وحيكت حوله الأساطير فهيأت للأجيال اللاحقة له أن تجعل منه إلها كبيرا . ولكن هذا الرجل المغوار الذى لم يذق طوال حياته طعم الهزيمة والذى كان ينتقل من نصر إلى نصر مات ونار الثورة ضده كانت متأججة فى جميع أنحاء امبراطوريته .

* * *

تولى الحكم من بعد « سرجون » ابنه « ريموش » الذى اضطر إلى أن يكافح ليستعيد السلم فى أرجاء دولته الواسعة ، وأرغم على أن يبدأ حكمه بغزوات متلاحقة وجهها إلى كثير من أطراف مملكته لكى يكبح جماح الثورات ، ولكنه ذهب ضحية مؤامرة حدثت ضده فى العام التاسع من حكمه وخلفه فى الحكم أخوه « مانيشتوسو » الذى استمر فى كفاحه محاولا الإبقاء على الدولة المترامية الأطراف التى شيدها أبوه « سرجون » . ولقد حرص هذا الرجل على ألا تعتمد سياسته على الغزو والفتوحات فحسب ، بل تقوم أيضا على تحسين الأحوال الاقتصادية والعناية بشئون السياسية الداخلية . واستمر فى تنفيذ خطته هذه مدة ١٥ عاما وهى فترة حكمه وخلفه من بعده ابنه « نرامسين » الذى خلد اسمه فى التاريخ بأعمال جليلة جعلته بحق حفيدا « لسرجون » .

حكم « نرامسين » مدة تقرب من ٤٠ عاما تمكن أثناءها من إعادة الاستقرار فى أطراف الإمبراطورية الواسعة التى آلت إليه مفككة تتأجج فى جوانبها الثورات ، ولعل شهرته الواسعة لم ترجع لأعماله العسكرية الواسعة النطاق فحسب ؛ بل ترجع أيضا إلى جهوده التى بذلها لدفع مظاهر حضارة أمته نحو الرقى ، فعرف عنه أنه كان يشجع الفنون على اختلافها كما كان حريصا على تعمير دور العبادة وتشييد الجديد منها . ومن أهم الآثار التى خلفها لنا لوحة كبيرة نقش عليها نصا تحدث فيه عن أعماله الحربية . هذه اللوحة حفرت فى جبل عال فى منطقة « ديار بكر » شمالى العراق : ومن أهم الفقرات التى وردت عليها : إن هـذا الملك هزم « بلاد ماجان » التى تحوى محاجر الديوريت وأنه استورد منهـا هذا الحجر ليصنع منه تمثالا لنفسه .

اللوحة الثالثة عشرة :



رأس من البرونز من العصر الأكدى عثر عليه فى أطلال نينوى . وهو يعتبر من روائع الفن العراقى القديم ولقد استطاع الفنان أن يبرز لنا جمال الشفتين والأنف بشكل طبيعى أخاذ . أما العينان فقد كانتا مطعمتين بأحجار ثمينة .

ومما يجدر ذكره هنا أن اسم « ماجان » كان يطلق على مصر في جميع النصوص البابلية المتأخرة ، وأنه كان يقرن بها اسم « مالوخا » الغنية بالذهب .

تعجب علماء التاريخ من ورود اسم « ماجان » على لوحة « نرامسين » وأخذوا يتساءلون : هل حضر هذا الملك الذى عاش حوالى ٢٥٠٠ ق . م إلى مصر وغزاها أو حاول أن يغزوها ؟ أرادوا فى أول الأمر أن يبحثوا عن منطقة « ماجان » هذه فى بلاد العرب ، ولكنهم ما لبثوا أن تعجبوا من تفاخر « نرامسين » بالاستيلاء على جزء من بلاد العرب في وقت كانت فتوحاته قد توغلت فى مناطق مهمة غنية . والآن نبتت فكرة جديدة وهى أن مصر ، كما سبق الحديث ، كانت متصلة اتصالا وثيقا ببلاد السومير فى عصور فجر التاريخ وعصر الأسرة الأولى . فإذا حدث هذا فى عام ٣٠٠٠ ق . م فلماذا لا يحدث مثيلا له فى عام ٢٥٠٠ ق . م . ومما يساند هذه الفكرة أن الوثائق المصرية تذكر لنا غزوة قوية وجهت إلى مصر فى أوائل عصر الأسرة السادسة وبالذات فى عهد ملكها « بيبى الأول » الذى عهد بأمر الدفاع عنها إلى رجل مقرب إليه اسمه « أونى » . وأعلن هذا الأخير التعبئة العامة فى كل المناطق المصرية وجمع جيشا لم تر مصر له مثيلا ؛ إذ تدفقت الفرق من كل ركن من أركان مصر وتم تدريبها وخرجت لملاقاة العدو عند الحدود الشمالية الشرقية وسحقته ، ولم يلبث « أونى » أن خرج فى أكثر من غزوة ليطارد العدو فى مناطق فلسطين وذلك ليقضى قضاء مبرما عليه وليشتت شمله فى مناطق تجمعه .

والسؤال الآن : هل يمكن الجمع بين ما ذكرته الوثائق المصرية السالفة الذكر وبين ما ورد على لوحة « نرامسين » ؟ إن الإجابة على هذا السؤال صعبة ما دامت الوثائق المصرية تذكر العدو على أنه من الساميين سكان الصحراء ، وما دام من الصعب علينا أن نعين مكان « ماجان » فى عصر « نرامسين » . وعلى كل حال ستبقى هذه النظرية دون قرار حاسم حتى تتكشف لنا فى المستقبل على أساس ظهور وثائق أخرى تثبتها أو تنقضها . . !

وبعد حكم طويل ونشاط كبير وجهود جبارة ، مات « نرامسين » تاركا إمبراطورية ممتدة الأطراف لابنه « شاركالى شرى » . ومرة أخرى أخذت الشعوب التى اندمجت قسرا تحت لواء واحد تبحث عن حريتها ؛ فقامت الثورات التحريرية فى كل مناطق الامبراطورية ، وزاد على ذلك ظهور قوة جديدة تتمثل فى خصم شديد المراس ألا وهو قبائل « الجوتى » التى تسكن الجبال الشمالية الشرقية .

لم يكن الملك الجديد قويا بل كان ضعيفا مستسلما فلم يستطع أن يجابه الأحداث بصلابة عود فهزم هزيمة منكرة على أيدى رجال القبائل الجبلية السالفة الذكر وهى قبائل متعطشة للقتال ومحبة للنزال استعملت طرقا همجية فى القضاء على أعدائها ، وبلغ من قسوتها فى معاركها أن أخذت الأجيال اللاحقة من أهل العراق تذكرهم بمرارة وحقد كبيرين ، والدليل على ذلك نص عثر عليه أخيرا كان قد كتبه أحد العراقيين القدماء متحدثا عن فظائعهم فيقول :

« وحوش الجبال الذين فتكوا بالناس وسلبوا النساء من أزواجهم والأطفال من أمهاتهم والذين أفسدوا الحكم وقضوا على « سومير » بعد أن حملوا كنوزها معهم إلى الجبال » .

وهكذا ظهرت على المسرح السياسى قوة جديدة فتية بدأت بهزيمة عدوها الأول « شار كالى شرى » ثم أخذت تتوغل نحو الجنوب فاتحة منتصرة وقضت بذلك على إمبراطورية « سرجون الأكدى » .

بعد أن استقرت الأمور لشعب « الجوتى » وبعد أن دانت له كل مدن الجنوب فضل أهله البقاء فى الشمال تاركين المدن السومرية لأصحابها نظير أداء الجزية والتعهد باتباع سياسة المهادنة والاستسلام . أما الغزاة فقد استمروا فى حكم البلاد متبعين الأسس الحضرية السومرية والأكدية مستعملين اللغة السومرية فى رسائلهم وكتاباتهم وتفاخروا بتلقيب أنفسهم « ملوك الجوتى وأركان العالم الأربعة » .

لم يترك ملوك هذه الأسرة الجبلية آثاراً تحدثنا عن حضارتهم التى جلبوها معهم ومدى تقدمها ، وكل ما نعرفه عنهم بعض أسماء ملوكهم وقد وردت فى الوثائق اللاحقة التى تحدثت عنهم وعن تعسفهم الشديد .

لقد قلنا فيما سبق إن ملوك « الجوتى » استقروا فى الشمال تاركين الجنوب متمتعا باستقلاله الداخلى وهكذا سنحت الفرصة لمدينة « أور » وغيرها لكى تنتعش وتحاول التخلص من نير الاستبداد ، ولكن فترة الاستعداد لهذه المحاولة استغرقت ما يقرب من قرن استطاعت بعده المدن السومرية أن تشن الغارات ضد المستعمرين وأن تنجح فى إقامة صرح دولة جديدة دخلت التاريخ تحت اسم :

عصر إحياء الدولة السومرية

حاولت مدن الجنوب أن تستعيد مجدها القديم وأن تسعى جاهدة لتتحرر من استعباد « الجوتيين » لهم ولعل الظروف كانت مواتية بشكل ملموس لأسرة جديدة أن تظهر فى مدينة « لجش » تلك التى سجل التاريخ لأحد أمرائها المدعو « جوديا » (وهو الأمير الرابع من هذه الأسرة الجديدة) إسما خالدا إذ ترك لنا آثارا تفوق فى عددها وإتقان صناعتها ما خلفه لنا غيره من أمراء المدن السومرية ، وأهم آثاره هى تماثيله المنحوتة من الحجر الديوريتى الأسود وبعضها محفوظ فى متحف اللوفر وبعضها الآخر فى متحف العراق كما يحتفظ المتحف البريطانى بتمثال رائع له بديع الصنع .

وكشفت أعمال الحفر التى قام بها الفرنسيون فى أطلال مدينة « لجش » على مئات من النصوص تتحدث عن نشاط « جوديا » فى كل الميادين وخاصة مايتعلق منها بإعادة تشييد معبد المدينة وهو يقول إنه أحضر المواد التى احتاج إليها من مختلف البلدان مثل « عيلام » و « سوريا » و « الأناضول » وهذا دليل على أن النظام الذى ساد هذه المنطقة منذ أيام « سرجون » والذى أنتج قيام علاقات تجارية واسعة النطاق بين العراق والبلاد المتاخمة كان لا يزال على حاله من الدقة والنشاط أى أنه لم يتأثر باحتلال « الجوتيين » للبلاد الشمالية من العراق .

تمكن « جوديا » أن يحقق خيرا كثيرا لمدينته وأن يعدل بين الناس وينظم شئونهم فى فترة حكمه الطويلة التى بلغت ثلاثين عاما . وفى نفس الوقت قامت حركات مماثلة فى تحفزها ضد الغزاة وعملها على تقوية شئونها فى أكثر مدن الجنوب مثل « الوركاء » و « إريك » و « أور » .

وفى « أور » بالذات ظهرت شخصية بارزة قوية تمكنت من أن تمد نفوذها إلى ما وراء المدينة ، أقصد بذلك « أور نامو » الذى ساعدته الظروف أن يطوى تحت لوائه عددا من المدن واستطاع فى آخر الأمر أن يعلن نفسه ملكا على « دولة السومير » ويذكره التاريخ كمؤسس لأسرة « أور » الثالثة .

وقام « أور نامو » بإصلاحات واسعة النطاق فى « أور » وأعاد بناء المعابد المهدمة كما امتدت إصلاحاته لأكثر من مدينة أخرى مثل « إريدو » و « أوما » و « لارسا » و « أراب » ثم أعاد حفر شبكة القنوات التى كانت تتحكم فى شئون الرى والتى كانت تعتبر أساسا تعتمد عليه ثروة البلاد ورخاؤها .

اللوحة الرابعة عشرة :



تمثال جميل للملك جوديا
(ارتفاعه ٤٠ سم)

خلف « أورنامو » إبنه «دونجى» الذى سار على غرار أبيه وحذا حذوه فى أعمال التعمير المختلفة ، وتذكر النصوص أنه اهتم كثيرا بمدينة « إريدو » التى كانت تقع على شاطىء البحر ولعل هذا الاهتمام يرجع إلى رغبته الملحة فى التقرب إلى جميع الآلهة السومبرية وهذه المدينة بالذات اعتبرت مقرا لعبادة أحد الآلهة العظام ذوى النفوذ القوى عندهم ألا وهو الإله « إنكى » إله الماء والمحيطات .

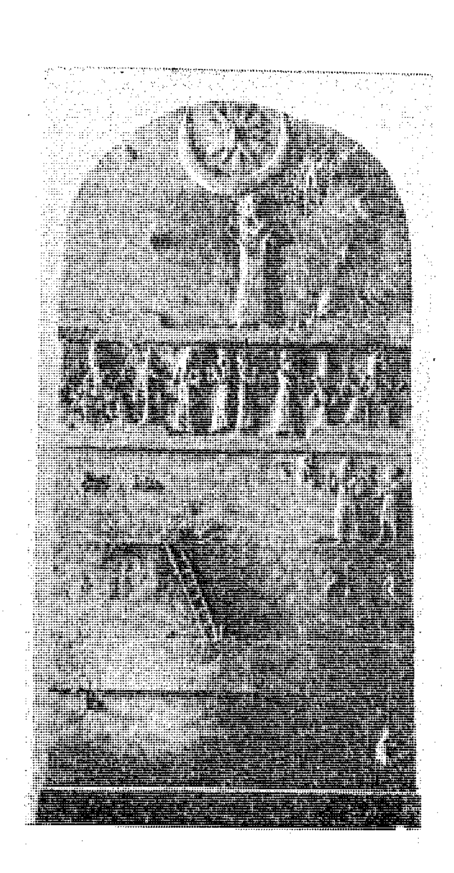
ولقد عثر على بعض لوحات فى أطلال مدينة «لجش» استطعنا منها أن نعرف الكثير عن النظام الإدارى الذى كان يسود الدولة فى عصر هذا الملك ، ومن ذلك أن الملك كان يعين حكاما محليين فى كل مدينة كما كان يشرف بنفسه على تعيين الموظفين الذين يتحتم عليهم ألا يتصرفوا فى أى أمر دون الرجوع إلى الحكومة المركزية فى « أور ». وكانت الرسائل والأوامر تصدر من « أور » إلى أطراف الدولة يحملها رسل أو ضباط من الجيش يؤتمنون على تنفيذ هذه الأوامر حرفيا . ولقد أدى هذا النظام الحازم إلى الحد من المتاعب التى يحتمل أن يثيرها حكام المقاطعات ضد الحكومة المركزية ...

وهكذا استمر عصر « دونجى » تسوده عوامل الأمن المستتب والرخاء إذ أن الفتوحات الكثيرة التى حدثت فى عصر « أورنامو » وزادها إبنه « دونجى » جعلت موارد « أور » تتزايد وتهيأت بذلك أسباب الرخاء التى عمت البلاد .

مات « دونجى » وخلفه ثلاثة ملوك لم يذكر لهم التاريخ إلا القليل من أعمالهم ومرجع ذلك على ما يبدو هو أن البلاد كانت قد بلغت حداً من الرخاء والتقدم لم يدفع خلفاء هذا الرجل إلى القيام بأى نشاط أو بذل أى جهد ، ولكن هذه الفترة التى سادها الرخاء والسلام كانت تحمل بين طياتها نذير الاضمحلال والتفكك وذلك لأنه فى حين كانت « أور » تتمتع بمواردها الضخمة لا تلقى بالا إلى الأحداث الكبار التى تجرى فيما وراء دولتها إذ كانت هناك قوتان جديدتان تتربصان بها ، الأولى : هى «عيلام» تلك الأمة التى تسكن السهول الواقعة إلى الشرق من العراق ، والثانية : هى قوة « العاموريين » الذين يسكنون الشمال . ومن الغريب أن هاتين القوتين خرجتا فى وقت واحد وهدفهما القضاء على دولة « أور » ولم تستطع هذه أن تقف أمامهما وكان فى سحق جيوش « أور » النهاية للسومبريين كشعب مستقل وآخر حلقة من حلقات ازدهار حضارتهم .

وهكذا أخذت قوتان متعادلتان تتحكمان فى مصير العراق القديم واستقرت كل قوة فى أقرب المدن العراقية إلى حدودها وجعلت منها نقط ارتكاز لتغير منها على ما تبقى من البلاد : « العيلاميون » الآتون من الشرق عبروا نهر الدجلة واستقروا فى «لارسا »

اللوحة الخامسة عشرة :



لوحة كبيرة للملك « أورنامو » مؤسس أسرة « أور » الثالثة وقد عثر عليها مهشمة ثم رممت . وهى تظهر الملك يقوم بعدة طقوس دينية مختلفة .

و « العاموريون » الآتون من الشمال استقروا فى « مارى » التى تقع على نهر الفرات إلى الشمال من بابل .

ويبدو كلا من القوتين كانتا فى أول الأمر متعادلتين ولكن « العاموريين » وهم ينتسبون إلى أصل سامى (أى من أولئك الساميين الذين رحلوا من بلادهم فى جزيرة العرب وانتشروا منذ مئات السنين فى مناطق شمال العراق وسوريا وفلسطين) كانت لهم فى آخر الأمر الغلبة ويرجع ذلك إلى أنهم بعد كل غزوة كانوا يستقبلون أعداداً من بنى جنسهم يحطون رحالهم بينهم فيسدون الفراغ فى صفوفهم .

استقرت الأمور لهؤلاء الغزاة الجدد من الساميين وأخذوا يوسعون رقعة نفوذهم من « مارى » نحو الجنوب ووصلوا إلى «أور» و « لارسا » و « إيسين » كما أخذت « بابل » تحظى بعنايتهم ويولونها الكثير من اهتمامهم ثم اتخذوها مقرا لحكمهم .

استغرقت حركة الاستقرار ومن بعدها التوسع فترة طويلة كان الأمر إبانها سجالا بين القوتين ، وحاول كل من الفريقين : « العيلاميون » و « العاموريون » أن تكون له اليد العليا فى البلاد ولكن الظروف كانت بجانب « العاموريين » إذ ولى الأمر فيهم رجل عظيم شديد المراس ذكى طموح هو : « حامورابى » تمكن من أن يدفع « العيلاميين » إلى بلادهم وأن يتولى شئون البلاد بمفرده ، وبذلك ندخل فترة جديدة من تاريخ العراق تعرف باسم دولة « بابل الأولى » التى حكمت البلاد مدة ثلاثة قرون أو يزيد أى من ٢١٠٥ ق . م إلى ١٨٠٠ ق . م

مظاهر الحضارة العراقية فى عهد الأكديين

نظام الحكم :

كشف لنا معول الحفار عن الكثير من الوثائق الهامة بين أطلال مدن العراق القديم ، واستطاع العلماء أن يقفوا منها على ما كان يسود البلاد من نظم مختلفة . ولقد قلنا فيما سبق إن المجتمع كان يتميز فى بلاد العراق « بدويلات المدن » . بقى هذا النظام سائدا طوال عصر حكم « الأكديين » ومن أتى بعدهم حتى عصر « حامورابى » .

كان إله المدينة يعتبر ملكها ، أما أمير المدينة فهو وكيل الإله ومنه يستمد حقه فى إدارة شئون المدينة . يسكن الإله معبده هو وزوجه وأولاده ، ويقوم على أداء فروض العبادة سدنته من طائفة الكهان ، وتمنح معابد الآلهة أملاكا خاصة وصوامع للغلال وحظائر للماشية وعبيدا . أما أمير المدينة فكان يعتبر فى نفس الوقت كبير الكهان .

اللوحة السادسة عشرة :



تمثال حجرى يمثل الملك « بوزور — أشتار » أحد ملوك دولة مارى البحرية ويلاحظ نجاح الفنان فى تمثيل النسيج الذى صنع منه الرداء وخاصة نهاياته .

وكان أمير المدينة يحمل لقب « ايشاكو » أما لقب « لوجال » بمعنى « ملك » فكان يطلق أصلا على إله المدينة ، إلا أنه كثيرا مايحدث أن يمنح الأمير هذا اللقب لنفسه إذا استطاع أن يسيطر على أكثر من مدينة ويكون لنفسه دولة كبيرة .

كان « ايشاكو » المدينة فى هذه الحالة هو القائم على تنفيذ أوامر الإله فى المدينة ، ولا غرابة فى ذلك فإن الإله هو الذى ينتخبه كما أن الآلهة المختلفة يتعهدونه منذ طفولته لتنشئته حتى يستطيع القيام بهذه المهمة المقدسة ؛ لذلك نجده ، أى « الأيشاكو » لايقوم بأى نشاط مهما كان نوعه إلا بعد استشارة إلهه فهو لايسن تشريعا أو يبدأ بتشييد بناء أو يفكر فى غزوة إلا إذا كان هذا بإيحاء من الإله .

أما زوجة الأمير فكانت تتمتع بحقوق واسعة ، فلها أملاكها الواسعة تشرف بنفسها على إدارتها ، كما كان لها قصرها الخاص الذى تسكنه مع أولادها ، هذا غير حقها الشرعى فى الاشتراك فى تصريف شئون المدينة . أما أبناء الأمير إذا شبوا عن طوقهم فكانت تخصص لهم قصور معينة كما كان كل منهم يستمتع بمجموعة من الخدم تقوم على رعاية شئونه .

ولعل أهم الوظائف فى الدويلة ، كانت وظيفة الـ « نوباندا » أى ناظر القصر الذى يهيمن على مشروعات المنافع العامة ويدبر الشئون الزراعية كما يشرف على خزانة الأمير وكذلك كان عليه أن يسجل العقود المختلفة التى تنظم العلاقات بين الأفراد .

تتلو وظيفة الـ « نوباندا » وظائف أخرى مختلفة من كهنة إلى قضاة ثم رؤساء مخازن الغلال والسكنية ورؤساء العمال وبعد ذلك تأتى طبقة العمال أصحاب الأيدى العاملة ، وورد الحديث عن النجار ودابغ الجلود وصانع التماثيل وقاطع الأحجار والبناء والبستانى . أما النساء فكن يعملن ككاهنات أو حائكات للملابس أو عاملات فى مصانع النسيج .

وامتازت « أور » أنها عرفت وظيفة « الوزير » و « كبير الوزراء » و « القيم على الجيش » كما عرفت أيضا وظيفة « الرسول » الذى يتولى حمل رسائل أمير المدينة إلى الأمراء الآخرين فى دويلاتهم .

الجيش :

لم يتميز رجال العسكرية فى العصر الأكدى بمركز اجتماعى كبير ، كما أن الناس فى ذلك الوقت لم يعترفوا بأهمية الجيوش القائمة فكانت الفرق تدعى وتدرب على عجل للقيام بصد حملة أو بمهاجمة عدو وإذا ما انتهت المعارك سرحت الفرق . إلا أن الجيوش القائمة أعيد نظامها فى عصر أسرة « أور » الثالثة .

ومن الغريب أن فرق العجلات الحربية التى ظهرت فى العصر السابق كانت قد أخذت تختفى فى هذا العصر ، وزادت العناية بفرق المشاة التى كانت تتكون من أعداد ضخمة من الوحدات الصغيرة كل منها يتكون من ستة جنود يسيرون تحت حماية درع ضخم مربع الشكل يكادون يختفون من ورائه . ويمتاز عصر « نرامسين» بوجود فرق كاملة تحارب فقط بالقوس والنشاب بينما الغالب فى ذلك العصر أن الجندى كان يهاجم متسلحا بحربة طويلة وبلطة معدنية .

الأسرة

قامت الأسرة فى ذلك الوقت على نفس الأسس التى سادت بلاد «سومير» من قبل، وهى أن للرجل الحق فى زوجة شرعيـة واحدة وإن كان القانون يسمح له بأكثر من محظية .

ومما يؤسف له أننا لم نعثر على نصوص قانونية تحدد لنا الأسس التى كان يقوم عليها كيان الأسرة أو تحدد لنا التزامات الأب نحو أبنائه ، كما أننا لا نستطيع أن نتفهم ما كان يسود المجتمع فى ذلك الوقت من علاقات مدنية تربط بين الفرد والآخر . ولعل أول من حدثنا عن هذا كله كان « حامورابى » وسوف نتعرض بإسهاب لهذه الناحية عند الحديث عن مظاهر حضارة العصر البابلى .

وعلى كل حال فيبدو من بعض النصوص التى وصلت إلينا من العصر الأكدى أن الحياة كانت تقوم على أسس اجتماعية تهدف نحو الفضيلة ، فمثلا نعرف أن الشاب الذى يغرر بفتاة يتحتم عليه أن يتزوجها وإذا حدث أن رفض أهل الفتاة تزويج ابنتهم من هذا الشاب حق عليه الشنق . كما كان هناك تشريع يحرم على المرأة الزواج من رجلين ومثل هذا التشريع يدل على أن ميولا جانحة ظهرت فى المجتمع الأكدى اعتبرت غير متفقة مع العرف المتوارث واضطروا إذ ذاك إلى منعها بواسطة تشريع خاص .

القضاء :

كان يقوم على القضاء قضاة محترفون كما كان لأكبر الرجال سنا فى المجتمع حق الاشتراك فى مجلس القضاء . ولم يكن أمير المدينة يتدخل فى الأحكام القضائية إلا فى حالات استئناف الحكم ، وحينئذ يشرف بنفسه على سير المحاكمة . ونحن نعرف أن الناس كانوا يحرصون على إعداد مكان معين فى المعبد يقوم فيه المتقاضون بحلف اليمين باسم الإله.

ومما يؤسف له أنه لم تصلنا معلومات عن أحكام القانون الذى كان الناس يتعاملون على أساسه وكل ما وصلنا منه لا يعدو وثائق قليلة جداً أصيبت هى الأخرى بالتهشيم .

النظام الاقتصادى :

كان الاقتصاد القومى فى العصر الأكدى يقوم كله طبعا على الزراعة . ويتملك الأراضى الزراعية التى تمتد حول المدينة أميرها وطبقة الأشراف وبعض من الأسر التى تمت إلى الطبقة الوسطى . كما كانت المعابد تتملك مساحات واسعة من الأراضى المنزرعة ولو أنه كثيراً ما كان يحدث أن يطمع أمير المدينة فى جزء من أراضى الإله فيستولى عليه مستندا إلى حقه الشرعى الموروث كممثل للإله على الأرض ووكيل عنه فى إدارة شئون المدينة .

وكانت شئون الرى فى ذلك الوقت تأخذ على الناس كل تفكيرهم وتدعوهم إلى العمل المتواصل حتى يتغلبوا على صعوباتها . فكما نعلم كانت سهول دجلة والفرات تغمرها مياه الفيضان كل عام فإذا ما انحسرت المياه بعد فترة معينة تتبقى أجزاء كثيرة عميقة تفيض بالمياه على هيئة مستنقعات لا يمكن تجفيفها إلا إذا تآزر الناس وشقوا الترع والقنوات حتى يسهل تصريف مياهها . ووصل إلينا الكثير من الوثائق منذ أقدم العصور وكلها تتحدث عن أعمال الملوك والأمراء فى هذه الناحية المهمة ومثل ذلك « أور — نينا » الذى تفاخر بأنه عمل طوال عهده على تنظيم الرى وشق القنوات ... كما عثر المنقبون على وثيقة تحوى تخطيطات للقنوات والنهيرات من عصر يسبق عهد الأكديين ومنها نرى بوضوح أن قناة « حومادمشا » التى أمر بحفرها « إياناتوم » قد ألحق بها خزان متسع ضخم لتخزين المياه .

أما المناطق العالية التى لا تصل إليها مياه الفيضان فتبقى جدباء ولذلك اخترع الأكديون طريقة رفع المياه بواسطة « الشادوف » من مجارى المياه إلى الأراضى الزراعية المرتفعة .

وكانت الأراضى الزراعية تقلب وتعد للزراعة بمحاريث كبيرة تجرها الثيران ويقوم على تحريك كل محراث رجلان . وكان الزراع يؤجرون على عملهم فى الحقول على أن يتقاضوا أجوراً عينية من الحبوب والصوف واللحوم .

وكانت البساتين تعتبر من أهم ما يعتز به الناس نظرا لقلتها ولصعوبة ريها ولأن الفاكهة والخضروات تمثل عند الناس ترفا عزيز المنال ومن أجل هذا كان الناس يحيطونها بأهمية خاصة ويعنون بتحديد مساحاتها وتسجيلها بدقة وعناية .

وكانت المراعى تكون نوعا ثالثا من الأملاك العقارية بعد البساتين والأراضى

المزرعة . ولم تكن فى حاجة إلى عناية أو رعاية أكثر من ريها وقطع حشائشها ثم تطلق الحمير والثيران والأغنام لترعى فيها .

أما منازل القوم فكانت تتكون من فناء مستطيل تحيط به من جهاته الأربع غرف صغيرة ، واتبع هذا النظام فى جميع أرجاء البلاد حتى آخر عصورها . ومنازل سادة القوم كانت تتميز فقط بوجود أكثر من فناء ولو أن الحجرات كانت تتصل عادة بفناء واحد . وكانت مداخل المنازل تطل على طريق ضيق يخترق المدينة . والطريقة التى استعملها الناس فى تشييد منازلهم ظلت تقتصر باستمرار على إقامتها من اللبن ورفع سقوفها على عوارض من كتل خشبية . ولدينا من الوثائق ما يدل على أن مدينة « لجش » كانت تقوم فيها منازل تتراوح مساحاتها بين ٢٣ إلى ٥٣ مترا مربعا ولم يعرف الأكديون بناء منازل تتكون من أكثر من طابق واحد .

والأنهار والقنوات كانت هى الطريق الوحيد للمواصلات التى تربط بين المدن المتفرقة فى بلاد ما بين النهرين ، ولعب نهر الفرات دورا كبيرا فى هذا الشأن وذلك لوقوع المدن السومرية على شاطئيه .

الديانــة :

قامت الأسس الدينية فى دولة أكد على نفس العقائد التى كانت سائدة عند السومريين . فقد اعتقدوا أن العالم فى بدء أمره كان يتكون من عنصر واحد هو « الماء » . وهذا العنصر الواحد حوى فى نفسه عنصرين أزليين : أولهما محيط المياه العذبة وأطلقوا عليه اسم « أبسو » ، والثانى محيط المياه المالحة وعبروا عنه باسم « تيامات » . وبتزاوج هذين العنصرين الأزليين انبثقت الخليقة ، الآلهة والبشر . وكانت الآلهة عندهم مخلوقات سماوية يمتازون عن البشر بحياة أبدية وإن كانت تسود بينهم وتربط بين الواحد منهم والآخر نفس الأحاسيس البشرية . والآلهة جميعا محبون للخير ، أما الشر فكانت هناك مخلوقات تمثله ليسوا ببشر كما أنهم لا يرقون إلى مصاف الآلهة . وبينما عبد الناس الآلهة وقدموا لهم القرابين ، حاولوا الاتصال بمخلوقات الشر عن طريق السحر فقط رغبة فى أن يبعدوا أذاها عن أنفسهم .

وكان العالم ينقسم عندهم إلى ثلاثة أقسام :

(ا) السماء ويسيطر عليها الإله « آدوم » .

(ب) الهواء والأرض ويسيطر عليهما الإله « إنليل » .

(ج) البحار والمحيطات ويسيطر عليها الإله « إنكى » .

وكانت هناك عدا هؤلاء مجموعة كبيرة من الآلهة تمثل قوة الطبيعة والعناصر المهمة فى بيئتهم ، كما كان لكل دويلة إله خاص يهيمن على شئونها ويترأس الآلهة الأخرى التى تعبد فيها .

علاوة على هذا كله فقد كان لكل إنسان إله خاص به ، يعتبر بمثابة القوة التى تقوده فى الحياة ، به يستعين ومنه يأخذ الوحى ليتغلب على مشاكل الحياة . وكان هذا الإله بالنسبة للفرد هو الحامى له الذى يقيه شر الأزمات . ومن أجل هذا نرى كل فرد يطلق على نفسه أنه ابن إلهه الذى يحميه .

أما الناس فقد خلقوا من طينة الأرض وشكلوا حتى يشبهوا الآلهة وما خلقوا إلا ليكونوا خداما مطيعين لهم . ولذلك اعتبر الناس أنفسهم ملزمين أمام الآلهة بأمرين : أولهما خشية الإله ، وثانيهما العبادة وتقديم القرابين . وتنص ألواح « جوديا » على أن الآلهة تفضل قرابينها من أنواع معينة ، منها : « الثيران والماعز والضأن والدجاج والبط والسمك والبلح والتين والزيت والكعك » .

وليس من شك فى أن كل هذه التقدمات من القرابين كانت تذهب إلى الكهان سدنة الإله ، ولذلك نراهم وقد أصبحوا أكثر الطبقات مالا وأعظمها قوة فى المدن السومرية والأكدية . وتذكر النصوص أن الملك « أوركاجينا » شعر بخطرهم على عرشه فعمل على الحد من نهمهم والضرب بيد حديدية على نفوذهم الذى استمدوه من ثرائهم الواسع ، ونجح فى ذلك أيما نجاح ولكن لم يلبث هؤلاء بعد موته أن استعادوا سلطانهم كما استعادوا دخلهم الكبير من التقدمات الكثيرة لآلهتهم .

ومن حقنا أن نفترض أن السومريين كانوا يؤمنون بالحياة الآخرة ، ودليلنا على ذلك تزويد مقابرهم بأنواع شتى من الطعام والأدوات لا بد أنهم اعتقدوا باستعمالها فى دنيا الموت . ولكنهم فى نفس الوقت صوروا الدار الآخرة كعالم مظلم تسكنه الأطياف التعسة ويهوى إليه الموتى أيا كان شأنهم من غير تمييز بينهم .

ويبدو أن فكرة الجنة والنار والنعيم الدائم والعذاب الخلد ، لم تكن قد استقرت فى عقولهم بعد ، وعلى ذلك ففكرتهم فى القيام بالصلاة وتقديم القرابين لم تكن للحصول على الحياة الخالدة بل طمعا فى النعم المادية الملموسة فى الحياة الدنيا . وعقيدتهم فى ذلك هى أن الإنسان ما دام يعمل صالحا فقد استحق رضى الإله وعاش متمتعا بالسعادة . أما إذا أذنب بقصد أو بدون قصد فإن الإله حاميه يتخلى عنه فتتلقفه مخلوقات الشر ويتردى فى عالم الرذيلة .

وإذا أراد الإنسان أن ينجو من عالم الرذيلة ويرجع إلى النطاق الذى تسوده الفضيلة فعليه أن يلجأ إلى السحر ويتمتم بتعاويذه التى علمها الإله « إنكى » للناس فحفظوها عن ظهر قلب جيلا بعد جيل ثم أخذوا بعد ذلك يتعلمونها بين جدران المدرسة . وكان الفرد الذى يتعلمها يصبح كاهنا « أشيبو » لا عمل له إلا مساعدة الناس للتخلص من أيدى مخلوقات الشر والعودة إلى حظيرة الآلهة .

وكان على الكاهن « أشيبو » أن يختار بين أمرين فى المدرسة : إما أن يتعلم تعاويذ الإله « إنكى » السحرية ، أو أن يتخصص فى تعلم الأناشيد التى يغنيها بمصاحبة الآلات الموسيقية ليسعد بها قلوب الآلهة فتفرح وتزيد من نعمها التى تغدقها على البشر .

غير هذا فقد لعب قارئو المستقبل المتنبئون بالأحداث دورا كبيرا فى المجتمع « الأكدى » وكان أصحاب هذه المهنة يعتبرون من طبقة الكهان ويطلق عليهم لقب « بارو » ، وكانت طريقتهم فى التنبؤ تختلف : فإما أن يقرأوا المستقبل من كبد حيوان يضحى للإله فيرون علامات خاصة على سطح هذا الكبد يذهبون مذاهب شتى فى تفسيرها ، أو يقرأون المستقبل بإسقاط نقطة من الزيت فوق سطح ماء يملأ إناء فتتوزع هذه النقطة فوق الماء ، وفى هذا التوزيع يرون أكثر من علامة يستدلون منها على الغيب . وكانت طائفة الـ « بارو » تعتمد على مايحدث من « ولادات » غريبة غير عادية سواء عند البشر أو الحيوانات ، وذلك لتفسير أحداث المستقبل وما سوف يجرى بالنسبة إلى مسائل تخص الدويلة كلها . وأخيرا كان الـ « بارو » يفسر المستقبل عن طريق الرؤيا التى تأتيه إذا ما أمضى ليلته فى المعبد .

وكانت هذه الطائفة من الكهنة تتقاضى مبالغ ضخمة كأجر لهم على قراءة المستقبل ، ولكن هذه الأموال المتجمعة كانت تقسم عادة إلى سبعة أقسام يأخذ الكاهن واحداً منها ويذهب واحد آخر إلى مدير شـئون المدينة ، أما الخمسة أقسام الباقية فكانت تعطى لأمير المدينة .

أما الطقوس الدينية فى المعابد فكان يقوم بها فئة من الكهان تعرف باسم « شانجو » وكان رئيس هذه الفئة يتمتع بنفوذ كبير فى المدينة وغالبا ما يكون هذا الرئيس هو ابن أمير المدينة .

وكثيرا ما كانت الوظائف الدينية فى المعابد تعطى أيضا للنساء ، وذكرت الوثائق من كل عصر سيدات تمتعن بوظيفة الـ « بارو » والـ « أشيبو » والـ « شانجو » وذلك عدا وظائفهن كمغنيات فى المعبد .

وكان يتصل بالمعابد عدد كبير من النساء يعملن كخادمات أو سرارى للآلهة أو لممثليهم الذين يقومون مقامهم على الأرض . ولم تكن الفتاة السومرية أو الأكدية ترى شيئا من العار فى أن تخدم الهياكل على هذا النحو ؛ بل إن أباها كان يفخر بأن يهب جمالها ومفاتنها لتخفيف ما يعترى حياة الكهان المقدسة من ملل وسآمة .

« العلوم والآداب » :

لقد وصلت إلينا من هذا العصر وثائق مختلفة ، منها : ما يتعلق بحياة الناس اليومية ويتحدث عن تجارتهم وحسابات الأرباح والخسارة أو تسجيل عقود بيع وشراء العقارات ، ومنها ما كان يتحدث عن الملوك وأعمالهم المختلفة . إلا أن منها ما كان يحمل طابعا أدبيا مثل تلك الوثيقة التى سبق ذكرها والتى كتبها أحد سكان مدينة « لجش » يستنزل فيها اللعنات على « لوجال زاجيزى » الذى خرب مدينته .

من هذه الوثائق المختلفة نعرف أن الأكديين اتبعوا نفس الطريقة السومرية فى إقامة حساباتهم على أساس الوحدات العددية : خمسة وعشرة وستين. وهذه الوحدات الحسابية بعينها هى التى بقيت لدينا حتى الآن فى حساب الساعة الزمنية التى نقسمها إلى ستين دقيقة والدقيقة إلى ستين ثانية .

وكانت السنة عندهم قمرية وتنقسم إلى اثنى عشر شهرا قمريا ويبدأ الشهر بظهور الهلال وينتهى بظهور الهلال مرة أخرى . ولقد عرفوا أن الشهر القمرى يجعل الفصول الأربعة تختلف فى حسابها وتوقيتها اختلافا واضحا ، حالهم فى ذلك حالنا الآن فى حساب السنة الهجرية . ولقد دفعهم ذلك إلى إضافة شهر وأحيانا شهرين على السنة حتى تستقيم معها الفصول . بل هناك وثيقة أرخت فى العام الثانى والخمسين من حكم الملك « شولجى » (أحد ملوك الأسرة الثالثة لأور) ذكرت أن الناس زادوا ثلاثة أشهر إلى السنة حتى تنسجم الفصول مع مظاهر الطبيعة .

واعتاد الناس أن يؤرخوا أعوامهم بسنى أميرهم فى المدينة إلا أنهم اضطروا فيما بعد أى ابتداء من عصر حكم ملوك الأكديين أن يلجأوا إلى طريقة أخرى وهى تأريخ الأعوام بالأحداث المهمة التى تقع فيها .

دولة بابل الأولى

تحدثنا فيما سبق عن سقوط أسرة « أور » الثالثة بعد أن هاجمت البلاد قوتان فتيتان هما : «العيلاميون» من الشرق و « العاموريون » من الشمال الغربي ؛ وقلنا كذلك إنه قد نشأت أسرتان أولاهما عيلامية استقرت في « لارسا » ، والثانية « عامورية » واستقرت في « ماري » ، وأخذت هاتان القوتان تتنازعان السيطرة على البلاد مدة طويلة تقرب من قرن ونصف قرن . وانتهى الأمر بظهور أسرة سامية أسسها رجل اسمه « سمو — آبوم » حوالى عام ٢١٠٥ ق م وقد بدأ كفاحه بالقضاء على أمراء الدويلات الجنوبية ثم أعلن نفسه ملكا على بابل بعد أن بسط نفوذه على « سومير » و « أكد » وبذلك حقق نهائيا وحدة البلدين تحت صولجان واحد ، تلك الوحدة التي طالما حاولت أهم المدن الوصول إليها منذ أكثر من ألف سنة ، وقد أخذ الجنس السوميرى يختفي رويداً رويداً ، إذ أنه امتص في الأجناس الأخرى التي استقرت في البلاد منذ أجيال عديدة ، كما أن اسم «سومير» نفسها لم يحتفظ به إلا في المراسيم ، ولم تعد بابل المدينة السياسية فحسب بل العاصمة الدينية للامبراطورية كلها .

مات « سمو — آبوم » بعد أن حكم البلاد فترة تقرب من خمسة عشر عاما وخلفه ابنه « سمولا إيلوم » الذي خصص أولى سني حكمه لإصلاح شئون عاصمته وفي المحافظة على حدود مملكته التي ورثها عن أبيه . كما قام بمشروعات عمرانية كبيرة في العاصمة والمدن الأخرى واستمر حكمه مدة ست وثلاثين سنة وخلفه من بعده ابنه « زابوم » الذي حذا حذو أبيه في انتهاج سياسة التعمير والمحافظة على حدود البلاد ، إلا أن الخطر أخذ يهدد المناطق الجنوبية من بلاد العراق وذلك بهجوم ملك العيلاميين المدعو « كدر مابج » على مدينة « لارسا » واستقراره فيها وأخذ النزاع يستمر بين ملوك بابل وملوك العيلاميين وذلك طوال عصر « زابوم » السالف الذكر ثم عصر ابنه « ايل — سن » ثم « سن مبالط » حتى ولى الحكم ابن الأخير المدعو « حامورابي » .

تولى شئون البلاد الملك « حامورابي » والخطر العيلامي يهددها ، إذ كان النفوذ العيلامي ينتشر بسرعة نحو الشمال وكاد يؤدي بكيان المملكة إلى الانهيار . إلا أن هذا الرجل بما اتصف به من خصال فذة سواء في شئون الحرب أو السياسة كان بحق المنقذ لأمته . لم يغفل « حامورابي » عن خطورة الموقف إلا أنه لم يحاول الخروج إلى خصمه

بمجرد وصوله إلى عرش بلاده بل شغل أولى سنى حكمه فى إصلاح الإدارة الداخلية ، وتقوية وسائل الدفاع حول المدن الهمة وفى الاستعداد للصراع المنتظر الذى بدأه فى السنة الخامسة من حكمه واستولى على « إيسين » ، ثم وجد أن الأمر ليس هينا لملاقاة عدوه القوى بسرعة واضطر إلى الانتظار فترة تقرب من ثلاث عشرة سنة أمضاها فى الاستعداد .

تقابل « حامورابى » فى السنة الثامنة عشرة من حكمه بعدوه « ريم سين » ملك « لارسا » وكانت الحرب بينهما شديدة قاسية ولعلها كانت من أخطر الحروب فى تاريخ الشرق القديم ، إذ خرج الملك العيلامى « ريم سين » على رأس جموع جرارة لا حصر لها من الجند العيلاميين ومن سكان المدن العراقية الخاضعة له ، ومن أجل هذا نستطيع أن نحكم على مقدرة « حامورابى » العسكرية بعد أن دحر هذه الجيوش الجرارة وبعد أن مزق شملها شر ممزق . فكان انتصاره عليها حاسما إلى درجة اعتبرت حدثا خطيرا فى حياة العراق القديم ، أرخ به المؤرخون وثائقهم ، كما تغنى بعظمة « حامورابى » الشعراء البابليون ، ورتل الناس أناشيده فى المعابد .

وبالقضاء على الخطر العيلامى خلا الجو للملك « حامورابى » واستطاع أن يعمل بحرية كاملة فى توسعه نحو الشمال والجنوب ووصل شمالا إلى أعالى نهر الدجلة وضم بلاد الأشوريين إليه ، كما تمكن من أن يصل بحدود بلاده إلى الخليج الفارسى . وقصارى القول كان عهد هذا الملك الذى دام ثلاثة وأربعين عاما بمثابة العصر الذهبى للبلاد العراقية بأجمعها . وتدلنا تشريعاته المشهورة ورسائله الرسمية المتعددة على مدى ما كان يتمتع به الشعب العراقى القديم من رخاء ورفاهية ، وليس من شك فى أن كل هذا كان نتيجة مباشرة لحكمة « حامورابى » وبعد نظره وشجاعته وشدة مراسه .

لقد خلف هذا الرجل أبناء لم يستطيعوا الدفاع عن كيان دولتهم المترامية الأطراف وأخذت الثورات تشتعل فى أكثر من مكان بل إنه حدث فى عصر ابنه « سمسو ايلونا » أن قام السكان القاطنون فى الجزء المتاخم للخليج الفارسى بثورة واستطاعوا أن يستقلوا ويكونوا دولة عرفت فى التاريخ باسم « مملكة البحر » أو « دولة بابل الثانية » .

وفى عهد الملك الخامس بعد موت « حامورابى » وهو حفيده المدعو « سمسوريتانا » هاجم البلاد عدو جديد ظهر على المسرح السياسى تحت اسم « الحيثيين » وتمكن من أن يقضى على أسرة بابل الأولى ويدق آخر مسمار فى نعشها .

مظاهر الحضارة البابلية

قانون « حامورابى » :

ليس من شك فى أن شخصية هذا الملك قد طغت على غيرها من الشخصيات التاريخية التى ظهرت فى تاريخ العراق القديم فى الألف الثانية قبل الميلاد ، ولا غرابة فى ذلك ، فقد كان رجلا عظيما مصلحا لم ير فى فتوحاته إلا الوسيلة الوحيدة التى تضمن له نشر العدل والرخاء بين أكبر مجموعة من البشر . ونحن نعتبر قانونه بمثابة العمل الخالد له .

نقش هذا القانون على كتلة من الديوريت ارتفاعها ٢٫٥٢ مترا ومحيطها ١٫٩٠ مترا عند القاعدة وعثر عليها فى أطلال مدينه « سوسة » حوالى عام ١٩٠٢ ، وقد تكسرت إلى ثلاث قطع ، ونقشت مواد القانون التي تبلغ ٢٥٠ مادة فى ستة وأربعين عمودا على محيط الكتلة الحجرية ، كما زين الجزء الأعلى من الكتلة بمنظر يمثل إله الشمس « شماش » جالسا على عرشه وهو يملى على « حامورابى » الماثل أمامه « مراسيم العدالة » . ويبدو واضحا من هذا النص أن الملك قد انتهى من صياغة قانونه وأصدره فى العام الحادى والأربعين من حكمه .

والواقع أن « حامورابى » قد اعتمد فى قانونه على الكثير من القوانين السائدة بين الناس بحكم العرف والعادات ، والدليل على ذلك أنه يقول : « فى حالة عدم ورود نص يختص بجريمة ما ، يحكم فيها حسب العرف السائد فى المنطقة » .

ولقد ظل قانون « حامورابى » مدة خمسة عشر قرنا كاملا محتفظا بجوهره رغم ما طرأ على أحوال البلاد من تغيير ورغم ما أدخل عليه من تفاصيل . ومن الغريب حقا أن هذا التطور كان يهدف باستمرار إلى استبدال العقوبات الدينية بأخرى دنيوية أو بمعنى آخر كان يهدف إلى استبدال الرحمة بالقسوة والغرامات المالية بالعقوبات البدنية .

ويبدو واضحا من قانون « حامورابى » أنه حدد العقوبات التى يستطيع القضاة توقيعها فى حالة معينة فمثلا عقوبة الاعدام يمكن صدورها على من اقترف إحدى الجرائم الآتية : —

١ — شاهد الإثبات المزور فى قضية جنائية .

٢ — اللص الذى يسرق كنوزا من المعابد أو قصر الأمير .

٣ — اللص الذى يسرق منقولات ذات قيمة .

٤ — الشخص الذى يخفى الأشياء المسروقة أو يبيعها .

٥ — الشخص الذى يشترى أو يأخذ وديعة تخص قاصرا أو عبدا دون أن تكون عنده وثيقة بذلك أو شهود على ذلك .

٦ — الشخص الذى يتيح فرصة لهرب أحد العبيد أو إيواء عبد أو قبول خدماته إذ أنها جميعا تعتبر من جرائم السرقة .

غير هذا فهناك أيضا عقوبات رادعة ، مثال ذلك :

١ — إذا كسر إنسان لرجل شريف سنا أو فقأ له عينا أو هشم له طرفا من أطرافه حل به نفس الأذى الذى سببه له .

٢ — إذا انهار منزل وقتل من اشتراه حكم بالموت على مهندسه أو بانيه .

٣ — إذا انهار منزل وتسبب عن سقوطه موت ابن الشارى حكم بالموت على ابن البائع أو ابن البانى .

٤ — إذا ضرب إنسان طفلا ومات ، يحكم بالموت ليس على الجانى بل على طفله فيضرب حتى يموت .

٥ — إذا ضرب رجل أباه عوقب بقطع يده .

٦ — إذا تسبب طبيب أثناء إجراء عملية جراحية لمريض فى موته أو فى فقد عين من عينيه ، قطعت أصابع الطبيب

٧ — إذا استبدلت قابلة طفلا رضيعا بآخر وثبت سبق إصرارها قطع ثدياها .

٨ — يقطع لسان الطفل الذى هجره أبواه للدعارة ، إن هو أنكر أبويه اللذين تبنياه . وإن هو هجر بيتهما ليعود إلى بيت أبيه وأمه أمرت المحكمة بفقء عينيه .

٩ — كل من ضرب شخصا من مرتبة أعلى من مرتبته على يافوخه يجلد بسوط من جلد الثور ستين جلدة .

١٠ — ينفى الأب الذى يتصل بابنته اتصالا جنسيا .

وكان قانون « حامورابى » قاسيا فى توقيع العقوبات على كل من يخرج على العرف السائد أو يقترف إثما لا يتفق مع الأخلاق العامة ؛ فمثلا عقوبة الإعدام كانت فى : هتك العرض ، خطف الأطفال ، قطع الطرق على القوافل ، الجبن فى ميدان القتال ، سوء استعمال الوظيفة ، المرأة التى تتسبب فى قتل زوجها لكى تتزوج من غيره .

اللوحة السابعة عشرة :



الجزء الأعلى من اللوحة التي نقش عليها قانون الملك «حامورابي» ونرى الملك يقف أمام «شمش» إله الشمس ممثلا على هيئة رجل جالس على عرشه .

وتعرض أيضا القانون لمشاكل الوراثة فخص أبناء الرجل بتركته دون زوجته ، وإذا مات الرجل عن زوجته فقط كان لها الحق فى مهرها وفى هدية عرسها وظلت ربة البيت ما دامت على قيد الحياة . ولم يكن حق الميراث محصوراً فى الابن الأكبر فقط بل كان الأبناء كلهم سواسية فى الميراث . ومن ثم لم تلبث الثروات الكبرى أن تقسمت وتفتتت وامتنع تركزها فى أفراد قلائل .

وكانت هناك محاكم ابتدائية منتشرة فى كل مكان ، وكانت على نوعين : كهنوتية ومدنية . وتتكون المحكمة غالبا من ستة قضاة كانوا رجالا محترفين لأنهم يحملون لقب « قاض » .

وكان المتبع أن ندون الأحكام القضائية بواسطة كاتب يحاول فى صيغة دقيقة مختصرة أن يذكر العناصر الخاصة بكل قضية وكذلك قائمة بالشهود ويضيف اسمه عادة فى آخر الوثيقة التى كانت كالمعتاد عبارة عن لوحة طميية تحرق بعد الانتهاء من كتابتها .

وكانت فى بابل محكمة استئناف يحكم فيها قضاة الملك ، كما كان فى وسع المتقاضين أن يرفعوا استئنافا نهائيا إلى الملك نفسه . ولم نجد فى الوثائق ما يستدل منه على وجود المحامين فى بابل ، وكان المدعى يترافع فى قضيته بنفسه دون أن يستعين بالألفاظ المنمقة التى تحتمها الاصطلاحات القانونية . ولم يكن الناس يشجعون على التقاضى ولعل ذلك لأن المادة الأولى من قانون « حامورابى » تقول : « إذا اتهم رجل شخصا آخر بجريمة يعاقب عليها بالإعدام ثم عجز عن إثباتها حكم على المدعى نفسه بالإعدام » .

ويبدو واضحا أن قانون « حامورابى » لم يعترف للفرد بأية حقوق قبل الدولة فلم تكن هناك حرية فردية أو حماية سياسية إلا أننا نجد أن القانون فرض حماية اقتصادية ، ومن أمثلة ذلك :

إذا ارتكب رجل جريمة السطو وقبض عليه متلبسا بالجريمة حكم على هذا اللص بالإعدام — أما إذا لم يقبض عليه كان على المعتدى عليه أن يقدم بيانا مفصلا بخسائره مدليا بهذا البيان فى مواجهة الإله بالمعبد وعندئذ على المدينة التى ارتكبت السرقة فى داخل حدودها والحاكم الذى ارتكبت الجريمة فى دائرة اختصاصه أن يعوضاه على ما فقده — إما إذا أدى السطو إلى خسارة فى الأرواح دفعت المدينة ودفع الحاكم تعويضا كافيا إلى ورثة القتيل .

الدين والمعتقدات الجنزية

لقد بقيت العقائد الدينية على ما كانت عليه فى العصور السابقة ، بل إن من الصعب علينا أن نحدد فى الدين البابلى ما يرجع أصله إلى العنصر السامى من السكان وما هو من أصل سومبرى . فالآلهة هم الذين عرفناهم من قبل بعددهم الوافر ، ومن الطريف أن أحد العلماء قام بعمل إحصاء لعدد الآلهة الذين ذكرت النصوص المختلفة أسماءهم فى جميع البلاد البابلية فبلغت هذه الإحصائية نيفا وخمسة وستين ألف إله . ولا غرابة فى ذلك لأنه كما سبق أن قلت كان لكل مدينة إله يحميها ثم لكل قرية ولكل جماعة ولكل أسرة وأخيراً لكل فرد إله يحميه ، هذا غير الآلهة الكبرى التى تمثل قوى الطبيعة والتى كان الجميع يتعبدون إليها ، ولم نجد عند البابليين من الأدلة ما تجعلنا نعتقد أنهم عرفوا التوحيد فى أى عصر من عصورهم كما كان الحال فى مصر وخاصة فى عصر الملك « أخناتون » .

وعندما استقرت الأمور للملك « حامورابى » وتم له توحيد البلاد ، جعل من الإله « مردوك » معبود بابل المحلى ، الإله الأعظم للإمبراطورية وسيد الآلهة أجمعين . واستجاب الكهان لرغبة « حامورابى » هذه وسرعان ما ألفوا القصص ونسجوا حول الإله الجديد كثيرا من الروايات . ولعل أهم ما قاموا به كانت تلك القصة التى تتحدث عن بدء الخليقة وكيف استطاع « مردوك » أن يصبح سيد الجميع :

شعر كل من « تيامات » إله المياه العذبة و « أبسو » إله المحيط الأزلى ، بغصة نحو الآلهة التى خلقاها ، واتفقا على إبادة الخليقة وذلك بأن خلقا عدداً كبيرا من الجن . أما « أنو » إله « أكد » و « إيا » إله «اريدو» فقد أخذا يفكران مليا فى الدخول فى معركة ضد هؤلاء وأخذهما التردد وعندئذ وقف « مردوك » وقلبه ينفطر لاضطراره إلى محاربة « تيامات » وصرخ فى وسط مجمع الآلهة وخاطبهم قائلا :

« إذا ثأرت لكم وكبلت « تيامات » بالسلاسل لأنجى حياتكم ، فعليكم أن تجمعوا من أنفسكم عدداً ليقرر مصيرى ولتكن الكلمة التى تخرج من فمى ومن أفواهكم هى التى ستقرر هـذا المصير . أما كلمتى فهى أن كل ما أقوم به يبقى دون تغيير أو تحوير » ، وبعد أن أكلت الآلهة وشربت قبلت اقتراح « مردوك » وعندئذ هجم هذا على غريمه « تيامات » وانتصر عليه وقتله وقطعه إلى نصفين جعل من نصف الأرض وأقام من النصف الثانى قبة السماء . وعاد الآلهة إلى الاجتماع وأعلنوا على الملأ أسماء « مردوك »

التى تبلغ الخمسين عداً . أما « أنو » و « إنليل » فقد تنازلا عن سيطرتهما له وهكذا تقرير المصير . . . !

ولقد كانت هذه القصة تمثل مرة كل عام أثناء الاحتفالات الكبرى التى تجرى فى مستهل كل عام وذلك فى معبد « بابل » . وإذا حدث أن منعت الحروب أو أى سبب آخر القيام بهذه التمثيلية ، اعتبر ذلك فألا سيئا كان يذكر وينوه به فى كل الوثائق الرسمية التى تكتب فى تلك السنة .

أما عقيدة البابليين عن الدنيا الثانية فقد كانت تختلف تماما عما كان سائدا عند المصريين القدماء ، بل كانت أقرب إلى ما تصوره الإغريق القدماء . فقد اعتقدوا أن الناس بعد موتهم يذهبون كلهم : العبقرى منهم والأبله . القديس والمذنب إلى مكان مظلم فى جوف الأرض سموه « أرالو » هو بمثابة دار للعقاب ، حيث تقيد فيه أيدى وأرجل الموتى أبد الدهر وحيث ترتجف أجسادهم من البرد ، وإذا لم يتفضل أبناء الموتى وأقرباؤهم بوضع الطعام لهم على مقابرهم فى أوقات معينة فسوف يجوعون ويظمأون .

لم يعرف البابليون تحنيط الجثة إلا أنهم تعودوا غسلها وإلباسها ثيابا حسنة مع تزويدها بالحلى وقوارير العطور المختلفة وذلك لتحتفظ بجمالها وحسن رائحتها فى الدار الآخرة . وكانت أكثر أجسام الموتى تدفن فى قباب ونادرا ما كانت الجثة تحرق وتوضع بقاياها فى قدر ، وكانوا يعتقدون أن الميت الذى لم يعن بدفن جثته على أحسن وجه سوف يسبب تعذيب الأحياء .

وهكذا كانت عقيدة البابليين عن الدنيا الثانية تبعث على الحزن وعدم الابتهاج ، إلا أنها كانت تحوى ما يكفى لحفز الساذج منهم على تقديم القرابين من الطعام والشراب إلى الآلهة وكهانهم .

ومن الغريب حقا أن التمسك بأهداب الدين عند البابلى لم يكن يتعدى تقديم القرابين للآلهة متبعاً فى ذلك المراسيم المتفق عليها والمعمول بها . أما الحياة الصالحة حقا فلم تكن تدخل فى الحساب ، بمعنى أن البابلى ما دام قد قام بما حق عليه نحو إلهه فهو بعد ذلك فى حل من أن يفقأ عين عدوه المهزوم ويقطع أيدى الأسرى وأرجلهم ويشوى ما بقى من أجسامهم وهم أحياء ، دون أن يؤذى بذلك آلهته .

الـكتابة والأدب :

كتب البابليون وثائقهم بالخط « الاسفيني » أى أنهم اتبعوا نفس الطريقـة التى شاعت فى العصر السابق « السوميرى الأكدى » . واستعملوا أيضا الألواح الطينية المبللة التى يسهل نقش الـكتابة على سطحها بالقلم ذى الطرف المنشور الثلاثى ، فإذا ما انتهى الـكاتب من تسجيل وثيقته جفف اللوح أو حرقه ويسهل بذلك حفظه أجيالا طويلة .

واللغة البابلية القديمة هى إحدى اللغات السامية ، نشأت من تطور ومزج بين اللغتين السوميرية والأكدية مع الاحتفاظ بالـكتابة السوميرية كما سبق أن قلت . وحوت اللغة ما يقرب من ثلاثمائة علامة ، ومن حفظ هذه العلامات المقطعية عن ظهر قلب ودراسة قواعد الحساب والتعاليم الدينية يتكون المنهج المقرر فى المدارس الملحقة بالمعابد .

وكان البابليون ينظرون إلى الـكتابة على أنها مجرد وسيلة لتيسير الأعمال التجارية كما أنهم سجلوا بها العقود والأناشيد الدينية والتمائم السحرية . أما ما تعلق منها بالأدب فهو قليل جداً إذا قيس بما وصل إلينا من نصوص أدبية من العصر الفرعونى فى مصر .

ويجدر بنا أن نذكر هنا بأن اللغة البابلية انتشرت بين أمم الشرق القديم فى ذلك العصر وفى العصور اللاحقة انتشارا واسعا جعل منها بحق اللغة الدولية المعترف بها فى كل مكان . ودليلنا على ذلك أن جميع المراسلات التى كان فراعنة مصر طوال القرنين الخامس عشر والرابع عشر ، يرسلونها إلى حكام مستعمراتهم المتعددة فى أسيا ، كتبت باللغة البابلية ، هذا مع العلم أن دولة بابل كانت قد اختفت فى هذه الفترة كما كانت البلاد محكومة من عنصر جديد هم الـكاشيين كما سيأتى الحديث عن ذلك على الصفحات التالية .

لقد عرف البابليون تصنيف مخطوطاتهم ووثائقهم تصنيفا موضوعيا بحيث أن كل مجموعة من نوع واحد كانت تحفظ فى قدر كبير ، ثم ترتب هذه القدور فوق أرفف فى صالات كبيرة تلحق بالمعبد ، ولا بد أن هذه الصالات كانت تؤدى نفس الغرض الذى تؤديه المـكتبات العامة عندنا الآن . ومما يؤسف له أن معظم هذه المـكتبات قد فقدت وضاعت معالمها ومحتوياتها ، لـكن إحداها ، وهى ترجع إلى عصر لاحق للعصر البابلى ، عثر عليها كاملة وهى مكتبة الملك « أشور بنى بعل » ، وبلغت الألواح التى كانت تحويها أكثر من ٣٠٫٠٠٠ (ثلاثين ألف) لوح .

ومن الطريف حقا أن نجد بين هذه الأعداد الضخمة من اللوحات الطريفة اثنى عشر لوحا محطما (محفوظة الآن بالمتحف البريطانى) تحوى قصة « جلجميش » المشهورة التى تتحدث بتفصيل عن أحداث شتى تمت فى العصور العتيقة أى إبان عصر السوميريين

وما قبلهم وعن عصر الطوفان وبطله المدعو « جلجميش » الحاكم الأسطورى لمدينة الوركاء (أوروك القديمة) .

والصورة التى ترسمها القصة لبطلها « جلجميش » تجعل منه مخلوقا إلهيا بلغت صفاته حد الكمال ، فهو جميل يفتن الناس بجماله ، جرىء مقدام ، لا يقف أمامه محارب ، ولا غرابة فى ذلك ، فهو طويل القامة ، ضخم الجسم ، مفتول العضلات ، ثلثاه إله وثلثه آدمى . ثم تزيد القصة أنه بلغ من الحكمة حداً جعله يرى جميع الأشياء ولو كانت فى أطراف العالم ، مجرب يعرف كل شىء ومطلع على جميع الأسرار . فقد كشف الغطاء عما كان مغطى ، وجاء بأخبار الأيام التى كانت قبل الطوفان .

هذه الصفات جعلت الناس يحقدون عليه ، فهرعوا إلى « إشتار » يشكونه إليها ، أما الآباء فقالوا : إنه يسخر أبناءهم بالنهار والليل فى بناء الأسوار ، بينما الأزواج صرخوا قائلين : إنه لا يترك زوجة لزوجها ، أو عذراء لأمها . واستجابت « إشتار » إلى شكاياتهم ، وطلبت إلى الساحرة « أرورو » أن تمد يد المساعدة ، ولا يكون ذلك إلا بخلق ابن آخر لها ، يكون شبيها « لجلجميش » فى قوته وفتنته ، فيتشاجرا الاثنان ويشغلهما هذا النزاع عن البشر .

أتت « أرورو » بقطعة من طين بصقت عليها ، وتمتمت بتعاويذها ، وخلقت منها « انجيدو » رجلا له قوة الأسد ، وسرعة الطير . ولكن سرعان ما ظهر أن هذا الرجل لا يعبأ بصحبة الآدميين ، بل يهوى الحياة مع الحيوانات ، يرعى الأعشاب معهم ، ويلهو ويلعب بينهم ... تمر الأيام وتتعاقب السنون حتى رآه ذات يوم أحد الصيادين ، وعجب من أمره ، وحاول اقتناصه مرة بالفخاخ ، وأخرى بالشباك ، ولكن جهوده ذهبت سدى ، فلجأ الصياد إلى « جلجميش » يحدثه بما رأى ، ويطلب إليه النصح والمعونة . فنصحه هذا بأن يأخذ امرأة جميلة ، ويرجع إلى مكان « انجيدو » ، « فإذا ما جاءت الوحوش إلى مورد الماء لتستقى ، فلتكشف المرأة عن جمالها ، وإن نجحت فى أن توقعه فى حبها ، فسوف تنفض عنه الوحوش » .

نفذ الصياد هذه النصيحة ، ونجحت المرأة فى غواية « أنجيدو » ، الذى بقى معها ستة أيام وسبع ليال ، وما كاد يفيق بعدها إلى نفسه ، حتى رأى أصدقاءه من الحيوانات قد انفضت عنه وهجرته ، فحزن حزنا كاد يقضى على حياته ، إلا أن المرأة تغلبت عليه بحديثها الحلو ، وأقنعته فى آخر الأمر أن يذهب معها إلى « جلجميش » فى « أوروك » ، قائلة له :

« أنت يامن بلغت عظمة الآلهة ، كيف يروق لك أن تحي بين هذه الوحوش الضارية ؟ تعال معى إلى « أوروك » حيث يعيش « جلجميش » الرجل القوى الذى لا يدانيه أحد فى جبروته » .

أعجبت الفكرة « انجيدو » ، وقال للمرأة : « أرينى المكان الذى يعيش فيه « جلجميش » لأذهب إليه وأقاتله ، وأظهر له قوتى » ... تقاتل الاثنان ، وكان قتالهما مريراً ، ولكنه انهى بانتصار « جلجميش » ، الذى يسعى بعد ذلك ليكتسب صداقة « انجيدو » بعطفه وشفقته عليه . وهكذا أصبح الاثنان صديقين حميمين ، يخرجان جنبا إلى جنب فى الحروب ، ويقاتلان ببسالة تكسبهما النصر ، ويرجعان ظافرين بعد أن يقوما بأجل الأعمال .

لاحظت « إشتار » الأعمال الجليلة التى يقوم بها الصديقان ، ويسترعى نظرها جمال « جلجميش » وقوته العظيمة ، وسرعان ماتقع هى فى حبه وتفضى إليه به ، وتطلب اليه أن يبادلها إياه ، ولكنه يرفض ويذكرها بما جنته على عشاقها الكثيرين ، وما ألحقته بهم من أضرار ، وتلح « إشتار » ، وكلما زاد إلحاحها ، أصر « جلجميش » على الابتعاد عنها . وهنا ينقلب حبها إلى بغض وحقد ، وتسعى جاهدة للانتقام الذى نفذته ، ليس فيه ، بل فى صديقه « انجيدو » ، وذلك بأن أصابته بداء عضال ، الموت هو نتيجته المحتومة .

فيحزن « جلجميش » ويبكى صديقه الحميم . ويأخذ يفكر فى طريقة ينجى بها « انجيدو » من الموت ، وعندئذ تذكر جده الأكبر « شمش — نيشتين » ، الذى نجا من الطوفان ، ولم يذق طعم الموت ، فهو الوحيد الذى يعرف سر الخلود .

وتستطرد القصة فى وصف الأهوال والمخاطر التي يلاقيها « جلجميش » حتى يصل إلى الجزيرة التى يسكنها « شمش — نيشتين » المخلد أبد الدهر . وكانت آخر مرحلة اجتازها هى أربعين يوما ، عبر فيها بحراً تنتابه الأعاصير والعواصف . ويتقدم حتى يعثر على ضالته ، ويطلب إليه أن يهديه إلى سر الخلود . وهنا يرد عليه الإله الخالد بأن يقص قصة الطوفان ، وكيف ابقت الآلهة عليه هو وزوجته ، بعد أن ندمت على فعلتها ، من تدمير البشر وإهلاكهم . وفى آخر الأمر يقدم إلى « جلجميش » نباتا يكتسب من يأكل ثماره الخلود فى الحياة . فيسعد بهذه الهدية ، ويسرع إلى صديقه « انجيدو » لينقذه من الموت . إلا أنه فى طريق عودته ، توقف بجانب غدير من الماء ليستحم ، فإذا بأفعى تخرج عليه من جحرها ، وتسرق منه النبات ، وتختفى من حيث أتت .

يحزن « جلجميش » لهذا ، ويتابع السير الى « أوروك » مهموما ، ويأخذ بالطواف على معابد الآلهة يسألها أن تمن على « انجيدو » بالحياة ، وإذا لم تستطع هذا ، فلتردها إليه ، ولو لفترة قصيرة ، حتى يتمكن من سؤاله سؤالا واحدا . فتستجيب الآلهة لدعوته ويسارع « جلجميش » بسؤال صديقه عن حال الموتى ، فيجيبه قائلاً : « لا أستطيع الإجابة ، لأنى لو فتحت الأرض أمامك ، ولو أخبرتك بما أنا فيه لغشى عليك » ، ولكن « جلجميش » يصر على طلب الحقيقة ، ويأخذ « انجيدو » فى وصف أهوال الجحيم ، وهكذا تنتهى هذه الملحمة الرائعة .

* * *

الدولة الكاشية

لقد قلنا فيما سبق : إن دولة بابل الأولى ، سقطت على أيدى غزاة جدد أتوا إليها من بلاد الأناضول ، وهم الذين ظهروا فى التاريخ تحت اسم «الحيثيين» . قادهم ملكهم « مورسيل الأول » ، وهاجم بابل ودمرها بعد أن سلب كنوزها . إلا أن هذا العدو لم يستطع البقاء فى البلاد لمدة طويلة ، إذ وقف له بالمرصاد ملوك دولة البحر الجنوبية ، التى قلنا إنها نشأت فى منطقة دلتا الدجلة والفرات ، المتاخمة للخليج الفارسى ، والتى تمكنت من أن تستقل مباشرة بعد موت « حامورابى » . ولقد استطاعت هذه الدولة أن تمد نفوذها نحو الشمال ، وأن تطرد الحيثيين ، وتكون فى التاريخ ما نطلق عليه « دولة بابل الثانية » .

ولكنه حدث ابتداء من عام ١٧٦٠ق.م أن أخذت جموع متتالية من رجال القبائل الجبلية ، التي تسكن الجبال الشامخة الواقعة شرقى نهر دجلة ، فى الهبوط إلى السهول ، ومهاجمة بلاد بابل ، واستطاعوا فى آخر الأمر أن يكونوا دولة قوية عرفت فى التاريخ باسم « الدولة الكاشية » ، أو دولة « بابل الثالثة» ، دام حكمها ما يقرب من ستة قرون (١٧٥٠ ق . م إلى ١١٧٠ ق م) .

اقتبس « الكاشيون » الحضارة البابلية ، وساروا فى حكمهم على أسسها ، ولم يدخلوا جديدا فى حضارة البلاد اللهم إلا إدخالهم تربية الخيول ، وصناعة الحديد . وعندما استقرت لهم الأمور ، أخذوا يوسعون نطاق نفوذهم نحو الجنوب ، ولم يلبثوا أن هاجموا دولة البحر وهزموها ، وبذلك استطاعوا لفترة قصيرة من أن يفاخروا بتأسيس دولة شملت كل بلاد العراق القديم ، جنوبها وشمالها .

ويجدر بنا هنا أن نبرز حقيقة تاريخية ، كان لها أكبر الأثر فى توجيه السياسة العالمية ، إبان هذه الفترة التى تبدأ من القرن التاسع عشر قبل الميلاد . وتمتد حتى القرن السادس عشر قبل الميلاد . لقد حدث إبان هذه الفترة هجرات واسعة النطاق بين الشعوب الجبلية عامة ، التى تسمى الشعوب « الهندية أوروبية » ، وهى التى كانت تسكن أواسط وحول بحر قزوين .

هذه الشعوب أخذت تتحرك نحو الغرب فى أرجال كثيفة ، باحثة عن أوطان جديدة ، محاربة ومقاتلة كل من تجده أمامها فى تحركها ، ولقد سموا بأسماء مختلفة ؛ فمنهم « الكاشيون » السالفو الذكر ؛ ومنهم « الخوريون » الذين تقدموا نحو الغرب ، وأخذوا يستقرون فى بلاد الأناضول ، وظهروا فى التاريخ تحت اسم « الحيثيين » ؛ ومنهم أيضا من استقر فى المناطق الشمالية من بلاد العراق المتاخمة لإيران ، وعرفوا فى التاريخ باسم الأشوريين . ثم منهم « الميتانيون » الذين استقروا فى المناطق الواقعة جنوبى الأناضول ، وتمتد شرقا إلى أعالى الفرات ؛ وأخيرا منهم أولئك الذين استمروا فى التحرك نحو الجنوب ، وهاجموا مصر حوالى عام ١٧١٠ ق . م وعرفوا فى التاريخ باسم « الهكسوس » .

وهكذا نرى أن بلاد الشرق القديم ، كانت تجتاحها الغزوات ، وتسودها القلاقل ، وظهرت دول فتية جديدة أخذت تناضل وتسعى ليكون لها علم القيادة ، ولكنها لا تلبث أن تختفى وتحل محلها قوى جديدة ، وأصبحنا غير قادرين على أن نصوب الأنظار نحو أمة واحدة ، تلعب دوراً رئيسيا على المسرح السياسى . وبذلك نستطيع القول بأن القوى التى حاولت السيطرة على العالم القديم ، والتى أخذت تناضل لتفنى غيرها وتبقى هى ، إبان القرنين الثامن عشر والسابع عشر هى :

١ — دولة البحر فى الدلتا الجنوبية للعراق ، المتاخمة للخليج الفارسى .

٢ — دولة الكاشيين ، التى نعتبرها الوارثة لدولة بابل على نطاق ضيق .

٣ — دولة الآشوريين ، التى جاهد ملوكها فى أول الأمر لينفصلوا سياسيا عن دولة الكاشيين ، ولكنهم وقعوا تحت سيطرة دولة الميتانيين ، وأخيرا استقلوا تماما فى أواخر القرن الخامس عشر ، واستطاعوا الاشتراك فى توجيه السياسة العالمية إذ ذاك .

٤ — دولة الميتانى المنافس الأول للحيثيين ، ثم المصريين فى السيطرة على العالم القديم ، طوال القرنين السادس عشر والخامس عشر قبل الميلاد .

٥ — دولة الحيثيين التى تكونت فى بلاد الأناضول ، واستطاعت القضاء على دولة حامورابى ، والسيطرة على شمال العراق وسوريا ، ثم كونت لنفسها امبراطورية واسعة النطاق ، إبان القرنين الثالث عشر والثانى عشر قبل الميلاد .

٦ — دولة الهكسوس فى مصر التى ظهرت فى القرن السابع عشر ، ولم تلبث أن اختفت فى منتصف القرن السادس عشر قبل الميلاد ، وشيد المصريون بعدها إمبراطورية سيطرت على أكثر مناطق العالم القديم ، واستمرت قرونا طوالا بين مد وجزر .

٧ — أما عيلام ، وهى الدولة التى لعبت دوراً كبيراً فى مصير العراق القديم ، فكانت قد استسلمت لحامورابى ، وضعفت ، ولم تستيقظ وتعيد لنفسها قوتها إلا فيما بعد .

وما دام الإطار الذى رسمناه لأنفسنا هنا ، لا يتعدى الحديث عن بلاد العراق القديم ، تاريخها وحضارتها ، فمن الواجب علينا أن نلتزم هذا الإطار ، ونبدأ الحديث عن الأشوريين ، تاركين الكاشيين فى نضالهم المستمر مع جيرانهم ، محاولين المحافظة على كيانهم السياسى ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا ، حتى انتهى أمرهم عام ١١٧٠ ق . م بغزوة قوية ، وجهها العيلاميون نحوهم ، وكونوا فى البلاد أسرة جديدة تعرف باسم أسرة « باشى » ، وهى تعتبر فى تاريخ العراق بمثابة الدولة الرابعة لبابل ، واستمرت تحكم البلاد حتى عام ١٠٤٠ ق م . ولعل أشهر ملوكها هو « نبوخذ نصر » الذى أراد أن يمد نفوذه نحو الشمال ، فألقى عليه الملك الأشورى « أشور — ريش — — ايشى » درسا قاسيا ، وهزم « نبوخذ نصر » هزيمة منكرة ، وأخذت بابل بعد ذلك تضعف وتضمحل ، وتزاحمت عليها القبائل المهاجرة ، وتكونت فيها مواطن جديدة ؛ أهمها موطنان جديدان ، إذ استقر « الأراميون » على ضفة دجلة الشرقية وشمال بابل . كما سكن « الكلدانيون » أسفل الفرات . وأخيرا وقعت بلاد العراق بأسرها تحت النفوذ الآشورى ، واعتلى الملك الآشورى « تجلات بيلاسر الثالث » عام ٧٢٩ ق . م عرش بابل .

آشـــور

ليس من شك فى أن مركز الثقل فى التاريخ العراقى القديم ، انتقل بعد انهيار دولة « حامورابى » إلى الشمال ، أى إلى موطن الآشوريين .

يقع موطن الآشوريين فى المناطق الواقعة على جانبى نهر دجلة من خط العرض ٣٧ شمالا ، إلى مصب نهر « العظيم » جنوبا . تحف بها الجبال الشاهقة من الشمال والشرق . أما الحدود الجنوبية ؛ فكانت المستنقعات المنتشرة قرب مصب نهر « ديالى » ، أما فى الغرب ؛ فكانت الحدود لا تتميز بأى عقبات طبيعية ، إذ كانت السهول تمتد نحو الفرات ومنطقة الخابور .

إن اسم « الآشوريين » مشتق من كلمة « أشور » ، الاسم الذى أطلقوه على إلههم القومى ، ثم على أقدم مدنهم . والنصوص القديمة تنطق هذا الإسم بدون تشديد حرف الشين ، غير أن الآشوريين فى العصور المتأخرة شددوه ، فقالوا «آشوريو » (بإضافة ياء النسبة الأشورية المطابقة لمثيلتها فى اللغة المصرية) ؛ يريدون بذلك الشعب الآشورى .

لقد تمتعت بلاد أشور بموقع جغرافى ، جعل جوها بارداً يمتاز باعتداله طوال العام ، وبذلك اختلف عن الجو الحار الخانق ، الذى يسود بلاد بابل الجنوبية . وإذا كانت البيئة جبلية ، إلا أنها تميزت بوجود أودية خصبة التربة ، تمتد بين ثنايا الجبال الشرقية والشمالية، هذا غير المرتفعات الجبلية ، التى حوت محاجر زودت الناس بأنواع شتى من الأحجار ؛ لعل أهمها كانت أحجار المرمر والحجر الجيرى ، وبذلك قامت حضارة اختلفت أسسها عن تلك التى قامت عليها حضارة « السوميريين » ، حيث لم تعط البيئة سكانها سوى الطمى الذى لم يسمح الا بعمارة من اللبن .

قامت فى أشور ، منذ عصور مبكرة ، عدة مدن ، أخذت بالحضارة السوميرية ، ولقد عثر المنقبون فى المكان الذى تقوم فيه مدينة « أشور » على مخلفات مدينة أخرى ، ترجع إلى عصر الألف الثالث قبل الميلاد ، سكانها من السوميريين ، غير أن المنطقة كانت عرضة لاستقرار كثير من القبائل السامية . أما السكان الأصليون فهم ، ولا شك ، ينتمون إلى الجنس الذى انتمت اليه القبائل « الهندية أوروبية » .

لقد عاشت المدن الأشورية كدويلات صغيرة ، متأثرة بالحضارة السوميرية ، وتسيطر عليها القوى التى سيطرت سياسيا على الجنوب ، فقد خضعت هذه الدويلات الأشورية للأكديين ، ومن بعدهم للجوتيين ، ثم انضموا إلى دولة أور الثالثة ، وهلم جرا .

إلا أن قرب هذه البلاد من مناطق نفوذ الحيثيين ، جعلهم على اتصال دائم بهم ، غالبا ما كان على أساس العلاقات التجارية ، إلا أنه حدث أيضا أن تمكن الحيثيون من السيطرة على « آشور » ، وإدخال عناصر مختلفة من مظاهر حضارتهم إليها ، ولكن لا يلبث أهل الجنوب من أن يسرعوا لنجدتهم ، كما حدث فى عصر « سرجون » الأول ، أو « حامورابى » . وهكذا استمرت هذه المنطقة أكثر من عشرة قرون فى مهب الريح ، لا تعرف راحة ، ولم تذق طعم الطمأنينة ؛ فالخطر يحيق بهم من كل جانب ، تارة يأتيهم من الجنوب حيث جيرانهم الأقوياء أصحاب الحضارة المتفوقة ، وتارة أخرى من الغرب ، أى من الحيثيين ثم الميتانيين ، ثم أخيرا من الشرق حيث تعيش القبائل المتبربرة فى الجبال ، أولئك الذين عرفهم التاريخ تارة تحت اسم « الجوتى » ، وأخرى باسم « الكاشى » ، ثم « الخورى » . ومن أجل هذا ، نجد الأشوريين فى عالم يحيط به الخطر من كل جانب ، وكان عليهم أن يقاوموا ، ويقاوموا حتى لا يستسلموا ، فحذكوا القتال ، وجعلوا منه وسيلتهم للمحافظة على كيانهم . ولعل أشور هى الأمة الأولى التى عرفت قيمة الجيوش القائمة ، بل وقامت حياتهم على النظم العسكرية ، ولذلك نراهم عندما ظهروا فى التاريخ كأمة متماسكة الأطراف ، قد برزوا وتفوقوا فى نظامهم ، وتماسكوا ، ولم يفشلوا فى تاريخهم السياسى بالسرعة التى رأيناها بالنسبة إلى الدول التى قامت فى الجنوب ، والتى عاشت وامتدت أطرافها تحت حكم ملك معين من ملوكها ، ثم لا تلبث أن تتفكك وتتلاشى بموته .

ونظرا لأن « آشور » تقع جغرافيا بين بلاد الشرق من ناحية ، وآسيا الصغرى الغنية بمعادنها من ناحية أخرى ، فإنها اضطرت أن تتعامل بين الفريقين ، ولم تلبث أن أصبحت مركزا تجاريا مهما . وكان الأشوريون قد تعلموا شئون التجارة والتبادل من اختلاطهم الطويل بالبابليين . فنراهم وقد استقر تجارهم فى مناطق مختلفة من بلاد الأناضول ، وخاصة فى المنطقة الغنية بمعادنها ، وهى « كبادوشيا » ، ولقد كشفت أعمال الحفر والتنقيب التى حدثت فى هذه المنطقة ، عن ظهور أعداد وافرة من الألواح الطمية ، التى تحمل كتابات بالخط الأسفينى ، هى عقود بيع وشراء بين التجار الأشوريين وبين أهل البلاد . وبعض هذه الألواح ترجع إلى العصر الذى كانت فيه دولة « سرجون » الأكدى فى أوج عظمتها .

وليس من شك أن هؤلاء التجار الأشوريين كانوا هم الوسطاء الذين حملوا معهم حضارة بابل إلى أهل أسيا الصغرى المتبربرين ، وعن هذا الطريق وصلت هذه الحضارة بعينها إلى المناطق الواقعة جنوبى أوروبا الشرقية .

الحقائق التاريخيـة :

يقسم المؤرخون تاريخ هـذه البلاد إلى حقبتين : تمتاز الأولى ، وهى التى تمتد من حوالى عام ٢١٠٠ إلى ٩٠٠ ق . م . ، بفترة نضال عنيف ، تـكون فيها الأشوريون تـكوينا سياسيا وعسكريا ، وهى فترة طويلة تعرض فيها الآشوريون إلى محن وأخطار خلقت منهم القوة العسكرية التى سجلها لهم التاريخ على صفحاته ، أما الحقبة الثانية وتمتد من عام ٩٠٠ إلى ٦١٢ ق . م . فهى تمثل طور النضج السياسى ، بعـد أن اجتاز الآشوريون محنهم ، واستقرت لهم الأمور ، وأسسوا إمبراطورية واسعة الأطراف امتازت بطول عصرها ، وتفوق الأنظمة الإدارية التى اتبعوها لإقرار سيطرتهم ، وذلك بالنسبة إلى الإمبراطوريات التى ظهرت على أيدى رجال خرجوا من البيئة الجنوبية .

وعدا هـذا ، ينقسم تاريخ أشور الطويل إلى ست فترات ، سنصطلح على تسميتها « أسرات » ، وسنتحدث بإيجاز فى السطور الآتية عن أهم أحداثها :

الأسرة الأولى :

فى أوائل القرن الحادى والعشرين ، قبل الميلاد ، انهمكت بعض المدن الجنوبية فى حروب متتالية ، وعلى رأسها مدينتا « ايسين » و « لارسا » ، وذلك على أثر سقوط أسرة أور الثالثة . انتهز هذه الفرصة « بزر — أشور » الأول (٢١٠٠ — ٢٠٧٥ ق . م) أمير مدينة « أشور » ، وأخذ يوسع نطاق دويلته بضم بعض المدن الصغيرة المجاورة له إلى سلطانه ، ونجح فى ذلك ، وحذا حذوه من بعده ابنه « شالم أخم » ، ثم خلفه « إيلو شوما » الذى نجح فى أن يحقق لنفسه نصرا كبيرا ، وخاصة بعد أن حارب الملك « سمو — أبوم » أول ملوك دولة بابل الأولى ، وصمد أمامه ولم ينهزم ، وبذلك استطاع أن يسيطر على أكثر المدن الأشورية .

خلف « ايلوشوما » ملـكان ، ثم أعقبهما ابن الأخير ، وعرف باسم « سرجون » ؛ وكان من أشهر ملوك هذه الأسرة ، ومن الملوك البارزين فى التاريخ الآشورى ، وبقيت شهرته قائمة حتى إن الأجيال التالية من شعبه حرصت على أن تسبق اسمه بعلامة التأليه .

خلف « سرجون » ملوك ضعاف لم يلبثوا أن خضعوا لدولة بابل ، واستطاع «حامورابى » أن يسيطر على أشور ، ويجعل منها جزءاً رئيسيا من امبراطوريته .

الأسرة الثانية:

انهز الأشوريون سقوط دولة بابل الأولى ، بعد موت « حامورابى » ، وأعلنوا استقلالهم تحت امرة ملك منهم ، اسمه « شمسى أداد » الثانى ، الذى كان واسع الأطماع ، مشهورا بالحكمة وقوة البأس . فأخذ يوسع نطاق نفوذه ، ويمد سلطانه حتى وصل إلى البحر المتوسط . ولقد وصلت الينا بعض اللوحات الطينية من عصره ، ذكر علها أنه فتح بلاد أرمينيا ، ووصل غربا إلى البحر العظيم (البحر المتوسط) وأنه جعل من آشور مدينة عظيمة .

لم تستطع أسرة أشور الثانية أن تحافظ على كيانها ، ليس فقط لأن خلفاء « شمسى — أداد » الثانى كانوا ضعافا ، بل لأن القوية الفتية التى أخذت تسيطر على المركز السياسى الأول فى الشرق القديم ، حالت دون ذلك . فقد أخذ جيران الآشوريين فى الغرب ، أى « الميتانيون » ، يتجهون بأطماعهم نحو الشرق ، ويطمعون فى « آشور » نفسها ، وذلك بعد أن أصبحوا دولة غنية قوية فى القرن الخامس عشر قبل الميلاد . وانتهى الأمر بأن هاجم أحد ملوك الميتانيين ، المدعو « سوشتار » ، العاصمة الأشورية نفسها ، واستولى عليها . بل أكثر من هذا ، تأتينا الأخبار من مصر ؛ أن الملك « امنحوتب الثالث » قد استعان بحليفه الملك الميتانى « دوشراتا » ، عندما أصيب الأول بمرض عضال ، فى أن يرسل الثانى تمثالا للإلهة « اشتار » الأشورية إلى العاصمة المصرية ، حتى تساعد بسحرها على ابلال الفرعون المصرى .

الأسرة الثالثة :

استمرت بلاد أشور تابعة للنفوذ الميتانى ، حتى تمكن أحد رجالها ، وهو الملك « أريبا أداد » من جمع الكلمة حوله ، وتمهيد الطريق للفوز باستقلال البلاد ، والخروج بها عن نطاق النفوذ الميتانى ، ومات قبل أن يصل إلى بغيته ، ولكن ابنه « أشور أوباليط » (١٣٦٢ — ١٣٣٧ ق . م) ، استطاع أن يفوز بهذا الهدف ، واستقل ببلاد أشور بعد أن اشتبك فى حرب مع الملك الميتانى « أرتاتاما » الثانى وانتصر عليه . وكان هذا الانتصار فاتحة عهد جديد ، سارت إبانه البلاد قدما نحو الرخاء والتوسع . وأخذ بعد ذلك الملك الأشورى يتدخل فى شئون بابل ، وانتهى الأمر به أن عين على عرش بابل أحد الموالين له ، وهو « كوريجالزو » الثالث .

جلس على العرش الأشورى بعد « أشور أوباليط » ، ابنه « انليل نرارى » ،

الذى شعر بمحاولات الملك البابلى للتخلص من النفوذ الآشورى ، فجرد حملة تأديبية ضد بابل . وانتصر عليها ، وأبقاها تحت سيطرته .

تتابع الملوك على عرش أشور ، وكان هدف كل منهم أن يحافظ أولا على حدود دولته ، ثم أن يوسع نطاق نفوذه ثانيا ، ولعل أعظمهم كان الملك « شالمنصر » الأول (١٢٦٦ — ١٢٤٣ ق . م) ، الذى قام بعدة حملات ناجحة نحو الشرق ، ثم بعد ذلك نحو الغرب ، وانتصر فيها انتصارات باهرة . وعند ما استقرت الأمور له ، أخذ يشيد عاصمة جديدة للمملكة ، هى مدينة « كالح » (نمرود الحالية) .

أخذت أشور بعد ذلك تعانى ضعفا سياسيا ، كان نتيجة لبعض الاضطرابات والقلاقل التى حدثت فى داخل البلاد نفسها ، ثم لظهور أسرة جديدة فى بابل بعد انتهاء العصر « الكاشى » ، إلا أن الظروف ساعدت أشور عندما تولى شئونها رجل قوى ، هو « أشور — رش — ايشى » ، دافع عن حدودها ضد هجمات الملك البابلى « نبوخذ نصر » وهزمه هزيمة منكرة ، ثم خلفه « تاجلات بيلاسر » الأول ، الذى تمكن بشجاعته وقوة عزيمته أن يجعل من مملكته امبراطورية ، امتدت غربا حتى شواطىء البحر المتوسط ، وغربا حتى ضمت بلاد أرمينيا .

خلف « تاجلات بيلاسر » أحد عشر ملكا ، بلغوا حدا من الضعف والاستكانة ، جعل الانحلال يدب فى جسم « أشور » ، ولم يستطيعوا الصمود أمام هجمات الأراميين القوية ، وانتهى الأمر بأن أصبحت سلطة الدولة الأشورية ، لاتتعدى المدن الأشورية نفسها .

وانتهت الأسرة الثالثة وأشور ضعيفة منكمشة ، وبانتهاء هذه الاسرة أيضا ، انتهى الدور الأول من تاريخ أشور .

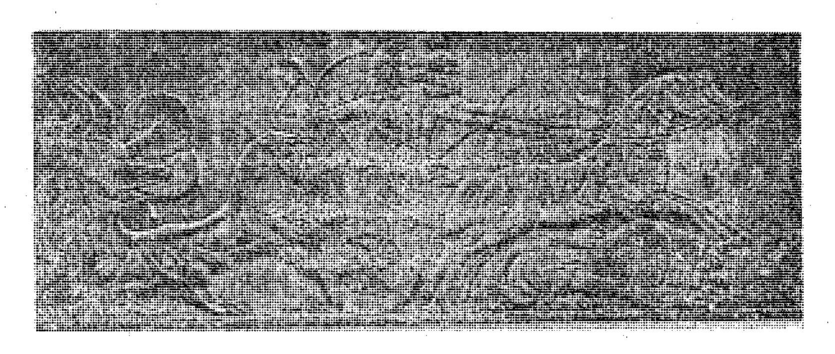
الأسرة الرابعة :

لعل الشدائد والمحن التى عانتها أشور فى أواخر عهد ملوك الأسرة الثالثة ، كانت بمثابة الدافع القوى لشحذ الهمم ، وصقل الجهود ، لاستعادة المجد القديم . وقام أحد ملوكهم المدعو « أشور دان » بتحضير الشعب الأشورى للدفاع عن كيانه ، والاحتفاظ بالبقية الباقية من مملكته . وخلفه ابنه « اداد نرارى » الثانى (٩١١ — ٨٩٠ ق . م) الذى حقق حلم أبيه ، وتمكن من أن يعلن سيطرته على جميع أطراف بلاده ، وإعادة قوة أشور إلى سابق عهدها ؛ وذلك بعد فترة من الاضمحلال دامت مايقرب من قرنين .

اللوحة الثامنة عشرة :



تمثال الملك « أشور — ناصر — بعل » الثانى .



منظر يمثل الملك « أشور — ناصر — بعل » الثانى ممتطيا عربته وهو فى رحلة لصيد الأسود

وكانت أول أعمال هذا الملك ، بعد أن استقرت له الأمور ، هو القضاء على الخطر « الأرامى » ، ثم اتجه نحو دولة بابل فى الجنوب ، وانتهت معاركه معها بأن اتفقا على تعيين الحد الفاصل بين الدولتين .

ولقد شعر ملوك هذه الأسرة أن سياستهم الخارجية يجب أن تقوم على فرض السيادة الأشورية ، دون تردد أو تلكؤ ، على جميع الأراضى المجاورة لهم ، ولكى يتحقق هذا الهدف ، أخذوا يشنون الحملات المستمرة على المناطق الجبلية الواقعة إلى الشمال والشرق منهم ؛ حيث تقطن القبائل الجبلية المتمردة ، والمحبة للقتال ، والتواقة إلى الحروب ؛ وذلك لتشتيت شملهم والحد من تكتلهم . ثم وجدوا فى نفس الوقت ، أنه من الواجب عليهم المحافظة على سلامة الطرق التجارية والعسكرية ، الممتدة بين بلاد أشور ، وبين بلاد الشرق القديم المتاخمة لهم ، وكان أهم هذه الطرق ، هى تلك التى تمتد شمالا إلى جبال « طوروس » ، وتخترقها إلى « كبادوشيا » ، ثم الطريق الذى يربط العراق بسوريا ويتصل بالبحر المتوسط . وكانت هذه الطرق لا يمكن تأمين سلامتها ، إلا بالسيطرة على الأراضى التى تخترقها

وضع هذه السياسة « اداد نرارى » الثانى ، وحذا حذوه فيها الملوك الذين خلفوه . ولعل أبرزهم فى مجهوداته الحربية كان « أشور ناصر بعل » الثانى (٨٨٤ — ٨٥٩ ق . م) ، الذى ترك لابنه إمبراطورية واسعة الأطراف ، فقام هذا الابن « شلمناصر » الثالث (٨٥٩ — ٨٢٤ ق . م) بتوطيدها وتوسيعها ، وكان حكمه الذى دام خمسا وثلاثين سنة ، عبارة عن سلسلة من الحملات الحربية ، جعلته سيد آسيا الغربية المتوج ، إذ امتدت إمبراطوريته من الخليج الفارسى جنوبا ، إلى أرمينيا شمالا ، ثم امتدت غربا إلى البحر المتوسط ، شاملة بلاد سوريا وفلسطين . بل أعد عدته لمهاجمة مصر ، وكاد يصل إلى حدودها ، لولا أن قامت ثورة عنيفة فى بلاده ، بسبب طمع أحد أبنائه المدعو « أشور دانن — أبلا » فى العرش ، ودامت هذه الثورة ما يقرب من ست سنوات ، وكادت تقضى على كيان الإمبراطورية ، ومات شلمناصر قبل القضاء عليها ، وخلفه ابنه الثانى المدعو « شمسى اداد » الخامس ، الذى نجح فى القضاء على الثوار ، والقبض على ناصية الأمور . إلا أنه لم يستطع أن يستعيد مهابة دولته فى البلاد التابعة لها ، وأخذت الإمبراطورية تتقلص رويدا رويدا . وخلفه على العرش ابنه « أداد نرارى » الثالث ، الذى تولى شئون الدولة وهو فى سن الطفولة ، فتولت شئون الوصاية أمه « سمورمات » التى ورد ذكرها فى كثير من الأساطير اليونانية ، تحت اسم « سميراميس » . واستمر

الضعف الشامل يدب فى أوصال الإمبراطورية الأشورية ، وانتهت الأسرة الرابعة بالملك « أشور نرارى » الخامس ، الذى قامت فى عصره ثورة أطاحت به عام ٧٤٥ ق . م . وانتقل الحكم إلى أسرة جديدة .

الأسرة الخامسة :

تولى شئون آشور رجل قوى شديد البأس والعزيمة ؛ هو « تاجلات بيلاسر » الثالث ، فعمل منذ أن جلس على العرش على أن يعد العدة لإعادة مجد أمته الذى ولى . ونحن لا نعرف شيئا عن علاقة هذا الرجل بمن سبقوه من ملوك حكموا آشور فى عصر الأسرة الرابعة ، ولعله اغتصب العرش معتمدا على قوة شكيمته ، ومنتهزا الضعف الذى حل فى الأسرة المالكة . ويهمنا أن نقرر هنا ، أن هذا الرجل قدنجح فى مهمته نجاحا بارزا ، إذ تمكن من أن يعيد آشور إلى قوتها السالفة ، بل بلغت إمبراطوريته حدوداً لم تكن قد بلغتها إمبراطورية آشور من قبل ، ومن أهم أعماله ما يأتى :

(أولا) أخضع الدولة البابلية التى كانت أخذت بدورها تضمحل وتتكاثر الأحداث عليها بعد أن غزاها « الآراميون » و « الكلدانيون » . فتمكن الملك الآشورى من ضمها إلى إمبراطوريته ، وأعلن نفسه ملكا عليها .

(ثانيا) تمكن أن يقضى على الحلف الذى أنشأته بعض دويلات سوريا وفلسطين بمساعدة المصريين ، وذلك لمناوأة النفوذ الآشورى ، منتهزين فرصة الاضمحلال الذى تفشى فى أواخر عصر الأسرة الرابعة .

(ثالثا) تمكن من أن يؤمن حدوده الشمالية ، ضد عزوات بعض القبائل الأرمنية ، التى كونت قوة فتية ، أخذت تحاول الاستيلاء على بعض أجزاء من الدولة الآشورية فى الشمال .

حكم « تاجلات بيلاسر » الثالث مدة ثمانية عشر عاما ، قضاها كلها فى حروب مستمرة ، وتمكن أن يترك إمبراطورية واسعة الأطراف لابنه « شلمناصر » الخامس (٧٢٧ — ٧٢٢ ق . م .) ، الذى حذا حذو أبيه ، ونصب نفسه ملكا على بابل ، ثم أسرع إلى فلسطين ليقضى على محاولة قام بها « هوشع » ملك إسرائيل ، بتحريض من المصريين ، ليتخلص من السيطرة الآشورية .

وحاصر « أورشليم » مدة ثلاثة أعوام ، إلا أنه حدثت بعض المؤامرات فى آشور نفسها حول العرش ، فاضطر إلى الإسراع إليها ، حيث قتل ، ولم يمض على حكمه خمس سنوات . وانتقل الحكم إلى رجل لا نعرف عن أصله شيئا ، هو « سرجون » الثانى ،

اللوحة التاسعة عشرة :



نقش بارز يمثل إلها مجنحا على هيئة بشرية وقد قبض بيده اليسرى على صندوق صغير له حامل، وبيده اليمنى على آنية صغيرة . هذا النقش من العصر الأشورى وقد رسم على جانب البوابة الكبرى المؤدية إلى داخل القصر الملكى .

ومن أجل هذا ، يميل المؤرخون إلى تسمية أسرة «سرجون» بالأسرة «السرجونية» ، على أساس أن مؤسسها لا يمت بصلة إلى الأسرة الخامسة ، وسوف نتحدث عنها على أنها الأسرة السادسة .

الأسرة السادسة :

« سرجون الثانى » (٧٢١ — ٧٠٥ ق . م .) : لقد كانت الأحداث تجرى بسرعة فى أوائل حكمه ، إذ قامت الثورات فى أجزاء كثيرة فى إمبراطوريته ، وكلها تهدف إلى الانفصال عن السيطرة الآشورية ، ولولا قسوة هذا الرجل وعبقريته العسكرية الفذة ، لانهارت الإمبراطورية ، ولكن الظروف ساعدت أشور بأن يتولى شئونها هذا الرجل ، فقلب الإضمحلال إلى ازدهار ، والتفكك إلى وحدة لم تشهد أشور لها مثيلا ، وتتلخص أعماله الحربية فيما يأتى : —

(أولا) ظهر فى بابل رجل ثائر خطير هو « مردخ بلادان » استطاع أن يستنجد بجيرانه « العيلاميين » ، ويفوز لبلاده باستقلال أخرجها من نطاق النفوذ الأشورى ، وحاول « سرجون » تأديبه وإرجاعه إلى حظيرة الإمبراطورية ، ولكنه لم ينجح فى أول محاولة . واضطر أن يتركه وشأنه ما يقرب من عشرة أعوام ، ثم أعاد عليه الكرة ، بعد أن أعد العدة لذلك ، وهزمه وقتله ، وشتت شمل أسرته ، ونصب نفسه ملكا على بابل .

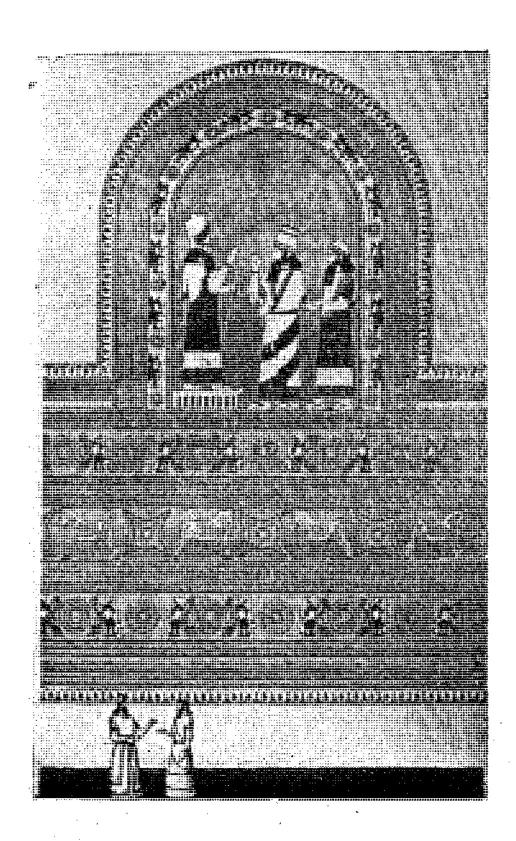
(ثانيا) شن « سرجون » الثانى حملات متتالية على دولة الحثيين فى الأناضول ، واستطاع أن يبسط نفوذه على كل المناطق منها المتاخمة لبلاده . ولقد ارتاع لانتصاراته هذه أهل قبرص ، فسارعوا إليه حاملين هداياهم ، واعدين بأداء الجزية السنوية ، بل نراهم يقيمون نصبا تذكاريا فى جزيرتهم ، نقشوا عليه اسم هذا الملك مع عبارات التجلة والولاء .

(ثالثا) هاجم « سرجون » الثانى مملكة « أرمينية » ، وقضى على كل احتمال غزو يأتيه منها إلى سنوات عديدة .

(رابعا) شعر الملك الأشورى بالجهود التى تبذلها مصر ، لتأمين حدودها ضد الغزو الأشورى المرتقب ، وذلك بإقامة بعض الأحلاف مع أمراء وملوك دويلات سوريا وفلسطين ، فسارع الخطى إلى أورشليم ، وهزم الجيش المصرى الذى كان قد أرسله « طهارقا » لمساعدة ملكها ، ثم استمر فى زحفه حتى وصل إلى رفح ، أى إلى الحدود الشمالية الشرقية لمصر ، وهناك منى بهزيمة أرجعته عن متابعة السير إلى الدلتا .

ومما يذكره التاريخ عن هذا الملك ؛ أنه تنقل بين أكثر من عاصمة واحدة . فقد

اللوحة العشرون :



مناظر مرسومة تحلى جدران قصر « سرجون الثانى »

استقر فى أوائل حكمه فى مدينة آشور ، ولكنه لم يلبث أن انتقل إلى مدينة « نمرود » ، ولم ينتصف حكمه حتى اتخذ من « نينوى » عاصمة له ، ولكنه أخذ يشيد عاصمة جديدة فى السنة التاسعة من حكمه ، سماها « دور شروكين » ، وتقع إلى الشمال الشرقى من « نينوى » ، أى بالقرب من « خورسباد » الحالية . وبلغ اتساع هذه المدينة ١٧٦٠ × ١٦٧٥ مترا مربعا ، وجعل عرض الطريق الموصول إلى مدخلها ١٤ مترا ، كما أحاطها بسور سميك مرتفع ، تتخلله أبراج شاهقة ، يزيد عددها على ١٥٠ برجا ، كما أن أبواب هذا السور بلغت ثمانى بوابات متسعة ، أطلق على كل منها اسما من أسماء آلهة أشور . وكان يتخلل هذه المدينة شوارع مستقيمة ومتعامدة ، وأقام لنفسه قصرا منيعا ، يقع فى الجزء الغربى منها ، مشيدا اياه على الطراز البابلى .

أكمل سرجون بناء عاصمته الجديدة فى مدة سبع سنوات (٧١٣ — ٧٠٦) إلا انه لم ينعم بالحياة فيها إلا سنة واحدة إذ مات عام ٧٠٥ ق . م . ولم تكن قد اكتملت فى بعض أجزائها ، كما أنها لم تسعد فى أيام خلفائه إذ هجرها ابنه ورجع إلى نينوى استرضاء للكهنة الذين كانوا ناقمين على « سرجون » ، لتخليه عن العاصمة القديمة ، وبلغ من نقمتهم عليه ، أنهم امتنعوا عن القيام بالطقوس الدينية اللازمة عند دفن جثة الملك الراحل ، فاضطر « سناحريب » بن « سرجون » أن يسترضيهم بشتى الطرق ، حتى يتمكن من دفن أبيه .

لقد كشف معول الحفار عن آثار هذه المدينة الكبيرة ، التى لم تعمر بسكانها إلا فترة سبعة أعوام ، وأصبحنا الآن قادرين على التعرف على مدى ماوصل إليه فن البناء والنحت ، وصناعة الخزف ، وسبك المعادن فى هذا العصر من تقدم ورقى .

«سناحريب» (٧٠٥ — ٦٨١ ق . م) :

لقد تدرب على شئون الحكم فى عهد أبيه ، إذ كان قد تولى عدة مناصب إدارية وعسكرية ، قبل أن يتولى العرش الأشورى .

لقد بدأ حكمه بخطرين كبيرين : أحدهما أتاه من ولايات سوريا وفلسطين ، وثانيهما من بابل . أما فى بابل ، فقد أخذ « مردخ بلادان » يعد العدة للاستقلال مرة ثانية ببلاده ، ومما ساعده على ذلك ، أنه عرف بوجود محاولات مشابهة بين ملوك دويلات سوريا وفلسطين بمساعدة مصر . فاتصل بهم ، وأخذ يقوى فيهم روح النضال ، ويرسل إليهم رسله ، ممنيا إياهم بمساعدته . وهدفه من ذلك أن تشتبك الجيوش الأشورية فى حرب فى هذه المنطقة ، وبذلك تواتيه الفرصة للقيام بثورة ناجحة . وفطن « سناحريب »

اللوحة الحادية والعشرون :



لوحة الملك « أشور — أخى — الدين » ويلاحظ أن يده اليسرى قد قبضت على صولجان كما أمسك بها حبلين يمتدان إلى عدوين جاثيين عند قدميه .

إلى هذه الحيلة ، وبدأ به تاركا سوريا وفلسطين لجولة أخرى . وسار إلى بابل بجيش كبير ، وهرب « مردخ بلادان » إلى المناطق الجنوبية ، فأرسل إليه « سناحريب » أسطولا قويا ، واستطاع أن يقضى على قوته ، وفى طريق عودته ، اضطر إلى محاصرة مدينة بابل ، التى كانت قد أعلنت العصيان مرة أخرى ، واستمرت محاصرتها أكثر من عام ، ولكنها فى آخر الأمر ، استسلمت ، بعد أن دك الملك الآشورى حصونها ، وخرب قصورها ، ودمرها تدميرا ، وعين ابنه « آشور أخى الدين » واليا على المناطق الجنوبية من العراق ، ليراقب أحوالها ، ويعالج عوامل الثورة فيها قبل أن تستشرى .

فى أثناء انهماك « سناحريب » فى معاركه فى مناطق جنوب العراق ، كانت مصر تعمل جادة لإقامة حلفها التقليدى مع دويلات سوريا وفلسطين ، فانضم إليها « لولى » ملك صور ، و « حزقيال » ملك يهوذا ، وأمراء « إدوم » و « مؤاب » و « عمون » ورؤساء القبائل المنتشرة فى جنوب فلسطين . وما كاد أمر هذا التحالف يصل إلى الملك الأشورى ، حتى سارع إلى منطقة الخطر بجيش كبير ، ووصل إليها عام ٧٠٠ ق . م . وأخذ يغزو المدن الساحلية فى فلسطين ، فدانت له بسرعة ، ثم اتجه إلى مدينة « بيت المقدس » حيث تحصن حلفاء مصر ، فاستعصت عليه ، واضطر إلى حصارها حصارا طويلا ، ولقد حدث أثناء هذا الحصار ، أن فشا بين قوات الأشوريين وباء خطير ، فحصد منهم أعداداً لا حد لها (ولقد وردت أخبار هذه الحملة فى سفر الملوك الأصحاح ١٨ وما يليه : « إن ملاك الرب خرج وضرب فى جيش آشور مائة وألف وخمسة وثمانين ألفا ، ولما بكروا صباحا إذا هم جميعاً جثث ميتة ، فانصرف سناحريب ملك آشور وذهب راجعا وأقام فى نينوى ») .

هكذا اضطر « سناحريب » أن يقفل راجعا إلى بلاده ، بالفلول القليلة التى تبقت من جيشه ، ليس فقط لأن الوباء أتى على هـذا الجيش ، بل أيضا لأن بعض الأنباء كانت قد وصلته بحدوث اضطرابات خطيرة فى بلاده . ولم يكد هذا الملك أن يصل إلى نينوى عاصمة بلاده ، حتى وقع صريعا بأيدى أبنائه الذين تآمروا ضده طمعا فى العرش .

« آشور — أخى الدين » (٦٨١ — ٦٦٩ ق . م):

قامت ثورة بعد قتل « سناحريب » ، وأخذ أبناؤه يتنافسون فيما بينهم على العرش الأشورى ، وفاز به فى آخر الأمر ابنه « آشور أخى الدين » واستطاع بسرعة أن يقضى على عوامل الفتنة ، وأن يجعل الحكم يستقر له .

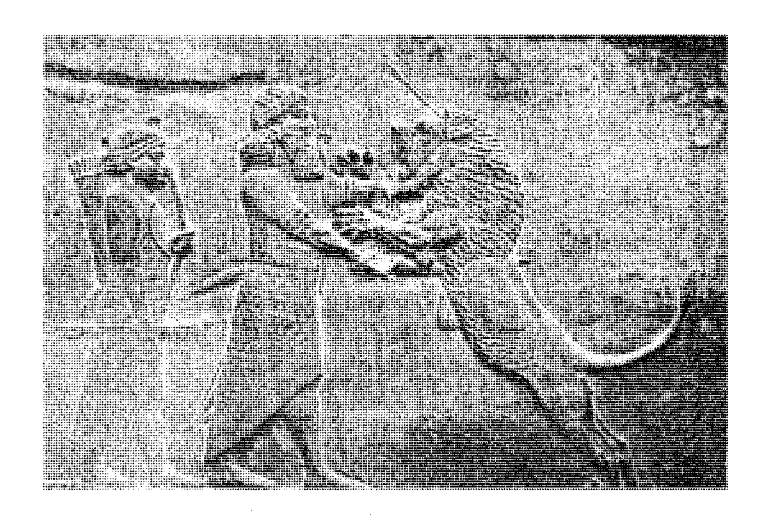
ولقد وجه همه إلى الانتقام من مصر ، ليضع حداً لتدخلها المستمر فى شئون مستعمراته فى سوريا وفلسطين ، وتأليب أمرائها ضد الحكم الأشورى . وسمع المصريون بهذه النية ، فبادر ملكها النوبى « طهارقا » إلى الاستعداد الكامل لملاقاة عدوه ، وأخذ فى نفس الوقت يرسل بإمداداته إلى حلفائه فى سوريا وفلسطين .

زحف « آشور أخى الدين » نحو مصر ، ووصلها بعد أن اشتبك فى معارك متعددة مع حلفائها ، والتقى (٦٧٤ ق . م) وجها لوجه مع الجيوش المصرية فى أراضى شرقى الدلتا ، وكانت معركة حامية الوطيس بين الطرفين ، ودافع المصريون باستماتة عن بلادهم ، وانتصروا على جحافل الأشوريين ، التى كانت تفوق أعداد المصريين عددا وتسليحا ، واضطروا إلى الرجوع عن مصر مولين الأدبار ، ونجت مصر بشجاعة أبنائها وتفانيهم فى الدفاع عن وطنهم من الاستعمار الأشورى ، ولكن إلى حين ! وذلك لأن هزيمة « أشور أخى الدين » ، كانت قد بلغت حداً منكرا ، جعلت الشعوب المنطوية تحت لوائه تفكر فى الخلاص من سطوته ، لقد هزت هذه الهزيمة الأمبراطورية الأشورية هزة عنيفة ، واضطر الملك إلى أن يعمل جهده لاستعادة هيبته ، ولم يكن أمامه إلا أن يعيد الكرة على مصر ، فأخذ يستعد للجولة الثانية فى طى الخفاء .

أما « طهارقا » ، فقد اطمأن إلى نفسه ، واعتقد أن الدرس الذى ألقاه المصريون على الملك الأشورى ، بلغ حداً من القسوة ، لا يجعله يفكر فى العودة إلى مصر . ومما أيد هذا الاعتقاد عنده ، أن بعض الدويلات السورية ، أخذت تنضم إلى حلفه ، معلنة خروجها عن السيطرة الأشورية ، وكان على رأس هؤلاء رجل قوى الشكيمة ، صاحب جاه ، هو الملك « بعل » صاحب « صور » .

ولكن تأتى الرياح بمالا تشتهى السفن ، إذ ظهر « أشور أخى الدين » فجأة فى سوريا (٦٧٠ ق . م) ، وعاقب « بعل » على انضمامه إلى مصر ، ثم سارع الخطى إلى مصر ، مخترقا طريقا وعرا وسط الصحراء ، إلا أنه قصير ، دله عليه البدو ، بعد أن كافأهم بسخاء على تأجير جمالهم لحمل العتاد الحربى ومياه الشرب لجنوده . وهكذا وصل الجيش الأشورى مصر فى وقت مبكر ، لم يكن « طهارقا » قد أتم استعداداته بعد للمعركة الحاسمة ، واضطر إلى الانسحاب بسرعة ، والتجأ إلى حصن منف المنيع ، ولكن العدو لم يمهله ، وأسرع وراءه ، ولحق به قبل أن يتحصن بمنف ، وأوقع الهزيمة بالجيش المصرى ، واضطر « طهارقا » أن يلجأ إلى طيبة فى الجنوب ، تاركا الدلتا بخيراتها للمستعمر الجديد .

اللوحة الثانية والعشرون :



منظر يمثل الملك «أشور بنى بعل» يلتحم فى معركة بالأيدى مع أسـد وقد غرس خنجره الطويل فى صدره .

لم يكد « أشور أخى الدين » ينتهى من حملته على مصر ، حتى أصيب بمرض ، فرجع مسرعا إلى بلاده ، ومات هناك عام ٦٦٩ ق . م .

« أشور — بنى — بعل» (٦٦٨ — ٦٢٦ ق . م) :

حدثت خلافات شديدة حول العرش ، بعد موت « أشور أخى الدين » ، وأخذت المنافسة تشتد بين أبنائه الثلاثة ، وانتهى الأمر إلى تعيين الإبن الثالث « آشور بنى بعل » ملكا على آشور ، وتعيين الإبن الأكبر « شمش — شوم — أوكن » ملكا على العرش البابلى ، على أن يعترف بسيادة أخيه عليه . ولعل السبب الذى جعل الناس يبايعون الإبن الأصغر بالملك ، هو أنه كان قد نال شهرة بين قومه ؛ لرجاحة عقله ، ولتعمقه فى شئون المعرفة والأدب ، ولحبه للفنون ، وتشجيعه لأصحابها . وفى الواقع ؛ يعتبر عصر هذا الرجل أزهى عصور الحضارة الآشورية ، وأنضجها فى مختلف مظاهرها . ولقد عثر المنقبون على مكتبة قصره ، ووجدوها زاخرة بعشرات الألوف من اللوحات الطينية ، التى تحوى جميع الآثار الأدبية والعلمية الأشورية ، ومنها عرفنا الكثير مما كان يسود البلاد من حضارة ومعرفة .

ولقد اضطر « آشور بنى بعل » أن يجرد حملة كبيرة ضد مصر عام ٦٦٧ . ق م . وذلك لأن المصريين كانوا قد أعلنوا الثورة ضد غزاتهم . فأشور اختلفت فى حكمها لمصر اختلافا تاما عن الليبيين ، ومن قبلهم الهكسوس الذين كانوا قد تمصروا ، وأخذوا بأهداب الحضارة المصرية . بل حكموا مصر كأنهم فراعنة . أما الأشوريون ، فلم يعترفوا بأى مظهر من مظاهر الحضارة القائمة فى مصر ، ولم يحترموا عادات المصريين أو دياناتهم ، كما أنهم كانوا قد لاقوا صعابا وأهوالا شديدة قبل أن يستقروا فيها . فتعسفوا وقسوا وبطشوا بهم . وليس من شك فى أن هـذه السياسة هى التى جمعت بين المصريين ، وجعلتهم ينسون أحقادهم . فاتصلوا سرا بطهراقا فى طيبة ، طالبين إليه النجدة ، مؤكدين له أنه سوف يجد فى كل مكان من الذخيرة البشرية ما يشد به أزره ، ويقوى ساعده . واستجاب «طهراقا» لهذا النداء ، وسارع نحو الشمال ليخلص أرض الدلتا من المستعمر ، ليمحو عارا سجله على نفسه بتركه إياها دون حماية . وما لبثت الدلتا أن تكتلت حول « طهراقا » ، وتمكنت من طرد الحامية القوية التى كانت هناك .

هكذا اضطر « أشور بنى بعل » أن يرسل جيشا كبيرا إلى مصر لاستعادتها بعد أن طردت منها الحامية الأشورية ونجح فى هذا ، بل لم يكتف بالبقاء فى الدلتا ، بل تقدم الجيش إلى طيبة ودخلها دخول الفاتح المنتصر ، ودانت مصر كلها للأشوريين ، واضطر

« طهراقا » أن يقنع بالبقاء فى عاصمته الجنوبية « نباتا » ، وقبع فيها بعيدا عن عدوه اللدود حتى مات .

ويبدو أن الأشوريين لم يستطيعوا البقاء فى مصر العليا ، وفضلوا تركها لأهلها ، واكتفوا بأخذ الجزية منهم ، واستقروا فقط فى الدلتا . ولكن المصريين لم يهدأوا ، بل جعلوا من مصر جحيما لا يحتمل بالنسبة إلى المستعمر المستبد ، وقاد الثورة « نيخاو » أمير صان الحجر ، الذى أخذ يناضل ويهاجم المستعمر ، ويقلق من استقراره ، حتى نجح الحاكم الأشورى من القبض عليه وبعض زملائه ، وأرسلهم مكبلين فى الأغلال إلى نينوى عاصة آشور .

وكان « نيخاو » رجلا مسنا ، حنكته التجارب ، مثقفا ، تجمعت فيه كل محاسن الحكيم المفوه ، ففتن « أشور بنى بعل » بحكمته وجميل حديثه ، فعفا عنه ، وأرسله مع زملائه مكرما معززا إلى مصر ، وعهد إليه بإمارتى « صان الحجر » و « منف » .

هدأت الحال قليلا فى الدلتا ، حيث تركزت قوة الأشوريين ، بينما أخذ الصعيد يغلى كالمرجل ، يبحث عن فرصة ليتحرر من المستعمر ، إلا أن التوجيه كان ينقصه ، فولى وجهه نحو الجنوب ، حيث كان قد خلف « طهراقا » بعد موته شاب متحمس اسمه « تانوت أمون » ، مالبث أن لبى الدعوة ، فجمع بعض الفرق من جنوده السودانيين ، وسار شمالا حتى وصل طيبة ، وكان يقابل بالتهليل والفرح فى كل مكان ، وتنضم إلى جيشه فرق متعددة . ووصل فى آخر الأمر إلى منف ، حيث التقى بعدوه الجبار ، وتمكن بقوة إيمانه بالنصر ، وعزيمته هو ومن معه من أهل الصعيد أن يلحقوا الهزيمة بالجيش الأشورى ، وأن يدخلوا حصن منف دخول الغازى المنتصر .

عرف « أشور بنى بعل » بأمر هذه الثورة ، وبهزيمة جيشه فى مصر ، فأصدر أوامره إلى بعض الفرق الأشورية المعسكرة فى سوريا ، أن تتجه على وجه السرعة إلى مصر ، فوصلتها عام ٦٦١ ق . م . واستطاعت أن توقع الهزيمة بتانوت أمون فى منف ، وتتعقبه إلى طيبة ، وأضطر أن يلجأ إلى « نباتا » . وبخروجه من مصر انتهى عصر حكم الأسرة الخامسة والعشرين النوبية .

لقد استقر الحكم مرة أخرى للآشوريين فى مصر ، ولكن إلى حين . إذ أن الثورات كانت مستمرة ، وحمل لواءها « بسامتيك » بن « نيخاو » ، فاضطر « أشور بنى بعل » أن يتخلى عن فكرة جعل مصر مقاطعة أشورية ، تحكم حكما مباشرا ،

واكتفى بعقد محالفة مع « بسامتيك » ، تضمن اعتراف مصر بزعامة الأشوريين على دويلات سوريا وفلسطين ، وكفلت تضامن مصر مع آشور من الوجهة العسكرية ، فى الدفاع والهجوم .

ولم يلبث « بسامتيك » أن استعان بحليف قوى ، هو ملك الليديين ، وقضى على السيطرة الأشورية فى مصر ، ولم يستطع « آشور بنى بعل » أن ينقذ موقفه ، لانشغاله بثورات داخلية عمت امبراطوريته ، واستقلت مصر تحت زعامة ملكها . بسامتيك ، أول ملوك الأسرة السادسة والعشرين .

لقد قلنا فيما سبق : إن « شمش — شوم — أوكن » الابن الأكبر « لأشور أخى الدين » تنازل عن العرش الآشورى ، ورضى بأن يولى عرش بابل ، واعترف بالسيادة لأخيه الأصغر « أشور بنى بعل » ، ولكن هذا الاعتراف لم يدم طويلا ، وأخذ ملك بابل يعد العدة للتصادم مع أخيه ، يساعده على ذلك انحياز الزعماء الكلدانيين إليه ، وبدأ بالمفاوضات السرية مع ملك عيلام ، ومع الكثيرين من أمراء سوريا وفلسطين ، واتصل بالملك بسامتيك فرعون مصر وانتهى الأمر بأن نشب العراك بين الأخوين ، وكانت حربا ضروسا ، وقف فيها فى جانب الملك البابلى حلفاؤه من العيلاميين ، وأمراء سوريا ، وبعض أمراء الآشوريين أنفسهم ؟ ولكن كل ذلك لم يجعل كفة « شمش — شوم — أوكن » ترجح ، نظرا لتفوق جيوش آشور فى العدد والعتاد ، وحوصر الملك البابلى فى عاصمته مايقرب من سنتين ، ثم سقطت المدينة بعد أن لحقها الكثير من الخراب والدمار ، ومات ملك بابل وسط النيران التى التهمت قصره .

وبعد أن سيطر « اشور — بنى — بعل » على بابل ، وجه همه نحو عيلام لتأديبها لمعاونتها السافرة لأخيه ضده ، فأخذ يدمر مدنها ، ولم تنج عاصمة البلاد « سوسة » من غضبه ، فدمرها تدميرا كاملا ، وأمر بنبش القبور وإرسال عظام ملوك عيلام وأمرائها إلى نينوى ، وبذلك قضى على كل أمل فى المقاومة ، ورضخت البلاد له تماما .

مات « أشور — بنى — بعل » عام ٦٢٦ ت . م . وأصيب فى أواخر أيامه بأمراض سلبت راحته ، وأقضت مضجعه .

« أشور — أطل — ايلانى » (٦٢٦ — ٦١٥ ق . م) :

لقد حدثت كالعادة اضطرابات شتى بعد موت « أشور — بنى — بعل » ، واضطر ابنه « أشور — أطل — ايلانى » أن يدافع بمرارة عن حقه فى ارتقاء العرش الأشورى ، وانتهزت « بابل » هذه الأضطرابات الداخلية ، وانفصلت عن

الأمبراطورية الأشوريه تحت قيادة رجل قوى الشكيمة ، هو « بختنصر » وكان ذلك عام ٦٢٥ ق . م . وحذت فلسطين ومعظم المدن الفينيقية حـــذو بابل ، وانفصلت عن آشور . ثم قامت حركة قومية فى بلاد فارس ، جعلت الميديين يوحدوا من كلمتهم تحت قيادة ملكهم « كى اخسار » . وهكذا ما كاد يموت الملك الأشورى ، حتى كانت املاك الامبراطورية تصفى .

« سن — شار — إشكن » (٦١٥ — ٦١٢ ق . م) :

تولى العرش هذا الرجل ، والأخطار تحيط من كل جانب بدولة أشور ، وذلك على أساس ذلك التحالف الذى تم بين ملك بابل وملك الميديين ، وهدفه القضاء على أشور ، وتقويض أركان حكمها . واستطاع هذا الحلف أن يضم إليه كثيرا من الدول التى كانت تئن تحت نير الأشوريين ، وخاصة القبائل المعروفة باسم « الاشكوزيين » ، وخارت قوى أشور أمام هجمات أعدائها ، وسقطت نينوى عام ٦١٢ ق.م . ومات الملك أثناء الدفاع عنها ، ومع ذلك فان الأشوريين ظلوا على عنادهم ، واستطاع « أشور — أوبالط » من أن يجمع شتات الجيش ، ويلجأ إلى مدينة « حران » ، وينصب نفسه هناك ملكا على ما تبقى من دولة أشور ، ولكن الأعداء لاحقوه عام ٦١٠ ق م . وهزموه ، وكانت هذه الهزيمة بمثابة آخر مسمار دقه الميديون فى نعش أشور .

***

مملكة بابل الجديدة

الامبراطورية الكلدانية

(٦٢٥ إلى ٥٣٩ ق . م)

« بختنصر » الأول (نيبو بولاسر) (٦٢٥ — ٦٠٥ ق . م) :

لقد رأينا فيما سبق ، كيف أن عوامل الضعف والاضمحلال أخذت تظهر بوضوح ، منـــذ أواخر أيام « أشور بنى بعل » ، وانتهى عصر الملك الجبار ببدء تدهور شامل ، عم أرجاء الإمبراطورية الأشورية . وانتهز هذه الفرصة حاكم « بابل » ، الذى عينه الأشوريون ، واسمه « بختنصر » ، واستقل بالحكم ، وأخذ يحالف الميديين ، وتعاونا على القضاء على الأشوريين . وبذلك نشأ عهد جديد فى تاريخ بلاد ما بين النهرين ، يطلق عليه المؤرخون اسم : « مملكة بابل الجديدة » ، أو « أسرة بابل الحادية عشرة » .

لقد حكم « بختنصر » الأول حوالى العشرين عاما ، أمضاها كلها فى حروب متتالية ، وكان هدفه أن يضمن الاستقلال لبلاده ، وأن يبعد عنها الأخطار . ولقد أرسل ابنه « بختنصر » الثانى على رأس جيش كبير لملاقاة فرعون مصر « نيخاو » الذى كان قد خرج ليعيد تأسيس الإمبراطورية المصرية ، ونجح فى الاستيلاء على معظم المدن الساحلية ، وأغراه اختفاء القوة الأشورية والقضاء عليها ، أن يمد نفوذه على سوريا .

نشبت المعركة بين الجيشين البابلى والمصرى ، بالقرب من مدينة قرقاميش ، وانهزم فيها الجيش المصرى ، وسارع بالرجوع إلى مصر ، ودانت سوريا ومعظم دويلات فلسطين للملك البابلى .

« بختنصر الثانى » (٦٠٥ إلى ٥٦٢ ق . م) :

تولى العرش فى ظروف حسنة ، إذ كانت البلاد بدأت تتمتع برخاء وازدهار ، بعد استقرار الأحوال السياسية فيها ، وأخذ هذا الملك يوجه جهوده نحو تشييد العمائر الجديدة ، وترميم المعابد المهدمة . ولقد ضاق ذرعا بعدم اعتراف مملكة « يهوذا » بسيطرته ، فارسل إليها جيشا لتأديبها ، فاحتل « بيت المقدس » عام ٥٩٥ ق . م . ولكن اليهود حاولوا مرة أخرى ، وبعد مضى عشر سنوات ، أن يثوروا ضد الاستعمار الكلدانى فذهب اليهم الملك ، ودخل بيت المقدس ، وهدم أبنيتها ، وأنزل بها الخراب بعد أن فتك بأهلها (٥٨٦ ق . م) .

« أميل مردخ » (٥٦٢ — ٥٦٠ ق . م) :

لقد كان ضعيفا لم يستطع مقاومة الحركات التى قامت فى بلاده لخلعه ، ولم يبق أكثر من سنتين وخلفه ابنه الطفل « لباشى مردخ » ، وانتهز الكهنة هذه الفرصة ، وعينوا أحدهم واسمه « نبونائد » ، تولى الحكم وكان ضعيفا ، وأخذت عوامل الضعف تدب فى الدولة ، وانتهى حكمه عام ٥٣٩ ق . م . بغزو ملك الفرس « كورش » لبلاده ، ودخلت بابل تحت الحكم الفارسى ، وبقيت كجزء من الامبراطورية الفارسية حتى عام ٣٣١ ق . م . حين غزا اسكندر المقدونى البلاد واستولى على بابل .

مظاهر الحضارة الآشورية

نظام الحكم :

كان يهيمن على الدولة الملك والملكة وولى العهد ، وكان لكل منهم مسكنه الخاص ، يتبعه عدد كبير من الموظفين . ولكن يجب ألا ننسى أن الإله الأكبر (كما كان الحال فى بابل) ، هو السيد الحقيقى للبلاد ، وليس الملك إلا نائبه على الأرض ، الذى لا يستطيع أن يبدأ عملا ، قبل أن يأتيه الوحى من الإله . ومن الواجب عليه بعد أن يتمه ، أن يقدم عنه تقريرا وافيا .

وكانت شئون الدولة توزع على عدد كبير من رجالات الدولة ؛ فهناك القائد الأعلى للجيش ، ثم المشرف على القصر ، ورئيس السقاة ، والمشرف على الحظائر الملكية ، وكبير الأطباء ، وكاتب القصر ، وكاتب الخطابات الأرامية ، وكاتب الخطابات المصرية ، ويتبع ذلك عدد كبير من الموظفين الذين يشرفون على نواحى متعددة من النشاط الرسمى فى الدولة .

وكان للملكة الوالدة ، وكذلك للملكة الزوجة ، هيئة من الموظفين يشرفون على قصريهما ، مثل : الكتاب ، وحاملى الأختام ، ورؤساء الخدم .

أما الشعب ، فكان ينقسم إلى طبقتين : السادة والعبيد ، وكانت هناك بعض الحقوق يستطيع العبد أن يحصل عليها ، مثل ذلك : أن له الحق فى اقتناء أملاك خاصة منقولة وثابتة ، كما كان له الحق فى القيام ببعض العمليات من بيع وشراء .

الجيش :

لقد عرف الأشوريون قيمة الجيوش القائمة ، وذلك للدفاع عن كيانهم ضد الشعوب القوية التى تاخمتهم ، والتى حاولت باستمرار مهاجمتهم . وكان الملك هو الذى يتولى قيادة الجيش فى معاركه ، كما كان هناك قائدا أعلى للجيش (نورنان) ، ويعتبر أكبر موظفى البلاط ، وأهم شخصية فى البلاد بعد الملك .

كان الجيش الأشورى ينقسم إلى فرق من المشاة ، وأخرى من الفرسان ، أما فرق المشاة ، فكانت تتكون من مجموعتين :

(ا) حملة الأقواس .　　　　(ب) حملة الرماح .

وكان الجندى من المجموعة الأولى يحمل القوس ، وجعبة مملوءة بالنشاب على ظهره ، ويقبض على سيف قصير للحرب والقتال من قرب . أما الجندى من المجموعة الثانية ، فكان يحمل رمحا طويلا ، ودرعا إما من المعدن أو من الخيزران المجدول ، ويقبض كذلك على السيف القصير .

وكانت معدات الفرسان تشابه المعدات التى يستعملها المشاة ، فقط كانت الرماح لديهم أكثر طولا ويعتطون ظهور الجياد دون الاستعانة بالسرج . أما العربة الحربية ، فكانت تجرى فوق عجلتين ضخمتين ، وتتكون من صندوق يرتكز على المحور مباشرة . واستخدموا حصانين لجر كل عربة التى يركبها ثلاثة رجال : السائق ، والمحارب ، والخادم الذى يحميهما بدرع .

الأسرة :

لم تكن الروابط الاجتماعية بين أفراد الأسرة الأشورية بتلك القوة التى ربطت بين أفراد الأسرة البابلية ، ونحن نلاحظ أن قانون « حامورابى » قد حافظ بشكل واضح على الحقوق الشخصية لكل أفراد الأسرة ، بينما نجد أن الأشوريين أعطوا سلطة مطلقة لرب الأسرة ، وصلت إلى حد أنه يستطيع بيع أطفاله ، وربما قتلهم أيضا .

لقد كانت حقوق المرأة عند الأشوريين ضئيلة ، ومنزلتها غير سامية . فعندما يختار شاب فتاة ليتزوج منها ، تصبح مرتبطة ببيت حميها برباط لا انفصام فيه ، فإذا مات الخطيب قبل الزواج ، فإنها تعطى إلى من يريدها من اخوته البالغين ، وإذا لم يكن هناك إخوة ، فعليها أن تتزوج من احد أحفاد حميها البالغين سن الزواج ، أى عشر سنوات ، ومن الغريب أنه إذا حدث أن الفتاة هى التى ماتت ، فلم يكن الشاب يضطر إلى الزواج من إحدى أخواتها . .

لم يكن يسمح للمتزوجات من السيدات اللاتى ينتمين إلى الطبقة الحرة ، أن يخرجن إلى الطريق العام ، دون أن يغطين رءوسهن ، وبهذه الوسيلة كان يمكن تمييزهن من نساء الطبقات الأخرى . وكانت القوانين تهدف إلى احاطة المرأة الحرة بكثير من الضمانات ، لكى تبقى عفيفه ، أمينة على عرضها ، ولذلك كانت عقوبة الزوجة الزانية شديدة ، تبلغ حد الاعدام لها ولعشيقها .

كانت أشور تشجع الاكثار من النسل ، شأنها فى ذلك شأن جميع الدول العسكرية . وكان الاجهاض عندهم جريمة يعاقب عليها بالإعدام . بل إن المرأة التى تتهم بأنها أجهضت

نفسها ، يحكم عليها بأن توضع على الخازوق ، وان ماتت قبل تنفيذ الحكم عليها ، تحرم من الدفن .

وكان القانون يسمح للرجل بامرأة واحدة ، على أن يتخذ له ما شاء من السرارى ، ولم يكن لأبناء المحظيات أية حقوق فى وراثة الأب ، وخاصة إذا كان للزوجة الشرعية أطفال .

ويبدو أن الطلاق عند الأشوريين كان سهلا ، غير خاضع لأية قيود قانونية ، ولم يكن الزوج ملزما باعطاء أى تعويض للزوجة ، كما كان الغياب الذى يمتد إلى أكثر من خمس سنوات ، سببا من أسباب اعطاء المرأة فرصة الطلاق من زوجها الغائب ، وإذا حدث أن عاد الزوج واستطاع أن يبرر غيابه بظروف قهرية ، فإنه يستطيع أن يستعيد زوجته ، بشرط أن يقدم بديلة عنها إلى زوجها الثانى .

النظام الاقتصادى :

لم تكن الحياة الاقتصادية عند الأشوريين تختلف كثيرا عنها عند البابليين ، فكلاهما كان ينتمى إلى أسس حضارية متشابهة ، ولعل الفارق بينهما هو أن أهل بابل كانوا أكثر اشتغالا بالتجارة ، على حين أن الأشوريين كانوا أكثر اشتغالا بالزراعة ، ولقد بقى نظام الجسور والقنوات قائما فى الشمال ، كما كان الحال فى الجنوب ، وكذلك انقسمت الملكية العقارية فى أشور — كما هى الحال فى بابل — إلى : حقول ، ومزارع ، وحدائق ، وبساتين ، وأراضى للبناء . وكان عبيد الأرض يكونون جزءاً من الملكية العقارية ، وينتقلون معها من مالك إلى آخر .

ولم تكن قيمة الأرض الزراعية تقدر حسب مساحتها ، بل بكمية الحبوب اللازمة لزرعها ، وكانت الصفقة تتضمن كل ما يقوم فوق الأرض من : ماشية ، وطيور ، وعبيد ، ومبان .

وكان توسيع مزرعة باغتصاب أجزاء من مزارع مجاورة ، أمرا يفرض القانون على فاعله عقوبات صارمة ، فإن ثبت عليه هذا الاغتصاب ، حكم عليه بأن يرد ثلاثة أمثال الأرض المسروقة ، ويضرب مائة جلدة ، ويبتر أحد أصابعه ؛ زد على ذلك ، أنه كان يؤدى عملا فى السخرة الملكية لمدة شهر على الأقل .

غير هذا ، فقد كان الأشوريون يستعملون نفس النظام البابلى فى الموازين والمكاييل والمقاييس ، وقامت فى البلاد كثير من الحرف والصناعات المختلفة ، وكانت المعادن تستخرج من المناجم المحلية ، أو تستورد من خارج البلاد . ويجدر بنا أن نذكر بأن

الأشوريين عرفوا الحديد حوالى القرن السابع ، واستعملوه فى صناعتهم اليدوية بدلا من البرونز .

ولقد أنشىء فى عهد « سناحريب » مجرى مائى فوق قناطر ؛ لنقل الماء إلى « نينوى » من مكان يبعد عنها ثلاثين ميلا . وكشفت البعثة الأمريكية التابعة للمعهد الشرقى بجامعة شيكاجو عن ثلاثين مترا من هذا المجرى ، فكان بذلك أقدم مجرى مائى أقيم فوق قناطر عالية ، صنعته اليد البشرية فى التاريخ .

ولقد قلنا : إن الأشوريين لم يحذقوا أصول التجارة ، وقامت حياتهم الاقتصادية على الزراعة ، ولعل السبب فى ذلك أن موقع المدن الأشورية فى الطرف الشمالى من بلاد ما بين النهرين ، قد حال بينها وبين أن تكون مراكز تجارية كبرى .

وكان الناس فى أشور ينقسمون إلى خمس طبقات : —

١ — الأحرار ، وهم طبقة الأشراف .

٢ — الصناع .

٣ — أصحاب المهن والحرف والعمال .

٤ — العبيد المرتبطون بالأرض .

٥ — الأرقاء من أسرى الحروب .

الديانة :

بقيت الأصول الدينية البابلية فى جوهرها ، تهيمن على الأشوريين اللهم إلا أن الدين لم يكن له من السلطان على أصحاب الحكم بقدر ما كان له فى بابل ، ولا غرابة فى ذلك ، فانهم كيفوا الدين بحيث يصبح ملائما للميول الحربية ، والطابع العسكرى الذى تميز به الأشوريون .

وكان « أشور » هو إلههم القومى ، وملك الآلهة جميعا ، فهو خالق البشرية ، كما أنه كان إلها حربيا لا يشفق على أعدائه ، وكانت زوجته « عشتار » المحاربة ، التى تحتل المكانة الثانية فى مجمع الآلهة الأشورية الذى يشمل الآلهة : « سن » ، « شماش » ، « إداد » ، « بعل » ، « نابو » ، « اينورتا » ، « نرجال » ، « نسكو » .

وكان الكهنوت يشمل ثلاث فئات من الكهنة : —

١ — الكهنة الذين يطهرون الناس والأدوات .

٢ — الكهنة الذين يقومون بالتراتيل الدينية فى المعابد .

٣ — الكهنة الذين يقومون بالخدمة فى المعابد .

وكان الدور الذى يلعبه أصحاب الطبقة الأولى ، بالغ الأهمية ؛ إذ كانوا يعتمدون على الطقوس السحرية فى تطهيرهم للناس ، كما كانوا أيضا يستطلعون الغيب فاتجه اليهم الناس من كل طبقة ؛ يستفسرون عن شئونهم ، ويطلبون النصح ، بل إن الملوك أنفسهم كانوا يستشيرون الإله عن طريق هؤلاء الكهنة .

وتتكون الطقوس الدينية من أدعية وصلوات مصحوبة بتقدمات مختلفة ، والنقوش الملكية مليئة بالدعوات ومثال ذلك :

« فلترض عنى الآلهة عندما أرفع يدى اليها ، ولتمنح حكمى امطارا غزيره واعواما كثيره مليئة بالثروة والرخاء ، ولتعاونى على الخروج من الحروب سالما آمنا ، ولتخضع لى كل الأقاليم المعادية وكل الملوك والأمراء الذين اعلنوا الخصومة ضدى ، ولتسبغ بركاتها على وعلى نسلى » .

وليس من شك فى أن العمل الجوهرى الذى كانت الديانة الأشورية تقوم به هو تدريب المواطن الأشورى على الطاعة العمياء وهى الأساس الأول للحياة العسكرية التى هيمنت على البلاد ، ولو أنها كانت تعلمه أيضا مداهنة الآلهة لكسب ودهم ورضاهم بضروب السحر والقرابين وكانت التقوى الدينية تكافأ بالعمر الطويل فى الدنيا الأولى .

أما العقائد الأشورية الخاصة بدنيا الموت ، فكانت مثلها عند البابليين ، لا تعطى الفرصة لمن عمل صالحا أن يتمتع فيها بشىء . لم يبذل الأشورى أى جهد ليقيم لنفسه مأوى يمضى فيه حياته الثانية هانئا سعيداً كما حرص المصرى القديم على بناء مقبرته ، بل كان همه أن يرضى الآلهة لتمنحه السعادة والرخاء أثناء الحياة الأولى . ولعل أوضح مثل لذلك ما قاله « أشور بنى بعل » للالهة التى رمم معابدها :

امنحونى — أنا الذى أخشى معبوداتى العظيمة — حياة تمتد أياما طويلة وسرور القلب » .

الكتابة والأدب :

حافظ الأشوريون على طريقة الكتابة التي تعلموها من البابليين فقد استخدموا هم أيضا الخط الأسفينى فى كتاباتهم ، الا أنهم بسطوا الحروف ، وأدخلوا عليها بعض التعديلات .

لقد كان الطب الأشورى هو الطب البابلى لم يزيدوا عليه شيئا ، كما أن علم الفلك عندهم يقوم على نفس الأسس البابلية ، ولعل أهم غرض لدراسته عندهم ، كان من أجله

التنبؤ بالغيب ، ولقد وضع الكتاب منهم قوائم تكاد تحوى كل ما كان فى البيئة الأشورية من حيوان ونبات وجماد ، ولقد قدموا بذلك عونا كبيرا لعلماء التاريخ الطبيعى من الإغريق .

ويمتاز الأدب الأشورى بأنه نحا نحوا جديدا فى ميدان المراسلات الكتابية ، وتسجيل الأحداث التاريخية . ويتضمن أدب الرسائل المكاتبات التى كانت ترسل إلى مختلف أرجاء الإمبراطورية ومنها يتبين بوضوح ، أن الحكومة المركزية كانت تتلقى باستمرار تقارير مستفيضة عما كان يحدث فى كل منطقة من احداث مختلفة . لاتتعلق فقط بالحياة الاداريه أو العسكرية بل أيضا بما يحدث من أشياء غريبة تدخل فى نطاق التنبؤات ، ومثل ذلك الخطاب الذى ارسله المدعون « نابوا » المقيم فى أشور إلى الملك :

« إلى الملك مولاى من خادمه « نابوا » : فليكن الملك مولاى موضع عطف الألهة . فى السابع من كسليمو دخل ثعلب إلى المدينة وسقط فى بئر فى الغابة المقدسة بأشور وقد أمسك به وقتل » .

غير هذا ، فهناك خطابات يتحدث فيها أصحابها عن أشياء مختلفة ، منها ما يتعلق بالأمراض المختلفة وما يجب على الإنسان أن يتناوله من عقاقير ، وكذلك رقى تطرد الأرواح الشريرة . كل هذه الخطابات ترد تباعا إلى الملك تخبره عن كل صغيرة وكبيرة تحدث فى الدولة ، ثم تحفظ فى المكتبة الملكية ، ولقد عثر على مكتبة « أشور — بنى — بعل » وبها عشرات الآلاف من هذه الرسائل المكتوبة على اللوحات الطينية ، بعضها باللغة الأشورية ، والبعض الآخر باللغة البابلية .

أما تسجيل الأحداث التاريخية ، فقد اختلف فى طريقة كتابته عن الوثائق المماثلة من عصر البابليين ؛ فملوك بابل حرصوا على تسجيل ما قاموا به من أعمال شتى لإقرار النظام ، والعمل على تشجيع العلوم والآداب ، وكذلك لدفع الأخطار عن حدود الدولة ، بينما ملوك آشور عملوا على الاشادة بأعمالهم الحربية فحسب ، ولم تكن النقوش المنتشرة فى قاعات القصر الملكى تحوى شيئا غير تمجيد أعمال صاحبه العسكرية .

ولقد ترك لنا ملوك أشور ذخيرة كبيرة من هذه التسجيلات التاريخية ، يمكن لنا أن نقسمها إلى أربعة أنواع :

١ — الحوليات : وهى سجل كامل لجميع الأحداث فى تاريخ مرتب حسب سنى حكم الملك .

٢ — تاريخ الحروب : وفيه يسعى الملك أن يشرح بتفصيل حركاته العسكرية والغزوات المختلفة التى قام بها .

٣ — التقاويم : التى يحرص الملك أن يذكر فيها الأحداث المختلفة ، حسب الأقاليم التى وقعت فيها .

٤ — التقارير: التى يقدم فيها الملك إلى إلهه « آشور » تفاصيل كل موقعة حربية قام بها ، ومدى النجاح الذى أسفرت عنه المعركة .

وكانت هذه الكتابات تحفر كما سبق أن قلنا ، على جدران القصر الملكى ، أو على اسطوانات توضع فى أساسات المبانى المشيدة .

الساميون القدماء

العبرانيون ، الآراميون ، الفينيقيون

للدكتور حسن أحمد محمود

الفصل التاسع

العبرانيون

(قبل الاستقرار فى فلسطين)

وطنهم الأصلى :

من أين جاء العبرانيون إلى بادية فلسطين قبل أن ينزحوا إلى مصر وما هو وطنهم الأصلى ؟ . .

جاء فى التوراة فى أكثر من موضع أن شعب ابراهيم كانوا يقيمون فى مدينة اسمها أور مما دفع المؤرخين والشراح إلى الاعتقاد بأن مدينة أور فى إقليم العراق الأدنى ، بل قالوا إن هذه المدينة تقع فى اقليم بابل وخلصوا من ذلك إلى القول بأن العبرانيين جاءوا من بابل وأن العبرانيين الأوائل لم يكونوا شعبا من البدو إنما كانوا قوما متحضرين مرنوا على سكنى المدن وألفوا حياتها .

لكن البحث الحديث أثبت خطأ هذا الزعم إذ تبين أن مدينة أور هذه التى ورد ذكرها فى التوراة ليست فى بابل ولا تقع على الخليج الفارسى كما يظن إنما ثبت مما ورد من أوصافها فى التوراة أنها تقع فى اقليم العراق الأعلى فى منطقة الجزيرة بين الدجلة والفرات .

يضاف إلى هذا أن بعض الروايات الاسرائيلية ترد العبرانيين إلى أصل آرامى ونحن نعرف أن الآراميين كان لهم ملك وكانت لهم دولة مركزها مدينة دمشق الحالية وكانت تبسط نفوذها على شمال الشام وإقليم الجزيرة ومن هنا نشأت الأسطورة القائلة بأن وطنهم الأصلى هو إقليم الجزيرة بين الدجلة والفرات .

وإذا عرفنا أن الآراميين قبل أن يستقروا فى شمال الشام ويؤسسوا دولتهم التى كان لها شأن يذكر فى حضارة الشرق القديم كانوا شعبا من البدو يحتل بادية الشام وتمتد مضاربه شمال شبه جزيرة العرب ، وأن العبرانيين أنفسهم كانوا يعيشون على هذا النحو ، إذ كان شعب ابراهيم رعاة متنقلين يجمعون قطعانهم إذا جن الليل حول الآبار ويجوسون فى مراعى فسيحة إذا كان النهار أمكننا أن نقول إن الآراميين والعبرانيين يمثلون هجرة بدوية كبرى خرجت من شبه جزيرة العرب وتدفقت إلى بادية الشام . والقرابة

بين العبرانيين والآراميين وثيقة قرابة فى الحياة وفى الجنس وفى اللغة ، حتى قيل إن العبرانيين لم يتعلموا العبرية إلا من الكنعانيين أهل البلاد الأصليين ؛ وأن لغتهم الأصلية لم تكن تختلف كثيرا عن اللغة الآرامية .

هذا إلى أن بعض الباحثين يذكر أن شبه الجزيرة العربية هى مهد الوطن السامى وأن الهجرات السامية كانت تخرج من شبه الجزيرة فى موجات متعاقبة تنساب فى الشرق الأدنى وتعمره .

إذن فقد كان الوطن الأصلى للعبرانيين هو شبه جزيرة العرب شأنهم شأن الشعوب السامية الأخرى وأنهم يمتون للآراميين بقرابة وثيقة وأنهم أقاموا بجنوب فلسطين زمنا ثم رحلوا منها إلى مصر .

العبرانيون فى مصر وخروجهم منها :

تذكر الروايات الإسرائيلية أن العبرانيين تركوا مضاربهم فى جنوب فلسطين بسبب مجاعة حلت بأرضهم دفعتهم إلى أن يتجهوا صوب مصر فدخلوها وأقاموا فيها زمنا طويلا .

وقد حاول بعض الباحثين أن يشكك فى هذه الأخبار وأن ينفى دخول العبرانيين مصر للأسباب الآتية :

١ — إنه لا توجد وثائق غير إسرائيلية تؤكد صحة هذه الرواية كما أن النقوش المصرية لا تشير صراحة إلى هذا وإن كانت تشير بصفة عامة إلى العمال الأسيويين الذين كانوا يفدون إلى مصر ويستخدمهم الفراعنة فى أعمال البناء ويطلق عليهم اسم آل Apuria ولم يثبت أن هؤلاء الأسيويين كانوا من العبرانيين .

٢ — إن كلمة مصرايم التى وردت فى التوراة لا تدل على مصر إنما على الإقليم الواقع شمال شبه جزيرة العرب والذى يمتد غربا حتى حدود مصر الشرقية ، لذلك فإن ما يقال من إقامة العبرانيين فى مصرايم معناه إقامتهم فى جنوب فلسطين أو فى شبه جزيرة سيناء .

ولكن نسى أصحاب هذا الرأى أن الرواية الإسرائيلية لا تتحدث عن مجرد إقامة العبرانيين فى مصرايم ولكنها تتحدث عن استعبادهم فى مصر وليس من المعقول أن يتحدث العبرانيون القدماء وهم شعب محارب ذو أنفة وكبرياء عن استعباد آبائهم فى مصر إلا وهم يذكرون الحقيقة وليظهروا فضل الله عليهم إذ خلصهم مما هم فيه من مذلة وعبودية .

يضاف إلى هذا أن بعض أسماء الأعلام العبرانية من أصل مصرى : مثل موسى مثلا ومعناه الوليد وفنحاص ومعناه زنجى .

كما أن ما ورد بالتوراة من وصف لجو مصر وأحوالها ، إنما يدل على إقامة فعلية فى مصر فقد وصفوا ماء النيل وقت الفيضان وأشاروا إلى ما يعقب هبوط منسوب النيل بعد الفيضان من انتشار الأوبئة والأمراض . بل ورد فى التوراة وصف لبعض أقاليم مصر أثبت البحث الحديث صدق هذا الوصف وتمشيه مع الحقيقة التى تنطق بها الآثار .

لذلك يبدو لنا أن الروايات الاسرائيلية التى تتحدث عن الإقامة بمصر ذات أساس من الحقيقة وأن فريقاً من البدوالعبرانيين قد أخذ إذنا بالاقامة على حدودمصرفى منطقة رعوية تقع بين الدلتا وبلادالعرب وقد خرجوا من ديارهم الأصلية بسبب المجاعة أوبسبب غارات بعض البدو المجاورين .

وهذا أمر مألوف فى الحياة الزراعية عند أطراف شبه جزيرة العرب وقد تكررت هذه الظاهرة على حدود مصر كثيرا ففى عهد الأسرة التاسة والعاشرة (٢٣٦٠ ٢٠٦٠ ق. م) جاء بعض البدو إلى مصر يلتمسون الإذن بالاقامة كما أن مقابر بنى حسن بها صورة قبيلة بدوية برجالها وأطفالها جاءت إلى مصر تلتمس الإذن بالدخول سنة ١٩٠٠ ق. م وكذلك فى مقبرة حورمحب مؤسس الأسرة التاسعة عشرة (١٣٤٥ — ١٣٢١) حدث نفس الشىء .

وكان هذا يتمشى مع سياسة المصريين لأن هؤلاء البدو كانوا يضطلعون بالدفاع عن حدود البلاد وكانوا يحتفظون بعاداتهم البدوية ونظمهم الاجتماعية والدينية . ورغم أن الروايات الاسرائيلية تصور العبرانيين مندمجين فى الشعب المصرى فى الريف أو العاصمة إلا أنه ثبت أنهم كانوا يؤلفون مجتمعا مستقلا يعمل فى رعى الأغنام والماعز ، وكان المصريون يتجنبونهم بسبب حرفتهم أو دينهم لذلك لم ينزلوا إلى الوادى إنما أقاموا فى منطقة مستقلة تسمى بلاد جوشين وقد أظهر البحث الحديث أن هذه البلاد كانت تقع فى شبه جزيرة سيناء وتمتد حتى منطقة العريش وتنيس كذلك وادى الطميلات الذى ينحدر من الشرق إلى الغرب بين الزقازيق والإسماعيلية .

فمتى دخل العبرانيون مصر ومتى خرجوا منها ؟ ؟

ذهب فريق من علماء الآثار المصرية والمؤرخين إلى القول بأن العبرانيين دخلوا مصر مع غارة الهكسوس سنة ١٨٧٧ ق. م وأنهم أقاموا بمصر ما يقرب من أربعة قرون ثم خرجوا من البلاد سنة ١٤٤٧ فى عهد فرعون مصر أمينوفيس الثانى وأقاموا

فى شبه جزيرة سيناء أربعين عاما ، ثم دخلوا فلسطين فى بداية عصر تل العمارنة سنة ١٤٠٠ ق. م .

ودليلهم فى هذا الزعم أن الوثائق المعاصرة تذكر أن بفلسطين فى ذلك العصر أسماء اسرائيلية مثل يعقوب ويوسف وسيمون وليفى .

لكن هذا لا يستقيم مع الرواية الاسرائيلية التى يجب أن تكون المرجع الأول فى دراسة تاريخ العبرانيين القديم . فهذه الرواية لا تتحدث عن فتح العبرانيين لمصر ولا تذكر أن ملوك مصر كانوا من أصل أسرائيلى كملوك الهكسوس ، وكل ما يذكر فى هذا الصدد واضح ، وهو أن اليهود دخلوا مصر مسالمين يريدون الإقامة ثم خرجوا منها بعد أن اضطهدوا وعذبوا .

وإذا صح هذا الرأى فكيف تسكت الأخبار التى سجلت فتوح تحوتمس الثالث وسيتى الأول ورمسيس الثانى عن ذكر العبرانيين فى فلسطين وهزيمتهم على يد القوات المصرية الظافرة ! !

فهذا الرأى إذن لا يتفق مع الحقيقة وتنقصه الدقة .

وذهب فريق آخر إلى القول بأن العبرانيين إنما جاءوا مصر بعد أن طردهم الايدوميون سنة ١٤٣٠ ق . م . فى عهد أمينوفيس الثانى وأنهم أقاموا فى مصر ٢١٥ سنة حتى كان عهد رمسيس الثانى الذى اضطهدهم وأجبرهم على مغادرة البلاد سنة ١٢٣٠ ق . م فأقاموا فيها نهائيا .

وهذا الرأى يتفق مع الحقيقة التى كشفت عنها الأبحاث الأثرية الحديثة التى أثبتت أن المدن التى كان العبرانيون يقيمون فيها على حدود مصر قد شيدت قبل عهد رمسيس الثانى وأن ما يقال من أن رمسيس الثانى قد اضطهدهم وقت بناء هذه المدن غير صحيح لأن هذه المدن بنيت قبل عهد رمسيس ربما فى عهد الأسرة الثامنة عشرة .

معنى هذا أن العبرانيين كانوا يقيمون فى مصر فى عهد الأسرة الثامنة عشرة وظلوا يقيمون فيها حتى عهد رمسيس الثانى سنة ١٢٣٠ ق . م .

ثم جاء منفتاح خليفة رمسيس الثانى على عرش مصر وتدفقت قواته إلى فلسطين وحاربت أهلها وانتصرت عليهم وسجل هذا النصر فى لوحة منفتاح الشهيرة إذ جاء فيها :

لقد غلب الملوك وقالوا سلاما .

وخربت تحينو .

وهدأت أرض الحيثيين .

وانتهبت كنعان وحلت بها كل الشرور .

وخربت إسرائيل ولم يعد لأبنائها وجود .

وقد تم هذا النصر عام ١٢٢٥ ق . م ومعنى هذا أن العبرانيين استقروا فى فلسطين قبل زمن منفتاح . وكان استقرارهم فيها فى عهد رمسيس الثانى وبذلك يكون الرأى الثانى هو أقرب الآراء إلى الحقيقة وأن العبرانيين دخلوا مصر سنة ١٤٣٠ وخرجوا منها واستقروا فى فلسطين سنة ١٢٣٠ ق . م .

كان العبرانيون يقيمون على حدود مصر الشرقية فى عهد رمسيس الثانى وكانت بعض بطونهم تقيم حول قلعة تيثوم ورعمسيس على حدودنا الشرقية وتوغل بعض هذه البطون فى إقليم شرق الدلتا وكان رعمسيس يعمل على حراسة الحدود وتقوية الحصون فعمد إلى هاتين المدينتين فأصلحهما وبنى مخازن الحبوب على الحدود وأكثر من بناء المعابد فى هذه المنطقة فعمد إلى تسخير البدو المقيمين فى هذه المنطقة فثارت ثائرة القبائل العبرانية وجرح كبرياؤها فثارت على الفرعون ووقف لهم ملك مصر محاولا إخضاعهم وإذلالهم حتى يذعنوا له بالطاعة .

كان موسى عليه السلام هو عقل هذه الثورة وقلبها فأقنع عشيرته بأن للسماء إلاها أقوى من آلهة المصريين وأن هذا الإله سيخلص القبائل العبرية من العبودية وسيجعلها أمة متحدة وسيعدها بأرض فلسطين أرض الميعاد .

وقد حقق موسى رسالته وقاد عشيرته فى خروجها من مصر حتى غادرت حدودها الشرقية وبدأت تخترق شبه جزيرة سيناء فى طريقها إلى فلسطين . وكانت حياتهم فى شبه جزيرة سيناء لا تختلف عن حياتهم السابقة فى مصر إذ ظلوا يحيون حياة البادية القائمة على البحث عن مواطن الماء ومنابت الكلأ واتخذوا مدينة قادش وهى تقع عند مفترق عدة وديان صحراوية تأتى من الإسماعيلية والعقبة وحبرون وغزة، مركزا لهم ومقرا لزعمائهم .

وقد أقام العبرانيون فى بادية سيناء على ما تذكر الرواية أربعين سنة حدث فى ختامها حادث جلل فى تاريخ الشعب العبرى ذلك أن هذه القبائل البدوية التى كانت تضرب على غير هدى قد اتحدت كلها وتآلفت قلوبها بفضل معجزة موسى ، الذى بعث نبيا يدعو عشيرته إلى الحق ويحملها على عبادة الله فكان إيمانها بنبيها محققا لوحدتها وجامعا لشملها .

وكانت هذه الوحدة خاتمة المطاف فى إقامة القبائل فى سيناء ، فأخذت ترنو إلى فلسطين أرض الميعاد فبارحت مضاربها وأخذت تغير على جنوب فلسطين إغارات غير منتظمة أول الأمر لا يلبث أن يشتد ساعدها وأن يدخل العبرانيون أرض كنعان وأن يستقروا فيها وأن تتغير وجهة تاريخهم .

فما هى النظم الاجتماعية والدينية للعبرانيين قبل دخولهم فلسطين ؟ فهى الأساس الذى سوف تبنى عليه حضارة العبرانيين بعد استقرارهم فيها ؟

النظم الاجتماعية والدينية قبل دخول فلسطين :

النظم الاجتماعية للقبائل العبرانية لا تكاد تختلف عن النظم المألوفة لدى الشعوب السامية كلها بل لا تكاد تختلف عن النظم الاجتماعية للعرب قبل الإسلام بل إن حياة البدو اليوم فى جنوب فلسطين ، وفى بلاد العرب قريبة الشبه من حياة بنى عمومتهم بالأمس . وأهم معالم هذه النظم ما يأتى :

١ — عيشة البداوة : كان العبرانيون قبل استقرارهم فى أرض كنعان يعيشون عيشة البداوة يقطنون الخيام ويربون الأنعام ، والرواية القديمة تؤكد هذه الحياة ولا زال أثر هذه البداوة باقيا فى اللغة العبرية حتى اليوم . كانوا إذن يحيون حياة البادية الحرة الخشنة القائمة على الغزو والإغارة والأخذ بالثأر والعنف .

٢ — الأبوة والأمومة : كانت القبائل الإسرائيلية قبائل أبوية ، للأب فيها سلطان مطلق فهو يستطيع أن يبيع أولاده بيع الرقيق أو يقتلهم . والزوجة ملك لزوجها يتصرف فيها تصرفه فى ماله . وبلغ من تغلغل هذه الروح الأبوية فى التفكير العبرى أنهم تصوروا العالم وكأنه قبيلة كبيرة تنحدر من أب واحد ينتسب إليه الناس جميعا . فالأشوريون انحدروا من آشور والكنعانيون من كنعان والموابيون من مواب والإسرائيليون من إسرائيل .

لكن هناك شواهد كثيرة من حياة البدو العبرانيين تدل على أنهم مروا بمرحلة الأمومة وهى المرحلة التى كان الأبناء فيها ينسبون فيها لأمهاتهم ، فكانت الأم تلعب دورا كبيرا فكانت تتمتع بحق تسمية أبنائها ، وكان الأفراد فى بعض الأحيان ينتسبون لقبائل أمهاتهم كما كانت المرأة بعد زواجها تبقى فى قبيلتها وبين عشيرتها . والأساطير الإسرائيلية تضع الخال فى منزلة ممتازة وتعبر عن القرابة بالرحم وعن أجزاء القبيلة بالبطن وعن الشعب بالأمة .

٣ — العشيرة والقبيلة : كانت الأمة العبرانية تنقسم إلى قبائل والقبائل إلى عشائر والعشائر إلى أسر . وشيوخ القبائل لم تكن سلطاتهم أوتوقراطية ؛ فأبناء القبيلة سواسية واحترام أبناء القبيلة لسيدها لا يأتى عن خوف ، إنما ينبع من تقدير واحترام . فكان أبناء القبيلة العبرية يتمتعون بالمساواة فى الحقوق والواجبات . وكانت القبيلة إذا حاربت أو رحلت فعلت ذلك وهى وحدة واحدة وكانت لها عاداتها وتقاليدها ومعبوداتها .

وكان أفراد القبيلة يعتقدون أنهم انحدروا من أب مشترك وأن دماءهم واحدة ، لذلك تراهم يضعون نقاء الدم فى المحل الأول .

٤ — أبناء القبيلة : كانت القبيلة تتألف من الرجال البالغين ، الذين يجرى فى عروقهم دم واحد . وإلى جانب أبناء القبيلة الخلص هنالك العبيد والموالى الذين كانوا يدخلون فى بنية القبيلة بناء على طقوس معينة . والعبد ملك لسيده يتصرف فيه كيف يشاء . أما المولى أو الجار فهو رجل ينتمى لقبيلة أخرى لكنه فر منها بسبب ظلم حاق به أو بسبب جريمة ارتكبها فتخلعه القبيلة فيلتمس الجوار من قبيلة أخرى تستطيع الدفاع عنه ومن ثم يصبح جارها وبذلك يأمن على نفسه لكن وضعه أقل من وضع أبناء القبيلة فليست له حقوق وإذ كان عليه أن يحترم آلهة القبيلة التى يستجير بها .

هذه القبائل كانت تعيش عيشة البداوة والبدو على أشكال : فمنهم بدو الصحارى الكبرى الذين يرعون الإبل ويقومون بنقل المتاجر ومنهم من يرعى الأبقار ويعيش قرب مناطق الزراعة ، حيث تتوفر المراعى فى فصل الصيف أما أجداد بنى إسرائيل فكانوا وسطا بين هذين الصنفين فقد كانو بدوا يرعون الضأن والماعز على نحو ما صورتهم الأساطير القديمة وكانت منطقة سيناء التى يعيشون فيها ملائمة كل الملاءمة لهذا النوع من الحياة لذلك قل استخدامهم للإبل حتى إن لغتهم لم تعرف للناقة اسما . وكانوا فوق هذا يحترفون نوعا من الزراعة البدائية فيزرعون الحبوب على مياه الأمطار . وكانوا يربون الماشية الأمر الذى وسع من أفق هجراتهم لأن عشب الصحراء سرعان ما يجف إلا فى مناطق المياه فيضطرون إلى القيام بهجرات على نطاق واسع سعيا وراء المرعى . وكانوا يعتمدون على قطعانهم فى غذائهم بل كسائهم أيضا كما كانوا يزاولون بعض الصناعات البدائية .

هذا عن النظم الاجتماعية أما عن العقائد فلا نستطيع فى دراستها أن نعتمد على وثائق معاصرة فهى قليلة نادرة لكننا نستطيع أن نعتمد على تحليل النظم الإسرائيلية والعقائد الإسرائيلية فى العصور التاريخية التى تكثر مادتها وتتوفر وثائقها ، وليس من العسير أن نكشف عن العادات والمعتقدات التى ترجع إلى هذه العصور الأولى فهى أمور يشترك فيها الساميون عامة أو على الأقل يشترك فيها الإسرائيليون والعرب فى جاهليتهم . نستطيع اعتمادا على هذا أن نقول إن مظاهر العقيدة عند القبائل العبرانية الأولى كانت تتمثل فيما يأتى : —

١ — الاعتقاد فى السحر : كان الدين شأنه شأن مظاهر النشاط الاجتماعى للأفراد يختلط بالسحر فيعتقدون فى قدرة البشر على السيطرة على القوى الخفية وعلى الشياطين

والأرواح . وقد ظلت هذه العقائد القديمة تؤثر فى الإسرائيليين فى العصور التاريخية وكانت القبيلة تتوسل بالسحر فى مزاولة نشاطها الاجتماعى .

٢ — الاعتقاد فى الجن والشياطين : كان العبرانيون البدو شأنهم شأن بنى عمومتهم العرب يعتقدون فى هذه الأرواح الخفية التى تظهر فى مظاهر شتى ؛ كانوا مثل العرب القدماء يعتقدون أن الصحراء يقطنها الجن الذين يعمرون المناطق غير المأهولة بالناس .

٣ — عبادة الطبيعة وتتجلى فى تقديس الأشجار والكهوف والجبال وكان العبرانيون فعلا يقدسون عددا كبيرا من الأشجار والعيون والأنهار والكهوف والجبال ، وظلوا بعد استقرارهم يعتقدون بقدسيتها فيباشرون بعض الطقوس الدينية مثل تقديم القرابين . وكان العبرانيون البدو يعبدون النجوم على اعتبار أنها مستقر لقوى غير طبيعية بل ظل الإسرائيليون بعد دخولهم فلسطين يعتقدون أن القمر له تأثير مباشر فى خصوبة التربة وفى شفاء بعض الأمراض .

٤ — رغم هـذا كله كانوا يعتقدون فى البعث بعد الموت وأن المتوفى يكتسب القدسية ويصبح إلها بل كانوا فى ماضيهم السحيق يقدسون آباءهم وأجدادهم وقد ارتفع هذا التقديس إلى مرتبة العبادة .

وقد تعددت آلهة العبرانيين فى هذا العهد كما تعددت آلهة العرب فى الجاهلية فكان لكل قبيلة إلاهها أو مظهر من مظاهر الطبيعة تقدسه وتعبده .

لكن ظهور موسى كان نذيرا بتغيير شامل فى تاريخ العقائد العبرانية إذ هز كيانها هزا وفتح لها آفاق جديدة لم تكن لتعرفها لولا أن هداه الله . ولكى نبين هذه الآثار الخطيرة التى حققتها بعثة موسى ورسالته يجب أن نعتمد فى دراستها على وثائق معاصرة تعطينا صورة صادقة لهذا الحدث الجليل فى تاريخ الإنسانية .

يتضح هذا التطور الخطير من قصيدة عبرية تعتبر من أقدم قطع الأدب العبرى على الإطلاق فهى تعطينا صورة صحيحة لأحوال القبائل الإسرائيلية بعد استقرارها فى فلسطين ومنها نتبين أن القبائل العبرانية وإن كانت متفرقة الكلمة ، إلا أنها تحس إحساسا قويا عميقا بأنها شعب واحد وأمة واحدة . ولم يكن هذا الإحساس وليد إقامتهم فى أرض كنعان فالبلاد لم تفتح فتحا موحدا إنما أخذت القبائل المتفرقة تتسرب إليها بالتدريج . ولكن هذا الإحساس الدفين بالقومية عمل تم فى عصر سابق لاستقرارهم فى فلسطين تم بفضل نبوة موسى ومعجزته الكبرى .

وتصور لنا هذه العقيدة أمراً آخر هو أن هذا الشعور العميق بالقومية كان يرتبط

بالاعتقاد في إله جديد تمجده هذه القصيدة يعلو على آلهة القبائل كلها هو إله موسى خالق الأرض وفاطر السماء .

استطاع موسى عليه السلام بفضل عمق إيمانه بدينه أن يفوز بإيمان عشيرته ، وقد استطاعوا بفضل هذا الإيمان أن ينجوا من اضطهاد فرعون وأن يخلصوا من شدة الصحراء إلى رخاء فلسطين . وبذلك تحررت القبائل العبرانية واتحدت مع بنى جنسها فى صحارى فلسطين فكأن موسى قد جمع شتات شعب ممزق الأوصال وخلق أمة ونفخ فيها من روحه وكانت عقيدته الجديدة هى سياج هذه الوحدة وهى التى مكنت العبرانيين من الصبر على مكاره الصحراء حتى آتاهم الله ما وعد . وقد انتصرت إسرائيل بفضل موسى وفتحت كنعان وتجلت إرادة الله الذى هزم آلهة فرعون وأصبحت إسرائيل تحس إحساسا مرهفا بقوة الله الذى هزم فرعون وأنه يرعاها فى الحرب والسلم وهذه هى معجزة موسى لأنه خلق هذه القوة الروحية الخلقية العميقة التى هى طابع ديانة العدالة وحماية الضعيف . وقد تميزت شريعة موسى بما يأتى :

١ — الحيوية المفرطة .

٢ — القابلية العظيمة للنمو والتطور .

٣ — إحساس قوى مرهف بقوة الله .

٤ — الوحدانية المطلقة فالله واحد قهار .

٥ — نواحى إنسانية سامية تتمثل فى العدالة والحض على مكارم الأخلاق وحماية الضعيف .

العبرانيون فى فلسطين

(عصر القضاة)

كان طبعيا — بعد أن غيرت معجزة موسى من طبيعة القبائل العبرانية التى كانت تضرب فى بيداء سيناء فاتحدوا حول عقيدة التوحيد ونبذوا آلهتهم القديمة — أن يسيروا صوب فلسطين الأرض التى وعدوا بها وتاقوا إليها ، فبدأت طلائع القبائل تدخل صحراء شرق الأردن ثم تطرق أرض فلسطين . ولم يكن تدفق الإسرائيليين فتحا جماعيا منظما فقد كانت أعدادهم لا تتجاوز ستة آلاف أو سبعة آلاف إذا أدخلنا فى اعتبارنا ظروف الحياة فى الصحراء وندرة الماء وقلة الطعام والمرعى . أخذت القبائل تتسرب إلى فلسطين موجة فى أثر موجة وهذا التسرب يتمشى مع طبيعة الهجرات البدوية فهى لا تهاجر

هجرة جماعية . كانت الموجة الأولى تتألف من قبائل يهوذا وسميون ثم جاءت فى أثرها الموجة الثانية ممثلة فى قبائل يوسف مثل افرائيم ومنسا وبنيامين .

وبعد أن دخلت جموع هؤلاء البدو أرض فلسطين هاجموا ملك الأموريين وبدأت قلاعهم تسقط واحدة فى أثر الأخرى فسقطت مدينة لشيشن ومدينة آى ومدينة جريخو ولكن العبرانيين إذا كانوا قد نجحوا فى انتزاع مدن الأموريين ، إلا أن قلاع الكنعانيين الحصينة المشيدة على التلال وقفت فى وجههم فلم يستطيعوا فتحها بسبب سذاجة أسلحتهم وعدم خبرتهم فى فن الحصار ومهاجمة القلاع فكانوا يتجنبون المناطق الجبلية وينفذون إلى السهول فيستقرون فيها. تسربوا إلى وادى الجليلى فاستقروا فيه كما بدأوا ينفذون إلى جميع المناطق السهلية .

من هذا يتبين أن تقدم العبرانيين صوب فلسطين واستقرارهم فيها لم يكن فتحا عسكريا فحسب إنما كان تسربا سلبيا غير أن المؤرخين اليهود بالغوا فى تقدير هذه الوقائع وفى تجسيمها كما بالغوا فى تجسيم الأفراد الذين اشتركوا فيها . وقد بدأ العبرانيون يثبتون أقدامهم فى البلاد عن طريق الاختلاط بالسكان الأصليين بالمصاهرة كما انضمت إليهم البطون العبرية الأخرى بحكم الصلة وقرابة الدم كما بدأوا يعقدون معاهدات سلمية مع القرى المجاورة ، وبدأ المجتمع العبرى الوليد تتضاعف رقعته ويشتد ساعده ويكثر عدد أفراده .

فلما تمت سيطرة العبرانيين على أهل البلاد بالوسائل السابقة وزعت على القبائل الاثنتى عشرة فاستقرت قبيلة يهوذا وبنيامين فى المنطقة الجبلية المحيطة بأورشليم بينما استقرت القبائل الباقية فى السهول الأكثر خصبا التى تقع إلى الشمال وبدت المجتمعات العبرانية تتكون من أقسام أربعة .

(ا) فى هضبة الأردن . (ب) فى منطقة الجليلى .

(ج) فى تلال أفرايم . (د) فى منطقة يهوذا .

تمت هذه الأحداث كلها فى النصف الأخير من القرن الثالث عشر قبل الميلاد فى الفترة الواقعة بين دخول فلسطين لأول مرة وبين قيام الملكية أعنى فى العهد الذى يطلق عليه المؤرخون اليهود اسم « عهد القضاة » وهو من أهم الفترات فى تاريخ الشعب العبرانى ومن أكثرها غموضا وأندرها وثائق تاريخية ففيه وضعت نواة المجتمع العبرانى وتم نزوح اليهود إلى أرض الميعاد وتحقق حلم موسى ، وأصبح أهله وعشيرته أمة قوية عزيزة الجانب متحدة الكلمة . ومن هذا العهد أخذت الحضارات البدوية تختلط بحضارات وطنية راقية ، وأخذ الإسرائيليون يغيرون من طباعهم البدوية

ويلاءمون بين أنفسهم وبين المجتمع الجديد الذى يعيشون فيه وانتهت فترة البداوة والترحال وحلت فترة الاستقرار .

وكان هؤلاء القضاة أبطالا قوميين وحكاما ظهروا فى أفق الشعب الإسرائيلى فى فترات متعاقبة وقادوا أمتهم فى نضالها مع أعدائها مع الأموريين والكنعانيين ومن أشهر هؤلاء القضاة الأبطال شمشون الذي لون أهل القصص العبرى نضاله مع الفلسطينيين تلوينا قصصيا .

ولكن أقوى أعداء العبرانيين فى هذا العهد وأبعدهم أثرا فى تاريخهم ليسوا هم الأموريون ولا الكنعانيون ، إنما كانوا قوما يقال لهم الفلسطينيون الذين نافسوا الإسرائيليين فى تملك الأرض التى فتحوها . والفلسطينيون خامس خمسة من الأجناس البحرية التى جاءت من بحر إيجه . وما كاد العبرانيون يفتحون المناطق الداخلية حتى كان هؤلاء قد سيطروا على الإقليم الساحلى ووصلت قوتهم إلى الذروة فى النصف الثانى من القرن الحادى عشر واستطاعوا سنة ١٠٥٠ أن يهزموا العبرانيين ، وأن يستقروا فى بعض الحصون فى المنطقة الجبلية حتى أصبحت لهم الكلمة العليا فى البلاد بفضل تفوقهم فى السلاح وبراعتهم فى استخدام الحديد وفى صنع أسلحة الدفاع والهجوم . وأحس العبرانيون أنهم قد خلصوا من استعباد قديم إلى استعباد جديد وكان عليهم أن يناضلوا من أجل حريتهم ومن أجل عقيدتهم وقد أدى هذا النضال وأدى نجاحهم فيه إلى قيام الملكية العبرانية فى فلسطين .

(مملكة العبرانيين)

لم تكن القبائل العبرانية فى عهد القضاة قد اتحدت كلها تماما بل ظلت تحتفظ بطابعها البدوى القديم وبنظامها القبلى وكانت كل قبيلة تعتز بكيانها وبنظامها وعبريتها . وكان هذا التفرق يهدد المجتمع العبرانى بأفدح الأضرار فقد كان أعداؤهم كثيرين يتربصون بهم الدوائر . كان الكنعانيون فى ناحية والفلسطينيون فى ناحية أخرى يضعون بنى اسرائيل بين شقى الرحا فكان لابد أن يتطلع الشعب إلى الوحدة وأن يعتصم بها وإلا ذهبت ريحه وطردوا من فلسطين

وقد تطلع العبرانيون إلى بطل من أبطالهم برز فى ميدان الحرب مع الفلسطينيين وأخذ ينزل بهم الهزائم المتلاحقة وينتصر عليهم ويرفع من رأس بنى اسرائيل ويثبت عزائمهم ويقوى نفوسهم وكان هذا البطل يسمى شاؤل . وكان من قبيل عرفان الجميل أو من قبيل الاعتراف

بالأمر الواقع أن يصبح شاؤل هذا زعيم العبرانيين وقائدهم فى كفاحهم من أجل الحياة ومن أجل البقاء وقد اجتمع زعماء القبائل اليهودية المختلفة وبايعوه بالزعامة عليهم وتحققت الوحدة المنشودة . ويبدو أن القبائل الإسرائيلية كانت مكرهة بحكم الظروف على أن تتجه هذا الاتجاه فقد صورتها الرواية مترددة بين الحرية القديمة وبين الزعامة الجديدة تعز عليها حرية البدو ويدفعها خوف العدو إلى الرضا بالأمر الواقع يظهر هذا من تحذير النبى صمويل من الأضرار التى تنجم عن خضوعهم لحكم رجل واحد إذ قال :

« هذا يكون قضاء الملك الذى يحكم عليكم يأخذ بنيكم ويجعلهم لنفسه لمراكبه وفرسانه فيركضون أمام مراكبه ويجعل لنفسه رؤساء ألوف ورؤساء خماسين فيحرثون حراثته ويحصدون حصاده ويعملون عدة حربه وأدوات مراكبه ويأخذ بناتكم عطارات وطباخات وخبازات ويأخذ حقولكم وكرومكم وزيوتكم أجودها ويعطيها لعبيده ويعشر زرعكم وكرومكم ويعطى لخصيانه وعبيده . ويأخذ عبيدكم وجواريكم وشباتكم الحسان وحميركم ويستعملها لشغله ويعشر غنمكم وأنتم تكونون له عبيدا . فتصرخون فى ذلك اليوم فى وجه ملككم الذى اخترعوه لأنفسكم فلا يستجيب لكم الرب فى ذلك اليوم . »

وباختيار شاؤل زعيما على العبرانيين قامت الملكية لأول مرة فى تاريخ العبرانيين وبقيام هذه الملكية يبتدئ التاريخ القومى لليهود وتنمو صفاتهم القومية وتتطور وسنرى أنهم من دون الشعوب السامية الأخرى تميزوا بالقومية العميقة واحتفظوا بمقوماتهم وشخصيتهم وكان دينهم هو الذى ساعد على الوصول إلى هذه الغاية . وكان قيام الملكية يمثل أيضاً تأثر العبرانيين بالنظم والحضارات المحيطة بهم ، فكان لجيرانهم الأيدوميين والموابيين ملوك وكان للفلسطينيين حكام يرأسون نوعا من الأحلاف مفككا الأوصال وكان للفينيقيين مدنهم الحرة بل تحولت مدن مثل بيلوس وصيدا وصور إلى ممالك وراثية فكان طبيعياً أن يكون لهم ملك مثل ما كان لغيرهم « قالوا لا بل يكون علينا ملك فنكن نحن أيضاً مثل سائر الشعوب ويقضى لنا ملكنا ويحارب حروبنا » . . وكان شاؤل أول ملوك بنى إسرائيل .

وكانت الملكية الأولى فشلا ذريعاً لأنها تطور من حياة البداوة إلى حياة الاستقرار وكان الملك ضعيف الإرادة حاد الطباع يحيا كأى شيخ من شيوخ القبائل . ولم تكن مملكته تتجاوز مضارب قبيلته بنيامين وكان انتخابه معاصراً لثورة العبرانيين على سادتهم الفلسطينيين .

الملك داود (١٠٠٤ — ٩٦٠ ق . م) :

يعتبر داود المؤسس الحقيقي لملك إسرائيل فقد خاض معارك عدة لتحرير عشيرته من ربقة الفلسطينيين فهزمهم وفاز العبرانيون بالحرية التامة والاستقلال الكامل ولم يكتف بهذا القدر إنما أخذ يوسع رقعة ملكه فأخضع الأيدوميين والموابيين والعمونيين وسارت قواته صوب الشمال حتى بلغت مدينة حماة ، بل أخذت قواته الظافرة تطرق ملك الآراميين ودخلت دمشق عاصمتهم واتسعت رقعة دول إسرائيل إلى درجة لم يسبق لها مثيل ، بل أصبحت أعظم الممالك التى شهدها تاريخ فلسطين وبذلك تمت سيطرته على الطريق التجارى العظيم الذى يصل بلاد الشام ببلاد العرب فتوطد ملكه واتسعت رقعته وخضع جيرانه وتحققت الوحدة بين عشيرته .

ومما ينسب إليه أنه أجرى إحصاء للسكان يعتبر أول إحصاء من نوعه تشير إليه الوثائق المسجلة وهو يذكر أن الرعية العبرية بلغ تعدادها ما بين ستمائة ألف وسبعمائة ألف .

وقد اتخذ أورشليم عاصمة لملكه وكان هذا اختيارا موفقا فكانت المدينة بعيدة عن نطاق القبائل إذ تقع على الحدود بين الأجزاء الشمالية والجنوبية من المملكة وتتحكم فى أهم الطرق البرية التى تسير من الشمال إلى الجنوب .

وقد بنى داود لنفسه قصرا من الأحجار وأخشاب الأرز بناه النجارون والمهندسون الذين أرسلهم صديقه حيرام الفينيقى ملك صور .

وكانت الصداقة الإسرائيلية الفينيقية تقوم على مصالح مشتركة فكانت مدينة صور محتاجة إلى المحاصيل البرية وكانت إسرائيل فى حاجة إلى التجارة البحرية . كما وضع أساس معبد لإله اليهود فى عاصمته الجديدة وبذلك أصبحت اليهودية دين الدولة الرسمى .

وقد نما الأدب اليهودى فى عهد داود وظهر « المذكر » الذى يسجل الأحداث العامة ويكتب التاريخ الملك واستعيرت الكتابة من الفينيقيين ، كما بدأ الكهنة ورجال الدين يسجلون العقائد الإسرائيلية . وقد اعتمد كتاب العهد القديم على هذه المصادر كلها وصور لنا هذا العصر صورة حية واقعية ، فهو لا يتحدث عن داود الملك إنما يتحدث عن داود الإنسان ويكتب ما يستطيع المعاصر أن يكتبه وكانت تلك أول محاولة لكتابة التاريخ . وقد نما الشعر فى عهده وكان داود نفسه يقرض الشعر وبلغ من تضلعه فى الشعر والموسيقى أن الأجيال المتعاقبة نسبت إليه المزامير المشهورة .

الملك سليمان الحكيم (٩٦٠ — ٩٢٥ ق . م) :

وقد بلغ ملك بنى اسرائيل الغاية من السعة والعظمة والأبهة والغنى والرفاهة فى عهد الملك سليمان فقد عظمت ثروة الملك بسبب مشروعاته الصناعية والتجارية فقد استعان بصديقه حيرام ملك فينيقيا و بنى أسطولا لتجارة البحر الأحمر وكانت قاعدة هذا الأسطول مدينة أيلة على خليج العقبة ، وأصبحت سفن سليمان تقوم برحلات بحرية ناجحة حول ساحل بلاد العرب وشرق إفريقيا لجلب البخور واللبان والعاج والذهب والأحجار الكريمة وكانت هذه البضاعة النفيسة تحمل إلى أسواق إسرائيل لتباع فى أسواق العالم القديم فيجنى الملك من وراء ذلك أرباحا طائلة ، كما كانت سفنه تحمل مصنوعات إسرائيل لبيعها فى أسواق الخارج . فكان طبعيا أن يسود البذخ بلاط أورشليم بصورة قل أن تجد لها شبها فى تلك العصور ذلك أن سليمان كان يحيا فى بلاطه عيشة ملك شرقى مقبل على اللذات غارق فيها .

وقد ظهر ثراء الدولة وبذخها فى عملين جليلين تما فى عهد سليمان : العمل الأول قصره العظيم الذى استخدم فى بنائه المهندسين الفينيقيين واستغرق بناؤه ثلاثين عاما على ما تذكر الرواية وأكثر من استخدام العمد الخشبية المصنوعة من خشب الأرز اللبنانى فسمى القصر « قصر وعر لبنان » ، وقد بلغت مساحته أربعة أضعاف مساحة الهيكل . وكانت جدران البناء الرئيسى فى القصر مقامة من كتل من الحجارة الفخمة طول الواحدة منها خمسة عشر قدما وكانت تزينه التماثيل المنحوتة والنقوش المحفورة والصور المرسومة على الطراز الأشورى . وكان القصر يحتوى على أبهاء يستقبل فيها الملك كبار زائريه وعلى أجنحة الملك نفسه ومساكن المحظوظات من زوجاته ومستودع للسلاح كان هو العماد الأخير لحكومته . كما بنى الحصون والثكنات والمخازن وقد كشف المنقبون بمدينة مجدو عن آثار اصطبلات سليمان فوجد أنها كانت تتسع لنحو أربعمائة وخمسين حصانا قيل إنه جلبها من مصر وفينيقيا .

وقد تجلى ثراء سليمان فى عمل آخر جليل ينسب إلى عهده هو بناؤه هيكل مدينة أورشليم . ولما اعتزم بناءه جمع ذوى الثراء من أهل المدن وكشف لهم عن رغبته فى بناء المعبد وأخذوا له كميات كبيرة من الذهب والفضة والحديد والخشب والحجارة الكريمة من مخازنه الخاصة ، وأوحى إلى الناس أن يتبرع كل قادر بما يستطيع للمساهمة فى هذا العمل الجليل وقد استخدم فى بنائه المهندسين من مدينة صور وجلب الخشب من لبنان وقد استخدم ثلاثين ألف عامل يقضون شهرا فى لبنان لقطع الخشب وحمله عن طريق

البحر إلى يافا ثم نقله إلى أورشليم ثم يقضون فى البناء شهرين ثم يعودون إلى لبنان مرة أخرى فكان طبعيا أن يتأثر بناء المعبد ونقوشه بالفن الكنعانى المباشر بل كان خدامه من الكنعانيين حتى اسمه نفسه اسم كنعانى فكلمة هيكل كلمة كنعانية . ولم يكن هذا الهيكل كنيسة بالمعنى الصحيح بل كان سياجا مربعا يضم عدة أجنحة ولم يكن بناؤه الرئيسى كبير الحجم فقد كان طوله حوالى مائة وأربعة وعشرين قدما وعرضه حوالى خمسة وخمسين وارتفاعه اثنين وخمسين . وقد أقبل العبرانيون من جميع أنحاء البلاد ليتعبدوا فيه وكانت تروعهم ضخامته حتى اعتقدوا أنه إحدى عجائب العالم ، وهم لا يلامون على هذا الاعتقاد لأنهم لم يروا هياكل طيبة وبابل ونينوى التى لا يعد هيكلهم إلى جانبها شيئا مذكورا .

ويؤخذ من أقوال من وصفوا هذا الهيكل العظيم أنه كان فى صدر البناء الرئيسى مدخل كبير يبلغ ارتفاعه مائة وثمانين قدما مرصع بالذهب . وكان الذهب فضلا عن هذا يغشى كثيراً من أجزاء الهيكل، على سقف البناء الرئيسى والعمد والأبواب والجدران والثريات والمصابيح ومقصات الفتائل والملاعق والمباخر وكان فيه مائة حوض من الذهب وكانت الأحجار الكريمة ترصع أجزاء متفرقة منه . وشيدت الجدران من حجارة كبيرة مربعة أما السقف والأعمدة والأبواب فكانت من خشب الأرز والزيتون المنقوش . وقد قيل إن بناءه استغرق سبع سنين .

لهذا لا نعجب إذا كانت الأسطورة والخرافة قد تناقلت سيرة سليمان عبر الأجيال كملك جمع بين القوة والحكمة والعظمة وسيطر على الجن ، وكان بلاطه وشهرته سببا فى أن جذب إليه ملكة عربية معاصرة هى بلقيس ملكة سبأ . ولا تزال الأسرة المالكة فى الحبشة تدعى الانتساب إلى سليمان ولا يزال من أهم ألقابها لقب « أسد يهوذا » .

اضمحلال ملك العبرانيين :

رغم هذه الصورة البهيجة ورغم هذا الترف وهذا البذخ إلا أن آخر العهد بسليمان شهد اضمحلال هذا الملك الشامخ الذى وضع أساسه شاؤل وأتمه داود فقد أغرق سليمان فى سياسة المسالمة وتهافت على الحياة المترفة الناعمة فلم ينتبه للأخطار التى كانت تزعزع أركان ملكه ، لذلك كان الملك الذى ورثه أكبر من الذى أورثه فقد خرج الآراميون عن طاعته وأعلنوا استقلالهم كما ثار ملك الأيدوميين وخرج عن طاعته وأصبحت مصر تهدد ملك سليمان إذ أخذ الفرعون ينشر نفوذه فيها واستولى على قلعة جزر الكنعانية وبات يهدد دولة سليمان الذى لم يجد مفرا من أن يصاهر ملك مصر ليفوز

برضاه وليأمن على نفسه وعلى ملـكه . وقد سخط العبرانيون على ملـكهم بسبب تسخيره العمال فى مشروعاته البنائية . هذا إلى أن الإنفاق على الهيـكل والقصر كان يتطلب فرض ضرائب باهظة أثقلت على الناس وأدت آخر الأمر إلى انقسام الملك الذى لم يوحد إلا بعد جهود شاقة وتضحيات جسيمة .

ذلك أن داود وسليمان كانا يوحدان بين شعبين : بين إسرائيل ويهوذا وكانت الظروف الاقتصادية للعنصرين مختلفة كل الاختلاف فالشماليون كانوا زراعا يعيشون على القمح والزيتون والخمر أما أهل الجنوب فـكانوا رعاة يعيشون فى مرتفعات تصلح للرعى ، وكانت القبائل الشمالية متصلة بالحضارة الـكنعانية وكانت عبادتهم متأثرة بعبادة الشمس الـكنعانية ، أما قبائل الجنوب فقد ظلت على ولائها لدين موسى . لذلك ما كاد سليمان يموت سنة ٩٢٥ ق . م حتى ظهر الشقاق واضحا بين القسمين ولما اجتمع مندوبو القبائل لاختيار من يخلفه على العرش امتنعت قبائل الشمال عن مبايعة ابنه ، بينما بقيت قبائل الجنوب على الولاء لبيت سليمان وانتهى الأمر بأن قامت فى فلسطين مملـكتان إسرائيليتان : مملـكة إسرائيل فى الشمال وعاصمتها ششم تارة وسماريا تارة أخرى ومملـكة يهوذا فى الجنوب وعاصمتها أورشليم .

وقد تنافست المملـكتان ثم تعاديتا وكان ميزان القوى بينهما متقلبا يميل مرة فى جانب مملـكة إسرائيل وأخرى فى جانب يهوذا وكان هذا النضال مضعفا لقوتهما مبددا لوحدة الشعب الإسرائيلى .

مملـكة إسرائيل :

نعمت مملـكة إسرائيل ببعض الاستقرار فى عهد عمرى (٨٨٥ — ٨٧٤ ق . م) أول ملوكها وفى شطر من عهد ولده إهاب (٨٧٤ — ٨٥٢ ق . م) فسادت بين إسرائيل وبين جيرانها أهل الشمال علاقة مودة وصفاء فهدأت الأحوال على الحدود الآرامية وكانت مصاهرته لملك صور وصيدا ، مما قوى أواصر الود والتفاهم بينه وبين الفينيقيين . ولـكن هذا الصفاء لم يدم طويلا فقد ترتب على علاقة الصداقة مع الفينيقيين أن انتشرت عبادة بعل إله الفينيقيين ، وقام صراع مر بين أنصار دين بعل وبين اليهودية الأمر الذى أثار الشعب فعزل ملك إسرائيل فى الوقت الذى بدت فيه نذر خطر جديد تلوح من العراق فقد نمت قوة آشور وبدأت ترنو ببصرها إلى الغرب وتحلم ببسط السيادة على الشرق الأدنى . وكان أول لقاء بين القوة الأشورية الناهضة وبين ملك إسرائيل المتداعى فى عهد الملك شلمنصر الثالث إذ ظهر على مسلة أقامها ملك إسرائيل يقبل الأرض بين

يدى ملك آشور ويقدم الجزية من الذهب والفضة . لكن القضاء على إسرائيل نهائيا تأخر بعض الشيء إلى سنة ٧٤٧ حين تخلصت آشور من متاعبها الداخلية فى عهد تغلاث بيلاسر الذى عمل جاهدا على تحقيق حلم آبائه فى السيادة على الشرق ، وقد استطاع بعد هجوم خاطف أن يخضع دمشق وجلعاد ووادى الجليلى واقترب الخطر من إسرائيل التى حاولت عبثا أن تحالف ملك دمشق وملك أورشليم لتقف فى وجه الزاحف القادم من الشمال ولم تستجب مصر لنداء ملك إسرائيل ، وحاصر الأشوريون عاصمته ثلاث سنوات ثم سقطت آخر الأمر فى عهد سرجون الثالث فأسر زهرة شبابها وحملوا أسرى إلى بلاد العراق وقضى على مملكة إسرائيل نهائيا ، بل حاول الأشوريون أن يستأصلوا الشعب الإسرائيلى نفسه فكانوا ينقلون الأسرى إلى العراق ويجلبون قبائل أخرى من بابل وعيلام وسوريا وبلاد العرب لتقيم فى إسرائيل حتى لاتقوم لشعبها قائمة من بعد .

مملكة يهوذا :

وقد تعاقب ملوك كثيرون على عرش يهوذا كما تعاقب كثيرون على عرش إسرائيل ولكن المملكة الجنوبية قدر لها أن تبقى بعد زوال إسرائيل نحو قرن من الزمان . وهى وإن كانت قد نجت من مصيرها المحتوم إلى حين إلا أنها أخذت تتأرجح بين الإمبراطوريتين العريقتين بين مصر وبين آشور . فقد انتهز ششنق فرصة ضعف مملكة يهوذا فغزاها وخرب مدنها ودخل مدينة أورشليم ونهب المعبد والقصر . ولم تسلم يهوذا من خطر آشور فقد دفعت الجزية أول الأمر ثم ما لبثت أن خرجت عن طاعة آشور بتحريض من مصر ، ولم يجد ملك آشور بدا من أن يضع حدا لهذا الموقف المتأرجح فغزت جيوشه فينيقيا ومدن فلسطين ومملكة يهوذا وفتحت مدن صيدا وعكا ومضت جيوش سنخريب على ساحل فلسطين فأخضعت يافا ووصلت إلى عسقلان وأدركت حدود مصر وحوصرت أورشليم سنة ٧٠١ ق.م وقد هزمت القوات المصرية التى خفت إلى فلسطين لإنقاذها من الخطر الأشورى ولم تنج من المصير المحتوم إلا بعد أن حصد الوباء جيوش العدو الذى لم يجد مفرا من الانسحاب . ثم سقط ملك آشور سنة ٦١٢ ق.م وما كادت مملكة يهوذا تتنفس الصعداء وتحس بنعمة الراحة حتى عاجلتها مصر بهجوم خاطف من ناحية الجنوب فقد تقدم نخاو فرعون مصر على طول الساحل وهزم ملك يهوذا فى معركة مجدو وخر صريعا فى ميدان الحرب .

وما كادت يهوذا تفيق من الهزيمة التى منيت بها على يد المصريين حتى كانت بابل قد وطدت ملكها ونظمت شئونها وبدأت ترنو إلى فلسطين فتقدم نبوخذ نصر إلى

فلسطين فهزم قوات مصر فى قرقميش سنة ٦٠٥ ق . م وجردت مصر من أملاكها الأسيوية وانتهت معركة السيادة على غرب آسيا وأصبحت بابل سيدة الموقف . فكان طبيعيا أن تلقى يهوذا مصيرها المحتوم فحوصرت أورشليم سنة ٥٩٧ ق . م وسلمت بعد حصار قصير وقد خرب معبدها وأسر زهرة شبابها وانتهت مملكة يهوذا كما انتهت مملكة إسرائيل من قبل .

الحضارة العبرانية فى عهد الملكية

بعد أن عرضنا فى إيجاز لتاريخ الملكية العبرانية فى فلسطين : لنموها وتطورها وتذبذبها بين القوة والضعف ثم نهايتها آخر الأمر ، يجب أن نعرض لوجه آخر من أوجه الحياة العبرانية ، نعرض لحضارتهم ومدى ما وصلوا إليه فى هذا الميدان ، ومدى إفادتهم من الحضارات القائمة وفضلهم على الحضارات المعاصرة . فنعرض لنظم الحكم ولمظاهر الحضارة الأخرى ثم نعرض للدين العبرانى فى عهد الملكية .

١ — نظم الحكم :

(ا) النظم المالية : ترتب على قيام الملكية وما تبعها من حكومة مركزية أن تضاعفت حاجة الملوك إلى المال لكثرة النفقات ومواجهة الأعباء الجديدة التى اضطلعوا بها ، لذلك نرى الملكية تتجه نحو الضرائب ، نحو تنظيم وسائل فرضها ووسائل جبايتها . ولم يؤثر عن شاؤل أنه فرض ضرائب من هذا القبيل ، فقد كان ملكا بدويا حاجته إلى المال قليلة . أما داود فكانت وارداته ناجمة عن توسعه فى الفتح والغزو وكانت حصيلة الجزية المفروضة على الشعوب الخاضعة لسلطانه كافية لسد نفقاته . أما سليمان فكانت حاجته إلى المال أكثر ورغبته فى جمعه أشد ، لذلك كان أول من فرض الضرائب من ملوك العبرانيين فقد قسم البلاد اثنى عشر قسما للقضاء على النزعة القبلية القديمة وفرض على كل قسم أن يتكفل بنفقات البلاط شهرا ، وقد فرضت ضريبة على المراعى وضريبة أخرى لسد نفقات الملك . وكان للملوك ضياع خاصة بهم واضطر كثيرون منهم إلى الاشتغال بالزراعة والتجارة . وكان خضوع إسرائيل لنفوذ مصر وآشور سببا فى مضاعفة الضرائب بسبب الجزية المفروضة لبلاط نينوى أو بلاط منف .

(ب) البلاط : لما قامت الملكية أصبح لها بلاط قائم فتضاعف عدد موظفى الدولة ونشأت وظائف جديدة لم يعرفها العبرانيون من قبل مثل : كاتب الملك والمسجل

والحاجب وعامل الخراج وقائد الجيش وصديق الملك ، وكان الكهنة يعتبرون موظفين تابعين لبلاط الملك . وكان المعبد تحت إشراف القصر مباشرة تفرض له الضرائب الإنفاق عليه وعلى صيانته . وأصبح موظفو الملك والكهنة يؤلفون طبقة أرستقراطية جديدة احتكرت كل الحقوق ووجهت الدولة لمصلحتها الذاتية . وأصبح القصر في عصور الضعف وكرا للفساد والفتن والمؤامرات .

الجيش : كان العبرانيون في بداوتهم وبعد استقرارهم في فلسطين يعتقدون أنهم أمة خلقت للجهاد وأن مناضلة الأعداء ومحاربتهم واجب مقدس وأن الله يرعاهم أينما قاتلوا وناصرهم أينما ذهبوا . وكانت القبائل تخرج من مضاربها إذا لاحت نذر الحرب ، ثم تعود إلى حياتها الأولى من جديد فلم يكونوا بحاجة إلى جيش قائم منظم . وكانت غاراتهم تتسم بالقوة والعنف والتنكيل بالعدو لأن تلك إرادة الله .

ولكن قيام الملكية شهد تطورا خطيرا في تاريخ الحياة العبرية فقد طال عهدهم بالاستقرار والاشتغال بالزراعة فضعفت روح الجندية كما ضعفت روح الجهاد وأصبحت الحاجة ماسة إلى جيش قائم منظم أسوة بجيوش الممالك المجاورة ،فأصبحت الجندية حرفة بعد أن كانت واجبا مقدسا . وقد أنشأ شاؤل حرسا ملكيا ونظم داود الجيش وأكثر من المرتزقة وظلت الملكية تحتفظ بجيش أجنبي قائم طوال العهد بها ، وأصبح قائد الجيش موظفا له خطره في الحياة السياسية . وقد تطورت الأسلحة البدوية وتعلم العبرانيون صناعة الحديد من جيرانهم كما أدخل سليمان العجلة الحربية وأصبح الجيش الإسرائيلي لا يقل عن الجيوش الأخرى من حيث المدد والعدة ودقة التنظيم .

القضاء : تطلب قيام الحكومة المركزية تنظيم شئون القضاء . ففي العهد السابق على قيام الملكية كان شيوخ القرى هم قضاتها وهم الذين يطبقون التقاليد القبلية التي يقرها الرأي العام . وكان بعض الناس يلجأون إلى النبي أو الكاهن ولكن لم تكن لهم سلطات تنفيذية . ولم يكن للعبرانيين قانون مدني فقد كان القانون والدين مختلطان . وكان مشايخ القرى يحتفظون ببعض الصفات الدينية .

وقيام الملكية لم يغير من هذا النظام كثيرا فقد ظل المشايخ المحليون يحتفظون بوظائفهم ولكن نشأ إلى جانب هذا حق الالتجاء إلى الكهنة ، ومن هنا نشأت وظيفة القضاة المحترفين . ولما نمت سلطة الكهنة في المجتمع وتركزت العدالة في أورشليم أصبحت القضايا ترفع للكهنة .

وكان القانون الإسرائيلي شفويا أول الأمر ، ولكن قيام وظيفة القاضي في عهد

الملكية أدى إلى ضرورة تسجيل الأحكام والقضايا وكانت الشهادة الركن الأساسى فى القضاء وكانت مسئولية الشاهد بالغة الخطورة لذلك كانت شهادة الزور تفرض عليها أشد العقوبات . وكان الكهنة يستخدمون النبؤات والأزلام للكشف عن الجرائم . وكانت العقوبة الشائعة هى الرجم أو الشنق أو الإحراق .

وقد تمخض عهد الملكية عن تهذيب القانون البدائى فبدأوا يخففون من حدة الثأر وأصبح العقاب فرديا بعدأن كان جماعياً وبدأوا يميزون بين القتل العمد وغير العمد ونمت النواحى الإنسانية فى القانون خصوصاً فى عهد داود . وأصبح القانون قومياً لا يطبق إلا على الإسرائيليين وحدهم وأخرج غير الإسرائيليين من نطاقه .

وقد تأثرت الأحوال الاجتماعية بقيام الملكية فنمت الحياة المدنية نموا عظيما . ففى العصر السابق على قيامها كانت أقلية الشعب هى التى تعيش فى المدن ، وكانت القرية هى نواة المجتمع العبرى وكانت أمة كثرتها من القرى وقلتها من المدن وغالبيتها طبقة مسالمة من الفلاحين . ولكن قيام الملكية ونمو البلاط جعل الناس يتجهون صوب المدينة التى أصبحت ذات تأثير كبير فى المجتمع الإسرائيلى الجديد .

وقد تمخض قيام الملكية عن تطور آخر فى حياة الشعب فقد نمت التجارة وأقبل الملوك وأقبل الشعب عليها حتى أصبحت طابعاً مميزا للشعب الإسرائيلى فقد نمى سليمان العلاقات التجارية ، وسار خلفاؤه فى نفس الوجهة . وقد ترتب على هذا استخدام العملة بعد أن كانت المعاملة تتم بالتبادل . وكانت وفرة الثراء سببا فى خلق طبقة جديدة من الأغنياء وعم الترف والرخاء وأصبحت الهوة سحيقة بين الغنى والفقير .

٢ — الحضارة :

نستطيع أن نقول إن العبرانيين فى فلسطين قد قلدوا الحضارات القائمة فى الشرق الأدنى فى عصرهم ولكنهم كانوا أبعد تأثراً وأشد تقليداً للحضارة الكنعانية الفينيقية التى كانت تسود فلسطين وبلاد الشام فى الوقت الذى جاءوا فيه من مصر واستقروا فى فلسطين . وقد تأثروا بالكنعانيين فى النواحى الآتية :

(١) فى اللغة والكتابة : كان العبرانيون وقت دخولهم فلسطين يتكلمون بلهجة سامية قديمة ولم يكونوا قد عرفوا الكتابة بعدفلما استقروا فى فلسطين وخالطوا الشعوب الكنعانية المتحضرة تأثروا بلغتهم فتركوا لهجتهم القديمة وبدءوا يتكلمون اللهجات المحلية بل تعلموا فن الكتابة أيضا فاقتبسوا من الأبجدية الكنعانية وبدءوا يكتبون تراثهم ويسجلون آدابهم .

(ب) الزراعة : كان العبرانيون كما قلنا بدوا رحلا لا عهد لهم بالزراعة المتفوقة الراقية فلما استقروا فى فلسطين تعلموا فن الزراعة كما تعلموا الفنون الأخرى . تعلموا زراعة القمح والزيتون والكروم كما استعانوا بالآلات الزراعية التى كان الفينيقيون قد استحدثوها . استعانوا بالمحراث وبالفأس كما تعلموا وسائل الرى .

(ج) العقائد : رغم أن العبرانيين كانت لهم ديانة راقية قائمة على توحيد الخالق والإيمان بقدرته وتقديس صفاته إلا أن اختلاطهم بالفينيقيين قد نجم عنه تأثر بعقائدهم وطقوسهم الدينية فتعلم العبرانيون عادة تقديم القرابين من منتجات الأرض والأنعام للمعابد كوسيلة للقربى من المعبود . ورغم اعتقادهم فى يهوة رب السماء إلا أنهم لم يهملوا الآلهة المحلية التى كانت المدن الفينيقية الأخرى تعبدها بل قدسوها واعتبروها تحمى خصوبة الأرض وتهيمن على شئون الحياة العادية مثل الزراعة والتجارة . بل نجد العبرانيين فى الشمال يتأثرون ببعل رب الفينيقيين رب السماء وباعث الغيث وخالق العواصف وكان الآباء اليهود يسمون أبناءهم أسماء منسوبة إلى بعل . بل يذهب بعض الباحثين إلى القول بأن فكرة العبرانيين فى الحياة ومابعد الحياة متأثرة بالكنعانية ، مثل عوائد الدفن مثلا فالميت يوضع فى المقبرة ومعه الأشياء التى كان يستعملها فى حياته اليومية وكانت هذه الأشياء سواء أكانت مصوغات أو منسوجات كانت متأثرة بالفن الكنعانى .

(د) الفن والمعمار : تأثر الفن الإسرائيلى بالفن الكنعانى تأثرا عظيما . وقد رأينا كيف أن معبد سليمان وهيكل اليهود بناه مهندسون من مدينة صور فجاء تقليدا للمعبد الكنعانى كما جاءت زخارفه متأثرة بالنظم الكنعانية وكذلك كان القصر الملكى متأثرا فى هندسته وفى زخرفته بالنماذج الكنعانية المعاصرة .

(هـ) الموسيقى : كانت طقوس المعبد فى حاجة إلى الموسيقى لذلك نجد أن المغنيين والموسيقيين كلهم من أهل كنعان ، وحينما وضع داود وسليمان أصول الموسيقى الإسرائيلية الدينية قلدوا النماذج الكنعانية . وكان من أهم الآلات الموسيقية عند اليهود الدف وآلات النفخ مثل البوق والأرغول والمزمار وكذلك القيثارة . . وقد تطور الغناء كما تطورت الموسيقى ومن أقدم الأغانى عند اليهود أغنية ديبورة التى تسجل انتصار اليهود على الكنعانيين ، وكانت هنالك أغان خاصة بالحج تنشد فى الطريق إلى المعبد وقد نظمت شعرا على نمط الشعر الكنعانى وكتاب العهد القديم كله يكاد أن يكون منظومة شعرية كبرى .

(و) الصناعات : كانت صناعة النسيج من أهم الحرف المنزلية عند العبرانيين ولكن هذه الصناعة البدائية ما لبثت أن تأثرت بما وصل إليه الكنعانيون من رقى فى فن النسيج والصياغة لذلك كانت أزياء الملوك والكهنة والأشراف من نسيج كنعانى متأثر بالزخارف الكنعانية .

وكانت صناعة النسيج تعتمد على الكتان المحلى وكان هذا النبات يزدهر فى مصر وفى شرقى البحر الأبيض المتوسط وكان ينبت فى سهول جريكو قبل مجىء اليهود وقد أدخلت زراعة القطن ولكن الصوف كان يستعمل قبله بوقت طويل .

وقد تعلم العبرانيون صناعة الأسلحة وصناعة الحديد وطرقه والنحاس وصياغة الذهب والأحجار الكريمة كما تعلموا فن بناء الطواحين وصناعة الأفران وعصير الزيت والعنب وصناعة الخمر ، وقد لعبت شجرة الكرم دورا كبيرا فى العقائد اليهودية وفى الحياة الاقتصادية وكان نبات الكرمة يرمز به للخصوبة كما كانت الخمر تقدم قرابين لرب المعبد وظهرت صورة الشجرة فى فن النقش والنحت والتصوير . كما استخدم العبرانيون المصباح الكنعانى الذى يضاء بزيت الزيتون وظلوا يستخدمونه ستة قرون .

٣ — الدين :

على أن فضل العبرانيين على المدنية لم يكن فى ميدان الفن أو السياسة أو الاقتصاد إنما كان فى ميدان العقائد فأصبحوا أول من علم البشرية التدين والأخلاق وظهرت عبقريتهم فى كتاب العهد القديم ، إذ لم تصل إلينا فى العصر السابق للمسيحية قطعة من الأدب الرفيع تماثل هذا الكتاب القيم . وهو ليس مجرد قطعة من الأدب إنما هو صورة من الحضارة . وقد وصلتنا نماذج أدبية من الحضارات القديمة بعد أن ظلت أجيالا طويلة مطمورة فى الأرض أما هذا الكتاب فقد ظلت الرواية تتناقله جيلا بعد جيل . وظل طوال هذه الأجيال العامل المؤثر فى نفوس ملايين البشر .

ومادته نفسها قد مرت بأدوار متعاقبة بالاختيار والتوضيح والنشر حتى بلغت شكلها النهائى وأصبحت أجزاؤه تؤلف وحدة غريبة . وأصبح الكتاب فى كل عصر مادة لدراسة واسعة ، درسه الفنانون والكتاب والشعراء فى العصور القديمة والحديثة ولم يكفوا عن التأثر به كما تأثرت اللغات الحية بلغته وبأسلوبه .

وقد اشترك كثيرون من المعلمين والمؤرخين فى كتابة العهد القديم من بعد بعثة موسى عليه السلام . وقد قيل إن التشريع اليهودى قد تأثر بشريعة حمورابى . ورغم أن

هذه الشريعة كانت ذات طابع صناعى تجارى وأن شريعة اليهود كانت ذات طابع زراعى رعوى إلا أنه هنالك ثمة تشابه بينهما فقانون حمورابى يحرر العبد بعد أربع سنوات وشريعة اليهود بعد سبع . وفى شريعة حمورابى الشىء المفقود يعوض بمثلين أو بثلاثة أمثال وعند اليهود بأربعة أو خمسة أمثال . وضرب الأب يعاقب عليه حمورابى بالتشويه ويعاقب عليه اليهود بالموت . وحمورابى يعاقب القضاة المرتشين وشريعة اليهود تنهى عن الرشوة . لكن العنصر الأخلاقى فى شريعة العبرانيين المتمثل فى الوصايا العشر ليس له أى نظير فى شريعة أخرى سابقة عليه .

وكان الكاهن فى الحياة العبرية واسطة بين الله والناس ، والكهنة يؤلفون طبقة خاصة فى المجتمع وكانت وقفا على بيت هارون دون سواهم . والحكماء اليهود يخاطبون الأفراد أكثر من مخاطبة الجماعات وهم يعتقدون أن رضا المخلوق أهم فى نظرهم من رضا الخالق وأن الحكمة تنبع من الرجل نفسه ، فهى نتيجة ملاحظاته وتجاربه . ومن أشهر الحكماء كوهين معلم الشريعة ، وواضع القانون ومن أشهر كتب الحكمة حكم أيوب وأمثاله فهو من أهم كتب الحكمة وأشهرها بلغ صاحبه الغاية من رجحان العقل والحكمة .

ومن أشهر المعلمين العبرانيين قوم يقال لهم الأنبياء ولا يقصد بهم المتنبؤن بأحداث المستقبل إنما هم قوم يتلقون الوحى من الله ويتحدثون باسمه . وقد نشأت ظاهرة التنبؤ هذه كرد فعل لعبادة بعل وغيره من العبادة الأجنبية وإنقاذا لشريعة موسى وحثا على التمسك بها ، وعبادة الخالق مجردا من كل صفة . وقد حلقوا فى آفاق عالية من الروحانية والتدين يبشرون بعقيدة التوحيد توحيد الله الحق العدل الذى يتطلب من عباده أن يكونوا فى العدل مثله وفى الخلق مثله ، الذى لا يطرب للضحايا إنما يطرب للمتمسكين بالدين فهو يعنيه السلوك أكثر مما تعنيه طقوس العبادة .

وكان هدف هذه النبوءة هدفا توحيديا أخلاقيا وظهر هؤلاء الناس فى عالم لم يكن يعرف من الدين إلا طقوسا وعبادات ورسوما يعتبرونها الطريق للفوز برضا المعبود وتجنب غضبه . ولكنهم جاءوا بتفسير جديد لصفة الخالق وعلاقته بالمخلوق . وكان هدفهم ليس خلاص الروح فحسب ، بل خلاص الفرد والإبقاء على المجتمع والتبشير بالعدالة الاجتماعية . ولم يستطع معلموا بابل أو اليونان أن يمزجوا بين الأخلاق والدين أو اعتبار قواعد السلوك الإنسانى قواعد مقدسة . حتى كتاب الموتى المصرى نفسه نجد أن النواحى الأخلاقية فيه لا تقارن بما جاء فى التوراة . وقد بنيت المسيحية على هذه

الاسس التى وضعها الأنبياء فكانت حركتهم أعظم فتح فى تاريخ البشرية الروحى فقد أنتجت نوعا جديدا من الأدب العميق المثير ، وقد أفقدته الترجمة كثيرا من مميزاته الأولى وظهرت غالبية آداب النبوة بين سنتى ٧٥٠ و ٥٥٠ ق . م .

والبابليون والأشوريون والمصريون والإغريق وإن كانوا قد اعترفوا بوحدانية الله إلا أنهم لم يستبعدوا الآلهة المحلية . أما الوحدانية العبرية فهى تنكر وجود إله غير الله وهو إله ليس قبليا ولا وطنيا بل هو إله عالمى دولى . وبذلك تخلصت ديانة اليهود من الطابع القبلى الإقليمى واتخذت هذا الطابع العالمى . وليس من السهل أن نشرح كيف حدث هذا التطور ، ولكن الجو المشحون بعوامل التفكك السياسى والحرب الاقتصادية والانحلال الدينى ، كل هذه المحن صقلت عقولهم وصهرت قلوبهم فاعتقدوا أن جيوش أشور تغزو أرض اليهود لأن الله قد سخرها للانتقام من عباده الظالمين وبذلك قلبوا الهزيمة نصرا وارتفعت قيمة المعبود فى نظر الناس .

وكان أول رجل فى التاريخ من بعد النبى موسى ينادى بوحدانية الخالق وعالميته راع فى إحدى قرى يهود يسمى عاموس بشر بدينه سنة ٧٥٠ وكان رجلا أميا لا يقرأ ولا يكتب أخذ ينشر بعقيدته فى مملكة الشمال وهو أول من قال بأن الله ليس لإسرائيل فقط بل للعالم كله . ترك عاموس قطيعه ليشهد بيت الله ، فهاله ما شاهد فيه من تعقد الحياة تعقدا غير طبيعى ، ومن الفروق الشاسعة بين الطبقات من التنافس المرير القاتل بين الغنى والفقير ومن قسوة فى استغلال الناس . فلما رأى هذا وقف بالباب وهو يصب جام غضبه على ذوى الثراء المنغمسين فى الترف الذين لا يرعون فى الناس عهدا ولا ذمة.

« من أجل أنكم تدوسون المسكين وتأخذون منه هدية قمح بنيتم بيوتا من حجارة منحوتة ولا تسكنون فيها وغرستم كروما شهية ولا تشربون خمرها ويل للمستريحين فى صهيون . أنتم المضطجعون على أسرة من العاج والمتمددون على فرشهم والآكلون خرافا من الغنم وعجولا من وسط الصيرة الهاذرون مع صوت الرباب المخترعون لأنفسهم الغناء كداود الشاربون من كؤوس الخمر والذين يدهنون بأفضل الأدهان . كرهت أعيادكم . . إنى إذا قدمتم لى محرقاتكم وتقدماتكم لا أرتضى . أبعد عنى ضجة أغانيك ونغمة ربابك لا أسمع وليجر الحق كالمياه والبر كنهر دائم . . . »

بهذه النغمة المثالية فى آداب العالم أخذ عاموس يعلن عن مثاليته وينطق عن لسان الحق بالوعيد الجارف كالتيار . هكذا أصبح الضمير الاجتماعى لأول مرة فى الأدب الأسيوى يفيض على الدين ، ويرفعه من دين طقوس وعبادة إلى وعى للنبل وحث على مكارم الخلق . إن إنجيل المسيح يبدأ فى الحقيقة بظهور عاموس .

وفى أثناء حصار أورشليم ظهر النبى أشعيا كأعظم شخصيات التاريخ العبرى فكان أول من نادى بعصمة الخالق كما أخذ ينصح بأن يعامل الناس بالعدل وأن يترك أمرهم لله وحده يؤدبهم كيف يشاء ، كما أخذ يشهر بالاستغلال الاقتصادى فى حديث يعتبر من أرقى ما وصل إليه الأدب فى أسفار العهد القديم فى فقرات تعد من أروع ما كتب من النثر فى أدب العالم كله .

« الرب يدخل فى المحاكمة مع شيوخ شعبه ورؤسائه . وأنتم قد أكلتم الكرم . سلب البائس فى بيوتكم . ما لكم تسحقون شعبى وتطحنون وجوه البائسين . ويل للذين يصلون بيتا ببيت ويقرنون حقلا بحقل حتى لم يبق موضع ، حضرتم تسكنون وحدكم فى بطن الأرض . . . ويل للذين يقضون أقضية الباطل وللكتبة الذى يسجلون زورا ليصدوا الضعفاء عن الحكم ويسلبوا حق بائسى شعبى لتكون الأرامل غنيمتهم وينهبوا الأيتام . وماذا تفعلون فى يوم العقاب حين تأتى التهلكة من بعيد . إلى من تهربون للمعونة . وأين تتركون مجدكم . . . »

ومن هؤلاء الأنبياء أيضا أرميا الذى بدأ رسالته سنة ٦٢٦ ق . م وكانت وحدانيته أتم وأقرب إلى الناحية العملية .

اليهود بعد المنفى

(تنظيم الدين والحكومة)

رأينا كيف قضى الأشوريون على مملكة الشمال وكيف قضى البابليون على مملكة الجنوب وحملوا أغلب العبرانيين ليعيشوا فى العراق عيشة الأسر والعبودية . وبعد أن تشتت اليهود على هذه الصورة ، ليس لدينا الكثير مما نقوله عن تاريخ فلسطين وحضارتها فقد كانت اللغة الأشورية والحضارة الأشورية هى السائدة فى ربوع فلسطين ولكن الحضارة الأشورية كانت حضارة دخيلة لم تترك فى البلاد أثرا يذكر . ولم يبق من الشعب العبرى إلا أقلية لم يخش الفاتحون منها شيئا ، بل كانوا يحتاجون إليها فى قطع الأخشاب ومتح الماء ومباشرة الحرف والصناعات التى يحتاج إليها المحتلون وقد فر فريق من العبرانيين أهل الجنوب إلى مصر فأقاموا فيها . ولم تجد العناصر العبرية التى بقيت فى الشمال أو الجنوب بدا من الاختلاط بالقبائل الجديدة التى نقلها الأشوريون لتحل محل من رحل من أهل البلاد . هكذا تفرق اليهود وضعف أمرهم وبدا للناس كأن ملك اليهود لن تقوم له قائمة مرة أخرى .

لكن قدر لبابل أن تدول دولتها كما دالت دولة آشور من قبل ، فقد ظهرت قوة جديدة فى سماء العراق وهى قوة فارس بعد أن أصبحت سيدة ميديا فى عهد الملك قورش وما كاد يتم لها هذا حتى أخذت تعد العدة لتكون سيدة عالم الشرق الأدنى كله . فقد نظم قورش قوات ميديا وفارس الحربية وجعل منها جيشا قويا لا يقهر واستولى على سرديس وبابل ، وقضى على حكم الساميين فى غرب آسيا فلم تقم له بعدئذ قائمة مدى ألف عام كاملة وضم إلى الدولة الفارسية كل البلاد التى كانت من قبل تحت سلطان أشور وبابل وليديا وآسيا الصغرى وكان ظهور هذه القوة الجديدة مما أحيا أمل اليهود المشردين فما كاد يدخل بابل حتى عفا عن اليهود وأباح لهم أن يعودوا إلى أورشليم إذا أرادوا ، بل أعاد لهم ما كان باقيا فى خزائن الدولة البابلية من الذهب والفضة اللذين اغتصبهما نبو خذنصر من الهيكل وأمر الجماعات التى كان اليهود المنفيون يعيشون بينها أن تمدهم بالمال الذى يحتاجونه فى رحلتهم الطويلة .

وقد بدأت أفواج اليهود المشردين تعود إلى أرض الوطن، فعاد الفوج الأول بقيادة زربابل كما تتابعت الأفواج الأخرى ولم يجد هؤلاء العائدون ترحيبا كبيرا فى وطنهم القديم ذلك أن أقواما آخرين من الساميين قد استقروا فى تلك البلاد ، وتملكوا الأرض وأخذوا ينظرون بعين الكراهية إلى العائدين الذين اعتقدوا أنهم ماجاءوا إلا ليسلبوهم ماملكوا ولولا أن الدولة الفارسية الصديقة كانت تحمى اليهود العائدين وتشد أزرهم لما استطاعوا أن يستقروا فى فلسطين . وقد بدأ اليهود العائدون فى إعادة بناء الهيكل واستطاعوا أن يتموا بناءه بعد اثنتى عشرة سنة من مجيئهم رغم قلة عدد االمهاجرين وضآلة مواردهم ورغم ما كانوا يلقونه من عقبات بسبب موقف الأهلين العدائى كما تم إصلاح أسوار أورشليم سنة ٥١٦ق.م وبدأت تستعيد مكانتها القديمة شيئا فشيئا وأخذ اليهود يتوافدون من المنفى فحضرت أفواج أخرى بقيادة عزرا . لكن لم يعد لليهود سابق قوتهم ومجدهم وأصبحوا يكونون دويلة ضعيفة تدور فى فلك النفوذ الفارسى حتى قدر لها أن تنتهى آخر الأمر سنة ٧٠ ق . م حين غزا الرومان فلسطين ودخلوا أورشليم وأعملوا فيها يد التخريب .

هذه هى الأوضاع الجديدة لليهود بعد عودتهم من المنفى فلنحاول أن نرى إلى أى حد أثرت هذه الأوضاع فى نظم الحكم وفى تطور العقيدة .

وأول ما نلاحظه فى هذا العهد نمو الزعامة الدينية وتحكمها فى تقرير مصير الأمة اليهودية وقد اعتقد هؤلاء الزعماء الدينيون أمثال زربابل وعزرا أن الوطنية لايمكن

أن تبنى إلا بفضل وحدة دينية شاملة لذلك عمدوا لإقرار هذه الوحدة إلى إعادة بناء المعبد وجعله المعبد الوحيد فى البلاد الذى تتجه إليه أبصار اليهود وأفئدتهم وعمدوا إلى بناء الأمة على أساس أنها شعب من الكهنة يعبدون الله فى سلام وفى حق بعد أن ندموا على أخطائهم التى كانت سبباً فيما حل بهم من العذاب . وقد ترتب على هذا أن اصطبغت الدولة فى العهد الجديد بصبغة دينية بحتة ، ولما أن أصبح معبد أورشليم المعبد الوحيد فى الدولة ارتفعت مكانة كبير الكهان بل وأصبح الرئيس الدينى للدولة كلها وتحكم فى مصيرها وأصبح المنصب وقفا على بيت هارون ، وأصبح الكهان يؤلفون طبقة خاصة ممتازة يختارون كلهم من قبيلة واحدة هى قبيلة ليفى أو بمعنى آخر تكونت طبقة دينية يرأسها كبير الكهان سيطرت على الأمة وتحكمت فى مصائرها . وأصبحت الدولة والحق يقال دولة كنسية وأصبحت الحكومة فى يد أقلية دينية . وكان كبير الكهنة إلى جانبه أول الأمر حاكم مدنى ولكنه اختفى بالتدريج وأصبح كبير الكهنة هو رأس الدولة وأصبحت المجالس اليهودية يتألف أغلبها من الكهنة الذين زادت ثرواتهم ، كما عظم نفوذهم ، إذ كانوا يستولون على الهبات والعطايا التى تقدم للمعابد وأصبحت لهم الضياع الواسعة وجمعوا بين الدين والدنيا .

وقد نظمت الأعياد وأصبحت تحتل مكانة خاصة فى نفوس اليهود إذ أصبح لها نوع من القدسية كما وضعت للطقوس الدينية الأصول والقواعد الدقيقة . ونظم القانون الكهنوتى على أساس وحدانية الخالق فالله هو المعبود الفرد وهو معبود العالم كله وهو يعيش فى السماء ، ولكن أمجاده تنزل إلى ساحة المعبد واحتلت القدسية المكان الأول من التفكير الدينى فى ذلك العصر والقدسية هى مظاهر الاحترام التى يقدمها الفرد لربه لذلك نجد الاهتمام بتقديس بعض الأماكن الخاصة فى أوقات خاصة فالمعبد الكبير متميز عن المعابد الأخرى ويتميز اليهود عن المشركين ويتميز الكهنة عن غيرهم من شعب إسرائيل .

وأصبح التركيز فى هذا العهد منصبا على أمرين خطيرين : على الخطيئة وعلى التكفير عنها . وكان التشريد الذى لقيه اليهود هو الذى جسم فكرة الخطيئة فى نظرهم فنجد حزقيال يتحدث عن الخطيئة كعنصر جديد فى الديانة اليهودية . وأصبح تصور الخطيئة على هذا النحو له خطورته القصوى فى تاريخ الأديان وفى التمهيد لظهور المسيح . وهذا أبدع ما وصلت إليه اليهودية من حيث التمهيد للروح البشرية لتتحد مع الله . وقد تتحدث بعض الشرائع عن مساواة حقيقية بين الرب والعبد ولكن اليهودية رفضت هذا واعتبرته كفرا وإلحادا حين قالت إن الإنسان خلق على صورة الله ، إلا أنها تقول بقدسية المعبود

وأنه فى السماء والإنسان على الأرض وإن ورع الإنسان أو تقواه رداء مدنس وبذلك أوجدت هوة سحيقة بين العبد والخالق لا يمكن تخطيها وهى حين رفعت من قدر الخالق وحطت من قدر الإنسان الخاطىء أدت إلى يأس اليهود من الخلاص .

وفى عام ٤٤٤ دعا عزرا وهو كاهن عالم اليهود إلى اجتماع خطير وشرع يقرأ عليهم من مطلع النهار إلى منتصفه « سفر شريعة موسى » وظل يتلوه سبعة أيام كاملة ولما فرغ من قراءته أقسم الكهنة والزعماء والشعب على أن يطيعوا هذه الشرائع ويتخذوها دستورا لهم يتبعونه ومبادىء خلقية يسيرون على هديها ، وظلت هذه الشرائع منذ ذلك الوقت المحور الذى تدور حوله حياة اليهود . وقد أدى هذا إلى خلق قانون يتناول كل ناحية من الحياة وكل وجه من وجوه الدين ، وأدت الحاجة الى ضرورة التفاسير والفتاوى فنمت وظيفة الربى والكاتب وخلق هذا التل من التقاليد التى رأى العهد الجديد أنها تحد من اليهودية ونشاطها وتخلق روحا من التعصب وقد أدت فى النهاية إلى نوع من الانعزالية والكبرياء الروحية وعدم التسامح وإلى سلسلة من التشريعات والطقوس التى أفسدت العقيدة .

الفصل العاشر

الآراميون

أصل الآراميين :

فى منتصف القرن التاسع عشر الميلادى حلت رموز الخط المسمارى ودرست اللغات الأشورية والبابلية والعبرية والآرامية والعربية والحبشية دراسة مقارنة فتبين أن بين هذه اللغات أوجه شبه ظاهرة وأن الصلة بينها جوهرية حقيقية . فجذر الأفعال فى كل هذه اللغات ثلاثى وللزمن صيغتان صيغة الماضى وصيغة المضارع وتصريف الأفعال متشابه وأصول المفردات والأسماء الدالة على القرابة والأعداد وأعضاء الجسم تتشابه إلى حد بعيد بل ثبت أن الأنظمة الاجتماعية والعقائد الدينية عند الشعوب المتكلمة بهذه اللغات تكاد أن تكون واحدة .

لذلك نستطيع اعتمادا على هذه الحقائق أن نقول إن هذه الشعوب البابلية والأشورية والكلدانية والعمورية والآرامية والفينيقية والعبرانية والعربية والحبشية من أصل واحد وكان أجدادهم شعبا واحدا وانحدروا جميعا من وطن واحد .

وقد أثبت البحث الحديث أن هذا الوطن الأول لهذه الشعوب جميعها يقع فى شبه جزيرة العرب التى تعتبر بحق مهد الجنس السامى . وطبيعة هذه الجزيرة تحدد سير الهجرات التى تخرج منها فى فترات متعاقبة فمعظم سطحها صحراء تحيط بها حافة ضيقة من الأرض ثم يحدق بها البحر من الغرب والشرق والجنوب . والمنفذ الوحيد الذى تستطيع أن تسلكه الشعوب التى تضيق بالمعيشة فى شبه الجزيرة هو ذلك الطريق الساحلى الذى يقع غرب شبه الجزيرة والذى إذا أدرك شماله تفرع عند شبه جزيرة سيناء إلى وادى النيل الخصيب .

وكانت طبيعة هذا الوطن تتغير فى فترات متباعدة أو متقاربة كما تتزايد أعداد القبائل الضاربة فيه فلا تجد مناصا والطبيعة تستحثها من مغادرة أوطانها ، والرحيل صوب الشمال سالكة ذلك الطريق ثم تستقر بعض الوقت على أطراف البادية بين شبه الجزيرة وبين السهول الخصبة الخضراء فى أول الدجلة والفرات أو فى فلسطين وبلاد الشام .

ثم تخضع هذه الشعوب المستقرة على حافة الجزيرة لقانون الطبيعة للنزاع الذى لا ينقضى بين حياة البادية الجافية الغليظة وبين الأراضى الزراعية الخصيبة بين البدو وبين المستقرين وكانت هذه الشعوب لا تكف عن الإغارة على أطراف البلاد الزراعية التماسا للمرعى أو الماء ، ثم تظل ترقب الأحوال فإذا لاحت لها فرصة ضعف أو اضطرابه فى السلطات المركزية المشرفة على السهول تدفقت إلى هذه البلاد تريد الاستيطان والاستقرار .

كان الآراميون شعبا من هذه الشعوب السامية التى كانت تخرج من شبه الجزيرة . خرجوا منها كما خرج منها الكنعانيون من قبل وأقاموا على تخوم البادية كما أقام غيرهم ثم بدءوا يغزون أطراف السهول الزراعية فى بابل وفى بلاد الشام حتى لاحت الفرصة المنشودة سنة ١٥٠٠ ق . م فانطلقوا من مضاربهم وتقدموا صوب الشمال حتى دخلوا منطقة الجزيرة الواقعة بين منحنى الدجلة والفرات ، ثم تسربت بطون منهم إلى الجنوب ؛ إلى أرض بابل حيث وقف تقدمهم بعض الشىء ثم تسربت بطون أخرى صوب الشرق فاستقرت فى بلاد الشام فى إقليم سورية الحالية . وقد سميت هذه الهجرة بالهجرة الآرامية وظهر هذا الاسم فى وثائق العالم القديم لأول مرة عام ١١٠٠ ق . م فى عهد ملك آشور تغلاث بيلاسر الأول فكانت ثالثة هجرة سامية بعد الكنعانية والعمورية .

ويبدو أن هذه الهجرات الآرامية لم تكن تتألف من شعب واحد متجانس بل كانت أقرب إلى كونها مجموعة كبيرة من الأحلاف القبلية وحدت بينها ظروف متشابهة ورغبة متشابهة وأهداف واحدة غايتها الهجرة والاستقرار والخلاص من حياة البادية الخشنة . يدل على هذا أن هذه الهجرة تضمنت قوما يقال لهم الخابيرو وقوما آخرين يقال لهم الأخلامو والأخلامو باللغة العمورية القديمة لفظ معناه الأصحاب أو الأصدقاء أو الأحلاف مما يؤيد ما ذهبنا إليه من أن هذه الهجرة كانت تتألف من أحلاف قبلية ، يؤيد هذا أيضا ماورد فى النقوش البابلية القديمة من حديث عن هذه الجموع السامية الهاجرة وما ورد فى خطابات تل العمارنة من إغارة هذه المجموعات القبلية على مدن سوريا واستيلائها عليها آخر الأمر . بل يدل على القرابة الوثيقة بين الآراميين والأخلامو ما ورد فى النقوش الأشورية على لسان تغلاث بيلاسر ، حينما ذكر : « أنه سار بجيوشه فى بلاد الأعداء من الأخلامو والآراميين » .

استقرارهم فى بلاد الشام والجزيرة :

والبدو كما قلنا يظلون فى مضاربهم على الحدود يترقبون الفرصة المواتية للتسرب إلى مواطن الرخاء والاستقرار وقد ظل الآراميون يترقبون هـذه الفرصة المواتية حتى لاحت لهم حينما عمد شعب الحيثاى إلى الإغارة على بلاد العراق وبلاد الشام فى أوائل القرن السادس عشر قبل الميلاد ، الأمر الذى أضعف السلطة المركزية فى بلاد العراق والجزيرة ، وفى نفس الوقت تقريبا سقطت أمة الميتانيين تحت نير السيادة الحيثية بعد ذلك بقرن فكان هذا الاضطراب وهذه الفوضى الشاملة من الأمور التى فتحت أبواب الجزيرة والشام أمام القبائل الآرامية البدوية . فبدأت خلال القرن الرابع عشر والثالث عشر تتجه صوب الشمال وتغزو إقليم الجزيرة وتنتشر فوق رقعة شطر كبير منها بل أخذت هذه الجموع السامية تطرق أرض الشام وتغزوها وتستقر فيها .

وبدأ الوافدون الجدد وهم أهل بادية يمتازون بالشدة والعنف والقوة يكتسحون الشعوب الأخرى التى كانت تبسط ظلها فى بلاد الشام فتقهقر الحوريون والحيثيون وبدأت موجات الآراميين المتقدمة تدفعهم صوب الشمال بالتدريج ودخلت غارات الآراميين غربا حتى جبال لبنان فتوقفت حيالها لاتستطيع أن تجاوزها ، حيث اعتصم بها الحوريون والحيثيون وبقيت السهول الساحلية بمعزل عن الآراميين . تركت للكنعانيين يعمرونها وينشرون مدنهم فى أرجائها .

وما جاء عام ١٢٠٠ ق . م إلا وأصبح الآراميون الكثرة الغالبة ولم يعد ينازعهم فى ديارهم الجديدة منازع فاتخذوا مدينة دمشق مقرا لهم ومدينة دمشق بالآرامنة دار مشق أو حصن مشق ، ومن الغريب أن هذا الاسم الآرامى لمدينة دمشق قد ورد فى وثائق مصرية من عصر رمسيس الثالث (١١٩٨ — ١١٦٧ ق . م) كما استولى المغيرون على مدينة حران فى منطقة الجزيرة وأصبحت قاعدة لهم فى هذه المنطقة .

وقد حدث فى هذا الوطن الجديد ما يحدث فى جميع الأوطان التى يلتقى فيها البدو بالمستقرين وتلتقى فيها الحضارات البدوية البدائية بالحضارات المتفوقة الراقية حينما يعمد البدو إلى الحضارات القائمة فيتفاعلون معها ، ويقتبسون بعد أن يستقروا ويطيب لهم المقام . فقد التقت حضارة الآراميين البدوية بحضارات العموريين والفينيقيين والحيثيين فأقبلوا عليها وقبسوا منها وبدأوا يخلصون من طابع البداوة بعد أن تم هذا التحضر ويتشبهون بأهل البلاد المستقرين فى حياتهم فى طعامهم ولباسهم وثقافتهم . إلا أن الأمر الفريد فى هذه الظاهرة أن الآراميين رغم اقتباسهم من الحضارات القائمة احتفظوا بلغتهم لم يستبدلوها بغيرها كما فعل العبرانيون والفلسطينيون من قبلهم وكانت هذه الحقيقة بعيدة الأثر فى مستقبل غرب آسيا وفى حضارتها .

وكان من أثر التقاء الحضارة الآرامية بالحضارات المحلية الراقية ومن أثر استبدالهم حياة البداوة بحياة الاستقرار ، التى تتطلبها البيئة الجديدة أن أسس الآراميون فى بلاد الجزيرة والشام إمارات كان لها شأن فى تاريخ الشرق القديم وحضارته .

الإمارات الآرامية فى بلاد الشام والجزيرة :

توقفت الهجرات الآرامية فى القرن الثالث عشر ق . م وتم استقرارهم فى أوطانهم الجديدة وطابت لهم الحياة فيها ، وفى نفس الوقت تقريبا استقر العبرانيون بنو عمومتهم فى فلسطين . وقد شهد هذا العصر ظهور الإمارات الآرامية لأول مرة .

قامت الإمارة الأولى عند منحنى نهر الفرات فى المنطقة التى تقع بين إقليم الجزيرة وبين سوريا الحالية وامتدت رقعتها حتى نهر الخابور الذى يتفرع من الفرات ويتجه إلى الشمال لذلك سميت أرام نهاريم أى آرام النهرين . وقد ذكرت فى الوثائق المصرية القديمة باسم « نهرين » . كما سجلتها الوثائق الأشورية المسمارية المعاصرة ، ثم اختفت نهائيا قبيل نهاية القرن التاسع قبل الميلاد حينما امتد نفوذ الأشوريين وبدأوا يتطلعون إلى إقليم الجزيرة وبلاد الشام .

ومن الإمارات الآرامية التى لعبت دورا كبيرا فى التراث القديم إمارة أخرى تقع فى السهول المنبسطة بين الجزيرة والشام وهى إمارة آرام بدان وسميت بهذا الاسم لوقوعها فى سهل منبسط لأن كلمة بدان بالآرامية هى كلمة فدان العربية ومعناها الحقل المنبسط . وكانت مدينة حوران مقر هذه الإمارة تقع على الطرق التجارية الهامة التى تصل إقليم الشام بإقليم الجزيرة ، وبربط بين شمال الشام وبلاد العرب فلعبت دورا فى تجارة العالم القديم فاشتد ثراء أهلها وتألقت مدينة حوران فى عهدهم حتى غدت من أزهر مراكز الثقافة الآرامية .

ولإمارة حران مكانة ممتازة فى التراث العبرانى فقد كثر ذكرها فى كتاب العهد القديم وراح كتاب التاريخ العبرى يذكرون أن أجدادهم كانوا من الآراميين وأنهم عاشوا فى مدينة حران زمنا طويلا ، قبل أن يستقروا فى فلسطين ، ويذكرون أيضا أن إبراهيم أقام فى هذه المدينة الآرامية بعد خروجه من العراق وزوج ولده إسحق فتاة حرانية ، وكتاب العهد القديم نفسه حافل بالمفردات الآرامية مما حمل بعض الباحثين على القول بأن العبرانيين كانوا يتكلمون لهجة آرامية قبل أن يستقروا فى فلسطين ويتخذوا لهجة أهلها من الكنعانيين . وقد خلصنا من ذلك إلى القول بأن الهجرة الآرامية والعبرية هجرات سامية خرجت من وطن واحد .

لـكن أهم هذه الإمارات الآرامية وأقواها إمارة دمشق التى نمت واشتدت شوكتها فى القرن الحادى عشر فكان قيامها معاصرا لقيام العبرانيين وسرعان ما اشتدت قوتها واكتمل نموها وبدأت تبسط من رقعتها على حساب الإمارات المجاورة حتى امتدت حدودها من الفرات شرقا إلى وادى اليرموك جنوبا . تألق نجمها فى السياسة الدولية المعاصرة ووقفت من العبرانيين والأشوريين موقف الند للند بل بدأت تغير على أملاك الأشوريين فى الشمال وأملاك العبرانيين فى الجنوب . وما جاءت سنة ١٠٠٠ قبل الميلاد إلا وقد بسطت سيادتها على إقليم سوريا الداخلية الواقع خلف جبال لبنان كما بسطت سيادتها على منطقة سوريا الشمالية وظلت قرنين من الزمان تناضل العبرانيين وتحاربهم وتوقف من تقدمهم صوب الشمال كما ورد ذكرها كثيرا فى كتاب العهد القديم .

وكان بروز هذه الإماره فى المحيط الدولى القديم سببا فى اصطدامها بقوتين عظيمتين قوة الأشوريين من الشرق ومملكة العبرانيين من الجنوب . وقد بدت طلائع النزاع بين إمارة دمشق وبين المملكة العبرانية الناشئة فى عهد الملك شاءول بسبب التنافس على خامات النحاس ولـكن ملك آرام (حداد عزر) وقف لشاءول ورد عدوان الإسرائيليين . إلا أن نمو المملكة العبرانية فى عهد داود قلب الـكفة فى جانب بنى إسرائيل فقد هاجم إمارة دمشق وهزم ملـكها واحتلت مدينة دمشق بعض الوقت وتقلص ملـكهم عن ذى قبل .

ثم انقسمت المملـكية العبرانية على نفسها بعد وفاة سليمان الحـكيم سنة ٩٢٢ ق . م فاسترد الآراميون قوتهم واتخذوا مدينة دمشق حاضرة لهم وأفادوا من التنافس بين مملـكة إسرائيل ومملـكة يهوذا واستغلوا هذا التنافس فى استعادة قوتهم وبسط نفوذهم وكان ملـكا الدولتين العبرانيتين يتنافسان فى التقرب من بلاط دمشق . فقد أهدى ملك يهوذا أمير دمشق ابن حداد الآرامى كثيرا من كنوز معبد اليهود فى أورشليم ، وبدأ الآراميون بعد أن ضمنوا صداقة يهوذا يكيدون لمملـكة إسرائيل فانتزع ابن حداد جلعاد والأردن من إ سرائيل التى أضحت إمارة تدين بالتبعية لملك دمشق وظلت تدفع الجزية حتى سنة ٨٧٥ ق . م حينما لاح فى أفق السياسة فى الشرق الأدنى نجم آشور .

وقد نمت قوة الإمارة الآراميه ووصلت إلى أوج عزها سنه ٨٥٣ ق . م حينما وقف ملـكها ابن حداد فى وجه القوة الآشورية العاتية المتدفقة من إقليم الجزيرة فقد كون بزعامته حلفاً عظيما ضم اثنى عشر أميراً وبلغت القوات التى حشدت تحت إمرته ١٢٠٠ عجلة حربية و ١٢٠٠ خيال وعشرين ألفا من المشاة . وقد اشترك اليهود فى هذا الحلف كما اشترك فيه ملك حماة وأسهمت المدن الفينيقية فى رد هذا الخطر واحتشد عند مدينة

قرقر على نهر العاص ستون ألفا . وقد استطاع هؤلاء الحلفاء أن يهزموا شلمنصر ملك آشور هزيمة ساحقة فوقف تقدم الأشوريين واعترف المتحالفون بفضل دولة دمشق الآرامية فدانوا لها بالزعامة فى عهد أميرها حزائيل (٨٠٥ ق . م) الذى تألق اسمه فى سماء العصر وصورته الأساطير الآرامية بطلا مغواراً ، بل جعلته فى مقدمة أبطال التاريخ الآرامى . فقد رد غارات الآشوريين سنة ٨٣٨ و ٨٤٢ وأخذ يبسط رقعة ملكه فغزا أرض إسرائيل ، ومد ملكه فى الأردن جنوبا حتى نهر المجيب الذى يصب فى البحر الميت وبلغ من ضعف ملك إسرائيل وتخاذله أنه دفع الجزية بل جرده ملك الآراميين ولم يترك له إلا خمسين خيالا وعشرة عجلات حربية .

ويبدو أن حزائيل هذا كان يرنو إلى أبعد من هذا . كان يرنو إلى ساحل فلسطين إلى المدن الفينيقية الفتية ليتحكم فى هذه التجارة الرابحة التى احتكرها الفينيقيون وجنوا منها الأرباح الطائلة ، فبدأ يغزو السهل الساحلى بل دخل أورشليم واستولى على كنوز معبدها ولم يحد من نشاطه أو يوقف تحقيق مشروعه هذا إلا ظهور الأشوريين فى ميدان الجزيرة من جديد بعد وفاة حزائيل . وقد شغل خلفاؤه بغارات الأشوريين المتصلة المتلاحقة فبدأت الأقاليم التى دانت لهم بالطاعة تخرج من دائرة نفوذهم واحدة فى أثر الأخرى ، فقد استعادت إسرائيل أملاكها سنة ٧٨٥ وبدأت تغير على دمشق وحماة .

بل عمد الإسرائيليون إلى أبعد من هـذا فقد رأوا الأشوريين وقد نمت قوتهم وكملت استعداداتهم وباتوا على الحدود يتحفزون ويترقبون الفرصة المواتية ، فاستنجد بهم ملك يهوذا سنة ٧٣٤ ق . م فلاحت الفرصة المرتقبة ، وخرجت قوات تغلات بيلاسى من مرابضها فاجتاحت إقليم الجزيرة وتدفقت إلى شمال الشام ، فاستولت على دمشق واحتلت « ٥٩١ مدينة خربتها كما يخرب الفيضان التلال التى تعترضه » وفر ملك الآراميين وسقطت عاصمته سنة ٧٣٢ فى يد العدو ، وبذلك انتهت دولة الآراميين فلم تقم لهم من بعد ذلك قائمة .

الحضارة الآرامية وفضلها على الشرق القديم :

لقد حدد موقع الوطن الآرامى الدور الذى لعبه الشعب الآرامى فى تاريخ حضارة الشرق القديم . ذلك أن الإمارات الآرامية عموما وإمارة دمشق خصوصا تقع بين بيئتين من بيئات الحضارة العالمية الراقية فى عالم الشرق القديم : بين حضارات فلسطين الفينيقية والعبرانية وبين حضارات الأشوريين والبابليين فى العراق والجزيرة . وقد ترتبت على هذا الموقع نتائج بعيدة الأثر فى تاريخ الشرق الأدنى ، فقد ترتب على وقوع دمشق بين سوقين عظيمتين من أهم أسواق الاستهلاك فى الزمن القديم أن أصبحت مركزا للقوافل الصادرة

والواردة التى تحمل بضاعة البحر الأبيض المتوسط فى طريقها إلى أسواق الشرق الأوسط فأصبحت دمشق بحق ميناء الصحراء المتحكمة فى التجارة الداخلية كما أصبحت صور وصيدا أعظم موانى البحر المتحكمة فى التجارة البحرية . وقد ساهمت دمشق بحكم هذا الموقع فى التجارة العالمية واشتغل الآراميون وسطاء فى تصريف منتجات العالم القديم فكانت ترد إلى أسواقهم السلع الفينيقية مثل الصبغة والمنسوجات والخزف والمصنوعات المعدنية والفاكهة والكروم فيقومون بنقلها إلى أسواق الشرق ومبادلتها بسلع أخرى فكانوا يجنون من ذلك أرباحا طائلة فزاد غنى دمشق وعظم ثراؤها ولعل هذا هو السر فى قوة دمشق وعلو شأنها فى عهد ملكها ابن حداد وولده حزائيل . وأصبح الآراميون من أمهر التجار ومن أغناهم فى القرنين التاسع والثامن ق . م عوضوا عن نفوذهم السياسى بنفوذ واسع فى عالم المال والتجارة . جابت قوافلهم أسواق العالم القديم يدل على هذا الأوزان الآرامية التى عثر عليها المنقبون فى أطلال نينوى بل أوغلت قوافلهم حتى بلغت الخليج الفارسى واتجرت فى الكنوز والأحجار الكريمة وبرعت فى هـــذه التجارة الرابحة .

والنتائج التى ترتبت على هذه الحقائق ليست مجرد نتائج اقتصادية تتمثل فى الغنى الواسع والثراء العريض بل هنالك نتائج ثقافية بعيدة الأثر فقد عمل التجار الآراميون الذين انتشروا فى أسواق العالم القديم على نشر اللغة الآرامية فى نطاق لم تنتشر فيه لغة سامية أخرى فى الأزمنة القديمة فأصبحت لغة التخاطب فى بلاد الجزيرة والعراق لأن الولايات الآرامية أصبحت بعد أن فتحها الأشوريون جزءا من الإمبراطورية الأشورية ومصداق ذلك أنه ظهر سنة ٧٣١ ق . م لأول مرة كاتب آرامى فى بلاط تغلاث بيلاسر يسجل الغنائم التى استولى عليها الأشوريون ولم يعد هذا الكاتب يستعمل لوح الصلصال والمسمار إنما أصبح يستعمل القلم ويستعمل ملفات البردى ويكتب باللغة الآرامية . وفى سنة ٥٠٠ ق . م أصبحت اللغة الآرامية لغة المال والتجارة فى بلاد الشام وفلسطين وتغلبت على اللغة العبرانية فى مهدها الأول وآية هذا التفوق أنها أصبحت لغة عيسى وشيعته. وكانت أول إشارة للمسيحية وردت فى نقوش آرامية كتبت بحروف لاتينية على جدران كنيسة مدينة بومبى يرجع إلى ماقبل سنة ٧٩ ميلادية . وأقدم الأناشيد المسيحية أنشودة آرامية تسمى أنشودة قديش .

وكما انتشرت اللغة الآرامية وأصبحت لغة التخاطب والحديث فى بلاد الشام كلها انتشرت انتشارا بعيدا جدا فى منطقة الهلال الخصيب وفى بلاد العراق والجزيرة . ولم يقتصر انتشار هذه اللغة على الأوطان السامية إنما تخطت هذه الأوطان إلى بلاد

إيران وأصبحت فى عهد دارا الأكبر (٥٢١ — ٤٨٦ ؟) اللغة الرسمية للولايات الفارسية كلها وأصبحت هذه اللغة الدولية الوحيدة فى بلاد الشرق القديم قبل أن يفتحه الإسكندر وامتد نفوذها فى منطقة شاسعة ممتدة من بلاد الهند شرقا إلى أثيوبيا جنوبا ولم تبلغ لغة سامية هذه السعة من الانتشار إلا لغة خرجت من الآرامية هى لغتنا العربية التى أصبحت ولا تزال لغة التخاطب لملايين البشر طوال العصور الوسطى والحديثة .

والآراميون المهرة فى الشئون التجارية لم ينشروا لغتهم فحسب بل نشروا أمرا آخر بالغ الخطر فى تاريخ حضارة الشرق القديم فقد نشروا الأبجدية التى نقلوها عن الفينيقيين وعلموها لعالم الشرق القديم كله . تعلمها العبرانيون من الآراميين مباشرة فى فترة تقع بين القرن السادس والقرن الرابع قبل الميلاد واقتبسوا منهم هذه الحروف المستديرة التى لا تزال الأناجيل المسيحية تكتب بها حتى اليوم .

وقد انتشرت الأبجدية الفينيقية الآرامية فى بلاد الفرس كما انتشرت فى بلاد العراق والجزيرة فقد بدأ الفرس بعد أن أسسوا إمبراطوريتهم يعدلون عن استعمال النقوش المسمارية البابلية ويستخدمون الحروف الآرامية فى كتابة وثائقهم الرسمية وأصبحت اللغة الآرامية وأبجديتها شائعة فى أسواق بابل وفى مراكز التجارة الأخرى وأصبحت لغة المعاملات التجارية الجارية ليسرها وسهولتها وأصبحت الصكوك والأسانيد والأوراق الرسمية تكتب بالقلم الآرامى على أوراق البردى إذ وجد المتعاملون أن هذا أيسر من الكتابة بالقلم المسمارى على ألواح الصلصال وانتهى الأمر بأن غلب هذا الخط وغلبت هذه اللغة على الخط المسمارى وأخذت تحل محله بالتدريج فى وثائق الدولة الرسمية فعمدت الإمبراطورية الفارسية إلى استخدام اللغة الآرامية فى وثائقها الرسمية بل حدث تطور آخر فى غاية الأهمية فقد بدأت اللغة الفارسية نفسها تكتب بالخط الآرامى وبطل استخدام الخط المسمارى والوثائق الحجرية القديمة .

بل نقل الآراميون خطهم إلى الأرمن وإلى الهنود وبدأت اللغة السنسكريتية تكتب بالحروف الآرامية بل حمل الكهنة البوذيون الأبجدية السنسكريتية المستمدة من الأبجدية الآرامية فى بلاد الصين وفى كوريا وبذلك نشر الآراميون الأبجدية الفينيقية فى النطاق الشرقى حتى بلغت حدود الصين كما أن الإغريق نشروا هذه الأبجدية غربا حتى الأمريكتين وبذلك عمت العالم كله شرقه وغربه .

وقد نفذت الكتابة الآرامية إلى بلاد العرب نفسها وأصبحت لغتنا العربية اليوم لغة الكتاب ولغة السنة تكتب بخط من أصل آرامى ذلك أن الأنباط وهم طائفة من البدو

الذين خرجوا من شبه جزيرة العرب ، وأغاروا على ديار الأراميين واحتكوا بهم نقلوا الكتابة الآرامية وبدأوا يسجلون لهجتهم العربية بالأبجدية الآرامية ، وتطور هذا الخط الآرامي الذي نقله الأنباط إلى كتابة خاصة تعرف بالكتابة النبطية ، وهي نفس الكتابة التي نقلها العرب وسجلوا بها لغتهم .

لأن الأنباط بعد أن اختلطوا بالآراميين وتعلموا منهم فن الكتابة بدأوا يكتبون حروفا آرامية أقرب إلى الخربشة منها إلى الكتابة ، بسبب صعوبة المحاكاة والتقليد كما كتبوها بشيء من الاختلاف يكاد لا يطابق الأصل كل المطابقة . ثم أتى بعدهم جيل آخر من النبط وتعلم هـذه الخربشة في شيء من الصعوبة وجده أيضا في تقليدها ، فكتب الحروف أكثر خربشة من الأولى وأبعـد قليلا منها عن الأصل وهذا طبيعي لأن المنقول لا يشبه الأصل ولا يطابقه تمام المطابقة بل يختلف عنه وخصوصا إذا كان المحاكي بعيد العهد بالأصل . وهكذا أخذت كتابتهم تبتعد عن الأصل الآرامي رويداً حتى تميزت عنه وصارت تعرف باسم الكتابة النبطية . وقد تطور الخط النبطي وأصبح في القرن الثالث للميلاد الخط المألوف في لغة عرب الشمال لغة القرآن ولغة العصر الحاضر.

هذه الكتابة الآرامية بعيدة الأثر في حضارة الشرق القديم عثر المنقبون على أقدم نقوشها في شمال سوريا ، نقش يرجع تاريخه إلى بداية القرن التاسع قبل الميلاد . كما عثروا على نقش آخر للملك ابن حداد ملك دمشق على مقربة من مدينـة حلب وتاريخه ٨٢٥ ق . م . وقد أقام هذا الملك نصبا آخر يسجل فيه الانتصارات التي أحرزها . كما وجدت نقوش آرامية أخرى في مدينة شمعل من مدن سـوريا الآرامية ، كما عثر على آثار أخرى وأوزان وأختام تحمل نقوشا آرامية . كما وجدت ملفات من البردي كتبت باللغـة الآرامية كتبها يهود مصر ، وجدت في جزيرة الفيلة يرجع تاريخها إلى سنة ٥٠٠ وسنة ٤٠٠ ق . م . وقد ألقت هذه الكشوف الأثرية الضوء على قصة تطور الكتابة الآرامية وتطور اللغة الآرامية .

وقد تبين أن اللغة الآرامية قد انقسمت بمضي الزمن إلى لهجتين مختلفتين : لهجة شرقية سادت في وادي الفرات تسمى باللهجة السورية ، ولهجة غربية سادت في فلسطين تمثلها اللهجة الآرامية المسيحية ولهجة شمعل وحماة واللهجة النبطية ، وقد أصبحت اللهجة السورية أو لهجة أودسا لغة الكنيسة في سوريا ولبنان والعراق ، وكانت تستخدم حتى القرن الثالث عشر الميلادي حين حلت اللغة العربية محلها . ولما اعتنق الآراميون المسيحية واستخدموا لهجة الرها في كنائسهم وفي آدابهم وثقافتهم نبذوا اسمهم الأول لصلته بالوثنية وسموا بأنفسهم السوريين أو السريان .

والشعوب الآرامية كان شأنها شأن الشعوب البدوية حظها من الحضارة المادية قليل ، لذلك ما كاد يتم استقرارهم ويطيب مقامهم وتمتد رقعة دولتهم وتكثر أموالهم من جراء اشتغالهم بالتجارة حتى أقبلوا على الحضارات القائمة فقبسوا منها ونقلوا عنها ، فتأثر الآراميون الذين استقروا فى شمال سورية وفى إقليم الجزيرة بالحضارة الأشورية وبالحضارة الحيثية . ومدينة شمعل إحدى مدنهم الشمالية مدينة حيثية فى تخطيطها وفى عمارتها ، وملوكها وإن كانوا قد اتخذوا أسماء آرامية إلا أنهم كانوا يتشبهون ببلاط الحيثيين تارة والأشوريين تارة أخرى .

وقد أثبتت الحفائر الحديثة صدق هذا الرأى فقد عثر المنقبون على تمثال ضخم ينسب إلى الملك بنمو الأول يرجع تاريخه إلى القرن الثامن قبل الميلاد ، وقد أقام هذا التمثال للإله حداد وكان ارتفاعه تسع أقدام ونصف يمثل المعبود وقد لبس تاجا ذا قرنين له لحية كثة وقد بسط ذراعه ليمنح البركة . وصناعة التمثال وصورته توحى بالتأثر بالتقاليد الحيثية . كما أقام بنمو الثانى (٧٣٢ ق . م) تمثالا آخر لهذا الإله .

وقد قلدوا ملوك آشور والحيثيين فى أبهة البلاط وحياته ، فقد أظهرت الآثار ابن بنمو الثانى (بر ركاب) جالسا على عرش عظيم من خشب الأبنوس والعاج والذهب لا يقل أبهة ولا روعة عن عروش الملوك المعاصرين . والعرش مقام على عمد من خشب الأرز لها رءوس ثيران وتحت قدميه مقعد مزخرف بهذا الأسلوب . ورداء هذا الملك وهيئته تعطيك صورة ملك حيثى ، أما شعره ولحيته فتمثل لك ملكا أشوريا .

ويبدو أن عقائد الآراميين لم تكن تختلف كثيرا عن عقائد الشعوب السامية الأخرى ، فكانت تقوم على عبادة قوى الطبيعة وتقديسها فكان أعظم آلهتهم وأرفعها شأنا فى نظرهم الإله حداد أو أواد أو أدو إله البروق والرعود ، وهو يرحم عباده فيرسل السحاب والمطر وهو ينتقم منهم فيطمى الأنهار ويبعث الفيضان . ولهم إله آخر يسمى (رمون وقد يقترن حداد وريمون فى بعض الأحيان . وكان معبده الرئيسى فى مدينة هيروبوليس (منبج العربية) ، كما أقيمت له معابد أخرى فى مدن سوريا ولبنان . ولما كان السوريون شعبا زراعيا فقد قرنوا إلههم هذا بالشمس ، وصوروه برأس تحيط بها هالة من الضوء ، كما اقترن فى العصر الرومانى بعبادة جيوبيتر . وكان لهذا الإله حداد زوجة عبدها الآراميون باسم أتارجاتيس نقشوا صورتها على نقودهم ، ورمزوا لها بالهلال ومعه قرص الشمس . وكان لهم إلى جانب هذه الآلهة الكبرى معبودات أخرى أصغر شأنا بعضها نشأ محليا وبعضها اقتبس من ديانات أخرى ، كما عبد القمر فى مدينة حران .

الفصل الحادي عشر

الفينيقيون

أصلهم : كانت شبه جزيرة العرب طوال العصور التاريخية بمثابة بوتقة بشرية كبرى تتمخض بين الحين والحين عن جماعات من البدو تترك مضاربها فى البادية بسبب القحط أو الجفاف أو قلة الموارد ، ثم تتجه صوب الشمال صوب الشرق الأدنى بحثا عن أوطان جديدة تطيب فيها الحياة ، ويتوفر المرعى ويتوفر الماء ، ويعوضون عن شدة الصحراء براحة الاستقرار ونعيم حياة السهول الناعمة .

خرجت موجات من هذا القبيل فى عصر ماقبل التاريخ وانسابت إلى مصر وإلى سومر فاستقرت فيهما ونشرت مؤثراتها السامية حتى بدا للمؤرخين أن هنالك ثمة تشابه بين الحضارتين السومرية والمصرية .

وما كادت هذه الهجرات تنقضى ويستقر المهاجرون ويختلطون بالسكان الأصليين حتى تمخضت جزيرة العرب عن هجرة سامية جديدة كانت وجهتها بادية الشام هذه المرة ، ثم تخطت البادية ونزلت السهول الخصيبة تريد أن تعيش وأن تستقر ، وقد وجدت قوما من أهل البلاد الأصليين أختلطت بهم وأثر هذا الاختلاط فى الصفات الجسمية والعقلية ، وأصبح الجنس وليد هذا الاختلاط يمتاز بالذقن البارزة والأنف العريض ، ويختلف بعض الشىء عن المميزات السامية المشهورة .

هؤلاء الساميون الجدد الذين دخلوا فى حياة الشام وفلسطين سموا بالكنعانيين أحيانا وبالفينيقيين أحيانا أخرى ، وقد وفد معهم من الصحراء فى نفس الوقت تقريبا شعب سامى آخر استقر فى بلاد الشام الشمالية وتأثر بالمؤثرات السومرية والبابلية ، على حين نزل بنو عمومتهم على الســـاحل وأخذوا يتجهون صوب مصر . الشعبة الأولى هى الشعبة العمورية أقرباء الكنعانيين وبنو عمومتهم . وكان القادمون الجدد يتكلمون بلهجات متشابهة تنتمى إلى العائلة السامية الغربية التى ينتمى اليها العبرانيون ، وكان من أثر هذه القرابة الشديدة فى ميدان اللغة أن ذكر بعض علماء اللغات أن العبرانيين استعانوا بلغة أهل البلاد الأصليين من الكنعانيين .

أما عن تاريخ هذه الهجرة بعيدة الأثر فى مدنية الشرق ، فمن العسير تحديده تحديدا قاطعا ، فهيرودوت يذكر عن لسان علماء صور أنهم جاءوا فلسطين فى القرن الثامن والعشرين قبل ميلاد المسيح، بل أثبتت الحفائر أن تاريخ هذه الهجرات السامية أبعد من هذا بكثير ، فقد ظهر أن مدنا مثل أريحا وبيسان ومجدو هى أسماء كنعانية وأنها كانت موجودة قبل سنة ٣٠٠٠ق . م . كما كشفت مدن أخرى ظهر أنها كنعانية أيضا وأنها ترجع إلى نفس هذا العهد تقريبا .

اسمهم : قلنا إن هذه الهجرة السامية التى استقرت على طول ساحل فلسطين اختلف فى تسميتها فسميت بالكنعانية حينا وبالفينيقية أحيانا أخرى . سميت بالكنعانية فى المراجع القديمة وفى كتاب العهد القديم بالذات ، الذى أطلق على سكان المدن الساحلية والحصون الجبلية اسم كنعان ، كما أطلقوا على اللغة التى يتحدثون بها اسم اللغة الكنعانية . وقد ذهب الباحثون مذاهب شتى فى معرفة كنه هذه التسمية ، فذهب فريق إلى القول بأن كنعان بالسامية معناها الأرض الخفيضة ، على عكس مرتفعات لبنان فسمى هؤلاء الساميون بالكنعانيين لانفرادهم بسكنى هذه السهول الساحلية التى تحف بشرق البحر الأبيض المتوسط . لكن البحث الحديث اتجه وجهة أخرى فقد ظهر أن فى اللغة الحورية القديمة اسم كناجى ومعناه أحمر اللون ، وفى اللغة الأكادية كناخى وفى الفينيقية كنع وفى العبرية كنعان وكلها مسميات تدل على الحمرة الأرجوانية .

ثم جاء الأغريق واحتكوا بهذه الشعوب السامية واتجروا معها واحتكوا بهذه المجتمعات المدنية المتناثرة على الساحل فأطلقوا على هذه المجتمعات كلها اسم (Phoenix) أى أحمر اللون ، ومن هنا نشأ اسم فينيقى الذى ورثته لغاتنا الحديثة .

إذن فقد اتفقت التسمية السامية القديمة مع التسمية الإغريقية فى أن تربط بين هذه الشعوب السامية وبين حمرة اللون . والحق أنه هذه الشعوب السامية البحرية عرفت منذ القدم بتخصصها فى صناعة الصبغة الأرجوانية التى تستخرج من حيوانات بحرية تعيش قرب ساحل فلسطين ، ومن هنا جاءت نسبتهم إلى حمرة اللون ، ومن هنا كانت تسميتهم السامية القديمة بالكنعانيين وبالإغريقية الفينيقيين ، وكلاهما علم على شعب سامى واحد ينزل بسهول فلسطين الساحلية .

قيام المدن الفينيقية :

وقد تأثر الفينيقيون إلى أبعد الحدود بالبيئة التى عاشوا فيها ، واستجابوا لها إستجابة كاملة ، فشكلت تاريخهم وحياتهم الاقتصادية والاجتماعية . ذلك أن الوطن الفينيقى الممتد

على سواحل الشام على صورة شريط ضيق يقع بين البحر من الغرب والصحراء من الشرق أصبح بمثابة قنطرة يعبرها الغزاة الأسيويون القادمون من منطقة الجزيرة قبل نزولهم إلى وادى النيل ، كما تعبرها القوات المصرية القادمة من الوادى تتعقب الغزاة وهم فى طريق فرارهم بعد دفعهم عن حدود مصر . وكانت الجيوش المصرية تطرق بلادهم باستمرار تحاصر مدنهم وتدك قلاعهم وتحملهم إلى مصر أسرى يسخرهم فرعون فى الأعمال التى يريد . وقد سجلت الآثار المصرية والوثائق المصرية هذه الصلة الوثيقة بين فينيقيا وبين مصر ، وما كادت الشعوب السامية النازلة فى وادى الدجلة والفرات تفيق وتتطلع إلى السيادة على الشرق الأدنى حتى اتجهت صوب فلسطين وكانت جيوشها الغازية تطرق هذه القنطرة الساحلية وتفعل بها مثل ما فعله المصريون من قبل .

إذن أصبح الوطن الكنعانى فى مهب التيارات العالمية ، بين قوى عالميــة كبرى قامت فى وادى النيل ووادى الدجلة والفرات وآسيا الصغرى . وترتبت على هذا الوضع نتائج بعيدة الأثر ، إذ لم يستطع الكنعانيون أن يقيموا دولة موحدة تصد هذه التيارات وتضع حدا لهذا النفوذ الأجنبى . ولم يجد الفينيقيون مفرا من أن يؤلفوا منهم مجتمعات صغيرة تعيش فى مدن محصنة ذات أسوار عالية وأبراج كبيرة يلجأ إليها السكان فى وقت الخطر ويحتمون بأسوارها ويتخذونها وقت السلم أسواقا لتجاراتهم . وقيام هذه المدن المحصنة وان كان أحسن وسيلة التجأ إليها الفينيقيون لصد غارات الدول المجاورة أو غارات البدو المجاورين إلا أن تقسيم البلاد إلى مدن صغرى يحارب بعضها بعضا ، ولا يسود بينها نوع من الاستقرار جعلها تقع فريسة سهلة لعدوان القوى المجاورة .

والفينيقيون كما قلنا انتشروا على طول ساحل الشام ، من كسيوس إلى جنوبى الكرمل ، وقد أثرت طبيعة هذا الساحل فى قيام المدن المستقلة إذ تحكمت فيها وحددت أعدادها ومواقعها . ففى الجنوب نجد مرتفعات فلسطين لا تستطيع أن تحمى الساحل من العدوان الداخلى كما تفعل جبال لبنان ، لذلك نجد المدن الزاهرة التى كتب لها الدوام تقوم عند سفح جبال لبنان ، مثل طرابلس وبتريس وبيبلوس وبيروت وصيدا وصور وسميرة . أما فى الجنوب فقل أن تجد مدينة ذات شأن تقع على الساحل باستثناء عسقلان ، بل انتشرت أغلب المدن فى الداخل حيث تعتصم بالمرتفعات الداخلية مثل جزر ولكيش ومجدو وشثم وأورشليم ، وقد ذكرت كلها فى معارك تحوتمس الثالث وخطابات تل العمارنة ، كما وصفت فى التوراة .

وقد تحكمت الطبيعة فى تحديد مواقع هذه المدن إذ كان العامل فى اختيارها وقوعها على نهر أو على مقربة من جبل يسهل معه الدفاع عنها . وكانت بعض هذه المدن الفينيقية

تقام على البر وعلى جزر متناثرة قريبة من الساحل ، ويتعاون البر والجزيرة فى حماية المدينة والدفاع عنها . ومن هذه المدن أرادوس وصيدا وصور ، إذ كان لسكانها مساكن على الساحل يلجأون إليها حين يتاجرون أو يزرعون ، ومساكن أخرى على الجزر يعتصمون بها إذا هاجمهم عدو .

وقد تجلت براعتهم فى مد هذه المدن بالماء النقى فكانوا يخزنون مياه الأمطار فى خزانات كما كانوا ينقلون الماء من الساحل إلى الجزيرة عن طريق خراطيم يمدونها تحت ماء البحر . وقد أثبتت الحفائر التى أجريت تحت سطح البحر والخرائط الجوية أن حاجز الماء الذى كان يحمى مدينة صور يقع اليوم تحت سطح البحر بنحو ٥٠ قدما وكان طوله ٧٥٠ مترا وعرضه ثمانية أمتار ، وكانت تشرف عليه أسوار المدينة العالية وأبراجها الشامخة . وقد بنيت هذه الحصون فى عهد الملك حيرام الذى كان معاصرا لسليمان الحكيم ، وبذلك أصبحت صور من أعظم موانى حوض البحر الأبيض الشرقى .

وكانت صيدا تقع على لسان يمتد فى الماء وقد اختيرت بسبب الميناء العظيم الذى يزيد من قيمته انتشار الجزائر الصغرى التى أوصلها الفينيقيون بعضها ببعض وكان هذا الميناء يقع إلى الشمال وإلى الجنوب منه ميناء آخر أكثر اتساعا وأقل أمنا .

كان أغلب السكان الفينيقيين يتركزون فى هذه المدن الحصينة ، لذلك نجد أن سكان الريف لم يكن يتجاوز عددهم ربع مليون نسمة وكانت بيوت هذه المدن الساحلية أو الريفية التى كشفت عنها الحفائر غير منتظمة فى شكلها ، بيوت الفقراء صغيرة الحجم ملتصقة بعضها ببعض شأن الأحياء الفقيرة اليوم . أما بيوت الأغنياء فكان لها فناء من الداخل تصطف حوله الغرف وكان لبعضها مخازن للحبوب وصهاريج لخزن الماء .

وكانت هذه المدن المتفرقة بسبب مظاهر الطبيعة تحاول إيجاد نوع من الترابط يؤلف بينها ، فتعمد إلى إنشاء تحالف قوى بين عدة مدن بزعامة أوفرها قوة . تحالف يمليه الخطر المشترك أو المصالح المشتركة . وكانت مدينة أوجاريت فى القرن السادس عشر قبل الميلاد وجبلة فى القرن الرابع عشر وصيدا فى القرن الحادى عشر وصور من بعدها ثم طرابلس تتزعم أحلافا من هذا القبيل .

ولم تكن هذه المدن تتصل وتتعارف إلا تحت ضغط خطر أجنبى مسلح . ومن أشهر هذه المحالفات التى سجلها التاريخ الحلف الذى تزعمته قادش وحطمه تحوتمس الثالث سنة ١٤٧٩ ق . م . وإذا ما انقضى الخطر وذهبت الأسباب انفض هذا الحلف وعادت المدن ينهش بعضها بعضا ، وقد أظهرت رسائل تل العمارنة التى كتبت بعد ذلك بقرن هذه الخلافات السائدة بين المدن الفينيقية ، بل أظهرت أن بعضها كان يحاول الاتصال بالمصريين على حساب الآخرين .

وكان من أثر هذه الأوضاع أن الفينيقيين كانوا طوال تاريخهم شعبا محبا للسلام يكره الحرب وينفر منها وكان اهتمامهم منصرفا للتجارة والفن والدين ، لذلك كانت مدنهم تحنى الرأس أمام عواصف الغزو الآتية من مصر وبابل أو من غيرها ، وكانت تشترى السلامة بدفع الجزية . ولكنهم كانوا يعوضون هذه المبالغ بما كانوا يجنونه من أرباح طائلة من المتاجرة مع الجيوش الغازية .

وقد أثرت البيئة فى حياة أهل كنعان كما أثرت فى تاريخهم وفى عمارة مدنهم ، فقد كانوا يحيون حياة اقتصادية تمليها ظروف البلاد ومواردها الطبيعية وكانت أهم حرف السكان الزراعة والصيد . وكانت زراعة الحدائق أحب الحرف إليهم وأثرت فى فنهم وفى دينهم . وكانوا يبذرون الحب بأيديهم أول الأمر ، ثم ما لبثوا أن استخدموا المحاريث من بابل أحيانا ومن مصر أحيانا أخرى ، وقد عثر المنقبون على بعض الآلات الزراعية التى ترجع إلى سنة ١٥٠٠ أو ١٣٠٠ ق . م وكان المحصول يضم بواسطة منجل مصنوع من الصوان ، أسنانه من الملاط ومقبضه من الخشب ، وظلت هذه الآلات تستخدم حتى سنة ١٠٠٠ ق . م حينما استخدم المنجل الحديدى ثم صنعت المحاريث من الحديد . وكانوا يستخرجون الحب بشوكة طويلة من الخشب ، ويطحنون القمح بمطاحن من الحجر ويخبزونه فى أفران أسطوانية من الطين .

وكانت المحاصيل الرئيسية مثلها اليوم : القمح والشعير والشوفان والفول والعنب والزيتون والتين والبندق والرمان والحبوب والكروم والفاكهة وغيرها من محصولات حوض البحر الأبيض . ولكى يلائم الفلاح بين الزراعة وبين تقلبات سقوط المطر نجده يعمد إلى الزراعة الجافة . وفى منطقة لبنان حيث يزيد عدد السكان عن طاقة الأرض نجد الناس يزرعون سفوح الجبال ويقيمون من حولها الأسوار لحماية الأرض وبسط رقعتها . وهذه السفوح ملائمة جدا لزراعة الحدائق والكروم والحبوب .

وقد استؤنست الحيوانات مثل الأبقار والأغنام والحمير والماعز والخنازير والكلاب . ولم يكن اللحم يؤكل إلا فى الأعياد ، وكان يطبخ فى قدور ذات فوهات واسعة . وكان الناس يأكلون الطعام بأيديهم أو بملاعق من خشب . وكان ماء الشرب من خزانات الأمطار والعيون يحمل على الرءوس فى قرب أو أوانى من الفخار . وكانت المصابيح تصنع من الفخار وتوقد بالزيت وقد صنعت هذه المصابيح فى النصف الأول من القرن الثانى عشر قبل الميلاد ، وقد عثر المنقبون على عدد لا يحصى من أوانى الطبخ .

وقد اشتغل السكان بالصيد أيضاً وبرعوا فيه بحكم وقوعهم على الشاطىء وصنعوا الزوارق من خشب الأرز . وكانت الصناعة تحتل مكانا عظيما فكان الصناع وأرباب الحرف

يحتلون مكانة متوسطة بين الأرستوقراطية الاقطاعية المؤلفة من ملاك الأرض والمحاربين ومن الطبقة الدنيا المؤلفة من العبيد والأقنان . وكان الأبناء يتوارثون حرف الآباء . وهنالك مايدل على أن أرباب الصناعات كانوا يؤلفون من أنفسهم نقابات خاصة . وهذه النقابات تتألف من جماعات تجمع بينها رابطة الحرفة ورابطة الدم يعيشون فى أحياء خاصة ، وقد ساد هذا النظام حتى القرن الثامن ق . م .

وإن أبرع ماعرف به الفينيقيون هو نشاطهم البحرى ونشاطهم التجارى .

النشاط البحرى والتوسع الاستعمارى :

على أن أبرز النواحى التى ظهرت فيها آثار البيئة فى الحياة الفينيقية هى ناحية النشاط البحرى ، فقد كانت جبال لبنان التى تقع خلف الوطن الفينيقى تعرقل صلة السهول الساحلية بالأقاليم الداخلية وتجبر السكان على أن يلتمسوا لأنفسهم مخرجا آخر بأن يتجهوا إلى البحر . يضاف إلى هذا أن البيئة المحلية لم تعد قادرة على إعالة عدد من السكان يتزايد عددهم باستمرار ، ولم تعد الزراعة تكفى لاطعام آلاف الأفواه التى تعيش فى المدن الساحلية فكان على الفينيقيين أن يلتمسوا لهم سبل أخرى للمعيشة أو ينطلقوا إلى ميدان التجارة ويتصلوا بالأمم الكبرى الواقعة من وراء البحر . زد على هذا أن سفوح لبنان تزخر بالخشب الجيد الصالح لبناء سفن ، فاذا اقترنت الرغبة فى المخاطرة والبحث عن لقمة العيش بتوفر الموانى الصالحة والمواد الخام اللازمة لم نعجب إذا رأينا هؤلاء الساميين الذين جاءوا من شبه جزيرة العرب يستجيبون لنداء البيئة ، ويتركون حياة البداوة التى ألفوها ويقبلون على البحر ليركبوا متنه . وقد بدأوا برحلات بحرية قصيرة لصيد السمك أو البحث عن الزجاج أو الصلصال أو بعض المنتجات المحلية الأخرى ، ثم زاد هذا النشاط بعد القرن الثالث عشر أو الثانى عشر قبل الميلاد حينما ضغط الآراميون عليهم فى وسط سوريا وأحاط بهم الاسرائيليون والفلسطينيون من الجنوب فلم يجدوا مفرا من أن يتجهوا إلى البحر بكليتهم فقد كان هذا هو المخرج الوحيد .

وكانت سفنهم بدائية بسيطة أول الأمر لاتقوى على أن توغل فى ماء البحر فلم تكن أكثر من زوارق مكشوفة قليلة الارتفاع قليلة الغوص تكتسحها الأمواج العظيمة ولا تستطيع أن تحمل قدراً كبيراً من السلع ، وكانت هذه السفن تصنع من خشب الأرز وتدهن بالقار النباتى الذى لايقوى على مغالبة الماء . ثم قطعوا شوطا آخر فى فن بناء السفن فكبر حجمها بعض الشىء ، واستعين فى تسييرها بالمجداف وبالشراع معاً وأصبح سمكها كبيرا إلى حد ما ، ولكن العمل الجرىء حقاً الذى ينسب إلى الفينيقيين هو مضيهم فى

فن بناء السفن إلى أبعد غاية ، حينما توصلوا إلى صناعة السفن العظيمة ماخرة المحيطات فقد قلب هذا الاختراع فن الملاحة رأسا على عقب فاشتدت جسارة الفينيقيين على السيطرة على البحر وركوبه وتضاعف نشاطهم وتضاعفت تجارتهم .

وكانت كتل خشب الأرز التى لا مثيل لها فى الصلابة وقوة المقاومة تقطع من غابات الأرز ثم تلقى فى الأنهار فى وقت الفيضان فيحملها إلى الميناء ثم ترسل إلى مصانع السفن الضخمة فى صور وصيدا . وقد صورت ماخرات المحيط هذه على الآثار المصرية منذ سنة ١٤٠٠ ق . م ، كما صورت على الآثار الأشورية القديمة . وهى سفن على شكل هلال لها مقدمة مرتفعة ومؤخرة مرتفعة أيضا ولها مجذافان عظيمان فى صدرها يستخدمان فى توجيهها ولها شراع واحد كبير ، وكانت هذه السفن عريضة حتى تستطيع أن تنقل حمولة كبيرة وكانت مقدمتها مدببة جدا كما كانت تتألف من طابقين ، ثم حاول الفينيقيين أن يحسنوا هذا الفن فى صناعة السفن ،فاخترعوا سفنا ذات صفين من المجاذيف الواحد فوق الآخر ،بالطابق الأسفل صفان بكل صف أربعة أو خمسة مجاذيف وقد بلغ عدد المجذفين فى وقت من الأوقات خمسين ملاحا ، وكان الجند يقفون على سطح السفينة فوق المجذفين يحرسون السفينة أو يتأهبون للتجارة .

ورغم هذا التقدم العظيم فى هذا الفن إلا أن هذا الطراز من السفن القديمة لم يقو على مغالبة اللجة أو الايغال فى عرض البحر ، لذلك كانت السفن الفينيقية تسير بحذاء الساحل هذا إلى أن البحر الأبيض المتوسط يعتبر من الناحية الملاحية من أهم البحار وأكثرها ملاءمة للملاحة الناشئة ، ولم يكن للفينيقين من ينافسهم فى هذا الميدان ، وخلا البحر من القرصان واستطاعت السفن أن تمضى آمنة لا تخشى شيئا .

وقد برع الفينيقيون فى فن الملاحة وتعمقوا فيه وساعدهم على ذلك اكتشاف أهمية النجم القطبى ، وأقدموا على الإبحار ليلا معتمدين على النجوم وقد تعلم الإغريق هذا الفن منهم حتى أن أسماء النجوم الإغريقية هى بعينها الأسماء الفينيقية .

ولم يكن الفينيقيون يسيرون فى البحر بغير هدى ، ولم يكونوا قراصنة كما تصورهم الأساطير الإغريقية بل كانوا يبحرون بناء عن خطط مرسومة واستطاعوا بعد تجارب طويلة أن يشقوا لأنفسهم مسالك وطرق كشفوها واستخدموها واحتكروها . ومن هذه الطرق البحرية ذلك الطريق الذى يمر من صيدا إلى صور ثم يمر بمصر مباشرة أو قد يتجه إلى قبرص ثم يتجه غربا إلى طوروس وليسيا عن طريق رودس وكريت ثم يتجه إلى صقلية ثم شمال إفريقية ثم أسبانيا . وكانت هنالك طرق أخرى فرعية تتجه إلى الشمال أو الجنوب .

وهذه الرحلات البحرية ذات النطاق الواسع لا يقصد بها مجرد المغامرة ، إنما يقصد بها المتاجرة وتصريف المنتجات الفينيقية ومبادلتها بالسلع الأخرى والمواد الخام التى تحتاجها الصناعة المحلية . وكان الفينيقيون يصدرون أربعة أصناف من السلع تحتاج إليها دول البحر الأبيض المتوسط : هى الخشب والقمح والزيت والخمر ، ثم حملوا بعد ذلك منتجاتهم الصناعية المشهورة مثل المنسوجات والمصنوعات المعدنية . وكان الخشب الجيد بالذات مطلوبا فى مصر والعراق لبناء المعابد والقصور وقوارب الصيد والسفن التجارية وسفن الأساطيل . وكانت أخشاب لبنان المستقيمة والمستديرة تمدهم بحاجتهم من الأخشاب بل بما يحتاجون إليه من القار والراتنج اللازم لصناعة السفن .

وكما وسع الفينيقيون رقعة سوق الاستهلاك وسعوا كذلك سوق الإنتاج حتى أصبحوا حلقة الوصل بين الشرق والغرب ، وأصبح البحر الأبيض بحيرة فينيقية قبل ظهور الإغريق والرومان بوقت طويل .

والفينيقيون ليسوا أول أمة بحرية فى العالم فحسب بل أول أمة جمعت بين النشاط فى البر والبحر ، فكانوا ينشئون محطات تجارية فى المناطق الداخلية البعيدة عن الساحل ويصلون بين موانيهم على البحر الأبيض بمراكزهم على الخليج الفارسى بمواصلات برية منظمة .

على أن أبرع الأعمال الجريئة التى خلدت اسم الفينيقيين فى تاريخ النضال البحرى أنهم كانوا أول أمة دارت حول إفريقية عن طريق رأس الرجاء الصالح ، فسبقوا البحارة البرتغاليين بنحو ألفى سنة . وقد تم هذا العمل الخطير بفضل توجيه نخاو فرعون مصر الذى أعاد حفر القنال القديمة التى تصل فرع النيل الشرقى بالبحر الأحمر ، وقد سار الفينيقيون فى هذه القناة حتى نزلوا إلى البحر الأحمر ، ثم دخلوا المحيط الهندى وواصلوا رحلتهم تجاه الجنوب الشرقى مارين بالصومال وزنجبار وموزمبيق وبلاد الزولو حتى وصلوا إلى رأس الرجاء الصالح ، ثم بدأوا فى العودة من هذه الرحلة الطويلة حذاء الساحل الغربى لإفريقية ، حتى جبل طارق ثم دخلوا البحر الأبيض وأدركوا مصر .

وقد استغرقت هذه الرحلة زهاء ثلاثة أعوام . وكان البحارة ينزلون فى الخريف إلى الشاطىء حيث يطيب لهم أن يقفوا ، ثم يحرثون الأرض ويبذرون الحب وينتظرون نضج المحصول ثم يبحرون . وفى ذلك يقول هيرودوت « ولما أقبل الخريف نزلوا إلى البر وزرعوا الأرض وانتظروا الحصاد فلما أن حصدوا الحب أقلعوا مرة أخرى ولما أن مرت عليهم فى عملهم هذا سنتان وصلوا فى السنة الثالثة إلى مصر بعد أن طافوا بأعمدة هرقل » .

ولم يكن الفينيقيون يكتفون بمجرد المتاجرة والعودة من حيث أتوا بل كانوا يستقرون ويستعمرون وينشئون مدنا فينيقية جديدة . وكان الفينيقيون الذين يستقرون لا يثيرون فزع السكان الأصليين ، فقد كانت أعدادهم قليلة وكانوا يتسربون دون أن يثيروا الريب والشكوك ، ولما لم يكن لهم اتجاه سياسى معين فسرعان ما يتلاءمون مع الوسط الذى يعيشون فيه . فإذا تم إنشاء المستعمرة واستقر فيها المهاجرون بدأت تتصل بالمدن الفينيقية الكبرى عن طريق البحر وتعمل على تصريف المنتجات الفينيقية فى البلاد التى تنشأ فيها كما تعمل على جمع المادة الخام وإرسالها إلى بلاد الشام .

بهذه الطريقة انتشرت المستعمرات من رأس الدلتا إلى ساحل قيلقية إلى بلاد اليونان كما انتشرت فى جزر البحر الأبيض المتوسط . ومستعمراتهم فى شرق البحر أقدم من مستعمراتهم فى أفريقية وأسبانيا ، فقد استقروا فى قبرص ورودس منذ منتصف القرن الحادى عشر ثم ، استقروا بعد ذلك فى صقلية ثم فى سردينيا .

وقد وصلت هذه المغامرات الاستعمارية فى غرب البحر الأبيض إلى الذروة من منتصف القرن العاشر قبل الميلاد إلى منتصف القرن الثامن قبل الميلاد فقد أنشئت مستعمرة قرطاجنة فى شمال أفريقية وتخطوا مضيق جبل طارق ونفذوا إلى المحيط الأطلسى، وأنشأوا مستعمرة على شاطىء أسبانيا الغربى هى مستعمرة قادش . والنفوذ إلى المحيط الأطلسى من أعظم المغامرات فى تاريخ العالم القديم فقد فتحت عيون البشرية على آفاق جديدة لم تكن معروفة من قبل وبدأ العالم يسمع لأول مرة عن المحيط الأطلسى وبحر الظلمات وما ورد فى شعر هومر وهسيود عن هذا البحر مستقى من المصادر الفينيقية. ولا نعرف إلى أى حد أوغلوا فى هذا البحر ويقال إنهم وصلوا إلى كورنول فى إنجلترا بحثا عن القصدير.

وتوسع الفينيقيون فى إقامة المستعمرات فى شبه جزيرة أيبريا فأنشأوا قرطاجنة ومالقة وبرشلونة التى قيل إن اسمها مشتق من الكلمة السامية برق أى لمع . كما أنشأوا مراكز لهم فى جزر البليار وكورسيكا . بل يبدو أن بلاد اليونان نفسها لم تخل من مستعمرات فينيقية يدل على هذا انتشار الأسماء السامية فى بلاد اليونان كما أن بعض المعبودات اليونانية متأثرة بالديانة السامية . ويبدو أن الفينيقيين لم يتركوا ناحية فى البحر الأبيض إلا أوغلوا فيها ، فانتشروا فى ساموس وكريت ، بل يذهب ديودور الصقلى إلى القول بأن أهل مالطة من أصل فينيقى وإلى أن أهل تراقيا فينيقيوا الأصل أيضا.

على أن أعظم هذه المستعمرات وأشهرها على الإطلاق مستعمرة قرطاجنة التى بدأت تنافس المدن الفينيقية الأصلية منذ القرن الثامن قبل الميلاد . وهيرودوت يصور لنا براعة

قرطاجنة فى عالم المال والتجارة ، فيذكر أن البحارة القرطاجنيين الساحليين لأفريقية الغربية كانوا يتركون بضاعتهم على الشاطىء ويشعلون النار ثم يفرون إلى سفنهم فيحضر أهل البلاد الذهب ويأخذون البضاعة ، ثم يعود البحارة إلى النزول فيأخذون الذهب ثم يمضون لحال سبيلهم . وبلغ من عظمة قرطاجنة فى هذا الميدان أن نفوذها فى القرن السادس قبل الميلاد انتشر من برقة إلى المحيط الأطلسى وشمل مالقة وجزر البليار وسردانية وبعض المستعمرات فى أسبانيا وبلاد الغال . الأمر الذى لم يتوفر لصور أو صيدا بسبب قوة مصر وآشور . على حين قدر لقرطاجنة أن تبرز فى هذا الميدان الأمر الذى أدى إلى نزاعها مع روما التى نازعتها سيادة البحار . وقد بلغ من تفوق قرطاجنة فى البحر أن قيل إن الرومان لا يستطيعون أن يغمسوا أيديهم فى مياهه إلا إذا أذنت قرطاجنة .

مظاهر الحضارة الفينيقية

(أولا) الصناعات والفنون :

فاق الفينيقيون أمم العالم القديم فى أربعة صناعات رئيسية :

١ — صناعة الصبغة الأرجوانية .

٢ — صناعة الزجاج .

٣ — صناعة النسيج .

٤ — صناعة الفخار والمعادن .

١ — صناعة الصبغة الأرجوانية :

هذه الصناعة التى لعبت دورا عظيما فى الحياة الاقتصادية فى العالم القديم والتى امتاز بها الفينيقيون دون شعوب الشرق القديم تدين بوجودها لظروف البيئة التى عاش فيها هذا الشعب ، ذلك أنه على طول الشاطىء الشرقى لحوض البحر الأبيض المتوسط يعيش نوع من القواقع فوق الصخور وفى المياه الضحلة غير العميقة وبعضها يعيش فى مياه أكثر عمقا.

هذا النوع من القواقع يمتاز باحتوائه على كيس صغير يحوى مادة حمراء أرجوانية بحيث يستطيع إذا دهمه الخطر أن يلون المياه بهذا اللون فينجو من الخطر المحدق به . ولا ندرى كيف عرف الفينيقيون هذه الخاصية التى ينفرد بها هذا الحيوان ، ويخيل إلينا أنه كان بمحض المصادفة أول الأمر ، وكل ما نعرفه أن الفينيقيين عرفوا كيف يستغلون هذا الحيوان استغلالا اقتصاديا ناجحا ، وكيف يستخرون هذه المادة الملونة بطرق علمية دقيقة ، وكيف يحتكرون تجارتها ويعرفون سرها دون سائر الأمم . وأنسب الأوقات

لصيد هذا الحيوان أواخر الشتاء وأوائل الربيع ، قبل أن تبدأ إناثه فى وضع البيض . فإذا تم صيد هذه القواقع بدأت عملية تحضير الصبغة . وقد وصف المؤرخ بلينى سر هذه الصناعة وصفا دقيقا ، فذكر أن هذه الأصداف ما تكاد تصاد حتى تموت فإذا ماتت خرج من أجسامها ذلك السائل الأحمر فيضاف إليه ملح الطعام ثم يترك لينقع ثلاثة أيام ثم يغلى فى حرارة معتدلة ، وكلما اشتد الغليان خرج السائل الأحمر وتستمر هذه العملية عشرة أيام حتى تخرج جميع هذه المادة من أجسام القواقع . وكانت هذه الصباغة ذات شهرة بعيدة فى العالم القديم ، كما كانت المنسوجات المصبوغة بهذا اللون غالية الثمن لا يقدر على اقتنائها إلا الأغنياء لذلك نجد اللون الأحمر من شارات الأرستقراطية فى فينيقيا وفى بلاد اليونان وفى إيطاليا أيضا .

١ — صناعة الزجاج :

وكما اشتهرت مدينة صور بصناعة الصبغة اشتهرت مدينة صيدا بصناعة الزجاج . وقد قيل إن الفينيقيين قد عرفوا صناعة الزجاج بمحض الصدفة فقد كان بعض التجار يحملون مادة تستخدم فى صناعة الصابون وحطوا رحالهم على رمال الشاطىء وأشعلوا النار فوق الرمال ووضعوا تحت القدر أحجارا من مادة النتروم ولشد ما دهشوا إذ وجدوا هذه المادة اللزجة الشفافة تلوح أمام أعينهم لأول مرة . هذه أسطورة ما فى ذلك شك والصحيح أن مصر عرفت صناعة الزجاج قبل أن يعرفها الفينيقيون بوقت طويل وقد عرف الفينيقيون سر هذه الصناعة من مصر وكانوا يستوردون المادة الخام اللازمة لها من مصر أيضا . وسرعان ما برع الفينيقيون فى هـذه الصناعة وتفوقوا فيها وشرعوا يصنعون الأكواب والأصص والزجاجات ، كما عمدوا إلى تلوين هذا النوع من الزجاج مستعينين بالأكاسيد المختلفة وقد برعوا فى صناعة الزجاج الملون وزخرفته واستخدموه فى تزيين المنازل والمعابد . وقد انتشرت هذه المصنوعات الزجاجية فى أسواق الشرق الأدنى وكانت تحملها السفن الفينيقية لتسويقها فى أسواق العالم القديم .

٣ — صناعة النسيج :

كانت صناعة الغزل والنسيج من أهم الصناعات المنزلية التى لعبت دورا كبيراً فى الحياة الاقتصادية فى مدن فينيقيا ، وقد عثر المنقبون على الأثقال التى كانت تستخدم فى الأنوال القديمة ، وقد ثبت أنهم استخدموا الأنوال فى هذه الصناعة منذ الألف الثالث قبل الميلاد . وكانت المادة الخام اللازمة لهذه الصناعة تتمثل فى الصوف وفى القطن وفى الكتان الذى كان يزرع بكثرة فى بلاد الشام منذ القرن العاشر قبل الميلاد وكذلك الحرير الذى

استخدمه الصناع منذ القرن السادس قبل الميلاد . ومما يشهد بتفوق هذه الصناعة ورقيها أن الكشف عن الآثار أظهر لنا أن الغزالين كانوا يستخدمون الإبر والدبابيس المصنوعة من البرونز كما عثر على « زراير » من العظم والعاج أو الفخار .

وقد أعطتنا النقوش المصرية التي ترجع إلى عهد الهكسوس صورة واضحة للملابس الكنعانية ، طريقة صنعها وطريقة صباغتها أيضا وهي تظهر لنا هذه الثياب الكنعانية طويلة سابغة من الكتف إلى الركبة مصنوعة من القماش المصبوغ ومذيلة بالزخارف والنقوش . كما تظهر مقابر طيبة بعض السوريين يقدمون الجزية وقد ارتدوا أزرا لها نهايات حمراء أو زرقاء تربط حول الخصر مما يشهد ببراعة النساجين وتضلعهم في فنهم .

٤ — صناعة الفخار والمعادن :

كانت صناعة الفخار من أهم الصناعات الفينيقية وأكثرها نجاحا قد تأثر الفينيقيون بحكم اتصالهم بحضارات العالم القديم بالأساليب البابلية والعمورية ، كما تأثروا بالصناعة المصرية والكريتية والمايسينية ، وقد ظل الخزف الفينيقي تنقصه دقة الصناعة وجمال الهيئة حتى استخدم الصناع عجلة الفخار فكان استخدامها فتحا جديداً في تاريخ هذه الصناعة واكتسب الخزف الانسجام والاتقان ودقة الصنعة وسلامة الذوق ، وقد استخدم الفنانون من فينيقيا القصدير في تلميع الخزف وإكسابه بريقا خاصا ولا تزال النماذج التي عثر عليها المنقبون تعتبر دليلا على مبلغ ما وصلته الصنعة من رقي واتقان .

وقد اتقن الفينيقيون فن صناعة المعادن منذ عصر البرنز (٢١٠٠ — ١٢٠٠ ق . م) فاستخدموا النحاس والبرنز بوفرة وقد أثبتت التحاليل الكيماوية لبعض الأسلحة التي ترجع إلى القرن الرابع عشر قبل الميلاد أنهم عرفوا فن صهر الحديد كما خلطوه بمعادن أخرى ليجعلوه أكثر صلابة وأوفر مقاومة . وقد قاموا برحلات خارج بلادهم للبحث عن القصدير للاستعانة به في صنع البرنز وتحسين خامة الحديد كما بحثوا عن الذهب والفضة .

وقد استخدمت الفضة على نطاق واسع في الصناعة الفينيقية بل استخدمت في التبادل التجاري بين فينيقيا وغرب آسيا فقامت مقام العملة واستخدمت في الصناعة فصنعت منها أنواع فاخرة من أطباق الطعام ، وجدت في مصر أطباق منها قدمت لفرعون على سبيل الجزية .

وقد برع الفينيقيون في استخدام المعادن في صناعة الأسلحة على اختلاف أنواعها وقد وجد في حفائر مدينة جريكو الفينيقية سكاكين ورءوس حراب وفئوس ، كما ظهرت في فلسطين منذ سنة ١٥٠٠ ق . م نماذج من الأسلحة الحيثية والقبرصية .

ويبدو أن فن الصياغة قد وصل إلى أقصى غايته فى القرن السادس عشر ق . م ، وقد عثر فى بعض المناطق على ميزان الجوهرى وموازينه كما وجدت أساور من الذهب والفضة والبرنز وأقراط وخلاخيل . وقد تفوقت صناعة أدوات الزينة على العموم فكان عامة الناس يتزينون بعقود وخواتم مصنوعة من حجر الجبر والكوارتز والعقيق كما ظهر أيضا أن العظم كان يستخدم بدلا من العاج على الرغم من أن الفيل كان يعيش فى بلاد الشام فى ذلك العصر ، تشهد بهذا رحلات فرعون للصيد والقنص . وأقدم المصنوعات العاجية ترجع إلى القرن الرابع عشر كما وجدت مصنوعات عاجية بمدينة مجدو ترجع إلى القرن الثانى عشر ق . م : كما وجدت أمشاط فى أسبانيا مصنوعة وفق الأسلوب الفينيقى وقد قلد الإغريق هذه الصناعة ونقلوها عن الفينيقيين .

وأظهرت الآثار وجود قيثارات وأبواق وآلات موسيقية متنوعة مما يدل على رقى هذه الصناعة وازدهارها .

٥ — العمارة والنحت والزخرفة :

وبراعة الفينيقيين فى فن العمارة أمر لا يكاد يختلف فيه اثنان ، تشهد بذلك الحفائر الحديثة التى كشفت عن الأبراج والقلاع والحصون والعمائر الدينية والمدنية كلها تشهد بمقدار تمكن المهندسين من فنهم وتضلعهم فيه ، وكانت القلاع والحصون والأسوار الفينيقية أعظم ماعرفه العالم القديم من فن العمارة الحديثة كما يتجلى فى أسوار جزر وصور وصيدا ، وقد برع الفينيقيون فى فن العمائر المدنية والدينية فهم الذين بنوا هيكل اليهود بأورشليم ، وكان هذا الهيكل كما رأينا تقليدا للمعابد الفينيقية فإذا كنا قد قلنا بفخامة معبد اليهود وأبهته فما بالك بالمعابد الفينيقية الأصيلة فى صيدا وصور وغيرها .

وبنى الفينيقيون أيضا قصر داود ملك العبرانيين وقصر سليمان وأبدعوا فى بنائهما وفى زخرفتهما ويمتاز فن العمارة الفينيقى بأنه فن الصخر المنحوت ، على حين برع الإغريق فى بناء العمد وزخرفتها ، وكان المهندس الفينيقى يمتاز بأسلوب خاص يختلف عن أساليب المهندسين وهو استخدامه كتل حجرية ضخمة فى فن العمارة والبناء ، وقد ترتب على هذا أن المهندس لم يستطع أن يتحكم فى المادة وأن يصوغها وفق هواه إنما تحكمت المادة فيه لأن الكتل الضخمة من الأحجار لا تمكن الفنان من أن يستخدم ذوقه فى إكسابها الهيئة التى يريد ، على حين كان الفنان الإغريقى يستخدم قطعا صغيرة من الأحجار ويستطيع بذلك أن يصنع الحوائط بالأسلوب الفنى الذى يريد ، وأن يخضع عملية البناء للقواعد الزخرفة والتوافق الفنى والانسجام .

وقد تفوق الفنانون أيضا فى فن الزخرفة والنقش والنحت ،ولم يعثر على تماثيل كثيرة من صنع الفنان الفينيقى إنما يتبين من نقوش التوابيت والمقابر براعة الفينيقيين فى هذا المضمار وإتقانهم هذا الفن ، كما أتقنوا فن النقوش البارزة وقد عثر على إحدى اللوحات فى مدينة قبرص تمثل موكبا جنائزيا يمثل رجلين يمتطيان الجياد يسبقان عربة يجرها زوجان من الخيل، وقد تجلت براعة المثال فى إظهار معالم الحصان بارزة ناطقة جميلة تشهد برقى الأسلوب الفنى .

(ثانيا) الكتابة والأدب :

وفضل الفينيقيين على الإنسانية لا يتمثل فى ميدان المغامرات البحرية فحسب، ولا فى ميدان الفنون والصناعات* فحسب بل فى ميدان الثقافة والفكر . ذلك أن السفن الإغريقية لم تكن تحمل البضائع فحسب بل كانت تحمل المؤثرات الثقافية التى كان التجار الفينيقيون والمستعمرون يحملونها معهم أينما ذهبوا .

وكان الإغريق أكثر الشعوب القديمة استفادة من الفينيقيين فتتلمذوا عليهم فى كل ناحية وقبسوا من فنونهم ما طاب لهم تعلموا فن الملاحة والاستعمار وتعلموا فى ميدان الأدب والدين والفن بل قبسوا منهم أمورا بالغة الخطورة فى تاريخ الثقافة الإنسانية واقتبسوا منهم الأبجدية بين سنتى ٨٥٠ و ٧٥٠ ق . م ، ويعتبر بعض العلماء أن انتقال الأبجدية الفينيقية إلى الأغريق من الأحداث البارزة التى أثرت فى مجرى حضارة العالم وقد احتفظ الإغريق بالأسماء السامية للحروف ، والأبجدية وبأشكالها وترتيبها ، وكانت الكتابة فى النقوش الإغريقية القديمة تجرى من اليمين إلى الشمال كما هو الحال فى الكتابة الفينيقية .

وقد اعترف الإغريق بهذا الفضل فى قصة كادموس إذ قيل إنه أخذ من الفينيقية ستة عشر حرفا ، كما تذكر هذه القصة أن المهاجرين الفينيقيين أدخلوا معهم الأبجدية إلى بلاد الإغريق كما أدخلوا فن التعدين وعبادة ديونيزيوس « إله الخمر » .

وقد تسلم الأغريق هذه الأبجدية ونقحوها ثم أعطوها للرومان لتصبح أساس الأبجدية الأوربية الحديثة . وكذلك نقل الآراميون أبجديتهم عن الفينيقية ثم أعطوها للعرب والهنود والأرمن وغيرهم من الشعوب الشرقية .

وكانت الأبجدية الفينيقية تتألف من اثنين وعشرين حرفا ، وكانت فى غاية من البساطة ، تتيح للرجل العادى معرفة القراءة والكتابة .

فما هى قصة هذه الأبجدية التى أثرت فى مجرى الثقافة العالمية، وهل اخترعها الفينيقيون أم نقلوها وكيف تم لهم ذلك وعمن نقلوها ؟ ؟

لم يختلف الباحثون فى التراث القديم فى موضوع مثل ما اختلفوا فى موضوع الأبجدية الفينيقية وأصلها وكان هنالك رأيان فى هذا الموضوع .

الرأى الأول يقول بأن الفينيقيين اخترعوا هذه الأبجدية منذ القرن الخامس عشر قبل الميلاد حينما كانوا لا يزالون يستعملون القلم المسمارى وبذلك يكونون قد استفادوا من الكتابات التى كانت شائعة فى بابل وآشور .

والرأى الثانى ذهب إليه السيرآرثر إيفانز وهو أن الأبجدية أصلها من بحر إيجه فقد وجد فى جزيرة كريت قالب من الصلصال محتفظا بنقوش على سطور متوازية تشبه الكتابة الفينيقية، مما يدل على أن الفينيقيين قد استمدوا أبجديتهم من هذه الناحية ولكن النقوش الإيجية لم تحل رموزها بعد، فمن غير المعقول الادعاء بأن هذه النقوش مكتوبة بالطريقة الأبجدية أو أنها تشبه الأبجدية الإغريقية السامية .

ولكن كشفا أثريا هاما قلب هذا الآراء رأسا على عب فقد وجد المنقبون فى أطلال مدينة بيبلوس الفينيقية القديمة نصا فينيقيا بالغ الخطررة يتألف من خمسة أسطر وحروفه أقدم الحروف الفينيقية التى كشفت، كما وجدت نقوش أخرى مماثلة فى منطقة أذنة تتألف من واحد وتسعين سطرا كتبه أحد الملوك الفينيقيين فى القرن التاسع عشر .

وقد ظهر من دراسة هذه النصوص أن أصل الأبجدية الفينيقية التى غيرت معالم الحضارة قد استمدت من مصدر أشد قربا من بلاد الشام ؛ استمدت من مصر ومن كتابتها الهيروغليفية . فالمعروف أن المصريين والسومريين اخترعوا الكتابة قبل أن يخترعها الفينيقيون بنحو ألف سنة ، وكانت هذه الكتابة أول الأمر تصويرية مجرد تصوير للأشياء المعبر عنها ، وكانت تلك هى الخطوة الأولى وكانت الخطوة الثانية اقتران صوت معين ونطق معين بصورة معينة دون ارتباط بين هذا النطق وبين ما كانت الصورة تعبر عنه من قبل .

ثم مضى المصريون إلى أبعد من هذا بأن خصصوا بعض هذه العلامات لتدل على الحروف الجامدة وجعلوا هذه الحروف تمثل صوت الكلمة الأولى التى اقتبست منها ، وبذلك اخترعوا أبجدية تتألف من أربع وعشرين حرفا، ولكن الكتاب المحترفين الذين كانوا يحتكرون هذه الصناعة ويحتكرون أسرارها لم يغيروا من طريقتهم القديمة المعقدة ولم ولم يعتمدوا على هذه الأبجدية الجديدة فى التعبير عما يريدون حتى أصبحت هذه الكتابة أشبه بالألغاز لا يفهمها إلا من يتقنها أو يتضلع فيها .

وكان أهل سيناء يخضعون لمصر ، وكانوا ساميين يحتفظون بلغتهم الكنعانية ، وكانت الدولة تستخدم مترجمين للتفاهم مع البدو الساميين ، وفى أثناء توسع المصريين فى عملية الكشف عن المعادن فى سيناء استطاع أحد أهل سيناء أن يتعلم من أحد الكتاب المصريين المبدأ الذى تقوم عليه الأبجدية المصرية ، فبدأ يقلد الهيروغليفية المصرية ويكتبها رأسيا وليس أفقيا ، ولكنه بدأ يعطى هذه الحروف أسماء كنعانية سامية فمثلا :

رأس الثور : أصبحت ألفا .
والمنزل مثلا : بيت .
وشجرة الشوك : دردار .
والشخص مرفوع الذراعين : هلل .
الوتد : واو .
واليد : يد .
والماء : ميم .
والثعبان : نحش .
والرأس : روش .
والسنة : شين .

والأبجدية المصرية لم تكن تمثل الحروف المتحركة ، فقلد المخترع الطريقة المصرية ولم يسجل الأصوات إنما سجل الحروف الجامدة ، كما قلد هذا المخترع الطريقة المصرية فى الكتابة ، فإذا كانت القوائم عمودية كتبت من اليمين إلى الشمال . وكانت الحروف فى هذه المرحلة تنقش على الصفحة دون أدنى ترتيب . ويبدو أن هذا الرجل أخذ يجرب الكتابة على البردى فبدأ يعطى الحروف شكلا أكثر استدارة وهو يكتبها بالمداد فبدأ يختزل من صورة هذه الحروف فاختزل ثمانية عشر منها ثم مضى بالتطور إلى أبعد من هذا ، فبدأ يعطى هذه الحروف أول حرف من الكلمة التى يمثلها ، فالعلامة التى تمثل بيتا أصبحت ب والتى تمثل يدا أصبحت ى والتى تمثل الماء أصبحت م والتى تمثل الرأس أصبحت ر .

وكان الفينيقيون يتاجرون مع سيناء فاستعاروا هذه الحروف الجديدة وأضافوا إليها وخلقوا منها ٢٢ حرفا جامدا لا متحرك فيها ، فكان هذا أعظم تبادل ثقافى فى تاريخ الإنسانية .

وقد وجدت نماذج من هذه الكتابة فى مراحلها الأولى . وجدت نقوش فينيقية ترجع إلى القرن الثالث عشر والرابع عشر فى لشيشن وبيت شمش كما وجدت نصوص بيبلوس التى أشرنا إليها وكذلك نقش أؤنة .

وكانت هذه الأبجدية الفينيقية التى تكتب فى سطور متوازية وتتألف من اثنين وعشرين حرفا وتكتب من اليمين إلى الشمال من اختراع أهل بيبلوس فقد كانوا أكثر الفينيقيين صلة بمصر وقد اخترع فينيقيون آخرون أبجديات تكتب بطرق مختلفة فكتبوا هذه الحروف بمسمار مدبب على ألواح من الطين أو الصلصال وبذلك نشأ الخط المسمارى المعروف . ووصل بعض الفينيقيين إلى أنواع أخرى أكثر تعقيدا تعتمد على الطريقة المقطعية وتتأثر بالطريقة المصرية أكثر من طريقة سيناء . وفى الألف الثامن قبل الميلاد كتب الفينيقيون بالخط الأكادى المسمارى وهو نفس الخط الذى كتبت به خطابات تل العمارنة .

هذا عن الأبجدية الفينيقية أما عن الأدب الفينيقى فإن وثائقه قليلة ونادرة لأنه كان يكتب على أوراق البردى وهذه الأوراق قابلة للعطب تلفت بمضى الزمن ولم يبق منها إلا القليل . وكان البردى يجلب من مصر حول سنة ١١٠٠ ق . م وإذا كانت وثائق العصور المتقدمة نادرة فإن وثائق العصور المتأخرة أغزر بعض الشىء فقد وجدت نصوص من القرن الخامس والثانى . وقد اختفت النصوص الفينيقية بعد ظهور المسيح وإن كانت اللغة الفينيقية قد بقيت فى بلاد الغرب حتى فتحه العرب وكان أهل قبرص ومالطة يكتبون بالفينيقية والإغريقية .

وقد بلغت النهضة الأدبية الفينيقية أوجها فى القرن السادس ق . م وتمثلت فى أحد الشعراء الفينيقيين من أهل بيروت ألف مجموعة من الأشعار الخرافية ترجمها إلى الأغريقية أحد أبناء بيبلوس فى القرن الثامن الميلادى . بل إن الرواية الإغريقية تذكر أن الفيلسوف الشهير طاليس (٥٤٦ ق . م) قد تعلم فى مدارس فينيقيا وتلقى فيها أصول الثقافة المصرية والبابلية .

ومن حسن الحظ أن العبرانيين قبسوا أحسن ما فى الأدب الفينيقى وظهر صدى ذلك فى كتبهم الدينية وفى شعرهم الغنائى وفى حكمهم وأمثالهم المتمثلة فى المزامير وفى ما ورد فى سفر التكوين وأقوال الأنبياء . وقد ظلت هذه الحقيقة مجهولة حتى كشفت مدينة أوجاريت الفينيقية التى وصلت إلى الغاية فى قوتها سنة ١٤٠٠ ق . م وكانت تبعد عن الميناء بنحو ميل إلى الداخل وكانت تدين برخائها للتجارة التى تدفقت إلى مينائها .

وقد وجدت فى هذه المدينة ألواح من الصلصال عليها كتابات فينيقية بالقلم المسمارى من سنة ١٤٠٠ ق . م وهذه النقوش كنعانية اللهجة دينية الطابع أدبية الصفة وهى تعد من روائع الأدب الكنعانى وهى تصور النضال اليومى بين الحياة والموت ، بين عليان بعل إله النبات وبين عدوه إله الموت فالموت يصرع بعل أول الأمر لأن الصيف يقضى على الحياة النباتية ولكن عندما تسقط الأمطار ينتصر بعل على الموت . وليس بعيدا أن تكون هذه الملاحم دراما مقدسة تمثل على شواطىء الشام كما كانت الدراما الإغريقية تمثل فى بلاد اليونان . وهنالك ثمة تشابه بين الأدب الفينيقى وبين كتاب حكم أيوب ، تشابه فى اللغة وفى الوزن وفى البناء والتركيب .

(ثالثا) الديانة :

ظلت مصادرنا عن الديانة الفينيقية نادرة ضئيلة تتمثل فيما كتبه إغريق ببيلوس أو ساموس وهى كتابة منحلة تنقصها الدقة والأمانة كما أنه يمكن الاعتماد فى هذه الناحية على ما جاء فى كتاب العهد القديم لأنه متأثر بعداء العبرانيين وكرههم لأهل البلاد ، حتى كشفت مدينة أوجاريت وأميط اللثام عن كثير من النقوش الفينيقية القديمة فبدأ الظلام الذى كان يغشى هذه الناحية من حياة هذا الشعب الأصيل ينجاب بعض الشىء وبدت معالم هذه الديانة تتضح أكثر من ذى قبل .

فقد تبين أن العقيدة الفينيقية تقوم فى جوهرها على أساس تقديس قوى الخصب والنماء التى يعتمد عليها مجتمع زراعى يعتمد على الأمطار ويقوم بتربية الأنعام ومثلها مثل الديانات السامية الأخرى . ويتمثل هذا فى الحزن على موت إله النبات والقيام بطقوس تعينه على التغلب على خصمه إله الموت حتى تسقط الأمطار وينبت المحصول الجديد وتتمثل كذلك فى الطرب لعودة هذا الإله للحياة فيتم الزواج بين بعل وبين عشتار إلهة الخصوبة وثمرة هذا الزواج تتمثل فى هذه الخضرة التى تكسو الأرض زمن الربيع .

ويرتبط بهذه الفكرة القائمة على هذا الموت الفعلى لإله النبات فى الصيف وإحيائه فى الربيع عنصر آخر يتمثل فى القوة المتجددة للشمس حينما تظهر بعد هزيمة الشتاء وقد تجسم هذا كله فى أسطورة تموز . والفينيقيون يسمون هذا المعبود آذون يعنى السيد وقد نقله الأغريق وسموه Adonis ثم ربط فيما بعد بأزوريس المصرى . وسرعان ما أصبح هذا الإله أهم المعبودات فى بلاد الشام وأعظمها شأنا . والأساطير الفينيقية تذكر أن تموز كان يصيد الخنزير البرى فهاجمه الخنزير وقتله فحملوه صريعا إلى أمه الحزينة ومنذئذ والأنهار تجرى حمراء كالدم المراق فى فصل معين حزنا عليه . وفى أثناء غيبة تموز فى العالم الآخر تذبل النباتات على وجه الأرض حتى ينزل عشتار إلى العالم الآخر فينقذه . وقد تطورت

الطقوس التى وضعت فى مدينة بيبلوس للاحتفال بذكرى وفاته . فالنسوة يقمن بالبحث عنه ويستمر الحزن عليه سبعة أيام وحينما يعود إلى الحياة تغلب نشوة الفرح على الناس فيخرجون عن طورهم وينغمسون فى المرح والانسياق فى الملذة .

ودورة الحياة والموت ليست قاصرة على النباتات بل تشمل الإنسان أيضا ونتج عن هذا تجسيم الناحية الجنسية فى الحياة والعناية بالخصب وكثرة النسل .

والديانة الفينيقية فى جوهرها عبارة عن عبادة للطبيعة ويمثلها معبودان رئيسيان لهما أسماء متنوعة ولكنهما يتمثلان فى السماء الأب وفى الأرض الأم فيسمى إله السماء إل ويسمى إله الأرض عشترون . وكان إله السماء إل هو الذى يسيطر على المطر ويبعث الريح ويصنع البرق والرعد وينضج المحاصيل وكان يرمز له بنصب من الحجر على شكل أسطوانة قائمة وكانت تقام من أجله الأعياد الصاخبة وتقدم له القرابين والتضحيات ويشترك فى هذا العيد العابد والمعبود .

ولرب السماء زوجة هى عشترون التى نقلها الإغريق ومزجوها بأفروديت وأصبحت إلهة الخصوبة المشهورة فى الديانة الأغريقية . وهذه الإلهة بعلة أو سيدة وهى التى تعطى الحياة وتغتصب الحياة وهى التى تشعل جذوة الحب أو توقد نار الحرب .

وقد بنى الفينيقيون المعابد لاعتقادهم أنها ستغدو بيت الآلهة وأنها المكان الذى يتم فيه الاتصال بين الخالق والمخلوق وأقدم هذه المعابد يرجع إلى بداية الألف الثالث قبل الميلاد . وكان المعبد الأول بسيطا أول الأمر لا يعدو أن يكون حجرة واحدة لها باب جانبى ولكن الفينيقيين انتقلوا بفن بناء المعبد من البساطة إلى التعقيد فتعددت حجراته وتعددت أبهاؤه وأصبح له طابع معين وأصول خاصة إذ لا بد أن يحوى مذبحا من الحجر تقدم عليه القرابين وحجرا مقدسا على هيئة عمود يمثل الإله الذكر وإلى جانبه الشجرة المقدسة رمز الخضرة الدائمة والخصوبة الأبدية والمعبد حجرات تحتية يستخدمها الكهنة فى إصدار النبوءات حينما يأتى الناس إلى الآلهة يستشيرونها ويهتدون بهديها وبالمعبد آنية للبخور وهيا كل ذات مصاطب يغسل الناس فيها أقدامهم قبل أن يتقدموا للصلاة . والفينيقيون لم يتخذوا أصناما يتقربون إليها زلفى إنما كانوا يكتفون بصورة صغيرة من البرنز تمثل بعل رافعا يده يصدر البرق والرعد .

هذا وقد فتح الفينيقيون فتحا جديدا فى عالم التشريع وعالم القانون فقد وضعوا تشريعا كتب على لوحتين عظيمتين وقد قسمت هذه الاوحات إلى خمس وصايا وقسمت كل وصية إلى خمس مواد وكل مادة إلى فقرتين فأصبح القانون يتألف من خمسين بندا وهو إن كان يشبه قانون حمورابى الذى وضع سنة ١٩٥٥ ق . م إلا أنه يختلف عنه فى جوهره فقد كان طابعه زراعيا وصبغته ليست دينية إنما مدنية خالصة .

تأثر الحضارة الفينيقية بحضارة مصر وحضارات الشرق الأدنى

قلنا إن البيئة الفينيقية هى التى شكلت تاريخ فينيقيا وحضارتها أيضا فكما جعلها موقعها قنطرة للغزوات القادمة من الشرق ومن الجنوب وأصبحت واقعة بين شقى الرحى ، كذلك فإن شأنها فى ميدان الحضارة كانت قنطرة للغزوات الثقافية كما كانت قنطرة للغزوات العسكرية وتأثرت بالتيارات الثقافية السائدة فى العالم القديم فكانت همزة وصل بين التيارات الفكرية وعامل مزج بين هذه الحضارات العالمية .

وكانت الثقافة المعاصرة تعبر الطرق التجارية التى تصل فلسطين بالعالم القديم وكانت هذه الطرق التجارية الثقافية تتمثل فى ثلاثة :

١ — الطريق الساحلى وقد سلكته المؤثرات المصرية والآشورية والإغريقية والرومانية .

٢ — الطريق من مصر إلى دمشق الذى يخترق السهل الساحلى ثم يتجاوز سلسلة جبال الكرمل قرب مجدو ثم يصعد هضبة الجليلى ثم ينشعب شعبتين واحدة تصل إلى سوريا الداخلية والأخرى تعبر نهر الأردن جنوب بحيرة الحولة عند جسر بنات يعقوب ثم يصعد إلى دمشق ، وقد سلك هذا الطريق فرعون مصر نخاو حتى وصل إلى الفرات سنة ٦٠٩ ق . م

٣ — الطريق الذى يحف بالأراضى الواقعة إلى ما وراء الأردن على حافة الصحراء ويسير من دمشق إلى بلاد العرب ثم إلى أيلة على رأس خليج العقبة وهو الطريق المعروف بطريق الحج .

هذه هى المسالك الكبرى التى كانت تصل بين البيئات الحضارية فى العالم القديم وتحمل إلى فلسطين المؤثرات المختلفة فلا تعجب إذا كانت هذه الحضارات قد التقت على أرض كنعان فتبادلت وأعطت وأخذت . تتضح هذه الحقيقة من خاتم عثر عليه فى فينيقيا نقش عليه رسم بابلى وكتبت نقوش مصرية ونقوش مسمارية ، فصاحب هذا الخاتم يكتب بلغة بابلية ويزين خاتمه بنقوش مصرية . من هذا يتبين أن الحضارة الفينيقية قد تأثرت بالحضارة البابلية والمصرية وبحضارات البحر الأبيض مثل الحضارة الإيجية والميسينية .

(ا) المؤثرات البابلية :

تتضح التأثيرات البابلية بصورة أوضح فى ميدان العقيدة ذلك أن الكتاب الفينيقيين الذين كان عليهم أن يكتبوا بلغة بابل كانوا يتعلمون هذه اللغة بزيارة بابل نفسها ودراسة آدابها وعقائدها وقد ترجموا بعض النصوص البابلية الدينية وقد تأثروا بالعلوم البابلية وبالتشريعات البابلية كما تأثروا بالصناعة البابلية فالأختام التى وجدت فى فلسطين إما من أصل بابلى أو تقليد لنماذج بابلية . وكانت الموازين والعملة المستعملة منذ القرن السادس عشر كلها من مدنية الفرات الأدنى. وقد تعلم الفينيقيون من الحضارات العراقية فن بناء الحصون وتحصين المدن وفن بناء القباب والعقود فقد وجد فى مجدو عقد Arch يحمل ما زنته ١٣٥ طنا من البناء .

(ب) المؤثرات المصرية :

كانت صلة مصر بمدن فينيقيا من أوثق الصلات فقد كانت أخشاب لبنان ضرورية للمصريين لصنع التوابيت والزوارق والسفن لذلك كان المصريون يحرصون أشد الحرص على هذه العلاقات الطيبة خصوصا مع مدينة بيبلوس .

وهذه الصلات قديمة ترجع إلى عصر لاحق للقرن السادس عشر ق . م إلى عهد الأسرة الثانية عشرة والثالثة عشرة . وقد نمت هذه العلاقات التجارية كثيراً منذ بداية الفتوح المصرية وفى عهد أمينوفيس الثالث (١٤١٥ — ١٣٨٠) كانت فى مصر جالية فينيقية كبيرة تشتغل بالتجارة ، وكانت القوافل تخترق صحراء غزة وكانت السفن الفينيقية تبحر فى النيل حتى مدينة طيبة وتحمل البضائع من كل الأصناف .

فهل نعجب بعد ذلك إذا كانت المؤثرات الفينيقية قد ظهرت فى فينيقيا منذ عهد بعيد وكانت التمائم أكثر المصنوعات رواجا فى فلسطين يدل على هذا هذه المقادير الهائلة من التمائم التى وجدت فى أرض كنعان . كما وجدت جعارين عليها نقوش ورسوم مصرية وعقود وجواهر وأختام وأوانى وجد بعضها فى مجدو . فقد وجدت فى هذه المدينة كمية هائلة من المصنوعات ترجع إلى عهد تحوتمس الثالث سنة ١٤٧٩ كما وجدت مصنوعات مماثلة فى المقابر الملكية فى مدينة بيبلوس بعضها يرجع إلى الأسرة الثانية عشرة .

والفينيقيون لم يكتفوا باستيراد الصناعات المصرية بل شرعوا يقلدونها وقد وجدت فى مدينة صور قوالب كانت تستعمل فى صب التماثيل الصغيرة التى كانت شائعة فى مصر .

وقد وصل التأثر بمصر إلى ميدان العقيدة فقد انتقل الإله بتاح إله ممفيس وكذلك آمون إله طيبة وكما نسب فى مصر إلى رع نراه فى فينيقيا ينسب إلى بعل وأوزوريس إله الموتى نسب إلى أدونيس وعثر على مقابر له فى جبيل .

(ج) المؤثرات الأخرى :

ولكن بابل أو مصر لم تكن هى مراكز الحضارة التى اتصل الكنعانيون بها فحسب فقد عثر فى بيبلوس على أدوات من البرنز تدل على صلة فينيقيا ببلاد القوقاز منذ سنة ٢٠٠٠ . وقد وجد فخار فينيقى من القرن الرابع عشر يحمل آثارا من فن بحر إيجة ، ويعزى إلى هذه المؤثرات تطور فن صناعة الفخار فقد كان الصلصال الفنيقى غير نقى أول الأمر يجفف فى الشمس ثم يوقد عليه فى سرعة ولكن الفينيقيين تعلموا من الإيجيين كيفية زخرفة الخزف ومراعاة التوافق والتوازن فى الزخرفة الهندسية . وكذلك تلوين صور الحيوانات والنباتات بألوان مختلفة . ومنذ أن تم هذا الاتصال تطورت صناعة الفخار فبدأ يصنع بواسطة العجلات كما بدأ الصلصال يصبح أكثر نقاء وأشد نضجا وأخذ يبدو فى أشكال جميلة وأخذت تظهر عليه المؤثرات الميسينية . وقد وضح أثر الفن الميسينى والقبرصى حينما خضعت فلسطين للفراعنة فى عهد الأسرتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة . وهذا يدل على أنه كانت هنالك تقاليد حضارية شائعة بين الشعوب الراقية فى حوض البحر الأبيض الشرقى . وكان تطور الفن فى أيه بقعة يتبعه تطوره فى الدول المجاورة .

الإيرانيون القدماء

للدكتور عبد المنعم محمد حسنين

الفصل الثانى عشر

الحضارات الفارسية

الميديون (٧٠٨ — ٥٥٠ ق . م)

العنصر الآرى :

إذا أردنا أن ندرس الحضارات الفارسية قبل الإسلام ، فإنه ينبغى علينا أن نرجع إلى الأزمنة الموغلة فى القدم لنتعرف على العنصر الآرى ، ونلم بالأقاليم التى كان يسكنها ، وكيف احتلت جملة من قبائله الهضبة الإيرانية وأقامت فيها .

ويختلف المؤرخون فى الأقاليم التى سكنها الآريون ، ويغلب على الظن أنهم كانوا يقيمون فى القوقاز ، وشمالى سيبريا ، وشمالى أوروبا ووسطها ، وشمالى روسيا وشرقها ، وشمالى الهند ، وفى المنطقة التى تقع بين بحيرة أورال ونهر جيحون ، ثم هاجرت الطوائف الآرية بعد أن كثر عدد أفرادها ؛ فقد أجبرتها الظروف الاقتصادية على ذلك ، ويبدو أن هذه الهجرة كانت قبل الميلاد بأربعة آلاف سنة ، وقد توجهت كل طائفة إلى ناحية ، واختارت الإقامة فيها ، فأقبلت طائفة من هذه القبائل الآرية من أواسط آسية ، واحتلت الهضبة الإيرانية وسكنتها .

ويبدو أن هذه القبائل جاءت عن طريق خوارزم إلى بلخ وما حولها ، واختارت الإقامة فى الحدود الشرقية ، والشمالية الشرقية لإيران الحالية ، ثم انتشرت بعد ذلك فى أجزائها المختلفة .

وليس من الممكن تحديد الزمن الذى قدم الآريون فيه إلى إيران[1] ، وإن كان من المرجح أنهم دخلوها منذ أكثر من ألف عام قبل الميلاد ، ثم أخذت كل قبيلة منهم تنتقل

---

(١) إيران هى أقدم تسمية لبلاد الفرس ، فقد وردت فى « الأفستا » كتاب زردشت المقدس الذى وضع فى القرن السابع قبل الميلاد ، فسماها «إيريانا فيجا» أى موطن الآريين أو الإيرانيين ، لأن الإيرانيين شعب من الآريين ، فلما انحدروا من أواسط آسيا إلى تلك الهضبة سموا موطنهم الجديد « إيريانا فيجا » أى موطن الإيرانيين ثم تطورت التسمية فصارت بلاد إيران .

إلى ناحية من إيران وتنزل فيها ، وصارت الوديان تسمى بأسماء القبائل التى نزلتها ، وكانت أهمها ثلاث قبائل هى : ميديا ، فارس ، وپارز .

وقد نزل الميديون فى الأجزاء الغربية للهضبة الإيرانية ، وفى كردستان والعراق العجمى ، بينما نزل الفرس فى الولايات الجنوبية الغربية التى أصبحت تعرف باسمهم ، ونزل البارزيون فى شرقى إيران .

وبالإضافة إلى هذه القبائل الثلاث ، نزلت قبائل أخرى فى أنحاء مختلفة من إيران مثل الجرجانيين فى جرجان ، كما استمرت قبائل أخرى فى سيرها حتى جاوزت حدود إيران ونزلت فى الأنحاء الواقعة خلف نهر « أرس » مثل قبيلة « أرّان » التى نزلت فى القوقاز ، وتعد هذه القبائل — أيضا من مجموعة القبائل الآرية الإيرانية ولو أنها سكنت خارج حدود إيران .

وكان لبيئة إيران الجغرافيـة أثر فى توجيه سير القبائل الآرية فإن طبيعة البلاد ، وما فيها من جبال مرتفعة ، وصحارى صعبة العبور ، قد أثرت فى نفوس الناس ، فجعلتهم أهل شدة وبأس ؛ وقد زاد فى صلابة الآريين أنهم وجدوا — فى أثناء حلولهم بإيران — طوائف جبلية محاربة ، فاضطروا إلى الالتحام معها ، والتمرن على النزال . وعلى هذا الأساس — أساس القوة والبطش — بنى الآريون حضارتهم ، واستطاعوا أن يتوسعوا ، ويحتلوا أراضى جديدة ، حتى تمت لهم السيطرة على جميع الأراضى الإيرانية ، ثم تجاوزوها إلى ما جاورها .



شكل (١) وهو وجه شاب فارسى فى عصر الدولة الأكمينية

فالإيرانيون — الذين جاء ذكرهم فى الأفستا على أنهم أولى الطوائف التى سكنت الوطن الإيرانى — يتصلون بالآريين اتصالا مباشرا . وهم الذين يرجع إليهم الفضل فى تأسيس الحضارة الفارسية القديمة ؛ والدين الإيرانى القديم هو الدين الذى انتشر بين هؤلاء الآريين ، وقد أثرت حضارتهم فى حضارات العالم القديم من نواحى عديدة ، بعد اتصالهم بالشعوب المجاورة لهم .

وكان من أهم خصائص الآريين القامة الفارعة ، والبشرة البيضاء ، وجمال الوجه ، كما كان الرجال يمتازون بقوة الساعد ، وسرعة العدو ، وحدة السمع والبصر .

وكانوا يعبدون قوى الطبيعة ، ويتخذون آلهة متعددين يجعلون كلا منهم مظهرا لقوة من قوى الطبيعة ، وكانت أهم مظاهر الطبيعة عندهم النور والمطر .

وكانوا — علاوة على ذلك — يقسمون الموجودات إلى مجموعتين : مجموعة خيرة ، وأخرى شريرة . وكانت المجموعتان ناشئتين عن قوتى الخير والشر اللتين كانتا فى صراع دائم . فقوة الخير تبعث السعادة ، وقوة الشر تؤدى إلى تعاسة الأفراد . ومظاهر الخير هى : النهار ، والفصول المعتدلة ، والخصب ، والصحة ، والجمال ، والاستقامة . ومظاهر الشر هى : الليل ، والشتاء ، والجفاف ، والقحط ، والأمراض ، والقبح ، والكذب ، وأمثال ذلك .

وكانت هذه العقائد هى منشأ الدين الزردشتى ، الذى أسسه زردشت — الذى كان من أهل آذربيجان — وصار دين إيران الرسمى فى حدود عام ٦٥٠ قبل الميلاد .

* * *

الميديون (٧٠٨ — ٥٥٠ ق . م)

ظهورهم — هجراتهم ، تكوين مملكتهم — انتصار الفرس عليهم

ومن أهم الدول التى أسسها الآريون القدماء الدولة التى أقامها الميديون فى القرن السابع قبل الميلاد .

والحديث عن هذه الدولة ليس محققا كل التحقيق ، لأنها لم تترك لنا من الآثار ما يساعد على دراستها دراسة دقيقة ، ومعرفة أحوالها وأخبارها .

والمرجح أن الميديين أقوام من الجنس الآرى ، وقد هاجروا من شواطىء بحر قزوين إلى غربى آسية قبل الميلاد بأكثر من ألف عام تقريبا ، ثم استقروا فى إيران بعد ذلك .

ويبدو أنهم سكنوا — أولا — فى إقليم بخارى وسمرقند ، ثم هاجروا غربا وجنوبا ، وأنهم أقاموا دولة فى غربى إيران كان مقرها مدينة « اكباتانا »[١] ، غير أن حدود هذه الدولة لم تثبت على وجه اليقين ، وكل ما نعرفه من أمرها ، أنها امتدت حتى شملت آذربيجان ، وولاية خوزستان الجنوبية ، وشملت المناطق الشرقية حتى جبال ألبرز ، كما شملت ولاية مازندران[٢] .

أما الأخبار التى وصلت إلينا عن هذه الدولة فإنها تنبع من ثلاثة مصادر هى : النقوش الآشورية ، والأخبار الإسرائيلية ، وكتابات مؤرخى اليونان .

ففى النقوش الآشورية ذكر لمدينة « امدانا » . وقد ورد فى نقش يرجع تاريخه إلى مائة وألف سنة قبل الميلاد ، وهو يتعلق بالملك الآشورى « تجلات بليزر » الذى أشار فيه إلى تبعية « ميديا » « لآشور » كما توجد لوحة تسجل حملة « سلما نصر الثالث » على بلاد تسمى « بارسوا » فى جبال كردستان سنة ٨٣٧ ق . م . ويبدو أن هذه البلاد كانت مكونة من سبع وعشرين ولاية ، عليها سبعة وعشرون حاكما ، وكان يسكنها شعب يسمى « أماديا » أو « ماديا » أو « الميدين » . هذا فضلا عن نقش يرجع تاريخه إلى عام ٧٣٠ ق . م . يسجل أن اسم « سلما نصر » كان يثير الرعب فى بلاد ميديا ؛

وهذه الإشارات تدل على أن ميديا كانت تابعة للآشوريين ، حتى استطاع أحد ملوك الميديين — فى القرن السابع — أن ينهض بقبيلته ، وأن يخلصها من تبعية آشور ، ثم استطاع بالاتفاق مع البابليين أن يخرب « نينوى » عاصمة الآشوريين .

أما فى الأخبار الإسرائيلية ؛ فقد ورد أن ملك آشور حمل بنى إسرائيل إلى مختلف البلاد ومن بينها ميديا ، فأسكن بنى إسرائيل فى بعض مدنها .

وأما كتابات مؤرخى اليونان ؛ فأهمها ما كتبه هيرودوت فى القرن الخامس قبل الميلاد لأن كتابه وصل إلينا كاملا من ناحية ، ولأن بعض النقوش القديمة أيدت أخباره من ناحية أخرى ، وتعد هذه الأخبار الأساس الذى يعتمد عليه من يريد التعريف بالميديين ، ويستفاد منها أنهم كانوا أول شعب فاز باستقلاله من بين الشعوب التى كانت خاضعة لسيطرة الآشوريين ، وأنهم خضعوا للآشوريين خمسة قرون قبل أن يتمكن « ديوسيس » أول ملوكهم من تأسيس الدولة الميدية ، والاستقلال عن الآشوريين .

---

(١) من المرجح أن « اكباتانا » هى نفس مدينة « همدان » الحالية .

(٢) هذه المناطق تقابل — حاليا — أقاليم « كردستان » ولورستان ، وآذربيجان وخوزستان ، والعراق العجمى ، ومازندران » .

وقد اتخذ « ديوسيس » مدينة « إكباتانا » عاصمة له ، لأنها كانت مدينة جميلة تقع فى واد خصيب ، ترويه مياه الثلوج الذائبة التى تنحدر إليه من المرتفعات ، ولأنها مدينة تتلاقى عندها طرق عدة . وبنى فيها قصراً رائعا ، يشرف عليها من جميع نواحيها وعظمت قوة الميديين فى عصره ، وصاروا بتأثير بيئتهم وعاداتهم ذوى بأس شديد وصبر على ضرورات الحروب ، وأصبحوا خطراً على الآشوريين ، الذين كانوا يكثرون من الإغارة على الميديين لفل شوكتهم ، غير أن مجهوداتهم ذهبت أدراج الرياح ، نظراً لقوة الميديين وتماسكهم .

وخلف ديوسيس الملك « فراورتس » وقد نجح فى توسيع رقعة الدولة حتى شملت بلاد فارس ، حيث وجد الميديون فى جبالها الذهب والفضة ، والنحاس والحديد والرصاص والرخام وسائر الأحجار الكريمة ، واشتغلوا بالزراعة فى الأودية ، وسفوح الجبال ، فعاشوا عيشة مستقرة رخية .

وقد استطاع ملكهم الثالث « هواخشتر » (كيخسرو) الذى يسميه اليونانيون سيا كزارس . بالاتفاق مع البابليين فى عام ٥٨٥ ق م . أن يحطم عاصمة الآشوريين « نينوى » وأن يستقل عنهم تماما ، فساعد هذا النصر على ازدياد قوة الميديين ، فغزت جيوشهم بلاد آسية الغربية ووصلت إلى « سرديس » ولم يردهم عنها إلا كسوف الشمس الذى ظنه القواد نذيراً من السماء ، ، فأبرم الصلح بينهم .

ويعد كيخسرو أعظم ملوك الميديين فقد اتسعت الدولة فى عصره ، حتى شملت « آشور » و « ميديا » و « فارس » بعد أن كانت ولاية تابعة لغيرها .

ولكن الدولة انقرضت بعد جيل واحد من وفاة هذا الملك ؛ فقد خلفه ابنه « ستياجس » فأخلد إلى الترف والنعيم محاولا الاستمتاع بما ورث ، وحذا أفراد الشعب حذوه ، حتى نسوا أساليب حياتهم الخشنة الصارمة ، ولم يحسنوا استخدام الثروة التى أسرعت إليهم ؛ فصارت الطبقات العليا أسيرة الحياة المترفة ، ولبس الرجال السراويل المطرزة الموشاة ، وتجملت النساء بالأصباغ والحلى ، وزينوا خيلهم بالذهب ، وركبوا العربات الفاخرة وكانوا ينتقلون بها من وليمة إلى وليمة .

وقد عجل هذا بتفكك الدولة وضعفها ، وانحدارها بخطى سريعة نحو السقوط والزوال ، وساعد على ذلك طغيان « ستياجس » وظلمه ، فقد أعمته الشهوات ، فركب رأسه ، وانقلب ظالماً مستبداً ، غضب يوما على « هرباجوس » فقدم له أشلاء ابنه بعد أن قطع رأسه ، وأرغمه على أن يأكل من لحمه .

وتطلع الناس إلى محرر ينقذ الأمة من هذا الطاغوت ، ولم يكن هذا المحرر غير « قورش » الذى كان حاكما على « أنشان » فى ولاية فارس ، فخرج على ذلك الطاغية وساعده « هرپاجوس » والتف الشعب حوله كمعبر عن رغباتهم ، فتمكن من الانتصار على « ستياجس » وإسقاطه فى منتصف القرن السادس قبل الميلاد ، ورحب الميديون به وقبلوه ملكا عليهم ، وكان ذلك انتصاراً للفرس على الميديين ، فصارت فارس سيدة ميديا ، وقويت شوكتها حتى أصبحت فيما بعد — سيدة عالم الشرق الأدنى كله .

وقد كانت دولة الميديين قصيرة الأجل ، فلم تساهم بنصيب وافر فى الحضارة ، غير أنها مهدت السبيل إلى الحضارة الفارسية . وقد امتاز الميديون فى أول أمرهم بالبساطة والقوة والنشاط ، وكانوا يحيون حياة طبيعية اقتصادية ؛ وقد ورث الفرس كثيراً من عاداتهم وتقاليدهم ، كما ورثوا عنهم لغتهم الآرية ، وحروفهم الهجائية ، وطريقة كتابتهم بالأقلام على الجلود والرقائق ؛ وتعلموا منهم الإكثار من استعمال الأعمدة فى العمارة ، وأخذوا عنهم قوانينهم الأخلاقية التى تدعو إلى الاقتصاد وحسن التدبير ، والاعتماد على الزراعة فى أثناء السلم ، والشجاعة فى أثناء الحرب ، كما ورثوا عنهم دين زردشت ، واستعملوا تقاليدهم فى الأسرة ، وهى تدعو إلى الخضوع لرب الأسرة ، وتبيح تعدد الزوجات إلى غير ذلك من القوانين .

أما آداب الميديين وفنونهم فليس بين أيدينا من آثارهم ما يكفى للتعريف بها .

وكان سقوط الميديين وإحلال الفرس محلهم بداية لعصر جديد ازدهرت فيه مختلف مظاهر الحضارة الفارسية ، وكان وسيلة لنقل الحضارات الشرقية إلى الغرب فيما بعد .



شكل (٢) ويبين تمثال قورش الأول فى پازار جاده

الفصل الثالث عشر

الحضارة الفارسية

(ا) دولة فارس (٥٥٠ — ٣٣٠ ق م)

قورش : حروبه — اتساع دولته .

يعد قورش بحق مؤسساً لأقدم دولة فى فارس[١]، وهى الدولة التى يسميها الفرس « الدولة الهخامنشية » بينما يسميها اليونانيون « الدولة الأكمينية » .

وقورش فارسى صميم ، فقد كان زعيما لإحدى القبائل التى تسكن إقليم فارس ، فتمكن من النهوض بقبيلته ، وتخليصها من تبعية الآشوريين ؛ ثم استطاع القضاء على الدولة الميدية ، وانتزاع الملك منها ، وإقامة دولة الفرس ، فسمى لذلك «قورش الأكبر» أو « قورش الأول » .

وقد تهيأت الأسباب أمام قورش ، فقضى على ملك الميديين ؛ فقد سخط الإيرانيون عليهم لظلمهم واستبدادهم ، فسعوا إليه كحاكم إيرانى . ليحكمهم ، وينشر العدل بينهم ، فلما قادهم ضد الميديين استطاع الشعب أن يكسب المعركة بسهولة ، وأن يسقط الدولة الميدية ، ويؤسس دولة فارسية عدها الفرس أولى الدول الفارسية الصميمة .

ولئن كان تاريخ الدول الميدية غير محقق لقلة ما بقى لنا من آثارها فإن تاريخ الدولة الأكمينية غير غامض ؛ لوفرة الأخبار التى وصلتنا عنها ، وهى أخبار يمكن أن نستمدها من نقوش ملوكها المسجلة على الآثار ، أو مما كتبه كتاب اليونانيين ؛ ومن أجل ذلك يبدأ بعض مؤرخى الفرس — حينما يتحدثون عن تاريخهم القديم — بالحديث عن هذه الدولة مباشرة .

---

(١) سميت إيران باسم فارس نسبة إلى الإقليم الذى كانت فيه عواصم الدولتين الأكمينية والساسانية ، فأطلق الجزء على الكل ، كما سميت اللغة التى يتحدث بها الإيرانيون باسم اللغة الفارسية نسبة إلى هذا الإقليم أيضا ، ومازال هذا الاسم يطلق عليها للآن . وللدولتين الأكمينية والساسانية منزلة كبيرة فى نفوس الفرس، لأنهما الدولتان اللتان تحقق فيهما الاستقلال الفارسى ، وبلغ مجد إيران فيهما ذروته .

وقد ظهرت دولة الأكمينيين على مسرح التاريخ فى منتصف القرن السادس قبل الميلاد عقب انتصار قورش ، ولو أن الأساطير أحاطت بنشأتها فذكر هيرودوت أن ملك الميديين رأى — فى منامه — شجرة تخرج من بطن ابنته « ماندانا » فتظل القارة الآسيوية كلها ، وقد أول المفسرون هذا الحكم بأن ابنته ستلد ابنا يحكم إيران وما جاورها ، فخشى الملك على ملك الميديين ، فلما كبرت ابنته زوجها من حاكم خامل الذكر من حكام بلاده ، اسمه « كمبوجيا » ، وكان حاكماً من قبله على ولاية « أنشان » — التى هى فارس الحالية — حتى يضمن ولاءه ، ثم دارت الأيام ووضعت إبنته ولداً ، فأخفاه جده — ملك الميديين — وأعطاه لوزيره ليقتله ، ولكن الوزير لم يفعل ذلك بل سلم الطفل لأحد الرعاة ليتولى قتله ، وتصادف أن ولد للراعى ولد ، ومات لساعته ، فأبقى الطفل ليربيه هو وزوجته ، وكان يسمى « قورش » ، فلما بلغ الحادية عشرة اتضحت الحقيقة لجده ، فأرسل فى طلبه ، فلما رآه أشفق عليه وأرسله إلى والديه فى « أنشان » ، فتعلم ما يتعلمه أبناء الأمراء من ركوب ورماية ، وعلا شأنه حتى التف حوله كثير من الميديين الناقمين على ملكهم ، ثم مات والده فحل محله فى حكم أنشان ، واستطاع بعد ذلك أن يزيل ملك جده ، وأن يستولى على عاصمته « اكباتانا » فى عام ٥٥٠ ق . م

ومهما يكن مبلغ هذه الرواية من الصحة ، فإننا نأخذ من مغزاها أن « قورش » ارتفع شأنه بين الفرس ، حتى أسس دولة قوية فى إقليم فارس ، وضعت يدها على الولايات التى كانت تحت نفوذ الميديين .

وقد أدى قيام دولة الأكمينيين إلى اشتهار ولاية فارس فصار اسمها يطلق على إيران كلها ، وعلى اللغة المتحدثة فيها .

وعمل قورش — أولا — على بسط نفوذه على جميع ولايات إيران ثم فكر فى توسيع ملكه ، وبسط سلطانه خارج حدود إيران ، وقد أدى هذا إلى حروب عديدة بينه وبين جيرانه ، الذين كانوا يكونون ثلاث دول عظمى فى غربى إيران هى : دولة بابل فى حوض دجلة والفرات ، ودولة ليديا فى آسيا الصغرى ، ودولة مصر .

وقد أحست هذه الدول بالخطر الذى يتهددها من قيام الدولة الفارسية الفتية التى أسسها قورش ، ولكنه لم يمهلها ، فإنه سرعان ما توجه إلى « ليديا » وتمكن من الاستيلاء على بلادها بما فى ذلك عاصمتها « سارد » فى عام ٥٤٦ ق . م . ثم استولى على المستعمرات اليونانية فى آسية الصغرى ، وعلى كثير من الجزر اليونانية .

واقترب خطره من بابل ، ولكنه لم يتجه إليها ، بل ولى وجهه شطر المشرق ، وظل يفتح البلاد الشرقية حتى وصلت حدود بلاده إلى نهر السند .

ثم كر راجعا إلى الغرب ؛ فعبر بجيشه دجلة والفرات ، وهاجم بابل ، وحاصر عاصمتها بابل ، وحول مجرى الفرات ، فلما جف المجرى دخل المدينة عن طريقه ، واستولى عليها سليمة ، وحافظ على أهلها وتراثها ، وكان ذلك فى ١٢ أكتوبر من عام ٥٣٩ ق . م .

وكان فتح بابل معناه السيطرة على جميع البلاد التى كانت خاضعة لها ، فشمل نفوذه بذلك بلاد الشام وفينيقيا وفلسطين وامتد ملكه إلى البحر الأبيض ، واقترب من مصر . ولكنه لم يحاول فتحها بل اتجه إلى المشرق مرة أخرى بعد فتح بابل بتسع سنوات حيث قاتل قبائل « الماساجيت » (١) ولكنه قتل فى أثناء الحرب ، وبذلك طويت صفحته فى عام ٥٢٩ ق . م .

وهكذا تمكن قورش — لأول مرة فى تاريخ إيران من توسيع حدود دولته ، حتى صارت تضم البلاد الواقعة بين البحر الأبيض ونهر السند وبحيرة آرال ، كما استطاع إخضاع دولتين عظيمتين هما ليديا فى آسية الصغرى ، وبابل وممتلكاتها فى غربى آسية .

خلفاء قورش

قمبيز :

كان لقورش ولدان أحدهما يسمى « قمبيز » (٢) ، والآخر يسمى « سمرديس » وكان قمبيز يتولى — فى حياة أبيه — أمر بابل وما يتبعها ، أما « سمرديس » فكان يشرف على الممالك الشرقية وملحقاتها ، فلما توفى قورش بادر قمبيز باعتلاء العرش فى عام ٥٢٩ ق . م ولاحظ مايحظى به أخوه من حب الشعب فخشى على نفسه ، وقتل أخاه خفية ، وكان عمله سببا فى شر مستطير فيما بعد .

وحاول قمبيز تكملة الفتوحات التى بدأها أبوه ، فأعد جيشا كبيرا وتوجه به لفتح مصر فى عام ٥٢٥ ق . م . وكانت فى — ذلك الوقت — تحت حكم «آمازيس» الذى أعد العدة لملاقاة الجيش الفارسى ، وكان يظن أنه قادم عن طريق البحر الأحمر ، غير أن قمبيز جاء إلى مصر برا ، وتمكن جيشه من فتح البلاد وبلوغ « منف » عاصمتها .

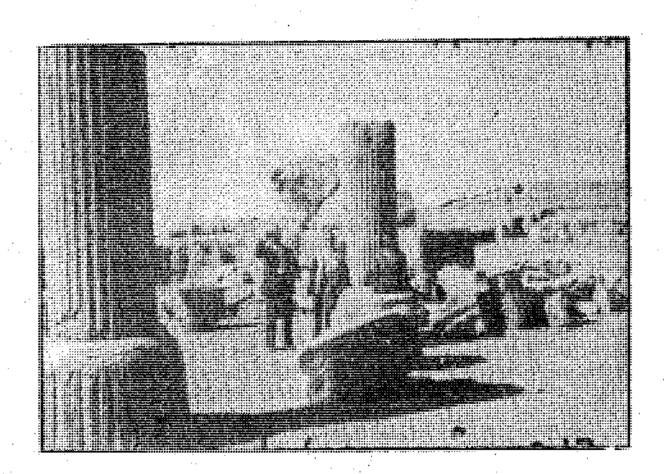
---

(١) كان « الماساجيت » يسكنون فيما بين بحر قزوين وبحيرة آرال .

(٢) يسمى قمبيز فى الآثار الفارسية باسم « كمبوجيا » .

(٣) هذه تسمية يونانية أما النقوش الفارسية فتسميه « برديا » .

وحاول قمبيز أن يظفر بحب المصريين ، فأحسن معاملتهم ، واحترم معبوداتهم ، وتزيى بزيهم ، فرضوا بحكمه ، ثم توجه غربا لفتح ليبيا وبرقة ، ووضع نصب عينيه أن يصل إلى قرطاجنة (١) ، ولكنه باء بالفشل فقد هلك جزء من جيشه فى الطريق بسبب العواصف الرملية ، وانتشار الأمراض بين الجند ، واضطر إلى الرجوع إلى مصر ، وأثرت هذه الكارثة فى نفسه ، ففقد صوابه واضطهد المصريين ، وقتل العجل « آبيس » معبودهم . ثم توجه جنوبا محاولا أن يستعمل ما بقى من جيشه فى فتح السودان والحبشة ، ولكن التوفيق لم يحالفه ، فارتد إلى مصر ، ويقال إنه كان مصابا بداء الصرع ، فأدت هذه النكبات إلى سوء حالته ، وزاد الطين بلة انتشار الفتنة فى بلاده ، فلم يكد الشعب يعلم بقتله أخاه « سمرديس » حتى ثار عليه ؛ ويقال إن أحد أفراد الشعب ادعى أنه « سمرديس » فالتف كثير من الناس حوله ، فأسرع قمبيز إلى بلاده واستبد به الجنون فأخذ يقتل من حوله ، ففتك « بروشنك » التى كانت أخته وزوجته ، وقتل عددا من الأمراء ، ولم يكد يصل إلى همدان حتى كان الموقف قد أفلت من يده ، فانتحر بها فى عام ٥٢٢ ق . م . وكانت نهايته سببا فى ازدياد فتنة «سمرديس» الكذاب ، واستفحال خطرها إلى أن هب أحد رجال البيت الأكمينى — وكان يسمى « دارا بن هستاسبس» لتخليص بلاده من شر الفتنة ، فتصدى لها وأخمدها ، ثم تولى العرش فى عام ٥٢٢ ق م . وصار أعظم ملوك الدولة الأكمينية على الإطلاق .



شكل (٣) وهو يبين بعض آثار قصر دارا الأول فى برسبوليس.

---

(١) كانت قرطاجنة فى مكان تونس حاليا .
(٢) تذكر فى المراجع اليونانية باسم « روكسانا » .

دارا الأول :

لم يكد دارا [1] يعتلى العرش بعد إخماد الفتنة التى نشبت فى إيران حتى فوجئ بخروج كثير من الولايات على طاعته منتهزة ما أصاب إيران من وهن من جراء الفتنة ، فثارت ليديا وبابل ومصر وبعض الولايات الإيرانية ، مما جعل دارا يواجه — فى بداية حكمه — صعابا ، لم يواجهها ملك قبله ؛ ولم يعرف اليأس سبيلا إلى قلبه ، بل عزم على قمع الثورات ، وأسرع إلى بابل وأخضعها ، ثم أخضع ليديا وعيلام ، وتوجه بعد ذلك إلى مصر حيث تودد إلى المصريين ، وألف قلوبهم ، فاشترى لهم عجل « آبيس » وأعاد للقساوسة نفوذهم ، وأصلح ما حطمه قمبيز من معابدهم وهيا كلهم ، وخفف عن كواهلهم بعض الضرائب ، فشعر المصريون بالرضا . ولم يزل دارا بالفتن حتى أخمدها فى جميع أنحاء دولته ، وبذلك أعاد للدولة قوتها وهيبتها .

ولم تقتصر أهمية دارا على مقدرته الحربية بل امتدت إلى شىء آخر لا يقل أهمية عن الناحية الحربية ، ألا وهو تنظيم الدولة إداريا ، والواقع أن دارا يعد المنظم الأول للدولة الأكمينية . فقد ابتكر جملة من النظم الإدارية لتعينه على حكم تلك الدولة المترامية الأطراف فقسمها إلى ولايات جعل على كل منها واليا ، ورجلين يعينان الوالى ، أحدهما قائدا للحامية التى تحرس الولاية ، والآخر كاتبا ينظم مالياتها ، ونظم العلاقة بينه وبين الولاة ، كما أنشأ الطرق لتربط بين أجزاء الدولة ، وكفل حراستها ، وعنى بالجيش . ونظم جباية الضرائب وسك النقود مما سنتحدث عنه بشىء من التفصيل فيما بعد . واستطاع دارا بذلك توفير كثير من أسباب الرفاهية لبلاده ، وللبلاد الخاضعة لنفوذه .

وقد تمكن دارا فى أثناء مدة حكمه من توسيع رقعة دولته شرقا ؛ فاستولى على إقليم البنجاب فى الهند ، وبسط نفوذه على أفغانستان ، كما وسع ملكه غربا فحارب اليونانيين ، وعبر بجيوشه البوسفور ، وما زال يفتح بلاد اليونان حتى قيل إن جيوشه بلغت بحر الأدرياتيك . ولهذا كله يعد دارا أكبر ملوك الدولة الأكمينية باعتباره غازيا فاتحا ، ومنظما استطاع أن يفرض أنظمته فى بلاد لم تكن تعرف مثل هذه الأنظمة من قبل ، وقد توفى فى عام ٤٨٥ ق . م . وخلف وراءه دولة قوية منظمة .

* * *

(١) هذا هو الاسم الذى ذكرته المصادر العربية ، أما الكتب الفارسية فتذكره باسم « داريوش » .

ضعف الدولة بعد دارا :

لم يقدر للدولة التى دعم دارا أركانها أن تعمر بعده أكثر من قرن من الزمان ، فقد انغمس الملوك فى الترف والملذات ونسوا طبيعتهم الحربية ، فشاع الفساد فى الدولة ، وحلت بها الهزائم حتى انتهى أمرها على يد الإسكندر فى عام ٣٣٠ ق . م .

وقد خلف « إكزرسيس[1] الأول » دارا ، ولكنه أسرف فى اتخاذ الزوجات والمحظيات ، وحذا رعاياه حذوه ، فبدأ الوهن يتطرق إليهم ، وانقلبوا من الانتصار إلى الهزيمة ، وكان حكم اكزرسيس — الذى ظل عشرين عاما — مملوءا بالدسائس ، والتهاون فى الإدارة وإنفاذ الأمور ، مما أدى إلى هزيمته — على يد اليونانيين فى موقعة « سلاميس » فى عام ٤٨٠ ق . م . وانتهى أمره بالقتل على يد واحد من رجال القصر ، فى عام ٤٦٥ ق . م .

* * *

وخلفه «أردشير[2] الأول» ، وكان أول عمل قام به هو إعدام قاتل «إكزرسيس» ، ولكن هزيمة الإيرانيين فى حروبهم ضد اليونانيين ، أثرت فى إضعاف دولتهم ، فأخذت نيران الفتنة تندلع فى مختلف أنحائها — خصوصا فى مصر — وانتقل اليونانيون من نصر إلى نصر ، فى المدة التى تقع بين ٤٦٠ و ٤٥٤ ق . م . ولكن أردشير تمكن فى النهاية من الانتصار على اليونانيين ، وبذلك هدأت الحالة بعض الشىء ، وظلت كذلك حتى توفى أردشير فى عام ٤٢٤ ق . م .

* * *

فخلفه « إكزرسيس الثانى » ولكنه قتل بتحريض من أخيه « سوجد يانوس » بعد أسابيع قليلة من حكمه ، فى عام ٤٢٤ ق . م . وحل أخوه محله ، ولكن مصيره — هو أيضا — كان القتل على يد « دارا الثانى » الذى اعتلى العرش فى نفس العام .

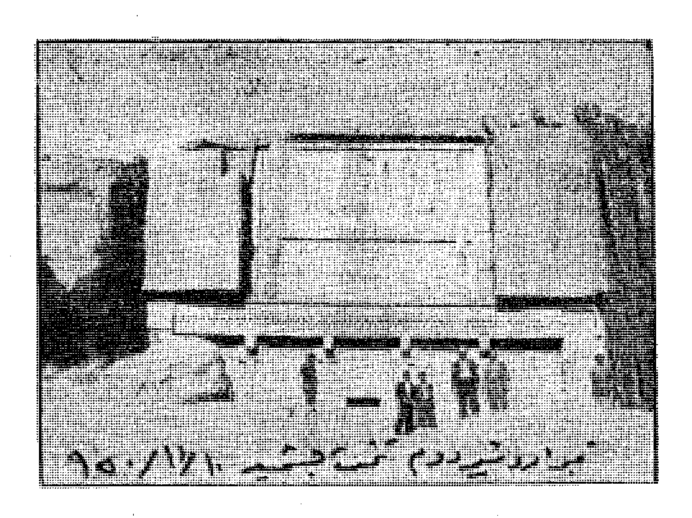
وهكذا انتشرت الفتنة بين أفراد البيت الأكمينى ، وشغلهم التنازع على العرش عن أى هدف آخر ، ودب الفساد فى الدولة ، وسارت نحو الانهيار بخطى واسعة ، فلم يكد « دارا الثانى » يتوفى فى عام ٤٠٤ ق . م . ويلى العرش ابنه « أردشير الثانى » حتى نافسه أخوه « قورش الأصغر » ، وحاول اليونانيون الاستفادة من هذه الحالة ، فشجعوا

---

(١) يذكر « أكزرسيس » فى المصادر الفارسية باسم « خشايارشاه » .

(٢) هذه هى التسمية التى ترد فى المصادر العربية ، وهو يذكر فى الكتب الفارسية باسم « أرت خشتر » وفى الكتب اليونانية باسم « ارتاكزرسيس » .

« قورش » ، وانحازوا إلى جانبه لحارب أخاه ، ودارت بينهما حرب عنيفة فى موقعة « كوناكسا » انتهت بانتصار « أردشير » وتمتعه بالحكم إلى عام ٣٦١ ق . م . ولم ينغص حياته إلا ثورة ابنه « دارا » عليه ، ولكنه قتله ، وظن أنه استراح بذلك ، غير أنه علم أن ابنه الآخر « أوجوس » قد شرع فى تدبير حيلة للقضاء عليه ، فمات كمدا فى عام ٣٦١ ق . م .



شكل (٤) وهو يبين قبر أردشير الثانى فى تخت جمشيد

* * *

وزادت الأوضاع اختلالا — بعد موته — فأخذ رجال القصر والنساء يتدخلون فى شئون الملك ، وانتهز بعض القواد فرصة هذا الضعف فتحكموا فى الملوك ، فصاروا يختارون الملك ويولونه العرش إذا شاءوا ، فإذا غضبوا عليه اختاروا ملكا آخر ، وكانوا — أحيانا — يقتلون الأب ليولوا الابن ، أو الأخ ليولوا أخاه ، وهكذا أصبح الحكم الحقيقى فى يد بطانة السوء من الحكام والقواد ، فمهدوا بذلك لنهاية الدولة .

وقد تولى « أوجوس » بعد وفاة أبيه وعرف باسم « أردشير الثالث » ولكن قائده « باجواس » سيطر على كل شىء ، وأصبح الملك آلة فى يده ، ثم بدا له أن يتخلص من « أردشير » فدس له السم ، فمات مقتولا فى عام ٣٣٨ ق . م . وأحل ابنه « أرسيس » مكانه ، ثم قتل « باجواس » إخوة الملك الجديد حتى لا ينافسه أحد ، ولكنه عاد فغضب على الملك نفسه ، فقتله وقتل أطفاله الصغار فى عام ٣٣٦ ق . م .

واختار رجلا ضعيفا من سلالة الأكمينيين — هو الذى عرف باسم دارا الثالث — وولاه العرش وهو الملك الذى سقطت الدولة فى عهده بعد هزيمته فى موقعة « اربل » على يد الإسكندر المقدونى ، وقتله فى عام ٣٣٠ ، ق . م .

* * *

وهكذا انهارت الدولة الأكمينية بعد أن حكمت أكثر من قرنين من الزمان ، وحل الإسكندر وخلفاؤه مكانها ، ودانت لهم الأقاليم التى كانت تحت سيطرتها .

وكانت هذه الدولة أولى الدول العظيمة التى حكمت إيران قبل الإسلام ، فضلا عن أنها كانت دولة فارسية أصيلة ؛ وكانت نهايتها بداية لمرحلة من الضعف سادت إيران مدة خمسة قرون متوالية بعد ذلك .

(ب) حضارة الفرس

مظاهر هذه الحضارة : الكتابة الآرامية — الخط المسمارى — نظم الحكم — حكومة الولايات — الجيش — الضرائب — الأسطول — الطرق — الديانة — الفنون .

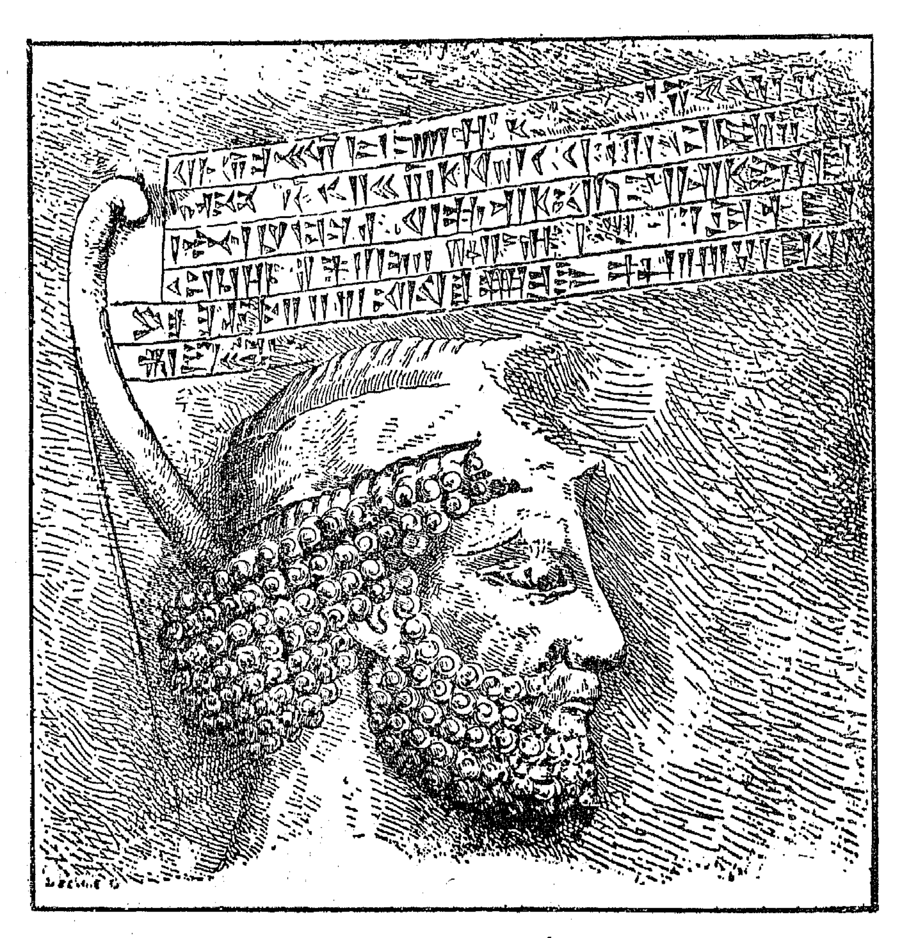
كانت للفرس حضارة راقية من قديم الزمان ، وقد حفظت لنا الكتب والآثار كثيراً من مظاهر حضارتهم ، وهى إن دلت على شىء فإنما تدل على مدى ما وصلت إليه الحضارة فى بلاد الشرق الأدنى من رقى وتقدم .

ومن المرجح أن الفرس تأثروا بحضارات البلاد التى فتحوها ، فقد كانت بلاد الشرق الأدنى ومصر[1] منذ أكثر من ثلاثة آلاف عام مركزا للشئون البشرية التى وصل إلينا علمها ، وكانت المنبع الذى نبعت منه الحضارة الشرقية ، ثم انسابت إلى البلاد المجاورة لها ، ففى هذه البلاد ؛ عرفت التجارة والصناعة ، والخيل المسومة والمركبات ، وقامت الحرف والصناعات ، والحكومات والشرائع ، وسكت النقود ، وكتبت خطابات الاعتماد ، وازدهرت علوم الرياضة ، والطب ، والهندسة ، والفلك ، وعبدت الطرق ، وعرفت الحروف الهجائية ، والكتابة ، والتقويم والساعات ، وصورت دائرة البروج ، واخترع الورق والحبر ، وألفت الكتب ، وشيدت المكتبات ، وصنع الخزف المطلى المصقول ، والأثاث الدقيق الجميل ، واستخدمت أدهان التجميل والحلى ، ووجدت الأديان ، وفرضت ضريبة الدخل ، واستخدمت المرضعات ، إلى غير ذلك من مظاهر الحضارة .

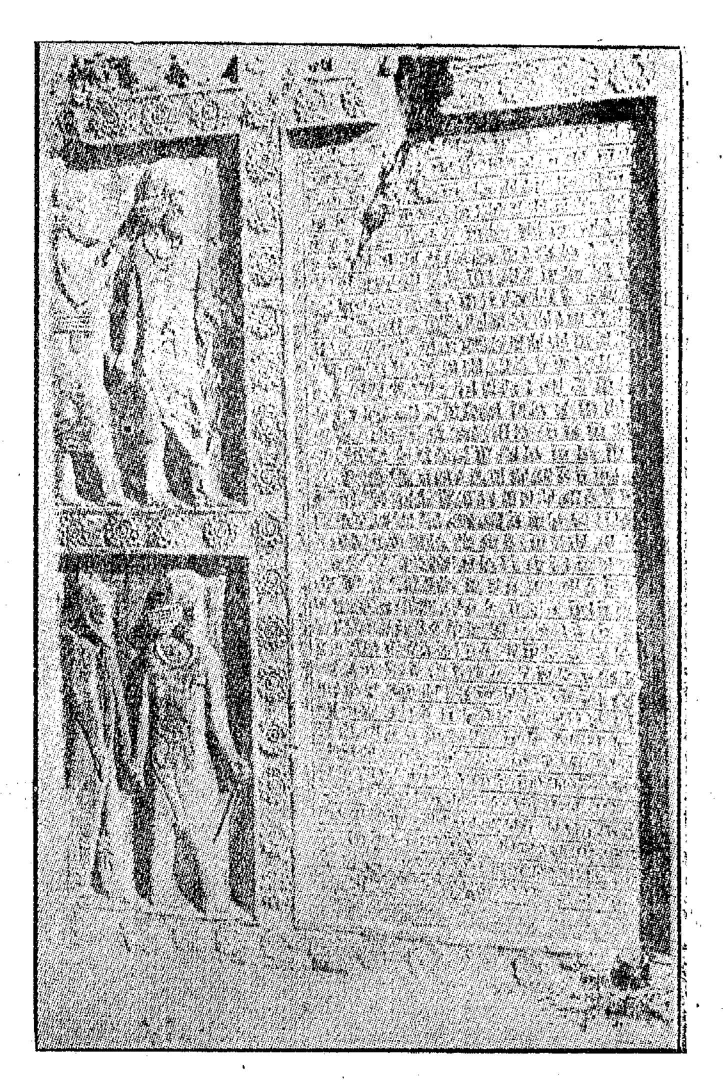
وقد كانت إيران — فى عهد الدولة الأكمينية — مرتبطة ارتباطا وثيقا بالأقاليم الغربية ، فاقتبسوا من مظاهر الحضارة الموجودة فى بابل ومصر ، كما استفادوا قبل ذلك من حضارة عيلام القديمة ؛ وكانت الحضارة التى اقتبسها الفرس من الميديين هى آثار الحضارة التى جلبها الميديون من الخارج — خصوصاً من بابل وآشور — ولذلك فإن إيران فى عصر الميديين والأكمينيين كانت تحت تأثير حضارة البابليين والآشوريين ، فاقتبس الإيرانيون منهم كثيراً من آداب البلاط ورسومه ، كما أخذوا عنهم كثيرا من العلوم والفنون والصناعات وأضافوا إليها ، وخلفوا لنا بذلك حضارة راقية ، لم تلبث أن انتقلت إلى أوربا بعد ذلك ، مما سنلم به فيما يلى .

---

(١) كانت مصر فى تلك الأثناء شديدة الاتصال ببلاد الشرق الأدنى .



شكل (٥) وهو لرأس جندى فارسى وعليها كتابة بالخط المسمارى



شكل (٦) وهو يبين لوحة بالخط المسمارى الفارسى

الكتابة الآرامية :

حينما تعلم الفرس الكتابة ، استعملوا اللغة الآرامية فى كتابة وثائقهم كما استعملوا الخط المسمارى البابلى فى نقوشهم ، وقد بسطوا المقاطع البابلية الكثيرة ، وأنقصوها من ثلثمائة مقطع إلى ستة وثلاثين مقطعا ظلت تتطور حتى صارت حروفاً اشتمل عليها هجاؤهم المسمارى .

وكانت اللغة الآرامية ، وطريقة رسم خطها شائعتين فى أسواق بابل ومراكز التجارة الهامة ، لأنها — لسهولتها — تناسب المعاملات التجارية من أخذ وعطاء ، فكانت الأوراق والأسانيد التجارية تكتب بهذه اللغة ، بالقلم والحبر على أوراق البردى ، لأن الكتابة بهذه الطريقة أيسر من الكتابة على القوالب الطينية ، واستطاع الناس بذلك التعامل فى المسائل التجارية فى سهولة ويسر ، وتمكنوا من نقل الأسانيد التجارية من مكان إلى مكان ، وحفظها حتى لا يتطرق إليها التلف .

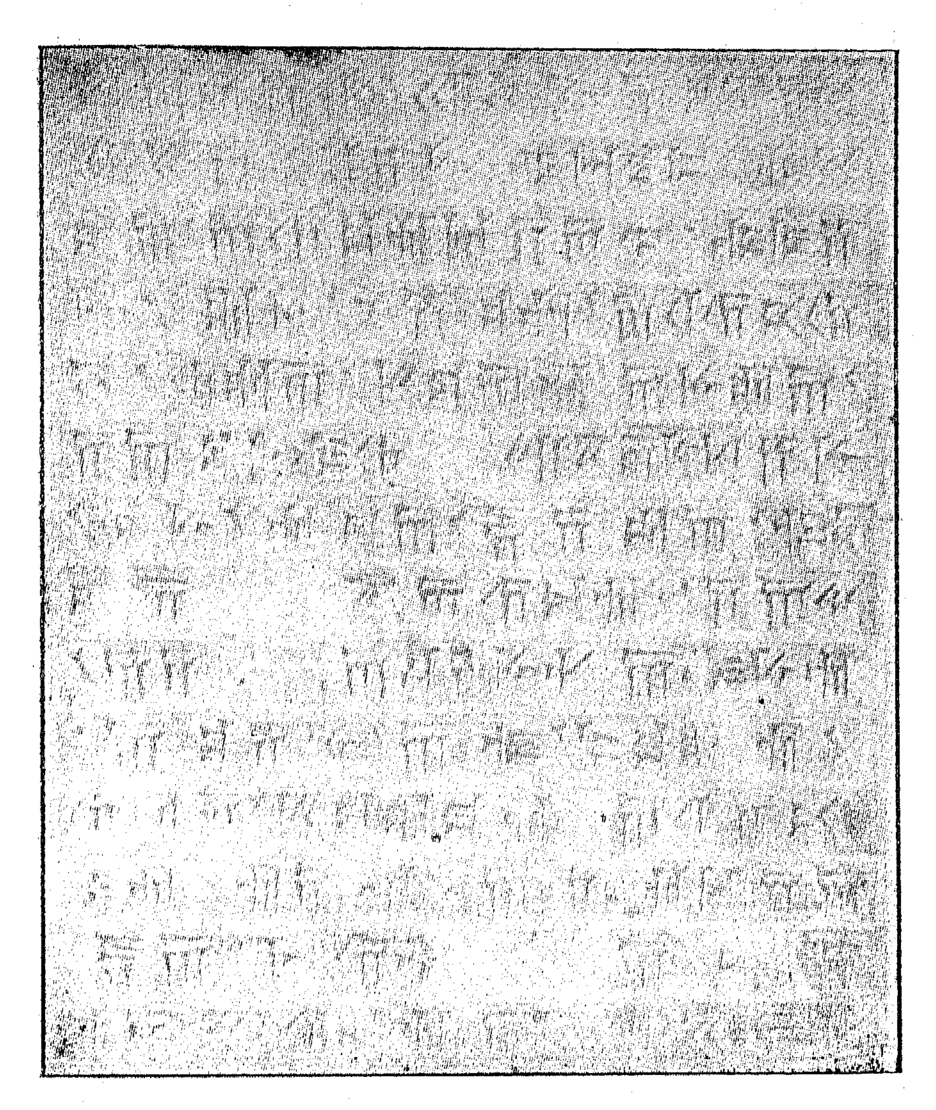
ونظراً لاتصال الفرس بالبابليين والآشوريين منذ أقدم العصور — كما مر — فقد انتقلت مظاهر الحضارة الآشورية — التى كان السومريون قد خلفوها فى آشور — إلى إيران ، فاستعمل الفرس كلا من اللغة الفارسية القديمة ، واللغة الآرامية ، فى كتابة أوامرهم ، وتسجيل كل ما يتعلق بالدولة ؛ وكانوا يكتبون اللغة الفارسية بالخط الآرامى حتى إن كتاباتهم على الالوحات الحجرية كانت — أيضا — تكتب بهذا الخط بين حين وآخر .

الخط المسمارى :

وقد انتقل الخط المسمارى إلى إيران بعد أن تعلمه الميديون من الآشوريين ، وانتقل من الميديين إلى الفرس ، وكان أول خط ظهر فى إيران ، وكتبت به اللغة الفارسية فى العصر الأكمينى .

وكشفت التحقيقات الأخيرة فى همدان أن الميديين اقتبسوا الخط المسمارى عن آشور وبابل ، وصاغوا منه تسعة وثلاثين حرفا من الحروف الهجائية ، ثم اقتبسه الفرس عنهم ، وكانوا يكتبونه على قوالب من الطين ، وكان ملوك الأكمينيين أيضا — يكتبون رسائلهم بهذا الخط ، بحفرها على الأحجار .

ويكاد يكون من الأمور المتفق عليها بين العلماء أن السومريين هم الذين اخترعوا هذا الخط ، وكانوا يعيشون فى جنوب العراق الحالية منذ أربعة آلاف سنة قبل الميلاد ، بينما كان الأكاديون يعيشون فى شمالى العراق فى ذلك الوقت .



شكل (٧) وهو يبين لوحة مكتوبة بالخط المسمارى من عهد اكزرسيس الأول

ومهما يكن من شيء فإن هذا الخط قدانتقل إلى إيران فى القرن الثامن قبل الميلاد، ومما يؤسف له أنه ليست بين أيدينا آثار مكتوبة عن الميديين الذين حكموا فى أواخر هذا القرن ، لأنه أقدم الآثار المكتوبة بهذا الخط ترجع إلى عصر الأكمينيين .

وقد وجد أول خط مسمارى فى هضبة « مرغاب » ، وهو يرجع إلى عصر « قورش » (٥٥٠ — ٥٢٩ ق . م) مؤسس دولة الأكمينيين ، وهو ليس أكثر من جملة واحدة هى : « أنا قورش الملك الهخامنشى » .

ثم وجدت كتابات — بهذا الخط — ترجع إلى عصور : دارا الأول (٥٢٢ — ٤٨٥ ق . م .) ، واكزرسيس « خشايارشاه » (٤٨٥ — ٤٦٥ ق . م) ، وأردشير الأول (٤٦٥ — ٤٢٤ ق . م .) وأردشير الثانى (٤٠٤ — ٣٦١ ق . م) ، وأردشير الثالث آخر ملوك الأكمينيين الذى قتل فى عام ٣٣٠ ق . م .

وكتبت أكثر هذه الخطوط على سفوح الجبال ، وحيطان القصور وأعمدتها مثل جبل « بيستون » وجبل « ألوند » وفى « وان » ببلاد الأرمن ، وفى السويس بمصر ، هذا عدا عدد من الأختام وفصوص الخواتم التى تحمل أسماء الملوك والعظماء ، كما توجد بعض الأوانى كتبت عليها أربعة خطوط هى : الفارسية ، والعيلامية ، والبابلية ، والهيروغليفية .

ومنذ عدة سنوات ، اكتشفت لوحتان فى همدان إحداها ذهبية ، والأخرى فضية . وهذه اللوحات — وغيرها مما ذكرناه — مكتوبة بثلاث لغات ، وثلاثة خطوط ، ثم باللغتين العيلامية والبابلية التى تختلف عن اللغة الآشورية من حيث اللهجة فقط . وهاتان اللغتان الأخيرتان اللتان اقتبست عنهما الفارسية تختص كل منهما بخط مسمارى .

وقد أشار هيرودوت إلى وجود عمودين رخاميين بالقرب من البوسفور ، نصبهما دارا الأول ، وكتب على أحدهما أسماء مرافقيه بالخط الآشورى ، وكتب على الآخر بالخط اليونانى .

ولاشك أن الخط الآشورى الذى ذكره هيرودوت هو نفس الخط الأكمينى الذى انتقل إلى إيران من إقليمى بابل وآشور وقد حفرت الآثار المكتوبة التى وصلت إلينا باللغة الرائجة فى العصر الأكمينى بالخط المسمارى ، وكان هذا الخط يكتب من الشمال إلى اليمين .

ورغم أن أصل هذا الخط كان من إقليم سومر ، وأنه أثر عنها ، إلا أنه تغير عند الإيرانيين إلى حد ما ، فتصرفوا فيه بعض الشيء ، ليصلح لكتابة اللغة الآرية ، حتى

صار في صورة خط مكون من حروف هجائية ، فكان للخط المسماري الأكميني أربعون حرفا أو علامة : ثلاث علامات تظهر الحروف المتحركة مثل(آ = â)و (أو = û) و (اى = î) . والعلامات الأخرى هي عبارة عن تركيب حرف ساكن مع حرف آخر متحرك مثل (كا = ka) و (كو = ku) و (گا = ga) و (گو = gu) و (خا = xa و (چا = ca) و (جا = ja) و جى = ji) و (تا = ta) و (تو = tu) و (دى = di) و (دو = du) وقس على ذلك .

وهناك أربع عـلامات اصطلاحية تبين مفهوم اللغة لا نطقها وهى (خشايثيه = Xshâyatiya = شاه = ملك) و (دهيو = dahyu = ديه [1] = إقليم) و (بومى = bumi = بوم = أرض أو تراب) و (اورمزد = Auramazda = آهورامزدا = الإله الأعظم) كما توجد علامة — أيضا — على شكل مسمار مقلوب لفصل الـكلمات عن بعضها البعض ، وكانت هذه العلامة أشبه بنقطة ، وكانت توضع فى «الأفستا» بعد كل كلمة .

وقد حفرت الآثار المكتوبة باللغة الفارسية فى العصر الأكميني بنفس بهذا الخط المسماري نفسه ، وبقى لنا من جميع هذه الآثار أكثر من أربعمائة كلمة من اللغة الفارسية الأكمينية ، ونعني بذلك الـكلمات التي عرف أصلها ومشتقاتها .

والواقع أن الخط المسماري الأكميني قد صار — بعد ماطرأ عليه من تغيرات — جزءاً من الحروف الهجائية للغة الآرية ، فقد اقتبست علامات هذه الحروف الهجائية من أشكال الخط المسماري البابلي . وقد ساعد مجيء القبائل الإيرانية الـكثيرة بلهجاتها المختلفة ، ودخولها فى حوزة الدولة الأكمينية وزيادة الارتباط بين الأقاليم المختلفة ، وكثرة صدور الأوامر لإدارة شئون الدولة المالية والتجارية على العمل على توحيد اللغة والخط وتبسيطهما ، فدخلت عليهما اصطلاحات وتعديلات ، ورغم أنه ليست بين أيدينا مستندات دقيقة محققة عن هذا الموضوع ، إلا أنه من الأشياء التى تقتضيها طبيعة الأشياء .

ومهما يكن من شيء ، فإن من المحقق أن الحروف الهجائية الآرامية كانت سبباً فى إيجاد الخط الفارسي البهلوى .

---

(١) كانت كلمة « ديه » فى الفارسية الأكمينية وفى الأفستا بمعنى « إقليم » وهى تستعمل الآن بمعنى قرية أيضا .

وقد ظفرت الحروف الهجائية الخاصة بالخط المسمارى الإيرانى باهتمام المحققين والمستشرقين فى العصر الحديث ، فأكبوا على دراستها ، وحل رموزها ، ثم اتخذوها مفتاحا لحل رموز اللغتين البابلية والآشورية ، واستعانوا بذلك فى دراسة حضارتى البابليين والآشوريين ، وتواريخ هاتين الحضارتين .

نظم الحكم

حكومة الولايات :

استطاع « دارا الأول » أن ينظم دولة الفرس — التى تعد من أولى الدول الناشئة فى الشرق — تنظيما دقيقا — عده المؤرخون من أحسن النظم التى عرفت بها الدول الواسعة ؛ فله الفضل فى تقسيم هذه الدولة إلى ولايات ، نصب على كل منها حاكماً . وعين بالإضافة إليه رجلين أحدهما لقيادة حامية الولاية ، والآخر لتولى ديوان الإنشاء ليتصل بالعاصمة ، ويبلغها كل ما يدور فى هذه الولاية ، وفضلا عن ذلك فقد كان يرسل إلى كل ولاية مفتشاً من قبله ليستطلع أحوال الرعية ، ويتأكد من أنها تعامل بالعدل دون أن يصيبها شىء من ظلم الوالى ، وكان هؤلاء المفتشون عبارة عن عيون الملك لأنهم كانوا يراقبون الولايات ، ويبلغون دارا الأمور التى تسترعى انتباههم .

وكانت حياة الفرس تعتمد على السياسة والقوة ، وقد استعانت الدولة بالقوة فى حكم الولايات الخاضعة لنفوذها .

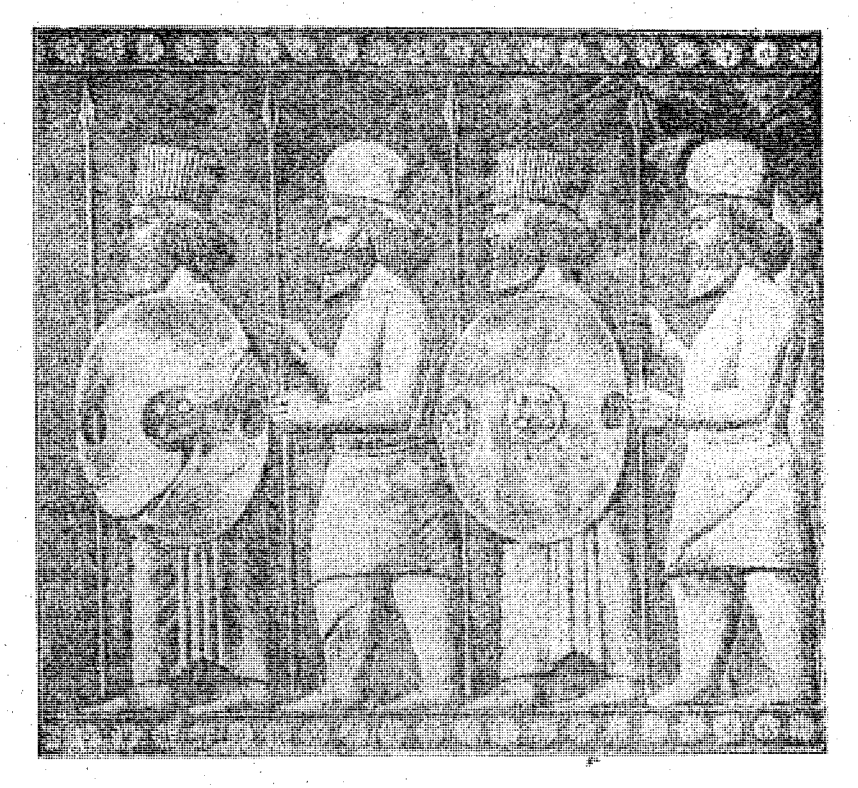
وكان الملك على رأس هذا النظام ، وكان يلقب بـ « خشاثرا[1] » أى المحارب . وهو لقب إن دل على شىء فإنما يدل على أن الملكية الفارسية كانت ذات صبغة عسكرية ، وكان تحت سلطانه ملوك يأتمرون بأمره ، فلقب لذلك بـ « ملك الملوك » .

وكان الملك يتمتع بسلطة مطلقة ، فكانت أوامره مطاعة ، وكلامه واجب التنفيذ ، فلم يكن أحد من أفراد الشعب ، أو كبار الأعيان يجرؤ على انتقاده أمام الرأى العام ، فكان ضعيفا يغلب عليه الخوف والحذر والتملق .

وكان الملك يملك ويحكم ، غير أن الملوك المتأخرين عهدوا بكثير من شئون الحكم

---

(١) ما زال هذا الاسم باقيا فى لقب ملك الفرس (الشاه) ، وفى لفظ (سترب) الذى يسمى به حكام الأقاليم فى فارس ، وفى لفظ « كشاتريا » الدال على الطبقة الحاكمة فى الهند .



شكل (٨) وهو يبين بعض حراس الملك الفارسى

إلى الأشراف الخاضعين لسلطانهم أو خدم قصورهم ، وتفرغوا هم للحب والصيد ولعب الميسر ، فصار القصر ميدانا للعبث والفساد ، وحبك الدسائس ، وتدبير المؤامرات ، على حساب الشعب المسكين .

وإلى جانب قوة الملك ، كانت توجد قوة الأعيان ، فقد ربط الملك أفراد الطبقة الموسرة بالعرش ، فكان هو الذى يهبهم الضياع ، ويؤلف من الأشراف مجلسا يستمد منه المشورة فى أكثر الأحيان ، وكان هؤلاء هم الواسطة بينه وبين الشعب ، وكان لهم فى إقطاعاتهم سلطان يكاد يكون مطلقا ، فكانوا يسنون القوانين ، وينفذون أحكام القضاء ، ويجبون الضرائب ، ويحتفظون بقواتهم المسلحة ، فى مقابل أن يمدوا الملك بالمال والعتاد فى وقت القتال .

وبلغ نفوذ الفرس غايته فى عهد دارا الأول ، فامتد من البحر الأبيض ، إلى نهر السند وأواسط آسية ، وشمل مصر وفلسطين وسورية ، وفينيقيا وليديا وأرمينية

والقوقاز ، وآشور وبابل وميديا وفارس ، وأفغانستان ، وبلوجستان ، وجزءا من الهند وغيرها من الولايات الواقعة بين هذه الحدود .

وقد استعان الملك بالجيش ، وبما ابتدعه من نظم فى حكم هذه الولايات المختلفة .

وكان مقر الحكومة المركزية إقليم فارس ، حيث كان يوجد الملك كرئيس للجهاز الإدارى ، وكان يوجهه فى سرعة ودقة ليصل إلى الهدف المقصود ، وهو السيطرة على الولايات ، حتى لا تخرج عن طاعته ، وكان يستعين فى ذلك بقوته وشجاعته وسلطانه .

وكان القانون مستمدا من إرادة الملك وقوة جيشه ، وكان الناس يعتقدون أن الملك ملهم ، يستمد أحكامه من إله الخير « آهورامزدا » وقد أنشأ هذا فكرة أن المشيئة الإلهية أساس لقوانين المملكة ، وأن من يخالف ذلك يعد آثما فى حق الإله الأعظم .

وكان الملك يدير شئون ولاياته وهو مقيم فى واحدة من عواصمه الكثيرة التى كانت أشهرها « بازارجاده[1] » و « پرسبوليس[2] » ، واكباتانا — وكانت مقره الصيفى — ، ومدينة « السوس[3] » .

وقد ساعد تقسيم الدولة إلى ولايات على تسهيل إدارتها ، وجباية الضرائب منها ، فأناب الملك عنه فى كل ولاية حاكما خاضعا لسلطانه كان يعرف باسم «سترب» كما أرسل إلى كل ولاية قائدا ليسيطر على القوات المسلحة فيها ، كما نصب فى كل ولاية « كاتبا » كان يعرف باسم « دبير » وجعله مستقلا عن الحاكم والكاتب ، وكلفه بإرسال تقارير عنهما لكى يثق فى ولائهما ثقة تامة . هذا فضلا عن عيون الملك الذين كانوا يقصدون فى أى وقت من الأوقات إلى أية ولاية يشاءون ، لمعرفة أحوالها ، وفحص سجلاتها وماليتها .

وكان يوجد — فى كل ولاية — جمع من الكتبة يتبعون الحاكم والكاتب ، ويقومون بأعمال الحكومة العادية .

وكان سكان كل ولاية يقومون بدفع مرتبات الموظفين الذين يعملون فيها ، وكانت مرتبات سخية تمكن الحاكم من المعيشة المترفة .

وكانت الولايات فضلا عن ذلك تتعهد بإرسال قدر محدود من النقود على سبيل الخراج ، مما أدى إلى إمتلاء خزائن ملوك الفرس بالأموال التى لم تنفد رغم كثرة ما قاموا به من حروب .

---

(١) تعرف هذه المدينة فى الفارسية باسم « تخت مادر سليمان » .

(٢) يطلق على هذه المدينة بالفارسية اسم « تخت جمشيد » .

(٣) كانت هذه المدينة عاصمة العيلاميين ، وكانت زاخرة بكثير من مظاهر حضارتهم .

أما فيما يتعلق بالقضاء فإن الملك كان يعد رئيس القضاء فى أعلى مراتبه ، وكان — فى العادة — يعهد بمهمة القضاء إلى بعض الشيوخ المتفقهين من حاشيته ، وكانت توجد « محكمة عليا » تتلو الملك فى مرتبته القضائية ، وتليها محاكم محلية كثيرة تنتشر فى أرجاء المملكة . وكان رجال الدين يضعون القوانين اللازمة لهذه المحاكم ، وظلوا مدة يشتغلون بالقضاء ، وصياغة القوانين وتنفيذ الأحكام .

وكانت وظيفة القاضى محترمة جدا ، مما دعاهم إلى محاربة الرشوة ، وجعل تقديمها أو قبولها من الجرائم التى يعاقب عليها بالإعدام .

وقد تمتعت الولايات التى خضعت للفرس بشىء من الحرية ، فقد سمح لكل ولاية باستعمال لغتها الخاصة ، وعاداتها وتقاليدها ، ودياناتها وعملتها ، بل استطاعت فى كثير من الأحيان الاحتفاظ بالأسرة الحاكمة فيها ، فأدى هذا إلى رضا بعض الولايات — كبابل وفلسطين — بالحكم الفارسى ، وعدوا أنفسهم فى ظله أحسن حالا من البقاء تحت سيطرة قادتهم الذين كانوا يرهقونهم بكثرة جباية الضرائب .

ومهما يكن من شىء ، فقد ظل هذا ناجحا فى دائرة البحر الأبيض ، فاقتبست روما كثيراً من أساليبه فى السياسة والإدارة بعد ذلك .

* * *

الجيش :

كان الجيش هو السند الأول للملكية فى بلاد الفرس ، فاستطاعت به أن تحافظ على كيانها ، وكان من الواجب أن ينضم إليه كل ذكر سليم بين الخامسة عشرة والخمسين من عمره ، وأن يشترك فى القتال إذا أعلن فى أى وقت من الأوقات .

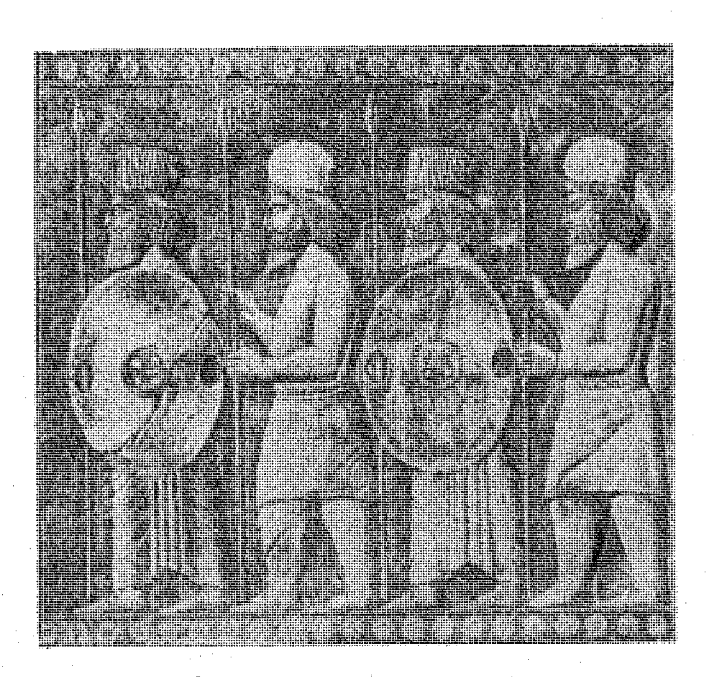
وكانت الخدمة العسكرية إجبارية لا يستطيع إنسان أن يتخلف عنها بحال من الأحوال .

وكان الجند يخرجون إلى القتال فى جلبة الموسيقات الحربية الصاخبة وتهليل الأهلين الذين تخطوا سن الحرب والنزال .

وكان الجيش يخضع لإشراف « الحرس الملكى » الذى كان يضم عددا من نبلاء القوم وسادتهم ، وكان قوامه ألفين من الفرسان ، وألفين من المشاة ، وكانت مهمتهم حراسة الملك والمحافظة على حياته .

وكان الجيش الأساسى يتكون من الفرس دون غيرهم ، وكان جنوده هم وحدهم الذين يعتمدون عليهم فى صيانة الأمن فى أنحاء الدولة .

وكان يوجد — إلى جانب هذا الجيش — جيش عام ، كان يضم فرقا مختلفة ، كانت تبعث بها الأقطار الخاضعة للحكم الفارسى ؛ وكانت كل فرقة تحتفظ بعاداتها الحربية وتقاليدها ، كما تحتفظ بأسلحتها ، ولغتها القومية ، وقد أدى هذا إلى أن صار الجيش العام مختلف العدة والعتاد والتنظيم ، فانعدمت الوحدة بين صفوفه انعداما كاملا كما صار عدده كبيرا جدا[1] فى كثير من الأحيان .



شكل (٩) ويبين بعض جنود الفرس القدماء وهم على أتم استعداد للقتال .

وكان لكل ولاية جيش خاص ، يتعهد بحمايتها ، والذود عنها ، ويتولاه قائد يعين من قبل « ملك الملوك » .

وقد استعان ملوك الفرس بالجيش فى حكم الولايات ، والقيام بغزواتهم المختلفة ، وكانت كثرة عدد الجيش ، ومقدرته على استيعاب القتلى الذين يسقطون فى ميادين

---

(١) ذكر هيرودوت أن عدد الجيش الفارسى فى إحدى حملات « اكزرسيس » على اليونانيين كان يقرب من مليونين من الجنود ، وإن كان ما ذكره لا يخلو من المبالغة لأنه — كيونانى — أراد أن يبرز هزيمة بنى وطنه أمام الجيش الفارسى .

القتال من العوامل التى ساعدته على الغزو والانتصار ، ولـكن انعدام الوحدة بين صفوفه ، عجل بهزيمته فى عهود الضعف ، ويسر القضاء على دولة الفرس .

* * *

الضرائب :

كان نظام الضرائب من أهم النظم التى ابتدعها دارا الأول فقد حدد لـكل ولاية مقداراً من المال يقتضيه منها كخراج .

وكان هذا النظام من أحسن الأنظمة لأنه لم يكن معروفا من قبل ؛ فقد كانت العادة أن يستولى الوالى على المال الذى يستطيع أن يأخذه من الأهالى ، فـكان الوالى كثيرا ما يرهق الأهالى بجباية الضرائب ، ويضطهدهم اضطهاداً شديدا .

كما ابتدع « دارا » سك النقود لأول مرة ، وما زالت العملة التى ضربها موجودة فى المتاحف إلى وقتنا هذا .

وكانت الضرائب تقدر على حسب حظ الولاية من الثراء والخصب ، وكانت تحصل سنويا فى صور مختلفة ؛ بين نقود ، وغلات ، وحيوانات وطيور ، وفتيان .

فـكانت الهند ترسل ٤٦٨٠ وزنة[1] ، وآشور وبابل ١٠٠٠ وزنة ، وولايات آسيا الصغرى الأربع ١٧٦٠ وزنة ؛ وكانت مصر ترسل قمحا يكفى لإطعام ١٢٠٫٠٠٠ رجل ، ويرسل الميديون ١٠٠٫٠٠٠ رأس من الغنم ، ويقدم الأرمن ٣٠٫٠٠٠ دجاجة ، ويبعث البابليون بخمسمائة من الفتيان الخصيان .

وقد تضخم الدخل العمومى — فى الدولة الفارسية — تضخماً كبيرا ، بحيث أن الإسكندر — حين استولى على العواصم الفارسية وجد فى الخزائن الملكية قدراً طائلا من المال رغم كل ما أنفقه ملوك الفرس ، وما قاموا به من مئات الحروب فى أثناء عهد الدول الأكمينية .

* * *

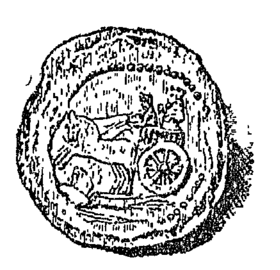


قطعة من النقود فى عهد دارا الاول

(١) قدرت قيمة الوزنة بما يقرب من ٢٣٥ جنيها ، كما قدرت زنتها بستة آلاف درهم .



عملة فضية ضربت فى العصر الأكمينى



عملة ذهبية فى العصر الأكمينى

شكل (١٠) وهو يبين نماذج من العملة الفارسية القديمة .

الأسطول :

تشير بعض الكتب إلى أن الفرس كانوا يخشون البحر ، ولكن القرائن التى بين أيدينا تثبت غير ذلك ، وتبين أنهم كانوا يعرفون البحر من قديم الأيام ، وأنهم كانوا يعبرونه فى سفن فينيقية .

وقد ذكر هيرودوت أن الفرس قاتلوا فى موقعة سالامين البحرية أحسن من المصريين والفينيقيين .

كما روى أن دارا الأول أرسل — قبل هذا التاريخ — هيئتين استكشافيتين لدراسة البحار ؛ فأرسل هيئة من الهند إلى البحر الأحمر ثم إلى بحر المغرب عن طريق النيل ، وهيئة من سواحل بحر الجزائر إلى اليونان وإيطاليا . وكان يهدف إلى أن تسود بلاده البحار كما سادت أرض العالم . ولم تكن هذه المهمة سهلة بالنسبة لأهل فارس القرويين الذين كانوا يعيشون بعيدين عن البحار ، فقد كانت تفصل بينهم وبينها حدود يابسة ، فقبل دارا أن يعمل الملاحون — من أهل الأمم التابعة للفرس — فى خدمة الدولة ، فأرسل فى حدود عام ٥٠٠ ق . م من يستكشفون البحار المهمة .

وكان يريد أن تشق قناة السويس لتنشط الملاحة ، ويتسع ميدان التجارة ، ويزداد اختلاط الأمم بعضها ببعض ، وكانت قناة السويس قد حفرت فى الأزمنة القديمة بواسطة

المصريين ثم ردمت بمرور الزمان ، فسعى دارا إلى إعادة حفرها لتصل مصر بالبحر الأحمر ، وقد دلت الآثار المكتوبة على الأحجار التى تركها دارا بالقرب من قناة السويس على أنه حفر هذه القناة لتصل إيران بمصر وأنه أمر السفن بالتوجه من مصر إلى إيران ، ولعله أراد بذلك أن يجعل بلاده تساهم بنصيب وافر فى التجارة لوقوعها بين مصر والهند .

كما أرسل « اكزرسيس » هيئة استكشافية ، برئاسة رجل فارسى اسمه « سداسب » لتسافر حول إفريقية ، فعبرت جبل طارق .

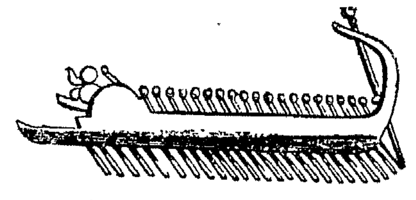
وفضلا عن هذا كله ، فإنه توجد — فى اللغة العربية — كلمات واصطلاحات فارسية خاصة بالملاحة ، ويبدو أنها انتقلت من اللغة الفارسية إلى اللغة العربية فى عهود الخلفاء العباسيين .

وكل هذه القرائن تؤيد أن الفرس كانوا يعرفون الملاحة ، ويركبون البحار ، قبل الفتح الإسلامى بمئات السنين ، وإن كان من المرجح أن الملاحة — عندهم — لم تبلغ ما بلغته وسائل النقل البرى ، فلم يكونوا يملكون أسطولا خاصا ، بل كانوا يستعملون سفن الفينيقيين واليونانيين أو يستولون عليها لأغراض حربية .

وقد ذكر هيرودوت أن الفينيقيين ، والمصريين والقبرصيين ، والسيليسيين والسوريين والبمفيليين ، ويونانيي آسـيا الصغرى والجزائر ، كانوا يخدمون فى البحرية الإيرانية .

وقد ورث الفرس فى العصر الأكمينى الدول البحرية فى آسية الصغرى ومصر ، كما ورثوا قوات هذه البلاد ؛ ولذلك فإن نفس المقتضيات التى أوجدت الأسطول فى هذه البلاد قد ساعدت على إيجاده فى دولة الفرس الواسعة .

وكان للفرس سيطرة كاملة على البحر الأبيض المتوسط والمحيط الأطلنطى فى المدة التى تقع بين ٥٢٥ و ٣٣٠ ق . م ، فعملوا على توسعة خطوط التجارة البحرية بين الأمم وحراستها .



شكل (١١) وهو يبين إحدى السفن الحربية الفارسية



شكل (١٢) وهو يبين اثنين من القناصة من الفرس

وقد أدى الملاحون المصريون واليونانيون — الذين كانوا يشتغلون فى خدمة الدولة الفارسية — خدمات جليلة للملاحة ، وكانت الدولة تعاملهم بالحسنى — مما شجعهم على الإخلاص فى خدمتها .

وكان الفينيقيون — فى ذلك الوقت — متفوقين فى طى البحار ، وبناء السفن ، فشجعتهم إيران ، فكانت السفن تصنع فى مصانع الفينيقيين بأمر ملوك الفرس .

وكانت سفن إيران — بقول هيرودوت — أكبر وأسرع من السفن اليونانية ، ويبدو أنه كانت توجد ثلاثة أنواع من السفن ، الأول السفن الحربية وكانت لها ثلاثة صفوف من المجاذيف ، وكان الرجال يصطفون فى ثلاث طبقات ، وكانت حمولة السفينة ثلاثين ومائتى رجل كان منهم مائتان من عمال الزراعة ، وثلاثون من المحاربين ، وكانت تتقدم الأسطول فى وقت الحرب ، لأن لها مقدمة مدببة ، كانت تصدم بها سفن العدو ، فتحطمها .

والنوع الثانى من السفن كان لنقل الجنود والخيول .

أما النوع الثالث فكان صغيرا ، وكان يستعمل لنقل الأمتعة والذخيرة.

وكان الملاحون وكبار الضباط البحريين – كما ذكر هيرودوت — من الفرس دائما ، وكانوا يختارون من القبائل الإيرانية المختلفة .

وكان الفرس يطمئنون إلى الفينيقيين ، ويتخذون منهم مدربين لإعداد الشباب الفارسى للعمل فى البحرية ، غير أنه ليست لدينا معلومات وافية عن طريقة التربية البحرية ، ويغلب على الظن أن المدربين الفينيقيين ، كانوا يدربون الشباب الإيرانى ، ويعدونهم فى صورة تجعلهم على استعداد كامل فى أوقات الحرب والسلم .

* * *

الطرق :

عرف الفرس — منذ القدم — بمهارتهم فى تحسين طرق المواصلات ، ووسائل النقل ، فكانوا يعبدون الطرق ، ويضبطون مقاييسها بالفراسخ ، ويختارونها فى الأماكن الآمنة العامرة بالسكان .

وكانوا بالإضافة إلى الطرق البرية — يعبرون الأنهار الواسعة بواسطة القوارب ، وكان فى استطاعة مهندسيهم أن يبنوا القناطر والمعابر المتينة على نهر الفرات أو عبر البوسفور ، بحيث تتحمل عبور مئات الأفيال عليها .

وقد نظم دارا الأول الطرق بين أنحاء مملكته الشاسعة وبين عاصمته فى ولاية فارس ، وكانت مدينة «سوس» المركز الذى تلتقى عنده الطرق ، ويجلب إليه الثراء . وكان إقليم فارس يتصل بأنحاء الدولة المختلفة بطرق كثيرة .

ومن أهم هذه الطرق طريقان كبيران أنشأهما دارا للربط بين أجزاء مملكته ؛ أما الطريق الأول فكان يمتد من ليديا (آسية الصغرى) ويصل إلى عواصم فارس ؛ بينما كان الطريق الثانى يمتد من مصر إلى فارس ، ثم يمتد غربا حتى حدود الصين .

وكانت لهذين الطريقين أهمية كبيرة فى نقل التجارة من الشرق إلى الغرب ، مما جعل لإيران أهمية تجارية عظمى .

وقد اقتضت المحافظة على الطرق أن تنشأ فيها الأربطة والخانات لتأمين المسافرين ومدهم بما يحتاجون إليه من شراب وطعام . وأدى تأمين الطرق من غارات المغيرين إلى تنظيم البريد ، مما يسر الارتباط بين أجزاء الدولة ، وتبادل الرسائل والمكاتبات بينها .

وكان لإعادة ربط البحر الأبيض المتوسط بالبحر الأحمر — بواسطة فرع من فروع النيل وصلوه بالبحر الأحمر فى عهد دارا كما مر — أثر فى تيسير نقل التجارة .

فكانت تنقل من البحر الأبيض إلى النيل ثم إلى البحر الأحمر ثم إلى المحيط الهندى والخليج الفارسى .

كما كان ربط البحرين الأبيض والأحمر بهذه الوسيلة من الأعمال التى حسنت طرق المواصلات المائية ، وكان الفكرة الأولى التى تطورت حتى أنشأت فكرة قناة السويس فيما بعد .

وكان الفرس ينشئون الطرق لأغراض حربية وحكومية حتى يتيسر لهم — بواسطتها — تثبيت الحكم المركزى والإدارى .

وقد ساعدت هذه الطرق — إلى جانب هذا الغرض — على تشجيع التجارة وتبادل العادات والأفكار والمعتقدات ، ومظاهر الحضارة المختلفة بين إيران والأمم المجاورة لها .

* * *

الديانة :

كان الفرس قديما يعبدون الحيوانات والأجداد والأرض والشمس ؛ وكان هذا الدين يتفق مع دين الهندوس فى كثير من عناصره وآلهته .

وكان أكبر الآلهة عندهم « ميثرا » إله الشمس ، و « أنا هيتا » إله الأرض والخصب والنماء ، و « هوما » الثور المقدس الذى زعموا أنه مات ثم بعث حيا ، ووهب الجنس البشرى دمه شرابا ، ليسبغ عليه نعمة الخلود . وكان الإيرانيون يعبدونه بشرب عصير الهوما[1] المسكر .

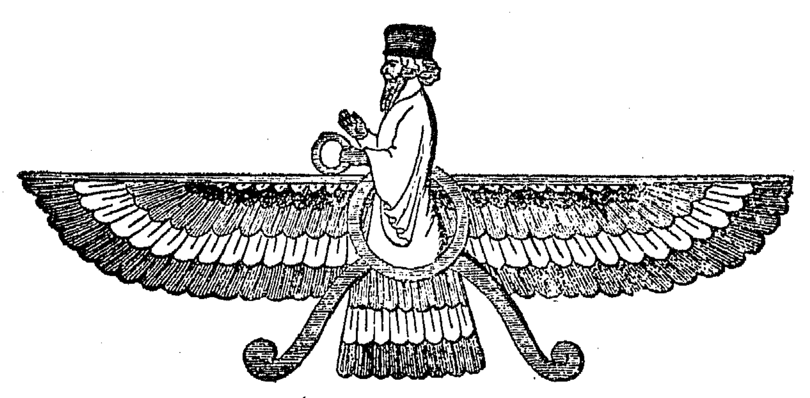
وكانوا — علاوة على ذلك — يقسمون الموجودات إلى قسمين : القسم الأول يشمل الموجودات الخيرة التى تصدر عن قوى الخير وتبعث على السعادة ، ومن مظاهرها : النهار والخصب والصحة والجمال والاستقامة ، وما شابهها .

والقسم الثانى يشمل الموجودات الشريرة التى تصدر عن قوى الشر وتبعث على البؤس والشقاء ؛ ومن مظاهرها : الليل والشتاء والجفاف والقحط ، والأمراض ، والقبح ، والكذب ، وأمثالها كما سبق .

وكانوا يعتقدون أن قوى الخير والشر فى صراع دائم ، ونزاع مستمر ، ولعل هذا هو الذى جعلهم يدينون بآلهة مختلفة ، يعد كل منها مظهرا لإحدى قوى الطبيعة .

---

(١) الهوما عشب ينمو على سفوح الجبال .



شكل (١٣) وهو رمز لإله الفرس آهورامزدا



شكل (١٤) وهو تمثال لزردشت نبي الفرس

شكل (١٥) وهو يبين قبر دارا الأول فى نقش رستم



شكل (١٦) وهو يبين أحد رجال الدين من الفرس فى أثناء العبادة

وقد أدت هذه العقائد إلى ظهور الدين الزردشتى ، فقد هال زردشت — مؤسس هذا الدين — مارآه من هذه الآلهة البدائية ، فثار عليها ، وأعلن فى شجاعة وصراحة أن ليس فى العالم إلا إله واحد ، هو فى بلاده « آهورامزدا » (هرمزد) إله النور والسماء ، وأن ماعداه من الآلهة مظاهر له ، وصفات من صفاته .

وكان زردشت من أهالى آذربيجان ، ومن المرجح أنه شرع فى إصلاح العقائد الرائجة فى إيران فى عام ٦٥٠ ق.م ومما لاشك فيه أنه شخصية تاريخية ، فقد اعترف به اليونانيون ، وقد ظهر قبل الميلاد بمئات السنين .

وتروى الأقاصيص الفارسية أن أمه حملت به حملا إلهيا مقدسا ، فقد شاءت إرادة الله أن يتزوج أبوه وهو رجل من رجال الدين ، بأمه وهى فتاة عريقة النسب رفيعة الشرف ، فينتج عن زواجهما زردشت الذى سيختص برسالة إصلاحية من الإله العظيم .

وتذهب الروايات إلى أن مولده اقترن بالمعجزات ، فلما ولد قهقه عاليا ، ففرت من حوله الأرواح الخبيثة — التى تجتمع عادة حول كل كائن — مضطربة وجلة .

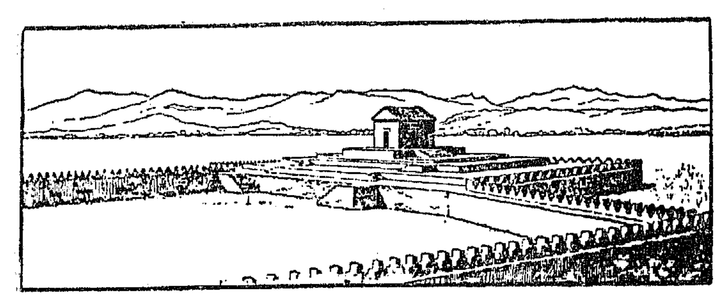
واشتهر زردشت بحبه للحكمة ، وإيثاره لحياة العزلة والاعتكاف ، ويروى أنه صمد للشيطان الذى حاول أن يغريه فلم يفلح ، وآمن زردشت بقدرة « آهورامزدا » إله النور العلى القدير الذى تقول الروايات إنه ظهر له . ووضع « الأفستا » بين يديه ككتاب مملوء بالمعرفة والحكمة ، ثم أمره بنشر التعاليم التى وردت فيه بين الناس جميعا . ولكن القوم سخروا منه وآذوه ، فاضطر إلى التوجه إلى مشرق إيران ، وظل يقاسى صنوفا من العنت والاضطهاد ، حتى استطاع أن يقنع أميرا إيرانيا كبيراً — كان اسمه « كشتاسب » — بدينه ، فآمن به وتعهد بنشره بين الناس ، وبذلك انتشر الدين الزردشتى فى مشرق إيران بفضل حماية « كشتاسب » وعاش زردشت عمرا طويلا ، ثم قضى نحبه ، وارتفع إلى السماء .

ورأى دارا الأول أن ما يدعو إليه زردشت كفيل بأن يوحى بعناصر الخير فى نفوس شعبه ، فجعله الدين الرسمى للدولة .

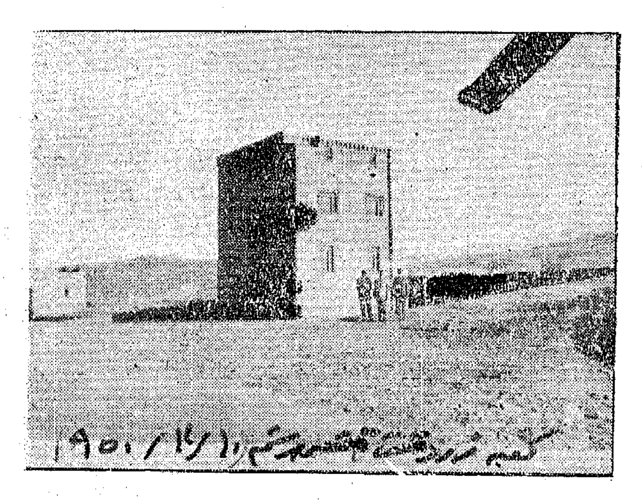
وقد جاء زردشت بكتاب مقدس ، هو فى الحقيقة مجموعة من الكتب تضمنت ماجمعه تلاميذه من أقوال وصلوات ، وهو يسمى بالـ «أفستا» وهى كلمة مجهولة الأصل ، ولعلها مشتقة من الأصل الآرى « فيد » بمعنى يعرف ، فتكون « الأفستا » بمعنى «المعرفة» .

---

(١) يعتقد بعض المؤرخين أن « كشتاسب » هو أبو دارا الثانى الأكمينى المعروف .



شكل (١٧) وهو يمثل أقدم معابد النار عند الفرس



شكل (١٨) وهو يبين كعبة زردشت فى نقش رستم

ولم يبق منها إلا جزء صغير جدا إذا قيس بما أنزله الله على زردشت ، لأن الأخبار الفارسية تروى أن « الأفستا » كانت تشتمل على واحد وعشرين كتابا .

والجزء الباقي من الأفستا عبارة عن مجموعة من الأدعية والصلوات والأغانى والأساطير والوصفات وقواعد الأخلاق ، وهى لا تخلو من الجمال الفنى لما فيها من ألفاظ مختارة ، وإخلاص وترفع فى الآداب ، وتعفف فى الترتيل والإنشاد .

وتبدو العناصر الإيرانية الأصيلة واضحة فى هذه المجموعة فهى تصور العالم على أنه مسرح لنزاع دائم بين « آهورامزدا » إله الخير ، و « أهرمن » إله الشر ، وتقرر أن الطهر والأمانة هما أكبر الفضائل ، وأنهما ينتهيان بالعالم إلى الأبدية والخلود ، وتبين أن « آهورامزدا » هو الإله المسيطر على جميع الكائنات ، وأنه جعل حكمته الإلهية واسطة فى إبداع الخليقة .

وقد ذكر زردشت سبع صفات لآهورامزدا هى : النور ، والعقل الخير ، والحق ، والجبروت ، والقداسة ، والإحسان ، والخلود .

غير أن أتباع زردشت — الذين كانوا من قبل يعبدون آلهة متعددين — مثلوا صفات الله فى صورة كائنات خالدة مقدسة تخلق العالم ، وتسيطر على تنظيمه وحكمه بأمر من « آهورا مزدا » إله الآلهة أو الإله الأعظم ؛ وبذلك تحول مذهب التوحيد إلى فكرة التعدد .

كما أضافوا مجموعة أخرى من الملائكة الحارسين لرعاية كل مخلوق وحفظه .

وكان الإيرانيون القدماء يعتقدون أنه فى مقابل هذه الكائنات المقدسة والملائكة الأطهار — الذين يعينون على الخير — يوجد سبعة من الشياطين أو الأرواح الشريرة تدبم التحليق فى الهواء ، وتسعى جاهدة إلى إغراء البشر بارتكاب الآثام والشرور ، وهى لذلك فى حرب دائمة مع « آهورا مزدا » ، وكل مظهر من مظاهر الحق والخير ، وأن رئيس هؤلاء الشياطين هو « أهرمن » أمير الظلمة ، وحاكم العالم السفلى ، الذى تشبه شخصيته شخصية إبليس فى اليهودية والمسيحية والإسلام .

وأهرمن — فى عقيدة الفرس — هو الذى خلق المعاصى والآثام والظلمة والشتاء ، والثعابين والديدان ، والنمل والجراد ، وما شابهها من الآفات ، وبلايا الحياة ، ليحطم الجنة التى أسكنها آهورا مزدا للسلف الأول من الجنس البشرى .

ودين زردشت يبدو — فى هذه الصورة — قريب الشبه بالأديان السماوية التى لا تعترف إلا بإله واحد ، ولا يقضى على هذا التوحيد وجود الملائكة أو إبليس والشياطين .

وقد خلق آهورا مزدا القوى التى تعمل للخير والحق ، والتى تؤدى الاستعانة بها إلى نشر الفضيلة ، والقضاء على الشر والرذيلة ، وبين أن الأمر سينتهى بانتصار الخير ، واختفاء القوى الشريرة إلى يوم الدين ، وحينذاك يلحق الخيرون بآهورامزدا فى جنة الخلد ، ويسقط أهل الشر فى فجوة عميقة من الظلام ، يكون طعامهم فيها السم الزعاف على الدوام .

وقد صور زردشت العالم فى صورة مسرح يتصارع عليه الخير والشر ، وبين أن النفس البشرية شبيهة — فى ذلك — بالكون ، فهى ميدان تتنازع فيه الأرواح الخيرة ، والأرواح الشريرة ، فقال ، إن فى كل إنسان قوة خارقة تحضه على الأخلاق الفاضلة ، وتدعوه إلى العفة والطهر ، وأنه حر الإرادة ، لأن « آهورا مزدا » شاء أن ينمى شخصيته ، وجعل له أن يختار — فى حرية تامة — بين النور والحق ، وبين الظلمة والكذب ، وهداه إلى معرفة أن أهرمن هو الكذب الخالد ، وأن كل كاذب يعد واحداً من خدامه وأتباعه .

فالإنسان — فى دين زردشت — مسئول عن أعماله لأن فى استطاعته أن يصبح جندياً من جنود الرحمن ، أو تابعا من أتباع الشيطان .

وبين زردشت أن غاية الإنسان ينبغى أن تكون فعل الخير دائما ، وأن طبيعته الخيرة تدعوه إلى ذلك ، وتحول بينه وبين أن يصنع بغيره أمراً لا يحبه لنفسه .

وقد حددت الأفستا واجبات الإنسان ، وحصرتها فى ثلاثة هى : أن يعمل على جعل العدو صديقا ، والشرير صالحا ، والجاهل عالما . وبينت أن أعظم الفضائل هى : الصلاح والشرف والأمانة فى الأقوال والأفعال .

كما قررت الأفستا أن الكفر هو أكبر الآثام ، وأن جزاء الكافر المارق الإعدام السريع .

ورسمت الطريق الذى يجب أن يسلكه الإنسان حتى يتقرب إلى الله ، وحصرته فى التطهر والتضحية والصلاة وبينت أن نهايته الصلاح الذى هو أسمى درجات الفضائل .

ونهت « الأفستا » عن إقامة الهياكل والأصنام ، ولكن معتنقى الديانة الزردشتية أقاموا المعابد على سفوح التلال أو فى ساحات القصور أو فى أواسط المدن ، وأشعلوا فيها النيران المقدسة قربانا للإله « آهورا مزدا » ، ثم بالغوا فى تقديس هذه النيران ، حتى وصل تقديسهم إلى درجة العبادة كما قدسوا الشمس ، وعدوها نار السموات التى لا تخبو .

كما أشارت الأفستا إلى قرب نهاية العالم ، وبينت أن زردشت ولد قبل نهاية العالم بثلاثة آلاف عام ، وأنه سيعقبه بعد ظهور ثلاثة أنبياء من نسله ينشرون دينه فى فترات متباينة ، فيظهر كل ألف سنة نبى بالقرب من بحيرة هامون — فى شرقى إيران — وتكون ولادته بطريقة معجزة ، فتذهب فتاة موعودة إلى بحيرة هامون فى فصل الربيع ، وتستحم فيها ، فتحمل من نطفة زردشت ، ثم يبعث مولودها — وهو النبى الموعود — فى سن الثلاثين بأمر من آهورا مزدا ، فيصلح إيران وينشر العدل والخير ، ثم تتكرر نفس المعجزة مرة أخرى بعد ألف سنة ، ويصلح النبى الثانى إيران مرة أخرى ، وينشر فيها العمران ؛ ثم تتكرر نفس المعجزة للمرة الثالثة بعد ألف سنة ثالثة ، ويبعث النبى الثالث فى وقت تكون الدنيا فيه خرابا ، فتكون القطيعة قد حدثت بين الأب وابنه ، ويكون الجدب قد انتشر ، فالمطر لا ينزل ، والشجر لا يعطى ثمرا ، فيصلح المبعوث الثالث الأحوال عقب ظهوره ، ثم تنتهى الدنيا ، وتقوم القيامة ، ويسود حكم آهورا مزدا ويتحطم « أهرمن » وأتباعه تحطيما كاملا ، وحينذاك تدب الحياة فى الخيرين ، ويبعثون من جديد بعثهم الأخير ، ويخلو العالم من أعراض الشيخوخة والهزال والموت والانحلال إلى أبد الآبدين .

وقد أصبح الدين الزردشتى المصدر الروحى للأمة الفارسية منذ عهد دارا الأول ، وكانت فى ذلك الوقت فى أوج رفعتها .

وكانت هـذه الأسس التى وضعها الدين سليمة ، تصلح لبناء أمة قوية ناهضة ، ولكن أتباع الدين لم يلبثوا بعد ذلك أن أحدثوا فيه أنواعا من التحريف ، جعلتهم يتركون الجوهر ويتشبثون بالعرض .

وقد أكسب الدين الزردشتى رجاله شيئا من القوة والتأثير فى الناس حتى كان ملوك الفرس لا يقدمون على أمر إلا إذا استشاروهم ، وظلوا يتمتعون بقوتهم ونفوذهم طوال عصر الدولة الأكمينية .

***

الفنون :

وقف الفرس أنفسهم على خدمة الدولة ، فصرفوا أغلب أوقاتهم فى الحروب ، وعدوا إجادة فن القتال ، والانتصار على العدو ، من أهم ما يجب أن تعنى به الدولة ؛ فاعتمدوا فى ترقية الفنون على ما يرد إليهم من الخارج .

وحاول الفرس القدماء أن يعلموا أبناءهم فن الحياة فأثر هـذا فى نظرتهم إلى الآداب ، وجعلهم يعدونها متعة غير مجدية ، فلم يهتموا بها ، ولكنهم كانوا يتمتعون

بحس مرهف ، فعشقوا الأشعار والروايات الخيالية ، وتركوا الاشتغال بها لجماعة من المأجورين والمستضعفين ، وكانت أشعارهم تغنى أكثر مما تنشد لأنهم كانوا يحبون الغناء والرقص ، والعزف على العود والناى ، والنقر على الدفوف والطبول .

كما اعتمدوا على الفنانين الأجانب فى صناعة الطرف البديعة ، وكانوا يمتلكون المنازل الجميلة ذات الحدائق الغناء ، ويزينونها بفاخر الأثاث والرياش ؛ من أرائك مغطاة بأجمل الأغطية ، وبسط وسجاجيد ، دقيقة النسج ، ذات ألوان تبهر الأبصار ، وكؤوس ذهبية ، وموائد رائعة تزينها أصص بديعة .

***

وكان رجال الفرس ونساؤهم يجيدون فن التزين ، فيكثرون من استعمال أدوات التجميل ، ومساحيق الزينة ، فاستعملوا الزيوت العطرية لتجميل البشرة ، والأصباغ لصبغ الجفون ، حتى تبدو العيون واسعة جميلة ، وكان ملوكهم لا يخرجون إلى الحرب دون أن يحملوا معهم حقيبة زيوتهم العطرية ، وكانوا يتعطرون بها فى أوقات النصر والهزيمة على السواء .

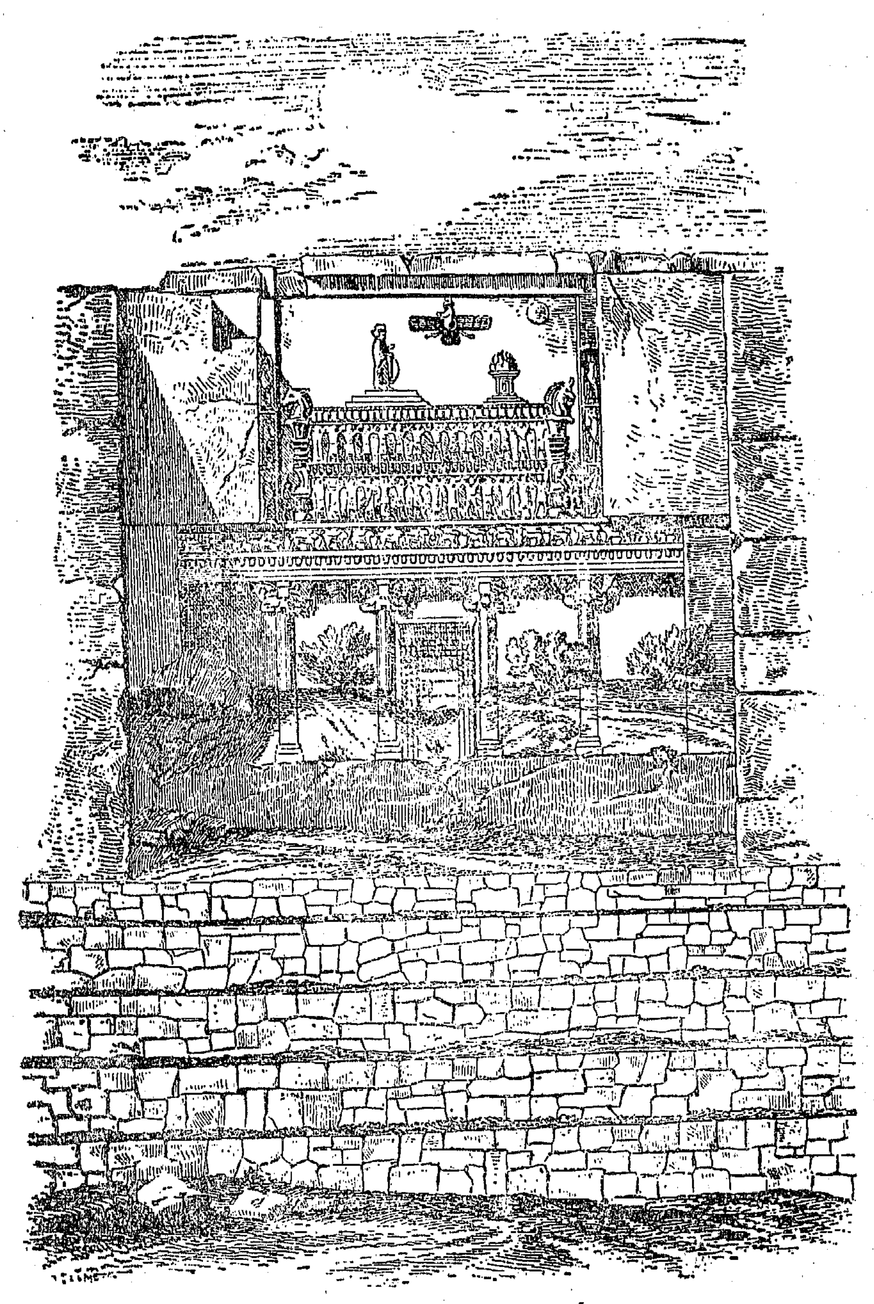
وأجاد الفرس فن صناعة الروائح والعطور ، حتى راج بين القدماء أنهم اخترعوا بعض الأدهنة ، ومساحيق الزينة .

وكانت عندهم أنواع مختلفة من الحلى من تيجان وأقراط وخلاخيل وأحذية مذهبة وكانوا يجلبون اللؤلؤ والياقوت والمرجان من الخارج ، وكثيراً ما كانت توجد بالإضافة إلى ذلك أحجار كريمة ذات أشكال عجيبة .

وكان الملك يجلس على عرش من ذهب ، يقوم على أعمدة من ذهب ، تعلوه مظلة من ذهب . كما كان الرجال يتأنقون بأنواع الحلى يشدونها فى رقابهم أو يعلقونها فى آذانهم وسواعدهم .

* * *

وامتاز الفرس بمهارتهم فى فن العمارة والبناء ، فوصل هذا الفن عندهم إلى درجة من الرقى والكمال ، واشتهروا بطريقتهم الخاصة فى البناء ، وإن الأبنية التى اكتشفت حتى الآن لتشهد بروعة الفن الفارسى منذ أقدم العصور ، ولا زالت هناك آثار كثيرة لم يتم الكشف عنها ، أو لم تكشف بتمامها ، مثل المقابر والقصور التى بنيت فى عهد « قورش » و « دارا الأول » و « اكزرسيس الأول » . وبالرغم من ذلك فإن مقبرة



شكل (١٩) وهو أحد النقوش التي تصور دارا الأول وهو يعبد النار



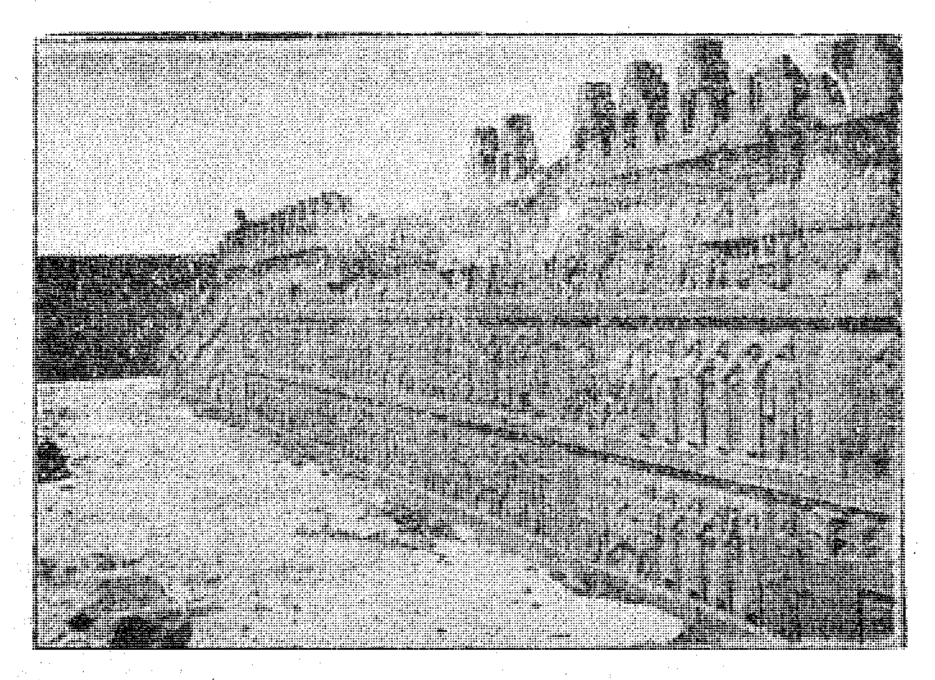
شكل (٢٠) وهو يبين أحد النقوش البارزة بمدينة پرسبوليس

قورش فى « بازارجاده » — رغم تهدمها — آية فى الروعة والجمال وهى تمثل حاله الفن منذ أربعة وعشرين قرنا ؛ كما أن نقش رستم بالقرب من « پرسبوليس » والآثار الموجودة فى هذه المدينة كمقبرة دارا الأول ، تنطق جميعا بما امتاز به الفن الفارسى من حسن وطرافة وجمال ، وهى مثل شاخصة لرقى الفن عند الفرس القدماء .

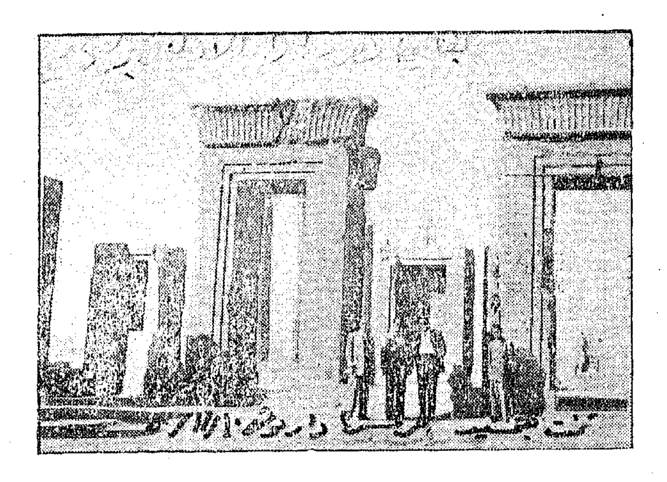
وبالإضافة إلى هذه الآثار توجد أبنية فارسية قدر لها أن تنجو من أفعال الحروب ، والغارات والسرقات ، وتقلبات الأجواء وهى تنحصر فى مجموعة من حطام القصور وبقاياها توجد فى العواصم الفارسية القديمة مثل « بازارجاده » و « پرسبوليس » و « أكباتانا » وهى جميعها تفيد فى دراسة فن البناء ، والإلمام بتطوره فى مختلف العصور .

وتعد مجموعة الدرجات الحجرية والساحة الفسيحة وما عليها من أعمدة شامخة فى مدينة « پرسبوليس » أروع الآثار التى بقيت لنا عن الفن الفارسى القديم .

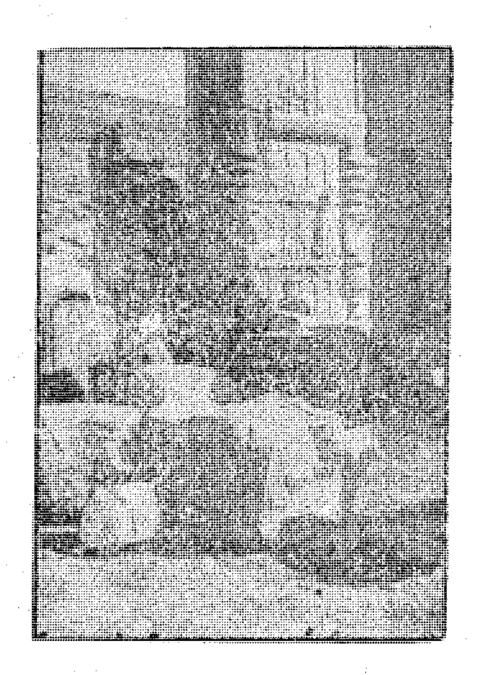
أما الدرجات الخارجية التى تصل بين أسفل الوادى والساحة المرتفعة التى كانت تقام عليها القصور ، فإنها تمتاز بجمال فريد النوع حتى قال بعض علماء الآثار عنها « إنها أبدع



شكل (٢١) وهو يبين ممثلى الدول التابعة لإيران وهم يقدمون للملك الهدايا والضرائب فى عيد النوروز فى نقش بپرسبوليس .



شكل (٢٢) وهو يبين بقايا قصر دارا الأول فى مدينة پرسبوليس



شكل (٢٣) وهو يبين بعض القاعات فى پرسبوليس

درجات موجودة فى أية بقعة من بقاع العالم » . وقد كانت — من غير شك — مدخلا رائعا لتلك الساحة الفسيحة التى اختارها ملوك الفرس لبناء قصورهم الملكية الشامخة ، ويتراوح ارتفاع هذه الساحة بين العشرين والخمسين قدما ، ويبلغ طولها خمسمائة وألف قدم ، وعرضها ألف قدم . وفى أعلى هذه الدرجات يوجد مدخل واسع تحفه تماثيل هائلة لجملة من الثيران ، تعلوها رؤوس بشرية مجنحة ، وإذا تقدم الإنسان قليلا فإنه يجد إلى اليمين قاعة « إكزرسيس الأول » المعروفة باسم « جهل منار » وتقع هى وما يتبعها من حجرات على مساحة تزيد على مائة ألف قدم[1] مربع ، ويرقى الصاعد إلى هذه القاعة مجموعة أخرى من الدرجات ، كانت محفوفة بجدران قصيرة ، نحتت عليها نقوش بارزة تعد من أجمل النقوش البارزة التى عثر عليها فى إيران ، كما تعد قاعدة إكزرسيس من أروع نماذج فن العمارة الفارسى .

ولم يبق من الاثنين والسبعين عمودا التى بنى عليها قصر اكزرسيس إلا ثلاثة عشر عمودا ، مازالت قائمة بين حطام قصره ، وهى أعمدة رخامية . مقطعة الأوصال فى الغالب ، وهى نحيلة دقيقة ، لا يوجد لها نظائر فى أعمدة مصر أو اليونان ، مما جعلها — رغم ذلك — من أبدع ما أخرجته يد الإنسان .

ويبلغ ارتفاعها أربعة وستين قدما ، وهو علو لا تصل إليه الأعمدة الأخرى ، وتشبه قواعدها أجراسا تغطيها أوراق أشجار مقلوبة الوضع ، ومعظم تيجانها فى صورة لفائف من الأشجار يعلوها صدرا ثورين أو حصانين مقرنين يتصل عنقاهما من الخلف وترتكز عليهما عوارض السقف ، يرجح أنها كانت من الخشب لتقوى على تحمل العوارض الحجرية الثقيلة ، وقد صنعت جوانب الأبواب والنوافذ من حجر أسود لامع ينبعث منه بريق يشبه بريق الأبنوس ، وكسيت جوانب الجدران والحوائط بقراميد مصقول رسمت عليه صور زاهية تمثل حيوانات وأزهارا ، بينما كانت الأعمدة وما يوجد من درجات وسلالم أخرى من الحجر الجيرى الأبيض أو المرمر الأزرق الصلد .

وتوجد خلف « جهل منار » وإلى شرقها « قاعة الأعمدة المائة » التى لم يبق من أعمدتها إلا عمود واحد ، وأحجار متناثرة ، لا يستطيع الناظر إليها أن يدرك صورة المكان على أصله إلا بصعوبة ومشقة ؛ ولعل هذين العصرين من أجمل ما شاده الإنسان فى العالم قديما وحديثاً .

---

(١) هذه المساحة تزيد على مساحة معبد « الكرنك » .

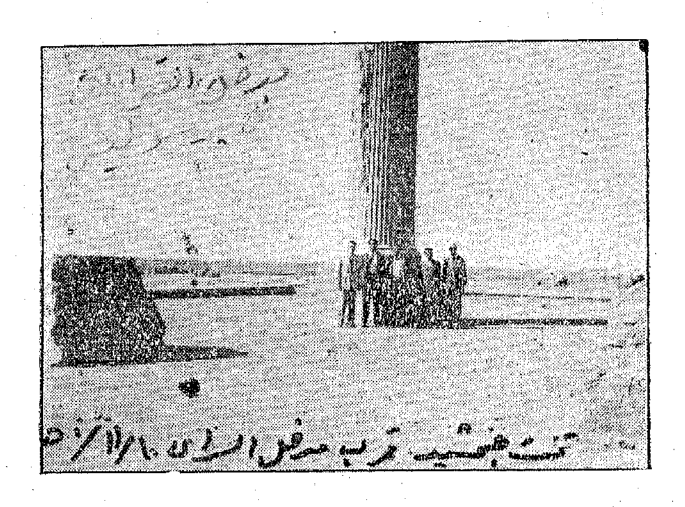
وقد بنى كل من أردشير الأول ، وأردشير الثانى قصرا فى مدينة « السوس » لم يبق منهما إلا أساساها وبعض دعائمهما ، ويبدو أنهما كانا مبنيين من القرميد المكسو بأنصع أنواع القاشانى ذى الألوان البهيجة الزاهية .

وقد عثر المنقبون فى هذه المدينة أيضا على « نقش القناصة » وهم جماعة من المحاربين كانوا يقومون بحراسة الملك والمحافظة على حياته مما جعلهم من أخلص خلصائه ؛ والناظر إلى هذا النقش يلاحظ طلعة القناصة المهيبة ، وأنهم قد أخذوا زينتهم لحضور حفلة فى القصر ؛ فملابسهم تخطف الأبصار بألوانها الزاهية وشعورهم ولحاهم مجعدة تجعيدا عجيبا ، وهم يمسكون بأيديهم رماحهم — رمز مناصبهم الرسمية — فى قوة وخيلاء .

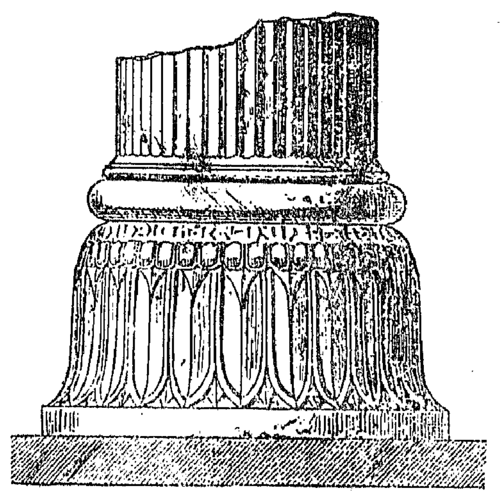
ولم يكن التصوير والنحت فنين مستقلين ، بل كانا تابعين لفن العمارة ، وكانت الكثرة الغالبة من التماثيل من عمل الفنانين الأجانب الذين كانوا يفدون على إيران من آشور وبابل وبلاد اليونان .

* * *

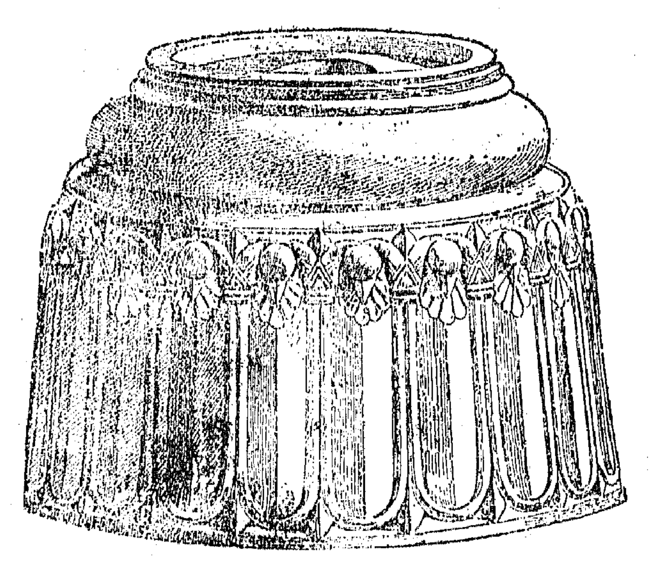
وهكذا نلاحظ أن الفن الفارسى كان — كغيره من الفنون العالمية الأخرى — يستعير عناصره من خارج البلاد ، فاقتبس من الفنون التى كانت عند الأمم المجاورة ، التى كانت تحت سيطرة الفرس مثل ليديا ، وآشور وبابل ومصر ؛ فمقبرة قورش استعير شكلها الخارجى من ليديا ، ونقلت عمدها الحجرية الرفيعة عن مثيلاتها من العمد الآشورية



شكل (٢٥) وهو يبين مدخل القصر الملكى فى پرسبوليس



قاعدة عمود إحدى قاعات القصر الملكى فى سوس.



شكل (٢٤) وهو يبين قاعدة عمود القصر الملكى فى سوس

مع شيء من التحسين ، وبهو الأعمدة الضخمة ، والنقوش قليلة البروز فكرة مستوحاة من المصريين ، وتيجان الأعمدة التي على صورة الحيوان عدوى تسربت إلى الفرس من نينوى وبابل .

ورغم هذا كله ، فقد ظل فن البناء الفارسي يمتاز بميزات خاصة جعلت فن العمارة عند الفرس يتميز بسمات خاصة ، وطابع مستقل ، فصار فنا قائما بذاته يتميز عن غيره من فنون العمارة في مختلف الأقطار . ولعل السبب في ذلك أنه كان فنا يغلب عليه الذوق الأرستقراطي الرفيع الذي جمع العناصر الخارجية كلها ، واستطاع أن يوائم بينها ، لتصبح في صورة جديدة فيها تناسب ورقة ، وأناقة وروعة ، وقد جعل هذا الذوق الفرس يرققون العمد المصرية المهولة ، ويهذبون كتل « أرض الجزيرة » الكثيفة ويحيلونها بريقا ورشاقة ، وتناسبا وتناغما .

وقد حاكى اليونانيون الفرس واقتبسوا طريقتهم في فن العمارة وظهرت العناصر الفارسية في الفن اليوناني ظهورا واضحا ملحوظا ، وبذلك تشابه الفنان الفارسي واليوناني تشابها كبيرا ، ثم نقلت أصول الفن الشرقي إلى الغرب على يد اليونانيين ، وذلك في أوقات ضعف الشرق وغفوته .

(ج) أثر النزاع بين الفرس والإغريق

فى نقل حضارة الشرق إلى الغرب

اشتد النزاع بين الفرس والإغريق منذ أيام الملك الفارسى اكزرسيس الأول (خشايارشاه) ، فقد استطاع هذا الملك أن يوقع باليونانيين هزائم متلاحقة ، أوغرت صدورهم ضد الفرس ، وجعلتهم يتربصون بهم الدوائر ، ويتحينون الفرص للانقضاض عليهم والانتقام منهم .

وقد هيأ النزاع بين أفراد البيت الأكمينى حول ولاية العرش ، وما استتبع ذلك من مؤامرات ودسائس أدت إلى فساد الأحوال فى بلاد الفرس ، وضعفها واضطرابها الفرصة المواتية أمام اليونانيين فأخذوا يناصرون بعض أفراد البيت الأكمينى ضد البعض الآخر ، ولم يكد اكزرسيس الأول يهزم فى موقعة « سلاميس » فى عام ٤٨٠ ق . م ويدير ظهره أمامهم ، ويعود إلى بلاده مهزوما ، حتى أصبح النزاع بين الفرس واليونانيين أمرا متوقعا ، وساعد على ذلك أن الفرس كانوا حينذاك يتولون حراسة الطريق التجارى فى آسية حتى شواطىء البحر الأبيض المتوسط ، بينما كان اليونانيون يتولون حراسة البقية الباقية من هذا الطريق العظيم فكان طبيعيا أن تتحرك الأطماع فى نفوس هاتين الأمتين ، وأن يتوقع قيام الحرب بينهما .

وكانت الأمور فى إيران تسير من سىء إلى أسوأ إلى أن وصل الأمر إلى دارا الثالث الذى كان ملكا ضعيفا مسلوب السلطة ، فى وقت كان الإغريق فيه قد توحدت صفوفهم تحت قيادة الإسكندر ، وصاروا دولة فتية قوية ، فسنحت لهم فرص الانتقام ، ولم يترددوا فى اغتنامها فخرج الإسكندر من بلاده على رأس جيش قوى ، وعبر البوسفور دون أن يعترضه معترض ، وحاول جيش فارسى مكون من أربعين ألف مقاتل أن يصد جيش الإسكندر عندنهر « جرانيقوس » إلا أنه هزم هزيمة نكراء ، بينما تقدم الإسكندر واتجه جنوبا وشرقا ، وظل يفتح المدن تلو المدن ، ويتلقى الجزية فى إثر الجزية ، حتى انقضى على ذلك عام كامل ، استطاع دارا الثالث فى أثنائه أن يجمع جيشا ضخما ، وعبر به الفرات ، ثم التحم بجيش الإسكندر فى مكان اسمه « إيسوس » وانتهى الأمر بهزيمة دارا وفراره ، والقضاء على جيشه .

ثم تعقب الإسكندر دارا ، وتطلع إلى فتح جميع الأقطار الواقعة فى غربى آسية ، فقام بتنظيم البلاد التى فتحها ، وتأمين طرق مواصلاته قبل البدء فى الغزو ، ورحب به سكان بابل وسكان القدس وقدموا له مدينتيهما بما فيهما من ذهب وفضة .

وأحس دارا بأنه لا طاقة له بدفع الإسكندر ، فأرسل إليه رسالة ، يعرض عليه فيها الصلح ، ويظهر استعداده لدفع مبلغ كبير من المال ، وتزويجه ابنته ، والاعتراف له بالسيادة على جميع الأراضى الآسيوية الواقعة غربى الفرات ، غير أن الإسكندر رفض عرضه فاضطر إلى جمع جيش آخر لقتاله .

واستطاع الإسكندر فى تلك الأوقات أن يستولى على مدينة « صور » ، وأن يفتح مصر ويضمها إلى منطقة نفوذه ، ثم أخذ - بعد ذلك — يخترق أراضى الدولة الفارسية فسار جيشه من بابل إلى مدينة « السوس » واستولى عليها فى سهولة ويسر ، ثم تقدم نحو « پرسبوليس » وأخذ حراسها على غرة ، ووضع يده على المدينة واستولى على خزائنها ثم أحرق القصور ، وأمر بالإغارة على المدينة ونهبها .

ثم توجه الإسكندر بعد ذلك إلى الشمال لقتال « دارا الثالث » الذى كان قد استطاع جمع جيش كبير من ولاياته الشرقية ، لعله يتمكن من الصمود فى وجه الإسكندر ويحافظ على كيان دولته فى وجه أوروبا الناهضة .

وهكذا حاولت آسية العجوز أن تدفع عن نفسها أوروبا الفتية فالتقى الفرس بجيش الإغريق عند « كوا كميلا [١] » وكان جيش الفرس خليطا مختل النظام ، بينما كان جيش الإغريق حسن التدريب ، دقيق التنظيم ، قوى العدد ، فاستطاع الإسكندر بتفوق أسلحته وحسن قيادته وشجاعته أن يبدد شمل جيش الفرس فى يوم واحـد ، واختار دارا الفرار مرة أخرى لينجو بنفسه ، غير أن بعض قواده نقموا عليه لجبنه ، فتتبعوه حتى قتلوه .

وقد ساء هذا العمل الإسكندر ، فأمر بقتل هؤلاء القواد الخائنين ، وأرسل جثة دارا مكرمة إلى « پرسبوليس » فى موكب حافل ، وأمر أن تدفن بنفس المراسم التى كانت معروفة لدى ملوك الأكمينيين وسرعان ما انضوى الشعب الفارسى تحت راية الإسكندر إعجابا منه بكرم أخـلاقه ، ونضرة شبابه ، ودان له بالطاعة والولاء ، فنظم

---

(١) هى مدينة تبعد ستين ميلا عن « إربل » ولذلك فإن هذه الموقعة تسمى أحيانا بموقعة « إربل » .

الإسكندر شئون فارس وجعلها ولاية من ولايات الدولة المقدونية ، وترك فيها حامية قوية لحراستها وولى وجهه بعد ذلك صوب الهند ، متطلعا إلى فتحها .

وهكذا وضع الإغريق أيديهم على مصر والشرق الأدنى واستغرقت بلاد الشرق الأدنى فى نوم عميق ، وأسلمت تراثها الحضارى الخالد إلى الإغريق ليقتبسوا منه ، ماشاء لهم أن يقتبسوا ثم ينقلوه إلى الغرب .

والحقيقة أن غزوات الإسكندر كانت بداية لمرحلة من الصراع بين الغرب والشرق ، وهى مرحله تطلع الغرب فيها إلى السيطرة ، ومنذ ذلك الحين . والنزاع يتجدد فى صور مختلفة . وكان الشرق حتى عهد دولة الفرس متغلبا فى أكثر الأحيان ، ولكن الإسكندر تمكن بحروبه المتعددة ، من تحويل دفة سير الحضارة ، وترجيح كفة الغرب ، الذى أخذ يتغلب ويتقدم بينما أخذ الشرق يضعف ويخمد .

ويروى أن الإسكندر فكر فى التوفيق بين الشرق والغرب ، فتزوج من أميرتين شرقيتين وتطبع بطباع الشرق وخاصة بالطباع الفارسية ، كما أمر عددا كبيرا من رجاله بالزواج من فارسيات حتى يتم المزج بين الفرس والإغريق ، وأنه اتبع نفس النظم التى كانت بلاد الفرس تحكم بها فى أثناء عهد الدولة الأكمينية ولكن موته السريع قطع كل تلك المحاولات ، ولم يخلف لنا إلا النزاع الدائم الطويل — الذى استمر تسعة قرون أخرى بين الفرس والروم البيزنطيين وهو النزاع الذى دام فى عهد من خلفه من الملوك ، والذى انتهى على أيدى العرب بعد ذلك .

والواقع أن النزاع بين الفرس والإغريق كان له أكبر الأثر فى نقل الحضارة الشرقية إلى الغرب ، فقد ورث الإغريق حضارات بلاد الشرق الأدنى ومصر ، ولم ينشئوا الحضارة إنشاء ، لأن ما ورثوه منها كان أكثر مما ابتدعوه ، بل إنهم كانوا الوارث المدلل المتلاف لذخيرة من الفن والعلم مضت عليها ثلاثة آلاف من السنين ، وجاءت إلى بلادهم مع مغانم التجارة والحرب إثر نزاعهم مع الفرس الآريين ، الذين كانوا قد اقتبسوا من مظاهر حضارات بابل ومصر . .

وكانت بلاد الشرق الأدنى ومصر — كما رأينا — مركزا للحضارات الراقية التى وصل إلينا علمها منذ أقدم العصور ، فجميع بلاد آسية الجنوبية الغربية الممتدة جنوبى روسيا والبحر الأسود ، وغرب الهند وأفغانستان مضافا إليها مصر كانت مواطن للحضارات الشرقية ، وكانت هذه الحضارات راقية ، فوجدت الزراعة والتجارة ،

والشرائع والحكومات ، والصناعات والحرف ، وسكت النقود ، وارتقى الطب والعلوم الرياضية ، ودرست الهندسة والفلك ، وعرف التقويم والساعات وطرق صرف المياه ، كما عرفت الحروف الهجائية والكتابة ، واخترع الورق والحبر ، وبنيت المدارس والمكتبات ، وازدهرت الفنون من آداب وموسيقى ، ونحت وهندسة بناء ، ووجدت الأديان ، واستخدمت وسائل التجميل من أدهان وحلى إلى غير ذلك من مظاهر الحضارة الرفيعة كما ذكرنا ، وقد انتقلت هذه الأشياء إلى الغرب عن طريق الإغريق ، وظهرت عناصرها فى حضارات الغرب ، ومازالت تشاهد فيها إلى الوقت الحاضر ، وهذه حقيقة يقررها العلماء والمستشرقون فى القرون الأخيرة ، ويشيدون بما للحضارات التى وجدت فى الشرق الأدنى من أثر فى حضارات الغرب . فقد حمل الفرس الشعلة ، وجعلوا نورها يغمر إيران وماجاورها من البلاد التى كانت خاضعة لها ، ثم هزم الفرس على أيدى الإغريق ، ولكن شعلة الحضارات ظلت مشتعلة ، وأسلمها الفرس للاغريق فحملوها إلى الغرب ، فأضاءت فى بلاده ، وكان نورها زاهيا ، بهر أنظار العالم أجمع ، وأصبحت الأجيال الحديثة مدينة للأجيال القديمة بتراثها الحضارى ، وقد كشفت الدراسات المقارنة أن الأوروبيين كانوا تلاميذ اليونانيين فى الحضارة ، وأن اليونانيين كانوا بدورهم تلاميذ الفرس والمصريين وأهل كريت وليديا .

وقد كانت فارس منذ عهد قورش إلى سقوط الدولة الأكمينية دولة قوية ذات حضارة راقية ، فى وقت كانت بلاد اليونان فيه منقسمة إلى أجزاء مختلفة . تتنازعها قوى متباينة ، وكانت روما لا تزال فى المهد ، أما أوروبا فكانت خلف حجب النسيان ، فكان طبيعيا أن يأخذ الإغريق عن الفرس ، وأن يفيضوا على أوروبا بشىء من نورهم الذى اقتبسوه من الفرس .

ولا زالت بعض عقائد الفرس وأفكارهم الخاصة ، تلاحظ عند الأوروبيين ، كما أن نظرة الفرس القدماء إلى الحياة ، واتجاههم الوجهة العملية ، وحرصهم على تعليم أبنائهم فن الحياة ، لازالت تلاحظ عند الغرب ، فقد تأثر اليونان بهذه النظرة ، ثم انتقل هذا التأثر منهم إلى الغرب .

وقد غذى الدين الفارسى القديم نفسه هذه النظرة ؛ فبنى تعاليمه وفلسفته على الأخلاق العملية ، وحاول أن يدفع الإنسان إلى فعل الخير ، وإسعاد المجموع ، فى حرية ، وتنمية لشخصيته ، وأعد أسباب العمران — من زراعة وعمل متواصل — من وسائل العبادة التى يتقرب الإنسان بها إلى الإله الأعظم ، كما اعتبر معوقات الحياة كالظلمة والشتاء

والبرد والآفات من أكبر الشرور والآثام التي يجب أن يحاول الإنسان التغلب عليها ، حتى لايتوقف إنتاجه ، وتشل حركة تقدمه ، وكانت هذه النظرة العملية من العوامل التي ساعدت على رقي الحضارة وازدهارها .

وقد ورث الإغريق هذه الأشياء عن الفرس وقلدوها ، وظهرت سماتها في حضارتهم ، ثم نقلوها إلى الغرب ، فورثتها أوروبا وأمريكا اللتان استمدتا ثقافتهما على مدى القرون عن طريق كريت واليونان والرومان بينما أهملتها دول الشرق ولاذت بالزهد والتصوف ، واحتقار الحياة الدنيا ، فأثر ذلك في حضاراتها . وتمتد جذور ذلك كله إلى فترة النزاع بين الفرس والإغريق ، وما أنتجه هذا النزاع من تأثير في خط سير الحضارة ، وفي اتجاهاته المختلفة .

***

وصفوة القول أن دراسة الشرق الأدنى وحضاراته ، لازمة لدراسة مظاهر الحضارة الحديثة في الغرب ، لأنها تكشف الصلة بين القديم والجديد ، وبين الشرق والغرب ، وتجعلنا ننضم إلى المعتقدين بأن الأجيال الحاضرة مدينة للأجيال الماضية بتراثها الحضاري .


دار مصر للطباعة